AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية
تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية
العدد ٥٨٠- السنة ٥٠ - صفر ١٤٣٣هـ - كانون الثاني ٢٠١٢م

ذاكرة الإبداع

اليونسكو وتحديات المستقبل

الأموريون واللغة الأمورية

الصعلكة والصعاليك

أبو الطيب المتنبي وفيكتور هيغو

المعرفة والتقانة جناحا القوة في عالم اليوم

حلب في المرحلة الكلاسيكية

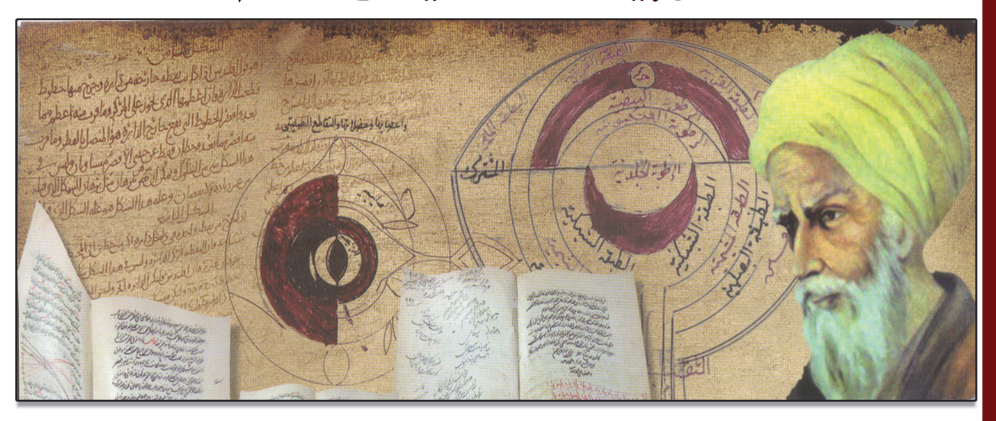
أفاميا/ قلعة المضيق عروس العاصي ودرة الشرق

مع رباعيات الخيّام في ترجمة جديدة

عدد ممتاز

فلاحة من الجزائر للفنان علي الكفري

الحضارة العربية الإسلامية وإحكام العقل



في القرن التاسع الميلادي، وفي العصر العباسي، بنى الإسلام إمبراطورية مترامية الأطراف، امتازت بالقوة والازدهار، وشملت العديد من مختلف الجماعات السكانية والأديان والثقافات، وكانت عملية مواجهة هذا التنوّع تتم بإعمال العقل، ودعم الجهود الرامية إلى الحصول على المعارف القديمة من التراث اليوناني الفلسفي والعلمي، وقد أدّى هذا المناخ الفكري إلى نشأة مذاهب فكرية وعقلانية وفقاً لمنظور أن الإنسان هو مخلوق متميز يختلف عن سائر المخلوقات الأخرى بالنظر إلى أن الله كلّفه وجعل له قدرة وإرادة بحيث يكون حرّاً في خلق أفعاله المسؤول عنها، وهذه الحرية هي التي تتيح للإنسان أن يتصرف وكأنه «خليفة الله على الأرض» والواقع أن الإنسان في حياته الدنيوية لاينبغي له أن ينزوي عمّا يدور حوله، بل على العكس، يجب عليه أن يثبت ذاته، ويبدي روح المبادرة، ويطوّر مواهبه، وذلك من أجل بناء مدينة إسلامية تسودها عوامل التضامن والعدل، وفي هذه المدينة، نلاحظ أن الوجود الدنيوي له مكانته.. إذ إنه يستلزم بقدر الإمكان تحسين الظروف المعيشيّة للناس، وفي هذه المدينة أيضاً يتعلق الناس بما هو جميل، ومن هذا المنطلق عكف فلاسفة وعلماء الحضارة العربية الإسلامية، أمثال: ابن سينا والكندي والفارابي وابن رشد على وضع أفكار مبتكرة رائعة امتد تأثيرها إلى الحضارات الأخرى على مدى قرون طويلة، وتمّ ترجمتها من العربية إلى اللاتينية، ودرّست في جميع الجامعات الأوروبية، وأدّت إلى نشأة الفكر والعلم والمعرفة في عصر النهضة العالمية..

AL - MARIFA
المعرفة
مجلة ثقافية شهرية
تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية
العدد ٥٨٠ - السنة ٥٠ - صفر ١٤٣٣ هـ - كانون الثاني ٢٠١٢م



- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكُتّاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية

- يفضّل أن تتراوح حجم المقال بين ١٥٠٠ - ٤٠٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٤٠٠٠ - ٦٠٠٠ كلمة

- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:

اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصّفحة مع ذكر اسم المحقّق

في حال الكتاب محقّقاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً

ترجو المجلّة من كتّابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم

- ترجو المجلّة أن تردها الإسهامات منضّدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها

- تلتزم المجلّة بإعلام الكُتّاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلّمها. ولا تُعاد لأصحابها

- يُرجى توجيه المراسلات إلى المجلّة على العنوان التالي:

الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة - رئيس تحرير مجلة المعرفة - تلفاكس ٣٣٣٦٩٦٣

سعرُ النسخةِ ٢٥ ل.س أو ما يُعادلها
تُضافُ إليها أجرة البريد خارجَ القطر

www.moc.gov.sy

الإشراف الطباعي : مطابع وزارة الثقافة

في هذا العدد

كلمة الوزارة

ذاكرة الإبداع

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

كلمة العدد

اليونسكو وتحديات المستقبل

د. علي القيّم
رئيس التحرير

الدراسات والبحوث

الإبداع

شعر

قصة

آفاق المعرفة

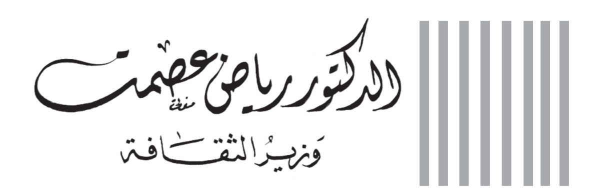
حوار العدد

متابعات

كتاب الشهر

آخــر الكلام





ذاكـــرة الإبـــداع

الزمـن وحـده كفيل بغربلـة النتاج الإبداعي، فكثـيراً ما تجري الحفاوة بأعمـال إبداعية، فتسلط عليها الأضواء الساطعة، وتكلل هامات أصحابها بأكاليل الغار، فما أن يمضي عقد من الزمان أو أكثر إلا وتذوي مكانتها، بل تظهـر عيوبها وسذاجتها، ويصيـب الأفول مكانة مبدعيها، وينحصر تداول أسمائهم في الحلقات الأكاديمية الضيقة فحسب. بالتأكيد، هناك من الأدباء السياسيـين ممـن سعـوا إلى أداء دور في الوقت الراهن وحـده، وعدم المراهنة

على المستقبل. قليل فقط من هؤلاء نجح في ذلك، ليس لصمود النظرية، بل للموهبة الفذة في التطبيق. أما الغالبية، فانطوت أهميتهم مع مرور الزمن، ذلك لأن ذاكرة الإبداع لا تقوى على احتمال أنصاف المواهب، ولا تخلِّد إلا العظيم من الأعمال.

منح الله الإنسان الذاكرة ليحفظ الرائع من الأشياء واللحظات وصور الأشخاص الذين يمرون عبر الحياة. ولكن الله منح الإنسان أيضاً نعمة النسيان. ولولا ذلك التوازن بين الذاكرة والنسيان، لوقع الإنسان في جحيم الجنون. ربما كان الإنسان أكثر المخلوقات عاطفة. معظم المخلوقات تعيش حاضرها بأحاسيس فطرية شديدة القوة، ربما تتفوق فيها غالباً على أية قدرة بشرية. ولكن الإنسان وحده يعيش الحاضر، وذاكرته معلقة بالماضي، وعينه معلقة بالمستقبل. قد يكون لبقية المخلوقات نسبة ضعيفة من التعلق بالماضي، فالحيوانات أيضاً لها عواطف. ولكن ثمة شك كبير في أن تفكر باقي المخلوقات في المستقبل. ربما وجدنا استثناءات صنعها خيال أدباء مثل جورج أورويل في روايته «مزرعة الحيوانات»، أو سي. إس. لويس في روايته الملحمية «نارنيا»، خاصة في الجزء الثاني من أجزائها السبعة، والمسمى: «الأسد، الساحرة، وخزانة الثياب»، والذي حوِّل إلى فيلم شهير افتتحت به سلسلة الأفلام.

بعيداً عن الإبداع نفسه، وإن كانت العواطف هي الملهم الأساسي للإبداع، دعونا نتأمل في حالة المحب إذا فقد حبيبه. لو كانت الذاكرة وحدها موجودة ومهيمنة، فإن عذاب الحياة يصبح أشد من القدرة على الاحتمال. لكن النسيان التدريجي يخفف الألم، ويجعل مسيرة الحياة تستمر. في الوقت نفسه، لا يستطيع أحد أن يتخيل كيف يمكن أن يوجد إبداع قط من دون ذكريات. إننا نعيش الحاضر شكلياً فقط، ولكن معظم حياتنا في كل لحظة نحياها موزعة في حقيقة الأمر بين الماضي من ناحية، والمستقبل من ناحية أخرى. يمكن لأي إنسان أن يخوض هذه التجربة بنفسه، وخلال احتكاكه اليومي بزملائه في العمل أو أفراد أسرته، وسيجد أن معظم أحاديثه، بل تفكيره، وحتى انفعالاته، تتمحور حول الماضي والمستقبل أكثر من الحاضر.

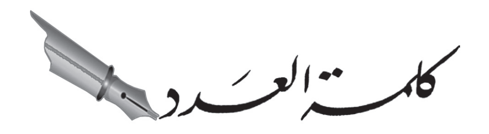
كثيراً ما طرح التساؤل حول تكريم المبدعين، وهل الأفضل أن يكرموا خلال حياتهم، أم بعد الممات؟ هل يجب تأجيل التكريم حتى يبلغوا من العمر عتياً، ويداهمهم مرض عضال، أم أن الإبداع جدير بالتكريم في أي عمرٍ، لأن الإبداع لا يعرف عمراً؟ والسؤال الناجم عن هذا هو:

هل ينتهي المبدع برحيله عن هذه الدنيا الفانية، أم أن رحيله يؤذن بفتح بوابة جديدة لتذكره والاحتفاء بأعماله؟ هنا، تصبح الغربلة حتمية، ويتم التمييز بين الآني والخالد.

تتفاقـم المشكلـة عندمـا ننتقل مـن الأدب المكتوب والفنـون الدرامية البصريـة إلى الأدب الشفوي والمسرح والعروض الفنية الحية بمختلف أنواعها. وسنلاحظ أن مشكلة بعض أعظم إنجازات مسرحنا العربي، وخاصة في مصر ولبنان وتونس، أنها كانت تومض بنور مبهر عظيم لـدى ولادتهـا، ثـم تصبح مجرد تاريـخ آفل. قد يبقـى تسجيل صوتـي، أو في أحسـن الأحوال مرئـي، لكن الأعمـال المسرحية بالذات معرضة للفناء ما لم تحفـظ نصوصها مطبوعة، ليتم إحياؤهـا بـين جيل وآخر. لذلـك، فإن ذاكرة المسـرح العالمي في عواصم ولغـات ثقافات عديدة تحتفـظ بسوفوكليـس وشكسبير وموليير وتشيخـوف وإبسن ولوركا وبيرانديللـو وجورج برنارد شـو وبيكيـت وبرشـت وأونيل ووليامز وميلر، وتحيي إبداعاتهم على الـدوام. لكن من النادر أن تحيـا مسرحيـات الأخوين الرحباني مع فيروز، بحيث يبقى صوتهـا الساحر والموسيقا المبدعة الجميلـة في مكتبـات الأشرطة والتسجيلات وبث الإذاعة والتلفزيون مستعصين على التقليد إلا فيمـا ندر. أيضاً، ندرت المحـاولات لإحياء إحدى روائع مسرحيات الرحابنة، فاقتصر الأمر علـى «الشخصـ» بعرضهـا المصري اليتيم، علـى حد ما تسعفنـا الذاكرة. ينطبـق الأمر على أعمـال رائـدة عديدة للواقعية والتعبيريـة معاً في المسرح المصري لمؤلفـين مثل توفيق الحكيم وأحمـد باكثير وسعد الدين وهبة وميخائيل رومان ورشاد رشدي ونعمان عاشور ويوسف إدريس وألفريـد فـرج ومحمـود دياب وعلي سـالم ونجيب سرور ولينـين الرملي وفـوزي فهمي ومحمد السلمـاوي. وتتضاعـف المشكلة، في الواقع، عندما نتحدث عـن أعمال كتبت بالعامية المصرية بـين إبداعـات هـؤلاء، إذ إن انتشار تلك الأعمـال عربياً –بغض النظر عـن قيمتها الرفيعة– سيـزداد صعوبـة، إلا إذا تم تبنيـه وترجمتـه من عامية مصرية إلى فصحـى، أو من عامية إلى عاميـة، فيتـم إحيـاؤه في عواصم أخرى غير البلد الأم لمبدعها، كمـا حدث مع «رسول من قرية تامـيرا» مثـلاً في سوريـة، حيث ترجمها من العاميـة إلى الفصحى الشاعـر بندر عبد الحميد وأخرجهـا الراحـل فواز الساجر. أما في تونس، فحلَّ «المسرح البديل أو الرافد» متمثلاً في فرقة «المسرح الجديد» في السبعينيات، محل التيار المسرحي الأساسي، فهيمن على الذائقة المسرحية بقـوة أعمالـه التجريبيـة، وألغى العلاقة بين المتفـرج العادي والمسرح العالـمي والعربي المتنوع والشعبي، والذي هو وليد خيال عديد من المؤلفين المحترفين. بالتالي، صارت «الكتابة للركح»،

أي تأليف عرض مسرحي ليؤدى على خشبة مسرح معين من قبل فرقة مسرحية معينة، بديلاً عـن الإبـداع المتخيل القابـل للإحياء من قبل أكثر من فرقة من الممثلـين، وفي أكثر من مدينة عربيـة، وفي عـدة لهجات عاميـة مختلفة. وبينما استلـم المخرج الكبير محمـد إدريس «المسرح الوطني» ليحاول بعملية قيصرية توليد كائن واحد من التيارين المتعارضين للمسرح الرئيس والمسرح البديل، وبينما اتجه الفاضل الجزيري إلى أعمال جماهيرية ضخمة تنبش الفولكلور الشعبـي لتعيـد توصيله لشريحـة الجمهور العريضة بشـكل فني، فإن أغلب تجـارب الفاضل الجعاييـي وتوفيـق الجبالي وعز الدين قنون اتجهت نحـو مزيد من المحلية التونسية، ومزيد من الطليعية والتجريب، ومزيد من الغرابة والإدهاش، ليصبح لها أنصار وأتباع، وتصبح هي التيـار المحـوري المهيمـن، في حين ضمر تأثير تيـار المخرج المبدع المنصـف السويسي، الذي كان يميـل نحـو إحياء النصوص العربية بشكل مجدد وجديد وجماهيري معاً، ومنها نصوص لعز الديـن المـدني. أمـا في المغرب، فكانت تلك هـي مشكلة صمود روائع الطيـب الصديقي، إذ إنها كانـت عروضاً مدهشة ومجددة وأصيلـة، لكنها لم تُعنَ كثيراً بالنص المكتوب. وللأسف، لم نسمع إلا فيما ندر بإحياء نصوص أحمد الطيب العلج، ونصوص عبد الكريم برشيد. ينطبق الأمر أيضاً على بعض تجارب المسرح اللبناني القائم على الارتجال، والذي ترك بعض كبار مبدعيه أعمالاً للذاكرة، وأبرزهم الفنان روجيه عساف على سبيل المثال، لا الحصر. ولكن كثيراً من هذه الروائـع تآكل بحكم عامـل النسيان، وفي طليعتها «أيام الخيام»، ذلك لمجرد أنها أُلّفت ارتجالاً لمنصة معينة، ولفرقة معينة، وفي زمن راهن معين، ولم تحتفظ بنضارة إحيائها في بلدان أخرى وفـرق أخرى وأزمان أخـرى. لا أحد يستطيع أن يراهن على الخلود، فالناس وحدهم –خاصة مبدعـي الأجيـال القادمة– يغربلون ما مضى من إبداعـات، فتصقل الجواهر، وينفض عنها الغبار. في هذا تكمن ذاكرة الإبداع، لأنها مرهونة بعمق وشمولية وخلود الإبداع الأدبي.







اليونسكو وتحديات المستقبل

د. علي القيّم
رئيس التحرير

المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، في دورته السادسة والثلاثين التي عقدت في باريس بين ٢٥ تشرين الأول و١٠ تشرين الثاني ٢٠١١م، كان حافلاً بالقرارات والتوصيات والفعاليات والأنشطة الثقافية، التي تعكس مدى الرغبة العالمية في التعبير عن الذات الإنسانية في تفاعلها مع نفسها ومع الآخرين، ومع الكون بأسره.. لقد جرى في اجتماعات اللجنتين الثقافية والتراثية، التي كان لي شرف تمثيل سورية في اجتماعاتها، التأكيد على التنوّع الثقافي،

ودعم السياسات الثقافية والتنمية المستدامة، والتعايش السلمي بين الشعوب، ووضع الأسس السليمة والفعّالة من أجل تنشيط وتفعيل الحوار بين الثقافات والحضارات، والسعي الدائم نحو بناء ثقافة السلام في العالم، التي يجب أن تبدأ أولاً في عقول الطلاب والشباب في المدارس والجامعات، وثانياً من خلال الحياة الثقافية والفنية والاجتماعية للإنسان..

لقد كانت «إيرينا بوكوفا» مديرة المنظمة، واضحة في دعوتها العالم إلى احترام التنوع الثقافي باعتباره عنصراً محورياً للثقافة الإنسانية في القرن الحادي والعشرين، فهو من مكوّناتها الحيوية في زمن «العولمة» إذ إن الكلّي ليس حكراً على أي ثقافة، بل لكلّ ثقافة إسهامها في توطيد قيمنا المشتركة..

فالظروف الإيكولوجية الجديدة، والمشكلات الأخلاقية التي تطرحها التكنولوجيات الرقميّة، والتكنولوجيات البيولوجية الطبيّة، والأزمات الاقتصادية والسياسية.. كلّ ذلك يشكّل تحديات نطاقها كوكبنا الأرضي، والاستجابات لها تؤدي بالتوافق عبر مهام مشتركة، ولذا يجب على الثقافة الإنسانية التي تظهر هذه الأيام، أن تكون إطاراً لتأملاتنا المشتركة، وللرهانات العالمية..

إن بناء عالم تسوده روح المسؤولية والتضامن، مشروع طويل الأمد، يستوجب أن تنخرط فيه كل القوى الإبداعية التي تمتلكها البشرية، والوسائل لتحقيقه متوافرة، نستمدها من الثقافة ومن التربية والتعليم، ومن الفلسفة والعلوم والمعلوماتية، ومن احترام الحقوق والالتزام بالقوانين، ومن التعاون الدولي.. وعليه فبناء حصون الكرامة الإنسانية في الحياة اليومية أمر ممكن، وليس من نسج الخيال، وهنا يكمن دور الثقافة، ويبرز شعار «أنت موجود.. إذن، فأنا موجود» الذي يعني أن توعية بعضنا البعض بذاتيتنا ككائنات بشرية إنما تتجلى في إطار ثقافي، ومن خلال الثقافة.. واستناداً إلى دراسة الثقافات والمقارنة بينها، نستطيع أن نتوصل بالفعل إلى معرفة العامل المشترك الذي يجمع بينها، وينبغي أن يُكمل «المنعطف الإنساني» و«المنعطف الثقافي» أحدهما الآخر، ويعني هذا أن النزعة الإنسانية يجب أن تستند إلى التبادل الثقافي، وأن تعتمد على الحوار.

ويبدو «المنعطف الإنساني» الذي ترتسم معالمه، في الوقت الحاضر، في العديد من الأوساط العلمية وغير العلمية، يستند إلى ضرورة تجاوز إدراكنا للاختلافات الثقافية، من أجل السعي للتوصل إلى ما يجمعنا، وذلك دون إغفال ما يفرقنا، وبدلاً من تعقب ماهو

عالمي في الطبيعة البيولوجية، أو التفكير في ضرورة ابتكار ثقافة إنسانية عالمية أو في فرضها على الثقافات الأخرى، فإن «المنعطف الثقافي» الحالي يستند إلى المبدأ القائل بأن الأفكار والقيم ذات الطابع الإنساني موجودة بالفعل في جميع الثقافات المختلفة..

❁ ❁ ❁

منتدى «اليونسكو» لقادة العالم، كان موضوعه حول «كيف تسهم اليونسكو في بناء ثقافة للسلام والتنمية المستدامة؟!»، وقد شارك فيه تسعة من رؤساء الدول والحكومات، وستة وخمسون وزيراً ورئيساً للوفود، وقد كان قول فيلسوف الهند «غاندي» شعاره: «ليس هناك طريق يؤدي إلى السلام، فالسلام هو الطريق»، وقد أجمعت الآراء والكلمات والمداخلات في هذا المنتدى على أن التقدم الحاصل حالياً، على الرغم من أهميته وعظمته لا يزال منقوصاً وهشّاً وغير متكافئ، وتتهدده انقسامات خطيرة، ويتضرر العالم من سلسلة من الأزمات العالمية، من بينها الأزمة الاقتصادية والمالية، والأزمة البيئية، وعلى نحو أبرز تغيّر المناخ، والأزمة الغذائية.. ويعوق التقدم في المقام الأول، استمرار الفقر، والنمو المطرد في أوجه عدم المساواة، وتآكل التلاحم الاجتماعي في العديد من بلدان العالم، والتردي المتعاظم في البيئة على الصعيد العالمي، وأصبحت هجرة الناس سمة مشتركة للحياة المعاصرة.. مما أوجد بيئات ثقافية عالمية غير مستقرة، وأدى إلى ضرورة التوفيق بين التنوع الثقافي والتلاحم الاجتماعي في مجتمعات يغلب عليها طابع التنوع أكثر فأكثر، ولا تزال الإمكانية الثرية للتنوع الثقافي، والحوار بين الثقافات غير مستغلة إلى حدّ كبير، ومازال العالم بعيداً عن المثل الأعلى للتلاحم الاجتماعي القائم على الأخلاقيات العالمية المشتركة، ولا تزال الاعتبارات المادية تهيمن على الخطاب الدولي، لذلك لم يعد هناك مفرّ من الاعتراف بأن الأزمات الحالية تفاقمها وتزيد من سعارها أزمة في القيم لا يمكن حلّها إلا إذا سار العالم بعزم وتصميم على الطريق المؤدي إلى ثقافة السلام والتنمية المستدامة، التي لا يمكن الفصل بينهما كنهجين يعزز كل منهما الآخر، عناصرهما الأساسية تتمثل في احترام الحياة، وحقوق الإنسان والكرامة والحريّة والاستقرار والتلاحم الاجتماعي، ووجوب المغفرة والعدالة والتسامح والاحترام المتبادل والتضامن والمساواة بين الجنسين، والحوار الدائم الصادق..

القضاء على الفقر، وتعزيز النمو الاجتماعي والاقتصادي سبيلان استراتيجيان يؤديان

إلى ثقافة السلام، وتحقيق التنمية المستدامة، ويكون الناس في الحالات الاقتصادية الصعبة ضحية سهلة للاستقطاب والتطرف والعنف والنزاعات، وبات من الأهمية البالغة في العديد من دول العالم التي يشكّل الشباب فيها نسبة كبيرة من السكان تعزيز البيئات التي تمكّن الناس من اغتنام الفرص الاقتصادية، والتماس الكرامة عن طريق العمل، ويشكّل السلام والتنمية المستدامة، على الصعيد العالمي، عاملين لا غنى عنهما كي تعمل الدول على تشاطر الرخاء..

وركزت مداخلات منتدى قادة اليونسكو على ضرورة تعزيز الكفاح من أجل تمكين حقوق المرأة، وتأمين مشاركتها السياسية على جميع المستويات، وحصولها على الخدمات الأساسية في التعليم والصحة، كما ركزت على الشباب، النبض الديمقراطي للمجتمعات المعاصرة، بوصفهم عوامل فاعلة لتحقيق السلام والتنمية..

وعلى الرغم من السياق الحالي للأزمات العالمية، فقد نظرت الآراء إلى المستقبل بتفاؤل، فالأزمات المتعددة دليل على أننا نشهد بزوغ عالم جديد يزداد فيه الترابط والتعقّد والتنوع، ويجب علاج المشاكل من منظور إنساني يقوم على احترام حقوق الإنسان والتنوع الثقافي، وعلى ممارسة التسامح والحوار، وبهذه البوصلة الأخلاقية وحدها يمكن إقامة روابط تستند إلى التضامن بين الشعوب وداخل المجتمعات، ولعلَّ التعليم أنجح السبل لبناء ثقافة السلام وتحقيق التنمية المستدامة، وينبغي أن يعتبر التعليم إطاراً قائماً على أربع دعائم هي: التعلّم من أجل المعرفة، والتعلّم من أجل العمل، والتعلّم من أجل البقاء، والتعلّم من أجل العيش معاً، ويجب أن يكون التعليم متاحاً للجميع، وأن يكون جيداً، وأن يسهم في تغيير أساليب التفكير والسلوك من أجل بناء مستقبل مشرق.

❁ ❁ ❁

القضايا التراثية والمتحفية والآثار وحماية التراث العالمي والثقافي والطبيعي، كانت حاضرة بقوة في اجتماعات اللجنة الثقافية لدى مؤتمر اليونسكو، وقد تمَّ تزويد المؤتمر بما قامت به لجنة التراث العالمي من أنشطة وقرارات وفعاليات تهدف إلى زيادة الوعي بالتراث العالمي وضرورة دعمه، وقد بلغ عدد الدول الأطراف في اتفاقية التراث /١٨٧/ دولةً حتى أيار /٢٠١١م/ وبلغ مجموع عدد الممتلكات المدرجة في قائمة التراث العالمي حتى تموز عام /٢٠١١م/ /٩٣٦/ممتلكاً (٧٢٥) ممتلكاً ثقافياً، و(١٨٣) ممتلكاً طبيعياً، و(٢٨) ممتلكاً

مختلطاً، وتقع هذه الممتلكات في /١٥٣/ دولة.

وقدمت في اللجنة الرابعة (لجنة الثقافة) وثائق ومقترحات مهمة لصون المناظر الحضرية التاريخية، التي تعدُّ من بين أكثر مظاهر تراثنا الثقافي المشترك غزارة وتنوعاً.. ذلك التراث الذي أبدعته الأجيال، ويشكّل شاهداً أساسياً على مساعي البشرية ومطامحها عبر الزمان والمكان، ويعتبر أن التراث الحضري أحد العناصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الثمينة للبشرية، وقد رسمت معالمه طبقات تاريخية من القيم التي أنتجتها الثقافات المتعاقبة، وتراكم التقاليد والتجارب المعترف بها كما هي في تنوعها..

لقد نوّهت المناقشات التي جرت في جلسات العمل إلى الطبيعة «الديناميكية» لهذه المدن الحيّة، ويلاحظ أن النمو السريع وغير المراقب في كثير من الأحيان، يغيّر المناطق الحضرية ومحيطها، وهذا ما قد يسبب تفتت التراث الحضري وتدهوره، مع ما يترتب على ذلك من آثار عميقة على قيم المجتمع المحلي عبر أنحاء العالم كافة..

ومن المساعدة على حماية التراث الطبيعي والثقافي، يتعيّن التشديد على استراتيجيات صون، وإدارة وتخطيط المناظر الحضرية التاريخية في عمليات التنمية المحلية، والتخطيط الحضري، مثل: الهندسة المعمارية المعاصرة، وتطوير البنى الأساسية، التي يساعد فيها تطبيق نهج مراعاة المناظر الحضرية على الحفاظ على هويتها.

في هذا المجال، لابدَّ من الإشارة، إلى ما يشهده عصرنا من حركة هجرة بشرية واسعة، حيث يعيش ما يربو عن نصف سكان العالم في مناطق حضرية، وتتزايد المناطق الحضرية باعتبارها محركات للنمو، ومراكز للتجديد والابتكار، فهي توافر إمكانيات للعمل والتعليم وتلبّي احتياجات الناس ومطامحهم المتطورة..

بيد أن توسع المراكز الحضرية توسعاً سريعاً ومن دون رقابة، كثيراً ما يسفر عن التفتت الاجتماعي والعمراني، وعن تدهور شديد في البيئة الحضرية، والمناطق الريفية المحيطة بها، بسبب الكثافة المفرطة في البناء والمباني النمطيّة، وضياع المساحات، والسمات المميزة العامة، وتزايد خطر الكوارث المرتبطة بالمناخ.. لذلك فإن الصون أصبح استراتيجية تعتمد لتحقيق التوازن بين النمو الحضري، ونوعية الحياة بصورة مستمرة..

لذلك وعلى امتداد نصف القرن الماضي، برز صون التراث الحضري كقطاع هام من

قطاعات السياسة العامة في جميع أنحاء العالم، ويمثل استجابة للحاجة إلى الحفاظ على القيم المشتركة، والاستفادة من تراث التاريخ..

وتمَّ إقرار تعزيز إعادة الممتلكات الثقافية إلى بلادها الأصلية، أو ردّها في حالة الاستيلاء غير المشروع، والعمل على توعية الدول الأعضاء والجمهور العام بأهمية حماية التراث والمشاركة في مكافحة الاتّجار غير المشروع بالممتلكات الثقافية، ومن أجل ذلك تمَّ إنشاء قاعدة بيانات بالممارسات الناجحة التي قامت بها بعض الدول في مجال إعادة الممتلكات الثقافية، وقد حظيت هذه الفكرة بتأييد كبير من الدول الأعضاء في اليونسكو.

❁ ❁ ❁

من المواضيع التي ناقشتها وأقرتها جلسات اللجنة الثقافية في المؤتمر العام لليونسكو، إعلان يوم دولي لموسيقى الجاز، التي تتميز بثرائها وغناها الثقافي والإثني، وقد ولدت هذه الموسيقى من رحم التقاليد الموسيقية الأفريقية الأمريكية المتمازجة مع تقاليد موسيقية أخرى، وسرعان ما انتشرت وصارت رباطاً جامعاً للناس، وأصبحت فرقها الموسيقية مثالاً حيّاً ومرئياً للتسامح والتعاون والفهم المشترك، وقد أثبتت موسيقى الجاز خلال القرن العشرين أنها لغة عالمية موزعة على جميع قارات الأرض، تؤثر وتتأثر بأصناف أخرى من الموسيقى، وتتطور كقوة موحدة لهواتها في بقاع الأرض كافة، من دون تمييز بين الأعراق أو الأديان أو القوميات..

وبناء على هذه الأهمية تمّ إعلان يوم دولي سنوي لموسيقى الجاز في /٣٠/ نيسان يتم فيه تنظيم مختلف أنواع الاحتفالات والأنشطة الثقافية والفنية في مختلف أنحاء العالم، مما يساهم بالاعتراف بموسيقى الجاز بوصفها لغة عالمية للحرية..

وبهدف تنمية تعليم الفنون في العالم، والعمل على إبراز أبعادها الاجتماعية والثقافية، تمت الموافقة على إعلان «أسبوع دولي لتعليم الفنون» في الأسبوع الرابع من شهر أيار من كل عام، يتمُّ فيه تنظيم أنشطة وفعاليات ومهرجانات فنية على المستوى الوطني والإقليمي والدولي، مما يعزز مكانة تعليم الفنون في المدارس والجامعات، في إطار خطط «التعليم للجميع» و«التعليم من أجل التنمية المستدامة».

ومن أجل تعزيز الروابط بين التعليم والثقافة، تمَّ إعلان العقد الدولي للتقارب بين الثقافات (٢٠١٣-٢٠٢٢م)، كما وافقت اليونسكو على إنشاء مركز إقليمي للفن المعاصر

في الدوحة، عاصمة دولة قطر، ومركز دولي للغات في «ريكيافيك» بآيسلندا، ومركز دولي للبحوث عن اقتصاديات الثقافة ودراسات التراث العالمي في «تورينو» بإيطاليا، ومتحف دولي للنساء في عالم الفنون بعمّان بالأردن، وأقرَّ مشروع إقامة «المنتدى العالمي للثقافات في مدينة نابولي الإيطالية عام ٢٠١٣م، الذي يرمي إلى تبادل الأفكار والتفكير في موضوعات التنمية المستدامة، والمعارف والتعابير الثقافية، وتندرج الأنشطة المزمع إقامتها في إطار هذا المنتدى الذي سيمتد من ١٠ نيسان إلى ٢١ تموز إلى البحث عن الهوية الثقافية الفريدة لمدينة نابولي، في إطار «ذاكرة المستقبل» ومفهوم المدينة الساحلية وثقافة البحر، ولاسيَّما البحر المتوسط، وسيقسم المنتدى إلى ثلاثة أجزاء رئيسية هي:

- جلسات الحوار، بين جميع فئات الناس، لتكون بمثابة مختبر حقيقي للأفكار.

- معارض، وتضم خمسة معارض كبرى بعلم الآثار، والنهضة، والتقسيمات الثقافية، والفن.. إضافة إلى موضوع «من الحرب إلى الكرامة الإنسانية».

- التعابير الثقافية، في برنامج مليء بالأحداث المكرّسة للموسيقى والمسرح والرقص وأنواع الأداء الحرِّ والافتراضي.

موضوع المؤسسات التعليمية والثقافية في الأراضي العربية المحتلة، خصص ببند في اجتماعات اللجنة الثقافية، تمت من خلاله الدعوة إلى اعتماد قرار يذكّر بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان المتعلّقة بالحق في التعليم، وباتفاقية اليونسكو بشأن حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، ويطالب بتعزيز الجهود لإعادة البناء والتأهيل والترميم فيما يخص المواقع الأثرية والتراث الثقافي الفلسطيني، ويدعو المديرة العامة لليونسكو إلى مواصلة الجهود التي تبذلها من أجل المحافظة على النسيج البشري والاجتماعي والثقافي للجولان السوري المحتل، وتوفير المناهج الدراسية المناسبة، وتقديم المزيد من المنح والمساعدة الملائمة إلى المؤسسات الثقافية والتعليمية في الجولان السوري المحتل.

واحتلت القدس مكانة هامة في مناقشات اللجنة، وخاصة فيما يتعلق بصون تراثها الثقافي القديم، وإقامة معهد لصون التراث المعماري في القدس، وإنشاء مركز لترميم مخطوطات المسجد الأقصى، وصون المتحف الإسلامي وتجديده وإحيائه، والنظر بعين الريبة إلى ما تقوم به إسرائيل من حفريات في حي المغاربة في القدس، لأنها تنال من أصالة الموقع وسلامته وهويته، ومن الملاحظ أن قضية القدس القديمة تطرح منذ سنوات

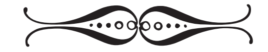
عديدة في مؤتمرات اليونسكو ولجنة التراث العالمي على نحو متكرر، ولكن إسرائيل لا ترد ولا تحترم المواثيق والعهود والقرارات. أما الحدث الأهم في مؤتمر اليونسكو، فقد كان انضمام فلسطين إلى المنظمة العالمية وهذا حلم راود الفلسطينيين والعرب منذ عقود عديدة، لأنه يعني اعترافاً دولياً مدوّياً بحق فلسطين في حماية تراثها العظيم، الذي سعت إسرائيل إلى تهويده بلا هوادة، ويعني أيضاً أن فلسطين ستكون حاضرة وبقوة داخل المؤتمرات والمحافل الفكرية والتراثية والثقافية للدفاع عن إرثها الحضاري (المسيحي والإسلامي)..

لقد حصلت فلسطين على /١٠٧/ أصوات، مقابل /١٤/ صوتاً، وعجزت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية، عن الوقوف في وجه فلسطين، وكانت بحق هزيمة نكراء، وصدمة كبيرة، بل هزيمة ثقافية لأعداء الإنسانية والشرعية الدولية.

ردَّة الفعل الأمريكية الفورية، كانت في إيقاف دفع المستحقات والمساعدات والمساهمات والبالغة ٢٢٪ من ميزانية اليونسكو، أي ما يعادل ٦٥ مليون دولار، مما اضطر المديرة العامة لليونسكو السيدة «بوكوفا» إلى إعلان وقف أعمالها ونشاطاتها التعليمية والثقافية والعلمية والتراثية حتى نهاية عام ٢٠١١م، وتطلب مساعدات الدول والمؤسسات والهيئات العالمية، عساها تقف في وجه فعل أمريكي غير إنساني منحاز بوقاحة إلى إسرائيل.. لقد قبلت «اليونسكو» التحدي، وأعتقد أنها سوف تنتصر بفضل إرادة الشعوب والأمم..

اليونسكو- باريس

(٢٥/١٠/ ٢٠١١- ١٠/١١/٢٠١١م)




الدراسات والبحوث

مسـؤولية المـثقف

نعوم تشومسكي

ترجمة: حسام الدين خضور ✽

ما دمنا غالبـاً لا نرى ما يحدث أمام أعيننا، فربما لن يكون مفاجئاً ألا نرى ما لا يزال بعيداً عنا قليلاً. وقد شهدنا أحد الأمثلة المعبرة: إرسال الرئيس أوباما ٧٩ جندياً من القـوات الخاصة إلى باكستان في ١ أيار للقيام بما هو واضح أنه اغتيال مدبر للمشتبه الأول بالأعمال الوحشية الإرهابية في ٩/١١، أسامة بن لادن. وعلى الرغم من أن هدف العملية، ابن لادن، كان غير مسلح ومن دون حماية، وكان بالإمكان أن يُعتقَل بسهولة، فقد قُتِل ببساطة ورميت

✽ باحث ومترجم سوري.

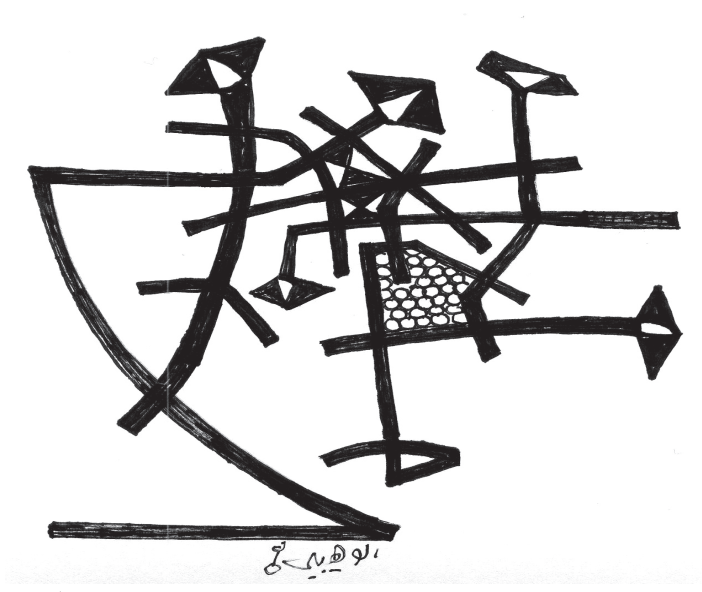
العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

جثته في البحر من دون تشريح. وحُكِم على العمـل في الصحافة الليبراليـة بأنه «عادل وضروري». لن تكون هناك محاكمة، كما كان في قضية المجرمـين النازيين. واقع لم تغفل عنه السلطـات القانونيـة في الخارج التي توافق على العملية لكنها تعارض الإجراءات. وكما تذكرنا إلين سكاري Elaine Scarry، يرجع حظـر الاغتيال في القانـون الدولي إلى شجـب أبراهـام لنكولـن الشديد لهذه الممارسـة، وإدانته من يدعـو إلى الاغتيال واعتبـاره محرومـاً من الحمايـة القانونية الدولية في عام ١٨٦٣م. إن الاغتيال اعتداء وحشي، تنظر إليه «الأمم المتمدنة» «برعب» ويستحق «أقسى أشكال الانتقام صرامة».

في عـام ١٩٦٧م، ناقشـت مسؤوليـة المثقفين، وأنا أكتـب عن التضليل وتحريف الحقائق المحيطة بالغزو الأمريكي لفيتنام، وقـد استعرت العبـارة من مقالـة هامة لِـ دوايت ماكدونالد Dwight Macdonald بعد الحـرب العالمية الثانيـة. وفي الذكرى السنويـة العاشرة لهجمات ٩/١١، والموافقة الواسعـة في الولايات المتحـدة على اغتيال المتهـم الرئيس، يبدو أن الوقت مناسب الآن لإعادة عرض تلك المسألة. لكن قبل التفكير بمسؤوليـة المثقفين، يجدر بنا أن نوضح من نقصد.

اكتسب مفهوم المثقفين بالمعنى الحديث شهرتـه مع بيان المثقفين عام ١٨٩٨م، الذي قدمه أنصار دريفوس، الذين أثارت مشاعرهم رسالة إميـل زولا Emile Zola المفتوحة إلى رئيـس جمهورية فرنسا، التي أدان فيها تلفيق تهمة الخيانة العظمى وكتمان الأسرار العسكريـة ضد ضابط المدفعيـة الفرنسي ألفـرد دريفوس Alfred Dreyfus. ومثال أنصار دريفوس ينقل صورة للمثقفين مدافعين عـن العدالة، يواجهـون السلطة بشجاعة واستقامـة، لكنهم، المثقفين، قلما يبدون كذلـك في الوقت الحاضر. أقلية من الطبقـات المتعلمة، أنصـار دريفوس أدينت بقسـوة مـن الاتجـاه السائـد في الحياة الثقافية، لاسيما مـن الشخصيات الشهيرة بـين «أعضاء الأكاديميـة الأربعين المعادين بقوة للدريفوسية في الأكاديمية الفرنسية»، كما يكتب ستيفن لوكس Steven Lukes. فقـد وصف الروائـي والسياسـي والقائد موريس باريه Maurice Barrès المعادي للدريفوسيـة أنصـار دريفوس «فوضويي المنبر». وعنت كلمة مثقف لآخر من أعضاء الأكاديميـة الأربعين الخالديـن، فرديناند برونتيـير Ferdinand Brunetière، «أحـد الانحرافات الأكثر إثارة للسخرية في زمننا»

. أعنـــي ادعـــاء إعلاء شأن الكتاب والعلماء والأساتذة وفقهــاء اللغـــة إلى مصاف الأشخاص الاستثنائيين، «الذين يتجـــرؤون علـــى معاملـــة جنرالاتنا كحمقى ومؤسساتنا الاجتماعية كشيء عبثـــي وتقاليدنـــا كشيء غير صحي».



من هـــم المثقفون إذن؟ هـــل هم الأقلية التي أثار زولا مشاعرها (الذين حُكِم عليهم بالسجن بتهمة التشهير وهربوا من البلد)؟ أم هـــم الأربعون الخالدون أعضاء الأكاديمية؟ تـــتردد أصداء هذا السؤال عبر العصور، في شكل أو آخر، ويطرح اليـــوم إطاراً لتحديد «مسؤولية المثقفين». العبـــارة غامضة: هل تشـــير إلى المسؤوليـــة الأخلاقيـــة للمثقفين باعتبارهـــم أشخاصاً جديرين بالاحترام في موقـــع يستطيعون فيه استخـــدام امتيازهم ومكانتهـــم لإعـــلاء شـــأن قضايـــا الحرية والعدالـــة والرحمـــة والســـلام واهتمامات أخرى وجدانية مثـــل هذه؟ أو هل تشير إلى الدور الذي يُتوقَّع منهم أن يلعبوه في خدمة القيادة والمؤسســـات الراسخة لا الحطُّ من شأنها؟

❁ ❁ ❁

جـــاءت إحدى الإجابـــات خلال الحرب العالمية الأولى، عندما أيّد المثقفون البارزون في كل طرف دولهم بحماس. في بيانهم، طلب «المثقفون الألمان الـ٩٣»، الشخصيات البارزة في إحدى الدول الأكـــثر تنوراً في العالم، من الغرب «ثقوا بنا! صدقوا أننا سنمضي بهذه الحرب إلى النهاية كدولة متمدنة، إلى الذين لديهم تـــراث غوته وبيتهوفن وكانط مقدس مثل مواقدهم وبيوتهم». ولم يقصر أندادهم في الطـــرف الآخـــر من الخنـــادق الثقافية في الحماســـة من أجل القضيـــة النبيلة، بل

ذهبوا بعيداً في تملق الذات. وفي الجمهورية الجديدة أعلنــوا أن «العمل الفعّال الحاسم باسم الحرب قد أنجزتها... إحدى الطبقات التــي يجب أن توصف بطريقة مفهومة لكن فضفاضة بأنهــا (المثقفون)». اعتقد هؤلاء التقدميــون بأنهــم كانوا متأكديــن من أن الولايات المتحدة دخلت الحرب «بتأثير حكم أخلاقي تم التوصل إليه بعد الحد الأقصى من التشاور بين أفراد المجموعة». كانوا، في الحقيقــة، ضحايا تلفيقــات وزارة الإعلام البريطانية، التي سعت سراً إلى «توجيه فكر معظم العــالم»، وخصوصاً تفكــير المثقفين الأمريكيــين التقدميين الذيــن يمكنهم أن يساعدوا على إثارة بلد أكثر هدوءاً إلى حمى الحرب.

لقد تأثر جون ديــوي John Dewey بـ«درس الحرب السيكولوجــي والتعليمي»، الــذي أثبــت أن النــاس. وعلــى نحو أكثر دقــة، «المثقفين في الجماعة» يستطيعون أن يضطلعوا بالقضايا الإنسانية ويديرونها... بشكل مدروس وعقــلاني «لتحقيق الغايات التــي تمَّ السعــيُ إليها، المثــيرة للإعجاب بالتعريف».

طبعاً، لم يلتزم الجميع بذلك. والشخصيات المتميزة مثل برترانــد رسل، ويوجين دبس، وروزا لكسمبــورغ، وكارل ليبكنخــت حكم عليهم، مثل إميل زولا، بالسجن. وعوقب دبس Debs بقســوة خاصة. مــدة عشر سنوات لطرحه أسئلة عن «حرب الرئيس ولسون من أجل الديمقراطية وحقــوق الإنسان». وقد رفض ولسون أن يمنحه العفو بعد أن انتهت الحــرب، على الرغم من أن الرئيس هاردنغ رقّ في النهاية. ولوحق بعضهم، مثل تورستن فبلِــن Thorstein Veblen، لكن عوملوا بطريقة أقل قسوة. صُرِف فبلن من عمله في إدارة الأغذيــة بعد إعــداده تقريراً يبين أن النقصــ في عمال الزراعة يمكــن أن يُعالَج بإنهــاء الاضطهاد الوحشــي الذي تمارسه إدارة ولســون على العمــال، وبشكل محدد عمال العالم. وأسقطــت الصحف التقدمية راندولــف بــورن Randolph Bourne بعــد النقد الــذي وجهــه إلى عصبة الأمم الإمبرياليــة المطبوعــة علــى «حب الخير» ومساعيها النبيلة.

نموذج الترغيب والترهيب أنموذج مألوف عبر التاريخ: فالجماعــة المثقفــة العامة تمتدح هــؤلاء الذين يصطفــون في خدمة الدولــة، وتعاقب هــؤلاء الذيــن يرفضون الاصطفــاف في خدمة الدولــة. وهكذا في استعادة للأحداث والتأمل فيها يُكرَّم ولسون والمثقفــون التقدميون الذيــن عرضوا عليه خدماتهم بطريقة عظيمة، لكن ليس دبس.

وتمَّ قتل روزا لكسمبــورغ وكارل ليبكنخت، لم يكونا بطلين في الاتجــاه الثقافي السائد، واستمرت معاقبة برتراند رسل بقسوة حتى بعد وفاته. ولا يزال يُعاقَب في السير الذاتية الحالية.

ميَّــز الباحثــون، في سبعينيــات القرن العشريــن، بــين فئتــين من المثقفــين على نحــو أكــثر وضوحــاً. ففي عــام ١٩٧٥م، صنَّفت دراسة، بعنــوان أزمة الديمقراطية، المنحرفين المثيريــن للسخرية لدى برونتيير «المثقفــين الموجهين بالقيمة» الذين يشكلون تحدياً خطيراً للحكومــة الديمقراطية مثل تلــك الأخطار التــي شكلتهــا المجموعات الأرستقراطية والحركات الفاشية والأحزاب الشيوعية في الماضــي. «وبين أعمال شريرة أخــرى، تكرســ تلــك الكائنــات الخطيرة نفسهــا للحطّ مــن شأن القيــادة، وتحدي السلطة»، وهــي تتحدى المؤسسات المسؤولة عن «أدلجة الشبــاب». ويغوص بعضها إلى الأعمــاق في مساءلة نبالة الحرب، كما فعل بــورن Bourne. هــذا العقــاب للأوغاد الذيــن يسائلــون السلطة والنظــام القديم أعلنه الباحثــون في اللجنة الثلاثية الدولية الليبرالية، التي جاء معظم العاملين في إدارة كارتر من صفوفها.

ومثــل التقدميــين الجمهوريين الجدد خلال الحرب العالميــة الأولى، يوسع مؤلفو أزمــة الديمقراطيــة مفهــوم المثقفين إلى مــا هو أبعد من منحــرفي برونتيير المثيرين للسخريــة لتشمل الصنــف الأفضل أيضاً: «التكنوقراطيــين والمثقفــين الموجهــين بالسياسة»، المفكــرون المسؤولون والجديون الذيــن يكرســون أنفسهم للعمــل البناء في تشكيل السياسة داخــل المؤسسات العريقة وضمان أن تسير أدلجة الشباب على المسار الصحيح.

لم يستغرق ديوي إلا سنوات قليلة لينتقل من تكنوقراطي ومثقف موجه بالسياسة في الحــرب العالميــة الأولى إلى أحد فوضويي المنبر، عندما شجب «الصحافة غير الحرة» وتساءل «إلى أي مدى يمكن أن تكون الحرية الفكرية الحقيقية والمسؤولية الاجتماعية في ظل النظام الاقتصادي القائم».

وما أزعــج الباحثين في اللجنة الثلاثية، بشكل خاص، كان «فرط الديمقراطية» خلال فترات الاضطرابات، في الستينيات، عندما دخلت أجزاء سلبيــة ولا مبالية من السكان الحلبــة السياسية للتعبير عــن اهتماماتها: الأقليــات والنســاء والشبــاب والمتقدمون في الســن والعمال... باختصــار، السكان، الذيــن يُطلَق عليهم أحيانــاً تعبير «المصالح الخاصة». ويجب تمييزهم عن هؤلاء الذين

سماهم آدم سميث «سادة الإنسانية»، الذين هم المهندسون المعماريون الرئيسون لسياسة الحكومة والذين يلاحقون «مبدأهم الشرير»: «كل شيء لنا ولا شيء للناس». ودور السادة في الحلبة السياسية لا يُستهجَن، أو يُناقَش، في كتاب اللجنة الثلاثية، على نحو مفترض لأن السادة يمثلون «المصلحة الوطنية»، مثل هؤلاء الذين صفقــوا لأنفسهم لقيادة البلد إلى الحــرب بعد المزيد مــن التشاور توصل أعضاء الجماعــة الأكثر حصافة إلى «قرار حكمهم الأخلاقي».

ولتجــاوز العبء الشديــد الذي فرضته «المصالــح الخاصــة» علــى الدولــة، دعا الباحثون في اللجنــة الثلاثية إلى المزيد من «تلطيف الديمقراطية»، عــودة إلى السلبية من طرف الأقــل استحقاقاً، ربما عودة إلى الأيــام السعيدة عندمــا «كان ترومان قادراً على حكــم البلد بالتعاون مــع عدد صغير نسبياً من محامي ومصرفيي وول ستريت»، ولذلك ازدهرت الديمقراطية.

باستطاعــة أنصار اللجنــة الثلاثية أن يزعموا أنهم مخلصــون للهدف الأصلي في الدستور، «في الجوهر وثيقــة أرستقراطية مصممة لتحــري الميــول الديمقراطية في تلك الفترة» بنقل السلطة إلى «نوع من الناس أفضل» ومنع «هؤلاء الذين ليسوا أغنياء، أو من عائلات محترمة، أو مشهورة من ممارسة السلطة السياسية»، في كلمات المؤرخ غوردن وود Gordon Wood الدقيقــة. لكن في دفــاع ماديسون Madison، يجب أن نميز عقليته كانت ما قبل رأسمالية. في تحديد أن السلطة يجب أن تكون في أيدي «ثروة الأمة» ومجموعة الرجال الأكثر كفاءة، «تصور هؤلاء الرجال من أُنموذج رجــال الدولة المتنورين والفيلســوف المحســن في العــالم الروماني المتخيــل. لا بد أن يكونــوا «أنقياء ونبلاء»، «رجال فكر ووطنية ومال وظروف مستقلة» «الذيــن يمكن لحكمتهــم أن تميز على نحو أفضل المصلحــة الحقيقية لبلدهم، والذين قلما يضحون بوطنيتهم وحبهم للعدالة أمام الاعتبــارات الطارئة أو الحزبيــة. وهكذا هــؤلاء الرجال الذين يتحلــون بهذه المزايا، سيهذبون وجهات نظر المجتمع ويوسعونها»، ويحرسون المصلحة العامــة ضد إزعاجات الأكثريات الديمقراطية. وعلى نحو مماثل، قد يجــد المثقفون الولسونيــون التقدميون راحة في اكتشافات العلــوم السلوكية، التي فسرهــا عام ١٩٣٩م الباحث في علم النفس والتعليــم إدوارد ثورندايــك Edward Thorndike:

إنــه قــدر الإنسانية الجيــد أن توجد علاقــة أساسية متبادلة بين الذكاء والمبادئ

الأخلاقية التي تشمــل الإرادة الطيبة تجاه أصدقــاء المــرء... وبالتــالي هــؤلاء الذين يتفوقون علينــا في القدرة هم في شكل عام المحسنــون عندنا وسيكون أكثر أماناً أن نثق بمصالحنا لديهم أكثر من أنفسنا.

مذهب مريح، مــع أن بعضهم قد يشعر بأن آدم سميث امتلك العين الأكثر حدة. هذا في الوطن.

❁ ❁ ❁

ومــا دامت السلطــة تميــل إلى الغلبة، يُعَدّ المثقفــون الذين يخدمــون حكوماتهم مسؤولين، ويُصرَف المثقفون الذين توجههم القيمة من العمل أو تُشوَّه سمعتهم.

أمــا بالنسبة للأعــداء، فيتم الاحتفاظ بالتمييز بين فئتــي المثقفين، لكن مع عكس القيم. ففــي الاتحاد السوفييتــي القديم، كان المثقفــون الذين توجههم القيم منشقين مكرمين، في حين احتقرنا الإدارة الشيوعية والمفوضين السياسيين والتكنوقراط والمثقفين الذين توجههــم السياسة. وبالمثل في إيران، نحن نكرم المنشقين الشجعان ونزدري هؤلاء الذين يدافعون عن المؤسسة الدينية. وفي كل مكان آخر عموماً.

المصطلح المكرم «منشق» يستخدم بشكل انتقائي. طبعاً لا ينطبق، بإيحاءاته المفضلة، على المثقفين الذين توجههم القيم في الوطن أو على هؤلاء الذين يقاومون الطغيان الذي تدعمه الولايــات المتحدة في الخارج. خذوا الحالة المثيرة للاهتمام لــ نلسون مانديلا، الذي رُفع اسمه من قائمة الإرهاب الرسمية في عــام ٢٠٠٨م، ويمكنه الآن أن يسافر إلى الولايات المتحدة من دون ترخيص خاص.

قبل عشريــن سنــة، كان القائد المجرم «لإحدى المجموعات الإرهابية الأكثر سوءاً» في العــالم، وفقــاً لأحد تقاريــر البنتاغون. ذلك ما يفسر لمــاذا كان على الرئيس ريغان أن يدعم نظام التفرقــة العنصرية، ويوسع التجارة مع جنوب أفريقيا منتهكاً العقوبات التي فرضها الكونغرس، ويدعم نهب جنوب أفريقيــا للبلــدان المجــاورة، الأمــر الذي أفضى، وفقاً لإحدى دراسات الأمم المتحدة، إلى ١،٥ مليون قتيل. كان ذلك مجرد مشهد من الحرب على الإرهاب الذي أعلنه ريغان لمحاربــة «آفة العصــر الحديــث»، أو، كما قال وزيــر الخارجية جــورج شولتز «عودة إلى البربريــة في العصــر الحديث». يمكننا أن نضيــف مئات آلاف الجثــث في أمريكا الوسطــى وعشــرات الآلاف أكثر في الشرق الأوســط، بين إنجــازات أخــرى. العجيبة الصغــيرة «الرسول العظيــم The Great Communicator» الذي يبجله الباحثون

في معهد هوفر كمثـال «تبدو روحه تطوف في أرجاء البلد، وتراقبنا مثل رفيق حميم أو شبح ودود»، كُرِّم حديثاً بنصب يشوّه السفارة الأمريكية في لندن.

وحالــة أمريكا اللاتينيــة بادية للعيان. فهؤلاء الذين يدعــون إلى الحرية والعدالة في أمريــكا اللاتينية لا يسمــح لهم بدخول بانثيون المنشقين المكرمين. مثلاً، بعد أسبوع من سقــوط جدار برلــين، تمَّ قتل ستة من مثقفي أمريــكا اللاتينية البارزين، جميعهم رهبان يسوعيون، بأوامر مباشرة من القيادة السلفادوريــة العليــا. والجنــاة مــن نخبة عسكرية سُلحت ودُربت برعاية واشنطن التي خلفت لتوها أثــر دم وإرهاب فظيع، وكانوا قــد عادوا للتو من إعــادة تدريب في المركز الحربي الخاص في قاعدة جون ف. كنيدي في كلية فورت بــراغ في كارولينا الشمالية. لم يُحتفَل بذكــرى الرهبان القتلى كمنشقين مكرمــين، ولا الآخرين أمثالهم في كل أرجاء نصف الكرة الغربــي. فالمنشقون المكرمون هــم هؤلاء الذين يدعون إلى الحرية في عالم العدو وأوروبة الشرقية، الذين عانوا بالتأكيد مثل أندادهم في أمريكا اللاتينية.

التمييــز جدير بالتمحيصــ، ويقدم لنا الكثير عن معنيي (مسؤولية المثقفين)، وعن أنفسنــا. إنه ليس موضــوع شك، كما يكتب جــون كوتســوورث John Coatsworth في تاريخ الحرب البــاردة الذي طبع حديثاً في جامعــة كمبردج، أنه من عام ١٩٦٠م إلى «الانهيــار السوفييتي عام ١٩٩٠م، تجاوزت أعداد السجناء السياسيين وضحايا التعذيب وإعدامات المنشقين السياسيين غير العنيفين في أمريكا اللاتينية كثــيراً تلك التي وقعت في الاتحاد السوفييتي والدول التي تدور في فلكــه في أوروبة الشرقية». وكان بين القتلى الكثير من شهداء رجال الدين وكانت هناك مذابح جماعية أيضــاً، دعمتها واشنطن أو بدأتها باستمرار.

لمــاذا إذاً التمييز؟ يمكــن الجدال أن ما حدث في أوروبة الشرقيــة أكثر خطورة من قــدر الجنوب لدينا. سيكون مثيراً للاهتمام أن نرى البرهان يوضح ذلك. وأن نرى أيضاً البرهــان يفسر لماذا يجــب أن نهمل المبادئ الأخلاقيــة الأوليــة، بينمــا إذا كنّا جديين بشــأن المعاناة والأعمــال الفظيعة والعدالة والحقوق، يجب أن نركز جهودنا على المكان الــذي يمكننــا أن نعمل فيه جيــداً ـ عادة، حيث نتشارك المسؤولية عما تمَّ فعله. وليس لدينا صعوبة أن نطالب أعداءنا باتباع هذه المبادئ أيضاً.

قلة منَّا تهتم، أو يجب أن تهتم بما يقوله أندريــه ساخــاروف أو شيريــن عبادي عن

الولايات المتحــدة، أو جرائم إسرائيل. نحن نعجــب بهم لما يقولونه أو يفعلونه عن هؤلاء الذين في دولهم والاستنتاج الذي يقدم بقوة أكبر كثيراً لهؤلاء الذين يعيشون في مجتمعات أكثر حرية وديمقراطية، ولذلك لديهم فرص أكبر للعمل بفعاليــة. وللأمر بعض الأهمية أنــه في الأوساط الأكثر احتراماً، الممارسة عملياً هي نقيض ما تمليه القيم الأخلاقية الأولية.

لكــن دعونــا نتكيــف ونلتــزم بمسألة الاستيراد التاريخية.

حــروب الولايــات المتحــدة في أمريكا اللاتينية من عــام ١٩٦٠م إلى عام ١٩٩٠م، بعيداً تماماً عن أهوالها، ذات أهمية تاريخية طويلــة أمد. لندرس أحــد الجوانب المهمة وحســب، في مقياس غير صغير كانت حروباً ضد الكنيســة، أخذت علــى عاتقها سحق هرطقة رهيبة أعلنــت في مجلس الفاتيكان الثاني عام ١٩٦٢م، التي، في ظل قيادة البابا جــون الثالــث والعشرين، «أعلــن في حقبة جديدة في تاريــخ الكنيسة الكاثوليكية»، في كلمات عــالم اللاهوت هانــز كونغ Hans Kung، مستعيــداً تعاليــم الأناجيــل التي وضعــت للراحــة في القرن الرابــع عندما أسس الإمبراطور قسطنطين المسيحية كدين للإمبراطوريــة الرومانية، مؤسســاً «ثورة» حوّلــت «الكنيسة المضطهــدَة» إلى «كنيسة مضطهِدة» وهرطقة مجلس الفاتيكان الثاني قبلها أساقفة أمريــكا اللاتينية الذين تبنوا «الخيــار المفضل لصالــح الفقراء». عندئذٍ جلــب الرهبــان والراهبــات والعلمانيون الرسالة الراديكالية اللاعنفية في الأناجيل إلى الفقراء، وساعدوهــم على التنظيم من أجــل تحسين قدرهم المرير في المناطق التي تخضع لسلطة الولايات المتحدة.

في تلــك السنة نفسهــا، ١٩٦٢م، اتخذ الرئيس كنيدي عدداً من القرارات الحاسمة، قضى أحدها بتغيير مهمة البعثات العسكرية في أمريــكا اللاتينية من «دفاع نصف الكرة الغربي» مفارقة تاريخية من الحرب العالمية الثانية - إلى «الأمن الداخلي». في الحقيقة، حرب ضــد الســكان المحليــين، إذا رفعوا رؤوسهم. يصف تشارلز مشلينغ Charles Maechling، الــذي قــاد التخطيــط الأمريكي ضد الانتفاضات والدفاع الداخلي من عام ١٩٦١م إلى عــام ١٩٦٦م، العواقب غير المفاجئة لقرار عــام ١٩٦٢م باعتبارها تغيــيراً مــن سياســة التسامح تجــاه نزعة السلب وقسوة العسكرية الأمريكية اللاتينية إلى «المشاركــة المباشــرة» في جرائمهــا إلى دعــم الولايات المتحدة لـ «أساليب عصابات الموت لهنريش هملر». كانت إحدى المبادرات

الكبرى انقلاباً عسكرياً في البرازيل، خُطِّط في واشنطن ونُفِذ بعد اغتيال كنيدي بقليل، الــذي أسس دولــة وطنية قاتلــة ووحشية. انتشــر طاعون القمع بعدئــذٍ في كل أرجاء نصف الكرة الغربي، الذي شمل انقلاب عام ١٩٧٣م الــذي أنشأ دكتاتورية بينوشت، وفي ما بعــد الدكتاتورية الأكثر فساداً دكتاتورية الأرجنتين، المفضلة لدى ريغان. أما انعطافة أمريكا الوسطى ـ ليس للمرة الأولى ـ فأُنجِزت في الثمانينيات في ظل قيادة «الشبح المحب والودود» الذي يُبجَّل الآن لإنجازاته.

كان قتل المثقفين اليسوعيين عندما سقط جدار برلــين الضربة القاضيــة في هزيمة الهرطقــة، التــي توجت عقــداً من الرعب في السلفادور التي بــدأت باغتيال الأسقف أوســكار روميرو، «صوت مــن لا صوت له» بالأيدي نفسها. يعلن المنتصرون في الحرب ضد الكنيســة مسؤوليتهم بافتخار. مدرسة الأمريكيتين (منــذ إعادة تسميتها) الشهيرة بسبب تدريبها القتلة الأمريكيين اللاتينيين، تعلن إحــدى حججها أن «جيشــ الولايات المتحدة قد ساعد في هزيمة لاهوت التحرير الذي بدأ في مجلس الفاتيكان الثاني».

عملياً، كانت اغتيالات تشرين الثاني عام ١٩٨٩م ضربــة قاضية تقريباً، لكن كان ثمة الكثير الذي يجب عمله.

بعد سنة شهــدت هاييتي أول انتخابات حرة. لمفاجأة وصدمــة واشنطن، التي مثل الآخريــن توقعت فوزاً سهــلاً لمرشحها من النخبــة المتميــزة، أما الناســ المنظمين في الأكواخ والهضاب فقد انتخبوا جان برتراند أرستيــد Jean-Bertrand Aristide ، وهو راهب شعبي التــزم بلاهوت التحرير. وتحركت الولايات المتحدة سريعاً إلى تقويض الحكومة المنتخبة، وبعد الانقلاب العسكري الــذي أطاح بهــا، بعد عــدة أشهر، قدمت مساعدة كبيرة إلى الطغمة العسكرية الفاسدة ومؤيديهــا مــن النخبــة. وازدادت التجارة منتهكــة العقوبات الدوليــة، وازدادت أكثر في ظل إدارة كلينتــون التي رخصت لشركة تكساكو أويل بتزويــد الحكام المجرمين، في تحدٍّ لأوامره الإدارية نفسه.

سأقفز فوق النتائج المخزية التي روجعت بإسهاب في مكان آخر، لكني سأوضح أنه في عام ٢٠٠٤م، تدخلت الدولتان المضطهدتان التقليديتــان في هاييتي فرنســا والولايات المتحدة، وشاركتهما كندا، بالقوة، واختطفت رئيســ الجمهورية أرستيــد (الذي انتخب ثانية)، ونقلته بحــراً إلى أفريقيا الوسطى. ومُنع هــو وحزبه في الواقع مــن انتخابات ٢٠١٠-٢٠١١م المثــيرة للسخريــة، المشهد الأكــثر جــدّة في تاريخ رهيب يعــود لمئات

السنين ويُعرف بين المجرمين، الذين يفضلون حكايات الجهود المكرسة لإنقاذ الناس الذين يعانون من قدرهم المروع.

قــرار آخر مصيري لكنيدي عام ١٩٦٢م هو إرسال بعثــة قوات خاصة إلى كولومبيا، قادها الجــنرال وليم ياربــورو William Yarborough، الــذي نصح قوات الأمن الكولومبيــة بالقيام «بأعمــال تخريب شبه عسكريــة و/أو نشاطــات إرهابيــة ضــد أنصــار شيوعيــين معروفــين، «نشاطــات تدعمهــا الولايات المتحــدة». ومعنى عبارة «أنصار شيوعيين» فهمهــا الرئيس المحترم للجنــة الكولومبية الدائمة لحقوق الإنسان، الوزيــر السابق للشــؤون الخارجية ألفريد فازكيز كاريزوســا Alfredo Vázquez Carrizosa، الذي كتــب أن إدارة كينيدي «تحملت مشاق شديــدة في تحويل جيوشنا النظامية إلى كتائب مضــادة للانتفاضات، وتقبلت الاستراتيجية الجديدة لفرق الموت» التــي قدمــت ما هــو معــروف في أمريكا اللاتينيــة بمبدأ الأمــن الوطني.... (ليس) دفاعــاً ضد العــدو الخارجي، بــل طريقة لجعــل المؤسسة العسكرية سيــدة اللعبة... (مع) حــق محاربة العدو الداخلي، كما نص على ذلك المبدأ البرازيلي والمبدأ الأرجنتيني ومبدأ الأوروغواي والمبــدأ الكولومبي: إنه الحق بقتال العمال الاجتماعيين والنقابيين والرجــال والنساء غير المؤيديــن للمؤسسة الذين يفترضــن أنهم شيوعيــون متطرفون واجتثاثهم. وهذا قد يعني أي شخص، بمن فيهم نشطاء حقوق الإنسان مثلي.

وجد لارس شولتــز Lars Schoultz الباحــث الأمريكي المتخصصــن في حقوق الإنســان في أمريــكا اللاتينيــة، في دراسة أجراها عــام ١٩٨٠م، أن مساعدة الولايات المتحــدة «تدفقــت إلى حكومــات أمريــكا اللاتينية التي تروع مواطنها... إلى المنتهكين الفظيعــين لحقــوق الإنســان الأساسية في نصــف الكرة الغربي نسبيــاً». وشملت تلك المساعــدة المعونــة العسكريــة، التي كانت مستقلة عن الحاجة، واستمرت خلال سنوات إدارة كارتر. ودائماً منذ إدارة ريغان غداً من غير الضروري القيــام بدراسة كهذه. فأحد انتهــاكات ثمانينيات القــرن الماضي الأكثر غرابة كانت السلفادور، التي صارت المتلقي الأول للمساعدة العسكرية الأمريكية، لتحل محــل كولومبيا عندما أخــذت المكان الأول باعتبارها المنتهك الأسوأ لحقوق الإنسان في نصف الكرة الغربي. كان فازكويز كاريزوسا نفسه يعيش تحــت حراسة شديدة في مكان إقامتــه في بوغوتا عندمــا زرته هناك عام ٢٠٠٢م في جــزء مــن مهمة لمنظمــة العفو

الدولية، التي بدأت حملتها السنوية الطويلة لحماية المدافعين عن حقوق الإنسان في كولومبيا بسبب سجل البلد الرهيب في الهجمات ضد حقوق الإنسان والنشطاء النقابيين، وكان الكثير من ضحايا إرهاب الدولة هم من الناس العاديين: الفقراء والعزل. وقد بلغ الإرهاب والتعذيب في كولومبيا ذروته بالحرب الكيميائية (التطهير بالتدخين)، بذريعة الحرب على المخدرات، الأمر الذي أدى إلى هروب كبير للناجين إلى أحياء الصفيح المدينية البائسة. ويقدر مكتب المحامي العام في كولومبيا ذلك بأكثر من ١٤٠،٠٠٠ نسمة قتلتهم القوات شبه العسكرية، التي عملت بتعاون وثيق مع الجيش الذي تموله الولايات المتحدة.

مؤشرات القتل في كل مكان. فعلى طريق قذرة يستحيل المرور فيها إلى قرية نائية في جنوب كولومبيا قبل سنة، مررت أنا ورفاقي بأرض مقطوعة الأشجار ذات معابر بسيطة كثيرة تحدد قبور ضحايا إحدى هجمات القوات شبه العسكرية على باص محلي. والتقارير عن أعمال القتل مفعمة بالحياة كفاية، وقضاء بعض الوقت مع الناجين، الذين هم بين الناس الأكثر رقة ورحمة الذين كان لي امتياز مقابلتهم يجعلون الصورة أكثر نبوضاً بالحياة، ولكن أكثر إيلاماً أيضاً.

هذه هي الصورة الأكثر إيجازاً للجرائم الرهيبة، التي يتحمل الأمريكيون المشاركة الكبيرة فيها، والتي يمكننا أن نحسنها على الأقل.

لكن الأكثر إرضاء هو أن ننعم في إطراء مقاومة مساوئ الجرائم الرسمية بشجاعة، فعالية دقيقة، لكنها ليست أولوية لمثقف توجهه القيمة يضطلع بمسؤوليات ذلك الموقف بجدية.

الضحايا في دولنا، بخلاف تلك التي في دول العدو، لا يتم مجرد تجاهلها ونسيانها سريعاً، بل تهان بطريقة ساخرة أيضاً. وأحد الأمثلة الصارخة جاء بعد عدة أسابيع من قتل المثقفين الأمريكيين اللاتينيين في السلفادور. زار فاكلاف هافل Vaclave Havel واشنطن وخاطب جلسة مشتركة لمجلسي الكونغرس والشيوخ. وأمام جمهوره المنتشي، مجَّد هافل المدافعين عن الحرية في واشنطن الذين «أدركوا المسؤولية التي تنبع من» كونهم «الأمة الأقوى على الأرض». مسؤوليتهم عن الاغتيال الوحشي لأنداده من السلفادوريين قبل ذلك الوقت بقليل.

فُتِنت شريحة المثقفين الليبرالية بخطابه. يذكرنا هافل بأننا «نعيش في عصر رومانسي»، تدفق أنتوني لويس وعربد معلقون ليبراليون بارزون آخرون على «مثالية»

هافل، و«سخريتــه وإنسانيته»، عندما «بشر بمبدأ صعب للمسؤولية الفردية» في حين أن الكونغرس شعر باحترام موجع تجاه عبقريته واستقامتــه، وسأل لماذا تفتقــر أمريكا إلى مثقفين بهذا العمق «الذين يشيدون بالفضيلة أكثر من المصلحة الذاتية». في هذه الطريقة يطروننــا لتعذيبنــا وتشويهنــا الجثث التي تنتشر في البلدان التي غادرناها في بؤس. لا نحتاج لأن نتوانى عما سيكون رد فعل الأب الإاكوريا Father Ellacuria، الأكثر شهرة بين القتلــى اليسوعيين المثقفــين، لو قيلت مثل هــذه الكلمات في مجلــس الدوما بعد قيام قوات من النخبــة التي درّبها وسلّحها الاتحاد السوفييتــي باغتيال هافل ونصف دزينة من رفاقه. فعل لا يمكن تصوره.

واغتيال ابن لادن أيضاً، يوجه اهتمامنا إلى ضحايانــا المحتقرين. هناك الكثير مما يجب قوله بشأن العملية. بما في ذلك إرادة واشنطن بمواجهة مجازفة خطيرة في حرب كبرى وحتى تسرب مواد قابلة للانشطار إلى الجهاديــين، كما حاولــت أن أثبت في مكان آخر. لكن دعونا نلتزم بخيار الاسم: عملية جيرونيمــو Operation Geronimo. فقد تسبب الاسم بإثارة الغضب في المكسيك وعارضتــه مجموعات محليــة في الولايات المتحدة، لكــن يبدو أنه لم تكن ثمة ملاحظة إضافية إلى واقع أن أوباما ساوى بين ابن لادن ورئيس قبيلة الهنــود الأباتشي. فجيرونيمو قاد المقاومــة الشجاعة ضــد الغزاة الذين سعوا إلى تسليــم شعبه إلى قدر ذلك العرق السيــئ الحظ مــن الأمريكيــين الأصليين الذيــن كان اجتثاثهــم بلا رحمــة ووحشية غــادرة، بين الآثام الشنيعة لهذه الأمة، التي أؤمن بأن الله سيحاسبها على ذلك ذات يوم. في كلمات المفكــر الاستراتيجي الكبير جون كوينســي آدمز John Quincy Adams المهندس المثقف للمصير الواضح، التي قالها بعد وقت طويل من مساهمته الشخصية في تلك الآثــام. فالاختيار العفوي للاسم يذكر بالسهولــة التــي نسمي فيهــا أسلحة قتلنا تيمناً بضحايــا جرائمنا: أباتشي، بلاكهوك Blackhawk، شــين Cheynne... قــد يكون رد فعلنا مختلفــاً لو سمَّى سلاح الجو النازي طائراته المقاتلة «جو Jew» يهودي أو «جبسي Gypsy»... غجري.

إن نكران هذه «الآثــام الشنيعة» صريح أحيانــاً. لنشر إلى عدد قليــل من الحالات الحديثــة العهــد، قبــل سنتــين في إحدى الصحــف الثقافيــة البــارزة لليبراليــين اليساريــين في العالم، ذي نيويورك ريفيو أف ذي بوكس The New York Review of the Books، لخص رســل بيكر Russel

Baker مــا تعلمه من عمل إدموند مورغان التاريخي البطولي: أي، عندما وصل كولومبس والمستكشفون الأوائل «وجدوا مساحة قارية مسكونــة على نحو مبعثر بسكان يعملون في الزراعة والصيــد... في عالم لامحدود وعالم غير مفسد يمتد من الغابــة الاستوائية إلى الشمال المتجمد، لم يكن هناك أكثر من مليون من السكان المقيمين». التعداد ينكر عشرات ملايــين كثــيرة، و«اتساع» ضــم حضارات متقدمــة في كل أرجاء القارة. لم تظهر ردود أفعــال، لا شيء أنــه في أمريــكا الشمالية ربمــا كان هناك أكثر مــن ١٨ مليون نسمة. ومــا لم يُذكَر، عشــرات الملايين «من الغابة الاستوائيــة إلى الشمــال المتجمد». كان كل هذا مذكوراً قبل عقود مضت. بما في ذلك حضارات متقدمة وعدم الرحمة والوحشية الغادرة «للاجتثاث». لكــن ليس مهماً كفاية حتى لعبــارة عرضية. وفي لنــدن رفيو أف بوكســ London Review of Books بعــد سنة من ذلــك، أشار المــؤرخ المرموق مــارك مــازووَر Mark Mazower إلى «سوء معاملة الأمريكيين للسكان الأمريكيين الأصليــين». وثانية لم يثر ذلــك تعليقاً. هل سنقبل بعبارة «سوء معاملة» لجرائم مماثلة اقترفها أعداؤنا؟

❁ ❁ ❁

إذا أشــارت مسؤوليــة المثقفــين إلى مسؤوليتهــم الأخلاقيــة كبشــر جديريــن بالاحترام في موقــع ما لاستخدام امتيازهم ومكانتهم لتطوير قضيــة الحرية والعدالة والرحمة والسلام. والتعبير ليس ببساطة عن مســاوئ أعدائنا، بل، على نحو أكثر أهمية، عن الجرائم التي تورطنــا فيها ويمكننا أن نحسنهــا أو ننهيها إذا اخترنــا ذلك. كيف يجب أن نفكر في هجمات ١١ أيلول؟

مفهوم أن ١١ أيلــول «غيّر العالم» مُتبنّى على نطــاق واسع، على نحــو يمكن فهمه. فأحــداث ذلك اليوم كانت لهــا نتائج كبيرة بالتأكيد، على المستويــين الوطني والدولي. كانت إحداها دفــع الرئيس بوش إلى إعادة إعلان حرب رونالد ريغــان على الإرهاب. النتيجة الأولى «تلاشت» في الحقيقة، لنستعر عبارة القتلة والقائمين على عمليات تعذيب الأمريكيين اللاتينيين المفضلين لدينا، على نحو مفترض لأن النتائج لا تتوافق مع صورتنا الذهنية المفضلة. النتيجة الثانية كانت غزو أفغانستان، ومن ثم العراق، وحديثاً التدخل العسكري في بلدان أخرى عديدة في المنطقة وتهديــدات منتظمة بهجوم على إيران («كل الخيارات مفتوحــة»، في العبارة القياسية). والتكاليــف، في كل بعد، كانت هائلة. وذلك

يفضي إلى ســؤال أكثر وضوحــاً، لا يُطرَح لأول مرة: هل كان هناك بديل ما؟

لاحظ عــدد من المحللــين أن ابن لادن حقق نجاحات مهمة في حربه ضد الولايات المتحدة. «فقد أكد مراراً وتكراراً أن الوسيلة الوحيدة لإخــراج الولايات المتحدة من بلاد المسلمين وإلحاق الهزيمة بأتباعها المستبدين هو جــرّ الأمريكيين إلى سلسلة من الحروب الصغيرة، لكــن الباهظة التكاليف، التي في النهايــة ستفلسفهم»، كمــا يكتب الصحافي إريك مارجوليس.

هرعــت الولايات المتحــدة، أولاً في ظل جــورج دبليو بوشــ ومن ثم بــاراك أوباما، إلى فخ ابن لادن مباشرة... على نحو غامض نفقــات عسكرية ضخمة وإدمــان الدَّين... يمكــن أن يكون ميراث الرجل الذي فكر أنه يستطيع أن يهزم الولايات المتحدة هو الأكثر إيذاء.

يقدر أحد تقارير مشروع تكاليف الحرب في معهد واتسون للدراسات الدولية في جامعة براون أن الفاتورة النهائية ستتراوح بين ٣،٢ و٤ تريليــون دولار. إنجاز مثــير للإعجاب تمامــاً حققــه ابــن لادن. كانــت واشنطن مصممة على الاندفاع بسرعة إلى شَرَك ابن لادن الذي كان واضحاً منذ اللحظة الأولى. يكتب مايكل شوير Michael Scheuer، كبير المحللين في وكالــة المخابرات المركزية المسؤول عن تعقب ابن لادن من عام ١٩٩٦م إلى عــام ١٩٩٩م: «كان ابــن لادن دقيقاً في إبــلاغ أمريكا بالأسباب التــي وراء خوضه الحرب ضدنــا». فقائد القاعــدة، يواصل شوير، يخرج ليغير بقسوة سياسات الولايات المتحدة والغرب تجاه العالم الإسلامي.

و، ابن لادن، كما يوضح شوير، نجح إلى حد كبير: فالقــوات والسياسات الأمريكية تستكمل دفع العالم الإسلامي إلى الأصولية، شــيء مــا كان ابن لادن يحــاول أن يحققه بنجــاح لم يكتمل منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي. وكنتيجة، أظن من العدل أن نستنج أن الولايات المتحدة الأمريكية تبقى الحليف الوحيــد الذي لا غنى عنه لابن لادن. وعلى نحــو مثير للجــدل يبقى هكــذا، حتى بعد موته.

وثمَّة سبــب وجيه للاعتقاد بأن الحركة الجهاديــة كان يمكن أن تنشق وتتقوض بعد هجمــات ١١ أيلــول، التي انتُقِــدت بحدة داخل الحركة. وعلاوة على ذلك، «الجريمة ضد الإنسانية» كما سميت بحق، كان يمكن أن تقارب كجريمة، بعمليــة دولية لاعتقال المشتبه بهــم المحتملين. كان ذلــك واضحاً عقــب الهجمــات مباشرة، لكــن مثل هذه الفكرة حتــى لم تُدرَس لدى صناع القرار في

الحكومة. ويبـدو أنه لم يُعطَ اهتمام لعرض طالبان غـير النهائي. كم كان العرض جاداً لا ندري. لتقديم قـادة القاعدة إلى محاكم قضائية.

في ذلك الوقت، اقتبست استنتاج روبرت فيسك Robert Fisk أن جريمة ١١ أيلول الشنيعـة اقترفت بـ «نزعـة شريرة ووحشية قاسية». حكم دقيق. والجرائم كان يمكن أن تكون حتى أكثر سـوءاً. لنفترض أن الرحلة ٩٣، التي أسقطهـا المسافرون الشجعان في بنسلفانيـا، فجرت البيـت الأبيض وقتلت الرئيـس. ولنفترضـ أن مرتكبي الجريمة خططوا لفرضـ دكتاتورية عسكرية وقتلت آلافاً وعذبـت عشرات الآلاف ونفذوا ذلك. ولنفترضـ أن الدكتاتورية الجديدة أسست، بدعـم المجرمين، مركـزاً للإرهاب الدولي يساعـد على فرضـ دول مماثلة للإرهاب والتعذيب في أمكنة أخرى، و، كشيء مضاف، جلبوا فريقاً من الاقتصاديين. سموه «فتيان قندهـار». قاد سريعاً الاقتصـاد إلى إحدى فترات الكساد الأسوأ في التاريخ. لكان ذلك، ببساطة أسوأ من ١١ أيلول بكثير.

وكما ينبغي أن نعرف جميعاً، هذه ليست فكرة تجريبية. لقد حدثت، أنا، طبعاً، أشير إلى مـا سمـي ١١ أيلـول الأولى في أمريكا اللاتينيـة ١١ أيلـول عـام ١٩٧٣م، عندما نجحت الولايات المتحـدة بجهودها المكثفة في الإطاحـة بحكومـة سلفـادور أليـندي الديمقراطية في تشيلـي بانقلاب عسكري جـاء بنظام الجـنرال بينوشيـت المروع إلى السلطة. نصبت الدكتاتورية فتيان شيكاغو. اقتصاديـين دُرِّبـوا في جامعـة شيكاغو. لإعـادة تشكيل الاقتصـاد التشيلي. لنفكر ملياً بالدمار الاقتصادي والتعذيب وأعمال الاختطـاف ومضاعفة أعـداد الذين قُتلوا بـ ٢٥ مرة لنحصل على المعـادل لكل فرد، وسوف نرى كم كانـت ١١ أيلول الأولى أكثر دماراً.

كان هـدف الإطاحـة في كلمـات إدارة نيكسون، قتل «الفيروس» الذي قد يشجع كل هؤلاء «الأجانب (الذين) يخرجون للتخلص منـا». التخلص منـا بمحاولـة الاستيلاء على مواردنـا الخاصة وبشكل أعم ملاحقة سياسة التنمية المستقلة بتوجهات لا ترضى عنهـا واشنطن. وفي الخلفيـة كان استنتاج مجلسـ الأمن القومـي في إدارة نكسون أنه إذا لم تستطـع الولايـات المتحـدة التحكم بأمريـكا اللاتينية، فلن تتمكن من أن تتوقع «تحقيق نظام ناجح في مكان آخر في العالم». و«مصداقيـة» واشنطـن ستُقوَّض، كما عبر عن ذلك هنري كيسنجر.

إذن، ١١ أيلـول الأولى، بخلاف الثانية،

لم تغير العـــالم. «لم تكن شيئاً ذا عواقب كبيرة جدّاً»، طمأن كيسنجر رئيسه بعد عدة أيام. والحكم على ذلك بكيفية ظهورها في التاريخ التقليدي، لم تكن كلماته خاطئة، على الرغم مــن أن الباقين على قيد الحيــاة يمكن أن يروا المشكلة بطريقة مختلفة.

هذه الأحــداث ذات العاقبة الضئيلة لم تكن محدودة بالانقلاب العسكري الذي دمّر الديمقراطية التشيليــة وأثار قصة الرعب التي تلــت. كما ناقشنــا تواً، فَــ ١١ أيلول الأولى كانت مجــرد فصل واحد في الدراما التــي بدأت. عام ١٩٦٢م عندما غيَّر كنيدي مهمــة جيوش أمريكا اللاتينيــة إلى «الأمن الداخلي». ولم تكن الكارثة المدمرة ذات شأن خطير أيضــاً، النموذج المألوف عندما يكون التاريخ محروساً من المثقفين بالمسؤولين.

❁ ❁ ❁

يبــدو الأمر قريبــاً إلى فكــرة تاريخية عامة أن المثقفين الممثلــين للعرف والعادة، هــؤلاء الذين يدعمون الأهــداف الرسمية ويتجاهلــون أو يضفون الصفــة العقلانية علــى الجرائم الرسميــة، يُكرَّمون ويُميَّزون في مجتمعاتهم، والذيــن يسترشدون بالقيم يعاقَبــون بطريقــة أو أخــرى. ويرجع هذا النمــوذج إلى بدايات التاريــخ المدوَّن. لقد كان الرجل الذي اتُهــم بإفساد شباب أثينا الــذي شرب ســم الشوكران، ومثــل أنصار دريفوس الذين اتُهمــوا بإفساد الأرواح، و، في السياق نفسه، المجتمــع ككل «والمثقفون الذيــن استرشدوا بالقيم في ستينيات القرن الماضــي اتُهموا بالتدخــل في تعليم الشباب الأفكار الحزبية».

توجد في الأسفار العبرية شخصيات هم مثقفون منشقــون بالمعايير الراهنة، يسمون «أنبيــاء» في الترجمة الإنكليزية. وقد أثاروا غضب المؤسســة الرسمية بسبب تحليلاتهم الجغراسية الحــادة، وإدانتهم لجرائم ذوي النفوذ ودعوتهم للعدالة واهتمامهم بالفقراء ومعاناتهم. والملك آهاب، الملك الأكثر فساداً، اتهم النبي إيليا بأنه يكره إسرائيل، «اليهودي الــكاره نفســه» الأول أو المعادي لأمريكا في النظير الحديث. لقد عومل الأنبياء بقسوة، بخلاف المتملقين في البلاط، الذين عوقبوا في ما بعــد باعتبارهم أنبياء مزيفين. المثال مفهوم. سيكون الأمر مفاجئاً لو كان بخلاف ذلك. وكما بالنسبة لمسؤولية المثقفين، يبدو لي أنــه لا يوجد الكثير ممــا يجب أن يقال أكثر من الحقائــق البسيطة. المثقفون عادة متميزون. مجرد ملاحظــة بشأن استخدام المصطلح. والامتياز يثمر فرصة، والفرصة تطرح مسؤوليات، وعلى الفرد أن يختار.



من «وهران» الجميلة..

د. عبد الكريم الأشتر*

-١-

رأى الشاب، حين اقترب موعد سفره إلى الجزائر، أن يُخليَ بيته، في طلعة (المصطبة)، من حي المهاجرين، ليوفِّر أجره. جمع كتبه في صناديق، ونقلها إلى بيت صديقه أحمد راتب النفاخ، فأودعها سقيفته، واحتفظ بأثاث بيته إلى يوم العودة من سنوات الإعارة.

* من آخر ما كتبه الأديب والأستاذ الكبير، وقد أرسلها للمعرفة، وها نحن ننشرها تقديراً وعرفاناً ومحبة (رئيس التحرير).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وقد استَقبل، في ساحة العاصمة (الجزائر)، في اليوم الثاني من وصوله إليها، تمثالَ الأمير عبد القادر الجزائري. وكان الشاب في دمشق يوم نقلوا رفاته منها، فأحسّ، وهو يتطلع فيه، وقد علا جواده، أن صلة الجزائر ببلده تَميز صلاتها، عن بلدان العالَم كلها! واستذكر الساعات التي كان يقضيها في قصره، في الطريق إلى دمَّر، ويطلُّ منه على النهر الجاري تحته، وخضرة الأرض والشجر من حوله. واستذكر صديقيه في الجامعة: عاصم البيطار، ومازن المبارك، وأحاديثهما عن أصول الأسرتين في الجزائر... فقرّبته الذكرى والصور التي رافقتها، من الساحة التي يقف فيها، حتى أوصلته إلى الإحساس بأن هذا الرجل الذي يركب حصانه ليس غريباً عنه!

ثم لمّا وصل «وهران»، وهي المدينة الثانية في القطر الجزائري، تعيَّن عليه أن يختار البيت الذي يسكنه. وكانت الدولة الجزائرية امتلكت ما خلّف الفرنسيون فيها من الأبنية والدور. فكان على القادم إليها، من العاملين في مختلف الميادين العلمية والعملية، أن يتقدم إليها يطلب الموافقة على استئجار المسكن الذي اختاره. ويحسب الشاب، أن البيت الصغير الذي اختاره، من بناء يقع ضمن مجموعةٍ من الأبنية السكنية، في قلب المدينة، سمَّوها (سيتي لسكير Cite Lescure) كان الفرنسيون يتخذونها، أيام الاحتلال، سكناً لبعض رجالهم من العاملين معهم. ويقع في الدور الأول من البناء. يُطلُّ ساكنه، من طرف الشارع، على ساحة صغيرة. ومن الطرف الثاني، على ساحة كبيرة يدور البناء من حولها. وتنفتح نوافذه على الجهتين.

وأخذ الشاب يختار فرشه من أسواق الجزائر، مما خلّفه الفرنسيون في بيوتهم، بعد أن رحلوا عنها. وكان فرشاً جميلاً تقوم الأعمدة فيه من حول السرير. وتعوَّد بعدها أن يزور هذه الأسواق، ويجمع بعض نوادر ما يلقاه فيها، من آثارهم.

وكانت سوق المدينة قريبةً من البيت. فكان يسهل عليه أن يحمل إليه ما يحتاجه، وهو في طريقه إليه. وعدَّ هذا أحسن ما لقيه في البيت، إلى جانب الردهة الواسعة التي تتسع للعمل وتناول الوجبات اليومية!

غير أن تجهيز الحمام كاد أن يُحدث حدَثاً يذهب بالشاب وولديه وزوجه، لولا أن تداركه الله في اللحظة الأخيرة. فقد أشعل موقدها الغازي، فلمّا أتمَّ غسل بدنه وخرج منها، كان أوكسجين الهواء في البيت الصغير ذي السقف القريب، نفِد كله. أحسَّ، عن غير وعي منه، بما تمّ، إذ أوشك أن يغيب تماماً



عن وعيه. فهجم على الشباك المطلّ على الساحة، في حركة تلقائية، وفتحه على مصراعيه. ثمَّ لم يحسَّ بشيءٍ. غير أنه وجد نفسه، بعد أن أفاق، ملقىً على الأرض! فنهض يتفقد زوجته الحامل وولديه، فوجدهم جميعاً في خير، إذْ كانت الأبواب مغلقة عليهم. وكتب الله النجاة للأسرة. وقرأ، بعد أيام، خبر اختناق أفراد إحدى الأسر القادمة إلى الجزائر، في ولاية قريبة، للسبب نفسه!

ورافقه منذ ذلك اليوم، اعتقاد راسخ بنجاته من الموت!

ثم كان من ذكريات البيت السعيدة، ولادة ولده الثاني في مستشفى قريب (١٩٧٠م)، فانضمَّ إلى أفراد الأسرة في بيتها الصغير. وأصبح يتعين على الشاب أن يكون يقظاً، تمام اليقظة، لما يجري من حوله، وما يتعين الالتزام به، من التحوّط، في استيفاء الخدمات فيه.

كان هذا كله، قبل أن يسوق القدر إليه، في أواخر العام، طالباً تونسياً لقيَه في الجامعة، كان يعمل في الجزائر، في إحدى المؤسسات، وينوي أن ينهي خدمته ويعود إلى تونس. فنزل له عن بيته في الدور الثامن من بناء كبير، يقع في أحد شوارع وهران الجديدة، يسمى «شارع مستغانم»، كان فيما يبدو، مسكناً آخر لرجال الاحتلال. وفي هذا البيت الذي يطلُّ على البحر إطلالاً واسعاً يسع النفس كلها، وجد الراحة والطمأنينة. وفيه استجلى صور حياته كلها، واستعاد مواقفه من الأحداث التي مرت بها.

وكان يجاوره زميل له، من خريجي دار العلوم في القاهرة، وجد فيه أنساً طيباً.

ولقــي معه جمعــاً من مواطنيــه السوريين تألفت منهم جميعاً حلْقة متآلفة.

وقــد جُهزت الــدار بحاجــات الأسرة. فالغاز يصــل إليها بالأنابيب كما يصل الماء والكهربــاء، وهو ما ظلّــت الجزائر تطالب بخرائطه ومخططاته من بعد.

وأتيح له، بعدها، أن يُلحق ابنته الصغرى التي صحبتْها الأسرة معها، بإحدى مدارس الإنــاث الابتدائيــة، ويُلحق ولــده بإحدى الروضات. وسمع ابنته تغنّي أحياناً لنفسها، بالفرنسية، ما تتعلمه في مدرستها من أغاني الأطفــال، تجمعها إلى ما كانت تعلمتْه منها بالعربيــة. فتمنى، بينه وبين نفسه، أن تعمل مدارس الصغار في المغرب العربي، على ضمّ بعضــ نصوصها الذائعة في مدارس المشرق العربي، إلى ما يكتبه شعراؤه لها!

-٢-

وكانت الدولة، في الجزائر، حوّلت إحدى ثُكنات الجيش، في ضواحي وهران، إلى مبنى وسع كليات الجامعة وهيئاتها الإدارية. فكان يتعين على الشــاب أن يركــب إليها إحدى سيــارات الأجرة، إذ لم يكن قادراً على قيادة السيارة، ولم يكن يمتلك ثمنها أيضاً.

ووجد الطلبةَ، في الصفوف التي دخلها، يسعَــون إلى كسْب ودِّه، ويحاولون أن يقرِّبوه منهم. كانوا يمثلون، في نظــره، أبناء الثوار الذين خاضــوا معركة التحريــر الظافرة. فــكان، إذا تحدث إليهم، فاضت نفسه بهذه المعاني، فأحسّوا، على نحــوٍ ما، بأنه واحدٌ منهم، اكتوى، وهو بعيــدٌ عنهم، بالنار التي اكتوَوا بها، وحقق النصر الذي حققوه. وكان تأكيــده، فيهم، على وحــدة الثقافة العربيّة مستمَــداً من إيمانه بوحــدة الأمة، ووحدة الأرض التي تسكنها. وهــذه كلها، كما كان يقــول لهم، تنهض علــى قاعدتها الأساس: اللغة الواحدة.

وحاولت زوجة الشاب، من ناحية أخرى، أن تفيد مــن إقامتها في الجزائر، فانتسبت إلى جامعتها، وحضرت بعض دروس الشاب فيهــا، وهي المرة الأولى التي كان يُلقي فيها درسه بحضورها، فازداد شعوراً بالراحة.

ثم كان من حسن الطالع، أن يكون عميد الكليــة واحداً من خريجــي جامعة دمشق، وأن يجــده قريباً منه، يلتقــي معه في كثير من قضايا الثقافــة والفكر، ويتبادلان فيها الــرأي، وهما يسيران في شــوارع «وهران». يقــول له، وهو يضحك، حــين يراه، يَعجب أن يرى المرأة الجزائريــة الملتفة «بحايكها» الفضفاض، تُظهر عيناً وتخفي عيناً:

يـــدان، وقدمان، وعين واحـــدة، معادلة مختلّة!

فيرد الشاب:

ولكنها هي المرأة التي نزلت إلى الساحة، ورفعت فيها صوتهـــا، وأخفت المناضلين في بيتها، وسقطت في الميادين.

ويقول له حـــين يصل الحوار بينهما إلى قضية الصحراء الغربيّة:

تُرانـــا نحتاج إلى كيان منفصل آخر؟ أما يكفينا ما نحن فيه؟

ثـــم رأى الشـــاب، في أيامـــه الأولى من وصولـــه إلى وهران، وقد أصبـــح قريباً من أخيـــه في «فاســـ»، أن يُمضـــي في زيارته، إحدى الإجـــازات القريبة (أواخر ١٩٦٩م). فاستقلَّ إليه القطار، ووجده في انتظاره، في المحطة، مرتدياً «البرنوس» والقبعة المغربية. فأمضـــى، في «فاس»، أسبوعـــاً لم يزد عليه، زار خلاله إحدى حمَّاماتها المعدنيّة، وتأمّل أبوابها التاريخية القديمة.

وزار «الرِّبـــاط» فوجدهـــا، كما عرفها من قبـــل، مدينة مشرقة، لم يَذهب التحديث بسماتهـــا التاريخيّـــة العريقـــة. وســـار في أسواقها العامة، فـــرأى نفسه كمَن يسير في أسواق بلده، في دمشق وحلب.

وانتابه، وهو يتحدث إلى بعض مثقفيها، إحساســـ عميـــق بأثر الثقافـــة الغربيّة، في تكوينهم الفكري، حتى ليحارون، أحياناً، في التماس الترجمة لبعض مفرداتها!

ثـــم لما عاد مـــن المغـــرب إلى «وهران»، رأى طلبتـــه يدخلـــون الجامعـــة بسياراتهم الخاصـــة، فمـــا استطـــاع، حين رآهـــم، أن يدفع عنـــه إحساساً بالحَـــرَج! ولم يجد بداً من أن يبادر فينتســـب إلى إحدى «مدارس» القيادة، فيمضي فيها زمناً يرى فيه مديرها (حميدو) يكاد لا يخفي ابتسامته، حين يراه، وقـــد تعدى الأربعين، يأخذ مقعده، من وراء المقود، حائراً متردداً، يحسبه من يراه مقبلاً على خوضـــ إحدى المعـــارك أو قيادة أحد الطوربيدات!

وليســـ ينسى فيها فحصـــه الأول، وقد اصطـــف، على أطراف الميدان، بعض رجال الأمـــن، وازدحـــم الناســـ والممتحَنـــون من حولهم، وتعالى الصفير. فقد سمع أحدهم يصيـــح باسمه، فتقدم إليـــه. فما كاد يقعد مـــن وراء المقود، ويسير إليه، حتى فتح عليه الباب، وقال له في غير احتفال:

«خَطْرة أخرى يا شيـــخ»......! انظر في المرآة قبل أن تنطلق!

على أنـــه كان يحمل معه دعـــوة تلقاها من معهـــد الدراسات العربيّـــة في القاهرة، في عهـــد مديره الدكتور محمـــد خلف الله أحمد، لإلقاء جملة من المحاضرات، تتناول

الرواية في أدب القضيّة الفلسطينية. فرأى أن يستغل زيارته لها. واستعان فيها بصديق لــه مكّنه من الحصول على رخصةٍ للقيادة، اكتفــى فاحصُــه فيها بالإطــلال عليه من إحدى الشرفات. فلمــا رآه يتقدم بالسيارة ويتأخــر بهــا أشار إليــه بالكفايــة. وهي الرخصة التي استبدل بها رخصة دولية عاد بهــا إلى الجزائر، وانحلّت هذه العقدة التي أتعبتْه زمناً.

وفــرَغ، بعدها، لتملّــي وجوه الحياة من حولــه. كان يسمــع، وهــو في سوريّة، قبل أن تتحــرر الجزائر، الدعــوة التي يرددها الفرنسيــون في بياناتهم السياسيّة، ويسمُّون الجزائــر فيهــا: «فرنسا مــا وراء البحر la France outre mer!» فأخذ يتلمّس بعض ما أبقَوا مــن الشواهد لهذا الادعاء، فطالعتْه، في تجواله، في ضواحي «وهران»، مزارع احتجزوها لأنفسهم، بنَوا فيها البيوت والحظائــر، وسيَّجوهــا وسكنوهــا، كأنهم ضمنوا لأنفسهم البقاء فيها إلى الأبد!

حكاية المواجهة بين الشرق والغرب، تظلُّ تَمثُــل في كل منعطف من منعطفات التاريخ المعــروف، تفسِّر أحداثه تفســيراً يقرب أن يجعل حقائقه جَغرافيــةً في الصميم! بهذا كان الشاب يخاطب نفسه وهو يقلّب النظر في واحدة من هذه المزارع التي خلّفوها.

وبهــذا خاطــب نفســه وهــو يلــمّ، في العاصمة، بالمقهى الذي كان رجال الاحتلال يؤمُّونه، وتركت فيــه «جميلة بوحيرد»، كما حدَّثوه، محفظتها التي حملتها معها، وملأتها بالمتفجــرات، ودفعتهــا بقدمها حتى تُخفى عن الأعين، وغادرت المقهى...

وبها أيضاً خاطب نفسه حين وقف أمام مسجدها الجامع الكبــير، واستذكر الشيخ محمــد البشير الإبراهيمــي الذي ألقى فيه خُطبة الجمعــة الأولى، بعد التحرير. فكان كمَن يشهد حركة التاريخ بعينيه.

وقد أمضى الشاب، في الجزائر، سنواته الأربع، يردّ على مَــن يكتب إليه، فيضع في رأســ الرسالة جملــةً يراها تفي بما خلّفت هذه المدينة من الأثر الجميل في نفسه: «من وهران الجميلة».....

وكان يهــوى أن يتحــدث فيهــا، إلى من يلقى من أهلهــا، بالعربيّة السهلة فيفهمونه حقَّ الفهم. وقــد يتحدثون أمامــه، أحياناً كثــيرةً، بالمحكيَّــة الجزائريّــة، فتضيع عنه بعض مفرداتهــا، وينجده فهم السياق العام في الحديث. طلب مرة، من المرأة الجزائريّة التي تُعين أمه في البيت، أمام ولده الصغير، أن «تُقفــل» البــاب. فقالهــا لهــا بالمَحكيَّة السوريّة. فأسرع ولده يقول له:

إنها يا بابا لا تفهم هذه الكلمة، قل لها: «بلّعي» الباب!

فأخذ الشـاب، من بعد، يزداد إدراكاً لما تزرعه المحكيّات العربيّة من فواصل بين أقطارها، وتزداد، مع الوقت، اتساعاً وعمقاً وابتعاداً عن العربية الفصيحة السهلة التي تجمعها وتقـرّب بينها، في مرحلة تشهد، للأسف، قدرتها الذاتية على التباعد وسلوك الطرق المؤدية إلى التشتت والتمزق. وبات يدرك أن الكلمة في العربية الأم الواحدة لا تخاطب الفكر وحده، ولو أنها تريده، ولكنها تخاطب النفس بمجموعها حتى تَقرّ في الوجدان، وتعمل على صياغته وتوجيهه.

ويذكر الشاب أنه دُعي، في «وهران»، إلى تناول الغداء، مع بعض المسؤولين، تكريماً لكمال جنبلاط الذي كان يزور المدينة، في مطعم قائم على رأس الجبل (جبل مرجاجو). وحملت الشاب إلى الجبل طائرة مروحية ركبها لأول مرة.

لم يتعدَّ حديث كمال جنبلاط، يومها، بعض التعليقات السريعة على ما كان يرى من حوله. وسمعه الشاب يقول لأحد مرافقيه، من الجزائر:

أرى تشابهاً بين لبنان والجزائر!

فسأله المرافق وماهو؟

فردَّ كمال جنبلاط: كلا البلدين يتكلم لغتين اثنتين!

أخذ الشاب يسأل نفسه، وهو يسمع الردّ:

ألم يرَ الزائر اللبناني، من أسباب التشابه بين البلدين، سوى هذا السبب الذي يذكِّر سامعه بالاستعمار الواحد؟ فأين الإيمان بالقضية الواحدة؟ وأين تقف العروبة منه؟ وأين تقف حقائق الحياة كلها في البلدين؟

-٣-

في السنة الأخيرة (١٩٧٣م) من السنوات الأربع التي أمضاها الشاب في الجزائر، جاء إليها صديق من أصدقائه القدامى، كان على صلة دائمة به، ليعمل، إلى جانبه، في جامعتها. فوجد فيه الشاب أُنساً ملأ أيامه الأخيرة فيها.

وسنحت الفرصة لهما معاً فاتفقا على تمضية الإجازة، في منتصف العام، على نحو يفيدان منه. فاختار الصديق أن يرحل إلى أسرته في سورية، ويعود فيلقى الشاب في باريس، بعد أن يتم فيها شراء السيارة الفرنسية المرغوبة، يومذاك، في الجزائر (بيجو Peugeot ٤٠٤)، ويعودا فيها معاً إلى الجزائر، عن طريق المغرب، بعد أن يزورا

الأندلس، فيكسبا بذلك زيارتها، وزيارة أخي الشاب في «فاس».

فهكذا لبث في باريس، ينتظر صديقه، فزار بعض معالمها، وتمشى في شوارعها، فعجب أن يجد المساكن، في بعض نواحيها، آنذاك، أدنى أسعاراً منها في سورية!

ثم قطع الطريق، مع صديقه، فاجتازا الحدود إلى إسبانية، من دون أن يُظهرا جوازي سفرهما على الحدود! إذْ لقيا الموظف الموكَل بختمها يشير إليهما:

أن تابعا الطريق، ولا تقفا على الإطلاق، فلا حاجة هنا لختم الجوازات!

تمنى الشاب، وهو يشهد التسهيل في حركة المرور، لو ملك القدرة على نسيان ما يلقى على بعض الحدود العربيّة، أحياناً، من أذى الانتظار والمساءلة، وأذى التدقيق والتحقيق! وذكر يوماً، وقف فيه، بسيارته، متعَباً، على حدود إحدى الدول العربية، فوجد فيه الموظف «المتظرِّف» المُوكل بختم الجوازات الفرصة السانحة، فأرسله إلى الموظف أمامه، بعد أن غمز له بعينه غمزةً يقول له فيها:

دعنا نتسلّ به!

واستجاب له الموظف أمامه، فردّه إليه، مرة أخرى، بعد أن تظاهر بالنظر في الأوراق!

في الأندلس، بدأا بزيارة قرطبة، فاستعاد الشاب بعض ذكرياته فيها، واقترب مرةً أُخرى من محراب جامعها العظيم، فتملاّه. وتملَّى الصَدَفة الضخمة التي تُعين خطوطها على توزيع صوت الإمام في أنحاء الحرم. وتفقَد الموضع الذي رأى فيه، في زيارته السابقة، قبل أعوام قليلة، جسدَيْ فرديناد وإيزابيلا ملكَي قشتالة مسجَيَيْن فيه، فوجده خالياً، إذْ تمَّ نقلهما منه، حتى يصفو جو التأمل في الحرم، للسائح العربي والسائح المسلم معاً، وللسائح على الإطلاق.

وعزما على زيارة الزهراء فصعدا، في يوم طلق رائق، هضبتها وقد كستها الخضرة، فذكرا ابن زيدون وولاّدة، وتذوّقا على نحو أعمق شعره الذي قاله فيها:

إنّي ذكرتك بالزهراء مشتاقاً
والأفق طلق ووجه الأرض قدْ راقا

ووجدا العمل جاداً في استكمال بناء قاعة الاستقبال فيها، استجابة لدواعي السياحة التي يعمّ خيرها الأرض الأندلسية بمجموعها.

ثمَّ انتقلا إلى إشبيلية، فصعدا مئذنة جامعها العظيم (الكاتدرائية) التي تلتف حول نفسها، من دون أدراج. فلما وصلا إلى نهايتها، حيث كان المؤذن يقف، وشاهدا الجرس الضخم الذي يُقرع في أيام الآحاد،

أفلت الزمام من يد الصديق، فطوى العصور، وأعلى صوته بالأذان، فتردد صداه في أجواء الكاتدرائية!

وزار الشاب، للمرة الأولى، مع صديقه، برشلونة الجميلة، فرأياها من أجمل مدن الأندلس، واستذكرا اختيار شوقي لها يوم منفاه. ثم عبرا، في أحد المراكب، بحر الزقاق إلى «سَبْتَه»، مع السيارة التي حملاها معهما، فزارا أخا الشاب في «فاس»، وقضيا عنده يوماً حافلاً بالأنس، قبل أن يتابعا رحيلهما إلى «وهران»!

واكتشف الشاب، بعدها، مبلغ ما يبلغ الافتراق بين الناس، في عمق الاستجابة لما يواجهون من مواقف التأثر بالمشاهد والأحداث على السواء. وعند هذا الافتراق يمكن أن تقاس درجة الحرارة في التكوين، من حيث قربها من قوة المنابع الإنسانية أو بُعْدها عنها، زيادة على قوة الإدراك أو ضعفه.

ارتمى الشاب، بعد هذه الجولة، في نوبة عَجزٍ لازمتْه أياماً متوالية، صحبتْه فيها رغبة ملحة بالعزلة، كأن ما رآه فيها لا يمكن أن يشاركه أحد فيه، ولا يمكن أن يَفهم عنه دواعيه الملحّة. فكان كأنه، حين عاد إلى ممارسة حياته، أفاق من غيبوبة طويلة.

وليس يدري، وهو يكتب هذه الكلمات، قدْر ما بذل من قدرة التماسك إذن، وهو يسير في طرقات الأندلس، ويرى ما خلّفه قومه فيها، فقد صدعته فكرة المواجهة الدائمة بين الشرق والغرب، على مدى التاريخ الذي عرفه الإنسان. تلك المواجهة التي حلّت محلّ التكامل، بين عطاء الروح وعطاء الفكر وامتدَّ تاريخ الإنسان بينهما على مدى الزمان!

❁ ❁ ❁

ما تزال رسائل الطلبة، وقد أصبحوا اليوم، في الجزائر، أساتذة مذكورين، تصل إلى الشاب، بعد ما يقرب من أربعة عقود، تسأل عنه، وتحمل إليه محبتهم ووفاءهم، وتصله بأخبارهم. وقد دعوه إليهم مرةً ليشارك في ندوةٍ أدبيةٍ أقاموها، فوقف على المنبر الذي عرفه، وتحدّث إليهم في الموضوع الذي اختاروه له «دراسة النص الشعري القديم»، من الوقوف عليه في مصادره، وتفسيره ونقده وتقويمه، إلى ما يلزم هذا الدرس، من الاستعانة بمعطيات العلوم الإنسانية المختلفة.

وشعر الشاب، يومها، بسرورٍ عظيمٍ وهو يطلُّ من نافذة الفندق، الذي نزل فيه، فيرى أفواج الطلاب، وقد خرجوا من مدرستهم، يُنشدون أناشيدهم بلغتهم الصافية، ويُعلون

أصواتهم بها، كأنهم يتحــدَّون الماضي على امتداده!

وأخــذ، بعــده، يجمع حوائجــه، ويتهيأ للعودة. فلما خرج من الباب ليستقلَّ السيارة إلى المطار، لقي زميله الدكتور شكري فيصل يســرع إليه يلوِّح له بيــده مودّعاً. لم يكن كل منهما يدري أنه لن يلقى زميله، من بعدها، أبداً، وأن وداعه له هو الوداع الأخير!

ثم دعَــوه إليهم، مرة أخــرى، بعد وفاة زوجته (١٩٩٥م) فكتب إليهم يقول:

«أشكركم! ولكنّي لا أملك اليوم الاستجابة لكم، فقد رحلتْ مَن كانت ترافقني في الأيام الغنيّة التــي أمضيتها في مدينتكم الجميلة، ولا أملــك إلا أن أعود فأذكرها في كل مكان دخلناه وكل شارع مشينــاه، وكل ركن وقفنا فيــه. وأخشــى ألا أحتمــل هــذه الذكرى، وأضعــف أمامكم عــن التماســك أمامها، فاعذروني...!».





الأموريون واللغة الأموريـة الأصـول السـوريـة

*
فايز مقدسي

تشير بعضــ الكتب والأبحاث التاريخية الخاصــة بالشرق القديم إلى / الأموريين/ أو /العموريين/ على أنهم كانوا ضرباً من القبائل البدوية المتنقلة قبـل أن يستقروا في سوريــة والعراق القديمين ويؤسســوا الممالك، ومن ثم الإمبراطوريات. مثل إمبراطورية الملك /سرجون – شارو-كين/ الأكادي ومن ثــم إمبراطورية الملك /حمورابي/. وتعتمد هذه النظرة الخاطئة على بعض المدونات، وعلى مقاطع من قصائد سومرية تشير إلى الأموريين – العموريين

* أديب وناقد ومترجم سوري مقيم في باريس.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

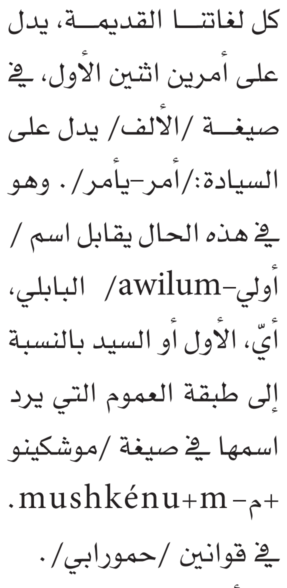
على هذا النحو بعد دخولهم العراق القديم، واختلاطهم مع السومريين سكان الجنوب. وعلى كونهم سكان جبال، وسكان خيمة. «الأموري لا يملك بيتاً. لا يدفن موتاه». أو على ما جاء في نص آشوري يقول شيئاً مشابهاً حول انتصار الملك /سنحاريب/ على الأموريين، وكيف أنهم هربوا أمامه من خيامهم. واستدلوا من ذلك، وبكثير من التحامل، على بداوة الأموريين. وشبهوهم عندئذ بالقبائل العبرية. وربما كان هذا هو الهدف المقصود. أن تلك القصائد السومرية إنما هي، وكما يتبين لمن يدرس الأدب السومري، ومن ثم البابلي القديم، ضرب من شعر /الهجاء/ الذي كان جنساً أدبياً معروفاً الهدف منه الحطّ من شأن الآخر دائماً، دون أن تكون الصورة التي ترسمها القصيدة هي الصورة المطابقة للواقع. ولنا خير مثال على ذلك قصائد الشعر العربي القديم الخاصة بالفخر والهجاء وهي في أكثر الأحيان لا تدل على الواقع، ولا تقول الحقيقة إنما تهدف إلى تشويه صورة الآخر. أما النصوص الملكية التي تسجل انتصار ملك من الملوك في معركة. فلا يمكن أن تكون جدية، حيث أن الهدف منها ليس قص الحقيقة، وإنما تمجيد الملك وأفعاله.

النصوص القليلة تنتقد الأموريين القادمين من الغرب السوري على أنهم لا يسكنون البيوت، بل المخيمات. غير أن هذا الأمر، إذا صحّ، يبدو طبيعياً إذا أخذنا بعين الاعتبار كونهم كانوا يأتون في قوافل تجارية وبهدف التجارة، كما كان يفعل السومريون أيضاً، ومن بعدهم الأكاديون والبابليون، في صعودهم إلى سورية للتبادل التجاري. فمن الطبيعي أن يسكنوا في مخيم كما كان يفعل كلّ التجار آنذاك. وهو ما كان يفعله أصحاب القوافل التجارية الحثية والآشورية والأوغاريتية. وكانت مدة الإقامة في المملكة محددة زمنياً بالنسبة للتجار، كما تبين نصوص /أوغاريت/ الإدارية على سبيل المثال.

من جانب آخر فإن أكثر الوثائق التاريخية التي تشير إلى الأموريين إنّما تصفهم كسكان ممالك في سورية، ومؤسسي إمبراطوريات بعد اختلاطهم مع سكان العراق القديم، كما سبق ونوهنا.

كما أن لغتهم تبدو قريبة جدّاً من لغات المنطقة القديمة من أكادية إلى بابلية إلى كنعانية إلى حثية إلى آرامية ومن ثم إلى العربية التي تبدو وكأنها ورثت كل تلك اللغات وجمعتها فيها.

ويبدو اسم أمورو /أمرو-م- عمرو-م/، والميم صيغة الجمع، من جذر /ا-م-ر-/أو /ع-م-ر-/ لتقابل الألف والعين في


كل لغاتنا القديمة، يدل على أمرين اثنين الأول، في صيغة /الألف/ يدل على السيادة:/أمر-يأمر/. وهو في هذه الحال يقابل اسم / أولي-awilum/ البابلي، أيّ، الأول أو السيد بالنسبة إلى طبقة العموم التي يرد اسمها في صيغة /موشكينو +م-mushkénu+m. في قوانين /حمورابي/.

أما الثاني في صيغة /العين/ فيدل على البناء في صيغة: /عمر-يعمر- عمران/. وهو في هذه الحال لا يدل على بدو رحل غير مستقرين



كما يحلوا لبعض المختصين أن يصنفهم. حيث أن البدو المتنقلين لايسكنون الجبال أو شواطئ البحار كما كان شأن الأموريين، ولا يستخدمون اسم /دجان/ ربّ الحبوب والزراعة في قائمة الأسماء الإلوهية. حيث أن هذا الاسم يدل على اعتمادهم على الزراعة.

وهو أمر تبينه نصوص /أوغاريت/ حين تشير إلى أن القوى السماوية /الملائكة، وفي الأصل الكنعاني/ دار-شمم-/بني السماء أو/ بن -إل/ أيّ وحرفياً، / أبناء اللّه / والمقصود/ مخلوقات اللّه، يفضلون القرابين من منتجات الحقول. وتبين آثار موقع / مريبط/ في سورية على الفرات أن الحبوب وأدوات طحنها كانت معروفة منذ الألف الخامس ق.م. كما أن النصوص تسمي الأموريين - الكنعانيين بـ/أبناء البحر/ وفي الأصل /بن - يم/ مما يشير إلى مهارتهم في أمور البحرية. وهو أمر برهن عليه أحفادهم

في العصر الفينيقي حيث جابوا أنحاء العالم على سفنهم وأسسوا الكثير من المستعمرات على شواطئ المتوسط من المشرق إلى أوروبة وجزر المتوسط.

ومن ثم ينبغي أن لا ننسى أن /حمورابي/، وهو أموري الأصل، كان أوّل من وضع نظاماً مدنياً حقوقياً إدارياً ينظّم علاقة الفرد بالمجتمع وبالدولة، ويحفظ حقوق المواطن، ويحدد واجباته في حالتيّ السلم والحرب. وهو أمر لا يكون سوى في الدولة. ونذكر هنا أنه يرد في قوانين حمورابي اسم قريب من الاسم الأموري هو /مارو-marum-/ وفي صيغة التأنيث /مارتوم-martum/. غير أن العالم /أندريه فيني-A-Finet/ يعتبر في تحقيقه وترجمته للقوانين أن الاسمين يدلان على مفهوم /ابن وابنة/ للفصل بينهما وبين حالة العبد /واردوم-wardum/ فيما يخص الإرث. غير أن ذلك، في حال صحته، لا يمنع أن الاسم في صيغة المذكر والمؤنث يدل على حالة من السيادة وعلو الشأن والشرعية بالنسبة إلى حالة العبد.

ولقد كان البحاثة الأمريكي الشهير /Clay- ألبيرت كلاي/، في كتابه The / - Empire of the Amourites إمبراطورية الأموريين/، ومنذ مطلع القرن الماضي، أوّل من اعتبر الأموريين أصلاً تفرعت عنه المجموعات الأخرى بأسمائها المختلفة، والتي، وفي أكثر الأحيان، تدل على اسم مدينة أو منطقة أو مملكة.

وكان /كلاي/ أوّل من أشار أيضاً إلى نزول الأموريين من لبنان وسورية وفلسطين إلى العراق في زمن غابر من التاريخ /حوالي الألف الخامس ق.م/، محدداً بذلك موطنهم الأصلي، ومشيراً إلى قدم الاختلاط بين الشمال والجنوب.

ولقد فعل ذلك بعد أن فنّد النظريات الأخرى وردّ عليها. وقال إن عدم وجود الكثير من الوثائق الأمورية يعود إلى أنها كانت لغة محكية في المنطقة بألفي سنة قبل ابتكار نظام الكتابة. ولما دُونت كلغة فقد كانت قد تفرعت إلى لهجات جغرافية منوعة، إنما واضح أنها ترجع إلى أصل واحد من حيث صيغة الأفعال والأسماء. وقد فصّل /كلاي/ كلّ هذه الأمور في كتابه الذي ذكرناه وفي كتابه الآخر: /Amurru the Home of the NorthernSemites/ أمورو موطن الساميين الشماليين/. أي، سورية الطبيعية.

والمرجح اليوم، وبعد الاكتشافات الأثرية- اللغوية الحديثة /ماري أوغاريت، وإيبلا، وإيمار، وعمريت، وقطنا، وغيرها/

يعني من البحر إلى الفرات، أن الأموريين كانوا يمثلون سكان سورية القدماء الذين هم في الأصل مزيج من المشرقيين – المتوسطيين، ومن الهندو- أوروبيين / الميتانيين والحثيين/، ومن /الحوريين/ ومن /الكريتيين والقبرصيين/، ومجموع ما اتفق على تسميته بـ/شعوب البحر/، ومنهم الفلسطينيون القدماء الذين، كما نعلم من التوراة كانوا أشد أعداء العبرانيين /اليهود/ ضراوة. وقد اختلطوا جميعاً في زمن غابر فيما بينهم، ومن ثمَّ مع السومريين في / العراق/، حتى صار من الصعب فيما بعد الفصل بينهم. ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن من بين ملوك وحكام مملكة /ماري/ نجد أسماء حثية- ميتانية كشفت عنها وثائق /ماري/ مثل /إيتشوب- إيلوم/. وهو اسم ربّ الخصب الحثي الشهير /تيشوب/ وقد أُضيف إليه اسم/ إيلو+م/ أو /عل/ الكنعاني. وكذلك أسماء إلهية كنعانية في أسماء الإلوهية الحثية. أو زيارة ابن ملك /أوغاريت/ /لماري/ وهي مهمة لأنها تدل على علاقات متينة بين ممالك البحر المتوسط وممالك الفرات. أيّ إن التواصل لم يكن منقطعاً. وفي /ماري/ تمَّ العثور على لوحة تمثل قصة التكوين كما يسردها سفر التكوين التوراتي، وقبله بزمن طويل، حيث نجد شجرة الحياة وشجرتي معرفة الخير والشر تحيط بهما الملائكة. إضافة إلى أنهر الجنة الأربعة. وهو أمر يدل على الاختلاط والتبادل من البحر المتوسط إلى الفرات كما نوهنا. وفي الوقت نفسه، على وحدة النظرة إلى الكون والعالم من الناحية الروحية ومن الناحية المادية.

والاختلاط الذي تحدثنا عنه يبدو واضحاً في الأشكال المنوعة من بشرة سمراء وشعر أسود، إلى بشرة بيضاء وشعر أشقر، إلى العيون المنوعة الألوان سوداء وزرقاء وخضراء كما تبيّن المنحوتات والرسوم القديمة لسكان المنطقة، وكذلك قصائد الشعر الغزلية القديمة في تفضيل السمراء على الشقراء. أو العيون الزرقاء على السوداء. وهي أمور نعثر عليها في الأشعار الشعبية والأغاني التراثية، إلى اليوم. وهذه الأشكال ورثها عن ذلك المزيج العرقي أحفاد اليوم في كل أرجاء المنطقة التي نتحدث عنها. والتاريخ يعلمنا أن تمازج الأعراق والثقافات المنوعة هو الأساس الذي تقوم عليه الحضارات، ومن ثمَّ، الإمبراطوريات. وهو ما حدث، وعلى يد الأموريين.

على مستوى اللغة يستطيع من يتعمق في دراسة لغات الشرق القديمة، وفي لهجات بلاد الشام المحكية اليوم، أن يلاحظ أن تلك

اللغات، وفي نهاية المطاف، هي لغة واحدة تتباين لهجاتها بتنوع المناطق الجغرافية. وذلك رغم الأسماء الكثيرة التي تمَّ إطلاقها عليها، والتي كانت غالباً، وكما سبق القول، اسم سلالة مالكة أو منطقة جغرافية أو مملكة.

فنحن حين نقول اليوم /الأكاديون/، فهذا الاسم لا يدل على شعب خاص، بل على اسم سلالة مالكة حكمت البلاد هي سلالة /شرعو-كين-سرجون/ الأكادي الكبير، نسبة إلى اسم أسرته /أجددي/. وهو اللفظ القديم لاسم /آكاد/. كما هو مدوّن بالسومرية وكما سوف نفصل لاحقاً.

والأجدر بنا في هذه الحال أن نتحدث عن /العهد الأكادي/، كما نتحدث اليوم عن/العصر الأموي/ أو/العصر العباسي/ دون أن نقول اللغة الأموية أو العباسية. بل دائماً اللغة العربية. وكذلك حين نتحدث عن اللغة الأكادية فهي ليست سوى الأمورية القديمة التي كانت لغة المجموعة القادمة من سورية الطبيعية إلى العراق. وسميت أكادية أيضاً نسبة إلى العصر الذي سادت فيه حيث امتزجت مع اللغة السومرية وصارت لغة عالمية ولغة المراسلات الدولية والدبلوماسية في كلّ أرجاء العالم الأربعة المعروفة آنذاك. ولكنها لم تكن في الألواح المدوّنة بالمسمارية سوى المزيج الذي تشكّل فيما بعد من الأمورية الأولى والسومرية وهو المزيج الذي أُطلق عليه في البداية اسم الأكادية ثم اسم البابلية ثم الأشورية. وذلك فيما يخص لغات ما بين النهرين / العراق القديم /. غير أن الأمر ذاته ينطبق على مجموعة اللغات السورية القديمة من كنعانية وحثية وآرامية. ثم إنّ النزول الأموري إلى العراق لم يكن عن طريق الحرب والغزو، بل عن طريق تبادل تجاري -ثقافي- ديني، استغرق زمناً طويلاً. حيث استقر عدد كبير منهم في العراق القديم، وأصبحوا جزءاً من سكانه، واتخذوا أسماء سومرية كما اتخذ السومريون أسماء أمورية، كما تعلمنا الوثائق المسمارية. ولقد تمكن بعض زعمائهم من الوصول إلى سدّة الحكم في بعض الممالك السومرية على نحو ما فعله الملك /شارو-كين/.

ومجموعة الأسماء الأمورية الطابع، التي حفظتها الألواح القديمة، تبين تلك القرابة.

عل المنوال نفسه نستطيع التحدث عن البابليين. فهم ليسوا شعباً مختلفاً عن الأكاديين. وإنما أخذوا اسمهم من العاصمة /بابل/ بعد سقوط إمبراطورية أكاد، ثم تأسيس مملكة /بابل/ فيما بعد.

وكان /حمورابـــي/ يحمـــل لقبـــاً مؤلفاً من كلمـــات سومرية وبابليـــة وأمورية، مما يدل على عمق الاختـــلاط اللغوي والثقافي والديني والعرقي، ومنذ ذلك التاريخ الغابر، وهـــذا اللقب كمـــا حفظتـــه الوثائق هو / لوجال- داجـــان- مارتو--lugal-dagan martu - / . فنحـــن نـــرى هنـــا /لوغال/ السومرية والتي تعنـــي /ملك/، واسم إلهي /دجان/ ربّ الحبـــوب والزراعة الكنعاني، واسم /مارتو/ أي الأموري.

كمـــا أن /حمورابي/ حمـــل أيضاً لقب /أبو-مـــات- عمروم أو أمـــروم/، أيّ سليل الأموريين.

وعلى هذا النحو أيضاً ينبغي النظر إلى أسماء اللغات. حيث يجب أن نكف عن اعتبار اللغة /الحثية/ بفرعيها /الحوري والميتاني/ وكأنها لغة أجنبية، كما فعل العلماء مع اللغة السومرية التـــي دروسها في البداية معزولة عن غيرها، واعتبروها لغة لا علاقة لها بما يسمى من باب الاصطلاح /اللغات السامية/ وهي التسمية الخاطئة التـــي أطلقها العالم الألمـــاني /Schlozer/ في القـــرن الثامن عشر، معتمداً على الكتب التوراتية، على كلّ لغات وسكان الهلال الخصيب. وقد شاعت على مدى قرن من الزمـــن ثمَّ عدل العلماء عنهـــا ومالوا إلى استعمـــال اصطلاح لغات الشرق القديم. فاللغة /الحثية/ هي واحدة من لغات المنطقـــة الواحدة، والتي بدورها، ونتيجة العيش المشترك في كل أرجاء سورية والعراق، تفاعلت مع اللغات الأخرى فأخذت منها وأعطت كما نتبين من النصوص حيث نعـــثر على عدد كبير مـــن المفردات والصيغ اللغويـــة المشتركة التـــي نجدها في كل لغات المنطقـــة وفي العربية التـــي احتفظت بجزء لا يستهـــان به من كلّ تلـــك اللغات. كما أن نصوص العهد الحثي في سورية لا تشير إلى كلمة /ترجمة/ أو /ترجمـــان/ في التداول اليومـــي التجاري، الـــذي كان قائماً، وعلى سبيل المثـــال، بين المراكز التجارية الآشورية في أرجـــاء الإمبراطوريـــة الحثية في سورية الألف الثاني ق.م.، بين الحثيين والآشوريين. مما يدل علـــى أن التفاهم بين المجموعتين كان يتـــم بسهولة رغم اختـــلاف اللهجات. وهـــذا لا يمنـــع أن تكون اللغـــة الحثية من أصل /هندي-أوروبي/ قـــديم كما يستنتج بعض اللغويين. إنما نحن نتحدث عنها بعد انتشارها في المنطقـــة، وتداخلها مع غيرها من اللغـــات. ويبدو اليوم أنه من الضروري، وحتـــى نستطيع فهـــم تاريخنـــا القديم، أن نتخلص من الكثير من المفاهيم الخاطئة التي ساهمت، ولأسباب دينية وعقائدية وتاريخية وسياسية، في تشويه الصورة الصحيحة لهذا

التاريخ، ومــن قبل العديد مــن الأطراف. ويجــب أن نأخــذ بعين الاعتبــار، وقبل كل شيء، العيش المشترك والتداخل والانصهار عبر التاريخ، لــكل المجموعات التي نتحدث عنها، ثقافيّاً ودينيّاً ولغويّاً. وهو ما توضحه لنا أسماء الأعلام والأسماء الإلهية والعقائد الروحيــة والفلسفية. بالإضافــة إلى طرق التفكير وأساليــب الأدب والفن، حيث نعثر على نمط مشــترك في التفكير، وفي أسلوب هذا الفكر الذي أنشأ حضارة ثقافية بعيدة عــن الغيبية المطلقــة وشديدة الاقتراب من الواقع، وقد هدفت إلى تنظيم حياة الإنسان اليومية والروحية. وذلك منذ زمن غابر قبل اليوم. وهي ثقافة عــز نظيرها في التاريخ. وكان إنســان المنطقة أوّل مــن ابتكر نظام الكتابة لتدوين آثــار ذلك الفكر. ومع نظام الكتابــة يبدأ التاريخ المــدوّن وليس التاريخ المنقــول شفهيــاً والذي في هــذه الحال، لا يُركن إليه. ثم تبع ذلك ابتكار الأبجدية التي أعطــت العالم فن الكتابــة الواقعية السهلة. وجعلتهــا في متناول الجميــع وليس حكراً على طبقة معينة كما كانت قبل ابتكار نظام الكتابة الأبجــدي. وعن طريق الكتابة صار بوسع الإنسانية أن تحتفــظ بماضيها، وأن تنقــل فكرها إلى الآخــر. وأن تتواصل عن بعــد. ومعطيات ذلك الفكــر الذي نتحدث عنه قدّمت للعالم حضارة كانت أساساً لما أتى فيما بعد من حضارات دونما مبالغة.

إذا عدنــا الآن لنتابــع تحليــل اســم / أمورو/ جغرافيّاً وتاريخيّــاً. فإننا نجد أنه من الناحيــة الجغرافية يــدل، ومن خلال الصيغــة السومرية للاســم /مارتو/، على جهــة الغرب. أي غــرب /العراق الحالي/. وهــذا الغرب هو حكماً، وكجغرافيا، سورية الطبيعية /أو بلاد الشام/. أما من أين أتى اسم /أمورو/ في صيغته الأولى، وعلى ماذا يدل. فليس من جواب واضح حتى اليوم.

واسم /أمورو/ يُذكر في الوثائق السومرية في صيغة /مارتو/ كاســم أحد أقاليم العالم الأربعــة. أي كل مــن بلاد الشــام والعراق كما كانت تُسمى. ويأتــي في صيغة /ميرا/ في لائحة قوانــين /حمورابي/. ويُذكر اسم /ميرا/ في قائمــة الأسماء الإلهية في ألواح /ماري/ أيضاً. وتشــير الوثائق إلى ضباط عسكريين كانــوا يحملون اسم /آمور/. كما أن الكثير من رسائل أرشيف /ماري/ مكتوبة بلغــة هــي مزيج مــن الأمويــة والحورية والبابليــة القديمــة (الأكاديــة). كما نعلم من بعض رسائــل /العمارنة/ مدى انتشار الممالك الأمورية، ومدى الدور الذي قام به ملوكهــا في الصراع الدولي آنذاك بين مصر الفرعونيــة والإمبراطورية الحثية السورية.

ومدى ذكائهم السياسـي. ومن أشهر هؤلاء الملوك /عبد عشيرة/ القرن ١٤ ق.م. الذي مـدّ يد المساعـدة للحثيين لاحتـلال سهل العمـق الذي يـرد اسمه في نفسـ صيغته الحالية /أمكي-Amki/ ويقع كما نعلم بين انطاكية والأمانوسـ. كما أنه تمكّن بدهائه السياسي كما نعلم مـن رسائل /العمارنة/ مـن جعـل مناطق كثـيرة خاضعـة لنفوذه تذكر الوثائق منهـا /قطنة- تل العطشانة، وحماه، وأوبي- Ubi/دمشق/ ويأتي اسمها بالمسمارية في نفس صيغة اليوم/ دي-مش-قـا- di-mash-qa /وأرواد، وبالمسمارية /أر-وا-دا-ar-wa-da والبـترون/ بات-رو-نـا- bat-ru-na -/وزغرتـا/ ساغ-ارا-تيم Sagaratim- في مراسلات ماري /كما يأتي ذكر مدينة اسمها/ سيمريا--Su-mur// واسمها بالمسمارية قريب جداً من اسم/ سومـر/. إضافة إلى العديد من مدن الساحل اللبناني-السوري.

الغـرب جغرافيّاً هو المـكان الذي كان موطـن الأموريين الأصلـي، والذي منه تمَّ النزول البشري، السلمي والتجاري والثقافي، إلى مـا بين النهريـن، ومنذ مطلـع الألف الثالث ق.م. كمـا تبين وثائق التاريخ المدوّن على عصر /شارو-كـين/ الأكادي. ومن ثم وثائق عصر /حمورابي/.

والأول والثـاني هما مـن أصل أموري.

وأما اسـم /شرعو-كين/ فهو كمـا أسلفنا لقب حمله الملـك الذي يشير في حديثه عن طفولته إلى أن أصله من منطقة على الفرات الأعلى اسمها /الزعفران/ قريبة من مملكة /ماري/. فهو ليس من أصل سومري وليس بالأصل من ما بين النهرين. وإنما من سورية. وأمـا /حمورابـي/ فلا يشك أحـد بأصله الأموري. حتـى إن بعض العلماء المختصين مال إلى تدويـن اسم /حمورابي/ في صيغة /أمورابي/ أيّ /أمـورو/ هو /أبي. أو /أنا من سلالة أمورو/. ليـدل على انتسابه إلى أجـداده الأموريين- السوريين. خاصة أن / حمورابي/ حمل لقب /ملك الأموريين/ بعد أن ضمَّ المنطقة الأمورية إلى إمبراطوريته.

والاسـم /أمورو/، وأينمـا عثرنا عليه، يـدل في آن واحـد على وطـن، وعلى اسم إلهي، وعلـى كلّ المجموع الـذي كان يضم المجمـوع السوري القـديم. الذي امتزج مع المجموع السومري القديم في ما بين النهرين حيث أسس هذا الامتـزاج مجموعاً واحداً، فيما بعد، عـبر التاريخ، وحتى قبل تأسيس الإمبراطوريـة الأكاديـة على يـد /شارو-كين/.

الاسم /أمـورو/ في نصوص/ أوغاريت / يدل أولاً على الإنسـان- الكائن الحيّ / م-ر/. وهـو يقابل في هـذه الحال /امرؤ/

العربية القديمة كما في اسم الشاعر الشهير /امرؤ القيس/. وأيضاً يقابل اسم أموري شهير في أسماء الأعلام الأمورية هو اسم /أب+شت/ أو /أبشة/ أيّ /الحيّ/ المعروف في صيغة /عاش/ يعيش/. واسم /عيش/ ومؤنثه /عيشت/ الذي بقي في صيغة /عائشة/ إلى اليوم. بينما اختفى اسم / عائش/ وحلّ مكانه اسم /يحيّ/. وهذان الاسمان هما من أقدم الأسماء التي أُطلقت على /آدم وحواء/ بمعنى الكائن الحيّ / عيش/. وجدير بالذكر أن اسم الحياة في اللغة السومرية يأتي في صيغة/ تي – ti/. وهو قريب جداً من صيغة /ايت/ أو / إيشت/ الأمورية. ونراه في صيغة /حياتي/ المؤلفة من /حيّ/ ومن /تي/ السومرية. والمقطعان يدلان على الحياة مما يبين مدى تداخل اللغات. وهو ما نعثر عليه في اسم /مار-تو/، في صيغته السومرية وفي جذر /توtu-/ أو /تي-ti/ أو /تا ta-/ الذي يدل كما قلنا على الحياة. والاسم في كلّ صيغه يدل على الحياة والعمران والمدنية. على هذا النحو من التحليل فاسم /مار-تو/ لا يدل فقط على الغرب، بل على معنى /سيد/ كما تبين كلمة /مار/، والحياة كما تبين كلمة /تو/ أو /تي/. أيّ الإنسان. سيد الحياة، بمعنى الأعلى شأناً بين المخلوقات.

ونرى مثل هذه الصيغة في الاسم الإلهي البابلي /مار. دك/ الذي جرت العادة على كتابته في صورة /مردوخ/. فهو مركّب من / مار/ اسم الجلالة. ومن فعل /دكّ/ بمعنى انتصر كما نقول /دكّ معاقل العدو/. وهو يعني /الخالق أو الصانع الأعظم/ حيث أنه دكّ صورة الكون الأولى /الخواء/، وفصل السماء عن الأرض. ثم صنع الإنسان الأول من التراب بعد أن جبله بدم إلهي كما تقص ملحمة الخلق السومرية -البابلية /عندما في العلى/.

واللقب /مار/ لا يزال يُستعمل إلى اليوم. وهو كما نعلم، يسبق أسماء القديسين السوريين.

وفعل /دكّ/ لا يزال موجوداً في العربية وبالمعنى ذاته.

ولقد احتفظت الكثير من الأسر والأماكن في /سورية ولبنان/ باسم /أمورو- عمورو/ في أشكال مختلفة مثل /عموري وعمورة وعمريت ومورة وماري ومريم وعمار وإيمار ومعمار وعامر وعمورين ومارون وعمري/. مما يدل على ترسخه في الذاكرة الشعبية، وفي الأغاني الشعبية، وعلى نحو خاص، استعمال لفظة /أمور/ في الأغاني الشعبية للدلالة على الوجه الحلو: /صبية أمورة/. أو /شاب أمور/.

إضافة إلى ما سبق فثمة إشارة تاريخية جغرافيــة هامة فيمــا يخص شيــوع اسم المجمــوع الأمــوري، وسيادة هــذا المجموع وانتشاره، وهــي أن البحر الأبيض المتوسط كان يُطلــق عليه قديماً عند البابليين اسم /بحر أمورو العظيم/. وهو اسم أصبح في وقت لاحق من التاريخ، وعندما اكتسب الأموريون الاسم الســوري، /البحر السوري/. قبل أن يأخذ اســم المتوسط المعروف إلى اليوم. ولا يستغرب المــرء ذلك، فعلى شاطئ المتوسط، وفي الجبال المطلة عليه، قامت أكثر الممالك الأمورية التي عرفها التاريخ القديم. وعلى ضفافه جرت الحوادث التي تقصها نصوص /أوغاريت/، والتــي، وإن جاءت على شكل أساطير، فهي تقص، وعلى طريقتها، حكاية خلــق العالم وتنظيــم الكون. وهــو ما نعثر عليــه في صورة أكثر اكتمــالاً في كتابات ما بين النهرين الشهيرة مثــل قصيدة التكوين /إينوماإيليش/. أو /عندما في العلى/.

وهنــاك رسالة في وثائق مملكة /ماري/ على الفرات، تعدّد عدة ممالك أمورية منها مملكة /يمحاضــ/ وعاصمتهــا /حلب/. ومملكة /قطنا/. ثم مملكة /أمورو/ كمملكة ساحلية. كما أنها تشــير، وعلى نحو يفتقد إلى الوضــوح، إلى اتحاد عدة ممالك أمورية تذكر منها مملكــة /حاصور/ في فلسطين، ومملكة /أفوم/، وعاصمتها /أوبي-Ube/، وهو اسم دمشق القديم. ثم، وفي وثائق القرن الثالث عشر ق.م، نسمع أخبار مملكة أمورية خاضعة للنفوذ الحثي السوري، وتقع جنوب /أوغاريت/ وشمال /جبيل-بيبلوس/، ولكن لا ذكر لاسمها أو اسم عاصمتها.

ونلاحــظ أن النصوصــ التوراتية تشير إلى وجود الأموريين في أرض كنعان متحدين في السراء والضراء مــع إخوتهم الكنعانيين والحثيين أصحاب الممالك القوية في الحروب ضد الغزاة البــدو/ العبرانيين/. وذلك كما تقص أسفار التوراة، وهي تصب اللعنة على الجميع بما فيهم المجموع الآرامي. ونكتفي هنا بالإشــارة إلى كون مدينــة /أورشليم-القدس/ كانــت حاضرة المجمــوع السوري المشترك بامتياز، كما تدل العبارة الواردة في سفر /حزقيــال-١٦/، حيث يخاطب النبي المذكور/أورشليم – القدس/ قائلاً لها: «... هكذا قال السيــد الربّ /يهوه/ لأورشليم : مخرجــك ومولدك من أرضــ كنعان. أبوك أموري وأمّك حثية».

وإلى القــارئ نبذة سريعة عن ما تذكره الكتب التوراتية عن الأموريين وعن الممالك الأموريــة في فلسطــين وشــرق الأردن في منتصــف الألــف الثــاني ق.م. /أورشليم-القدســ/ و/الخليل/ و/عجلون/ ولا ننسى

مدينـــة /عمورة/ الشهـــيرة. وممالك أخرى في شـــرق الأردن. وسفر التكويـــن التوراتي يعتـــبر الأموريين من سلالة كنعان. /تكوين. ١٠/١٦/. ويشير إلى القرابة بين الكنعانيين والأموريـــين. أمـــا سفر/التثنيـــة ٤٤-١/ فيشير إلى أنهم كانـــوا يسكنون الجبال وقد حاربـــوا /العبرانيين/ بشـــدة في فلسطين: «خرج الأموريـــون الساكنون في ذلك الجبل وطردوكم» والكلام موجه لبني إسرائيل. كما يشير إلى أن ممالك الأموريين كانت تتحد في الحروب ضد الأعداء.

هكذا نلاحـــظ، ورغـــم التشويش الذي يكتنـــف نصوص التـــوراة وافتقادهـــا للمصداقية التاريخيـــة، أن الأموريين كانوا ســـكان مـــدن ومؤسسيّ ممالـــك منذ زمن غابـــر. ومما يدل علـــى كـــون اسمهم يدل على أصحـــاب الأمر، كما أسلفنا، أن سفر/ عاموس- ٢/ يقول عنهم أن «قامة الأموري مثـــل قامة الأرز وهو قـــوي كالبلوط». وكلّ ما سبق يدل علـــى أناس مستقرين وفرسان متمرســـين في فن الحـــرب، وليسوا رعاة أو قبائـــل بدوية تغزو أطراف الحواضر كما تمَّ تصويرهم في الكثير من الأبحاث وبأكثر من لغة. حتى أن البعض تمادى كثيراً، ولأسباب دينية وسياسية، فجعل منهم أسلاف الأقوام /العبرية/ التي دخلت أرض كنعان. وواضح أن هناك غاية من مثل هذا الكلام. حيث ما من ذكر، وحتى في الكتب التوراتية، لمثل هذا الموضـــوع. ونذكر هنا أنـــه حتى /إبراهيم/ الذي تمَّ اعتباره جـــداً أو أصلاً للعبرانيين، اعتبر نفسه غريبـــاً في أرض كنعان بالنسبة إلى سكانها المحليين.

يعتبر العلماء اليوم، وبعد دراسة الوثائق المتنوعة، أن أقرب لغة إلى /الأمورية الأمّ/، من خلال دراسة المفردات وأسماء الأعلام، هي اللغة الكنعانية، وعلى نحو أخص، الفرع الفينيقي، من لغـــات غرب المنطقة /سورية ولبنان/ أو موطن الأموريين الأصلي.

ونعلم من وثائق العهد الأكادي أن لهجة الأموريـــين بعد دخولهـــم العراق القديم قد اختلفـــت بعض الشـــيء عن لهجـــة الذين سبقوهم، فيما يخص تصويت أحرف العلة، وتدوين بعض صيغ الكلمات.

إنَّمـــا يجـــب أن ننـــوه أن هـــذه الأمور نلاحظها كلما انتقلنا من لغة إلى أخرى من لغات المنطقة.

كما هي حال اللغة الآرامية التي لا تزال قائمة.فلفظ الأحرف الصوتية يختلف فيها ما بين لهجـــة سورية ولهجة العـــراق. إنَّما الجذر لا يتغير.

ولا ننســـى أن الأموريـــين الأوائل كانوا

قد تأثروا بصيــغ اللغة السومرية مما جعل لهجتهم تختلف عن لهجــة أسلافهم الذين بقــوا في الغرب السوري. غــير أننا نرى أن الناســ في العهد الأكادي كانــوا يستعملون اســم اللّه في صيغته الأموريــة. وأقدم اسم للّه في الآمورية القديمة، كما نعلم من لوائح الأسماء الإلهية، هو /لي/ أو /عالي/، يعني /العلــي/ كما في كلّ لغات المنطقة الأخرى. وهــو بقي في العربية في نفســ الصيغة: / تعالى/. وهذا ما فعله سكان الجنوب أيضاً، أيّ السومريون، الذين تبنوه بصيغة سومرية هــي/إن- ليــل/En-/Lil/ أيّ /الذي في الأعالي/ أو /ربّ السماوات/.

ويأتي أيضــاً في صيغة / إن-ليل-تي / En-lil-ti/ أيّ الحيّ الذي في الأعالي، أو القوى السماوية.

وهو يقابل عندئــذ اسم /عل-El/ كما يــرد في نصوص أوغاريت الكنعانية، وأيضاً في كنعانيــة /فلسطين/ القديمة حيث يأتي في صيغة /عليون/ أيّ العالي أو تعالى.

ويأتي اســم /أمورو/ أيضــاً في رسائل /تل العمارنة/ في صيغــة /ا-مو-ري--A mu-ri/ وفي صيغــة /أ-مــو-ور-را--A mu-ur-ra/. وكان يُكتب أيضاً في صيغته السومرية /مار-تو-كي-Mar-tu-ki/.

ولفظــة /كي/ السومرية تعنــي /أرضاً أو بلــداً/ والاسم في هذه الحال يعني /بلاد الأموريين/.

أمــا بالمصرية القديمة فــكان يُكتب في صيغة /أمور-Amor/. وفي بعض مناطق جنوب العراق القديم كُتب الاسم في صيغة/ امي-ريا/، ممــا يذكرنا بالصيغة /امرؤ/ الــواردة في نصوصــ /أوغاريــت/ والتي ذكرناها فيما سبق. وبعض الباحثين يميلون اليــوم إلى الاعتقــاد أن /أوغاريت وجبيل وعمريت وطرطوس وأرواد والآلاخ واللاذقية وبانياس وصــور وصيدا وبيروت/ كانت من ضمن الممالك الأمورية على حوض المتوسط الــذي حمل اسم /بحر أمــورو/ قديماً كما ذكرنا.

يصنف اللغويون عادة اللغة الأمورية في قائمة اللغات المشرقية الشمالية الغربية. أي بلاد الشام.

أما إذا أخذنــا بعين الاعتبار، وكما هي وجهة النظر التي يتبناهــا هذا البحث، أن الأموريــة هي اللغــة الأمّ لكل ما تفرع عنها فيمــا بعد مــن لغات-لهجــات. فنستطيع عندئذ أن نعتــبر أن كل المدونات المسمارية من آكاديــة وآشورية وكنعانية وحثية، وفيما بعــد الآرامية، هي أمورية أو متفرعة عنها. ونصوص مملكة /مــاري/ على الفرات في سوريــة تذكر أن اللغات السومرية والحورية

والآكادية والأمورية كانت سائدة ومنتشرة في الحياة اليومية. مما يدل على سهولة الانتقال آنذاك من لغة إلى أخرى أو من لهجة إلى أخرى.

الآن يجب طرح السؤال: كيف تمّ الاختلاط بين كلّ تلك المجموعات واللغات في بوتقة الهلال الخصيب الجغرافية؟

لقد كان السومريون، أو /الشمريون/ سكان جنوب العراق أصحاب بشرة سمراء بالنسبة إلى الأقوام التي نزلت من الغرب أيّ من (سورية) إلى ما بين النهرين أو العراق أو /ميزوبوتاميا/. ولهذا السبب ولما كانوا لا يعرفون اسماً لهم فقد أطلقوا عليهم اسم /شمر/ أيّ أصحاب البشرة السمراء. ولقد لصق هذا الاسم بهم في صيغة /سومر/ و/سومريين/ ودخل إلى كلّ اللغات في هذه الصيغة //Sumer. أما اسمهم الحقيقي فهو، وباللغة السومرية، /كينجي --Kien gi /، واسم لغتهم /إيمجيEme-gi/. ونلاحظ بسهولة أن اسم السومريين / كينجي/ احتفظت به عائلات كثيرة في المنطقة إلى اليوم حيث هناك بيت أو أسرة /كنجي/ و/كنجو/ وكنج/. ولا نزال حتى اليوم، وعلى سبيل المثال، نستعمل كلمات لا نعرف أصلاً لها، ونستخدمها في لغة الأطفال. ومنها كلمة /دادا أو دادي/ التي نقولها للطفل الذي يبدأ في المشي فتغني له الأمّ /دادي يلايلا/ وأصل الكلمة من فعل /دو-du/ السومري الذي يدل على المشي. وتُصوت الكلمة كما نريد: دا-دو-دي. وهناك كلمات شعبية أخرى ذات أصل سومري بقيت إلى اليوم في بعض لهجات الأرياف نذكر منها هنا كلمة /قبّ/ التي تأتي في صيغة فعل أمر بمعنى /قم/. وهي في السومرية القديمة /جوب-gub/ (تُلفظ الجيم مصرية)، وهي تعني: انهض أو قفْ. أو كلمة أخرى هي /راكّا-بو--rakka bu// دخلت من /الأكادية أو الأمورية القديمة/ إلى السومرية في صيغة /را-جا-با/ (تلفظ الجيم مصرية) وتعني /رسولاً أو مبعوثاً. ولكنها في تركيبها الأول كانت تعني/ ركب /أو الراكب على الحصان/ الذي يحمل البريد.

المجموعة التي نزلت إلى شمال العراق القديم هي المجموعة الأمورية الأولى التي كان منها الملك الشهير /سرجون الأكادي/. والاسم يُكتب في صيغة /شرعو-كين/ مؤلف من مقطعين الأول /شرعو/ لفظة أمورية قديمة تعني /الشرعي/ كما هو واضح. والثاني /كين/ لفظة سومرية بمعنى / الملك/ والاسم يعني في هذه الحال: الملك الشرعي. السومريون أطلقوا بدورهم على

الأموريين القادمين من سورية، أيّ من الغرب، اسم الغربيين أو /مارتو/. ولعلهم وجدوهم أقل شأناً في مجال الحضارة منهم فانتقدوهم في بعض القصائد ذات الطابع الهجائي كما ألمحنا في مطلع هذا البحث. غير أن المجموعتين ما لبثتا نتيجة التعايش المشترك أن شكلتا مجموعة واحدة في أنحاء العراق القديم. وثم مملكة واحدة على عهد /سرجون-شارو-كين/ وهي المملكة التي عُرفت باسم / أكاد/ فيما بعد.

الأموريون الذين استقروا في العراق كانوا دونما شك يتكلمون لغتهم الأمورية التي أطلق عليها العلماء اسم اللغة الأكادية نسبة إلى اسم عاصمة المملكة /أكّاد/. وهي تسمية تدل على مدينة وعلى اسم سلالة مالكة وحسب. ثم، فثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو إن لم يكن أولئك الناس يتكلمون الأمورية، أو لهجة كنعانية متفرعة عن الأمورية الأم، فأية لغة كانوا يتكلمون. والوثائق المسمارية المدونة لا تشير إلى لغة أخرى. هكذا نرى أن الاحتمالات الأخرى شبه معدومة.

ولا ننسى أنَّ المختصين أطلقوا /الأكادية/ على تلك اللغة لأنهم لم يعرفوا اسماً آخر لها. ثم، ونتيجة التعايش المشترك، فقد اقتبس/ الأموريون/ في العهد الأكادي نمط الكتابة السومري المسماري لتدوين لغتهم المحكية. وعلى هذا النحو فقد استعاروا العديد من مفردات وصيغ اللغة

السومرية ونقلوا إليها الكثير من مفرداتهم وصيغهم اللغوية، وإن احتفظت كل لغة من الاثنتين بما فيها من خصائص نحوية. وذلك كما بينت دراسة النصوص القديمة المكتشفة، ومنذ أكثر من قرن ونصف من الزمن. ذلك التمازج لم ينحصر على اللغة، بل امتد فشمل العبادات الدينية والفلسفة والفنون الجميلة والأدب والعادات والتقاليد. وهو الأمر الذي حدث أكثر من مرة في تاريخ المنطقة، والذي جمع في بوتقة واحدة كلّ الجماعات السورية القديمة من سومريين وأموريين وكنعانيين وحثيين وآشوريين وآراميين في مزيج عزَّ نظيره في التاريخ. لذلك لا يستغرب المرء أن يعثر على كلمات لا تزال مستعملة إلى اليوم من أصول متعددة بما فيها الأصل السنسكريتي الهندي كاسم /سورية/ الذي يدل على الشمس في اللغة السنسكريتية القديمة. ويُفسر الأمر باحتمال كون /الميتانيين/ السوريين القدماء الذين استقروا في أعالي الفرات قبل الحثيين كانوا من أصل هندو-أوروبي قديم جداً. (انظر لائحة المفردات السنسكريتية آخر هذا البحث). وربما كان

لهـذه التسمية السنسكريتيـة /الشمس في السماء /علاقة باسـم/ شام - Sham// الذي يـدل في الأمورية، وما تفرع عنها من لغات، علـى السماء أو الجنة وعلى الشمس إذا أضفنا إليه حـرف السين. وهناك اسم قديم جدّاً تذكـره بعض النصوص لتدل به على موطن الأموريين القديم، وهو /ت-ي-د/ ن-و-م/ T-i-d/ n-u-m/. ونلاحظ في النصف الثاني من الاسم كلمة /ن-و-م/ والتي تقابل كلمة /نعم أو نعمان/ كما تأتي في مفردات /أوغاريت/ وتدل على النعيم أو الجنة. وكذلك الاسـم الآشوري الذي أُطلق على دمشق وهـو: /شا-ميري-شو--Sha imeri-shou/ / ونرى فيه صيغة مطولة لاسم /شام/. لا ننسـى أن نشير أن واحدة من أشهر ساحات دمشق أو /الشام/ تحمل اسـم /المرجة/ أيّ الحدائق والمروج، والتي تدل علـى صورة الجنة أيضـاً. ونذكر هنا قول الجغـرافي الشهير /ياقوت/ من أهالي القرن ١٣م. في كتابه /البلدان/ إذ قال بعد زيارتـه لدمشق: «وجملة الأمر أنه لم تُوصف الجنة بشـيء إلاّ وفي دمشق مثله» غير أننا، وهذه إشارة مهمة، نعثر على اسم /سورية/ في نصوص /أوغاريـت/، وفي صيغـة / شرين-Shryn/، ولقد تحولت /الشين/ في اسم /شرين/ إلى /سين/، وهو أمر معروف في لغاتنا القديمة كما في كلمة /شلم وسلم/ وهمـا الكلمة نفسها التي تدل على السلام، فصـار /سرين/. ثـم اتخذ الاسـم صيغة مختلفة قليـلاً، نتيجة اختـلاف التصويت مع الزمـن، هي /سيريانا/ التـي أصبحت مع الاستعمال /سيريـان/ ثم سقطت النون وصار الاسم /سيريـا/ وهو اسم سورية إلى اليـوم كما دخـل إلى الإنجليزية Syria ثم أخذ صيغة سورية.

واسم سورية يأتي في رسائل /العمارنة/ في صـورة /سـوري-Suri/ أيضاً في دلالة على الميتانيين السوريين. وهو كما سبق يدل على الشمس في اللغة السنسكريتية القديمة. ونلاحظ أن اسم المشرق أطلق على كل أرجاء بلاد الشام أو سورية الطبيعية في دلالة على مكان شـروق الشمس. ونلاحـظ أيضاً أن هـذا المعنى موجود في الكلمة الفرنسية Le Levant التـي تُطلق على سورية الطبيعية، وتدل على جهة شروق الشمس. ولعلَّ لكلمة /شرين /الأوغاريتية/ علاقة بجذر ش-ر-ن الذي أعطى اسـم /شريان/ الذي يحمل الدم مـن القلب إلى كل الجسـم كما تفعل أشعة الشمس إذ تنشر النور في كل الأماكن. وفي القـرآن الكريم: /وأشرقت الأرض بنور ربهـا اسم /سريانا/ بقي يـدل على سورية والسوريين زمناً طويلاً، وحتى العهد الآرامي

حيث أُطلق اســم الآراميين على السوريين. إنما، وبعد انتشار المسيحية في البلاد، صار المسيحيون السوريون يستعملون مجدداً اسم /السريان/ لأن اسم /آرام/ ارتبط في ذهنهم بالوثنية التــي عدلوا عنهــا إلى المسيحية. أما اليوم فاســم /سريان/ يدل على طائفة مسيحيــة في سورية ولبنــان والعراق. غير أن هــذه الصيغة /سريان/ بقيت لتدل على السوري في اللغات الأوروبية. ففي الفرنسية، على سبيل المثال، نقــول Syrien/سريان/ لندل على شخص سوري.بينما توجد كلمة / Syriaque– سرياك/ للدلالة على الطائفة السريانية والكتابات السريانية اللغة. وكذلك الأمر في اسم الآشوريــين فالفرنسية تكتبه في شكل Asyriens/ اسريان/ حتى تميزه عن ســوري.و كذلك الأمــر في الإنجليزية واللغات الأخرى. وربمــا كان اسم /آشور/ أو /اســور/، واسم مدينة /صور/ في لبنان، من الجذر نفسه /شرين/. فاللغة الفرنسية تكتب اســم /صور/ بحرف /التاء/ Tyr/، لتفــادي سوء التفاهم. لأننــا إن تكلمنا عن سكان /صور/ وقلنا إنهم/صوريون/ فسوف نحصل علــى اسم /سوريين/ لتقابل الصاد والسين.

تشير نصوصــ /إيبــلا/ إلى اسم ملك من ملوك /إيبــلا/ كان يحمل اسم /أمور–تي/. ووثيقة أخرى من ما بين النهرين تذكر انتصار الملك البابلــي / شار–كالي–شاري/ على /مارتو/ الأموريين. والمعركة جرت كما تذكر الوثيقة على سفح جبل /بسري/ اليوم جبل /بشرى/ في الجزيرة السورية، أعالي ما بين النهرين، ممــا يؤكد نظرية كونهم نزلوا إلى ما بين النهرين من سورية. كما أن وثائق السلالة الثالثة التي حكمــت مدينة /أور/ الألف الثالــث ق.م. في العراق القديم تذكر وجود الأموريين في سومر بتسمية /مارتو/ طبعــاً. ثم يأتــي ذكر الأموريــين بكثرة في الوثائــق الإدارية التي تشير إليهم على شكل جماعات مستقــرة. وذلك قبل زمن الملك / حمورابــي/. وهناك رسالة من أحد الحكام لأمراء السومريين وهو يحمل اسم /إيشبي–أيرا/، ومن مدينة /إيسين/، يُعلم فيها الملك أن الأموريــين /مارتو/ قــد احتلوا العديد مــن المدن في أرض /سومر/. ثم تبدأ تظهر أسماء أمورية الطابع لبعض المدن والمناطق السومرية. وهي أسمــاء لم تكن معروفة من قبل ســوى بأسمائها السومريــة. لاشك أن الأموريين أطلقوا علــى مواطنهم الجديدة، وبعد الاستقــرار، أسماء مناطقهم التي أتوا منهــا. ونلاحظ أن السوريــين الذين دخلوا الأندلس في العهــد الفينيقي ثم الأموي قد فعلــوا الأمر نفسه مــع بعض مدن ومناطق

الأندلس. وهذا ما يلاحظه المرء اليوم عندما يزور الأندلس، في أسماء مثل حماه والجزيرة وطرطوس وبرج الشام وغيرها. ناهيك عن الكثير من الأسماء الكنعانية ذات الأصل الأموري - الكنعاني. ثم، وبعد ذلك، تبدأ الوثائق السومرية تذكر أسماء زعماء وأمراء أموريين مثل الأمير /رابي-ان-عبدا-إل/ الذي نعلم أنه زوّج ابنته لابن ملك مملكة /إيشونا/ السومرية. وهذا الأمر يدل على بداية الاختلاط الأثني بين الشعبين. ثم استولى بعض زعماء أمورو على بعض الممالك والإمارات السومرية. وهو الأمر الذي بدأ به /شارو-كين/ عندما استولى على الحكم في سومر وأعلن نفسه ملكاً شرعياً نصبته على العرش الربة /عشتار/ باسمها الأموري -البابلي- الكنعاني، وليس باسمها السومري/إنانا/.

وراحت تظهر سلالات حاكمة أمورية في المدن السومرية مثل /لارسا/ و/أوروك/ وكيش/ و/بابل /. ثم نرى سلالات أمورية حاكمة في الغرب أيضاً في /ماري/ و/ حلب/ و/ قطنا/. وما لبث أن ظهر على مسرح التاريخ الملك الأموري / حمورا-بي/ أو / أمور-ابي/ الذي ورث عن أبيه مملكة صغيرة واستطاع أن يؤسس إمبراطورية ضمت كلّ مناطق الهلال الخصيب مقتدياً بذلك بما فعله أموري آخر قبله بقرون هو / شارو-كين/ الأكادي. وكانت /بابل/ عاصمة إمبراطورية /حمورا-بي/ التي امتدت إلى المتوسط لتشمل جزيرة قبرص وكريت. وذلك، وكما قلنا سابقاً، في مطلع الألف الثاني ق.م.

في ختام هذا البحث نشير إلى أنّ آخر ذكر لدولة -مملكة أمورية يعود إلى أواخر الألف الثاني ق.م. وهي مملكة يأتي ذكرها في رسائل /العمارنة/، وفي حوليات ملوك /أوغاريت/ القريبة منها. حيث تُذكر مملكة أمورية في جبل يُطلق عليه اسم /أنصاري/ دون تحديد. وربما كان هذا الاسم هو اسم المنطقة الجبلية التي تُسمى اليوم /وادي النصارى/ وجبال العلويين/ المطلة على المتوسط. ومن المدهش أنه توجد في تلك المنطقة الجبلية بلدة صغيرة قريبة من/ مرمريتا/ (ونجد في المقطع الثاني من اسم هذه المدينة /مار -ماريتا/ صيغة تدل على اسم أمورو في صيغته السومرية مارتو بتصويت مختلف لا يغير من طبيعة الاسم) اسمها /الزعفران/. وهو اسم البلدة نفسها التي يقول/شارو-كين/ الأموري-الأكادي أن أجداده كانوا يسكنونها في الماضي. وهي بدورها تقع في الجبال كما يذكر النص الذي يتحدث عن ولادة الملك. المشكلة الوحيدة

التـــي تعقّد الموضوع هـــي أن /شارو- كين/ يضع مدينة أجداده على شاطئ /الفرات/. فهل تراه تعمـــد الأمر حتـــى يأخذ شرعية أكـــثر بالنسبة إلى السومريين. أمّ أن أسلافه أقامـــوا علـــى الفرات بلدة جديـــدة أطلقوا عليها اســـم البلدة التي جـــاؤوا منها في ما غبر مـــن الزمن.؟ ولنتذكـــر أن الكنعانيين- الفينيقيين فعلوا الشيء نفسه، وكما ذكرنا، في أنحاء الأندلس.

ونشير أخيراً إلى أنّ النصوص القديمة، بمـــا فيها التـــوراة، تذكر الأموريـــين دائماً كســـكان جبال وهو ما يدل عليه اسم /كور- مارتـــو- kur-martu/ جبل الأموريين/، الذي نعثر عليه في الوثائق السومرية.

وكلمة /كور/ تدل على الأرض- الوطن. ويقابلهـــا اســـم /شـــادو- shadu/ الجبل بالأكادية.

ونذكـــر هنـــا أن /شارو- كـــين / أسس مدينـــة /أكاد/ وجعلها عاصمة له. والمعادل السومري لاســـم /أكاد/ هو (ي-أج-جيد- e-ag-gid) ونـــرى أن الصيغـــة السومرية تكتب لفظة/ أجدادي/ الأكادية، وهو معنى اسم /أكاد/، أيّ مدينة أجدادي الذي أطلقه /شارو-كين/ علـــى عاصمته التي لم يتمكن الأثريـــون من تحديـــد موقعها الجغرافي في العراق بعد. ولكن إذا انتبهنا إلى قرب اسم / بغداد/ من اسم/أكاد/ في صيغته السومرية التي ذكرناها فإننا نعثر على اسم / ب+جدد /أو بغداد. وهذا تحليل شخصي قد لا يتفق معه الجميع.

ومما يعزز مقولة كـــون السوريين مزيج مشرقي -متوسطي-هندو -أوروبي أن المرء إذا بحـــث في مفردات اللغـــة السنسكريتية الهنديـــة القديمـــة التي تُعتـــبر أصلاً لأكثر اللغـــات الأوروبية فإنه يعثر على العديد من المقابلات مع مفردات لغاتنا القديمة ولغتنا العربية الفصحى ولغة الحياة اليومية.

ولقد قمنا بإجراء هذا البحث فعثرنا على طائفة لا بأس بها من المتقابلات إلى القارئ بعض النماذج عنهـــا. ونلفت الانتباه إلى أن في قواعد ونحـــو العربية بعض الخصائص السنسكريتية كما أن /الخليل/ نسق معجمه الشهير حسب النظام الأبجدي السنسكريتي الذي يبـــدأ بحرف /العـــين/ ولذلك سماه باسم هذا الحرف. أما المفردات فهي:

أســـ /as/ بالسنسكريتيـــة تـــدل على الوجـــود. ويقابلها بالعربيـــة /أس/ للدلالة على الوجود. وهي تأتي دائماً في صيغة نفي الوجـــود /ليســـ/. وفي السومرية نعثر على اسم الوجود البدئي في صيغة /ابسو/

أيـــو// ayu بالسنسكريتيـــة تدل على مـــا هو حيّ. ويقابلهـــا بالعربية /يحي/ أي

الحـــيّ. واللفظة السنسكريتيـــة نعثر عليها في صيغة /ايوا/ التي نستعملها في المحكية ونقصــــد بها تأكيد الوجـــود. فلان موجود؟ ايوا موجود.

بـــالا/ /balaبالسنسكريتية تعني القوة والبأس. ويقابلهـــا بالعربية /بلاء/ كقولنا: أبلى بلاء حسناً. أي كان قويّاً وشجاعاً.

بهاجا -bhaga// بالسنسكريتية تعني البهجة واللذة. ويقابلها بالعربية /البهجة/ بمعنى الفرح.

بهاســ//bhas بالسنسكريتيـــة تعنـــي النور. ويقابلها بالعربية /البهاء/ أو النور.

دايا / daya بالسنسكريتية تعني الرحمة والشفقة. ونعثر عليها في المحكية السورية / دايـــة/ وهي المرأة التي تساعد الحامل على الولادة. ونرى فيها معنـــى الرحمة ومد يد العون.

ريشـــي/ rishi وتعنـــي بالسنسكريتية الحكيـــم. أو الرأس. ونجدها في الأكادية / راش/ بالمعنى نفسه ومنها كلمة رئيس. وهي بهذا المعنى في بقية اللغات المشرقية.

هـاثا / hathaوتعنـــي السرعة. ونجد لها المقابل / حث الخطا. أيّ أسرع.

كيرميجـــا/kirmija وتـــدل على اللون القرمزي. وهي نفسها بالعربية /القرمز/. وفي أكثر اللغات الأوروبية والمشرقية.

هـالدا/halda وتعنـــي السعادة وهدوء النفس. ونجد لها ما يقابلها في تعبير /أخلد للراحة/.

كارميــــه/karmé وتعني قام بعمل دون أجر. ونجد مـــا يقابلها في المحكية السورية في تعبـــير /كرمـــالي/ أيّ افعـــل ذلك مجاناً كرمالي.

كولا/ kula وتعني الجماعة أو العائلة. ونجدهـــا في كلمـــة / كل/ التـــي تدل على المجموع.

كالام /calam وتعني إقليم أو منطقة. ونجدهـــا في السومريـــة / كلام / بالمعنـــى نفسه.

واللفظـــة السومرية بقيـــت في العربية إقليم بالمعنى نفسه.

إيسا -إيشـــ/ isa-eesh وتعني القوة الإلهية المتعالية. ونجدها في اسم /عيسى/ يسوع /المسيح.

ونجد /إيش/ في اســـم /عيش/ الحياة في كل اللغات المشرقية القديمة.

ناد/ nad وتعني الضجيج. ونجدها في فعـــل /نادى-ينادي/ أيّ صنع ضجة صوتية ليسمع الآخر.

وتأتي كلمة /ناد/ السنسكريتية أيضاً في صيغة /نادا – nada / لتدل على الصوت الكـــوني الأول الـــذي به تمَّ خلـــق العالم. أو

مناداة العالم لكي يكون. وهي قريبة في هذه الحال من فعل الأمر /كُنْ/ الذي به صنع الله العالم في المفهوم الديني إذ قال للشيء أو ناداه قائلاً : كنْ. فكان أو يكون.

باركار/parcar والباء تلفظ فاء. والكلمة تدل على سرعة التنقل والدوران. وهي تبدو قريبة من تعبير / فرّ وكرّ/.

ساميا/samya وتعني الزهو والكبرياء. ونجدها في سما بنفسه أيّ على بنفسه. وفي السمو كقولنا سمو الأمير.

براسادا-prasada. الباء تلفظ فاء. والكلمة تدل الهدوء والنقاء والسلام. ونراها قريبة من فردوس الذي فيه كل الصفات المذكورة. وهذه الكلمة الآرية-السنسكريتية بالذات دخلت أكثر اللغات باللفظ والمعنى نفسهما.

أوم /O.M/ وهي كلمة غامضة مؤلفة من حرفين وتعني أصل الكون والوجود. ولعلَّ لها علاقة بكلمة /ME/ السومرية التي تدل على المعنى نفسه. وبكلمة /أم/ كما هي في كل لغاتنا القديمة وبالعربية، والتي تدل على الأمّ التي تعطي الوجود فهي أمّ الوجود.

وهي قريبة من تركيب كلمة /ماء/ و/يم/ بمعنى البحر كما هي في الكنعانية (الأحرف الصوتية لا تؤخذ بعين الاعتبار). كما أنها قريبة من لفظة /مم/ في لغة الأطفال التي تدل على الأكل الضروري للحياة. ولفظة / مم...مم... تقولها الأمّ لتحث طفلها على الأكل.

وفي السياق نفسه تأتي كلمة سنسكريتية أخرى هي /مولا-mula/ وتدل على الأصل أو الجذر. ونراها قريبة في الصوت والمعنى من كلمة اشتهرت في العهد العباسي على نحو خاص. وكانت تُطلق على من يلحق نسبه بإحدى القبائل العربية فيقال له /مولى وتجمع على موالي/. أيّ إن الشخص يصبح أصله عربيّاً. وقد اختلف علماء العربية آنذاك حول معنى هذه الكلمة وأعطوها تفسيرات مختلفة.

ميتا- mitha/ وتعني عدم الوجود أو العدم. ونلاحظ قربها من كلمة /موت/ التي تدل على المعنى نفسه في كل لغاتنا القديمة وفي جذر /مت/.

سمارا- smara/ وتعني ذكريات. ولعلها هي التي أعطت فعل /سمر/ واسم /سمير/.

والسمر في العربية هو تبادل الحديث واستعادة أخبار الأولين، أو تذكّر أحداث الماضي.

إيكا-eka/ وهي تدل على المفرد المؤنث الموجود. ونراها دخلت المحكية السورية في

صيغة /ليكا/ كقولنا: أين فلانة؟ والجواب: ليكا. أيّ: ها هي.

في ختام هذه اللائحة نشير إلى أنه ليس من الضروري أن تكون كل هذه المفردات من أصل سنسكريتي دخلت لغاتنا القديمة. لأنه من الممكن أيضاً أن يكون العكس قد حدث.أيّ إن بعض تلك المفردات هو ذو أصول سورية (حثية -ميتانية- حورية -أمورية) دخل السنسكريتية القديمة عن طريق التبادل التجاري والثقافي والديني. وهو تبادل يدل عليه وجود أسماء إلوهية سنسكريتية في قائمة الأسماء الميتانية القديمة التي كانت معروفة في سورية منذ الألف الثالث ق.م. ووجود أسماء إلوهية سورية الطابع في قائمة الأسماء الإلوهية السنسكريتية.

المصادر الأساسية

١- التاريخ القديم. (بالفرنسية) Histoire de l’Antiquité
تأليف E-Meyer الجزء الثالث.

٢- الكتاب المقدس. الطبعة اليسوعية.

٣- العموريون.
Whowere the Amorites تأليف A. Haldar. ترجمة. شوقي شعث.

٤- التاريخ يبدأ في سومر (الترجمة الفرنسية) تأليف: S.N.Kramer.

٥- الطوبوغرافيا التاريخية لسورية القديمة (بالفرنسية) تأليف R-Dussaud

6- Topographie historique de la Syrie antique.

٧- اللغات السامية المحكية في سورية ولبنان. تأليف. فيليب حتي.

٨- ما بين النهرين. Mésopotamie (بالفرنسية) تأليف: J-Bottéro.

٩- ماري. مدينة مفقودة. Mari ، Une ville perdue (بالفرنسية) تأليف: A-Parrot.

١٠- قوانين حمورابي - (بالفرنسية) ترجمة وتحقيق A Finet.





الصَّعلكةُ - والصَّعاليكُ

حسن موسى النميري*

الصُّعْلُوكُ: وزن عُصْفُور واحِدُ الصَّعاليـك، وكان مَعنَى الصُّعْلوك يَقِفُ عِندَ (الفَقيرِ) فالصُّعْلوكُ هوَ الفقيرُ، واستشهدُوا بقَولِ أبي النَّشناش[١]:

وسائلَةٍ بِالغَيْبِ عَنِّي، وسائلٍ
ومَنْ يَسْألُ الصُّعْلُوكَ أينَ مَذاهِبُهْ؟

والصُّعلوكُ يُجْمَعُ -كما أسْلَفْنَا -على (صَعَاليكَ) وذلكَ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

* أديب وناقد وباحث في التراث العربي (فلسطين).

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

إنَّ اتِّبَاعَكَ مَوْلَى السُّوءِ يَتْبَعُهُ
لكَ (الصَّعاليكُ)ما لم يَتَّخِذْ نَشَبَا

وعلى هذا (**فالتَّصَعْلُكُ الفَقْرُ**) وهذا هوَ الأَصْلُ اللُّغَويُّ لِلكَلِمَةِ، وقد استعمَلَها بهذا المَعنَى حاتمُ الطائي حيثُ قال:

غَنِينَا زَمَانًا (بالتَّصَعْلُكِ) والغِنَى
وكُلاًّ سَقاناهُ بِكَأسَيْهِمَا الدَّهْرُ
فَمَا زَادَنَا بَأْوًا على ذي قَرابَةٍ
غِنَانا، ولا أَزْرَى بِأَحسَابِنَا الفَقْرُ[٢]

وفي مَعاجِمِ اللُّغَةِ: **صَعَاليكُ العَرَب: ذُؤْبانُها**[٣] وهذا على التَّشْبيهِ.. وكانَ يُقَالُ لِعُروةَ بنِ الوردِ (عُروةُ الصَّعاليكِ) كما كانَ يُقالُ لَهُ (مَأوَى الصَّعَاليكِ) لأَنَّهُ كانَ يَجمعُ الفُقراءَ في حَظيرَةٍ، فيرزُقُهم مِمَّا يَغنَمُهُ[٤].

– لكنَّ كَلِمة (الصَّعلكة)اكتَسَبتْ معَ الزَّمَنِ مَعنًى جديدًا، وذلك قبلَ الإسلام بزَمَنٍ، اكتَسَبَت الكلمَةُ مَعنى (**الفَتْك والقَسوَةِ**) مِن أجلِ السَّلبِ والنَّهْبِ والاغْتِصابِ.

ومُنذُ قديمِ الزَّمانِ أيضًا ارتَبَطَ مَعنَى (**الخَليع**) بِمَعنَى (**الصُّعلوك**)..والخَليعُ في الأَصْلِ رَجُلٌ فاتِكٌ، يَجني جِناياتٍ، ويَرتَكِبُ جَرائِمَ، يُؤْخَذُ بِها أَوْلِيَاؤُهُ (أَبُوهُ وإخوتُهُ وأَعمامُهُ) فَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُ، كما يَتَبَرَّؤُونَ مِنْ جِناياتِهِ، ويُعلِنونَ ذلكَ على المَلأِ، وفي مَكانٍ عامٍّ ومَشْهورٍ كَسُوقِ عُكاظ، أو مَوسمِ الحَجِّ في مَكَّةَ، أو في أَحَدِ المَشاعِرِ، ويَقولونَ مَثَلاً: (**إنَّنَا خَلَعْنَا فُلانًا، فَلا نَأْخُذُ أَحَدًا بِجِنَايَةٍ تُجْنَى عَلَيْهِ، ولا نُؤاخَذُ بِجناياتِهِ التي يَجْنِيها**)..**والخَليعُ يُجْمَعُ على خُلَعَاءَ.. والخَليعُ (فَعيلٌ) بِمَعنَى مَفعُول (أي مَخلوع**[٥]).

وجاء في مُعجَمِ تاجِ العروسِ (**كانَ في الجاهليَّةِ إذا قال قائلٌ: يا أيُّها النَّاسُ؛ هذا ابْنِي قد خَلَعتُهُ، يفعَلُ الرَّجُلُ ذلكَ إذا خافَ خُبْثًا أو جِنايَةً.. ورُبَّمَا زادَ: فَإنْ جَرَّ**[٦] **لم أضْمَنْ، وإنْ جُرَّ عليْهِ أطْلُبْ.. يُريدُ إنِّي قد تَبَرَّأتُ منْهُ، ومِن أعمالِه.. والخَليعُ يُجمَعُ على خُلَعَاءَ، مثل: كَريم وكُرَماء**) قال امرؤ القيس:

ووَادٍ كَجَوفِ العَيْرِ قَفْرٍ قَطَعتُهُ
بِهِ الذِّئبُ يَعوي كالخليعِ المُعَيَّلِ[٧]

– هذا الفَتَى الخَليعُ قد لا يَجِدُ أمَامَهُ إلاَّ الصَّعلكةَ، بعدَ أنْ تَبَرَّأَ مِنْهُ ذَوُوهُ، ورَمَوْهُ، وأداروا ظُهُورَهم لَهُ.. سُدَّت السُّبُلُ أمامَهُ، إلاَّ سبيلٌ واحِدٌ يَحمي بِهِ نَفسَهُ، ويُعالِجُ ما أصابَهُ بِهِ قَومُهُ مِنْ جُرْحٍ صائبٍ، وما رَمَوْهُ مِن سَهْمٍ قاتلٍ.. ففي التاريخِ أنَّ (**قيس بن الحُداديَّة**



الخُزاعي) خَلَعَتْهُ قَبيلَتُهُ في سُوقِ عُكاظ، وتَبَرَّأَتْ مِنهُ ومِن جَرائِرِهِ، فَنُسِبَ إلى أُمِّهِ (الحُداديَّة) وهيَ امرأةٌ حَضْرَميَّةٌ (مِن بَني حُداد مِن مُحارب) وهو في الأَصْلِ **قيسُ ابْنُ مُنْقِذ** مِن بَني سَلول مِن خُزاعة.. فَفَرَّ إلى بَني فِراس بن غَنَم مِن كِنانة (وهم قَومُ **ربيعة بنِ مُكَدَّم**) فَآوَوْهُ وشَكَّلَ مَعَهم (خليَّةً) أيْ فِرْقَةً مِنَ الصَّعاليك.

– إنَّ الفردَ الذي تتَخَلَّى عنهُ قَبيلَتُهُ يَنْتَابُهُ شُعُورٌ خَطيرٌ؛ قد يبعَثُ على الحُزنِ، أو يَبعَثُ على الغَضَبِ والقَهْرِ والكَراهِيَة، فقد يُحِسُّ المَخلوعُ كأنَّما قد انْقَطَعَ عنِ العالَمِ؛ فهو بِحاجَةٍ إلى مَنْ يُرْشِدُهُ ويأْخُذُ بيَدِهِ، أو يَحْتَضِنُهُ فَيُخَفِّفُ مِمَّا بِهِ مِن مُصَابٍ، ثم يَدُلُّهُ على طَريقِ الخَلاصِ، وشَبَّهَ بَعضُهُمْ الخليعَ الذي تَخَلَّتْ عنهُ قبيلتُهُ، بِالشَّخصِ المَحبُوسِ حَبْسًا انْفِرادِيًّا، وهوَ مِن بابٍ آخَرَ كالمُصابِ بِمَرَضٍ مُعْدٍ، يَتَحاماهُ النَّاسُ ويهربُونَ مِنْهُ.. وهُنا يُوَجَّهُ إلى الصَّعلَكَةِ كَمُنْقِذٍ وحيدٍ، وفَرَجٍ استثنائيٍّ.. فينتَقِلُ الفَرْدُ إلى مُجتَمَعٍ جديدٍ، وواقِعٍ جديدٍ.. يَنتَقِلُ مِنْ إنْسَانٍ ضَائعٍ مُسْتَضْعَفٍ مُهَانٍ وذَليلٍ.. إلى واقِعٍ جديدٍ يَنقُلُهُ إلى إنْسَانٍ حُرٍّ، تَنفَتِحُ أَمَامَهُ سُبُلٌ كُلُّهَا أَمَلٌ وطُمُوحٌ، ثم حُرِّيَّةٌ وسَعيٌ يَقُودانِ إلى ثَراءٍ وغِنًى لا حُدُودَ لَهُما.. وكُلُّ ما يُطلَبُ مِنْهُ شيءٌ بَسيطٌ طالَمَا عَرَفَهُ وهوَ أَنْ يُوَجِّهَ جُرْأَتَهُ المَعهُودةَ وشجاعتَهُ المعروفة.. وهي مَوْجودَةٌ لَدَيْهِ، لكِنَّها قد تكونُ (مادَّةً خامًا) قد تَحتاجُ إلى تَنظيمٍ وتَشذيبٍ وصَقْلٍ،

فَيُخْضِعُهُ (الرِّفاقُ) إلى دَورَةٍ تَدريبيَّةٍ سريعةٍ، تَعتَمِـدُ قبلَ كُلِّ شَيءٍ على القُدْوَةِ الصَّالِحَةِ؛ يَضَعُونَهُ تِلميذًا لأَحَـدِ الصَّعاليكِ المَشاهيرِ المَعروفينَ بالحِنْكَةِ والقُدْرَةِ والدِّرايةِ والمَعرفَةِ بأُصُولِ الغاراتِ والغزواتِ.. يُرافِقُهُ في رِحْلَةٍ أو رِحلتَـيْنِ، فيقتَبِسُ مِنْهُ الخِـبرَةَ والمَهارَةَ، ويَتَتَلمَـذُ على يَديْهِ.. ويَتَّخِذُهُ مُعَلِّمًا وأستاذًا ومَثَلاً أعْلَى.

الصَّعَاليكُ لُصُوصٌ ظُرَفاءُ لا يَنْتَظِرونَ حتى يُجِنَّ الليـلُ خُصُومَهم، ولا يَنتَظِرونَهُم حتـى يَناموا، أو يَغفلوا عـن أموالِهم، وإنَّما يَسطـونَ على أهدافِهم المُختـارَةِ، والمُحَدَّدَةِ سَلَفًـا وبِشكلٍ مَدروسٍ ودَقيـقٍ، يُهاجِمُونَها عَلَنًا، وعلى أعـيُنِ النَّاسِ، وفي وَضَحِ النَّهارِ، وإنِ اقْتَحَمُوا خُصُومَهـم بالليلِ، أعلَنُوا عن أنفُسِهم، بِصِياحٍ وجَلَبَةٍ لا تَخفَى على أحَدٍ.

لَقـد أخرجُـوا الغـارةَ عـن مَفهومِها، واستَبْدَلُوا بالسَّرِقَةِ واللُّصُوصِيَّةِ مَعنَى الغَزوِ والخَطْفِ والاستيـلاءِ والانْتِزاعِ.. نَعَم، رُبَّمَا هاجَمُـوا خُصُومَهم وهـم غـارُّونَ آمِنُونَ، فَيُرَوِّعونَ بعضَ النَّاسِ، ويَغصبُونَ أموالَهم؛ يأخُذُونَها عَنْوَةً.. لَقد استطاعوا أنْ يُفَلسِفُوا عَمَلَهم، صَبَغُـوهُ بِصبغةٍ خاصَّـةٍ، فأدْخَلوهُ في بـابِ الكَسْبِ باليَمـينِ، والاستيلاءِ عليْهِ بالجُهْدِ وعَرَقِ الجَبـينِ؛ وهذا بالضَّبطِ ما كانَ يفعَلُهُ مَأوى الصَّعاليكِ (**عُروةُ بنُ الوردِ**) كانَ هذا الفَتَـى المَثَلَ الأعلـى لِلصَّعاليكِ؛ فقـد كانَ إذا شَكَا إليْهِ أحَدٌ من فِتْيَانِ قَومِهِ سُوءَ حَالِـهِ، وقِلَّةَ مالِهِ، وهَوَانِـهِ على أهلِهِ ومُجتَمَعِهِ، أعطاهُ فَرَسًا ورُمْحًا وقال لَهُ: (**إنْ لم تَسْتَغْنِ فَلا أغناكَ الله**).

لم يَكنِ المُجتَمَعُ العَربيُّ في جاهِليَّتِهِ ولا في إسْلامِـهِ يُبيحُ لامرئٍ أنْ يَحُوزَ مالَ الآخرينَ أو يَضَـعَ يَدَهُ على مُمتَلَـكاتِ غَيْرِهِ، من دونِ وَجْهِ حَقٍّ، حتى لو كانَ هذا المَالُ سارِحًا، في البَراري والفَلَواتِ بِلا راعٍ يَرعاهُ، ولا حارسٍ يَحْرُسُهُ.. ومَعَ ذلـكَ فإنَّنا وجدنا كثيرًا مِنَ العربِ صَفَّقُوا لِصُعلوكٍ ظَهَرَ هُنا، وصُعلوكٍ بَرَزَ هناكَ، فَقامَ بعَمَلِيَّةِ سَطْوٍ على مَالِ رَجُلٍ غَنِـيٍّ في هذا المَـكانِ، أو على إبِـلٍ لِلقبيلَةِ الفُلانيَّـةِ، في الـوادي الفُـلانيّ.. فَراحُوا يُشيدونَ بهذا الصُّعلوكِ، وبِقُدُراتِ هذا الفَتَى المُقْتَحِمِ الشُّجاعِ، الذي باغَتَ النِّيَامَ، فَسَطا على أموالِهـم، واستَلَـبَ مُمتَلكاتِهم، ورُبَّمَا سَبَى بعضَ نِسائِهم.. ويُعلِنُ هذا المُهاجِمُ عن نَفسِـهِ، ويُصَرِّحُ بأهدافِـهِ ومَرامِيهِ، فيأخُذُ

بالعُنـف، وبحَدِّ السيفِ أكثَرَ من حاجَتِه، ولا يُعَدُّ عَمَلُهُ هذا لُصُوصيَّةً ولا سَرِقَةً، ولا حتى (حَرامًا)..

إنَّ هذا الاقتحامَ يُعَـدُّ في نَظَرِ المُقتَحِم بُطولـةً ورُجولـةً، ويَدَّعي أنَّهُ يَفعَلُـهُ تَعَفُّفًا واسْتِغناءً عن تَفَضُّلِ اللِّئَامِ من سادَةِ القبائلِ، ومِنَّةِ الأشِحَّاءِ الذينَ قد يُبْدِي بَعضُهُم شَفَقَةً، ويُظْهِرُ إحْسَانًا، يَشفَعُهُمَا بكثيرٍ منَ المُفَاخَرَةِ والتَّباهي والتَّطاوُلِ والتَّمَنُّنِ والتَّكدير.

- **نَوْعـا الصَّعالك**: ومَيَّزَ المُجتَمَعُ العربيُّ مُنذُ القِـدَمِ بينَ نَوعَـيْنِ مِـنَ الصَّعاليكِ: صُعْلُـوك نَبيل كريم، يَخلطُ الجُـودَ بالإباءِ والنَّجدَةِ، ويَتَّصِفُ هـذا الصُّعلوكُ بالجُرأةِ والحَزمِ والقُوَّةِ والكَرَمِ، مِثلُ هذا الصُّعلوكِ، ليسَ إنْسانًا فَرديًّا انعزاليًّـا، يَعمَلُ لِنفسِه، ويَخدمُ ذاتَهُ، يَستَولي على المُمتلكاتِ من أجلِ ذاتِهِ، أو أُسْرَتِهِ وقبيلتِهِ، لكنَّهُ وسَّعَ دائرَةَ بَذْلِهِ وعَطائِه، إنَّهُ يَستَلِبُ أموالَ الأغنياءِ الأشِحَّاءِ الذينَ امتَلَكُـوا ناصِيَةَ المالِ إلاَّ أنَّهُمْ لمْ يُؤَدُّوا حَـقَّ الفَقيرِ فيـه.. وإنَّما احتَفَظُـوا بالمالِ واكْتَنَزوهُ واختَزَنُوهُ، وأحاطوهُ بجدرانٍ مُقفَلَةٍ، ومَنَعُـوا أنْ تَمتَدَّ إليْهِ يَدٌ، لا مِنَ الأقاربِ ولا مِنَ الأباعِدِ، مَهما بَلَغتْ دَرَجَةُ فَقْرِه، وهيئَةُ حاجتِه.

مِثْـلُ هـذا الغنـيّ الشَّحيح يُشَـكِّلُ في نَظَـرِ الصَّعاليـكِ هَدَفًا مُبَاحًـا، بل واجِبَ الاستِبَاحَةِ حتى لـو كانَ مِنْ أقرَبِ الأقاربِ وذوي الرَّحِم.. يقولُ عُروةُ بنُ الورد:

لَعَلَّ انْطلاقي في البِلادِ وبُغْيَتي
وشَـدِّي حَيَـازيمَ المَطِيَّـةِ بـالرَّحْلِ
سَيَدْفَعُني يَومًا إلى رَبِّ هَجْمَةٍ
يُدافِعُ عَنْها بالعُقُوقِ وبِالبُخْلِ(٨)

وصَفنـا النَّـوعَ الأوَّلَ مِـنَ الصَّعاليكِ؛ وهـوَ الصُّعلـوكُ (الشَّريفُ النَّبيـلُ الكريمُ العفيفُ)ونَفَيْنـا عنْـهُ صِفَـةَ اللُّصُوصيَّـةِ والأنانيَّةِ، وقُلنا إنَّهُ يُعَرِّضُ نَفسَهُ لِلمَخَاطِرِ، ويَهبُ حياتَهُ لإسْعَـادِ الآخرينَ مِنَ الفُقَراءِ، وذَوي الحاجـاتِ.. وهـذا مـا كانَ يَفعَلُهُ (**عُـروةُ بـنُ الوردِ**)..هـذا الصُّعلـوكُ يُصَوَّرُ بِصورةِ البَطلِ الجريءِ الشُّجاعِ، المُدافعِ عنِ الأنفُسِ والأعراضِ الذي يَبْدُو مُشْرِقَ الوَجْهِ، مُتَلألئَ القَسَماتِ، يرْمي بِنَفسِهِ في المَعاركِ مُسْفِرًا مُنْكَشِفًا مُعلنًا، كما يفعلُ الأبطالُ، لا يَهابُونَ مَوتًا، ولا يَخشَونَ عَدُوًّا، وأمامَهُ أحَدُ هَدَفَـيْنِ؛ فَهوَ إمَّا أنْ يُحْـرِزَ نَصْرًا ويكتَسِبَ غِنًـى، وإمَّا أنْ يَلقَـى حَتْفَهُ ويَمـوتَ مَوتَ

الأبطـالِ والرِّجالِ الشُّجْعـانِ الشُّرَفاءِ، كما قال عُروةُ بنُ الورد:

ولكِنَّ صُعْلوكًا صَفيحَةُ وجْهِهِ
كَضَوءِ شِهابِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ

مُطِلاً على أعدائِهِ، يَزْجُرُونَهُ
بِساحَتِهِمْ زَجْرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ[٩]

فَذلكَ إنْ يَلْقَ المَنِيَّةَ يَلقَها
حَميدًا، وإنْ يَسْتَغْنِ يَومًا فَأجْدِرِ[١٠]

ومِن أَقوالِ عُروةَ بنِ الورد، التي تُشيدُ بالصُّعلوكِ النَّبيلِ الشَّريفِ:

ولكِنَّ صُعلوكًا يُساوِرُ هَمَّهُ
ويَمضي على الهيْجاءِ لَيْثًا مُصَمِّما[١١]

إذا ما رأى يَومًا مَكارِمَ أعرَضَتْ
تَيَمَّمَ كُبْراهُنَّ ثُمَّتَ صَمَّما

فذلكَ إنْ يَلقَ الكَريهةَ، يَلقَها
حَميدًا، وإنْ يَستَغنِ يَومًا فرُبَّما[١٢]

والنَّوعُ الآخَرُ مِنَ الصَّعاليكِ؛ صُعلوكٌ رديءٌ بَليدٌ خَاملٌ كَسُولٌ، تَجِدُهُ في أماكنَ دنيئةٍ يَعمَلُ أعمالاً خَسيسَةً تافِهَةً، ويكونُ بِالقُربِ مِن أرجُلِ السَّادَةِ، وكُبَراءِ القَومِ يَلتَقِطُ فُتاتَ خُبزِهِم، ويَلعَقُ بقايا صُحونِهِم؛ لا هَمَّ لَهُ إلاَّ قُوتُ بَطنِهِ، وإراحةُ جَنْبِهِ، وكثيرًا ما تَكونُ لُقمَتُهُ مغموسةً بِمَنِّ الكُبَراءِ، وتَطَوُّلِ الأغنياءِ.. هذا الصُّعلوكُ لا يَكادُ يُفيدُ أحدًا غَيْرَ نفسِهِ، وربَّمَا قضى عُمرَهُ خادِمًا عندَ أرجُلِ الكُبَراءِ، يَدوسونَهُ بأقدامٍ تَتَّخِذُ المَنَّ والأذى أحذيةً لَها.. هذا الصُّعلوكُ البليدُ الخاملُ وصفَهُ عُروةُ بنُ الوردِ بِقولِهِ:

لَحى اللهُ صُعلوكًا إذا جَنَّ لَيلُهُ
مُصافي المُشاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرِ[١٣]

يَعُدُّ الغِنَى مِنْ دَهرِهِ كُلَّ ليلَةٍ
أَصابَ قِراها مِنْ صَديقٍ مُيَسَّرِ[١٤]

يَنامُ عِشاءً، ثُمّ يُصْبِحُ ناعِسًا
يَحُتُّ الحَصَى عن جَنْبِهِ المُتَعَفِّرِ[١٥]

قَليلُ التِمَاسِ الزَّادِ إلاَّ لِنَفسِهِ
إذا هوَ أمسَى كالعَريشِ المُجَوَّرِ[١٦]

يُعينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّهُ
ويُمْسي طَليحًا كالبَعيرِ المُحَسَّرِ[١٧]

لَم يَكنِ الصَّعاليكُ مُنْعَزلينَ عنِ المُجتَمَعِ تَمامَ الانْعِزالِ، ورُبَّمَا مَرَّتْ بِهِم ظُروفٌ اضطرَّتْهُم لِلانْعِزالِ والابتِعادِ قليلاً عنِ المُجتَمَعِ، وفي هذِهِ الحالِ فإنَّهم يُفرِزونَ فِئَةً مِنْهم، تَختَلِطُ بِالمُجتَمَعِ، تَقرَؤُهُ، وتُفَتِّشُهُ، وتدرُسُ أحوالَهُ، والمُهِمُّ عِندَهم أنْ يَبْحَثُوا عنِ الأغنياءِ، ويَفحَصُوا مَنازِلَهم بينَ أصحابِ الأموالِ، لِتَقسيمِهم إلى فِئَتَيْنِ: فالأغنياءُ المُحْسِنونَ الأجوادُ يُتْرَكونَ وشأنَهم، بل يُحتَرَمونَ ويُقَدَّرونَ وتُقَرَّظُ مَواقِفُهم، ويَرَى

الصَّعاليكُ أنَّ هؤلاءِ بجودِهم وإحْسَانِهم قد حَمَوا أنفُسَهم، ودافَعُوا بجُودِهم وإحسانِهم عـن أعراضِهم وثَرواتِهم، وأحاطُوها بجِدارٍ حَـام ساترٍ، وأبْـرؤوا ذِمَمَهُم تُجـاهَ أهليهِم ومُجتَمَعِهـم.. فالمُـروءةُ –والصَّعاليكُ أهلُ مُـروءةٍ – تَقضي أنْ يُحْمَـى هؤلاء الأغنيَاءُ الأجوادُ وأنْ يُحافَظَ عليْهـم، ولا يَتَعَرَّضُوا إلى أيّ نَـوعٍ منَ الأذَى والسُّـوءِ، وأنْ يُجَنَّبُوا الظُّلمَ والعُدوانَ.

أمَّـا الأغنياءُ البُخـلاءُ الأشِحَّاءُ، الذينَ قَصَّرُوا في أداءِ واجباتِهِمْ تُجاهَ فُقَراءِ قَومِهِمْ ومُجتَمَعِهِـم، أو تَعَامَـوا عـن حاجـاتِ مَن يُعايِشُونَهُـم، ويُساكِنُونَهـم، ولم يأبَهُوا لأنَّاتِ الضُّعَفـاءِ، وتَأوُّهاتِ ذوي الحاجاتِ، فَهؤلاءِ أهدافُ الصَّعاليكِ، وعليْهِم تَدُورُ الدَّوائرُ.

ثمّ إنَّ الصَّعاليكَ الشُّجعانَ النَّابِهينَ قَومٌ كِـرامٌ أسْخِياءُ أجـوادٌ وغَيْرِيُّونَ بعيدونَ عنِ الأنانيَّـةِ والفرديَّةِ، وحبِّ الـذَّاتِ، لذا فَإنَّ ما يَحْصَلونَ عليْهِ مِـنْ غَنائمَ، وما يَحُوزونَ مِـن مَكاسِـبَ، لا يَحْتَفِظونَ بِهـا لأنفُسِهم، ولايَصُرُّونَهـا ويكنزونَهـا لِذَويهِـم، وإنَّمـا يُوَزِّعونَها فيما بينَهـم بالعَدْلِ والتَّسَاوي، لا يَرَونَ لأحَدٍ مِنْهم على جَمَاعَتِهِمْ مِنَ المِنَّةِ، أو الفَوقيَّةِ، فلا رئيسَ عِندَهم ولا مَرؤوسَ، ولا غَنِيَّ لَدَيْهم ولا فقيرَ.. حتى إنَّ بعضَ العُلماءِ ذَكَـرَ أنَّ الجَماعَةَ تعيشُ حيـاةً (اشْتِراكيَّةً) وِفْقَ المُصطَلَـحِ، أو المَفهوم الحديثِ.. وذَكَرَ تاريخُهـم أنَّ قائدَهـم لا يُمَيَّزُ عـنِ المَقُودِ، فلا يأْخُـذُ لِنَفسِهِ شَيئًا إلاَّ بِرِضى الجميعِ.. ومِـنْ هُنَا شَبَّـهَ المرحومُ أحمـد أمين قائدَ جَماعَـةِ الصَّعاليكِ بِـ(**برْناردشُـو**) في إحْدَى رواياتِـهِ (**إذْ هاجَمَ قَـومٌ فُقَـراءُ مَسْحوقونَ، سَيَّـارَةً فَخْمَـةً يَرْكبُها أغنيَـاءُ مُرابُونَ، فقالَ لَهُم المُهاجِمـونَ: نَحنُ سُرَّاقُ الأغْنِياءِ، وأنتُمْ سُرَّاقُ الفُقَـراءِ**) ثم كَـرَّرَ أحمد أمين تَشبيهَ زَعيمِ الصَّعاليكِ، مَـرَّةً أخرَى (**بتُولسْتُوي**) الـذي كانَ غَنِيًّا واسِعَ الثَّراءِ، فقـامَ بِتَوزيعِ ثَروَتِهِ على عُمَّالِهِ، وفَلاَّحِيهِ، وفَضَّلَ العيشَ فقيرًا.. ثمّ إنَّ **أحمد أمين** في المُحَصِّلَةِ فَضَّلَ زَعيـمَ الصَّعاليـكِ (عُروةَ بنَ الـوَردِ) على برناردشو وتولسْتـوي في النُّبْلِ لأنَّهُ سَبَقَهُما في الزَّمَنِ بِأكثَرَ من ألف سنة(١٨).

ولم يَكـنِ الصَّعاليكُ بِمَرتبـةٍ واحدَةٍ، أي أنَّ منهم مـن كانُوا قادةً، ومنهـم مَن كانُوا (مَقوديـنَ) أي أفرادًا عاديينَ، ثم إنَّهم كانُوا يَنقسِمونَ إلى فِئاتٍ، وغالبًا ما كانتْ فِئاتُهم

بِحسبِ التَّوَزُّعِ الجُغرافيِّ، أي بحسب أماكنِ سُكناهم، لذلكَ كانَ يُقالُ لبعضِهم (صَعاليكُ تِهامــة) ولآخرين (صَعاليكُ السَّراةِ[١٩]، أو صَعاليكُ الحجاز) ولِكُلِّ فِئَةٍ مِنْ هذِهِ الفئاتِ زعيمُها وقائدُهــا، وكانــوا يَتَفَهَّمُونَ معنى التَّنظيــمِ؛ فقد كانُوا إذا أرادُوا الغَزْوَ اتَّفَقُوا علــى تَسميَةِ قائــدِ الغَزوةِ، فَمِــن الأسماءِ اللاَّمعةِ مِــن الصَّعاليكِ (تَأَبَّطَ شَرًّا، وعامِر ابن الأخنس، وعَمْرو بن بَرَّاق، والشَّنفَرَى بن مالك الأزدي (صاحب لاميَّة العَرَب) وسُليك ابن السُّلكة، وعُروة بن الورد وغيرُهم كثير).

ولِبَعضِ هــؤلاءِ الصَّعاليكِ سُمعةٌ طَيِّبةٌ، ومكانةٌ عاليَــةٌ في المُجتَمَعِ، حتــى يُقالُ إنَّ **مُعاويــةَ بــنَ أبــي سُفيــان** الخليفــةَ الأُمَويّ المَعــروف، تَمَنَّى يومًــا أنْ يُصَاهِرَ عُروةَ بنَ الورد، قــال مُعاويــةُ: (**لــو كانَ لِعُــروةَ وَلَدٌ لأَحْبَبْـتُ أنْ أتَــزَوَّجَ إلَيْهِــم**[٢٠]) كمــا تَمَنَّــى الخليفــةُ الأُمَويُّ عبدُ المَلِكِ بــن مَروان، أنْ يَكــونَ عُروةُ بنُ الورد قد وَلَــدَهُ، فقال عبدُ الملك: (**مــا يَسُرُّني أنَّ أحَدًا مِــنَ العربِ مِمَّنْ وَلَدَني لم يَلِدْني، إلاَّ عُروةَ بن الورد لِقَولِه:**

إنِّي امْــــرُؤٌ عــافي إنــائــي شِــرْكَــةٌ
وأنْــــتَ امْــــرُؤٌ عــافي إنــائــكَ واحِــدُ

وقــال عبدُ الملــكِ أيضًا: (**مَــنْ قــالَ إنَّ حاتِمًــا أسمَــحُ النَّاسِ فقــد ظَلَــمَ عُــروةَ بنَ الــورد**[٢١]) ويُفهَــمُ مِمَّا قال عبــدُ المَلِكِ، أنَّهُ كانَ مُعجَبًــا بِشَخصِيَّةِ عُروَةَ وبفضائلِه، كما كانَ مُعجَبًــا بِشِعرِهِ، الذي يدُلُّ بِشَكلٍ واضِحٍ وجَلِيٍّ، على مُروءةٍ في شَخصِيَّةِ عُروة، وعلى هِمَّة عاليَــةٍ وأدَبٍ إنْسانيٍّ جَمٍّ، وخُلُقٍ عربيٍّ إنسَانيٍّ كريم.

كَــوَّنَ الصَّعاليــكُ مــا يُشبِــهُ الجَمعيَّةَ التَّعاونيَّــة، أو النَّقابــةَ الحِرفيَّةَ، جمعيَّةٌ كُلُّ أعضائها مِــنَ الفُقراءِ والأشقيــاء، ولكنَّهم معَ ذلكَ جَماعةٌ مِنَ الفِتْيَانِ الأشِدَّاءِ الجُرآءِ المُختارينَ، المُتَّصفينَ بالإباءِ والأنَفَةِ من الظُّلم، المُحِبِّينَ للغَــزوِ والإغارةِ والإقدام، والمُؤْمنينَ بالمُساواةِ بين بَني البَشَــر، والرَّافِضينَ لِهذا التَّمايُزِ والتَّبَايُنِ الطَّبَقي الذي يَروْنَهُ سائدًا ومُعتَرَفًــا بهِ في المُجتَمَعِ العربيّ الذي يُحيطُ بِهِــم.. يَذكر مُؤَرِّخونَ أنَّ عُروةَ غَزا مَرَّةً، مع فِئةٍ من رجالِه الصَّعاليــك، فاكتَسَبُوا مالاً، وانْتَهَبُوا أنعامًــا، وسَبَوا امرأةً، فأحَبَّ عُروةُ أنْ يَختَصَّ بها، فَأبَــوا عليْه إلاَّ أنْ يُقَوِّمُوها بِثَمَــنٍ، ثــم يَقْتَطِعُــوا ثَمَنَها مِــن نَصيبِه.. إنَّهمُ جَماعَةٌ تُؤمِــنُ وتُطَبِّقُ مَبادئَ المُساواةِ،

والعَدالــةِ الاجتماعيَّــةِ، وتكافــؤ الفُرَصــ (والاشْتراكيَّةِ) رُبَّمَا بِشَكْلٍ أفضَلَ ممَّا تُطَبَّقُ في بعضِ بُلدانِ العالَمِ في أيَّامِنَا.

لم يكنْ في المُجتَمَعِ الجاهليِّ قانونٌ يَحكُمُ العلاقاتِ بينَ أفرادِ هــذا المُجتَمَع، إلاَّ نُتَفٌ مُبَعْثَرَةٌ ومُتَفرِّقةٌ من عاداتٍ وتَقاليدَ مُتَوارَثَةٍ، يَتَمَسَّــكُ بها النَّاسُ، ويَرضَــونَ تَطبيقَها، واحتِرامَها، والانْحِنــاءَ أمامَها رِضىً وقَبُولاً وخُضُوعًا.. لكنَّ القُوَّةَ كثيرًا ما تأتي فَتَنْسِفُ بعضَ هذِهِ النُّتَفِ منَ العاداتِ نَسْفًا، وتُبْطِلُها وتُلغيها؛ ففي القُوَّة عَناصِرُ تَفرِضُ بها نَفسَها وهَيْبَتَها، وتُلغي ما يُناوِئُهــا، فَيَحْني الناسُ أعناقَهُم أمامَ جَبَروتِها، وبينَ يَدَيْ عَظَمَتِها، وأمامَ قَهْرِها.

فَإذا ما أنِسَ فَردٌ أو جَمَاعَةٌ من أنفُسِهِم قُــوَّةً بَسَطُوا سُلطانَهم، وحَمَــوا ما يَقدِرونَ على حِمايَتِهِ بِسَواعِدِهم وسِلاحِهم، فَهابَتْهم الجماعةُ، واحتَرَمَتْهم الأُمَّةُ مَجْبَرَةً لا مُختارَةً، واسْتَولَوا على ما بأيْدِي الآخَرينَ؛ فقَهَروهم وأخضَعُوهــم، فانْحَنَــتْ أمامَهــم الرِّقابُ، وطأطَأت الجماعــةُ بينَ أيديهِــم الرُّؤوسَ، والأكتافَ.. ويَشعُــرُ الأقويــاءُ (المُتَمَرِّدُونَ) عِندَئذٍ باعتِزازِهم بقُوَّتِهم، واحترامٍ لأنفُسِهم، وتَقديــرٍ لأفرادِهــم، وجَماعَتِهم.. وهذا ما فَعَلَتْهُ جَمَاعةُ الصَّعاليكِ، يُؤَيِّدُ ذلكَ ما قالَهُ تأبَّطَ شَرًّا:

ولَسْتُ أبِيتُ –الدَّهرَ-إلاَّ على فَتًى
أُسَلِّبُهُ، أو أُذْعَرَ السِّرْبَ أجْمَعَا[٢٢]

لقد صــارَ لِلصَّعاليكِ مُجتَمَعُهم الخاصُّ بِهِــم، ولهــذا المَجتَمَــعِ (مُنَظَّمَــةٌ) صَغيرَةٌ وخاصَّــةٌ ارتَضَاهــا أفــرادُ هــذا المُجتَمَعِ الصَّغير؛ لقد صَارَ لِلصُّعْلوكِ جَمَاعَةٌ يَنتَسِبُ إليْها ويَحتَمي بِها تَشُدُّ أزْرَهُ، وتَحْمي ظَهْرَهُ، وتَمُدُّهُ بالقُوَّةِ الماديَّةِ والمَعنَويَّةِ؛ تَمُدُّهُ بالسِّلاحِ والتَّأييدِ.. فَإذا ما غَــزَا أعانَهُ بَعضُ رِفَاقِهِ في غَزاتِــهِ، وإذا ما هَــدَّدَ سَانَدَهُ آخرونَ في مَقَالِــهِ، وإذا مــا قُتِلَ الصُّعلــوكُ وجَدَ مَنْ يُطالِبُ بدَمِــهِ، ويَسعَى للأخْــذِ بِثَأرِه؛ لقد أصبَــحَ دَمُ الصُّعلوكِ ثَمينًــا وجُهْدُهُ مُقَدَّرًا، وحَيَاتُــهُ مُحتَرَمَةً وذاتَ قيمَةٍ، حتى أصبَحَتْ (مُنَظَّمَةُ) الصَّعاليكِ بَديلاً عنِ القبيلَةِ التي كانَ الفردُ يَنْتَمي إليْها.

وانْتَشَرَتْ فِكــرَةُ (الصَّعلَكَةِ) في المُجتَمَعِ العربــيِّ قبلَ الإســلامِ وبَعدَهُ، حتــى رَصَدَ المُؤرِّخونَ أُسَرًا كامِلُ أفرادِها مِنَ الصَّعاليكِ؛ كأُسْرَةِ تَأَبَّطَ شَــرًّا مَثَلاً، فَإنَّ (تَأَبَّطَ) واسْمُهُ

(ثابتُ بنُ جابــر) وإخوَتَهُ الثَّلاثَــةَ (السِّمْعَ ابــنَ جابر– وكعــبَ بنَ جابــر– وعَمْرَو بنَ جابــر وهذا الأخيرُ قَتَلَهُ بَنــو عُتَيْر في غارَةٍ لَهُ عليْهِم)..كُلُّ هــؤلاءِ كانوا منَ الصَّعاليكِ الفاتكين.. كما صِرتَ تَسمَعُ أَنَّ قبيلةً، اتَّخَذَ كُلُّ أبنائهــا مِنَ (الصَّعلكَــةِ) مَذهبًا لَهُم في الحَيَاةِ، وسبيلاً وحيدًا لِلعيْشِ، لا سَبيلَ لَهُم غيْرُهُ كَقبيلةِ هُذَيْل[٢٣].

لكنَّ الصَّعلَكَةَ اضْمَحَــلَّ وُجودُها، وزالَ كِيَانُهــا، وامَّحَــى أثَرُهــا في عهــدِ الإسلامِ لِسَبَبَيْنِ واضِحَيْن:

أَوَّلُهُما: أنَّ تَعاليمَ الإسلامِ نَهَتْ عن سَلبِ مالِ النَّاســِ، وحَرَّمَتْ نَهبَ المُمتَلكاتِ، وكانَ فيمَا يَكسبُهُ المُجاهدونَ مِنَ الجِهادِ في سَبيلِ اللّهِ، ما يُغني عنِ الصَّعلكةِ، وتعريضِ النَّفسِ لِلمَخاطِرِ والمَهالِكِ.

وثانيهِمَا: ما أَدَرَّتْهُ الفُتُوحاتُ الإسلاميَّةُ علــى العرَبِ، والمُسلِمينَ من خَــيْراتٍ كَثيرَةٍ، وأموالٍ وفيرَةٍ. لقد صارَ الفاتِحونَ المُسلِمونَ مِــن ذوي الأموالِ والمَداخيــلِ الجَيِّدَةِ.. كما ارتَفَعَ قــدرُ الفاتحينَ، وعلــتْ مَكانَتُهُم في المُجتَمَعِ، وأشادَ المُسلِمونَ بِبُطولاتِهِم، وسَجَّلَ المُؤَرِّخُونَ تَضحِيَاتِهِمْ، مِمَّا دَفَعَ أصحابَ قُوَّةِ السَّاعِدِ إلى الالتِحاقِ بِصُفُوفِ المُجاهدين.

كما أَنَّ أَموالَ الزَّكاةِ التي فَرَضَها الإسلامُ في أَمــوالِ الأغنيــاءِ، تُؤخَــذُ في كُلِّ بَلَدٍ من أَموالِ الأثرياءِ تُــوَزَّعُ على فُقراءِ هذا البَلَدِ، وذوي الحاجــاتِ فيهِ.. لقــد قَلَّصَتْ أموالُ الزَّكاةِ أعــدادَ الفُقــراءِ والمُحتاجينَ؛ وهذا مــا أَدَّى إلى زَوالِ الحاجــةِ إلى التَّصَعلُــكِ، وانْمِحاءِ أَثَرِها.

وكما كانَ لِلصَّعاليكِ وَضْعٌ خاصٌّ، وكِيانٌ مُتَفَرِّدٌ، فقــد كانَ لَهُم شِعرُهُم الخاصُّ بِهِم، ولهذا الشِّعــرِ مَزاياهُ، وسِماتُهُ الخاصَّةُ فيهِ، ومِنْها:

١- شِعــرُ الصَّعاليــكِ كُلُّــهُ مَقطوعــاتٌ قصــيرةٌ: يَتَناسَــبُ معَ حياتِهــم المَبْنِيَّةِ على الخَطْــفِ والسَّلبِ وعَدمِ الاستِقْــرارِ، وكُلُّها تدعو لِلسرعــةِ.. يُستَثنَى من ذلــكَ (لاميَّةُ العَــرَبِ) لِلشَّنْفَرَى، التي رُبَّمَا يَكونُ قالَها في وقْتٍ كانَ فيهِ وادِعًا آمِنًا مُستَقِرًّا.

٢- قِلَّــةُ الحُــبِّ في شِعرِهِــم: فَــلا وقْــتَ لَدَى أكثَرِهِم لِلغَزَلِ ومُحادَثَةِ النِّساءِ، والحُبُّ في أغلَــبِ الأحيانِ بِحاجَــةٍ إلى حَيَاةٍ وادِعَةٍ مُستَقِرَّةٍ.

٣- اعْتِمَادُ شِعْرِ الصَّعاليكِ على وَحْدَةِ المَوضُوعِ؛ فَشِعرُهُمْ يَحكي حيَاتَهُم ويُصَوِّرُ كَدْحَهُم ومُعاناتِهِم، فهوَ في الغالِبِ يَدورُ حولَ حَيَاةِ التَّصعلُكِ والفَقْرِ، وما تَتَطَلَّبُ مِنْ اختِطافٍ وتَمَرُّدٍ وقهْرٍ وفَتْكٍ.

٤- اعتِمَادُ شِعرِهم على الواقعِيَّةِ وحُضُورُ الذِّهنِ بعيدًا عنِ الخَيَالِ، وإنْ لم يَخْلُ تَمامًا من ذلك.

٥- وقارئُ شِعْرِ الصَّعاليكِ يَجدُ فيهِ **قِيَمًا ومَعانيَ اجْتِمَاعِيَّةً راقِيَةً** تَدلُّ على إيمانِ بَعضِهِم العَميقِ بالمُثُلِ العُليَا، وتَمَسُّكِهِم بِمَكارمَ أخلاقِيَّةٍ، ومَعانيَ مُختارَةٍ رأَوْها أو رآها مُعظَمُ النَّاسِ أخلاقًا حَسَنَةً، تلتقي معَ القِيَمِ الاجتِمَاعيَّةِ، التي يُؤمِنُ بها المجتمع الذي يعيشونَ فيهِ.. على رأس هذهِ القِيَمِ:

أ- حُبُّ الحُرِّيَّةِ، والاعتِمَادُ على الذَّاتِ، والاسْتِغنَاءُ عنِ الآخَرينَ، وعَدَمُ قَبُولِ المَنّ والأَذَى...قال الشَّنْفَرَى الأزدي:

وأغْدُو خَميصَ البَطْنِ، لا يَستَفِزُّني
إلى الزَّادِ حِرْصٌ أو فُؤَادٌ مُوكَّلُ(٢٤)
وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأرضِ حتى لا يَرَى
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ(٢٥)

ويَتبَعُ حُبَّ الحُرِّيَّةِ إباءُ الضَّيم، ورَفضُ الذُّلِّ، وعدَمُ الخُضُوعِ لأيِّ قُوَّةٍ، تأباها نفسُ الإنسانِ الحُرِّ.. قال أبو خراش الهُذَلي:

مَخَافَةَ أنْ أحْيَا بِرَغْمٍ وذِلَّةٍ
ولَلمَوْتُ خَيْرٌ من حَيَاةٍ على رُغْمِ(٢٦)

كما يَقولُ عُروةُ بنُ الورد:

فَلَلْمَوتُ خَيرٌ للفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ
فَقيرًا، ومِنْ مَوْلًى تَدِبُّ عَقارِبُهْ(٢٧)

ومِنَ الحُرِّيَّةِ وحُبِّها حِرْصُ الإنْسانِ على الاعتِزازِ بِنَفسِهِ، وبِقُدُراتِهِ ومُؤَهلاتِهِ، واحتِفاظِهِ بكرامَتِهِ؛ فَإمَّا أنْ يعيشَ حُرًّا كريمًا، أو يَمُوتَ بعيدًا عنِ المَذَلَّةِ والتَّبَعِيَّةِ والخُضُوعِ.. يقولُ عُروةُ بنُ الوردِ يذكرُ عِزَّةَ نَفْسِهِ:

ذَريني أُطَوِّفْ في البِلادِ، لَعَلَّني
أُخَلِّيكِ، أو أُغْنِيكِ عن سُوءِ مَحضَري(٢٨)
فَإنْ فازَ سَهْمٌ لِلمَنِيَّةِ، لم أكُنْ
جَزُوعًا، وهل عن ذاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ؟(٢٩)
وإنْ فازَ سَهْمي كَفَّكُمْ عن مَقاعِدٍ
لَكُمْ، خَلفَ أدْبارِ البُيُوتِ، ومَنْظَرِ(٣٠)

وقد يَجِدُ بعضُ الشّهامِ مِنَ النَّاسِ حُرِّيَّتَهُمْ وعِزَّةَ أنفُسِهِمْ، وكَرامَتَهُمْ في بَذْلِهِمْ لِلمَعروفِ وقدرتِهِم على العَطاءِ، وتقديمِ

الهِبَاتِ، وصِلَةِ الأَرحامِ.. فَمِنْ أَعظَمِ مَفَاخِرِ عُروة بن الورد قَولُهُ:

إنِّي امْــرُؤٌ عــافِي إنائــي شـرْكَــةٌ
وأنْـتَ امْـرُؤٌ عافـي إنائـكَ واحِـدُ (٣١)

أَتَـهْـزَأُ مِـنِّـي إنْ سَـمِـنْـتُ، وقـد تَـرَى
بِجِسْمِيَ مَسَّ الحَقِّ، والحَقُّ جَاهِدُ (٣٢)

أُقَـسِّـمُ جِسمِـي فِي جُسُـومٍ كَثيـرَةٍ
وأَحسُـو قَـراحَ المـاءِ، والمـاءُ بـاردُ (٣٣)

٢- تَجَنُّبُ الإنس والاستئناس بالوحوش: رأى بعضُ الصَّعاليكِ راحَتَهم فِي التَّنَحِّي عنِ المُجتَمَعِ، والابتِعادِ عنـهُ؛ لإيمانِهِ أَنَّ مَتاعِبَهُ كانـتْ تَنْتُجُ عن مُخالطَةِ أَشْـرارِ النَّاسِ، لذا فقد فضَّلَ فِراقَهُم وعدَمَ التَّعامُلِ مَعهم.

٣- رَفْضُ عُبُوديَّةِ المال: سَعَى الصَّعاليكُ لِحيَـازَةِ المَالِ، وأَحَبُّـوا امتِلاكَهُ، لكنَّ حُبَّهُم هذا لا يَعنــي أن المالَ اسْتَرَقَّهــم، فَمَا المَالُ عِندَهــم إلاَّ وسيلةٌ لِقَضَاءِ حاجاتِ الإنسانِ، هو قُوتٌ لِلعِيَالِ، وسَـدٌّ لِثَغَراتِ الحَياةِ.. إنَّ الصَّعاليـكَ يُهاجِمُونَ الأَغنِيَـاءَ الأَشِحَّاءَ، يَقْهَرونَهم بِاغتِصابِ أَموالِهِم التي لم يُحْسِنُوا القِيَـامَ عليْها، اكتَنَزوهـا وخَزَنُوها وأَقْفَلوا عليْها، ومَنَعُوا حَقَّ الفقيرِ وذي الحاجةِ فيها، فَحَسَدَهــم الفقيرُ، وأَبغضَهُـم ذو الحاجةِ، فكانَ مِنْ أَهدافِ الصَّعاليكِ اغتِصابُ هذهِ الأَمــوالِ لإعادةِ تَوزيعِهــا بِشَكلٍ عادِلٍ (كما يزعُمُ الصَّعاليكُ) فيأَخذونَ لأَنفُسِهِم نصيبًا ويُوَزِّعونَ الباقي على رِفاقِهِم، ورِفاقُهُم هم الفُقَراءُ المُحتاجون.

٤- الصَّعلكـةُ نَـوعٌ مِنَ الصِّراعِ الطَّبَقي بـينَ فِئتَـيْنِ: فِئَةٍ مُنْعَمَةٍ وأُخـرَى مَحرومةٍ، اقتَنَعَتْ الفِئَــةُ المَحْرومَــةُ أَنَّ حِرْمانَها نَتَجَ عــن اسْتِئثــارِ الأَغنِيَــاءِ بِالــثَّرْوَةِ، وإقصَاءِ الفُقراءِ عنْها عَمْــدًا، وبِصُورَةٍ مُخَطَّطٍ لَها، وهنا رُبَّما تَلتَقي فِكرَةُ الصَّعلَكَةِ، مَعَ الفِكرَةِ الاشتِراكِيَّــةِ الشُّيُوعيَّــةِ (نَظَرِيَّــةِ الحَتْمِيَّةِ التاريخِيَّةِ المَاركسيَّةِ) التي تَعتَمِدُ على صِراعِ الفِئَتَــيْنِ المُتَناقِضَتَيْنِ؛ فِئةِ العُمَّالِ الكادحينَ المَحْرومينَ مــعَ (الرَّأسماليَّةِ) سُـرَّاقِ جُهُودِ الفقراءِ الكادحينَ وعَرقِهِم.

٥- اتِّصَـافُ الصَّعاليكِ بِاللَّياقةِ البَدَنيَّةِ العاليَـةِ: حيَاةُ الجَرْيِ الحَثيثِ وراءَ الحُرِّيَّةِ، وحيَاةُ الهُجُــومِ والاقْتِحامِ، والكَرِّ والفَرِّ، كُلُّ ذلكَ يستدعي وُجُودَ مَزايــا جَسَدِيَّةٍ عاليةٍ؛ ومن هُنَــا تَجِدُ الصَّعَاليــكَ فُرْسانًا، أَقوياءَ الأَجسادِ، يُتْقِنُــونَ فُنُونَ الحَــربِ والقِتالِ،

ويُجيــدونَ استِخْدامَ السِّــلاحِ. وكثيرٌ مِنْهم عَدَّاؤونَ مَهَرَةٌ، يَستَخَفُّونَ بِعَدْوِ الخَيلِ، لأنَّهم أقْنَعُــوا أنفُسَهم بِأنَّ الفِكْرَةَ التي يُؤمِنُونَ بها (أعنــي فِكرَةَ الصَّعلكة) سَبيــلُ حَقٍّ، ودَعوَةُ إصْلاحٍ يَسْعَونَ مِــنْ خِلالِها لأخْذِ حَقِّهِمْ في الحَيَاةِ، بِقُــوَّةِ السَّاعِدِ، وعُنْفِ المَقْهورِ الذي اغْتُصِبَتْ حُقُوقُهُ، فهوَ يُجَاهِدُ لاسْتِرْدادِها، وإثباتِ وجُودِهِ على هذِهِ الأرضِ.

الهوامش

١- أبو النَّشناش: أحد شُعَراء ديوان الحماسة لأبي تَمَّام ١٦٦/١.

٢- ديوانه، ص٥١. البأو: التَّكَبُّرُ. أزرى بِهِ: عَابَهُ وانْتَقَصَهُ.

٣- الذُّؤبان: كالذِّئابِ: جمعُ ذِئبٍ.

٤- انظر مُعجميّ تاج العروس للزبيدي، والصِّحاح لِلجوهري (صعلك).

٥- انظر لسان العرب (خلع).

٦- جَرَّ: ارتَكَبَ جَريرَةً أو ذَنْبًا.

٧- ديوانه، ص١٠٠ المُعَيَّل: الفقير ذو العِيال.

٨- ديوانه، ص٤٥. رَبُّ الهَجْمةِ: صاحبُ مَجموعة من الإبل.

٩- المَنيح: أحَد سِهامِ المَيْسِرِ لا رابح ولا خاسر.

١٠- ديوانه، ص٣٧.

١١- يُسَاوِرُ هَمَّهُ: يُصارِعُهُ. الهيجاء: اسم لِلحربِ. الليثُ: الأسد.

١٢- الكريهة: المعركة وقيل الموت.

١٣- لَحَى: قَبَّحَ. جَنَّ: أظلَمَ. مُصَافي: مُصَادق ومُؤثِر. المُشاش: العظام. مَجزر: مكان الجزر والذبح.

١٤- القِرَى: طَعامُ الضيفِ. مُيَسَّر: مَيْسور الحال.

١٥- يَحُتُّ: يُزيلُ. المُتَعَفِّر: الذي عَفَّرَهُ الترابُ.

١٦- العريش المُجَوَّر: السَّاقط المُتَهالك.

١٧- ديوانه، ص٣٧ وانظر أغاني دار صادر ٥١/٣. طليحًا: مُتعَبًا. المُحَسَّر: الضَّعيف المهزول.

١٨- انظر رسالة الفُتُوّة والصَّعلكة (سِلسلة اِقرأ /نشر دار المعارف بمصر عام ١٩٥٢م).

١٩- السَّراةُ: جِبالٌ تتبَعُ مَنطقةً تقعُ بينَ مَنطقتَي الحِجازِ وعسير.

٢٠- أغاني صادر، ٣/٥١.

٢١- أغاني صادر، ٣/٥٢ .

٢٢- ديوانه، ص٤٠. أُسَلِّبُهُ: أنتَزِعُ ما يَملكُ. السِّرْبَ: قطعان المَواشي.

٢٣- انظر الأغاني، ٢١/١٧٨.

٢٤- خميص البطن: ضَامِرًا، جائعًا. حِرص: شَرَه إلى الطعام. مُوَكَّل: بَليد أو جبان.

٢٥- أستَفُّ: آكُلُ. الطَّوْلُ: المَنُّ.

٢٦- الأغاني، ٢١/٢٣٩. الرُّغْمُ: الذُّلُّ والهَوانُ.

٢٧- مَولى: قريب. عَقاربُهُ: مِنَنُهُ وأذاهُ.

٢٨- أُطَوِّف: أغتَرب. أُخليك: أريحُكِ مِنِّي. سوء مَحْضَري: وُجودي غير المُستَحَبّ.

٢٩- فاز سهمُ المَنِيَّة: يُريدُ (فَإنْ مُتُّ).

٣٠- انظر ديوانه، ص٣٦. فاز سَهمي: رَبِحْتُ وحصَلتُ على غِنى.

٣١- عافي إنائي: طالِبُ مَعروفي. شِرْكة: جَماعة.

٣٢- مَسُّ الحَقِّ: أثَرُ الضَّعفِ الناجِمِ من صِلةِ الرحِمِ، وحِمايَةِ الضُّعَفاءِ. الحَقُّ جاهِدُ: مُتْعِبٌ؛ يُسَبِّبُ عَنَاءً ومَشَقَّةً.

٣٣- أحسُو: أشرب. قَراح الماء: الخالصُ مِنْهُ (يُريدُ أنَّهُ يكتفي بِالماءِ فقط).





الشعر يسترفد الفنّ التشكيلي

د. ثائر زين الدين ❁

العلاقةُ بين الشعر خاصة (والأدب عموماً) من جهة والفن التشكيلي من جهــةٍ ثانية قديمة قدمَ هذين الوجهين الجميلين من وجوهِ النشاط البشري، وقــد ظَلَ هذان الفنّانِ عبر التاريخ متوازيينِ مُترادفين، لأنهّما ومنذ ولدا قد عالجــا الكائنَ نفســه؛ أعني الإنسان؛ بوسائِلَ مختلفــة بالتأكيد : من أشكال وألوان وكلمات، فصــوّراهُ وقصّا فعاله ووصفا مشاعِره وأحاسيسه، وبالتالي فقــد بحثا الموضــوعَ نفسه وعملا على الأفكار نفسِها بشــكلٍ أو بآخر حتى

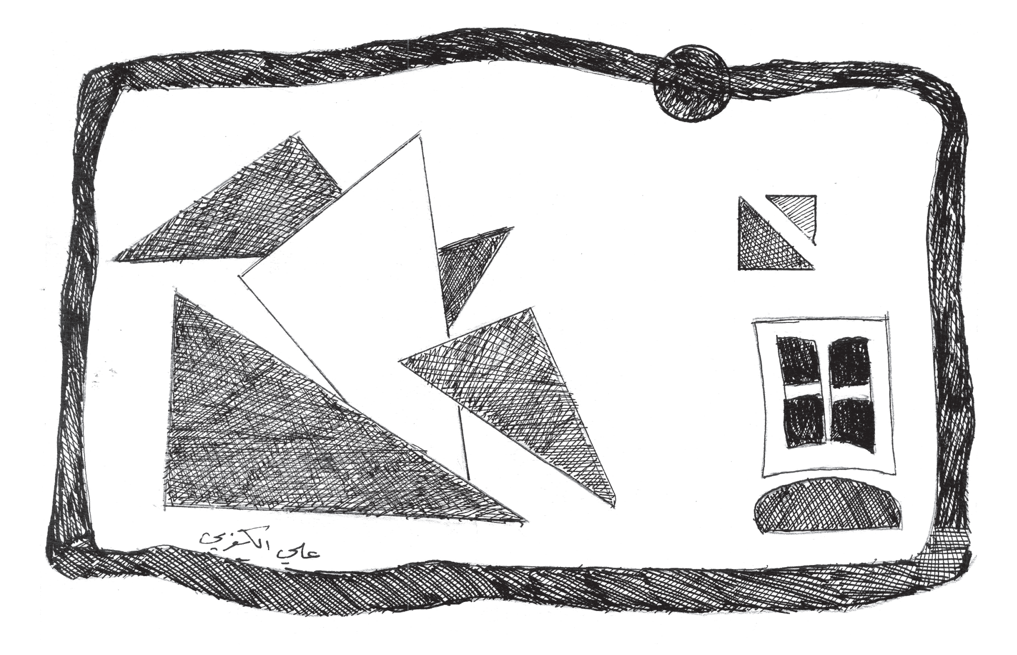
❁ أديب وشاعر ومدير الثقافة في السويداء.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

بَدوا وكأنهما متوافقانِ في الإلهام وقد اقتبس أحدهمـــا من الآخر دائمـــاً وتأثر كلٌ منهما بأخيه!

فمن منا مثـــلاً يستطيـــع أن ينكر تأثير الأساطـــير المصريّة الفرعونيّة القديمة على الفـــن المصـــري الفرعـــوني، أو ينكـــر تأثير الأساطـــير الإغريقيّة على النحتِ الإغريقي الوثني، ثمّ تأثـــير العهدين القديم والجديد على آلاف النحاتـــين والمصورينَ فيما بعد، وكأنّي بالكلمـــة أو الحكايـــة علـــى العموم مصـــدراً أوليـــاً وأساساً لإلهـــام المصّور أو النحـــات الخاطـــرةَ الأصليّـــة، التي سوف تتجســـد بعدَ حـــين وتصنع المـــادة، وتتجلى عملاً فنيـــاً فريداً، ومن هـــذا الباب يمكن اعتبـــار الفـــن التشكيلي تعبيراً عـــن فكرةٍ أدبيّـــة. ويؤيّدُ كثيرونَ هذا الـــرأي ويؤكدونَ علـــى أثر الإلهام الأدبي في تصميم الأشكال الفنيّة، وتركيـــب الألوان، لكننـــي شخصيّاً على يقين تام من أن المصوّرين والنحاتين لن يتمكّنوا من التعامل مـــع موضوعاتِ الشعرِ والتاريـــخ والقصّة والروايـــة ولن يستطيعوا استلهامها وتحويلها إلى أعمال فنيّة إلا حين ترقى تقاناتهم وأدواتهم الفنيّة مزوّدةً بسويةٍ فكريةٍ عالية، وتتقدم تقدماً كبيراً في دقتها وحساسيتها. وبالمقابـــل من التعسفِ بمكان أن لا ننتبـــه إلى أثـــر الفـــن التشكيلي على الأدبِ وأسبقيّة النحت والتصوير مثلاً على الكثير من الروائع الأدبيّة؛ فلن نبالغ لو قلنا إن أرباب الأولمب جميعاً، بل أرباب الديانات الوثنية المختلفة من إبداع النحت بصورةٍ ما؛ فـــإن كان الشاعر قد خَلَقَ بطل الملحمة، من مخيلتِهِ فـــإن المثّال هو الذي خلقَ ذلك الإله الوثني، والربُ هو قبل أي شيء آخر تمثال، بل حتى ميزاتُـــهُ الأخلاقيّـــة المختلفة، من سموٍ أو دهاءٍ أو وضاعة هي في المقام الأوّل صفات تشكيليّة وبقليلٍ من الاطلاع والتعمق في تاريخ الفن سندرك أن شخصيات الأُلمب الإلهيّة قد انحـــدرت من المعمل الذي وطّد نموذجها. ومن المرحلـــة الفنيّة التي ظهرت فيها.

«فهناك أرباب تحملُ طابع فيدياس مثل زوســـ وأتينيه. وهناك آلهـــة أخرى اتسمت بسمـــات براكسيتيل مثـــل أفروديت والآلهة الفتيّة علـــى غرار ديونيزوس وأبولون. وثمّة أرباب يدينـــون بصفات البطولـــة الرشيقة والقويـــة إلى أسلـــوب ليزيب مثـــل هِرمس وهرقـــل، وبعد أن يُرسّخ نحات عبقري وجه زوســـ في أولمبيا، أو وجه أتينيه في البارتنون ويوطّد زيّهُما وهيئتهما، لن تستطع أن تعدّل فيها من بعده عشرةُ قرون من الوثنية. على أن فيدياس لم يثبّت فقـــط نموذجاً طبيعيّاً. لقـــد وهب أيضـــاً هـــؤلاء الخالدين عظمةً ساميـــة، أو أناقة وقورةً. بقيتـــا أبد الدهر سجيّة هـــذه الآلهة، فلم يتوصّل تودُّدُ الناس



لها تـودداً متطيّراً، ولا خيالهـم المبتذل أن يحطّا من هيبة تلكَ الأصنام الجبارة. ومثل هـذه الملاحظة تجعلنا نخمّـن ما أوحت بهِ هذه التماثيـل الشهيرة إلى تقـوى المتقين، وتفكير الفلاسفة وخيال الشعراء».[1]

وقد يـرى أحدهـم أنّ «التصوير سابق الشعـر. فلوحـات واتـو watteau التي تمثّـل حلقات الغـزل تقدّمـت مسرحيّات ماريفـو marivaux الشهـيرة بمشاهد الدعابة ومراودة الحِسان. ولوحاتُ برودون prudhon التـي تصوّر الليـالي المقمرة، ولوحاتُ جوزيف فيرنيه Joseph vernet التي تعرض أمـواج البحر سبقت صفحات شاتوبريان التـي تصف العاصفـة والليل، والتيـار الرومانسي الـذي استلهَمَ القرون الوسطى وتغنّى بالمشاعـر الشخصيّة، أنتجَ فرائـده في تصاوير دولاكروا delacroise قبل مسرحيّـات هوغـو Hugo وملحمته «أسطـورة العصـور»، كذلـك مهّدت لوحة كوربيه Courbet «الجناز في قرية أورنان» السبيل لمشهد جُنّاز «مدام بوفاري». وكم من شعراء وروائيـين أوروبيين وعرب استلهموا الرسوم المصريـة الفرعونيّـة فكانت سبباً رئيسـاً في ولادة أعمال أدبيّة خلابة أو على الأقل صور بيانيّة عميقة؛ لنقرأ هذا المقطع العميق للشاعر المصري أمل دنقل:

«أوهموني بأن السرير سريري
أن قارب «رع»
سوف يحملني عبر نهر الأفاعي
لأولد في الصبح ثانيةً.. إن سطعْ
(فوق الورق المصقولْ
وضعوا رقمي دون اسمْ
وضعوا تذكرة الدمْ
واسم المرض المجهولْ)
أوهموني فصدّقت..»[٢]

هذا المقطع مُستلهم من الرسوم المصرية القديمـــة، وعلى رأسها لوحة قارب الإله رع الإله الشمســـي الذي اعتقدوا أنّه صانع كل ما نـــراه من حولنا في العـــالم المرئي وخالق السمـــاء وآلهتهـــا والتوات (العـــالم السفلي) وكائناته. الرسُـــمُ في الأساس يروي معتقداً مهمـــاً عند الفراعنة مفادُهُ «أن أرواح الموتى تحشر كل يـــوم في أمنتيت – بمعنى المنطقة المختفية أو الجحيم المصري – حيثُ تنتظرُ قارب «رع» فتركبه أرواح هؤلاء الذين عبدوه وداوموا على أداء الطقوس لهُ على الأرض، إذا كان قد ساعدهم الحظ وأمنوا لأنفسهم امتلاك القدرة، التي قـــد تُساعِد أرواحهم علـــى دخول القارب. وفي هذهِ الحالة ترحل هـــذه الأرواح مع الرب – تحـــت حمايته– عبرَ التـــوات وتمرُّ علـــى كل الأخطار، التي تهـــدّد بتدميرها وتدخُل ملكوتـــي إيزوريس وسيكير.. وبمضي الوقـــت تَظْهر مع رَعْ في الأفق الشرقي للسمـــاء عندما يشق النهار، حيثُ يمكنها التجوّل بحرية هناك»[٣] تماماً كما يعـــبّر الشاعِر الملقى على سرير المرض، المرض الذي لا شفاء منه، وهو يأمل أن يعبر بقـــارب رع بحر الأفاعـــي ليظهَرَ معه حين يسطع في الأفق الشرقي للسماء!!

ويذهـــبُ أصحـــابُ هذا الـــرأي إلى أن الوصف الأدبي ليســـ إلا وصفاً اصطلاحياً يقارب الحقيقـــة. ولا يملكُ من قوّة الإيحاء إلا بمقـــدار ما تحملهُ ذاكرتنـــا البشريّة من الصـــور البصريّة، فالكلمـــة لا تستطيعُ بأي شـــكلٍ مـــن الأشكال أن تصـــير صورة، فهي مجـــرد إشارة مصطنعة وهـــي صوت يتصلُ بفـــن الموسيقـــا بطريقةٍ ما، وحتـــى عندما ندوّنها على الورق فإنهـــا تظل مجرّد إشارة ولا تقـــدم إلى باصرتنا ما يذكرّنا بما تسميه أو تصفه، إلا من خلال ما تبعثُهُ في أذهاننا من صور غافية في زوايا الذاكرة، فلو كانت تلكَ الذاكرة، خالية من صور بصريّة مخزنة فيها، لمـــا استطاع الوصف الأدبي أن يضيء في أذهاننا إلا العدم. وبالتالي فالطبيعة بما هي مجموع عالمنا المرئـــي لم تنفذْ إلى مخيّلة الناس – فيما مضى ولم تنعكس بعد ذلك في الآثار الأدبية إلا عن طريق النحت والتصوير أي عـــن طريق صور الفن «فيكون للفن أكبر نصيب في اكتشاف الطبيعة».

ولكــن في اللحظة نفسهــا التي نتحدّث فيها عــن خصوصيةِ كلٍ من الفن التشكيلي والأدب وأسبقيّة هذا على ذاك في مجالٍ ما، علينا أن ننتَبهَ إلى إنهما عملا- على الأغلب - جنبــاً إلى جنــب؛ فمن منهمــا مثلاً قد أشاعَ تلكَ الكآبة والحزن الخلاقين اللذين تمثّلهما أتباع المدرسة الرومانسيّة ذات يوم؟ أم أنهمــا عملا معاً فولدت إثر ذلك مدرسة أدبيّة متميّــزة!؟ إن التأثير المتبادل الخلاق بين الفن التشكيلي والأدب جديرٌ بالدراسة لأنــه دائماً وعبر العصور يــؤدي إلى تطوير ذوائقنا ومعارفنا.

والحقيقة أن دراسة علاقة الشعر بالفن التشكيلــي تحتاجُ كتاباً كامــلاً، حيثُ ينبغي الوقوف عند الموضوعات التالية:

١- الأعمــال التشكيليــة تغــذي خيال الشاعر بصورةٍ مباشرة

٢- قصيــدةُ العمــل الفنــي التشكيلي «لوحة- تمثال - روليبف..»

٣- الشاعــرُ يستلهمُ الفنــانَ التشكيلي وأعماله ويوظفها في القصيدة.

٤- الشاعرُ.. فنانــاً تشكيلياً. (التعاملُ مع الألوان - الشعــر البصري - القصيدة المجسدة)

وقد آثرنا لضيقِ المكان أن نتناولَ الموضوعَ الرابع لأنهُ الأهم من وجهة نظرنا.

- الشاعرُ.. فناناً تشكيلياً:

هنــا يطمــحُ الشاعــرُ إلى التعاملِ مع قصيدتهِ أو مع الورقة البيضاء التي سيكتب عليها كما يتعامَلُ الفنان التشكيلي مع لوحتِهِ ؛مع قطعة القماش التي سيرسُمُ عليها عمله الفني،أو بعبارةٍ أخرى يسعى الشاعر للتعامل مع القصيدة برؤيا الفنان التشكيلي وبفهمهِ لكيفيةِ بناء العمل من استخدامِ للونِ ومهارةٍ في وضعــهِ على السطح المستوي أمامه، لوناً خاماً.. أو معالجــاً أو ممزوجاً.. إلى توزيعِ الكتلِ عليه، إلى الخطوطِ وانسيابها وتهاديها في العملِ أو تكسّرهــا ونزقها أو تقطّعِها أو غيابها أو.. أو.. إلى المنظور وزوايا الرؤيا.. إلى غير ذلك..

وهنــا تتجلّــى - برأيي أعلــى مراتب التراسُل بــين الفن التشكيلــي والشعر؛ أي عندما يتمكّــن الشعرُ من استرفادِ وتوظيفِ مــا يستطيع من تقانــاتِ الفــن التشكيلي وأساليبهِ وأدواتــه، وستجدُ من الشعراء من تمكّن من تحقيقِ شيءٍ من هذا لأنه صاحب موهبة عالية وذائقة سامية، من دون معرفةٍ أكاديّميــة أو مدرسيّة بالفن التشكيلي، وقد نلمسُــن نجاحاً في ذلك ونــرى خلفه معرفة عميقــة بأصول الفــن التشكيلــي وعلومهِ وأوّلها علم الألــوان... وقبل أن أمثّل لرأيي هــذا بنماذج مــن الشعر العالمــي والعربي المعاصــر، لا بأس من العودة قليلاً إلى بعض

النماذج من الشعر العربي الأندلسي حيثُ رأينا الشاعر رسّاماً ماهراً في استخدام الألوان ضمن قصيدته اللوحة؛ بتأثير بيئة خلابة وحس تشكيلي عفوي لافت، لكنه على الأغلب يظل وصّافاً ماهراً، مبدعاً في بسط الألوان على لوحة القصيدة، من دون أن يتجاوز ذلك إلى جماليات أرقى وأسمى؛ كأن نقرأ لابن خفاجة في وصف نهر:

متعطّفٌ مثل السوار كأنّهُ
-والزهرُ يكنُفُه- مَجرُّ سماءِ
قدْ رقَّ حتى ظُنّ قرصاً مُفْرَغاً
من فضّةٍ في بردةٍ خضراءِ
وغدتْ تحفُّ به الغصونُ كأنها
هدبٌ تحفُّ بمقلةٍ زرقاءِ[٤]

في الحديث عن هذه الأبيات يقول د.حافظ المغربي: «إن أبيات ابن خفاجة تبدو مفككة لو تعمدت النظر إليها أبياتاً متفرقة، لكنها تبدو موحّدة تركيبياً لو نظرت إليها كلوحة متكاملة الألوان؛ كالعقد الفريد تختلف ألوان خرزه، ولكنها تتوحد جمالياً برباط من الفن. إنّ النهر أبيض اللون هادئ في جانب من اللوحة لانسجامه مع شكل قرص وسط جزيرة خضراء تبدو بردة، وفي جانب آخر من اللوحة يبدو أزرق بفعل انعكاس لون السماء حتى ليغدو مقلةً زرقاء، غصون الأشجار على جانبيها أهداب (خضراء/سوداء). إن الألوان الباردة تسيطر على اللوحة بياضاً وخضرةً وزرقة لتخلق وحدة من الانسجام بين ألوان تتجاور ثم تتمايز واضحة»[٥]

وقد تصبح ألوان اللوحة أكثر غزارةً وتنوّعاً وتبايناً كما هي الحال في مقطع يصف فيه أبو الأصبغ بن عبد العزيز زهرةَ البنفسج بالشعر:

وبنفسج أربى على النّوّارِ
وأفادنا عطراً بلا عطّارِ
فكأنما أعلاهُ من فيروزجن
وبساطه في خضرة الأشجارِ
هو مسكةٌ خلقتْ لها أوراقها
في لونها من صبغةِ الجبّارِ
أو رقعةٌ زرقاءُ في كبد السّما
في يومِ صحوٍ فتنةُ النظّار
أو لمّةُ الحسناءِ تحسبُ وسطها
للزعفرانِ مواضعُ الآثار
أو لجّةٌ كحلاءُ هزتّها الصّبا
فتكسرتْ ليناً على مقدار[٦]

حين تنهي قراءة الأبيات وتغمض عينيك تحسّ نفسك أمام لوحة لفنانٍ واقعي يرسُمُ زهرةَ بنفسج، أو زهريّة مليئة بأزهار البنفسج؛ وترى الألوان والدرجات اللونية العديدة التي يستخدمها هذا المصور من زُرقَة وخضرة وحمرة وسوادٍ يميلُ إلى الحُمرة، فالزهرةُ من أعلى لها زرقةُ الفيروز

أمـــا أسفلها فهو أقربُ إلى خضرة الأشجار، وفي بعض مواضعها تتلـــون بلون المسك أي بالأســـودِ العميق المشـــوب أحياناً بالحمرة، وفي مـــكانٍ آخر تبدو بَتـــلات الزهرة زرقاء كسماءٍ صافيـــة، وفي موضع آخر منها تجدُ الورقة تميلُ إلى سوادٍ يشبهُ سواد لمة حسناء مَشـــوبٍ بشيءٍ من لـــون الزعفران أي اللون الأصفـــر، وقد يميلُ موضعٌ آخر من الزهرة إلى لون الكحل بســـوادهِ المائل إلى شيءٍ من الخضرة أو اللون الكحلي أحياناً.

إننا أمام لوحة غزيرة الألوان وتدرجاتها، وهي متوازنة أيضاً فإلى جانب الألوان الباردة تبرزُ الأخرى الحارة وإن بشيءٍ من الخجل، وهناك اللون الأسود الذي لا يضعُهُ المصور صافيـــاً بل مشوبـــاً مرةً بالحمـــرة وأخرى بالصُفـــرة وما إلى ذلك! ومن يقـــرأ الشعر العربي الأندلسي يفتِنهُ حضور الألوانِ،التي ترسم مناظر طبيعية غنيّة أو طبيعة صامتة من أزهار وفاكهة وحليّ وما إلى ذلك.

ولا بدَّ أن تجربة شعراء الأندلس عموماً قد أثّـــرت في بعض الشعـــراء الذين جاؤوا بعدهم وأفادت الأذكياء منهم فطوّروها..

علـــى رأس هـــؤلاء الشعـــراء فريدريكو غارثيا لوركا الوريث الشرعي لهؤلاء الشعراء الرسّامين وكان لـــوركا رسّاماً وقد قال عنهُ ذات يوم سلفادور دالي الذي عرفه وهو شاب في العشريـــن «ليس لدى لوركا صورة شعرية تبدو خالية من لـــون مرتعش..»[٧]، ولا ريب أن وراءَ عشـــق لوركا للألـــوانِ واستخدامها في الشعـــر هو ذلـــك الكم غـــير القليل من مشاهد ذكرياتِ طفولتِهِ المبكرّة، وهو المولود بالقرب من مدينة غرناطـــة القديمة حيثُ «تتضاعفُ فيها ألـــوان الموشور وتتعدّد كما تتضاعف فوق جوهـــرة متعددة الوجوه»[٨]، إضافـــة إلى مـــا حملته ذاكرته مـــن تجوالِهِ وإقامته في مدريـــد وفي الجنوب الإسباني، وقـــد ذكـــر الشاعـــرُ «الميدة عنـــد الغروب والباسين والحمراء وجنة العريف والنباتات الأندلسية تنســـجُ بساطاً فارسياًّ عزّ نظيرُهُ، ويحط عليه برفق وإشفـاق (نهر دارو) كما لو كان سيفاً».[٩]

وجراءَ ذلك على الأرجـــح رأينا الشاعر يتمكـــنّ من استلهام ألـــوان غرناطة بصورة رائعة تذكر بشعـــراء الأندلس العرب. يقول الناقد لويـــس باروت: «استخـــدم لوركا في البدايـــة نظامـــاً أصيلاً للألـــوان الأساسيّة لرســـم الجبـــال المجـــاورة: أخضـــر بحري شاحب، بني خفيف، أحمر، بني غامق؛تخرجُ منهـــا تدريجيّاً الإيقاعات الجديدة المحجبة مغمـــورةً بالألـــوان الأرجوانيّـــة. واستعمل لوركا سُلّماً ثانيـــاً للألوان لاستدعاء المدينة بواجهاتها المتعددة، أرجواني تفّاحي، أخضر، وردي مبيض، نرجســـي أساسي؛ وهذهِ كما يقول هي ألوان الملابس الساتانيّة الداخليّة

التي ترتديها نساء غرناطة، وهي أزهار قصر الحمراء، الياسمين والآس وأشجار الفستق والغار، ومشاتل الورد، وأخيراً يعمد إلى سُلم لوني آخر أكثر رقةً ونعومةً، فعندما يقبل المساء فإنه يكسو القرى والجبال رداءً حريريّاً مُشرباً بالفضّة مع كل بريق اللؤلؤ (ألوان الصقيع)، والقرنفل، والأوبال، واللؤلؤ القديم، والزفير، والعقيق إلى غير ذلك من الدقائق اللونيّة التي كان على لوركا أن يكتشفها ويعيد اكتشافها في ذاكرته والتي اعتمدَ عليها فيما بعد في رسم أجواء وبيئات قصائده الغجريّة».[١٠]

من يقرأ أعمال لوركا الشعريّة يراهُ مفتوناً بالألوان إلى درجة غريبة لكأنّه ينتظرُ من كل موضوع يقتحمُهُ ويروقُ له، أن يقدّمَ له الحجّة كي يستخدم الألوان التي تظلُّ ترتعشُ في أعماقنا طويلاً؛ لنقرأ من حكاية القمر:

«جاء القمرُ إلى دكان الحدّاد / بسرجِه العنبري
وأخذ الطفلُ يحدّقُ إليه /.. يحرّكُ القمرُ ذراعيه
ويكشفُ بعهرٍ وبطهرٍ صدرَهُ القصديري الصلد
أهرب يا قمر، يا قمر، يا قمر، يا قمر
إن جاءَ الغجَرُ/ صنعوا من قلبكَ
عقوداً وخواتم بيضاء./ أيها الطفل دعني أرقص....
ومن غابة الزيتون/ طلع الغجَرُ
بألوان البرونز والأحلام...»[١١]

وفي قصيدة «الغالية والريح»، تخاطب الريحُ الغاليّةَ:

«أيتها الصبيّة
ارفعي ثوبك لأراكِ
وافتحي لأصابعي العريقة
الوردة اللازوردية فوق جوفك..»[١٢]

ولشدة عنف الريح يرسمها لوركا عجوزاً زمردية اللون تطارد الفتاة عبر طرق برمائية تختلط فيها البلوريات بأشجار الغار، بينما يرقد الحرس وهم يراقبون الثيران البيضاء، وغجر الماء يتلهّون برفع عناقيد القواقع وغصون الصنوبر الخضراء.

ونقرأ في قصيدة «القبض على أنطونيو آل كامبوريوس» وصفاً بألوان تعبيرية باهرة:

«..أسمر بلون القمر الأخضر
يمشي برشاقة..
وجدائل شعره الفاحم تتألق بين عينيه
وفي منتصف الطريق قطف ليمونات كرويّة
وألقاها في الماء.. كانت أشجار الزيتون تنتظر
ليلة برج الثور
والنسيم يمتطي
ظهور الجبال الرصاصية..»[١٣]

وقد تتساءل ما الذي أراده من جعل أنطونيو يقطع ليموناتٍ كروية ويلقيها في الماء؟

والجــواب إن الشاعر حقــق من خلال ذلك غايتين الأولى معنوية فالبطل لاهٍ، غير مكترث بشيء، سعيد، يســير في دربه عابثاً ولا يخشى شيئــاً.. والغاية الثانية جمالية.. إننا أمــام لوحــة زيتية طبيعيــة صامتة.. تخيلــوا ليمونات صفراء اللــون تسبح فوق صفحة الماء الزرقاء لكأنك أمام عملٍ للفنان الهولندي الذي أحبه لوركا كثيراً: فان كوخ.. وسيلعب هذه اللعبة كثيراً.. لعبة تغني النص بصرياً.

في قصيدة الراهبة الغجرية نقرأ:

«.. فوق نسيج تبني

تطرّز الراهبة

وفي الجو العنكبوتي الرمادي

تحلّق طيور الموشور السبعة..

ما أحسن تطريزها

وبأي لطفٍ كانت تطرّز

فوق النسيج التبني

..زهوراً من نسج خيالها

أي عباد الشمس، أي مانوليا

من الخَرَز والأشرطة.. وأي زعفران وأقمار.

على كساء المذبح خمس ليمونات.. وفي عيني

الراهبة يعدو فارسان...»(١٤)

انظــروا إلى حضــور اللــون الأصفــر الفاتح.. لون الليمون.. لون عباد الشمس.. الذي يطغى علــى لوحة الراهبة التي تنهك نفسها بالتطريز.. وحين تلتفت إلى جسدها وتنــزع قميصها وقد عــبرَ في مقلتيها ظل فارســ، لا تبصــرُ إلا «غيومــاً وجبالاً/في الأقاصي المهجورة» فيتمَزّقُ قلبها «قلب من سكــر وعشب غض».. لــكأن اللون الأصفر بالمفردات التي شغلهــا لم يعبر إلا عن الموت القادم إلى جسد هذه الراهبة؛ هذا الجسد الذي لا يجــدُ إلا العطش والجــوع، فتعود صاحبتــهُ من أمــام المــرآة إلى نسيجها ذي اللون التبني لترسم عليه من جديد..

وفي قصيــدة «الزوجــة الخائنة» يُهدي الغجــريُ الأصيلُ الفتاةَ التي زعمت له أنها عذراء «سلّةً حريريّة بلون التبن»(١٥)

وفي قصيدة مصرع أنطونيو آل كامبريوس يتابع لــوركا رسم لوحة لهــذا الشاب الذي سيقتلونه بعد قليل: «فهو الأسمرُ بلونِ خضرة القمر، موشى بألوان البنفسج، صوت قرنفل فحل، بشرته معجونة من الزيتون والياسمين، حــذاؤه بلون الزبيب، وعليه قلائد عاجية.. رباط عنقه قرمزي اللون.»(١٦)

ولا بدّ لمن قرأ لــوركا أن يقف ملياً عند اللــون الأكثر استخداماً في نصوصه.. اللون الأخضر.. وسيجــده مسيطراً على المشاهد الطبيعية.. لكن هــذا اللون لا يكتفي بذلك فهــو يتســرب إلى كل شــيء.. ويدخــل في تفاصيل النصوص كلها.

نقــرأ في قصيدتــه الشهــيرة «حكايــة السارية في النوم»:

«خضراء، لكم أحبك أيتها الخضراء

ريحٌ خضراء، غصون خضراء

والقاربُ فوقَ البحر

والحصانُ فوق الجبل

الظلّ يطوق خصرَها وهي تحلم.

هي في شرفتها

بشرة خضراء وشعر أخضر

وعينان من الفضّة الباردة»[١٧]

وســنرى أن لــوركا يجعــل هــذا اللون متعــدد الــدلالات، بل ســنراهُ في القصيدة المذكورة يقــدم دلالتين متناقضتين؛ فهو في بدايــة القصيدة يرسُمُ هذهِ الغجرية الفاتنة ويرفــرفُ رمزاً على الحياة والخصب، لكنهُ ينقلب في نهاية القصيدة ليدلَ على الموت.. نقرأ:

«وفوقَ صفحة الصهريج

تطفو الفتاة الغجريّة

بشرة خضراء، شعرٌ أخضر

خضراء لكم أحبك أيتها الخضراء

ريحٌ خضراء، غصون خضراء

والقارب فوق البحر

والحصان فوق الجبل»[١٨]

وقد عرفنــا من نقاد لــوركا من اقترحَ تفســيراً عبقريّاً لشيوع هذا اللون وسيطرته على أجــواء لوركا -على حــد تعبير لويس باروت- إنّه جان كامب الذي يرى أن حضور هــذا اللون إنمــا هو «ذكــرى عمامة النبي الخضراء، التــي رفرفت يومــاً فوقَ جميع مآذن غرناطــة، وفوق أطراف حراب جميع المحاربين العــرب؟ أليس اللون الأخضر هو اللون المقدس عنــد الإسلام حتى اليوم؟ ثُم ألا يرغــب لوركا بهذه الوسيلــة الرمزيّة أن يحدّد الطابع القــدري الإسلامي فوق هذهِ الأرض التي كان ثلث سُكانها من المسيحيين بلا ريب، ولكن كان ثلثها من المسلمين طبقاً لمــا يردِدُه (كوبليه) غنائي قــديم..»[١٩] وقد يكون في رأي جان كامب جانب غير قليل من الصحّة؛ فلوركا كما قدمته أحاديثه وكتاباته مسكونٌ بالأندلس وتاريخها لنقرأ شطراً من رسالتِهِ إلى شاعــرٍ كولومبياني حيثُ يقول: «إني مقــدمٌ الآن علــى إبداعِ شعــرٍ سوفَ يتدفّقُ مثلَ تدفق الدم عندما تقطع رسغك. شعــر يأخذ راحة من الواقع، يكتب بمشاعر كل حبّي للأشيــاء. وتلاعبي بها حد الموت، والتلاعــبُ مع الموت حُبُّ قلبي. طوال اليوم أعملُ في مصنع الشِعر، أحياناً ألقي بنفسي في موضــوع (الإنسان) الأندلســي الأصيل الباخوســي في ملذاتهِ الجسدية وضحكاته. الأندلس -وهذا أمرٌ لا يصدق- هي الشرق بلا سمــوم، والغرب بلا فعــال. في كل يوم تتوفر لي مفاجأة جديدة، إن جسد الجنوب

الجميل، يغفرُ لــك ويشكرك، بعد أن تكون قد تعسّفتَ معه».[٢٠]

وأمــام كل تلك الكثافــة اللونيّة والتنوع الزاخــر في قصائد لوركا قــد يبدو للقارئ الكريم أن من المستغرب وقوفنا عند قصيدة- لوحة لشاعر عربــي مصري هو أمل دنقل؛ لوحة مرسومة بلونين فقط الأبيض والأسود؛ الشاعر هنا مصوّر بامتياز، ولكنّه يستخدم قلــم الفحم أو قلم الرصاصــ، ويتمكن من حشد الــدلالات الكامنة في وجدان الإنسان العربي وروحه حول هذين اللونين وقد يقلبُ دلالات اللون إلى نقيضها كما سنرى ويشحن بهــا نَصّه المكتوب في المشفى. تقولُ قصيدةُ أمل دنقل «ضدّ من»:

في غرف العمليات،
كان نقابُ الأطباء أبيض،
لونُ المعاطف أبيض،
تاجُ الحكيمات أبيض، أرديةُ الراهبات،
الملاءاتُ،
لون الأسرة، أربطةُ الشاش والقطن،
قرصُ المنوم، أنبوبة المصل،
كوب اللبن.
كل هذا يشيع بقلبي الوهنْ.
كل هذا البياض يذكرني بالكفنْ!
فلماذا إذاً مت.؟؟
يأتي المعزون متشحين..
بشارات لون الحدادْ؟
هل لأن لون السوادْ..
هو لون النجاة من الموت،
لونُ التميمة ضد.. الزمنْ،

❁ ❁ ❁

ضد منْ..؟
ومتى القلب -في الخفقان- اطمأنْ؟!

❁ ❁ ❁

بين لونين: أستقبل الأصدقاءَ..
الذين يرون سريري قبراً
وحياتي.. دهراً
وأرى في العيون العميقة
لون الحقيقة
لون تراب الوطن![٢١]

في هذه القصيدة يبــدو الشاعر رساماً ماهــراً ففضاء اللوحــة (وهو هنا غرفةٌ في المستشفــى) مشغول بأطباء يرتــدون نقاباً أبيض، و«بحكيمات» علــى رؤوسهن تيجان بيضــاء.. وبأردية راهبــات بيضاء – وهنا نستغرب وجــود الراهبات في هــذا الموقع ونستنتــج بعد القــراءة المتأنيــة أن الشاعر ليس مسكوناً بلعبــة التلوين بالأبيض بقدر ما يفرض الموت نفسه عليه كهاجس رابض فوق صدر القصيدة، فإذا بالراهبات يبرزن هنا بأرديتهنّ البيضاء بما يمثّلنه من تشييع جنائــزي للشاعر.. ولاسيما حــين نعلم أن

القصيدة واحدة من قصائد مجموعته «أوراق الغرفة٨» التي كتبها وهو يصارع مرض السرطان في المستشفى.. ويتابع الشاعر تأثيث فضاء لوحته فإذا بالأسرة مرسومة بالأبيض وكذلك أربطة الشاش والقطن وقرص المنّوم،الذي لابدّ منه كي يستطيع النوم والاستراحة من الألم والقلق، أنبوبة المصل، وكوب الحليب..

إن هذا البياض لا يبعث في روح الشاعر إلا شعوراً بالوهن.. شعوراً بدنوّ الأجل.. إنه يذكر بالكفن!..

لقد ترك الشاعر دلالات اللون الأبيض التي رسخت في وجدان الإنسان العربي والمسلم والمسيحي كلها ولم يأخذ إلا دلالة الموت.. ومعروفٌ لنا جميعاً أن اللون الأبيض ارتبط عندنا – على الأغلب – بمفهوم الطهر والنقاء والقداسة والخير والكرم والعطاء وتفاءل الناس به، وقد جاء في القرآن الكريم أيضاً ضمن هذه الهالة من الدلالات. تقول سورة الصافات: «**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ× بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ**»[٢٢] وجاء في سورة النمل: «**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**»[٢٣]

ونلاحظ أن اللون الأبيض بدلالاته تلك وما يثيره من هواجس يشغل نصف القصيدة..

ليبدأ الأسود بالظهور في النصف الثاني مكمّلاً اللوحة، وشاغلاً مكانه المطلوب.. فها هم المعزون يأتون –كما يتخيل الشاعر– بأرديتهم السوداء..

وقد لبسوها كتميمةٍ ضد الموت (بلونه الأبيض) ودلالات اللون الأسود في مجتمعاتنا تدور دائماً حول الموت والاندثار والعماء والقبح (على الأغلب) وقد وردت في القرآن الكريم ضمن هذا السياق؛ يقول تعالى: «**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ×وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**»[٢٤]

ويرى علماء اللون بالنظر إليه من زاوية رؤيا علم النفس: «اللون الأسود من أشدّ الألوان قتامة وفي الحقيقة هو عبارة عن نفي اللون، واللون الأسود يمثل الحدود المطلقة التي بعدها تتوقف الحياة، ولذلك فهو يمثل فكرة العدم والانطفاء، والأسود يمثّل «لا»، بينما الأبيض يمثل «نعم»، اللون الأبيض يمثل الصفحة العذراء التي لا تملؤها القصة بعد، بينما الأسود هو النهاية التي بعدها لا يوجد شيء»[٢٥]

ولا يختلف اثنان في عالمنا العربي مثلاً أن اللون الأسود هو رمز الحزن والألم والموت والخوف من المجهول والميل إلى التكتم،

ولأنــه سلــب اللون فهو يدل علـــى العدميّة والفناء..[٢٦]

ومـــع كل ذلك فللّون عند شاعر مثل أمل دنقل شأن آخر.. لقد أراده دلالة على النجاة مـــن الموت؛ أراده تميمة ترفع في وجه الفناء كمـــا أسلفـــت: ويختم بأن اللـــون الحقيقي والباقـــي في النهايـــة، هو ما يـــراه في عمق العيون التي تزوره.. إنه لون تراب الوطن!!

وبمثـــل هـــذا التألق في رســـم القصيدة بالأســـود والأبيض لكن بشحنة أقل من الألم والمرارة نقع على عديد من قصائد الهايكو، يكتب كينث ياسودا بعنوان «زهرة كاميليا»:

«محتكّة بالأوراق سقطت
زهرة كاميليا بيضاء
في النبع المعتم»[٢٧]

ونقرأ للشاعر نفسه «زنبق الكاليا»:

«ظلُّ السداةِ أسود
يلقيه نور الصباح
على زنبقة الكاليا البيضاء»

ونقـــرأ من الهايكـــو اليابانية «شجيرات الشاي»، للشاعر هيكيجودو:

«في ضوء القنديل
بيضاء أزهار شجيرات الشاي
على جانب الممر ليلاً»[٢٨]

وقـــد تأتـــي اللوحة بالأحمـــر والأبيض فترتعش بين البرودة والدفء. يقول تشيو في «زهرة أقحوان بيضاء»:

«انظر.. أوه.. كم هي مخيفة
الأظافر المطليّة بالأحمر على
أرضيّة من الأقحوانة البيضاء»[٢٩]

وفي كل الأحـــوال، أعتقـــد أن قصائـــد الهايكو الناجحة جميعها إن هي إلا لوحات بكل معنـــى الكلمة، لوحـــات طبيعة صامتة على الأغلب، لنقرأ مثلاً قصيدة «باشو»:

«على غصنٍ ذابلٍ
يجثم غرابٌ وحيد
مساء الخريف الآن»[٣٠]

فور قـــراءة واحدنـــا لقصيـــدة الهايكو ترسم مخيلته بوضوح ويسر لوحة بصريّة هي معـــادل مباشر للمفردات، بـــل من السهولة بمكان أن يحـــوّل أي مصوّر قصيدة الهايكو إلى لوحـــة وبسرعة نادرة ربمـــا لأنها مبنيّة ومؤثثـــة وفق رؤيا اللوحة، وهذا ما لا يمكن قوله عن النصوص الشعرية الأخرى.

ومن القصائـــد اللافتة في هذا السياق: قصيدة عنوانها «فتاة بالأحمر»[٣١]

للشاعرة الإنكليزية فيكي فيفر، المولودة عـــام ١٩٤٣ في مدينة توتنغهـــام، القصيدة مرسومـــة بثلاثة ألـــوان: الأســـود والأحمر والأخضـــر، ولئن جـــاء الأســـود والأخضر

صافيين وغير متدرّجين: فإن الأحمر يحضر بطيفٍ عريضٍ من التدرجات، تقول القصيدة:

«ولدت لأم في حداد / كان المزاج في البيت أسود

مثل قار أملس على نهايات الأرصفة

حركته بعصا./ كان الأحمر لوني المفضل:

وردياً، قرمزياً، ياقوتياً./ في المدرسة رسمت فتاة

حمراء في غابة حمراء.

قالت المعلمة: «الأشجار خضراء»

فرسمتها خضراء، ثم قالت: «الأحمر والأخضر

يتعارضان»

لكنني أردتهما أن يتعارضا./ أردت الأصناج والأبواق،

كل فوضى الألوان المشاكسة،/ ليغرقوا صمت الأسود.

جعلت أمي تخيط لي ثوباً قرمزياً

(لم أهتم حين قالت جدتي أنني أبدو فيه كغانية)

سرقت أحمر شفاه - وردياً فاقعاً،

فراح الأطفال والشيوخ كلهم ينظرون إلي.

عصرت نفسي في كعبين عاليين بلون ياقوتي

يمتلئان بالدم في الأيام الحارة./ شربت براميل

من الجن القرنفلي،

وأخبرت شقيقتي (التي أرسلوها لتتجسس

علي)/ أنه ماء.

حلمت بالأحمر، بالوردي، بالقرمزي،

بالياقوتي.

الآن أحلم بالأسود.

الشاعرة (أو بطلتها) تعلن من البداية أنها ولدت لأم في حداد، وبالتالي فقد كان كل شيء في المنزل أسود، حتى المزاج وهو شيء غير مادي، مجرّد، ومع ذلك فقد لوّنته الشاعرة بالأسود، وأمعنت في وصفه فاختارت له شيئاً محسوساً جدّاً هذه المرّة، فإذا به أسود كالقار، بكل لزوجته وكثافته.. ولكنها مع ذلك لم تحب الأسود.. لون العماء والاندثار بل أحبت اللون الأحمر، وكان لونها المفضل بتنويعاته ودرجاته كلّها.. إنها تحب الوردي والقرمزي والياقوتي.. لقد أرادت على الأرجح أن تقول لنا إنها أحبت الحياة، والأحمر لونٌ طاقته عالية، لون حار، لون الحركة وبالتالي فهو الأقدر أن يعبّر عن الحياة ويرمز لها، حتى أنها رسمت ذات يوم فتاة حمراء في غابة حمراء! وحين شرحت لها المعلّمة أن الأشجار خضراء، عادت فرسمت فتاة حمراء في غابة خضراء، ولكن الأمر لم يعجب المعلمة، فهي ترى أن (الأحمر والأخضر يتعارضان)، لكن الشاعرة - الطفلة أبقت لوحتها كما هي، لقد أرادت لهما أن يتعارضا، والحقيقة أن الفنانين التشكيليين يعلمون أن وضع الأحمر إلى جانب الأخضر قد يبدو مغامرة محفوفة بالمخاطر على سطح اللوحة.. لكن كلاً منهما عملياً متممٌ للآخر.. وأحدهما حار والآخر بارد.. وبالتالي فإن أحسن استخدامهما فقد

يقدمان لنا لوحة متوازنة لونياً وتحقق لنا الاستقرار النفسي..

أما الشاعرة - الطفلة فقد أرادت أن تغرق صمت الأسود وثقله بفوضى الألوان المشاكسة كلها.. احتجاجاً على هاجس الموت وتخييمه عليها وعلى والدتها.. ودعوة إلى الحياة.. وسنرى أنها تستمر في مقارعة الأسود بطرق كثيرة، فهي تجبر أمها على أن تخيط لها ثوباً قرمزياً،غير آبهة بجدتها التي رأتها أشبه بغانية، تسرق طلاء شفاهٍ وردياً فاقعاً فتثير انتباه الشيوخ والشبان، وتشرب براميل من الجن ذي اللون القرنفلي وتتابع حلمها بالأحمر والوردي والقرمزي والياقوتي، طيلة طفولتها ولكنها - وا أسفاه - بعد كل ذلك بعد تلك الأحلام الملونة الزاخرة بالحياة.. تخبرنا في السطر الأخير من قصيدتها..

إنها الآن بدأت تحلم بالأسود؟!.. هل خذلها العمر ودبت الشيخوخة في مفاصلها فتراءت لها النهاية سوداء؟ هل ألمت بها كارثة ما لم تفصح عنها القصيدة؟ ! أم أنها رسمت لنا دورة حياة الإنسان التي تبدأ بالموت وتنتهي به.. لماذا استسلمت بعد كل ذلك الكفاح!!؟

على أية حال ما يعنينا هنا أكثر من غيره هو هذا الاستخدام التعبيري الرمزي للألوان انطلاقاً من تأثيرها النفسي وموقعها في ضمير الإنسان ومشاعره.. وقد بيّنا كيف أفلحت الشاعرة في تحقيق ذلك.

وقد يوظف الشاعر خبرته وثقافته الفنية بشكل خفي ومن دون استعراضٍ فلا تظهر على الإطلاق أسنان المبرد على الماسة التي ينتجها الصانع الماهر..

وهذا ما نراه في بعض قصائد درويش.. كأن يقول في شتاء ريتا الطويل:

«تنام ريتا في حديقة جسمها
توت السياج على أظافرها يضيء الملح في
جسدي. أحبك. نام عصفوران تحت يديّ..
نامت موجة القمح النبيل على تنفسها البطيء
ووردة حمراء نامت في الممر
ونامَ ليلٌ لا يطولُ
والبحر نام أمام نافذتي على إيقاع ريتا
يعلو ويهبط في أشعة صدرها العاري، فنامي
بيني وبينكِ، لا تغطّي عتمة الذهب العميقة بيننا
نامي يداً حول الصدى،
ويداً تبعثرُ عزلة الغابات، نامي
بين القميص الفستقيّ ومقعد الليمون، نامي
فرساً على رايات ليلة عرسها..
هدأ الصهيل..»(٣٢)

في المقطع السابق يرسم درويش لوحة زاخرة بالألوان المختلفة الحارة والباردة والمحايدة، وهو لا يصرّح دائماً باللون لكنّه يكنّي عنه أو يستخدم الاستعارة أو التشبيه

ليستجلب في ذهن القارئ اللون الذي يرغب بـه، وهكذا فـإن ألوان اللوحـة التي يمكن رصدهـا هي: اللـون التوتي علـى أظافر ريتا، ولون الملح الأبيض أو الرمادي الفاتح، ولون سنابـل القمح الأصفر والأصفر المائل للبنيّ، أو الأصفر المحمّر قليلاً، ولون الوردة المصرّح بـه: الأحمر، ولون الليل الأسود، ثم البحـر الذي يستحضـر في أذهاننا الأزرق بتدرّجاته، ومـا يداخله من ألـوان أخرى، ثـم أشعة صدر ريتا وهنـا نجدنا أمام لون سنتخيّلـه فالأشعـة عادةً ذهبيـة، صفراء، ولكن قد يخطـر ببال قارئٍ مـا أن يتخيل أشعـة بيضاء، كأشعة القمـر.. أو زرقاء أو ما إلى ذلـك.. وتأتي عتمة الذهب الغامقة، الذهـب الصافي غير المخلوط بالفضّة.. بل المائـل إلى النحاس المحمر ثـم فجأة يظهر درويش رسامـاً ماهراً وخبيراً بالألوان حين يقول لريتا: «نامي بـين القميص الفستقي ومقعد الليمون» ومردّ قولي هذا إلى أن درويش يدرك أنه يضع اللون الفستقي أي الأخضر الفاتح الـذي يميل إلى الصفـرة قليلاً، أو إلى الحمـرة إلى جوار صفرة الليمون فنجد أنفسنا أمام لونين يتمم أحدهما الآخر.. إن درويش يلعب على المتممـات اللونية بشكل علمـي عميق.. لاحظـوا ما الـذي صنعه الشاعر في هذا المقطع الصغير لقد استخدم الليـل أي الأسود (الذي يغمر المكان) وشيئاً من الأبيض كخلفية محايـدة للعمل الفني، خلفية تزيد الألوان الحارة حضوراً وإشراقاً في اللوحـة، وبرزت على هذه الخلفية ألوانٌ مدروسـة تتجاور مـع متمماتها بمهارة فها هـو ذا الأزرق الفاتح (البحـر) وإلى جواره حقل السنابل (الأصفـر) وكلما مال الأزرق إلى البنفسجـي في اللوحة – القصيدة مال الأصفر إلى البرتقالي (عتمة الذهب العميقة وغيرها..)

وهاهـو الأخضر (الحديقـة) إلى جوار الأحمر.. فإذا زاد الأخضر قتامة في اللوحة – القصيدة (الغابة) يجب أن يزداد الأحمر إشراقاً (وردةٌ حمـراء في الممر) وبهذا نجد اللون وإلى جـواره وفي تداخلٍ معه متمّمه، فإذا باللوحة تبعث الراحة في العيون وتبعث الغبطة من خلال توازن عميق..

وقد لعب درويش، اللعبة نفسها من قبل في قصيـدة «بيروت»[٣٣] وكلنـا يذكر المطلع الذي يضعك أمـام لوحةٍ فنيّة سريالية منذ البداية:

«تفاحةٌ للبحر/ نرجسةُ الرخام
فراشةٌ حجريّةٌ بيروتُ
شكل الروح في المرآة..»

انظـروا أولاً إلى بناء اللوحة السريالي.. ثـمّ تابعوا الألوان.. تخيّلـوا تفاحة بألوانها المحتملة كلها (الأصفر الذي يتدرّج ويمتزج

بالأحمــر وصولاً إلى الأحمــر القاني) على صفحة البحر

(الأزرق بتدرّجاته) وسنحس تماماً لعبة المتممــات اللونية ولعبة الحــار والبارد في اللحظة نفسها، وخذوا المقطع الغنائي الذي يقول فيه:

«قـــمــرٌ عـــلــى بـعـلـبـك

ودمٌ عـــلـــى بـــيروتْ

يـــا حــلــو مـــن صــبّــك

فـــرســـاً مـــن الــيــاقـــوتْ

قـــلّـــي ومـــن كــبّـــك

نـــهـــريـــن في تـــابـــوتْ»

ألــن تتخيلــوا مباشــرةً رجــلاً يمسك فرشــاةً ألوان ومزّاجة خشبيــة ويضع على لوحة قماشيّة أمامــه ألواناً مدروسةً بعناية لاحظــوا أشعــة القمر وهي تغمــر بعلبك؛ ولاسيّمــا آثارها الموغلة في القــدم انتبهوا للأبيض أو للأبيض المــزرق.. المتدرج وهو يغطي الأعمدة الرومانية والمسرح الحجري القديم.. لاحظوا بضعة بيوت بعيدة غارقة في السواد والأبيض المزرق ومع ذلك فهناك بضعــة نوافذ بعيــدة تطلق ضــوءاً خفيفاً متلاشياً لا يغير شيئاً من برودة المشهد وفجأة وفي زاويــة أخرى مــن اللوحة: بيروت وهي ملطخــة بالدماء، ملطخــة بالأحمر القاني الدافئ.. بل الحارق هنا!! ثم تابعوا اللوحة الثانية: المحبوب فرس من الياقوت.. فرس من الحمرة الدافئة.. وإلى جواره «نهرين في تابوت»، نهران بــاردان.. نهرا موت.. ربّما أزرقان مائــلان إلى السواد ألسنا أمام فنان تشكيلي خبير بعلم الألوان؟!!

وينتبــه شاعر عربي ســوري إلى أهمية توظيف اللــون في القصيــدة فيكتب بداية الثمانينيات قصيدة «الأزرق والأحمر»(٣٤) ويعنــون ديوانه الذي يضم هــذه القصيدة بالعنــوان نفسه..إنه محمد عمــران، لنقرأ المقطع الأول من القصيدة:

«نبّهت من إغفائه الأزرقْ؛

(يا لون صوت حبيبتي

كبر النهار، وأنت في حلمٍ من الفستقْ

كبر انتظار قصيدتي

عتّقت، في شفتيّ، خابيةً فقمْ نسكرْ

طفلي يفيق على منابته،

فقم نسْكرْ)

الأزرق المخذول قام،

مشى على ثقلٍ،/ ترنّح،

وارتمى في حضرة الأحمرْ

والأزرق المقتول أرخى حلمهُ/ وتوسد الأحمر»(٣٥)

ونحدس ونحن في بداية النص أن الشاعر فصل بــين هذين اللونين تمامــاً واستخدم الأزرق رمــزاً لكل جميل ونقي وطيبٍ وخيّر، بينما جعل من الأحمر رمزاً لنقيضٍ ذلك.. ويتأكد حدسنا بعد قليل حين نقرأ:

«ومشتْ فراشاتٌ وأطفال إلى فرح المدارس،
سرّحت لغةٌ جدائلها لأعياد الأغاني
ومشت من الزرع السنابل باتجاه القمح..
فجأة ينفجر الأحمر،
يغشى معطف النار المدنْ
ويطوف الموت في الأعياد: هذي
شفةٌ، هذي ذراعٌ، هذي جمجمةٌ،
ساقٌ، بقايا رئةٍ، هذي شظايا..
ذاك الدمُ/ ذاك الدمُ..
الأحمر ينداح على صدر الوطنْ..»(٣٦)

وهكـذا يتصارع اللونـان: الأحمر رمزٌ للدمار والدماء والموت، والأزرق رمزٌ للحياة والخير والنقاء.. ويتداخـلان.. لكن الغلبة تكون للأحمر..:

«.. ينفجر الأحمر الأخويُّ،
يمزّق آخر خيطٍ من الأزرق المتلاشي،
وألمح وجهك في جثةِ الظلِّ طفلاً/ من الدم»(٣٧)

مشكلـة هذه القصيـدة على الرغم من اجتهـاد الشاعر أنها كشفـت رموزها منذ الأسطـر الأولى وضاقـت دلالات اللونـين المهيمنين على فضـاء القصيدة كثيراً حتى انحصرت في خير وشر!!

هذا إذا وافقنـا أساساً أو استسغنا هذا الترميز، بالانطلاق من طبيعة كل من اللونين المستخدمين.

وقـد بدأنا نرى في بعضـ شعر شعراء الثمانينيات العرب ومن تلاهم ميلاً واضحاً لاسترفاد خبراتهم وثقافتهم الفنية التشكيلية في النص، على قلة هؤلاء.

نقرأ من قصيدة لشاعر سوري عنوانها «استغـراق» مكتوبـة عـام ١٩٩٢م المقطع التالي:

«تستغرقين العين:
يا ظبياً من الفيروز،
يا بحراً يلونه الخريف،
وغابةً تلهو بوهجِ الصُبحِ،
يا ثلجاً على ليلِ الحكايةِ
أيّها البدرُ الذي يغفو
على وجه الزهورْ»(٣٨)

في هذا المقطـع الصغير يضعنا الشاعرُ أمام خمسـ لوحـاتٍ لونيّة تصـوّر كيفيّة إحساسِـهِ بالمرأة المحبوبة، هـذا الإحساس الذي يعـبّر عنهُ بالألوان.. فـنرى المرأة في اللوحـةِ الأولى ظبياً – مع كل ما يرافق هذا الوصـف التقليدي من رقّـة وحركة- ظبياً من الفـيروز؛ أي أخضـر تشوُبـهُ الزرقة، وفي اللوحة الثانية بحـراً؛ لكنها بحر يلّونه الخريف، والبحـر- وهذا يعرفُـهُ البحارةُ أو من يعيشُ إلى جـوار البحر- يصبحُ أكثرَ غنىً وثراءً لونياً أيـام الخريف رُبّما بسبب تقلبات الجو وتغيّر ألوان السماء التي تنعكس عليـه فإذا بمياهِهِ لا تكتفـي باللون الأزرق ودرجاته المختلفة، بل تتلّون أيضاً بالأخضر

وبدرجاتٍ كثيرة وبالفيروزي والبنفسجي وغيرها من الألوان.. وكأني بالشاعر حين رسَمَ هذه اللوحة لمحبوبته؛ كان يستحضرُ أمام باصرتيه لوحات فنان البحر الروسي المعروف «إيفازوفسكي» الذي أبدعَ في تصويرهِ، على لوحاتٍ عملاقة بعضها موجودة في متحف الإيرميتاج وفي متحف ترتيكوفسكي في موسكو. وفي اللوحة الثالثة نجد أنفسنا أمام امرأة هي بجمال غابة يسقطُ عليها وهج الصبح الذهبي،فتتلألأُ ألوانُها التي لا تحصى تحت ذلك الوهج!!

أما في اللوحةِ الرابعة فنراها ليلاً على ثلج الحكاية!! وهنا قد يستحضُرُ بعضنا صورة الليل من شباك حجرة؛ الثلجُ يتساقَطُ في الخارج على الأشجار والبيوت والأشياء، والجدة تروي في الداخل حكايتها لأحفادها المتحلقين من حولها!! أما اللوحة الخامسة والأخيرة.. فيشبه الشاعرُ المرأة فيها. بذلك البدر الذي يغفو على وجهِ الزهور المختلفة والمتنوعة.. فيكسبها سحراً وجلالاً باسطاً لون ضيائه الأبيض المائل للزرقة عليها على الرغم من سرقةِ الكثيرِ من ألوانها وحجبها عن العيون!!

ولا يتوقف استرفاد الشاعرِ لعالم الفن التشكيلي والتصوير على علم الألوانِ وتقاناتِ وضع اللون وهذا أمرٌ طبيعي، بل لعلّ مسألة التعامل مع الألوان هي الأصعب لأنها تتطلّب الكثير من الثقافة الفنية في هذا المجال، لكن الشاعر يسترفد مفهوم اللوحة وخصائصها وطرائق بنائها في قصيدته؛ ليبني انطلاقاً من ذلك قصيدته؛ وهو عندها لن يتردد في تسمية القصيدة لوحة؛ كما فعل الشاعر صالح سلمان – على سبيل المثال لا الحصر- في قصيدته «لوحة»[٣٩]، الشاعر لا يهتم بألوان اللوحة إلا قليلاً «قمصان ناصلة الألوان»..

لكنه يبني لوحة بنجاح.. مجموعة من السمّار، يتحدثون ويروون القصص، وقد يقرؤون الشعر ما أتاح لهم القنديل الذي تتراقص شعلته ذلك، حتى ينضب الزيت.. وفي اللوحة أيضاً مجمرة، ووجوه خاشعة، ودخان يتصاعد ليرسم دوائر.. وما إلى ذلك.. وهو في نهاية القصيدة يتمنّى لو أن فناناً ما يرسمه في اللوحة التي نقل محتوياتها إلينا قنديلاً يتمايل مأخوذاً بالمشهد، ويسمح للموجودين فيها بأن يتابعوا ما بدؤوه من قراءة الأشعار أوسرد الحكايات.

وحين يكون الشاعر متخصصاً في التصوير يلفت انتباهنا إلى موضوعاتٍ فنية قد لا تخطر ببالنا لنقرأ لناصر زين الدين قصيدةً تحمل أيضاً عنوان «لوحة»:[٤٠]

«أبصرتها ترمقني/من لوحةٍ فارهةٍ

في متحف المدينةْ،/فاتنةٌ ترفل في زينتها

تحجب صدراً ناهداً/عن أعين لهفانةٍ

بأنملٍ ضنينة/ميّادة تثقلها أردافها
جنية ترتاب من ظهورها،/تهمي عليك نجمةً
في ليلة حزينةْ/ وددت أن أحضنها
أكون عقد فضّةٍ/ يلمعُ فوق صدرها
شال حريرٍ مزهرٍ/ مطوّقاً لخصرها..
وحينما لمحتها تخرج من لوحتها/ تبددت
هواجسي في لحظةٍ
لأنني لمستُ فيها امرأةً/ خاويةً بدينةْ»

في هذه القصيدة نرى الشاعر وقد وقف أمام لوحة في متحف مدينة ما، اللوحة لامرأة عارية تنظر إلى مشاهدها وهي تحجب صدرها بأنامل بخيلة تخفي عن العيون ما تقدر على إخفائه. المشهد يذكرك بعديدٍ من اللوحات منها على سبيل المثال لاالحصر: بعض لوحات آنجر، وإدغار ديغا وجيورجيوني. إنها امرأة تميل إلى البدانة، فأردافها ثقيلة.. تسحر المرأة الشاعر لجمالها في اللوحة فيتمنى أن يحضنها، أن يكون عقد فضّة حول عنقها، أو شال حريرٍ حول خصرها.. ويشاء رب الشعر والفن أن تنزل المرأة من لوحتها، فتترك كل ما حولها.. الخلفية وعناصر العمل كلها وتقف قبالة الشاعر.. وعوضاً عن أن يهرع إليها ويحضنها ويحقق ما أراد.. يتراجع عنها ولا يرى فيها على هذه الحال إلا امرأة «خاوية بدينة»!! ما الذي حدث للشاعر إذن؟! هل هو مريض؟! هل المشكلة فيه؟ أليست هذه المرأة هي نفسها التي كانت في اللوحة: وهي الآن على أرض المتحف؟ ما الذي يريد أن يقوله لنا إذن؟!

لقد أراد الفنان – الشاعر أن يخبرنا أن للوحة الفنية جماليات تختلف عن جماليات الواقع، وهذه المرأة التي كانت جميلة فنياً، جميلة ضمن قوانين اللوحة كلها، وضمن عناصر اللوحة المختلفة التي تشكل هي جزءاً لا يتجزأ منها، لن تظل في سويّة جمالها فيما لو غادرت لوحتها وواقعها الفني، وربما يعودُ السبب في ذلك إلى واحد من العوامل التالية:

– زاوية التقاط المشهد من قبل الفنان الذي أبدعَ اللوحة؛ فلربما صور الجسد من زاوية جانبية فأظهر جمالية البروفيل جانبياً لعيبٍ فيه أو سمنة أو ما شابه فيما لو كان الموديل مواجهاً.

– وربما كان الفنان قد خص الموديل بظلٍ ونورٍ قادرين على إظهارهِ جميلاً تشريحياً

– أو يكون قد لعبَ على التجاور اللوني بين جسد المرأة وما يحيط بهِ من موجودات

(سرير، قماش وما شابه...)

كل ذلك لأن الفن التشكيلي يسعى إلى إضفاء الجمال على موجودات الواقع بالمتخيّل الإبداعي.

ومن النمــاذج الشعرية التي يتجلى فيها بوضوح استرفاد الشعــر للفن التشكيلي ما أطلق عليه اســم «القصيدة المجسدة»، التي تعــود أصولها -على الأرجــح- إلى الحركة الدادائيــة، التــي دشنهــا تريستــان تزارا عــام١٩١٦م، وجاءت بعضــ نماذجها على يد الشاعر المكسيكــي أوكتافيو باث المولود عام ١٩١٤ حين أراد للكلمات أن تؤدي دوراً بصرياً وليس معنوياً فحسب؛وقدم يومذاك قصيدته «حجر الشمســ» مثالاً على ذلك، والقصيدة المجسدة -كما كتب الناقد خلدون الشمعــة ذات يوم- «هي القصيدة البصرية التــي تحــاول أن تكــون حصيلــة لتجربة مشتركة بين الشعر والتصوير، ويمكن تلمس جذورها في الرقى والتعاويذ السحرية، التي كانت تكتب بأشــكال يكون لترتيب الحروف فيها دوره في التأثير البصري على القارئ أو المشاهد».[٤١]

من التجــارب الرائدة في هــذا السياق ديــوان كامل هــو الأول من نوعــه أصدره الشاعــر الأسكوتلنــدي ألان ريــدل في الستينيات من القــرن الماضي في بريطانيا وحمــل عنــوان «كســوف»،[٤٢] وقصائــد متفرقــة للفنــان التشكيلي الســوري فاتح المدرس وشريف خزندار ومحمود السيد،[٤٣] وإبراهيم جرادي.

وهكــذا نكون قــد استعرضنــا بإيجاز وتكثيــف أشكال العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر، ووسائل التراسل والاسترفاد القائمة بين هذين الفنين الساميين، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً مع يقيننا أن هذا البحث يحتاجُ عمــلاً أطول، وبحثاً دؤوباً ومتابعة أكثر مما بذلنا، على أمل أن نفعلَ ذلك مستقبلاً.

الهوامش

١- الفن والأدب، لويســ هورتيك، ترجمة: د.بدر الدين قاسم الرفاعي، مراجعة: د.عمر شخاشيرو ص ١٣٥، ١٣٦.

٢- أمل دنقل (الأعمال الشعرية الكاملة) دار العودة، بيروت ط٢ - ١٩٨٥م، ص٢٧٣.

٣- آلهةُ المصريين،، ولاس بدج، ترجمة: محمد حسين يونس، القاهرة، مكتبة مدبولي ١٩٩٨م، ص٣٠١.

٤- ديوان ابن خفاجة، ص١١١.

٥- د.حافظ المغربي، صورة اللون في الشعر الأندلسي، دار المناهل للطباعة والنشر لبنان، ٢٠٠٩م، ص٤٢٦.

٦- المصدر نفسه، ص ٤٢٩

٧- لوركا/دراســات نقديّة حول شعــره ومسرحه/ت: خليفة محمد التليسي- انظــر دراسة لويس بَاروت التي تحمل عنوان: الشاعر الهائم بالألوان، ص(١٠٨- ١٢٢) الجماهيريّة العربية الليبية ١٩٩٢م، ص١٠٩.

٨- المصدر نفسه، ص١٠٩.

٩- المصدر نفسه، ص١١٠.
١٠- المصدر نفسه، ص١١٠- ١١١.
١١- لوركا/الديوان الكامل ترجمة خليفة محمد التّليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ١٩٩٢م، ص٧-٨.
١٢- المصدر نفسه، ص١١.
١٣- المصدر نفسه، ص (٤٥- ٤٦).
١٤- المصدر نفسه، ص (٢٢- ٢٣).
١٥- المصدر نفسه، ص٢٨.
١٦- المصدر نفسه، ص (٤٩- ٥١).
١٧- المصدر نفسه، ص١٧.
١٨- المصدر نفسه، ص٢١.
١٩- دراسات نقدية حول شعر لوركا ومسرحه، سابق، ص١١٣.
٢٠- نفسه، ص١١٨.
٢١- أمل دنقل، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ص٤٤٠- ٤٤١.
٢٢- القرآن الكريم، سورة الصافّات، الآيات ٤٣، ٤٤، ٤٥.
٢٣- القرآن الكريم، سورة النمل، الآية ١٢.
٢٤- القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآيتان ١٠٦ – ١٠٧.
٢٥- اختبـــار الألـــوان وقياس الشخصيّة، لا شر، ت: د. أنور رياض عبد الرحيم، دار حراء، المينا/ ١٩٨٥م، ص ٧٣.
٢٦- د. أحمد مختار عمر، اللغة واللون، دار البحوث العلميّة، الكويت، ١٩٨٢م، ص ١٨٦.
٢٧- واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق/ دراسة في جماليات قصيدة الهايكو اليابانية (مع شواهد مختارة) الكويت، سلسلة إبداعات عالميّة، العدد ٣١٦، فبراير ١٩٩٩م، ص٣٥١.
٢٨- المصدر نفسه، ص٣٤٥.
٢٩- المصدر نفسه، ص٣٣٢.
٣٠- المصدر نفسه، ص٢٩.
٣١- خمسون عاماً من الشعر البريطاني (١٩٥٠- ٢٠٠٠م)، ترجمة فاضل السلطاني، دار المدى، دمشق وبغداد ٢٠٠٨م، ص٣٢٩- ٣٣٠.
٣٢- محمود درويش، ص٧٢.
٣٣- محمود درويش..
٣٤- محمد عمران، الأزرق والأحمر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٤٨م، ص(٢٩- ٣٦).
٣٥- المصدر نفسه، ص٣٠.

٣٦- المصدر نفسه، ص٣٣. (في المقبوس فوضى في الوزن والإيقاع- لعل الشاعر قصد ذلك؟).

٣٧- المصدر نفسه، ص٣٦.

٣٨- ثائر زين الدين، في هزيم الريح، وزارة الثقافة، دمشق٢٠٠٣م، ص٢٧.

٣٩- صالح سلمان، هل تكفي الأسئلة اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٩م، ص(١١٤- ١١٦).

٤٠- ناصر زين الدين، هلوسة الطين، دار سمرقند، دمشق، ٢٠١٠م.

٤١- خلدون الشمعة، مجلة المعرفة ع١٧٢، دمشق ١٩٧٦م، ص١٠٥.

٤٢- خلدون الشمعة، مجلة المعرفة ع١٧٢، دمشق ١٩٧٦م، ص١١٠-١١٥.

٤٣- انظر: د. إبراهيم جرادي،كتاب الجيب:القصيدة تبحث عن نفسها،مجلة الموقف الأدبي ع٤٦، دمشق ٢٠١١م، ص١٠٣-١٠٦.





بزوغ الفرد الحديث

جان فرانسوا دورتييه

ترجمة: د. ماري شهرستان *

نقــرأ في مؤلفات علماء الاجتماع والفلاسفة أن الفرد هو اختراع الغرب الحديــث والذي بزغ في عصــر النهضة. وبزعمهــم أن الناس في الماضي لم يعرفــوا الفردانية. فهم كانوا غارقين في عالم تقليــدي حيث كان الفرد فيه مجمــداً ضمن أشكال اجتماعية: دينية، وعائلية وسياسية، وطائفية إقليمية، تستوعبه وتسيطر عليه وتخنقه وتمارس عليه الضغط والإكراه.

* مترجمة وباحثة من سورية.

لكــن ينبغــي ألاّ نخلط بــين الفردانية كقيمة بحــد ذاتها والتي هي وليدة العصور الحديثة دون أدنى شــك، وبين الفرد الذي كان موجــوداً علــى الــدوام في المجتمعات القديمة.

الفرد هو حقيقة أزلية لكنه فكرة جديدة. يعزى على الــدوام إلى الفلاسفة اليونانيين والرواقيــين والإبيقوريين، بأنهم هم الأوائل الذين فكروا بأهمية الفرد وبحياته الخاصة بأهميتــه في المجتمع، ثم أتى عصر النهضة الذي تمَّ فيه اختراع مهن مستقلة: أصحاب البنوك، فنانون، علمــاء. ولد نموذج الفرد الحــر في انكلــترا في القــرن السابع عشر. وأعطــت الرومانسيــة Romantisme لكل فرد الحــق بالعناية بمشاعره، ومزاجه وأحواله الداخلية.[1]

لنبدأ من «القصــة العظيمة» Grand Récit التــي سوف تعيننــا كنقطة انطلاق من أجل بحثنا حول بزوغ الفرد، مع احتمال نقدها، وقذفها وحتى تفكيكها كلياً في وقت لاحق. ينبغي على الدوام وجود نقطة استناد لتعلم المشي، ثم يتــم التحرر منها. ويصدق الأمر نفسه بالنسبة إلى الفكر.

«الفــرد (كما نــراه حالياً) هــو اختراع الغــرب الحديــث. ظهــر فجأة مــن دوائر المجتمــع قبل حــوالي ٥٠٠ عــام في عصر النهضــة عندمــا خلَّص نفســه من شباك المجتمعــات التقليدية». هــذه هي «القصة العظيمــة» لسِفــر بــزوغ الفــرد. إن تعبير «القصــة العظيمة» قد استخدمه كريستيان دو بــار Christian de Bart في كتابــه التفريد[2]:» L'Individualisation.

تشكل هذه القصة العظيمة الركن المعنوي للعديد من نظريات العلوم الإنسانية. وحتى إننا نستطيع القول بأنها «أسطورة مؤسِّسة». تحدثنــا هــذه الأسطورة بــأن الفرد لم يكن بارزاً منذ الأزل، إنَّما هو اختراع حديث من الغــرب. فمنذ زمنٍ بعيد لم يكن هناك وجود للفــرد في المجتمعات المسمــاة تقليدية أي المجتمعات البدائيــة في العصور الوسطى، السابقة للحداثــة (أي العصر الذي بدأ مع النهضة في الغــرب)، وبشكل أكثر دقة، كان مفروضــاً على الكائنــات البشرية أن تكون مدمجــة ومرتبطة في نسيج مــن الضغوط والنظــم (العائلية، والجماعيــة، والدينية) شديدة وحازمة لدرجة أنها لا تترك للفردية أي مكانة.

الخادم مستعبَد لسيده الذي بيده حياته وموتــه، كما أنه لم يكن باستطاعته أن يختار مــكان إقامته الذي يعيش فيه، ولا زوجه أو زوجته التي سيعيش معهــا، ولا مهنته التي يمارسها ولا حتى معتقداته فهو لا يختارها بل هي معتقــدات تفرض عليه فرضاً. هذا الوضع المستعبد يحــدُّ من أفقه تماماً. كما

أن وضع الفلاحين في العصور الوسطى لم يكن بالوضع الذي يحسدون عليه. ربما كان يحق لهم أن يتزوجوا بحرية ويحق لبعضهم امتلاك قطعة أرض، لكن ثقل التقاليد الكنسية كانت تحصرهم ضمن إطار اجتماعي لا يمكن اجتيازه. أما الأسياد، فقد كانوا «أحراراً» لكن حريتهم كانت محصورة بشكل وثيق بانتمائهم إلى جماعة، بحيث يلعب اسمها دوراً حتمياً في تجميد مصيرهم. يولد الإنسان فلاحاً ويظل على هذا الوضع وراثياً من الأب إلى الابن، وإن ولد سيداً يظل كذلك بالوراثة. أما بالنسبة إلى الكهنوت، وهو الجزء الثالث من المجتمع في العصور الوسطى، فإن حياتهم مكرسة لخدمة الله. ولا مكان إذاً لفرد حرّ، مستقل يتحكم بحياته وبمصيره.

ثم شعّت أنوار النهضة، فأخذ التاريخ منحىً عظيماً. انفتحت المجتمعات، وانهار النظام التقليدي، فتحطمت البنى الاجتماعية القديمة من جهة، وتمايزت مكونات اجتماعية جديدة من جهة أخرى، وتفككت القيود، وظهر الفرد. كانت المجتمعات تهتم باحترام التقاليد، أمّا الآن فأصبحت تتطلع إلى المستقبل. لقد كانت مجتمعات تابعة خاضعة تتلقى القوانين التي تسيرها من الخارج، ومأمورة بالمقدس؟

أما بعد ذلك، فقد أصبح الإنسان معياراً لكل الأشياء. اكتسب الفرد حقوقاً مصانة منيعة في الوقت نفسه الذي تطورت فيه العلوم والعقل والرأسمالية. حصلت حركة تحرر الفرد هذه على الصعيد الفلسفي (مع فلاسفة البعث الفكري) وعلى الصعيد الفني (مع فن الرسم الذاتي، والتوقيع)، وعلى الصعيد القضائي والأخلاقي (انتصار حرية الفكر، والتنقل) تبعها الحريات الاقتصادية والحريات الفردية. ثم تبع ذلك الانتصارات على صعيد العادات، وخلال بضعة قرون، برز إنسان جديد على الأرض: الفرد الذي يكون سيد حياته ومصيره، والذي يعتقد نفسه مركز العالم. (انتصار الحرية في الغرب، أدى إلى الانتقال من الأنا المنتصر إلى الأنا المضطرب).

هذه هي سمات الخريطة الذهنية للبنية الفكرية للكثير من الكتاب.

إذا نظرنا بتمعن في هذه«القصة العظيمة» نجد أنها تدغم فيها أربعاً من القصص المتقاربة، الناجمة بالتتالي عن التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الإناسة (الإنتروبولوجيا) والفلسفة.

تعود القصة التاريخية لبروز الفرد إلى «جاكوب بوركارتJacob Burckardt». ففي كتابه الكلاسيكي «حضارة النهضة في إيطاليا» الذي ألفه عام ١٨٦٠م، يؤيد هذا المؤرخ السويسري الفكرة القائلة بأن «إنسان

العصـــور الوسطى لم يكن يعـــرِّف نفسه إلا كعرق أو شعب أو حزب، أو طائفة، أو عائلة، أو تحت أي مسمى له بشكل عام وجماعي». فبرأيـــه، في النهضة، يبرز الفرد ويتحرر من القيـــود التقليديـــة – كالعائلـــة، والعشيرة، والطائفـــة، والمتحد، ويظهر بشكل شخصية مطلبية[٣]».

أما بخصوصـــ القصة الاجتماعية فإن الأسطورة المؤسِّسة لعلماء الاجتماع تطورت وأخـــذت شكلهـــا في نهايـــة القـــرن التاسع عشر عنـــد دور كهايم Durkheim، وفيبر Weber، وسيميل Simmel. تنطلق هذه القصة من تناقض سلطوي، شرعي، مؤسِّس بين زوجين من المفاهيم: «المتحدوالمجتمع»، أو «التضامـــن الميكانيكـــي والتضامـــن العضوي» عند إميـــل دوركهايم. المتحدات، (التـــي هـــي في ذهـــن علمـــاء الاجتمـــاع، تتضمـــن كل المجتمعـــات قبـــل- الحداثية، والعشائر البدائية في العصور الوسطى) هي مجتمعات غلب عليها ثقل العائلة والجماعة، والقبيلـــة، والوضع الطبقـــي، والتقاليد. في هـــذه المجتمعات، يُعتقَد أنـــه لا مكان فيها للتفـــرد والخصوصية. يرمـــي المجتمع بكل ثقلـــه لمحاصرة السلوكيـــات. فيصبح الناس جميعهـــم متشابهين، يرتـــدون الزي الموحد نفســـه، ويعملـــون بالأسلوب نفســـه والمهن نفسها: الصيد والقطـــاف أو الفلاحة، كما أنهم يفكرون بالطريقة نفسها، مثل أهاليهم قبلهـــم وأولادهم بعدهـــم، الجميع في إطار اجتماعي محدد سلفاً. ثم مع التحديث، نشأ تقسيم العمل، واختصاصـــ المهام، فأصبح هناك قبول وتقييـــم للتخصصات الفردية. لكل واحد مهنته، وكفاءاتـــه الخاصة، التي يمكـــن فرضهـــا، كما ولـــكل واحـــد أيضاً مساحته الخاصة. وهنا برز الفرد في المشهد التاريخي.

القصـــة الإناسيـــة (الأنتروبولوجيـــة)، ومصدرها «لوي دومونLouis Dumont» فهـــو يضع مفارقـــة كلاسيكية بين «مجتمع بحالة تطورية – شمولية وبين مجتمع فرداني». فالمجتمعات الأولى، كما في الهند وطبقاتها المغلقـــة، والعصور الوسطـــى ونظامها، هي مجتمعات تدرجية (هنـــاك نظام مقدس لا يمس، يفرِّق بين الطاهرين والأنجاس، وبين الأقويـــاء والخاضعين)، وفيها تكون الحياة جماعيـــة (كل واحد مقيد ومسمر بجماعته وطبقتـــه)، وتابعة (معنى الحيـــاة ووجهتها بالنسبة إليها ليـــس على هذه الأرض). أما المجتمعـــات الحديثة فهي نصـــيرة المساواة، تنصر الفرد، ومستقلة (متجهة نحو تحقيق ذاتها على الأرض وفي هذا العالم).

القصـــة الفلسفية. في البدء، الشخصية ليـــس لها وجود. ثم ظهر «ســـان أوغوستان Saint Augustin» (وربمـــا الرواقيون[٤])

لكن ذلك لم يكن سوى مقدمات. كان ينبغي انتظار العصر الحديث مع مونتين ثم ديكارت كي تبرز «الأنا» على المشهد الاجتماعي مدعومة بالمشهد الفلسفي. ولدت الشخصية، وهذه هي القصة التي يرويها لنا شارل تيلور Charles Taylor في مؤلفه: «مصادر الأنا».

لكن القصة الفلسفية للشخصية هي أكثر تعقيداً مما توحيه هذه القصة. فالقصص الأربع التاريخية والاجتماعية والإناسية (الأنتروبولوجية) والفلسفية التي تبحث في بروز الفرد تتلاقى كلها حول فكرة بسيطة وهي:

قبل الحداثة لم يكن الفرد موجوداً، لقد كان واقعاً في شرك البنى الجمعية ولم يكن باستطاعته الوجود إلا بشكل طليعة أو جنين أو شكل هامشي بعيداً عن المجتمع. وكان ذلك حال الزاهدين والخارجين عن المألوف بتصرفهم، والذين يدورون في هوامش المجتمع.

برز الفرد في عصر النهضة، عصر يسمى بعصر الحداثة وذلك مع تقسيم العمل والحقوق الفردية، وتراجع السلطة الدينية وكل أشكال الخضوع التقليدي.

عصور الحداثة:

بمجرد أن يتم قبول ولادة الفرد والاعتراف بها، تبقى مرحلة تمييز بعض مراحل تطوره.

بشكل عام، يجد علماء الاجتماع مرحلتين رئيسيتين للتفرد أي للتميز عن الآخرين ويسمونهما «حداثة أولى» و«حداثة ثانية». الحداثة الأولى هي التي تنفتح على النهضة؛ والحداثة الثانية أو «الحداثة المتأخرة» (وفق بيك Beck، جيدن A. Giddens وبومان Bauman) تفتحت انطلاقاً من أعوام ١٩٧٠م مع أفول المؤسسات ونظم الإحاطة- في العائلة والعمل والدولة والأخلاقيات-. وهذا يترك الميدان لهامش عمل الأفراد، الذين لم يعد عندهم نظم صارمة لإدارة حياتهم، فأجبروا على إعادة اختراع وجودهم بأنفسهم، وذلك في مجال اختيار المهنة والاختيار الجنسي، والديني، والسياسي: «تدبَّر أمرك بنفسك، أنت سيد نفسك». حرَّضت هذه الحرية الانعكاسية التحليل الذاتي، والتفكير بالاختيار لكنها أصبحت مصدراً للتردد ولأزمة وجودية.

هناك مرحلتان أو ثلاث مراحل للنهضة:

يقترح «دو بار» (٢٠١٠م) تأريخ التمأسس في ثلاث مراحل:

١- **المرحلة الأولى:** النهضة التي بدأت في القرن الرابع عشر،

٢- **المرحلة الثانية:** النهضة التي انفتحت

على أنوار القرنين الثامن عشر والتاسع عشر واستكملت في القرن التاسع عشر.

٣- **المرحلة الثالثة:** بدأت بعد عام ١٩٦٨م (الحداثة الثانية) (بيك وجيدن Beck et A. Giddens) وتميزت بتحرر النساء والشباب، وأفول النظم العائلية وانهيار عام لمؤسسات المجتمع.

ويشير «بار» إلى أن هذه القصة الكبيرة ينبغي تصحيحها وتعديلها، ووضع برنامج بحث لها على ثلاث مراحل، حيث يتم فيه تسجيل فترات ومفاصل التفرد، وبدايات الفرد المنطقية في العصور القديمة وفي العصور الوسطى، والمجالات التي نفذت فيها (في العائلة، والعمل، والسياسة، والدين) إلخ.

مداخلة

فإذا بحثنا في العصور القديمة، نصل إلى البحث التالي:

«في أحطّ درجات الاجتماع البشري نجد الجماعة أو العشيرة وعبثاً نحاول أن نجد الفرد، إذ لا وجود له اقتصادياً ولا حقوقياً ولذلك فهو ليس بداءة الاجتماع ولا شأن له في تعيين الاجتماع وكيفيته. هنا لابد من الإشارة إلى أن النظرة الفردية للاجتماع التي يجدها الدارس في «العقد الاجتماعي Contrat Social» لروسو مستمدة من حالة المجتمع بعد ظهور الفرد عاملاً فيه، وقبل ذلك لاختيار للفرد في الاجتماع والمجموع. فوجوده الأناني في تلك الحالة الأولية لا يظهر إلا في التمييز بينه وبين غيره في بعض العلاقات النفسية (الذهنية). إن هو إلا نقطة في موجة صغيرة لايمكنك تعيينها، كيفية وكمية، إلا إذا فصلتها عن جسمها[٥].

الاجتماع صفة ملازمة للإنسان في جميع أجناسه إذ إننا حيثما وجدنا الإنسان وفي أية درجة من الانحطاط أو الارتقاء، وجدناه في حالة اجتماعية. وهكذا نرى أن المجتمع هو الحالة والمكان الطبيعيان للإنسان الضروريان لحياته وارتقائها. ولما كنا لم نجد الإنسان إلا مجتمعاً ووجدنا بقايا اجتماعه في الطبقات الجيولوجية أيضاً، فنحن محمولون على الذهاب إلى أن الاجتماع الإنساني قديم قدم الإنسانية، بل إننا نرجّح أنه أقدم منها وأنه صفة موروثة فيها. [٦]

الفرد في زمن الفراعنة

بعد طرح السؤال على المؤرخة المختصة بتاريخ الفراعنة[٧]: من كان هؤلاء الأشخاص الذين بنوا الأهرامات، وزرعوا الأرض، وحنطوا المومياء، وقاموا بالتجارة، واصطادوا على ضفاف النيل، وحفروا القبور ورسموا على جدرانها؟

أجابت:

«نعم يمكننا معرفة الحياة اليومية للحرفيين، والمزارعين، والعمال الذين كانوا يعملون في بناء القبور الملكية. نعرفها من اللوحات والرسوم الجدارية التي تصف الخزافة أو تظهر الفلاحين. كما أنه عثر على آثار شخصيات متميزة بأسمائها ومستوى شخصيتها المليئة بالقصص الصغيرة من حياتها. مصدر فريد في وادي الملوك حيث كان يعيش أشخاص يعتنون بقبور الملوك. وقد عرفنا الكثير عن حياتهم عبر مخطوطات البردى وعبر «الأوستراكا» التي كانت بمثابة البريد في العصور القديمة. وهي عبارة عن كسرة من الخزف أو الحجر الأملس كان المصريون يدونون عليها طلباتهم من المواد أو مسودة للرسائل، أو قائمة للمشتريات، أو تسجيل الخدمات المطلوبة. أما البردى فكان للدولة حصراً وكان ينبغي الحفاظ على هذه المواد وعدم إتلافها.

بانيب ذو السمعة السيئة

وقد تمَّ التعرف على قصة «بانيب» الذي كان في زمانه رئيس عمال «دير المدينة». كان بانيب رجلاً سيِّئ السمعة فقد اتهم بالاغتصاب، وبسرقة مواد لحسابه الخاص، وكان شرساً يضرب عماله بشدة. وكان يتم اتهامه بكثير من الجرائم لكنه كان يستطيع الإفلات باستمرار لأنه كان رفيق الرئيس الكاتب الذي كان في كل مرة يبرئه من الاتهام. إلى أن وقع ذات يوم في شر أعماله وتمت إدانته وطرده من ورشة العمل.

إنه لفن رائع أن تقوم المؤرخة بإحياء كل هذا العالم الراحل وكأنها عاشت في ما بينهم. فهي تعيد الحياة للمصريين الذين عاشوا قبل ٣٠٠٠ عام وكأنهم هنا معنا. فتجد بينهم الخزاف النشيط الشريف الذي يتقن عمله، بينما تجد شخصاً آخر غيوراً جدّاً يفكر بزوجته وماذا تفعل في القرية وهو في عمله...

تحب هذه المؤرخة المصريين في زمن الفراعنة. فهي تعتبر أن لهم جانباً طريفاً في شخصيتهم لا نجده في بلاد الرافدين. فهي تتخيلهم حاذقين ماكرين، متبجحين وفوضويين لكنْ ودودون وفيهم دفء. وفي واقع الأمر هم جذابون جدّاً. فهم لا يشبهون بشيء الشخصيات الجامدة كما تظهر مسمرة على اللوحات الجدارية. كلا، المصريون حيويون وبشر. هم أفراد تماماً وكل واحد له شخصيته المستقلة ورغباته ومشاريعه وأخطاؤه وهفواته وجبنه. وهم ظرفاء يمتلكون روح الفكاهة .

الفرد في اليابان القديم

Emmanuel Lozerand, professeur de delittérature japonaise à l'INALCO papier «la question de l'individu au Japon»

من الشائع عموماً أنه في البلاد المشرقية لا وجـود للفرد. أو بالأحـرى هو ذائب في الجماعـة. ففـي الخطاب العلمـي، فكرة الفرد الذائـب في مجموعته تعود إلى صورة المجتمـع النامي وفق «لـوي دومونLouis Dumont». فتاريـخ المجتمعـات يقسـم إلى قسمـين: من جهة المجتمعـات النامية، التدرجية، الجماعية، ومن جهة ثانية المجتمع الفرداني نصير المساواة. هذا التناقض بين شمولي/ وفرداني متطابق مع تناقض المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث، وأيضاً مع تناقض الشرق/ والغرب. لأنه من المعروف أن عقيدة المجموعـة في الهند والصـين واليابان هي العقيدة السائـدة، وكانت البنى الاجتماعية تخنق الفردية (كما في عقيدة الطبقة المغلقة في الهند، والكونفوشية في اليابان والصين). هـذه النظرة لهـا تفسير شعبـي في الرأي العام. لكن «لوزيران Lozerand» يناقض هذه النظريـة. فوفق دراسته، يوجد أشكال للفردانيـة في الصـين. ويبرهـن على ذلك بالمثال التالي: في عام ١٨٥٠م، داخل مدرسة أوسـاكا حيـث علـى الطـلاب أن يتعلموا اللغة الهولندية. ففي الأوقات العادية يعيش الطـلاب ويعملون مع بعضهـم بعضاً. وهم يرتدون الـزي نفسه وتسود فيما بينهم روح الزمالة، ويتبعون المبادئ والنظم الكونفوشية للسلطة وجميعهم يعتنقون العقيدة القومية ويعتقـدون أن الـ«نحن» هو فوق الفرد. لكن الأمور تتبدل عندما يحين وقت الامتحانات، لأن أفضل من فيهم فقط ينتقلون إلى الصف الأعلى (الذين يحصلـون العلامات العالية خلال الامتحانات). فيجدون أنفسهم فجأة في وضع تنافسي. وانطلاقاً من هنا يفكر كل واحد بنفسه وتسود الفردانية تماماً. وهكذا، وسط مؤسسة مدرسية شديدة الشمولية في مظهرها، يمكننا اكتشـاف شكلٍ مثير جدّاً من الفردانية.

ويبرهن «لوزيران» أنه في البحث الجدي نجد أشكالاً أخرى من الفردانية في اليابان: ففـي الفلسفـة الكلاسيكية عنـد «أوغيو سـوراي OgyûSorai (١٦٦٦-١٧٢٨م)، وهـو الفيلسـوف المنارة في عصـر الـ«إيدو Edo» (١٨٠٣- ١٨٦٨م)، أي الفـترة التـي ازدهر فيها فن الرسـم والمسرح كما ازدهر الأدب الخيالي.

ففي روايات هذه الحقبة نجد مجموعة مـن الأشخاص المتميزيـن متقاعديـن لطفـاء وأنيسـين يكتبـون الشعـر، وفيهم أفراد غريبو الأطـوار، وعشاق رومانسيون يرفضون الخضوع لثقل العائلة، ومتمردون، وبورجوازيون أنانيون، إلخ.

يمكننا إذاً أن نجـد في هذا الأدب آثاراً لأفراد حقيقيين عاشوا في اليابان القديم.

إذن، ليسـت الفـرادة الغربيـة في وجـود

الفرد سوى أُسطورة ترسم لنا دراستها آفاقاً جديدة في العلوم الإنسانية، وفوق ذلك يضعها لوزيران في قلب «حوار الحضارات».

الأنا في زمن الكاتدرائيات- مثال كاتدرائية أوكسير Auxerre

عندما ننظر عن بعد إلى الكنيسة المسيحية نجد أنها لا تترك سوى مكان بسيط جداً للفردانية. بالنسبة إلى شاب أرستقراطي على سبيل المثال، الدخول إلى هكذا نظام يعني الالتزام في نموذج أو بالأحرى في قالب اجتماعي شديد الصرامة: إذ ينبغي عليه أن يتخلى عن هويته: أن يغيّر اسمه، أن يرتدي لباساً خاصاً موحداً وفوقه جلباب كهنوتي؛ كما ينبغي عليه أن يكرِّس حياته كلها لخدمة الله والآخرين. ويعتبَر الكبرياء إحدى «الخطايا الرئيسة»، لذا ينبغي عليه أن يلغي أي طموح شخصي يدور في نفسه، وأن يكون متواضعاً، مخلصاً ومنكراً لذاته.

هذه الأمور تبدو في المبدأ الرسمي.

لكن إذا أمعنا النظر في شخصيات فريدة متميزة من الذين صنعوا هذه الكنيسة، يظهر لنا وجه آخر مختلف تماماً. ففي العصور الوسطى، كان الصعود الاجتماعي في الكنيسة يفسح المجال لبروز الإستراتيجيات الفردية، والطموحين، والأفراد التواقين للعمل، وللأمجاد وللذين يمتلكون موهبة القيام بمشاريع. كما كان هناك فرصة لظهور المقدرات والكفاءات على تعهد الأعمال الكبيرة. فكانت المنافسات الشخصية القوية تتجلى على مستوى جميع الأصعدة التدرجية.

تشكل كاتدرائية سان- إيتييندوكسير Saint – Etienne d'Auxerre و دير سان جيرمان l'Abbaye Saint Germain أفضل تجسيد لفن العمارة القوطية gothique. لقد ارتفعتا صعوداً من الأرض خلال تلك الانطلاقة المعمارية التي حصلت في «عصر الكاتدرائيات(٨)»، حيث انتشر فن العمارة القوطي في المدن الأوروبية بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر: في سنس وكلوني ورنسوشارتر، وفيزيله. تعبر العمارة القوطية عن قوة الكنيسة ورؤيتها الجديدة للعالم وذلك بأسلوب بناء وزخرفة قببها وأبراجها، وأجنحتها الكبيرة ومواضع جوقاتها، وزجاجها الملوَّن... وإذا تبعنا «جورج دوبي[٩] Georges Duby» لم يكن لهذه العمارة الهائلة الفخمة سوى مقصد واحد وهو : «تمجيد قدرة الله».

لكن من هم الأشخاص الذين بنوا هذه الكاتدرائيات؟ ففي أوكسير، «غيوم دو سينيوله[١٠] Guillaume de Seignelay» هو الذي تعهد بناء كاتدرائية جديدة عام ١٢١٥م. كان غيوم شاباً أرستقراطياً سليل

المجتمع النبيل المحلـي[11]. تخبرنا الحولية التاريخيـة إن غيـوم وشقيقـه «ماسانـه Massanès» قد دخلا في سلك الكهنوت «استجابـة لرغبـات والدتهمـا التي كانت شديدة التقى والتقـوى[12]». وتقدم الرواية القداسيـة الشقيقين بصورة شابين ممتلئين ورعاً وحماسة وتواضعاً وبساطة.

لكننـا يمكـن أن ننظـر إلى الأمور من زاويـة أخرى. عندما دخل هـذان الشابان المقدامان في سلك الكهنوت، لم يهجرا الحياة الاجتماعيـة أبداً كي يكرسـا نفسيهما لله وللصلاة فقط. ففي ذلك الزمن، وحيث كانا يتمتعان بتربية جيدة وعلاقات حميدة، كان الدخول إلى الكنيسـة يعني إمكانية النجاح في مهنة: ربما مهنة أفضل بكثير مما لو بقيا في قصر العائلة.

تميّز غيوم بشكل مبكر كعنصر لامع برز في الدوائر العليا للسلطة وللكهنوت. ارتفعت رتبه بسرعة في التدرجية الكهنوتية. فقد تمَّ تعيينه أولاً خازناً ثم رئيس شمامسة. وفي سن الثلاثين تمَّ انتخابه «عميد مجلس الكهنة في أوكسير». يجدر بنا هنا قول الحق: أن يكون «عميد مجلس الكهنة» في ذلك الوقت لم يكن بالأمر البسيط. في الكنيسة، «مجلس الكهنة» كان يعني معهـد الكهنة القانونيين المكلفين بكل أعمال الكاتدرائيـة. وهذا يشمل ليس فقط تنظيـم الاحتفالات الدينيـة الكثيرة (القداديسـ اليومية، المعموديـات، الزواج، الدفن، الأعياد الطقسية)، بل أيضاً صيانة الأبنية، وإدارة الأملاك وعائدات الكنيسة. بالإضافـة أيضـاً إلى إدارة الذاتية: الكهنة الذين يحتفلـون بالقداس، وجوقة المرتلين، ومـدراء الكورال، وعـازفي الأرغن، وخدام الكنيسة، والخدم العاديين، إلخ. ناهيك عن الإدارة والإشـراف: هناك الأعمال الخيرية، وجمـع التبرعـات، إلخ. كانـت أوكسير من أهـم أسقفيات فرنسـا وكان مجلس الكهنة فيهـا يضم ٦٣ كاهناً قانونيـاً. كان «عميد المجلسـ» وكأنه مدير عـام لشركة ناجحة ورابحة جدّاً.

إن صعـود غيـوم لم يتوقـف عند هذا الحد. ففـي عام ١٢٠٧م، تمَّ تعيينه مطران الكاتدرائية حيث أصبح يتمتع بسلطة كبيرة ونفوذ وغنى ومجال واسع للعمل.

وتخبرنـا الروايـة المقدسة أنـه عندما حان وقـت تعيين الأسقف، تبارى الشقيقان بإظهـار التعفف وتفضيل الأخ الآخر، فكان مشهداً رائعاً برز من صـراع التواضع فيما بينهما، فكل واحـد منهما اعتبر نفسه غير مستحـق لهـذا المنصب ويترجـى بدموعه بأن ينصِّبـوا أخاه. وأخيراً حسم البطريرك الموضوع وعيّن غيوم. بعد بضعة أسابيع تمَّ تعيين مانيسه Manessès أسقف لأورليان

Orléans، وهـــي أسقفية قوية جداً. وكان المنصبان موضع تمنٍّ وطمع الكثيرين.

في عام ١٢٠٧م، تربع الشقيقان المتحدان على رأس قيادة أسقفيتين كبيرتين.

في هـــذه الأثنـــاء، استدعاهمـــا الملـــك «فيليـــب أوغوست Philippe Auguste» لإرسالهمـــا في بعثـــة عسكريـــة إلى ساحل بريتانيا لتحرير قصر قـــد احتلته مجموعة من العصـــاة الخونة. قد تدعو هذه الواقعة إلى الدهشـــة، إذ كيف يمكن أن يرسل الملك أسقفين في حملة عسكريـــة؟ صحيح أنهما أسقفـــان لكنهما سيّدان إقطاعيان، يمتلكان ملكاً واسعـــاً، وثروة شخصيـــة، وإقطاعات بحيث يمكنهما تجنيد مليشيا مسلحة.

بوصفهما أسيـــاد سينيوله Seignelay كان الشقيقان إقطاعيـــين من حاشية ملك فرنسا. وكان ينبغي عليهما المشاركة بالجيش الإقطاعي الذي ينظمـــه الملك. لكن عندما وصلا إلى المـــكان المحدد مـــع مجموعتهما الصغيرة، اكتشف الشقيقان أن الملك لم يكن موجـــوداً بشخصه. لقد أوفد من ينوب عنه أحـــد كبار حاشيتـــه ليديـــر العمليات. فلم يكـــن بالإمكان لهذين الشقيقـــين أن يطيعا مأمورين تابعين! يريـــد الشقيقان أن يطيعا الملك ولكن ليســـ لمرؤوس: إنها مسألة مقام وهيبـــة. لذلك قرّرا أن يعودا على أعقابهما ويبقيا في أراضيهما.

لقد اعتـــبر هذا التصـــرف حركة تمرد ولم يكـــن باستطاعة الملـــك فيليب أن يتركها دون عقـــاب. قرر عندهـــا فيليب- أوغست Philippe- Auguste أن يحجـــز علـــى ممتلكاتهما «الزمنية» أي إقطاعاتهما. لكن الشقيقين لم يتأثـــرا ولم يذعنا لهذا الأمر بل قامـــا بهجوم مضاد واستوليـــا على أراضي الملـــك التـــي كانـــت في نطـــاق أسقفياتهما وحرمـــا ضباطـــه مـــن الكنيســـة! احتدت القضية إلى الأسوأ ما استوجب تدخل البابا شخصياً للتوصل إلى اتفاق. «وعندما رفعت القضية إلى البابا استتب الأمن والسلام في شهر نيسان عـــام ١٢١١م، مع شرط قطعي من تاريخه، بأن الأساقفة يتم إعفاؤهم من التواجد شخصياً في الجيش».

تظهر لنا هذه الحادثة علاقة القوة بين الكنيسة والملك، بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية الدنيوية. ففي زمن الإقطاع، لم يكن الملك على رأس الدولة؛ لم يكن سوى وجاهة وهيبة تضعه على رأس اتحاد الإقطاعيين. وفي كثير من الأحيان كان هؤلاء الإقطاعيون يرفضون الامتثـــال والخضوع لأوامر الملك. وإقطاعيانـــا هما ممثـــلان للكنيسة، القوة الصاعـــدة التي باستطاعتهـــا أن تقاوم كل المستويـــات: الدوق، وأمـــراء المملكة، وحتى الملك نفسه. وهذان الأخوان لم يعصيا أوامر الملـــك فحسب بل وجّهـــا له إهانـــة كبيرة.

وتدرج ثورة الشقيقين ضمن الصراع وعلاقة القوى بين قوتين الكنيسة والمملكة، لكن تمردهم لم يحرض عليه أحد بل كان بدافع شخصي بحت. وهما لم يكونا حليفي البابا لأنه كان حليفاً للملك «فيليب- أوغست» في الحروب الصليبية. هذا التحدي هو البرهان على كبرياء هذين الرجلين وعلى غطرستهما وعلى المدى الكبير لحرية العمل التي يتمتعان بها.

وبعد عام ١٢١٣م بدأ غيوم بمشروعه في البناء والتعمير. فقد قرَّر إعادة بناء قصره الأسقفي الذي هو مكان إقامته وفي الوقت نفسه مكان عمله كأسقف. فهذه الوظيفة كانت تستحق قصراً... وكان ينبغي أن يكون هذا القصر على مستوى ساكنه... ثم في عام ١٢١٥م، أعاد بناء الكاتدرائية وفق النمط الجديد في ذلك العصر وهو: «النموذج القوطي[١٣]». لقد كان الأسقف غيوم يغار من الكنائس الجديدة الفخمة والجميلة التي كانت تبنى في منطقته بزخرف رائع، لذلك لم يعد بالإمكان له أن يكتفي بمبنى أقل جمالاً من الأبنية الأخرى، فنقرأ في سيرته الذاتية التي كتبها «لوبوف Lebeuf»: «عندما رأى الأسقف أن كاتدرائيته باقية على نموذج عمارة قديم وغير مرتب بل نموذج بالٍ بينما في الجوار تنتصب كاتدرائيات بارعة الجمال، قرَّر أن يبني كنيسة جديدة وأن يزخرفها بأجمل الفنون بوساطة اختصاصيين في فن الهندسة المعمارية».

لقد اتضح الأمر، فخلف تمجيد الله، هناك دوافع دنيوية جداً: الرغبة بإظهار القوة والمقدرة الذاتية، ورغبة تغذيها وتثيرها الغيرة من الجار. ففي النتيجة، كان الموضوع هو تمجيد الله بزيادة الارتفاع وبإدخال الضوء، بينما كان بالإمكان الاكتفاء بارتفاع أعلى بقليل من القديم. ولم يكن هناك شيء يفرض التنافس على العملقة التي شهدناها، فكان أغنى الأساقفة والكهنة مصممين على أن يبنوا كنائس أكبر وأضخم من جيرانهم. ومن أجل ذلك كان عليهم أن يحثوا المهندسين المعماريين في معاقلهم لإجبارهم على التعرض للمخاطر، حيث كان هدم الأبراج المرتفعة جداً التي تنهار تحت ثقل طموحاتهم.

فالواضح أن السباق الأكبر هو السباق على أكبر وأضخم برج وهو أمر يتعلق بالتنافس على الهيبة والنفوذ. فكانوا يتنافسون على من يكون له البرج الأكثر ارتفاعاً، فهذا الصراع بين الشخصيات وذاتيتها، يعيدنا إلى سيناريو شائع في التاريخ البشري. ففي كل قفزة حضارية، وحيث تكون الثروة والسلطة مركزة، كانت النخب

تلجأ إلى التنافس وإظهار قوتها. فالأساقفة المسيحيون تنافسوا في طول كاتدرائياتهم. وهكذا كان الحال في التاريخ القديم بين النخب اليونانية والنخب الرومانية التي كانت تتنافس في بناء القصور والقبور الأكثر ضخامة. وقبلهم كان كل جيل من أجيال الفراعنة المصريين، يبني هرماً أعلى من سابقيه. وقبل الفراعنة كانت المدن- الدول الرافدية تتنافس فيما بينها على ارتفاع الزيقورات. وفي الآثار الراقية لما قبل التاريخ كان الأمراء ينقلون مئات الأطنان من الحجارة ليعيِّنوا بها أراضيهم ويظهروا قوتهم ونفوذهم من خلالها.

وفي عصر النهضة قامت العائلات الكبيرة ببناء القصور مع أبراج عالية. والقصة نفسها تكررت في شيكاغو بعد قرن من الزمن حيث كل رجل جديد يدخل في النخبة الرأسمالية يريد أن يكون له ناطحة سحاب أعلى من كل الناطحات السابقة، ثم انتقل هذا التنافس إلى نيويورك.

إنه من الصعوبة بمكان فهم بناء الكاتدرائيات الكبيرة على أنها بنيت بدوافع دينية وسياسية، ورمزية، واقتصادية. لأنها تتعلق بدافع عام مشترك وعميق جداً، وهو «تجابه الذاتيات» Confrontation des Egos».

هذا الصراع ألهب عقول الفراعنة والملوك والفرسان كما ألهب قبطان الصناعة وعقول الأساقفة أيضاً.

لكنه ربما نجد أن أحد المحركات الرئيسة للتاريخ، في هذه الحالة: «من يريد البرج الأعلى؟»

لا شيء يوحي لنا بأن «غيوم دو سينيوله كان أكثر أو أقل طموحاً من مماثليه، أو أنه لم يكن صادقاً بقناعاته الدينية.

لكن تاريخه وتاريخ شقيقه وكثير غيره من رجال الكنيسة المسيحية يمكن لنا أن نستنتج منه اعتبارات حول وجود الفرد في العصور الوسطى. الفردية يمكن لها أن تعبر عن نفسها داخل المؤسسة بعدة طرق:

١- طموح وإستراتيجية المهنة. فالإنسان لا يصبح أسقفاً بالوراثة. (عدا حالة واحدة في رين Rennes كان هناك بعض الأساقفة المتزوجين ولهم أولاد فكانوا يورثون أبناءهم مناصبهم... لكن ذلك كان من الاستثناءات[١٤]...). وللوصول إلى هذه المراتب كان ينبغي صعود درجات التدرجات الكاثوليكية، الأمر الذي كان يتطلب موهبة قيادية وموهبة تفعيل العلاقات من أجل ذلك. لقد كان هناك تنافس مثلما هو اليوم من أجل الحصول على وظيفة في الجامعة.

٢- مقدرة واستقلالية في القرار. فلولا

غيوم لم تكن أوكسير لتحظى بكاتدرائية جميلة. فإعادة البناء لم تكن لتحصل من قبل شخص آخر، فلا البابا ولا المدنيون كانوا يتطلبون المضي في مثل هكذا مشاريع. كما أننا لا نجد في الكتاب المقدس أي أمر يبرر مثل هذه المصاريف الكمالية. بل على العكس من ذلك فإن النصوص كانت توصي بالعكس تماماً بالتواضع والفقر.

٣- تنافس وصراع نفوذ. إن بناء الكاتدرائيات كان منوطاً بالمبادرات الشخصية لأساقفة طموحين، يثيرهم تنافس النفوذ، لكن في الوقت نفسه كانت هناك طموحات مادية- نفسية، فعندما أعاد غيوم بناء كاتدرائية أوكسير كان يفعل ذلك «لمجد الله والكنيسة» وكان صادقاً دون أدنى شك.

وصلنا هنا إلى الفكرة الأساسية

كانت الكنيسة توفر وسيلة صعود اجتماعي تسمح لأفراد الوصول إلى مناصب توفر لهم السلطة والنفوذ والهيبة والاستقلالية... كما أن تجسيد الطموحات الشخصية كان يتلاءم تماماً مع موظف بوظيفة إلهية.

بالمقابل، بما أن الأيديولوجية الرسمية للكنيسة هي ضد الفردانية، فإنه من المستحيل تجسيد المصالح الشخصية وإعطاؤها الأولوية، لذلك كان ينبغي على الدوام مزجها برسالة عليا. وهذا ما يحصل اليوم عند الذين يريدون أن يؤسسوا للعمل السياسي. فالذي يريد أن يلتزم بالعمل السياسي ينبغي عليه أن يعمل أولاً لقيم سامية وهي المصلحة العامة ويمكن له أن يعلن عن مطامح شخصية بحتة كما في الميادين الأخرى فالباحث يعمل من أجل تقدم العلوم وموظف الدولة عالي المستوى يعمل من أجل الدولة. فالكنيسة رغم أن لها بنية مؤسساتية شمولية، الكل هو أعلى من عناصره الذين ليسوا سوى خدامه، ورغم أنها بطبيعتها تابعة وخاضعة تتلقى من الخارج القوانين التي تسيرها (لكونها في خدمة الله)، ورغم أنها من حيث المبدأ تقليدية (تأخذ شرعيتها من الكتاب المقدس)، كان باستطاعتها أن تترك حيزاً للتعبير عن الفردية وبزوغ الأفراد. كانت المؤسسة تسمح للعديد من الأفراد أن يؤسسوا مهنتهم، أن يكون لهم إستراتيجيتهم للارتقاء الشخصي. كانت توفر مخارج للذين يسعون للسلطة والمجد، وللذين يريدون أن يتفرغوا للدراسة، أو للسفر، أو للنضال، وكل الذين يحلمون بالعظمة.

الهوامش

١- نيقـولا جورنـة Nicolas Journet «ثمن الحريـة Le prix de la liberté » مجلـة العلوم الإنسانية sciences humaines

٢- (صحافـة العلوم السياسية، ٢٠٠٨)، ثم أعيد طرحه وتفسيره في إحدى فصول «الفرد اليوم» وكان بار أحد المشاركين في التأليف ٢٠١٠م.

٣- نجد بنية هذه القصة عند تودوروفTodorov (مدح الفرد).

٤- الرواقيـة: هـي فلسفة تقول بأن كل شيء في الطبيعة إنما يقع بالعقـل الكلّي ويقبل مفاعيل القدر طوعاً؛ وسميت رواقية نسبة إلى الرواق الذي كان يجتمع فيه أتباع زينون Zenon.

٥- أنطـون سعادة، الأعمال الكاملة الجزء الثالث صفحة٥- لقـد كان ظهور شخصية الفرد حادثاً عظيماً في ارتقـاء النفسية البشرية وتطوّر الاجتماع الانساني. اما ظهـور شخصية الجماعة فأعظم حوادث التطور البشـري شأناً وأبعدها نتيجة، وأكثرها دقة ولطافة وأشدها تعقداً، إذ إنّ هذه الشخصية مركب اجتماعي -اقتصـادي- نفساني يتطلب من الفرد أن يضيف إلى شعـوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته، أمته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه، وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسية متحده الاجتماعـي، وأن يربـط مصالحه بمصالح قومه، وأن يشعر مع ابـن مجتمعه ويهتم به ويود خيره كما يود الخير لنفسه.

٦- أنطون سعادة، الأعمال الكاملة الجزء الثالث صفحة ٥.

7- Aude Gros de Beler, égyptologue et éditrice chez Actes Sud

«أود غرو دو بيلير، اختصاصية في تاريخ الفراعنة وناشرة عند آكت- سود.

٨- بيير ريشة، أمجاد الألفية الأولى، إصدار بارتيبيا.

Pierre Riché, Les Grandeurs de l’an mille. Ed. Bartillat.

٩- جورج دوبي «زمن الكاتدرائيات. الفن والمجتمع» غاليمار الطبعة الثانية:

Georges Duby : «Le Temps des cathédrales. L’art et la société, 9801420-», Paris, Gallimard, 2e édition, 1976.

١٠- بشكل أدق هو الذي وضع أساس الكاتدرائية الجديدة، حيث أن هذا البناء القوطي قد تمَّ بناؤه عبر مراحل عديدة تمتد على مدى خمسة قرون. الاستعلام على الرابط التالي:

http://www.cathedrale-auxerre.com/histoire/p-histoire-introduction.html

١١- والده البارون سينيوله، ووالدته ابنة السيد مونبار.

١٢- للمعلومات الإضافية على الرابط التالي: file:///Users/jean__francois/Desktop/Guillau ٢٠Seignelay.webarchive٪٢٠de٪me

١٣- في واقع الأمر كان هذا النموذج في البناء يسمى بالنموذج «الفرنسي». لكن في عصر النهضة أعيد تسميته بالـ«قوطي» الذي يعني:«بربري».

١٤- Pierre Riché، Les Grandeurs de l'an mille. Ed. Bartillat بيير ريشة، سيادات عام ألف. إصدار بارتيا.





أفاميا
قلعة المضيق عروس العاصي ودرة الشرق

د. خليل المقداد *

ميزاتٌ هامة وكثيرة انفردت بها مدينة أفاميا عن غيرها من المدن الأثرية والتاريخية والحضارية ليس في سورية فقط وإنما في العالم قاطبةً، فهي من حيث الامتداد تعتبر الأكثر توسعاً واستطالة حتى من مدينة روما، وبالنتيجة ينطبق هذا الأمر على أبنيتها الضخمة والفخمة، وعدد سكانها الذي قارب النصف مليــون نسمة، وكذلك الدور الهام الــذي لعبته في زمانها والمراحل التاريخيــة والمعطيات الأثريــة التي قدَّمتها. وما هــي إلا سنوات قليلة من

* باحث في التاريخ والآثار.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الكشف والتنقيب الأثري حتى ظهرت آثار المدينة البراقة التي أذهلت العالم بسحرها بعد أن غابت في طيات النسيان تغطي كنوزها النفيسة طبقات من الأتربة والأنقاض والترسبات العديدة في القرون الزمنية السابقة.[١]

إن النموذج الرائع للمدينة وأبنيتها لهو برهانٌ ساطعٌ لما قدَّمه الإنسان العربي السوري للحضارة الإنسانية عبر التاريخ من أبنية عسكرية ومدنية ودينية وترفيهية ضمن مدينة واحدة كانت مدرسة للعديد من المناهج الهندسية والجمالية والفنية بصورةٍ صادقة عبرت عن هوية هذا الإنسان المتعمق في الجذور الحضارية ومؤسسها منذ غابر الأزمنة وناقلها للعالم على أكف الراحة ليؤسس حضارة عالمية متطورة كانت أنموذجاً يحتذى به للمنهج الهندسي المنتظم للمدن التنظيمية.[٢]

والمتجول في المدينة عندما يُلقي نظرة شمولية متبصرة يكتشف روائع الفنون التنظيمية، ولكن بنفس الوقت يتحسر وفي نفسه الأسى والحزن على الخراب والدمار والحالة التي آلت إليها هذه المدينة وكيف تحولت نهاياتها وكبرياؤها إلى أنقاضٍ متراكمة لم يبق منها إلا الذكريات التي تعبر عن نمط الحياة التي عاشتها المدينة وسكانها في عصورها الذهبية حيث كانت من عجائب الدنيا ودرة الشرق وعروس العاصي، إنها في الحقيقة مدينة التاريخ التي تثير الشجون.

لقد قدَّمت المدينة لنفسها وللتاريخ منهجاً لمدارس تبقى أنموذجاً يُحتذى لكل دارس، ينهل منها القوانين والأنظمة المتعددة من الفسيفساء والفنون والتقنيات التي شملت مجريات الحياة العامة والخاصة كافة لمدينة احتضنت نصف مليون إنسان داخل أسوارها الحصينة وفوق مساحةٍ بلغت ٢٥٠ هكتاراً، عاشها السكان برفاهية تامة وحياة سعيدة أثارت فضول الإنسان الحاضر وأدخلت في نفسه الحنين إلى الماضي والتحسر على الحاضر الذي آلت إلية، ولكن مع بعث الأمل بالمستقبل الزاهر بعد أن أضاءت هذه الآثار مدينة بروكسل ومتحفها الملكي للتاريخ والفن بنماذج من آثارها المختلفة وعلى رأسها شارعها الرئيس (الكاردو).[٣]

أصل الموقع:

تقع المدينة الهلّنستية على الحافة اليمنى من نهر العاصي حيث يجاورها مرتفع صخري شغل في البداية موقع أكروبول المدينة في العهدين السلوقي والروماني، ثم بني عليه لاحقاً قلعة المضيق. وكان هذا الحيز الجغرافي في الأصل وقبل قدوم



قوات الإسكندر المقدوني مقر مساكن أوائل القاطنين في الموقع والذين يعودون في الأصل إلى العصر الحجري القديم (الباليوليتيك) وشيئاً فشيئاً أخذ يتوسع السكن ليشمل حواف التل ليتشكل منه لاحقاً نواة مدينة/ قرية كانت تعرف باسم قرية فرنكة pharnaké التي توسعت لتشمل سطح التل ليكون حدّاً فاصلاً بين المدينة ومجرى نهر العاصي، وبقي التل عبارة عن الموقع الإستراتيجي الهام المشرف على المدينة.

وكان الموقع المحيط بالمدينة يتعرض في كثيرٍ من الفترات للفيضانات التي يسببها جريان نهر العاصي مما يؤدي إلى تشكيل المستنقعات التي تأوي الجواميس والأبقار، كما تتحول إلى بحيرات تأوي الأسماك، وقد أدى كل ذلك إلى تحويل الموقع إلى منطقة زراعية غنية بزراعة الحبوب، كما كانت منطقة غنية في صيد الأسماك والصيد البري ثم أصبحت منطقة تقاطع للطرقات التجارية الهامة بين جميع المناطق الساحلية والداخلية وأخيراً أصبحت من روائع المدن وأمهاتها ليس في سورية فحسب وإنما في العالم القديم قاطبةً ومازالت من روائع المدن الأثرية في العالم حتى الآن.(٤)

وقد بنيت مدينة أفاميا على حساب قرية فرنكة pharnaké التي كانت مقر قوات الإسكندر الكبير في نهاية القرن الرابع ق.م. وقد أسس هذا القائد في الموقع مدينة

عرفت باسم بيلا pella التي سميت لاحقاً باسم أفاميا apamée من قبل العاهل السلوقي الأول سلوقوس نيكاتور على شرف زوجته السورية أفاميا. apaméa وقد ازدهرت المدينة وتطورت سريعاً بسبب اتخاذها مركزاً عسكرياً وإدارياً رئيساً في سورية. كما تمَّ اتخاذ قلعتها مركزاً لخزينة الدولة والجيش، وهناك تمركز مربط ومقر خيول الفرسان الملكية ومقر الفيلة الذي كان يستخدمه الجيش السوري /المكدوني في الحروب إلى جانب المدينة، وفي تلك الآونة قفز عدد سكان المدينة ليبلغ ١١٧ ألف ساكن وذلك حسب التقديرات الأولية التي أظهرتها الدراسات الأثرية، ثم قفز هذا العدد ليصل إلى نصف مليون في العصر الإمبراطوري المتأخر عندما أصبحت أفاميا عاصمة سورية الثانية ومركز أسقفية بعد بناء كاتدرائيتها العظيمة على حساب المعبد الكبير، إضافةً إلى بناء العديد من الكنائس التي وزعت على جميع أحياء المدينة وخصصت لجميع المذاهب الدينية.

وقد كانت المدينة تمتلك جميع المقومات الهامة التي تمتلكها أمهات المدن الكبرى في العالم مثل: نبع الماء ومجاورتها لنهر كبير ودائم الجريان وللسهول الزراعية الخصبة وكذلك مجاورتها للجبال العالية التي تجلب الأمطار الغزيرة، إضافة إلى موقعها على طرق تجارية وعسكرية هامة في سورية خاصةً طريق أنطاكيا العالمي الذي يربط الداخل السوري مع المنطقة الساحلية. ولهذا السبب فقد حوت المدينة معسكرات معظم الفرق العسكرية الكبرى وخاصةً القسم الكبير من جيش القائد السلوقي سلوقس نيكاتور، الذي كان يمتلك جيشه ٥٠٠ فيل.

نظرة تاريخية:

المعلومات التاريخية عن الفترة التي تعود إلى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد وبالتحديد في الفترة التي سبقت الفترة الهلّنستية قليلةٌ جدّاً وخاصةً عن موقع المدينة القديمة مع العلم أنة قد تمَّ العثور في المنطقة على نصب يعود للفترة الحثية وبالتحديد إلى القرن التاسع قبل الميلاد معروض في متحف حلب الوطني.[٥] وقد حصلت أفاميا على مرتبة عاصمة الولاية الرومانية الثانية في سورية وكان ذلك بسبب النشاط البشري الذي لعبته المنطقة منذ فترة عصر الباليوليتيك الأوسط. وفي مرحلة العصر النيوليتي كانت الجهة الشمالية من موقع الأكروبول مشغولةً بالسكان على شكل تجمعات زراعية مع بناء المساكن الزراعية، وقد دل على ذلك العثور على أدوات زراعية

مثـل البلطـات والمناجـل وأدوات زراعية مختلفة تمَّ الكشف عنها في مواسم التنقيب. وفي العصر النحاســي استمرت الجماعات السكنيــة في التواجد والتكاثــر وخاصةً في العهود البرونزية بالتحديد العصر البرونزي القــديم حيــث تمَّ العثور على قبــور غنية، وفي عصــر البرونز الوسيــط زاد الاستقرار بشــكل متصاعــد حتى تحــول إلى مجتمع تجاري بدليل وجود لقى تدل على العلاقات التجارية بكثرة.

وقــد أشارت جميــع النصوص المصرية والآكاديــة والحثيــة التي تعــود إلى الفترة الواقعة بين القرنــين السادس عشر والرابع عشر قبل الميلاد إلى الموقع الذي كان يعرف باســم فرنكــة، وفي العهــد الفارسي كانت تشــارك الإمبراطورية الفارسيــة بالغنائم. ثــم دخلت في جســم العــالم الهلّنستي منذ وقــتٍ مبكر كما هو الحال بالنسبة إلى مدن المنطقة التي كانت تشــكل منطقة ساتراب حسب التقسيم الإداري الفارسي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد.(٦)

وبعد معركة إيسوس عام ٣٣٣ ق.م وعلى أثر انتصــار الإسكندر المقــدوني استقبلت المدينة الحامية المقدونية وكان اسمها بيلا. وهنــاك أصبــح مقر العاهــل الكبير، وبعد ذلك تغير اسم المدينــة لتأخذ اسماً جديداً وخاصــةً بعد انتصــار سلوقوس نيكاتور في معركــة إيبسوس عــام ٣٠١ ق.م. وفي هذا الموقــع وبالتحديد في عــام ٣٠٠ق.م أصبح اسم المدينة أفاميا، وكانت تشكل واحدة من أهــم مدن الحلف الثلاثــي في شمال غرب سورية مع مدينة أنطاكيا والسويدية ومن ثم اللاذقية. وقد أصبحت مقراً لقلعة وحصن هامين، وهكذا فقد عاشــت المدينة أحداثاً هامةً عبر تاريخهــا الطويل وخاصةً العهود الهلّنستية والرومانيــة والبيزنطية والعربية وحتــى الفتح العربــي الإسلامي بين عامي ٦٣٦– ٦٣٨م. وخــلال هــذه العهود الهامة حافظــت المدينة على مكانتهــا الاستثنائية ودورهــا الإستراتيجــي كمدينــة تمتلك كل المقومــات وبالتوافــق مع الاحتفــاظ بدور مدينة أنطاكيا كمدينةٍ مرادفةٍ لها.(٧)

ومع مطلع القرن الأول للميلاد بلغ عدد سكانهــا ١١٧ ألف نسمة أحرار من المجموع الكامــل الــذي وصــل إلى ٥٠٠ ألف نسمة بكامل شرائــح المجتمع بما فيها الضواحي. وخــلال الحرب التي جــرت في عام ٥٧٣م في عهــد الإمبراطور جوستــين الثاني جلب إليها قائد قــوات العاهل الفارسي خسرويه ٢٨٤ألف أســير. وبقيت أفاميا طيلة حياتها السياسيــة مركزاً هاماً كمحــور للطرقات التجارية الكبرى والصغــرى لمنطقة حوض

العاصـــي ومهيمنة على الطرقـات الهامة والمرتبطـة بنهـر العاصي، ونالـت إعجاب جميـع الشخصيات الهامـة في التاريخ بما فيهـا كليوباتـرا- سبتيموسـ سيفيروس- زيوسـ بيلوس- كراكلا، وكانت تلعب المحور المفصلي في تاريـخ الإمبراطورية الرومانية كما هو الأمر في العهد السلوقي بين العرب والبارثيين.

وزاد في أهميـة المدينـة في العهـد الإمبراطـوري وخاصـةً في فترات الحروب مـع الفرس أن اتخذتها رومـا كمقر وملجأً للجيوش في فصـول الشتاء وخاصةً الفرقة الثانيـة البارثية، وفي معسكـر هذه المدينة تمَّ إعـلان وتنصيب ديادومـين بن ماكرين (Diaduménien fils de Macrin) إمبراطوراً عندما قـدم من أجل الاطمئنان عن القـوات في المنطقة وضمان تأييدها له في عام ٢١٨م. وقد وقعت المدينة تحت أيدي القوات الساسانية بقيادة شحبور الفارسي في عام ٢٥٦م، وعلى أثر ذلك أصبحت واحدة من بين ٣٧ مدينة سورية تمَّ الاستيلاء عليها من أيدي القوات الإمبراطورية.

وفي العهـد الكنسي وخاصـةً في مطلع القرن الرابع للميلاد كان لمطارنة المدينة دورٌ فاعل في المجامع الكنسية حيث كان للمدينة مركز ديني مرموق ومقر بطيركية على الرغم مـن التواجد الهام لمعتنقي الديانات الوثنية في ذلك التاريخ وحتى تدمير المعبد المركزي للإله زيوس في المدينة في عام ٣٨٤/٣٨٥م. وأصبحـت مركـزاً للصـراع المذهبـي في الإمبراطوريـة البيزنطية في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ومنافسة لمدينة القسطنطينية في ٥٣٦م علـى زعامة العالم المسيحـي كونها العاصمـة المركزية للولاية السورية ومقر الكنيسة اليعقوبية ذات اللغة السريانية.

وخلال فترة السلام التي عاشتها سورية في القـرن الخامسـ فقد أعـادت للمدينة مجدهـا وأصبحـت عاصمة سوريـة، كما أصبحـت مركز سورية الداخليـة الإداري، إلا أن هذه المكانة كانت تكلف المدينة أثماناً باهظة حيـث أعادت إليها الخطر الفارسي حيث كان أخطر ما كانت تتعرض له المدينة الهجمات الفارسية المتكررة ومنها تلك التي حدثـت في أعـوام ٥٧٣- ٦١٢- ٦٢٨م. ثم عادت المدينة لسيطـرة الإمبراطورية تحت إمرة القائد هيراقليوس حيث اتخذ من المدينة ومنطقتها خـط دفاع لجيوش الإمبراطورية بعـد معركة اليرموك حتى سقطت في أيدي العرب المسلمين بعد هذه المعركة الشهيرة في شهر آب من عام ٦٣٦م.[٨]

وبعد كل هذه الأحـداث لم يعد للمدينة

سوى مركز القلعة والحصن، وفي القرن العاشر والحادي عشر دخلت المنطقة تحت خطر الحروب الصليبية بين أعوام ١١٠٦- ١١٤٩م حيث لعبت قلعتها دوراً هاماً في فترة الحروب الصليبية، وأخيراً وفي عام ١١٤٩ تمَّ تحرير المنطقة من قبل قوات نور الدين، وأخطر ما تعرضت له المدينة الهزات الأرضية التي دمرت آثارها بين أعوام ١١٥٧- ١١٧٠م، وبذلك غاب مجد المدينة ولم تعد بعد ذلك وخاصةً في العهد العثماني سوى مقرٍّ (كرافان سراي) على طريق الحج بين القسطنطينية ومكة.

المدينة في العهد البيزنطي:

في العهد البيزنطي تمَّ تحسين الشارع ببلاط حجري مضلع ومتعدد الزوايا، وقد صف على مستوىً أعلى من السابق بمقدار ٥٥سم. وهو عبارة عن بلاط من الحجر الكلسي حسن النحت والتنظيم، إلا أنه لا يوجد عليه أثر من تثلم يدل على أنه استعمل من قبل العربات، كما أن عرض الشارع قد تمَّ تقليصه في مرحلة التحسين وخاصةً في محاذاة الأعمدة مع رصيف بعرض حوالي ٣،٥م؛ بمعنى رصيف مع رواق، وهذا الأخير منتظم البلاط في نقاط التغيير وخاصةً في مقابل الأبنية التجارية حيث زين في بلاط جميل جداً ومعزول عن العمل التجاري، ومنذ ذلك الوقت أخذ اتجاه البلاط محور شرق/ غرب بانحراف ثلاث درجات.

ونجد هذا الإجراء يتكرر في بعض المدن السورية وعلى سبيل المثال فوق الشارع الرئيس في مدينة بصرى حيث نجد أن البلاط في الشارع الرئيس وخاصةً في قسمه الواقع بين قوس النصر وساحة التترابيل والمحاذي لساحة الفوروم والسوق الأرضية قد اختلف تنظيمياً عن باقي الأقسام.[٩] وقد نصب البلاط في أفاميا على كامل عرض الشارع (الكاردو) وهذا الأمر من أجل جريان العربات في الدوكومانوس، إلا أنه توجد انقطاعات وجدت في نقطتين مقاربتين وهما نقطة الأغورة وإلى الشمال من مبنى (التيشيون tycheion) وحتى مستوى الكنيسة ذات الساحة (أتريومatrium). وفي هذه النقطة تظهر بشكلٍ واضح ممرات على شكل مماشي واضحة التحديد، وهنا يظهر رواق على شكل رصيف مرتفع من أجل استقبال البضائع.

إذن، وجدت هنا منطقة جديدة أُنشئت من أجل التجارة بما فيها المباني العامة، وهذا التجديد أخذ امتداداً حتى قوس بني في القرن الثاني حيث أعطى امتداداً إلى باب المدينة الشمالي، أي بمسافة تقدر بنحو

٨٠متراً أمام واجهة السور. وفي هذا التاريخ ظهر الطراز الكلاسيكي للتنظيم.

أما بالنسبة إلى مبنى الكاتدرائية فإن مدرجها الأمامي قد وضع مباشرةً فوق بلاط شارع الدوكومانوس مما أدى إلى تقليص عرض الشارع بحوالي ٤،٥م؛ أي حوالي ثلث العرض الأصلي، بينما هناك نموذج من ساحة على شكل تترابيل نظمت في نقطة التقاطع بين شارع الكاردو الصغير وشارع الدوكومانوس الذي يحاذي الشارع في الزاوية التي تحدد الفراغ لمرور المركبات بعرض ٦،١٨م، بينما تمَّ ضم قسم منه من أجل تأسيس بناء على شكل حمامات والذي يبدو أنه خصص ليكون قصر الحاكم حيث نفذ على النموذج نفسه؛ بحيث ألغي عرض شارع الكاردو الآخر مع الالتصاق غير المنتظم والذي قسم الواجهات المجاورة الأساسية ومنها واجهة بناء قديم والحمامات الشمالية التي بنيت في بداية القرن الثاني للميلاد، وعند ذلك تمَّ تنفيذ شارع دوكومانوس آخر ينبثق بزاوية قائمة من أجل ملاقاة الأساس الأول للشارع في زاوية التقائه مع الشارع المعمد ومتطابقاً مع أبنية القرن السادس (٥٢٦-٥٢٨م) والتي تظهر هذا الطراز في البناء.

كما بنيت كنيسة في الزاوية الجنوبية الغربية عند تقاطع شارع الكاردو مع شارع الدوكومانوس، حيث أخذ بناؤها محور الشمال بالنسبة إلى شارع الدوكومانوس والذي أكل قليلاً من شارع الكاردو الأساسي (الكاندرال في مرحلة لاحقة) والحمامات وذلك حوالي القرن السادس.

المدينة في العهد الإسلامي:

أخذ امتداد شارع الدوكومانوس إلى الشمال من مبنى (التركلينيوم) الثلاثي الفصوص في الزاوية الشمالية/ الغربية من الكاندرال الذي أصبح سوقاً كاملاً بحوالي ٦٢ حانوتاً مع ورشات حرفية، وقد محا هذا التنظيم تقريباً المظهر الأساسي للجزيرة، حتى إن ساحة الكاتدرائية تقلصت ولم تفلت من ذلك حيث وجدت حوانيت في الزاوية الشمالية/ الشرقية حوت المهنيين والحرفيين وخاصةً المهن المعدنية. وليس بعيداً عن ذلك وجدت مساكن البرجوازيين الرومان والبيزنطيين في الحي الجنوبي/ الشرقي من المدينة. وجاءت النهاية الحزينة للمدينة على أثر الغزوة الفارسية في عام ٥٤٠م ومن ثم في مرةٍ ثانية في عام ٥٧٣م حيث دمرت معظم مبانيها تقريباً، وفي الغزو الثالث عام ٦١٢م تمَّ تدمير كامل المدينة من قبل القائد الفارسي خسرويه أو كسرا الثاني.(١٠)

مخطط المدينة:

بلغت مساحة المدينة داخل السور ٢٥٠ هكتاراً في قمة مجدها وازدهارها، وكان ذلك أوسع انتشار عمراني للمدينة قبل أن تتعرض للكوارث المختلفة، وكانت هذه المساحة مقسمة ومنظمة بشكلٍ دقيق على شكل جزر تحيط بها الشوارع الرئيسة والفرعية من كل الجهات، كما نفذت الشوارع الرئيسة على كامل امتداد المدينة من جميع الجهات الرئيسة، وكان أبرزها شارع الكاردو اتجاه شمال/ جنوب بعرض ٣٧،٥م وطول ١٨٠٠م مجمّل بأروقة معمدة تحيط به من كلا الطرفين أعمدة حلزونية فخمة وشاهقة الارتفاع مع نظام التعميد الدوري والكورنثي الذي يتجه وشارع الدوكومانوس اتجاه شرق/غرب.[١٠]

أما الجزر فكانت تأخذ أبعاداً مستطيلة بمقاييس ١٠٥×٥٥م، بينما في مدن أنطاكية واللاذقية فتأخذ مقاييس ١١٢×٥٨م، أو جُزيرات بمقاييس ١١٠/١٠٥×٥٥م بزوايا قائمة وفق رقعة الشطرنج التي تغطي كامل سطح المدينة الهلّنستية داخل السور الذي يحيط بكامل المدينة على شكل تعرجات، بينما القلعة فكانت تشرف على المدينة حيث كان هناك مركز المدينة الهلّنستية.

كما اهتم الإمبراطور تراجان اهتماماً خاصاً في المدينة من خلال اهتمامه بإعادة إعمار وتطوير وتحسين المدن السورية الأخرى مثل أنطاكيا، لذلك تمَّ إعادة بناء رواقين في الشارع الكبير في أفاميا وحمامات وقناة ماء إلى جانب أبنية أخرى شملت كامل قطاع التنظيم العمراني. وبالطبع فهذا ما تمت ملاحظته في مدن شرقية أخرى كما هو الحال في أفاميا. وكانت معظم هذه الأبنية قريبة من البوابة الشمالية، ولهذا يصبح من السهل إرجاع تاريخها إلى عام ١١٦/١١٧م.

وكانت أفاميا كما هي حال المدن المجاورة مثل أنطاكية- حماة، حيث أخذت هذه المدن في تنظيمها انطلاقة ترتبط بالظواهر الطبيعية مثل النهر أو البحر أو الجبل وهكذا. وهذا عكس المدن التي ارتكزت في مخططها وتنظيمها على أرضية مسطحة مثل مدن: دمشق- تدمر- بصرى[١١] حيث طبق المنهج الروماني في الشوارع الرئيسة والفرعية، ففي تدمر الشوارع تقطع ثلثي امتداد المدينة مع قوس نصر. وفي اللاذقية الجزيرات تقلصت مع شارع الكاردو عن طريق الضلع الطويل، والتوازي في الشوارع في مدينة اللاذقية كان أكثر دقة من أفاميا، وإن كان الشارع الرئيس يتجه بالضبط بمحور شمال /جنوب.[١٢]

المواقع الأثرية في المدينة:

على الرغم من الكوارث التي مرت على المدينة منها الطبيعية كالهزات الأرضية والزلازل أو الحروب والتدمير الذي حل بالمدينة في فترات تاريخية مختلفة وهجر الموقع ومن ثم الطمر والانهدامات والترحيل واستعمال العناصر في أبنية مختلفة في المدينة الحديثة أو المدن المجاورة، أو النهب الذي تعرضت له آثار المدينة في العصور المختلفة؛ إلا أن الأعمال الجبارة من حفريات أثرية منهجية ومن التنقيب والترحيل والصيانة والترميم وغيرها من الأعمال التي قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف بالتعاون مع البعثة الأثرية التابعة للمتاحف الملكية للتاريخ والفن في مدينة بروكسل في بلجيكا والتي مازالت جارية في تنظيم المدينة فقد كان لها الأثر البالغ في إعادة الحياة والكشف عن أسرار آثار المدينة وتراثها وأبنيتها.

وإن لم يكن الأمر بالمقياس الذي نعرفه عن آثار بعض المدن في سورية مثل مدينة بصرى وغيرها أو بعض المدن الأثرية في العالم حيث نجد كثيراً من هذه الأبنية مازالت تحتفظ بالقسم الكبير من عناصر بعض الأبنية، إلا أن الأمر يختلف هنا في مدينة أفاميا كما هو الحال في مدينة تدمر ودورا أوروبس (صالحية الفرات) أو مدينة سيروس (النبي هوري) وغيرها إذ نجد أن الدلائل والبقايا من الأبنية الأثرية تكون برهاناً قاطعاً على عظمة تلك المدن وأهميتها الحضارية والتاريخية.

ولو أحصينا الأبنية المتبقية من مدينة أفاميا ومهما كانت الوضعية لوجدناها على الشكل التالي:١-الشوارع الرئيسة وعلى رأسها الشارع المعمد محور شمال جنوب (الكاردو) ٢-الكنيسة ذات البناء المستدير والمقبب (église â rotonde) ٣- الكنيسة ذات الفناء أو الساحة الداخلية (église â atrium) ٤-المنزل ثلاثي الفصوص تريكلينوس (triclinos) ٥-الكاتدرائية الشرقية ٦-الباب الشرقي ٧-مصلبة تقاطع الشوارع الرئيسة (التترابيل) بمحاور شرق غرب (دوكومانوس) وشمال جنوب (الكاردو) ٨-المدخل الأثري لمبنى الساحة العامة للمدينة (الأقورة) ومبنى التيشيون (tycheion) ٩-الحمامات العمومية المركزية ١٠-المبنى الدائري (ربما السوق العامة للمدينة) ١١-العمود التذكاري لتقاطع الشوارع الرئيسة ١٢-الحمامات العمومية الصغيرة ١٣-العمود التذكاري الثاني لتقاطع الشوارع الرئيسة ١٤-كنيسة الحي الشمالي/الغربي ١٥-حمامات جوليوس أقريبا ١٦-منهل الماء الشمالي (معبد حوريات

الماء النمفيوم) ١٧-الباب الشمالي ١٨-منزل التيجان ذات القناصل ١٩-منزل الأعمدة ذات القناصل ٢٠-المنزل ذو الركائز ٢١-المنزل ذو الفناء على النمط الدوري ٢٢-منزل الغزال أو البونة (cerf) ٢٣-المنزل ذو الأعمدة ثنائية الفصوص (bilobées) والأعمدة ثلاثية الفصوص(trilobées).

ولضيق المجال سوف نقدم لمحة بسيطة عن أهم هذه الأبنية ما عدا المسرح حيث كان موضوع دراسة نشرت في مجلة «الباحثون» السورية العدد ٤٩ عام ٢٠١١م.

الشارع الرئيس المعمد محور شمال/ جنوب (الكاردو):

الشارع المعمد الكبير ويعرف باسم الكاردو، ويشكل العمود الفقري والمحوري الكامل للمخطط التنظيمي للمدينة القديمة، ويأخذ محوراً دقيقاً باتجاه شمال/ جنوب وبشكلٍ موازٍ للجبال الساحلية التي تحاذي وتجاور المدينة من الغرب وبشكلٍ أفقي، وكذلك الأمر مع محور سهل الغاب وحوض العاصي، وبالمعيار نفسه أيضاً مع ساحل البحر المتوسط في المنطقة نفسها. وقد اندمج كلياً وبشكلٍ معتبر ضمن المشهد العام الطبيعي، وبذلك فقد حدد في محوره كل ما يحيط به من المدينة والمنطقة من الخطوط العريضة ضمن مفهوم متفوق وفائق بشكلٍ حقيقي وبكل ما تعنيه الكلمة من معنى بما يخص المنهج التنظيمي الذي يعود للعهد الهلّنستي الذي كانت له المرجعية في تحديد الأثر.

إذن، الشارع يمتد على مسافة ٢كم وعرض ٣٧،٥م، وهو عرض الشارع مع الأروقة التي تحاذيه، وهذا الشارع الأثري الذي يخترق المدينة من جهةٍ إلى أخرى ومن البوابة الجنوبية إلى البوابة الشمالية من الأسوار المحيطة. وهذا التعميد الذي كان يذهل العقول سابقاً حيث مازالت الأعمدة جاثيةً على الأرض، ونلاحظ هنا الأعمدة المميزة بنحتها الحلزوني وقيمتها الجمالية والهندسية في المدينة وكذلك الديكور الفائق في تركيبه المتكامل.

إن البرنامج العملاق الذي وضع لصيانة وترميم أبنية المدينة وخاصةً هذا الشارع العملاق الذي تعرض لهذه المأساة الفظيعة نتيجة الهزات الأرضية التي دمرت سورية الشمالية في شهر ديسمبر عام ١١٥م ووصلت إلى مدينة أنطاكيا أيضاً. إنها بحق عملية إصلاح ضخمة وحقيقية للتنظيم العمراني للسنوات الأخيرة.

ففي أفاميا نجد أن الأقسام من الشارع والتي تقع إلى أقصى الشمال حيث نجد: (أعمدة- تيجان- فريزان- مكرنشات-

زخرفيات ذات أخاديد- ميثوبات.. إلخ) جميعها تعود في تاريخها إلى السنوات العشر الأخيرة من حكم الإمبراطور تراجان ١١٦-١١٧م. وتظهر بوضوح فوق المدخل الأثري للحمامات والتي تفتح على الشارع في عمق جدارها الشرقي حيث تفتح على الرواق، وهنا يوجد نص تكريسي كتب فيه: «من أجل صحة الإمبراطور...» وفي عهد والي الولاية جوليوس كادرانوس باسوس صديق بلن الصغير ومن قبل جوليوس أقربا سليل العائلات الملكية المحلية من العهد الهلّنستي ومن جوده وكرمه تمَّ الصرف والإنفاق على الأبنية في كامل هذا القطاع أو هذه الجزيرة.

إذن، شهد الشارع الرئيس العديد من المراحل التنظيمية والتحسينات المتلاحقة على عدة فترات تاريخية، ومن هذه التحسينات تزيين الشارع بأعمدة ملساء وكذلك أعمدة زخرفية ثلاثية الأخاديد وتزيينات الفريزات والتيجان الكورنثية، وكذلك بأعمدة مجدولة (مجدلية) برتابة وانسجام تام للكورنيش الكلاسيكي ثلاثي الأخاديد: الأول فريز محدب- والثاني تيجان مع ورق الآس المسنن، وكذلك أعمدة مضلعة وملساء ومجدولة. وجاء تعاقب التحسين وخاصةً الأعمدة معقولاً ومنطقياً بحيث تناسب مع تطور المنهج التنظيمي للمدينة وخاصةً على أثر العوارض الطبيعية مثل الهزات الأرضية- الزلازل- الحريق... إلخ.

ومن جهةٍ أخرى نجد نماذج المظاهر المختلفة لهذه الأعمدة والتي لم تكن بالتأكيد متزامنة مع بعضها البعض، إذ نجد أن طبيعة التيجان في القسم المجاور للباب الشمالي يظهر أنه أقرب إلى التقليد الهلّنستي وخاصةً في رسم أوراق الزهر، وهذا يختلف عن الأعمدة الواقعة على ارتفاع مبنى التيشيون نفسه الواقع أمام الساحة العامة (الأقورة). وعلى كل حال نجد أن الإصلاحات التي تمت في الشارع الرئيس (الكاردو) وخاصةً المظهر الجمالي قد تمَّ خلال القرن الثاني.[١٤] وقد بلغ طول الشارع ٢كم وعرضه ٤٠م تقريباً، وهو بذلك من أعظم شوارع مدن العالم.

بلاط الشارع الرئيس:

توضّع البلاط فوق طبقة من الركام بسماكة تصل بين ٤٠ إلى ٨٠ سم. وهذا البلاط محفوظ بشكل جيد على شكل مستطيلات من الحجر الكلسي القاسي بسماكة تتراوح بين ١٢ إلى ١٨ سم. وقد صُفَّ بميلان خفيف نحو طرفي الطريق حتى يستند محاذياً الأطاريف والأرصفة المبلطة بدورها والتي ترتكز فوقها ركائز

الأعمدة. وقد ركب البلاط فوق طبقة من حشوة رمادية متوسطة وهذه الطبقة تتوضع بدورها فوق طبقة من التراب بسماكة تصل إلى ٣٠ سم، وهذه الطبقة حوت عناصر مختلفة من القرميد الأحمر وقطع وكسر من الفخاريات وكذلك فخار لماع أملس ومختوم في أسفله ونقود برونزية وجدت في الطبقة نفسها. وجميع هذه التراكمات التي توضعت تعود إلى القرن الأول ق.م والربع الأول من القرن الأول للميلاد. لذلك فقد بدأ التحسين وتصميم الشارع في النصف الأول من القرن الأول للميلاد. وكان البلاط عبارة عن قطع حجرية من الكلس القاسي منحوتة ومهيأة بشكلٍ جيد بسماكات تتراوح بين ١٤ إلى ٣٦سم.

وفي فترةٍ لاحقة تمَّ حفر الأرضية الأساسية لتمديد قنوات المياه والصرف على شكل حفرة بعرض متر واحد حيث مدت في داخلها قنوات جيدة بعرض ٤٠سم. ثم بلطت بقطع حجرية مربعة من تراب مشوي بمقياس ٤٠×٤٠سم وضعت على شكل قطع مربعة متداخلة مع نصفي بلاطتين متداخلتين ومتجاورتين، أما سطح القناة فقد عمل على شكل بناء منحوت ومحشو من حشوة قوية ممزوجة مع فحم خشب، وجميع هذه الأعمال المنفذة مدت تحت رصيف الشارع، وقد تهدمت نتيجة ثقل الوزن الناتج عن الكورنيش والأعمدة. وقد استعمل واحد من هذه البلاطات كبلاط للشارع الأصلي. وربما أن هذه القناة استعملت بعد هجر الطريق السفلي وتحسين الطريق الجديد.

وفي مرحلةٍ جديدةٍ أخرى تمت تسوية الطبقة في منطقة من الشارع ثم تمَّ تبليطها في بعض المناطق ببلاط، وفي مناطق أخرى تمَّ تبليطها باللوحات الفسيفسائية، وقد تمَّ الكشف عن بلاط رخامي يظهر علامات تشير إلى سير العربات فوق هذا البلاط، ويستمر هذا التبليط حتى خارج الباب الشمالي تجاه النهر.[١٥] كما وجد بلاط نفذ فوق الفسيفساء في العهد العربي الإسلامي وعلامات تعود لعهد الاحتلال الفارسي.

وفي الفترات اللاحقة شهد الشارع خمس مراحل تنظيمية كان أولها تنفيذ شارع معمد مع بلاط جميل خلال النصف الأول من القرن الأول الميلادي، وفي المرحلة الثانية تمَّ بناء الحوانيت التجارية خلال القرن الثاني الميلادي، ثم في المرحلة الثالثة تمَّ تحويل محور المدينة بواسطة شارع مع أروقة في عهد الإمبراطور جوستينيان ومن ثم في المرحلة الرابعة تمَّ تبليط بعض أرضيات أروقة الشارع بالفسيفساء ذي الديكور، والمرحلة الخامسة والأخيرة جاءت في العهد

العربي الإسلامي حيث تمَّ تحويل قسم من الشارع إلى بازار وبناء ٤٥ حانوتاً ذات وظائف تجارية وحرفية.

العمود التذكاري المنتصب فوق أول تقاطع في الشارع المعمد الكبير:

ليس بعيداً عن مبنى الحمامات أو قطاع مبنى الحمامات وبمسافة تقارب ١٥٠م نحو الجنوب نجد نصباً معمداً مرتفعاً قد انتصب في نقطة التقاطع الثانية للشارع الرئيس على شكل عمود ذي بواعث تزيينية جميلة بارتفاع ١٤م، وقد انتصب العمود فوق ركيزة ثلاثية الأضلاع تذكر بالمنهج المعماري المتبع في النصب الجنائزية التي تعود للعهد الفينيقي في منطقة الساحل السوري، وكذلك المنفذ في الأبنية الجنائزية في جنوب بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية وخاصةً في القبور والنصب النبطية.

ويخلو النصب من حوله من أي حيز بنائي أو محيطي يحفظ المحيط السفلي على شكل أطاريف أو أرصفة أو أي بناء عازل. وقد ركب العمود في بنائه على شكل ثلاث طبقات؛ الأولى مكونة من ستّ ركائز ذات طبقتين رباعيتين في الأسفل تليها ٣ بمنهج ثلاثي الأضلاع والزوايا والسادسة والتي جاءت على شكل فرشة للعمود رباعية. وجميع هذه الركائز تأخذ شكلاً هرمياً في تدرج أبعادها الذي يتقلص بالارتفاع بشكلٍ يتناسب بين القاعدة السفلية وقطر العمود.

ثم يأتي بناء العمود المكون بدوره من ثلاثة عناصر؛ السفلى عبارة عن كتلة دائرية واحدة تشكل طبقة الارتكاز السفلى للعمود، الجزء السفلي منها منحوت على شكل ثلاث حلقات أسفلها متسع وقطره يتناسب مع الركيزة الرباعية المرتكز عليها، وأوسطها مجوف قليلاً. والعلوي يتناسب القطر فيه بتراجع القطر بشكل مقلص، بينما الجزء الثاني من هذه الركيزة يتوافق في قطره مع منطلق العمود المكون من تسعة أجزاء بارتفاعات متساوية تقريباً. وأخيراً وفي الأعلى يرتكز تاج العمود بقسمه السفلي بحيث يتناسب في شكله وقطره مع القطر العام للعمود، بينما الجزء الثاني العلوي جاء على شكل منقار صقر.

ويحدد هذا النصب الربع الأول من امتداد الشارع الرئيس منذ بدايته عند البوابة الشمالية حيث يوجد هنا موقع مفصل من مفاصل الشارع وتقاطعه مع الشوارع الفرعية الصغيرة وتقاطعه مع الشارع الرئيس الثاني اتجاه شرق/ غرب والذي ربما يأتي في المرتبة الثانية بعد الشارع الرئيس الأول. ويُظهر هذا النصب

وهذا التقاطـع بشكلٍ عام إيقاعـاً وطابعاً تنظيمياً ملفتاً للنظر، كما يُظهر سمة مميزة للتنظيم العـام للشارع الرئيس وطبوغرافية الموقع ولو أنها لم تكن بالقدر الكافي لمثل هذا المكان.

وقـد أعيد تركيب هـذا العمود وترميم عناصـره في عـام ١٩٦٩م في الوقت الذي تزامن فيه مع ترميم وترتيب منهجية تنظيم الأروقـة المحيطـة من الشـرق والغرب من قبل ورش المديريـة العامة للآثار والمتاحف السورية.

ساحة الأغورة مقياس ٣٠٠×٤٥م.

يعتـبر هـذا الميـدان الساحـة العامة للمدينـة منذ العهـد الهلّنستي ثم تمَّ تزيين المحيط حوالي عام ١٦٦م، أي في فترة زمنية استمرت حـوالي نصف قرن حتى تمَّ تزيين الشـارع الرئيس الـكاردو وتعميده. ويعتبر هـذا العمل جزءاً من التنظيم الشامل الذي جـرى في القرن الثاني للميـلاد والذي كان مطلعـه ساحـة الأغورة التي جـاء موقعها متبعاً منهج الشوارع وتربيعاتها. فقد جاءت موازية لشارع الكاردو ومتفقة معه عن طريق سلسلة مفاصل بشكل منتظم بدقة من رواق إلى آخـر بوساطة أعمـدة قصيرة محلزنة. بعد ذلك تمَّ تنفيذ مدخل مجمل بين الشارع وساحة الأغورة على شكل ترابيل (مصلبة) جـاء في نقطـة تمفصله عن الشـارع عند نقطة التقائه مع الساحة الأولى والتي زينت بأعمدةٍ ملساء، بينمـا الساحة الثانية فقد زينـت بأعمدةٍ مضلعـة. وبذلك فقد زينت الساحـة كما هو الشارع المعمـد (الكاردو) بثلاثة أنواع من الأعمدة: مضلعة- ملساء- مجدولة. وجميعها لعبت دوراً تنسيقياً وهاماً في النظام الهندسـي لهذه الفترة، ولكن من الصعـب تحديد الزمن لـكل هذه الأنماط والأصناف. ولكن توجـد وثائق تبين أنه في عـام ١٣٢م تمَّ إجراء تحسين شمـل أيضاً استمراريـة جـزء من الشارع مـن الشمال إلى الجنـوب. وبذلك تعـود ساحة الأغورة إلى الربع الثاني مـن القرن الثاني للميلاد. ومع بدايـة النصف الثاني بـدأت الأعمال التحسينيـة في الحي الجنوبـي من شوارع الـكاردو والدوكومانوسـ مجـاورةً للمسرح الـذي يجاور القسم الغربي من هذا الشارع المعمد حيث يشغل ثلاث جزر.

موقع الأغورة المفصلي الواقع بمستوى التيشيون (tycheion):

ويقـع هذا المـكان على مستـوى مبنى التيشيـون ولكن إلى الجنـوب منها مشرفاً على شارع الكاردو عن طريق منهج التعميد وركائـز من منهج أثري جميـل أيضاً، وهنا

نجـد المدخل الجانبـي للأغـورة، وقد تمَّ تخصيصها لوحدها بطريق مستعرض جانبي وخاص ومزين بالأعمدة التي ما زال قسم كبير منها بحاجة إلى الكشف والتعزيل، ويتقدمها على شكل إغلاق من الغرب بمنهج تنظيمي على شكل مصلبة (تترابيل) ولكن يأخذ محور الأروقة الموجودة في الموقع نفسه، ولكنه ضيق نسبياً، ولم يتجاوز مقياسه ٤٥م مع حوانيت متدرجة، ويمتد إلى الشمال من هذا المدخل وعلى امتداد بحوالي ١٥٠م وربما يتكرر الأمر نفسه نحو الجنوب.

ويفتح نحو الجنوب وخلف الهضبة حيث المسجد الموجود من هذا الجانب والذي يظهر بوساطة واجهة هامة مكونة من ستة أعمدة منمنمة وغنية بالزينة الكأسية التي تأخذ شكل الكأس المزركش في قسمها السفلي من الأشكال الزهرية وترتكز فوق ركائز مرتفعة نوعاً ما بقواعد ذات بروزات تزيينية.

وهذا العرض ملفت للنظر نوعاً ما بسبب غناه التزييني والزخرفي، وقد تمَّ الكشف عنه خلال مواسم التنقيب قبل الحرب، ثم أعيد العمل في الموقع منذ عام ١٩٧٩م، مع التذكير وبشكلٍ خاص بأن القسم المتعلق في الأغورة بدأ العمل به منذ عام ١٩٧٠م. ويظهر محور اتجاه سقوطه أثناء الهزات الأرضية المسببة بين أعوام (١١٥٧-١١٧٠م) وبشكلٍ خاص في مركز الموقع حيث يظهر الانتفاخ والبروز وأحياناً التغيرات في مستويات التبليط نتيجة التحولات الناتجة عن قوة الحدث للهزات.

وقد سمحت الحفريات التي جرت في عام ١٩٧٠م أيضاً في تحديده ضمن هذه الخطوط العريضة وخاصةً تاريخ تنفيذ أعمال البناء في الأغورة، وهناك اثنان من القناصل المنفذة في الجدار الغربي والذي يفتح بوساطة نوافذ عريضة ومشبكة على سور المعبد المخصص للإله زيوس بيلوس (zeus bêlos) ومحيطاته وتحمل في الحقيقة كتابات باسم جوليوس سيفيروس (c. Julius severus) والذي حلَّ في سورية عام ١٣٢م بصفة سفير أو مندوب (ليقا). والشيء الموازي والمناظر لهذا العرض من جهةٍ أخرى هو الأعمدة الملفتة للنظر للمدخل الشمالي للباب الجنوبي في مدينة جرش، وكذلك قوس هادريان في مدينة جرش نفسها، ويبدو أن الأعمال في كلا المدينتين كانت متزامنة.(١٦)

الهوامش

1- J. Ch. Balty. Guide d,Apamée. Bruxelle 1981. pp 56-.

٢- خليــل المقداد- المسكوكات السورية منذ الأصــول وحتى الفتح العربي الإسلامي- الهيئة السورية للكتاب- ٢٠١١م نشر إلكتروني.

٣- خليــل المقداد- الفسيفســاء السورية والمعتقدات القديمــة (الميثولوجيا) دراسة مقارنــة- الهيئة السورية للكتاب- ٢٠٠٨م.

٤- جان شارل بالتي- دليل أفاميا الأثري- مصدر سابق باللغة الفرنسية- ص ص١٨- ٣٤.

5- J. Ch. Balty. Les grandes etape de l,urbanisme d,Apamée sur l,Oronte. Dans KTEMA II. 1977 pp 3- 16.

6- Abel. F. M.L,histoire de la Palestine depuis la conquite d,Alexandre a l,anvasion Arabe. Paris. 1952.

7- Lassus.jean.Antioche: Fouilles profondes. 1934- 1938. Colloque Apamee de Syrie. Bruxelles 19691971-. pp 5060-.

٨- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار عكرمة- دمشق ١٩٩٦م. ص ص١٠٧- ١٢١.

٩- خليــل المقداد- أضــواء على مدينة بصرى- مجلــة المعرفة- وزارة الثقافة- العــدد ٥٦٠- ٢٠١٠م. ص ص٢٢٠-٢٤٠.

١٠- جان شارل بالتي- دليل أفاميا الأثري- مصدر سابق باللغة الفرنسية- ص ص١٨- ٣٤.

١١- J. Balty. Les grandes etape de l,urbanisme ...... جــان شــارل بالتــي ، المراحل الكبرى للتنظيم العمراني لمدينة أفاميا- مصدر سابق.

١٢- خليــل المقــداد- بين بصرى وتدمر مجلــة المعرفة- وزارة الثقافة- العــدد ٥٣٨- ٢٠٠٨م ص ص١٥٠- ١٦٧.

١٣- جان بالتي مؤتمر أفاميا ١٩٦٩م مصدر سابق ص ص٢٩- ٥١.

١٤- جان لاسوس- أنطاكيا- حفريات عميقة ١٩٣٤-١٩٣٨م- مصدر سابق ص٥٢.

١٥- بالتي مؤتمر- مصدر سابق- ص ص١٥- ٣١.

١٦- جان شارل بالتي- دليل أفاميا- مرجع سابق.

مصادر ومراجع البحث

Abel. F. M.L,histoire de la Palestine depuis la conquite d,Alexandre a l,anvasion Arabe. Paris. 1952. BALTY J. CH. Guide D’Apamee, Bruxelles 1981.

«- Apamee 19691971-. Colloque Apamee de Syrie. Bruxelles1972.

«- Le Cadre Topographique et Historique d'Apamee Colloque Apamee de Syris Bruxelles. 1972. P. 2951-.

«- Les Grandes Etapes de L'Urbanisme d'Apamee sur L'Orient, Ktema 2. Strasburg 1977. P. 316-.

«- Apamee. Le Monde de la Bible 22. 1983. P. 1214-.

BALTY J. et J. CH Apamee de Syrie Archeologique et Histoire Aufstieg Und Niedegang des Romisschen Welt II Berlin. N. X. 1977. P. 103134-.

J. Ch. Balty. Les grandes etape de l.urbanisme d.Apamée sur l.Oronte. Dans KTEMA II. 1977 pp 3- 16.

Lassus.jean.Antioche: Fouilles profondes. 1934- 1938. Colloque Apamee de Syrie. Bruxelles 19691971-. pp 5060-.

- خليل المقداد- المسكوكات السورية منذ الأصول وحتى الفتح العربي الإسلامي- الهيئة السورية للكتاب- ٢٠١١ م نشر إلكتروني.
- خليل المقداد- الفسيفساء السورية والمعتقدات القديمة (الميثولوجيا) دراسة مقارنة- الهيئة السورية للكتاب- ٢٠٠٨م.
- خليل المقداد- حوران عبر التاريخ- دار عكرمة- دمشق ١٩٩٦م. ص ص١٠٧- ١٢١.
- خليل المقداد- بين بصرى وتدمر مجلة المعرفة- وزارة الثقافة- العدد ٥٣٨- ٢٠٠٨م ص ص١٥٠-١٦٧.
- خليل المقداد- أضواء على مدينة بصرى- مجلة المعرفة- وزارة الثقافة- العدد ٥٦٠- ٢٠١٠م. ص ص٢٢٠- ٢٤٠.



١- الشوارع الرئيسة وعلى رأسها الشارع المعمد محور شمال جنوب (الكاردو).
٢- الكنيسة ذات البناء المستدير والمقبب (église â rotonde).
٣- الكنيسة ذات الفناء أو الساحة الداخلية (église â atrium).
٤- المنزل ثلاثي الفصوص تريكلينوس (triclinos)
٥- الكاتدرائية الشرقية.
٦- الباب الشرقي.
٧- مصلبة تقاطع الشوارع الرئيسة (التترابيل) بمحاور شرق غرب (دوكومانوس) وشمال جنوب (الكاردو).
٨- المدخل الأثري لمبني الساحة العامة للمدينة (الأغورة) ومبنى التيشيون (tycheion).

٩- الحمامات العمومية المركزية.

١٠- المبنى الدائري (ربما السوق العامة للمدينة).

١١- العمود التذكاري لتقاطع الشوارع الرئيسة.

١٢- الحمامات العمومية الصغيرة.

١٣- العمود التذكاري الثاني لتقاطع الشوارع الرئيسة.

١٤- كنيسة الحي الشمالي/ الغربي.

١٥- حمامات جوليوس أقريبا.

١٦- منهل الماء الشمالي (معبد حوريات الماء النمفيوم).

١٧- الباب الشمالي.

١٨- منزل التيجان ذات القناصل.

١٩- منزل الأعمدة ذات القناصل.

٢٠- المنزل ذو الركائز.

٢١- المنزل ذو الفناء على النمط الدوري.

٢٢- منزل الغزال أو البونة (cerf).

٢٣- المنزل ذو الأعمدة ثنائية الفصوص (bilobées) والأعمدة ثلاثية الفصوص(trilobées).





الحـياة والتكاثـــر

د. محي الدين عيسى ❊

تأتي الكائنات الحية إلى الحياة بفعل الوراثة وما تحملها من صبغيات أو جينومات Genomes حاملة للدنا DNA من والديها ومن أجيالها السابقة النوعيـــة المحتوية على كل المعلومات الوراثيـــة الخاصة بها وهذا ما يميزها عـــن المادة الجامدة (التي لاحياة فيها) وهي تعيش في موائلها ضمن المحيط الحيـــوي Biosphere الـــذي يشكل مع المحيط اليابـــس Lithosphere كوكب الأرض أو ما يعرف بكوكب الحياة Life planet.

❊ باحث في العلوم وأستاذ جامعي، ومعاون وزير التعليم العالي سابقاً.

مـــا يميـــز النـــوع البشري هـــو امتلاكه علـــى (٤٦) صبغيـــاً في كل خلية من خلاياه الجسميـــة محـــددة بالنمـــط الصبغـــي karyotype (شكل٢) الذي يعتبر من أفضل الثوابت المعروفة في تحديد النوع تصنيفيا" taxanomy وتطوريـــا" phylogeny وتعتبر الصبغيات نواقل الجينومات من جيل إلى آخر على طول مسيرة الحياة. إذن، ما هو لغز الحياة وما أســـرار التكاثر على مستوى الصبغيات؟

١- الحياة Life

الحيـــاة هي اســـم مطلق ومفهـــوم عام يشمـــل جميـــع خصائص الكائنـــات الحية بـــكل مظاهرها وسماتها مـــن تعضي ونمو واستقـــلاب وحركة وتطـــور وتكيف وتنظيم لـــكل نواحي التنوع الحيـــوي ضمن المحيط الحيـــوي على سطح الأرض ولم يتفق العلماء حتى الآن على تعريـــف معياري بالغ الدقة لماهية الحياة الحقيقية ولكنهم متفقون على بعض الأفكار الأساسيـــة بعد التعرف على الجينوم البشري عـــام ٢٠٠٣م والعديد من الجينومات الأخرى علـــى أن جوهر الحياة هو وجود الدنا الحامـــل لقوانين الحياة في كل الكائنـــات الحية قاطبـــةً والذي يشرف علـــى التكاثر والنمو وبناء المادة الحية ونقل الحيـــاة وشيفرتها الوراثيـــة لأكثر من ثلاثة مليارات سنـــة من التطـــور الواسع والمعقد على سطح الكرة الأرضية.

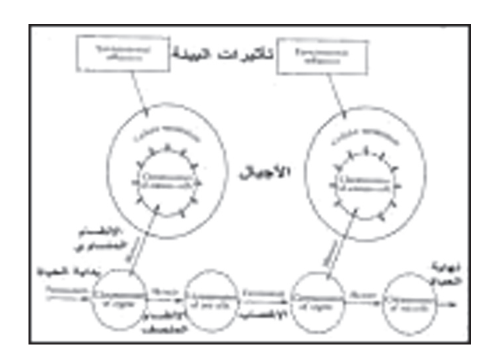
ويعرف الكائن الحي بأنه كل كيان يحيا ويعيشـــ ويمتلـــك الدنا (عـــدا الفيروسات التي تملك الرنـــا RNA) داخل الصبغيات والمحتوي كماً هائـــلاً وواسعاً من المعلومات الوراثية التـــي تعمل ضمن صفيفات التعبير Expression arrays على تنامي الجنين في الزمان والمكان بدءاً من البيضة الملقحة، وعلـــى توجيه هذا التنامـــي المتناظر ضمن مخطط هندسي لجسم المتعضية (الإنسان)، وطريقة ترتيب الجـــذع والرأس والأطراف والأعضاء في الأماكـــن الصحيحة المبرمجة في جسم الإنسان والتي تخضع للتغير البيئي المستمر مدى الحيـــاة، بالإضافة إلى تشغيل وإيقـــاف مفاتيـــح جينية كثـــيرة تتوازن بين القوى المؤثرة الداخليـــة والخارجية (تدفق الإشـــارات) في الدورات الجينيـــة المتمايزة لإعطـــاء الكائن الحي ضمـــن النوع وشجرة التطور وهـــذا هو التعريف الـــذي اعتمده مؤتمر قمـــة الأرض عام ١٩٩٢م بأن الكائن الحي هو مـــن يمتلك الدنـــا DNA سيداً لحياته.

فالحياة تتميز بعظمـة نقلها وتنظيمها وتلقيهـا لسيل متدفق مـن الطاقة والغذاء يحولهـا إلى شـكل مناسـب بيئيـاً للقيام بوظائفها، فعـبر ٣,٧ بليون سنة من مسيرة الحيـاة تطـورت فيهـا الكائنـات الحيـة وتكيفت مع بيئات مختلفة على كوكب الأرض وتقاسمـت الكثير من المتشابهات والمتغيرات فيما بينها..

فالدنا داخل الصبغيات هو المسؤول عن تكوين الحياة بنيويـاً ووظيفياً وهو المخزن العام لكل المعلومات الوراثية في كل الكائنات الحية على سطح الأرض وهو يربط الحياة بمسيرتها الطويلة منذ الأسلاف الأوَل وحتى الوقـت الحاضـر وإلى المستقبل البعيد غير المنظور (شكل١). وهذا هو الدنا بما يحمل من معلومات وراثية كاملة لبناء الحياة وهو أعظم إنجاز في هـذا الكون Univers في بنـاء التنوع الحيوي وحفظـه واستمراريته على مسيرة الخط الخالد للحياة (شكل١).

٢- التكاثر والانقسام الخلوي

يقود الانقسـام الخلوي الحياة من جيل إلى آخـر منذ منشئها وحتى الوقت الحاضر وإلى المستقبل البعيد ما دامت الحياة مستمرة (شكل١) وتتحمل هذه المسؤولية الصبغيات (الكرموسومات chromosoms) بسلوكها المبرمـج خلال النمـو وتشـكل المتعضيات القـادرة على التكاثر مـع صيغها الصبغية المضاعفة diploid (شكل٢) بفعل الانقسام المتسـاوي وسلوكها المبرمج خـلال التكاثر بفعل الانقسام المنصـف الذي يؤمن تشكل خلايا الأعراس الأحاديـة haploid التي تعطـي باتحادها وتناميهـا الجنيني أفراداً مضاعفة الصيغة مـن نوع أبويها وهذا هو هـدف الحيـاة في استمراريتهـا ووحدتها بفعل التكاثـر وتناوب الانقسام المنصف مع الإخصاب (شكل١).



شكل١: تخطيط يبين كيفية نقل الصبغيات للحياة من بدئهـا إلى نهايتهـا (Weissman) وفقاً لخطين متلازمين هما:

i. الخـط الخالد للحيـاة (الخط الأفقـي) يقوده الانقسام المنصف بالتناوب مع الإخصاب بعيداً عن سيرورات الاستقلاب الخلوي في استمرارية الحياة.

ii. خط الأجيـال (الخط المائل) يقـوده الانقسام المتساوي وتضاعف الصبغيات ليشكل الأجيال المتأثـرة استقلابيـاً بعوامل البيئـة على طول الخط الخالد للحياة

فالانقســام الخلوي يشمــل نوعين من الانقسام هما الانقسام المتساوي mitosis والانقســام المنصــف meiosis وتتضمن دورة الحيــاة الجنسيــة (شــكل٦) تتــاوب هذين الانقسامــين في المحافظة على ثبات العــدد الصبغــي المضاعــف (٢N) وفي نقــل الحياة وبنائهــا وفقاً للخــط الخالد للحياة (شــكل١) حيث يتنــاوب الإخصاب مــع الانقسام المنصــف في تدفق المعلومات الوراثية على طول مسيرة الحياة (منذ ٣,٧ مليــار عام) أما الخط الآخر (المائل) فيقود الانقسام المتساوي بدءاً من البيضة الملقحة (zygote) ليكون أجسامنا نحن بني البشر من ٢٠٠ تريليون مــن الخلايا التي تحتوي علــى الجينــوم (genome) ذاته (ما عدا الخلايا الجنسية والكريات الحمراء).

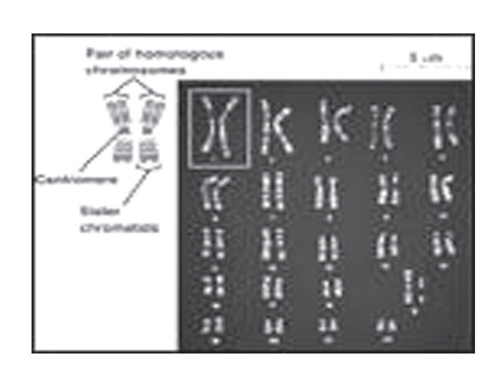
أولاً- الانقســام الخلــوي المتســاوي والنمو:

يعد هذا الانقسام طوراً من أطوار دورة حياة الخلية (الوحدة الأساسية للحياة) بدءاً من زمــن انقسام الخلية الأصلية (الوالدية) G١وحتى بدء زمن انقســام الخلية البنوية G١ وهــو الآليــة الوراثيــة المبرمجــة التي تقســم الخلية الواحــدة إلى خليتين بنويتين (بنتــين) daughter celles متماثلتــين وراثياً(شــكل٤)، بحيث تأتــي كل خلية من خليــة سابقة لها وهذا مــا يميز الحياة عن المواد الجامدة غير الحية لأن استمرار الحياة مبني على تكاثر الخلايا تكاثراً فريداً وعلى القــدرة على إعادة تكويــن نوعها فالأميب amoeba يعطي خليتــين بنويتين كل منها متعضية كاملة كمــا تتكون حقيقيات النوى eukaryates التي تنمــو من خلية واحدة مفردة هي البيضــة المخصبة fertilized egg لتعطــي في نموهــا تريليونــات مــن الخلايــا المتماثلة بجينوماتهــا في أجسامنا بفعل الانقسام المتســاوي المستمر (شكل٥) في الخلايــا الجذعية وفي عمليتي التجديد renewal والترميم.

١- الصبغيــات البشريــة Human chromosomes

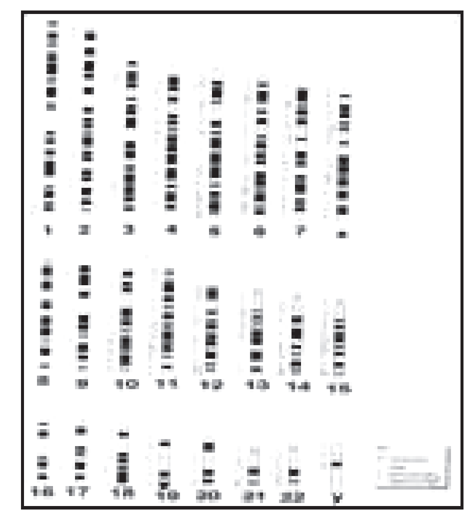
تحتوي نواة كل خلية جسمية Somatic Cell في النــوع البشــري (خــارج خلايــا الأعراس) علــى (٤٦) صبغياً (كروموسوماً) نمطيــاً مختلفــاً في الحجم (الطــول) وفي

موقع الجزء المركـــزي centromere وفي نمـــط عصائبه الملونة بفعـــل ملونات معينة وترتيب هذه الصبغيات في النمط الصبغي (النمط النـــووي) karyo type المتفلور في أشفـــاع (أزواج) pairs بدءاً من أطولها إلى أصغرها (٢٢ + xx أو yx) وكل شفع صبغي مؤلف من صبغيين لهما الطول نفسه وموقع الجـــزء المركزي نفســـه ونمـــط العصائب والتلويـــن نفسها وأحدهما موروث من الأب والآخـــر من الأم ويعرفـــان باسم الصبغيين المتماثلـــين (أو الصنويـــن)Homologus chromosomes (شـــكل٢) ويحمـــل كل منهما المورثات (الأليلات) المتحكمة نفسها في السمـــات الموروثة نفسهـــا فمثلاً المورثة (الأليل) المسؤولة عن لـــون العين المتوضعة في موضـــع معين على أحد الصنوين تماثلها مورثة أخرى (الأليـــل الصنوة) متوضعة في موضع مكافئ من الصنو الآخر في الصبغيات الذاتية (غير الجنسية) autosomes.



شـــكل٢: صورة مجهرية لصبغيـــات الرجل السوي مرتبة في النمط الصبغي karyotype المتفلور يبين خصائصـــ الصبغيات مـــن حيث الطول وتوضـــع الأجزاء المركزيـــة والعصائب ومفهوم الصبغيات الصنوة والكروماتيدات الأخوية

أمـــا الصبغيـــات الجنسيـــة Sex chromosomes (لأنهـــا تحـــدد جنـــس الأفراد) فتتألف من صبغيات النمط (x) ومن صبغيات النمط (y) فالأنثى تملك صبغيين (xx) وهما صبغيان صنوان (الجينوم = ٢٣ صبغياً) أما الرجل فيمتلك صبغيين غير صنوين هما (x) و(y) لهذا يتكون الجينوم مـــن (٢٤) صبغيـــاً مختلفاً (شـــكل٣) ولهذا يفضل استعمال عدد الأشفاع بدلاً من العدد الصبغي (٤٦) لأنه في كل شفع يوجد صبغي أبـــوي مقابل صبغي أمومي وبهذا تمتلك كل خليـــة طاقمين صبغيين Tow sets. واحد موروث مـــن الأب مؤلف مـــن (٢٣) صبغياً نموذجياً، وطاقم آخر موروث من الأم مؤلفاً مـــن (٢٣) صبغياً نمطيـــاً نموذجياً وبذلك يرث الإنسان من أبويـــه جينومين متماثلين (كتابين كل منهمـــا نسخة عن الآخر) وهذا هـــو معنـــى الأليـــلات Alleles (المورثات الصنوه أوالمتقابلة) (شكل٧).



الشكل٣: رسم بياني يبين طاقم الصبغيات المعصبة لجينوم الرجل الســوي (٢٤) مقارنةً بالشكل٦ لتحديــد تتالي الجينات علــى الصبغيات بدءاً من الجزء المركزي نحو طرفي الصبغي ويوضح الصبغــي x مع الصبغي y كمــا يوضح التوابع الموجودة على الصبغيات من ١٣-١٥ ومن ٢١-٢٢ والمسؤولة عن تشكل الرنا الريبوزومي وهذا هو الطاقم الصبغي المعصب

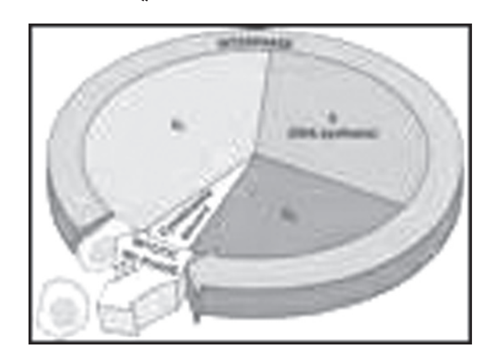
ويوجــد في كل صبغي مــن الصبغيات جــزيء دنــا DNA. واحد معبّــأ ومطوي وملتــفٌّ على الهيستونات (شــكل٥) ويصل طول جزيئــات الدنا في الخلية الواحدة إلى مــا يقرب من مترين (٢م) وهــو بذلك أكبر من قطر الخلية بمقــدار ٢٥٠ ألف ضعف. ويحمــل كل صبغــي (الدنــا DNA) عدة مئات إلى عدة آلاف من المورثات (الجينات Genes) التي تحمل رسائل وراثية (مشفرة) من المعلومات الوراثيــة الثابتة (المخزنة في الجينــوم) والتي إذا ما قُرأَتْ خلال التنامي الجنينــي أعطــت عضوية بنوعيــة كاملة ببنيتها ووظائفها وسماتها الفكرية المختلفة الموروثة من أبويها (شكل٦).

٢- أطـوار دورة الخليــة Phases of the cell cycle

يشمــل الانقســام الخلــوي المتســاوي (الخيطي) Mitosis على الانقسام النووي الذي يتعامل مع الصبغيات وعلى الانقسام السيتوبلاسمــي Cytokinesis الــذي يتعامل مع السيتوبلاسما ليعطي في سيرورة واحدة خليتين بنويتين (شكل٤).

يعد الانقسام المتساوي (طور M) جزءاً مــن دورة الخليــة وهو الأقصــر (١٠٪ من الــدورة) ويتعاقب مع مرحلــة أطول بكثير تعرف باسم الطور البينــي Interphase (حــوالي ٩٠٪ من الدورة) وفيه تنمو الخلية وتتضاعف صبغياتها وعضياتها في التحضير لانقسام الخلية. ويقســم الطور البيني إلى أطوار فرعية هي الطور G١ (الثغرة الأولى) وهو طور النمو وإعداد الصبغيات للتضاعف والطور S وهو طور تضاعف الدنا (الجينوم) أو الصبغيــات وطور G٢ (الثغــرة الثانية)

وفيه تستمر الخليــة بنموها للإعداد لطور الانقســـام المتساوي M وتـــوزع الجينومين على الخليتين البنويتين بالتساوي.

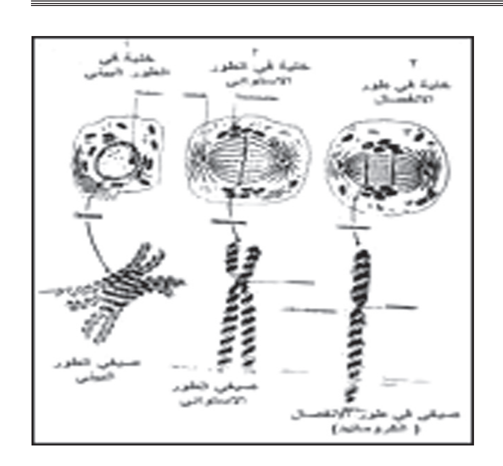


شكل٤: تخطيط يبين دورة الخلية المنقسمة

يتناوب طــور الانقسام المتساوي M مع الطور البيني طور النمو حيث يدعى الجزء الأول منـــه باسم طور G١ ثــم يليه طور S طور تضاعف الصبغيات ثم طور G٢ الجزء الأخــير ثم يدخل طــور M ليعطي خليتين بنويتين بجينومين متماثلين

٣- يـقـسـم الانـقـســام المـتـسـاوي اصطلاحيا" إلى خمسة أطوار هي:

الطور الطليعـــي Prophase - طليعة الطـــور الاستوائـــي Prometaphase - الطور الاستوائـــي (التالي) Meta phase - طور الانفصـــال (الصعود) Anaphase - الطور الانتهائي Telo phase (شكل٥).



شـــكل٥: يبـــين مفهوم صبغـــي في الطـــور البيني وفي الطـــور الاستوائي مـــن كرماتيدين أخوين مرتبطـــين بالجزء المركـــزي والصبغي في طور الانفصـــال الـــذي يصبح فعـــالاً في طور G١ والمؤلف من جزيء دنا واحد

وينهـــي الانقســـام السيتوبلاسمي طور الانقسام بظهور الخليتين البنويتين (شكل٤) بشكلهـــا النمطي وتتحكـــم منظومة وراثية جزيئيـــة في تنظيم أطـــوار دورة الخلية من حيـــث التوقيت وسرعة الانقسام في التنامي الســـوي وفي الصيانة والترميـــم وهذا يعود إلى التنظيم الحاســـم للإشارات Signals الجزيئيـــة الداخلية والخارجيـــة للسير إلى الأمام من طور إلى آخر.

٤- تنظيـم الصبغيـات في الأطـوار الخلوية (شكل٥)

تكـــون الصبغيات في طـــور G١ منتشرة بشكل لييف كروماتيني طويل ونحيف حيث

تعــبر المورثات عن نفسهــا أما في طور G٢ وبعد تضاعف الصبغيات في طور S (حيث يجب أن يتضاعف الدنا أو ينسخ نفسه لكي تنفصــل كل نسخة عن النسخــة الأخرى)، يصبــح كل صبغي مؤلف مــن كروماتيدين (صبيغيين) أخوين Sister Chromatids في الطور الاستوائـــي Metaphase وهنا يبــدو الصبغــي المضاعــف متخصــراً في موقع متخصــص وثابت يعرف باسم الجزء المركزي (القسيم المركزي) Centromere (شــكل٢). يربــط الكروماتيديــن بشــدة لبعضهما في الصفيحة وعلى خيوط المغزل ثم ينفصــل كل كروماتيد عن أخيه في طور الصعــود (الهجرة) بانشطار الجزء المركزي طوليّاً ليتحــرك بشكل مستقل (وهنا يدعى باســم الصبغــي) نحو أحد قطبــي المغزل لتتشكل خليتان بنويتان بجينومين متماثلين في نهاية الطور الانتهائي وهذا هو الانقسام الذي يصنع جسم الإنسان.

ثانيــاً- الانقسـام الخلـوي المنصـف Meiosis وتشكل الأعراس

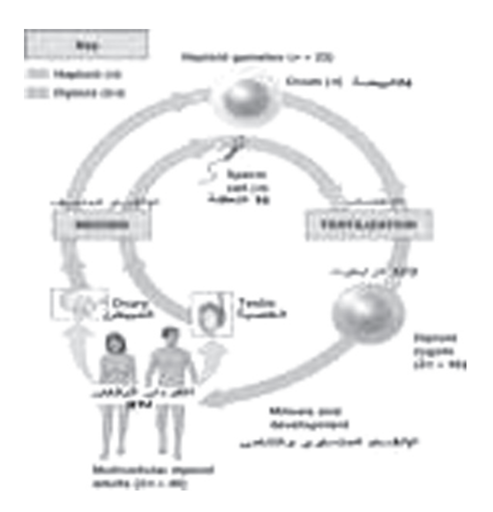
يتطابق الانقسام المنصف في كل خطواته مع خطــوات الانقســام المتســاوي تطابقاً متشابهاً. فالانقسام المنصف يشبه الانقسام المتســاوي مــن حيث أنــه يبــدأ بتضاعف الصبغيات (الدنا DNA) في طور S أولاً ثم يتبع هذا التضاعف انقسامين متتابعين هما الانقســام المنصــف الأول (Meiosis-١) والانقسام المنصف الثاني (Meiosis-١١) ليعطيا أربع خلايــا بنوية (بدلاً من خليتين بنويتين في الانقســام المتساوي) تحتوي كلٌ منها على نصــف الصبغيات (طاقم واحد) الموجودة في الخلايا الوالدية.

تلعب سيرورة الانقسام المنصف وسيرورة الإخصاب دوراً هاماً في المتعضيات المتكاثرة جنسيّــاً لحفــظ العــدد الصبغــي النوعي (٢N=N+N) للأفراد (شكل٦).

ففــي في التكاثــر الجنســي sexual reproduction يعطي الوالــدان أفراداً (ذرية) تمتلك تأشيبات (توليفات) فريدة من الجينات الموروثة من كلا الأبوين وهي ليست نسيلــة لأن أبناء التكاثــر الجنسي يتغيرون تغيّراً وراثياً مختلفاً عن أقربائهم وحتى عن كلٍ من أبويهم، لارتباطهم بسلوك الصبغيات خلال دورة الحياة البشرية (شكل٦).

١- دورة الحياة البشرية The human life cycle **(شكل٦)**

يعطــي الإنســان أعراســاً متغايــرة (Gametes) من خلايا بيضية أو من خلايا نطفية مبرمجة وراثياً بفعل الانقسام المنصف خلال دورة الحياة البشرية التي تبدأ عندما تتحد نطفة أحادية (العروس الذكري) آتية مــن الأب بخليــة بيضيــة ovum أُحادية (العروســ الأُنثــوي) آتية مــن الأم لتشكل البيضــة المخصبــة (اللاقحــة zygote) المضاعفة diploid ليبدأ الانقسام المتساوي ليتكون جسم الإنسان من تريليونات الخلايا، فنحن نرث صبغياً واحداً من كل شفع (زوج) صنو متماثــل بنمطه الصبغــي من كلٍ من الأبويــن (شكل٣) بحيث تكــون الصبغيات الــ(٤٦) في خلايانــا الجسميــة مؤلفة من طاقمين صبغيين أحدهما (٢٣) جاء من الأم والآخر(٢٣) جاء مــن الأب وهذا هو معنى العــدد (٤٦) المميز للنــوع البشري (شكل٢) وبذلك تكــون سيرورات الإخصــاب وتكونُ الأفراد وســيرورات الانقسام المنصف مزايا حيوية فريدة نوعياً ومتعاقبة جيلاً بعد جيل على طــول الخط الخالد للحيــاة (شكل١) ويكــون فيها العدد الصبغي (٤٦) ثابتاً ثباتاً أبدياً في كل دورة حياة للإنسان (شكل٦).



الشكل ٦: تخطيط يبين دورة الحياة البشرية وثبات الصيغــة الصبغية (٢N) ثباتــاً أبدياً (مقارنة بالشكل٢)

٢- مراحل الانقسام المنصف The stages of meiosis

يوضــح مفهوم الانقسام المنصف مبدئياً تضاعف الصبغيــات في الطور البيني (S) حيــث تنقسم الخلية مرتــين (في الانقسام المنصف الأول وفي الانقسام المنصف الثاني) وتعطــي أربع خلايــا بنوية نوعيــة أحادية الصيغة الصبغيــة، (فالصبغي إما أن يكون موروثاً من أم الفرد أو موروثاً من أب الفرد ذاته). وفي نهاية طور S يبقى الكروماتيدان الأخوان (النسختــان المتماثلتان) مرتبطين بالجــزء المركــزي Centromere في كل صبغــي نمطــي، ثم في مرحلــة التزاوج يقــترن الصبغيــان المتماثــلان أو الصنوان

Homologus علـــى طوليهمـــا ولكنهمـــا يختلفان بمـــا يملكان من نســـخ معدلة من الجينات (الأليلات) في المواضع المتطابقة.

حيث تزدوج (تزاوج) الصبغيات الصنوة بشكل حر على طوليهما وتصطف الأليلات (الجينات) مقابل الأليلات من الصنو الآخر ويحـــدث العبـــور Crossing over بـــين الكروماتيدين غـــير الأخوين بحيث يحدث انتقال مادة صبغية متساوية ومتوازية بينهما ويعاد ارتباط الدنا DNA في نقطة العبور المتقابلة نفسها(شكل٧).

وفي نهايـــة الانقســـام المنصـــف الأول ينفصل الصبغي الأبوي المضاعف (الأسود) عن الصبغي الأمومي المضاعف (الأحمر)، وفي الانقســـام المنصـــف الثـــاني ينفصـــل الكروماتيـــد عن أخيـــه في الصبغي الاسود وكذلـــك ينفصل الكروماتيد عـــن أخيه في الصبغـــي الأحمر بعد العبـــور وتخزن هذه الكروماتيدات المستقلة (الصبغيات) في أربع خلايا أحادية منفصلة (الأعراس).



الشـــكل ٧: تخطيـــط يبـــين حادثـــة العبـــور بين كروماتيدين غير أخويـــن لصنوين بحيث تنتقل جينـــات الأب إلى صبغـــي الأم وتنتقل بالمقابل جينات الأم إلى صبغي الأب أو الأليلات.

٣- تكـوّن الأعـراس البشريـة Human gametogenesis

تكون سيرورة تشكل الأعراس مبنيةً على الانقســـام المنصف حصـــراً ولكن التفاصيل تختلـــف عمّا هي عليـــه في الأنثى عمّا هي في الذكـــر. يتـــم تكـــون الخلايـــا البيضية Oogenesis بتنامـــي الخلايـــا البيضيـــة egg cells للوصـــول إلى البيوض الناضجة mature ova ولكن بالمقابل تتكون النطاف (الإنطـــاف) بإنتاج خلايا النطاف الناضجة والخصبـــة والمستمرة في حياة الرجل البالغ ويحـــدث تشـــكل النطـــاف في أنابيب ناقلة النطاف (المني) seminiferous tubules في الخصية وتحتوي كل دفعة للرجل من ١٠٠ إلى ٦٥٠ مليوناً من خلايا النطاف.

١) يختلف تكون البيوض Oogenesis **عـن تكـون النطـاف في ثلاث طـرق رئيسة هي:**

أولاً: يكـــون الانقسام الستوبلاسمي غير متساوي خلال الانقسام المنصف بحيث تكون كل السيتوبلاسما تقريباً أحادية الاستقطاب لخليـــة بنيوية واحدة هـــي الخلية البيضية الثانويـــة Secondary oocyte وتستطيع هذه الخلية الكبيرة السير إلى الأمام لتصبح

الخلية البيضية الناضجـة Ovum بينما تكـون منتجات الانقسـام المنصف الأخرى خلايـا صغـيرة تدعـى باسـم الجسيمات القطبية Polar bodies تتفكك وتتلاشى بالمقابل في تكون النطاف تنمو الخلايا الأربع للانقسام المنصف لتعطي النطاف الناضجة Mature sperms.

ثانيـاً: تتكاثر الخلايا الجذعية (أمهات الأعراس) بالانقسام المتساوي لتكون النطاف خـلال كامل حياة الرجـل البالغ ولكن هذه الحالة لا تكون في مخزون الخلايا البيضية في مبيض الأنثى البشرية.

ثالثـاً: يشمل تكون البيوض فترات راحة resting periods طويلـة بالمقابـل إلى تكون النطاف التي تعطي نطافاً ناضجة من طلائع الخلايا (الخلايا الجذعية) في تشكل مستمر.

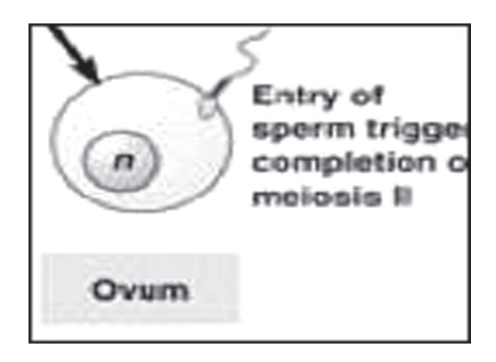
ففـي الإنـاث البشريـة يقـع إفـراز الهرمونات وحوادث التكاثر في دورة شهرية كما تعطـي الإناث بيضة ناضجة واحدة في وقت محدد مـن الدورة الواقعة تحت تحكم هرمـوني معقد، بينما تنتـج الذكور البالغة نطافاً بشكل مستمر من دون دورة معينة.

وهكذا فإنه في الدورة المبيضية تحرض المنطقـة تحت المهـاد Hypothalamus الغـدة النخاميـة لتفـرز FSH وLH لتحريض الجريب على النمو ليبدأ بصناعة الإستروجين Estrogen (الهرمون الجنسي الأنثوي).

٢) تكـوّن الخلايـا البيضيـة البشريـة Human oogenesis

تتشكل الخلايـا البيضية داخل المناسل الأنثويـة المعروفة باسم المبايض Ovaries المتوضعـة في التجويف البطنـي والمحاطة بكبسولات واقيـة متينة ويحتوي كل مبيض علـى (٤٠٠) ألف جريـب في المرأة البالغة. يبـدأ تكون البيضـة في الجنين الأنثوي من الخلايـا المنشئـة الأوليـة المعروفـة باسم الخلايا الجذعية النوعية Stem cells .

تتكاثر الخلايـا الجذعية (٢N) بفعل الانقسام المتساوي حتى يتشكل المخزون من الخلايا البيضية قبل مرحلة الولادة وبعدها تقف هذه الخلايا في الطور الطليعي الأول وتعرف باسم الخلايا البيضية الأولية (٢N Primary oocytes (التـي تبقى ساكنةً داخـل الجريبـات Follicles حتـى زمن البلوغ Puberty.



الشــكل ٨: تخطيــط يبين تشكل الخليــة البيضية البشريــة الناضجة بعــد دخول رأس النطفة وإصدار كريتها القطبية الثانية

وبالعــادة تنضــج خلية بيضيــة واحدة وتتحــرر شهريــاً مــن جريــب ذي غراف (الناضــج) في كل دورة مبيضية ولا يستمر الانقسام المنصف الثاني حتى تخترق النطفة الأبوية الخلية البيضية فقط وعندها تكون البيضـــة قد اكتملت وأعطت كرتها القطبية الثانيــة وأصبحــت تعــرف باســم البيضة الناضجة ovum (شكل٨)

٣) تكـوّن النطـاف البشريــة Human spermatogenesis

تتشكل النطاف داخــل المناسل الذكرية المعروفــة باسم الخصــي Testis الموجودة خارج الجسم في الصفن والتي تنتج الأعراس (خلايا النطاف) والهرمونات.

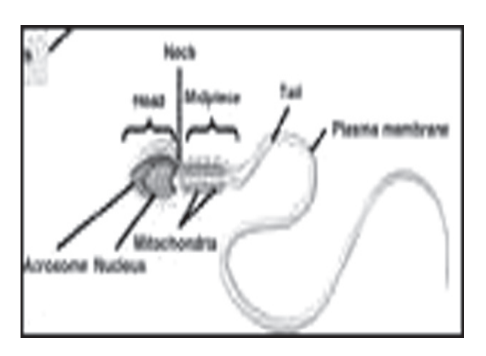
تتمايــز الخلايــا المنشئــة الأوليــة primoradial cells الجنينية إلى منسليات النطــاف المنويــة Spermatogonia المعروفــة باســم الخلايــا الجذعية (٢N Stem cells) التــي تتكاثــر بالانقســام المتساوي وتعطــي أعداداً كبيرة من الخلايا الجذعية (أمهات الأعراس).

تتمايــز المنسليــات المنويــة (٢N) إلى خلايا النطــاف الأولية spermatocytes في مرحلــة البلــوغ وتدخــل في الانقســام المنصــف الأول وعنــد اكتماله تظهر خلايا النطــاف الثانويــة (١N) secondary spermatocytes التــي تدخــل الانقسام المنصــف الثــاني وتعطي المنويــات المبكرة early spermatocytes وبتمايــز هــذه المنويات وبتغذيتها بخلايا سرتولي sertoli تتشــكل المنويــات بطاقم واحــد (N=٢٣) مكونةً النطاف الناضجة المتحركة (شكل٩)

٤) النطفة

تتــلاءم بنية خلية النطفــة مع وظيفتها وتحتوي على الرأســ head المحتوي على نــواة أُحادية (طاقــم صبغــي= ٢٣) ويعلو الرأســ جسيم خاص هــو الجسيم الطرفي acrosome الذي يحتوي أنزيمات تساعد رأس النطفة على اختراق البيضة، ويقع وراء الرأس (في العنق) القطعة المتوسطة المحتوية

على المتقــدرات Mitochondria لتقديم الطاقــة (ATP) لحركــة الذيــل المعروفة باسم السوط Flagellum (شكل٩).



الشكل ٩: النطفة البشريــة وأقسامها من الجسيم الطــرفي والرأس والعنق والقطعــة المتوسطة الغنية بالمتقدرات

٥) التغيرات الوراثيــة في الأبنــاء (الذرية) وتكوّن الشخصية الفريدة

يعتبر سلــوك الصبغيات خلال الانقسام المنصف وخلال الإخصاب في النوع البشري الذي يتكاثــر جنسيّاً هو المسؤول عن ظهور معظم التغيرات الوراثية في الأبناء (الذرية) وتسهم في هــذه التغيرات أربــع آلياتٍ هي التوزع المستقــل للصبغيــات (قانون مندل الثــاني) والعبــور والإخصــاب العشوائــي والطفرات الذاتية.

١- التوزع المستقل للصبغيات

يولد هــذا التــوزع التغــيرات الوراثية بسبب التوضع العشوائــي للأشفاع الصنوة للصبغيات المتزاوجــة في الطور الاستوائي من الانقسام المنصــف الأول بحيث تتوضع هذه الأشفاع على الصفيحة الاستوائية يكون فيها صبغي الأب أو صبغي الأم متوجهاً إلى أحد القطبين باحتمال يعادل النصف ويكون توضع كل شفــعٍ مستقلاً عن توضع الأشفاع الصبغية الأخرى وبذلك يكون عدد التوليفات (التراكيب) Combinations المحتملة من الصبغيات الأبوية والصبغيات الأمومية في أعراس Gametes الفــرد الواحد معطىً بالصيغة (٢)[٢٣] وهو حــوالي ثمانية ملايين توليفة محتملة مــن الصبغيات الموروثة من الأم أومن الأب وبذلك يعطي الإنسان في كل عروســ من أعراسه توليفة واحدة من أصل ثمانية ملايين توليفة محتملة من الصبغيات الموروثة من أمه أو من أبيه.

٢- العبور Crossing over

يعطي التوزع المستقل للصبغيات لكلٍ من أفراد البشر مجموعةً من الأعراس المختلفة بدرجــة كبيرة في توليفاتها مــن الصبغيات الموروثة مــن والديهــا (الأب والأم) ولكنها في الحقيقة تتعرض إلى عملية عبور تعطي صبغيــات مؤشبــة Recombination فيهــا جينــات (DNA) مــن كلا الأبوين (شكل٧).

يبــدأ العبور مبكــراً في الطور الطليعي

الأول عندما تتزاوج الصبغيات الصنوة على طوليهمـــا بحالة ارتخاء تكون فيها الجينات (الأليلات) المتوضعة على إحدى الصنويات متطابقـــةً مع الجينات المقابلـــة من الصنو الآخر بشكل تسلسلـــي ودقيق، مما يتضمن تبـــادلاً وتقايضـــاً متساويـــاً مـــن الدنا بين الكروماتيدين غير الأخوين لكل شفع صبغي صنوي معطياً جينـــات موروثة من الوالدين في صبغي واحد (شكل٧) ولهذا يعتبر العبور مصـــدراً هامـــاً للتغير الوراثـــي في دورات الحياة الجنسية (شكل٦).

٣- الإخصاب العشوائي Random fertilization

يضيـــف الإخصـــاب العشوائـــي تغيراً جديداً إلى التغيرات الوراثية السابقة، ففي الـــزواج البشري تأتي كل عروســـ ذكرية أو عروس أنثويـــة بتوليفة واحـــدة من ثمانية ملايين توليفة صبغية ممكنة لإعطاء بيضة مخصبة واحدة (لاقحة zygote) باحتمال (٢)^{٢٣} × (٢)^{٢٣} وهـــو احتمال واحد من أصل ٦٤ تريليـــون (ألف مليار) مـــن الاحتمالات الممكنـــة الفلكية، لهذا لا نعجب عندما نرى أن الأخـــوة والأخـــوات وحتى الآبـــاء تكون مختلفة بسبب هذه الاحتمالات.

٤- الطفرات الذاتية القابلة للحياة

تحـــدث تغيـــيرات ذاتيـــة للمعلومـــات الوراثيـــة بسبب تبدل الإشارات الداخلية أو الخارجيـــة التي تحدث إفرادياً في الجينات وفي الاستقلابـــات الخلوية مما يـــؤدي إلى ظهور طفرات نوعية مختلفة.

٥- النتيجة

يمكننا القـــول إن الإنسان هو شخصية فريـــدة unique لا تتكرر إطلاقاً ولهذا لا نجد إنساناً يماثل إنساناً آخر (ما عدا التوائم الحقيقية) ولا بصمـــة دنا تماثل بصمة دنا أخـــرى حتى ولا بصمة إبهـــام تماثل بصمة إبهام أخـــرى لأن الإنسان كائن مستقل بكل مـــا يملك من سمـــات وخصائص بيولوجية فريدة نوعيـــاً في الجماعة التي يعيش فيها ضمن النوع البشري.

المراجع

1- Biology – N. A. Campbell- 2005.

2- Cell Biology (The cell cycle)- Internet- 2008.

٣- مبادئ علم الوراثة. أ.د. محي الدين عيسى- جامعة دمشق- ١٩٨٩م.





مع رباعيات الخيام في ترجمة جديدة

✽
د. محمد رضوان الداية

في شهـر نيسان ٢٠٠٩م أقيمت ندوة عن (كتـاب) جرى الاحتفال له في مدينـة دبيّ (في مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية)، ودامت الندوة يومـين، وتمَّ فيها عدد من المحاضرات والقراءات، والمناقشات المفيدة، والتي تعـدّ إضافةً حقيقية إلى الدراسات المتعلقـة بتراث عمر الخيام، الشعر منه خاصة.

والكتـاب المشـار إليه هو: «رباعيات عمر الخيـام» وفيه ترجمة جديدة أداها محمد صالح القرق، نقلها عن الفارسية (مباشرة؛ فإن بعض الترجمات

✽ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

العربية نقلت عن الإنكليزية التي كان صنعها إدوارد فيتزجرالد «الإنكليزي»)

وإذا وصفنا الكتاب وصفاً خارجياً قلنا إنه جاء في ٢٧٢ صفحة من القطع الكبير؛ جسمه الكبير هو الترجمة. وقد سبق الترجمة مقدمة للمترجم، ودراسة قصيرة عن المترجم والكتاب للدكتور يوسف بكار أستاذ النقد الأدبي بجامعة اليرموك-الأردن. ومن الطرف الآخر من الكتاب مقدمة بالإنكليزية في ١٦ صفحة كتبها البروفيسور حسين صادقي (مقيم في سويسرة) والأستاذة ابتسام زادة (مقيمة في سويسرة أيضاً).

وفي المقدمة العربية صفحتان فيهما عدد من صور وأسماء المترجمين والمهتمين برباعيات عمر الخيام من العرب والأجانب.

(١)

الكلام على رباعيات الخيام عامة كلام طويل جدّاً، وليس هذا المقصود هنا. وسأقصر الكلام على هذه الترجمة التي قدمها -مشكوراً- محمد صالح القرق، وكنت أقرأ له في بعض الصحف مقالات في موضوعات اجتماعية وثقافية تركز على المحليات أولاً.

وكان إتقانه اللغة الفارسية -كما يبدو- حافزاً له لترجمة الرباعيات مرة أخرى، على الرغم من وجود ترجمات كثيرة حاضرة في المكتبات، متوافرة في الأسواق.

لكن «الرباعيات» مغرية للبحث، ومغرية للقراءة. وكان لاختيار فقرات من الرباعيات الخيامية من ترجمة أحمد رامي وتلحينها وغنائها أثرٌ مهم في المحيط العربي في انتشار اسم الخيام في الناس، وذيوع رباعياته. وفي نشاط نظم الرباعيات في العصر الحديث بالفصيح، والدارج (مثل رباعيات صلاح جاهين الشهيرة باللهجة القاهرية).

ولو شاء المتتبع أن ينشئ كتاباً عن الرباعيات وطباعتها، وترجمتها في اللغات المختلفة لجاء ببحث موسع وكتاب مستقل، ولو شاء أن يؤرخ للدراسات الأدبية والنقدية لترجمات الرباعيات في العربية وحدها وأن يقوّمها ويذكر من آراء الباحثين فيها لجاء بكتاب خاص أيضاً.

والالتفات إلى اللغات الأخرى المختلفة يفتح الباب واسعاً، يتشكل من وراء ذلك كله مكتبة وتتسع لكرسي خاص في قسم من أقسام اللغات الشرقية.

(٢)

(الخَيّام أو بالأعجمية: الخَيّامي): أبو الفتح عمر بن إبراهيم. واسم الأسرة

مشتق في أرجح الآراء من صنعة الخِيام وبيعها، ولد في عهد السلطان طغرل مؤسس الدولة السلجوقية. وعاش مدّة شبابه في عهد (ألب أرسلان) وخدم ملكشاه وعاصر أبناءه: محمد ومحمود وبركيارق، وعاش طفولة سنجر، ومات بعد جلوسه على العرش بمدّة طويلة.



وكانت ولادة الخيام -على الأرجح- في نيسابور التي كانت من عواصم الثقافة العربية الإسلامية وسائر العلوم. ولم يؤكد الباحثون سنة مولده ولا سنة وفاته تحديداً. ولكن ولادته تدور حول ٤٤٥ هجرية ووفاته نحو سنة ٥٢٧ هجرية.

وقد أتيح للخيام السفر إلى بلاد كثيرة شرقاً وغرباً. ودخل الجزيرة العربية، وبغداد عاصمة الدولة آنذاك.

والشهرة الرئيسية لعمر الخيام هي في علوم الطبيعة والعلوم الرياضية، وفي علم الهيئة والفلك. وترأس الخيام مجموعة من العلماء بناء على طلب من السلطان السلجوقي ملكشاه، وعملت (الرَّصدَ). وقد رأى المؤرخ الإنكليزي غيبون والألماني بروكلمان أن مذهب الخيام في التقويم (الرصد) يفوق المذهب الغريغوري دقةً وإحكاماً.

وكان الخيام موصول العمل العلمي بجوانب مختلفة مما كان يعرف ب(علوم الأوائل). وقد ذكرت كتب التراجم اشتغاله بالحكمة (الفلسفة) والعلوم الرياضية والطبيعية، إضافة إلى الهيئة والفلك، وغير ذلك مما كان شائعاً آنذاك، ويكمل صورة الباحث الموسوعي. وكانت له مناظرات مع عدد من علماء زمانه مشهورة ومدونة.

ولم يكن يعجبه أن يوصف بالفلسفي

(ولهذا علاقة برباعياته كما يبدو)، كقوله في رباعية (مترجمة)

فلسفيّ أنت قال الخصم لي...
يعلمُ الديّان أن قد أخطأ
إنني عند الأسى أسعى إلى
كشف ذاتي هل تراني مخطئا؟!

ويتردد في أخبار الخيام أنه زامل في مرحلة من مراحل دراسته دارسين صار لهم -مثله- في ما بعد مكانةً وشهرة، وفيهم:

- **الكندي** الذي صار وزيراً لطغرل بك.
- **ونظام الملك**، الوزير الشهير، صاحب الفكر التربوي والمؤسسي.
- **والحسن الصباح** الذي صار زعيم الفئة المعروفة بـ(الحشاشين) وسيطر على قلعة ألموت، واخترق تاريخ زمانه بأسلوبه الرهيب في إدارة ما تحت حوزته.

ويربط كثير من الدارسين بين طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية القلقة، التي تفاوتت فيها أنماط الحياة الاجتماعية تفاوتاً شديداً، وانتشر فيها المجون ومعاقرة الشراب وانتهاب الملاذ الدنيوية وفي هذا يقول أحد الباحثين في (الخيام):(1)

«...ورأى حبّ القوم كبيرهم وصغيرهم للخمر ومجالسها، وكيف صارت الندامة (صاحبها هو: النديم) مهنة، والمؤانسة حرفة، وأحس بميل معاصريه إلى الانطلاق والمتعة...»

وكأن هذا الباحث -وهو واحد من أعداد كثيرة- يريد أن يمهّد لما في الرباعيات المتداولة. والكلام مرسلٌ يحتاج إلى مراجعة، وتحقيق وتخليص الشوائب منه، بما يقوم به بحث مستقل فإن أخبار مناظراته وصداقاته وأستذته وبحوثه تغلّب الجانب الجاد في حياته على الجانب الهازل.

ولكن حياته وتجاربه وصداقاته وحواراته ومشاهداته في الدنيا من حوله ومواقف الناس منه ومواقفه منهم، وأحوال الملك والسلطان وحال العلماء والأدباء، وأحوال العامة حيثما ذهب كل أولئك وفر له مخزوناً حيوياً في الفكر والقلب استمد منه حين نظم خواطره في الرباعيات، أو رباعياته التي تصح نسبتها إليه. وللخيام شعر باللغة العربية بقي منه شيء يدل على تمكنه من اللغة، وحسن إدارته المعاني في ألفاظ مناسبة، ونقرأ له هذه القطعة الدالة على شخصيته، وإن كانت من حيث الشاعرية نوعاً من الشعر التسجيلي:

سبقتُ العالمين إلى المعالي
بحسن خليقةٍ وعلوّ همهْ
ولاح بحكمتي نور الهدى في
ليالٍ بالضلالة مدلهمّهْ

يــريــد الحــاســـدون لـيـطـفـؤوه

ويـــأبـــى الله إلا أن يـتـمـه

وظاهــر استفــادة الخيام مــن القرآن الكريم على سبيل الاقتباس.

وإذا عددنــا أشعــاره العربيــة مؤلفــاً مستقــلاً، فإن عدد كتب الخيــام بلغ سبعة عشر كتابــاً[٢] باللغتين العربيــة والفارسية، وأكثرها في العلوم المختلفة والحكمة. يضاف إليها الرباعيات.

والــكلام في حقيقة رباعيــات الخيام، وعــدد الرباعيات التي تصــح نسبتها إليه ما يــزال مستمراً منذ الاهتمــام الأدبي به حين ترجــم فيتنرجرالد الرباعيات بأسلوبه وصيغتــه وبحسب فهمــه، وذوقه، وتطويعه النص لرؤيته الشعرية. ولهذا قال بعضهم: «والحــق أن ترجمتــه (فيتنرجرالد) ليست ترجمة بالمعنى المفهوم، بل هي مجرد استثمار للنص في خضــم الحركــة الرومانسية في الآداب الأوروبية».[٣] وقد أضيف إلى الخيام رباعيات (لا نــدري عددها تحديداً) ليست من نظمه. ولكن شهرته بالرباعيات حوّلتها إلى اسمه.[٤]

ومن هنا نفهم قيمة ما ذهب إليه المترجم الجديــد للرباعيات: محمــد صالح القرق الــذي نقلها عن الفارسيــة من دون وساطة لغة أخرى.

(٣)

قــدّم محمــد صالــح القــرق لترجمته بقصيــدة قصــيرة (ثمانية أبيــات من بحر البسيــط) عنوانها «من وحــي الرباعيات» يَحسُــن أن نبــدأ بهــا، قبــل أن ندخل إلى النصوص المترجمة.

قال:

خَــبرتَ-خــيّــامُ- دنـيـانـا بـكـل رؤىً
فَـصُـغْـتـهـا فِـكَـراً شـمّـاء كـالـقـمـمِ

ذهـبـتَ تـكـشـف عـن أسـرارهـا حجباً
حــارت عـقـولٌ بـهـا في غـابـر الأمم

هــي الحـيــاة: خـيــالاتٌ ومـضـطـربٌ
لا تـسـتـقـيـم عـلـى حــالٍ، ولم تَــدُمِ

كـم غـاص في بـحـرهـا الـلـجّـي نـابـغـة
فـهـالـه أن رأى الـدنـيـا بـلا ذممِ

هــذا بـعـيـشٍ رغـيــدٍ ظـل يـقـطـعـه
وذاك يَــذرعُــهــا بــالـهــم والألم

فـكــان رأيـــك إيـضــاحــاً ومـعـلـمـةً
وكــان قـولـك نـبـراســاً بـذي الـظـلـمِ

فـاهـنـأ بـذكـرٍ جـمـيـلٍ ظــلّ مـؤتـلـقـاً
عـبـر الـزمـان وعـبـر الـطـرسِ والـقـلـمِ

هــو الخـلـودُ خـلـودُ الـذكـر مـا طـلـعـتْ
شـمـسُ الـنـهـار عـلـى الآجــام والأكــمِ

هذا التقديم الشعري -كما ترى- بوابة دخل منها المترجمُ إلى رباعيات الخيام، التي

نعالجهــا. ويمكن مقارنة مــا في النص من ملامح بمقدمة نثريــة لأحمد رامي وضعها قبل ترجمته للرباعيات جاء فيها:

«هكذا عاش عمر: نظر يمنةً ويسرةً فإذا دول تقوم ودول تفنى، وإذا النفوس خلت من كريم العواطــف، والقلوب أقفرت من رقيق الإحساس؛ وإذا المتقربون إلى الملوك ينالون الحظوة لديهــم وهم جهــلاء، وإذا أدعياء الزهــد والصــلاح يجهــرون بالتقوى وهم أخبث الناس طويــةً. وانجلى لعينيه بطلان العالم، وبان له غرور الحياة، فقصر وقته على فئة من أصحابه سكن إليهم وارتاحت نفسه إلى مجالسهم خاليــاً بهم أمام داره في ضوء القمــر أو هائماً معهــم في نواحي نيسابور بين الحدائق الوارفــة الظلال وتخلّص من متاع الحياة الزائــل. وآثر أن يكون مذهوباً بــه في عالم الروح حتى يتصل بالخالق الذي منه وإليه كل شــيء. وظل في أوقات نشوته يرسل رباعياته يبثها أفكاره ويودعها سُخره من عيش الغرور، تقــذف به نفسه تارةً إلى اليقين فيجــأر إلى الله أن يغفر ذنبه ويستر عيبــه، وطــوراً إلى الشك فيســأل: لِمَ هبط الدنيا ولماذا الرحيل...»

لقــد استفاد محمــد صالــح القرق في منظومته عدداً من الملامح من مقدمة رامي فصاغ منها، وأخذ عنها.

وكانــت ترجمة القــرق عــن الفارسية مباشــرة -كما أشرتُ في صدر هذا البحث- وقــد جنّبه هــذا بعض هفــوات الترجمة (أخصّ البعد عن النص الأصلي) عند غيره من المترجمين.

وكان المترجم قبــل أن يصدر كتابه هذا الذي ترجم فيه مئتــي رباعية من المنسوب إلى الخيّــام ، قد نشر عــدداً منها في مجلة الشروق التي تصدر في الشارقة قبل إخراج الكتاب بأكثر من عشر سنوات.

وتعــد ترجمة محمد صالــح القرق آخر ترجمة عربية (إلى هذا التاريخ) للرباعيات، وقد أربى عــدد الترجمات على الستين بين ترجمات شعرية وأخرى نثرية، وهي الرابعة والثلاثون مــن الترجمــات الشعرية، وهي الثالثة والعشرون المنقولة عن لغة الرباعيات الأمّ.

وتعدُّ ترجمة القرق الثالثة من حيث عدد الرباعيات المترجمة، سبقه عبد الحق فاضل (٣٨١ رباعيــة) وأحمــد الصــافي النجفي (٣٥١ رباعية) وتساويها ترجمة أحمد حامد الصراف.

ومحمــد صالح القرق يجيــد الإنكليزية والفارسية والأوردية(٧) وهذه مزية في مترجم الرباعيات، وهي تعينه في الترجمة من جهة وفي المقارنــة بما صنع غــيره من المترجمين ابتداءً من الإنجليزي فيتنجرالد.

وأجاب د.يوسف بــكار في تقديمه على

رباعيات الخيام من ترجمة القرق عن الأسس التي اختار بموجبها الرباعيات بإيجاز فقد اختار المترجم «رباعيات ترجمته اختياراً ينم عن فكـره وجوانب من فهمه للحياة والكون والخَلق. إنما تركز -في الأكثر- على حقيقة الحياة ورحلة الإنسان فيها مما يدعو إلى اغتنام لحظة العمر دون نسيان الدار الآخرة، وهو ما يؤمن به الشاعر ويعمل له بوعي وحكمة، وما يتردد في جنبات كثير من أشعاره هو نفسه»(٨)

فالكتاب إذاً هو رباعيات مختارة، حدد اختيارها ذوق المترجم، وآراؤه الشخصية، وأسلوب فهمه للحياة والكون والخلق.. ورؤيته في حقيقة الحياة بين الأخذ بنصيب من الدنيا ونصيب آخر من حصة الآخرة.

ورباعيات الخيام التي ترجمها القرق المئتان كانت أساس كتابه الذي عنون له بـ«رباعيات عمر الخيام» وكتب تحت العنوان: «ترجمها نظماً عن الفارسية محمد صالح القرق».

(٤)

القالب الشعري الذي نظم الخيام عليه رباعياته هو النظام المعروف بالرباعي أو الرباعية. وهو نمط كثر في الشعر المنظوم بالفارسية حتى عُرف بالرباعية الفارسية.

ولكن محمد صالح القرق لم يلتزم هذا في شعره المترجم المنظوم من هذه الرباعيات؛ «لقد تخلى المترجم عن قالب الرباعية الفارسية: (أربعة شطور): بضروبها الثلاثة المعروفة (التام والتام المردوف والأعرج) وامتطى قالب المربعة: أربعة أبيات. ولم يلتزم لا ببحر الرباعية الفارسية (على إيقاع عبارة: لا حول ولا قوة إلا بالله) ولا ببحر الدوبيت العربي القديم، بل حذا حذو نفر من المترجمين بعدم نظم الترجمة في بحر واحد بعينه» وعقب الدكتور بكار وهو يسوّغ للمترجم هذا التنويع والتلوين والإطالة والتقصير واختلاف الأوزان في ترجمة القرق، وقال: «هذا من حق الشاعر المترجم في عدم التقيد بالقالب المترجم عنه كي لاتحول دون انطلاقته الإبداعية الحرة».

فالمترجم -إذن- لم يلتزم وزناً واحداً في ترجمته. وكانت الرباعية الواحدة تجيء على وزن، وتجيء الثانية على بحر آخر، وهكذا.

ورتب المترجم الرباعيات على حروف الهجاء. (ألف، باء، تاء، ثاء،..إلخ) فهو حين ترجم ترك لنفسه الحرية في اختيار الأوزان والقوافي. فلما أراد ترتيب الرباعيات رتبها بحسب تسلسل الحروف الهجائية من ترجمته هو للرباعيات المختارة. ونقرأ له

«رباعية» على حرف (الثاء)، ولم يورد غيرها على هذا الحرف. قال:

ولو كنت المخيّر في قدومي
إلى ذي الدار لم أقدم للبثِ
ولو خيرت في الإقلاع عنها
لما غادرتها أبداً لبعثِ
وخيراً كان لي من ذا وهذا
بأنْ لم آت للدنيا كحرثِ
سعيداً كنتُ لو لم آتِ يوماً
ولم أرحل ولم ألبثْ لمكثِ!

فهي إذاً قطعة شعرية، في أربعة أبيات (كل بيت من شطرين على المألوف) وهي من بحر الوافر.

-ونقرأ في أوّل حرف الحاء قطعة من أربعة أبيات على بحر الرمّل، وفيها:

هذه الأزهار ناغتها الصّبا
فغدت تيجانها ذات انفتاحْ
طرب البلبل من منظرها
فغدا جذلان يشدو في انشراحْ
صاحِ! لا تجلس بساعات الهنا
ما عدا في ظل أزهار البطاحْ
فالأزاهير نمت من تربةٍ
وإلى الترب ستذروها الرياحْ

والمترجم وعَد بالترجمة الدقيقة، وترك لنفسه حرية اختيار الوزن الشعري الذي يناسبه والقافية التي يختارها؛ وقال د.بكار في تقديم الرباعيات، موضحاً ذلك، وكأنه ينوب عن المترجم في تفصيل ما صنع:

«وليس من شكّ في أن للقالب الذي آثره المترجم، ولعدم التزامه بوزن واحد في كل مربّعة دوراً في شاعريته، وشعرية ترجمته حتى يكاد الذهن ينصرف إلى أنها من شعره هو وليست ترجمة. فالمربعة الآتية (ورقمها ١٦٠ في الكتاب) تجمع بين المحافظة على الأصل والشعرية الانسيابية:

لعفوك ربّ رفعت اليدين
فأنت المغيثُ وأنت المُعينْ
لئن طوّحت بي ذنوبي الجسامُ
ومرَّ الزمان وجفَّ المَعينْ
وأججت النار في مُهجتي
على ما جنيت طوال السنين
فلست قَنوطاً وكلي رجا
إذا جئت في الحشر صفر اليدين

(لاحظ الخلل في القافية في البيت الأخير)

وقال د. بكار: وحين نوازن بينها وبين أصلها الفارسي نعي هدف المترجم الخفيّ من إثبات الأصل الفارسي لكل رباعية وترجمتها الإنجليزية والفرنسية إذ اختار الترجمات من عدد من المترجمين الغربيين المهمّين المشهورين، فالرباعية السابقة نفسها في ترجمة أحمد رامي:

يـا مَــنْ يـحـارُ الـفـهـمُ في قـدرتـك
وتـطـلـب الـنـفـس حـمـى طـاعـتـك
أســــكــرنـي الإثــــم ولـكـنـنـي
صـحـوت بـالآمــال في رحـمـتـك

وفي ترجمة عبد الحق فاضل:

أنا لم أقنط مع العصيان والجرم العظيمْ
من رجاء الخالق الغافر والرب الرحيمْ
إن رقـدت الـيـوم سـكـران صـريـعـاً خـربـاً
فلقد يغفر كل الذنب للعظم الرميم

وضـرب المقـدم أكثر من مثـل، وأجرى المقارنة اللازمة للدلالة على التزام المترجم الترجمة الحرفية أو الموافقة للأصل الفارسي. ومما اختاره قول صالح القرق في ترجمة إحدى الرباعيات:

نحن الدمى لعبٌ واللاعب الفلك
ولا عـن الأمـر مـنـدوحٌ ومنسلكُ
تلك الحقيقة تزجى وهي ساطعة
ليست مجـازاً ولا مـالاكـه حنك
وكم لعبنا على نطع الوجود مدىً
والـكـل مـنـشـغـلٌ يـلـهـو ومـنـهـمـك
وسوف نمضي إلى دار الفناء غداً
فـواحـداً واحـداً يـصـطـادنـا شـركُ!

وقد نظمها المترجم على بحر البسيط.

(٥)

طبع هذا الكتاب (رباعيات عمر الخيام) في ترجمته الجديدة يطــرح، أو يعيد طرح عــدد مــن القضايــا المتعلقــة بالرباعيات الخيامية:

١- اختــار المترجــم عــدداً معينــاً من الرباعيات المنسوبــة إلى الخيام، وكان هذا الاختيــار وفق ذوقــه الشخصي، وترجيحه لهذا المختار المترجــم أن يكون من رباعيات الخيام الأصلية،

٢- لم يلتزم المترجم الوزن الذي اشتهرت به الرباعيات الخياميــة، أو وزناً من أوزان الرباعيات (أو الدوبيت) كما رصده الباحثون (ينظر مثلاً ديوان الدوبيت في الشعر العربي – د. كامل مصطفى الشيبي)

وتنقّل بين أوزان العروض العربي مختاراً الوزن الذي يجده ملائماً لترجمة كل واحدة من تلك الرباعيات. وهكذا يتراوح بين بحور الشعــر العربي في اختيــار شخصي ذوقي محض.

٣- قــارب المترجم (كما قــال هو وكما استظهــر د. بــكار الذي قــدّم للكتاب) بين المقاصــد والمعاني والمضامــين التي احتوت عليها الرباعيــات في لغتها الأولى، وبين ما صنعه في ترجمته. ومــن هنا كان الاعتداد

بكون الترجمة أقرب ما تكون إلى اللسان الأصلي للرباعيات.

٤- حين صاغ المترجم شعره (الذي نقل به الرباعيات من لغة إلى لغة) ترك لنفسه حق الصياغة، واختيار الأسلوب -أو الأساليب- للوصول إلى ما يريد، ولهذا قال د.بكار في التقديم إن القارئ سيجد نفسه أمام شاعرية المترجم وشخصيته أيضاً.

وهذه الترجمة تعيد طرح السؤال التقليدي الذي يقال عند النظر في كل أثر أدبي مترجم. وخصوصاً في ترجمة الشعر. حتى إن السؤال قد يكون أكثر قوةً ودقة: هل يستطيع المترجم أن يؤدي مقاصد المبدع الأصلي كما ظهر إبداعه في لغته؟ ويكون السؤال أكثر خصوصية حين يقال: أي مترجم هذا الذي يستطيع أن ينقل الشعر من لغته الأصلية إلى لغة أخرى دون درجة (أو درجات) من الجور على النص الأصلي؟ وإذا سلمت المعاني والأفكار والمقاصد فكيف يوصل المترجم إلى لغته المشاعر واللفتات والإشارات، وأموراً كثيرة تدخل في مزايا كل لغةٍ وخصوصيتها ومزاياها؟ وكيف ينقل الشاعر الجانب الموسيقي (كيف كانت خصائصه) من لغة إلى أخرى؟

(٦)

دعني -أخي القارئ- أقف معك عند نصين اخترتهما من كل من ترجمة أ.صالح القرق، وترجمة أحمد رامي. وهما نصان مختاران اتفاقاً.

قال صالح القرق في ترجمة إحدى الرباعيات (ص٧٦)

كلّ الذي الخلاق أوجد خلقه
من لذة أو راحةٍ تحيي المزاجْ
خُلق الجميع لمن تجّرد مفرداً
بحياته عزباً يُحلّق في الفجاج
أما الذي ترك العزوبة وارتضى
بعد التحرر الانقلاب إلى الزواج
فلقد جنى تعباً وبؤساً بعدما
في راحةٍ قد ذاق لذة الابتهاج

- ولم أجد لها مقابلاً في ترجمة رامي بحسب مطالعتي في الترجمتين.

- وواضح أن الكلام هنا نظم لبعض الأفكار المتعلقة بالعزوبة والزواج التي تفضل الحال الأولى على الثانية. ونظرة سريعة على النص تكفي لتصنيف هذه الترجمة في وصف الكلام الذي يخلو من سلاسة النثر وانسيابه ويخلو من طلاوة الشعر وحُسن نظمه.

- ولاحظ عبارات: تحيي المزاج، ويحلق

في الفجاج، والانقلاب إلى الزواج، وما فيها من تكلف.

- وقال رامي في الرباعية الأولى من ترجمته:

سمعت صوتاً هاتفاً في السّحر

نادى من ألحان غُفاة البشرْ

هبوا املؤوا كأس الطلى قبل أنْ

تفعم كأس العمر كف القدرْ

والقطعة متحركة متوثبة، وهي خفيفة رقيقة في القول والإنشاد، حسنة في المقاصد والمعنى، متناسقة الأجزاء، متضامّة، وكأنها جملة واحدة قاصدة.

وعلى الرغم من إيراد رامي كلمتي (الطلى) وهي الخمرة و(تفعم) بمعنى تملأ فإنهما مفهومتان -لمن لا يعرفهما- من سياق النص. وهذا ذكاء في الاختيار، وهو جزء من الحساسية الشعرية البالغة، عند أحمد رامي.

ومن الطريف أن هذا النص نفسه خضع لشيء من التغيير حين أرادت أم كلثوم أن تغني بعض الرباعيات وكانت تتورّع من إيراد بعض المفردات في كثير من أغانيها العامية والفصيحة، وصارت الرباعية بعد تعديل رامي لها هكذا:

سمعتُ صوتاً هاتفاً في السَّحرْ

نادى من الغيب غُفاة البشرْ

هبّوا املؤوا كأس المنى قبل أنْ

تملأ كأس العمر كف القدر

لقد تغير شيء مهمّ في الرباعية حين حذف (الطّلى) الخمرة ووضع بدلاً عنها (المنى). ولكن السامع استشف المراد من التورية بالمنى عن الخمرة.

ويبقى السؤال مطروحاً بقوة من جهة ثانية:

حين يترجم شاعر نصاً شعرياً فما الذي يطلبه قارئ الترجمة منه؟ وما الحد المباح له تجاوزه حين يضطر إلى التجاوز؟ وهل يستطيع المترجم الشاعر وهو ينقل شعراً من لغة أجنبية إلى لغته أن يحجب نفسه وروحه وشاعريته؟

(٧)

وهذا مثال آخر على الترجمة من رباعية (هي في الحقيقة أربعة أبيات) في كتاب الأستاذ صالح القرق، ورباعيتين تقاربانها في المعنى والمقصد لأحمد رامي، والمقارنة هنا تقوم على صناعة الصياغة وروح الكلام، والأثر الشعري الذي يتلقاه القارئ بينهما.

- في الرباعية (٦٧) في ترجمة أ.القرق (ص٦١)

طفتُ بالخزّاف أمسي الأوّلِ

ورداءُ الشمس يجري للمغيبْ

كان في أعماله مُسترسلاً
يعجن الطين ويصليه اللهيب
ولئن فات سوائي أن يرى
ما رأت عيني من الأمر العجيبْ
فلقد أبصرتُ في كل يدٍ
عجنت ترب أبي، يا للنحيب!

ونقرأ في ترجمة أحمد رامي للرباعيات ص٤٢١

وكم توالي الليلُ بعد النهارْ
وطال بالأنجم هذا المدارْ
فامش الهوينى إن هذا الثرى
من أعينٍ ساحرةِ الاحورارْ

وعلى الصفحة ٤٣٦ من ترجمة رامي:

رأيتُ خزّافاً رحاهُ تدورْ
يجدّ في صوغ دنان الخمورْ
كأنه يخلط من طينها
جمجمة الشاه بساق الفقيرْ

فبين سلاسة ترجمة رامي (أو شعره) وانسيابية الكلام وتلاؤم الألفاظ، وتناغمها، وترتيب العبارات بحيث توصل القارئ إلى المعنى وإلى ما تحرك به النفس من جهة وبين ما يظهر في عبارة أ.القرق من المباشرة واستجلاب المفردة، وضياع «روح الكلام» فرقٌ يلاحظه القارئ ويحس به أيضاً. (انظر إلى الاستعارة التي جعلت رداء الشمس يجري، وعبارة يُصليه اللهيب، وعدوله عن سواي إلى سوائي، وانظر استجلاب «يا للنحيب» التي لم توصل إلى القارئ حرارة ختام الرباعية.

وهذه رباعية ترجمها أ.صالح القرق هكذا:

أتيتُ الوجودَ بمحض اضطرار
وعشت اضطراباً بغير اختياري
وما ازددت بعد صراع الحياة
سوى حيرة حيث زاد اختياري
وها أنا ذا راحلٌ مكرهاً
ولم أدر ما صار، لست بدار!
بمقصود خلقي وقصد مجيئي
إلى الكون ثم إلى مَ بِداري؟

وقد لجأ المترجم – من جهة البلاغة – إلى ما يُعرف بجناس القوافي. ومعنى «بداري» في آخر بيت أي: مبادرتي وهو يريد: أين المآل أو المصير؟

والترجمة عادية وهي تقترب من النثر.

وترجمها أحمد رامي على هذا الوجه:

لبستُ ثوب العيش لم أستشرْ
وحرْتُ فيه بين شتّى الفِكَرْ
ورحتُ أنضو الثوب عني ولم
أدرك لماذا جئت! أين المفر؟!

ويلاحظ القارئ سريان الشاعرية في نص أحمد رامي، وحركة الفكرة من بدء ولادة الإنسان إلى خروجه من الدنيا بين علامات

الاستفهام وعبارات التساؤل، مع ظهور قضية حيرة الإنسان في حركة الحياة، وسرّ الخلق، وموضوع البدء والنهاية. ولاحظ التناغم وحسن ترتيب مجريات الدنيا بين قطبي (لبس ثوب العيش) من جهة وبين (نضو ذلك الثوب) من جهة أخرى في لمسات بلاغية رقيقة دالة معبرة؛ ويلاحظ أيضاً هذا البناء الشعري المستوفي شروطه بين الشّكل المتقن (بملامح البساطة المطلقة) وبين الفكرة الفلسفية الحياتية في تعبير مجازي لا يفسر إدراك ما وراءه.

تُرى هل يستطيع القارئ تلخيص شاعرية أحمد رامي في هذه الرباعية من شاعرية الخيام؟

❁ ❁ ❁

على كل حال إن ترجمة أ.صالح القرق تقدم لدارس الرباعيات ترجمةً قريبةً إلى ما صنع الخيام أو مُوافقة. ويبقى أمرٌ آخر أكثر أهمية لدارس الخيام ورباعياته هو تحقيق النصوص المنسوبة إلى الخيام وتخليص الأصيل من الدخيل.

والمجال متاح للباحثين في الرباعيات ذات الجوانب الكثيرة والقابلة للنماء والتجديد.

الحواشي والإحالات

١- تنظر مقدمة أحمد رامي لترجمته للرباعيات ضمن ديوانه (٣٨٢-٤١٠) نشر دار العودة -بيروت-بلا تاريخ.

٢- عمر الخيام عصراً وبيئة ونتاجاً - د.أحمد كمال الدين حلمي - دار العروبة، الكويت -ط١- ١٤١٤هـ ١٩٩٤م: ٩٣.

٣- السابق: ١٣٣.

٤- عمر الخيام: ١٤٨.

٥- اختلف عدد رباعيات الخيام بين ٣٥، و٧٦، و١٥٨، و٦٠٦، و٧٨٠، و٨٤٥، و١٢٠٠ رباعية!!
وينبغي أن يجري تحقيق شامل للرباعيات ممن يتقن العربية والفارسية (القديمة خاصة) لتوثيق صحة نسبة الرباعيات إلى الخيام أو إلى أصحابها الحقيقيين.

٦- ديوان رامي - مقدمة الرباعيات: ٣٩٨-٣٩٩.

٧- انظر مقدمة د.يوسف بكار على ترجمة القرق هذه ص:٢٤-٢٥.

٨- المرجع السابق: ٢٥.

٩- رباعيات عمر الخيام: ٢١.

١٠- ديوان أحمد رامي: ٤١٨.





التراث العربي في كتابات صدقي إسماعيل

د. ملكة أبيض [*]

يُعَـدُّ القرن العشرون فترة حافلة في التاريخ الحديث للوطن العربي. فقد حفـل بأحداث جمـة -أليمة وبهيجة- وأفرز أفـكاراً وحركات على مختلف الأصعدة، وبرزت فيه شخصيـات تركت أثراً بيّناً ما يزال فاعلاً حتى وقتنا الحاضـر. ولعلَّ من أهم هذه الشخصيات، في الخمسينيات والستينيات منه علـى الأخص، صدقي إسماعيـل (١٩٢٤-١٩٢٧م) الـذي جمع بين الفكر والأدب، والتخصص التربوي. النفسي. الفلسفي، والنضال السياسي، بشكل يندر تحقيقه في شخص واحد.

[*] أديبة وأستاذة جامعية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

إن مـن ينظر في المجلـدات الستة التي جمعت له بعـد وفاته يرى فيهـا أولاً بعداً قومياً يتناول الماضـي والحاضر على شكل مقـالات ودراسـات وكتب عميقـة أصيلة، كما يرى فيهـا بعداً إنسانياً يتمثل في قراءة نصوص أدبيـة وفكرية لشخصيات أسهمت في تكويـن اتجاهـات عالمية حديثـة. وإلى جانب هذا وذاك تبرز إبداعاته الشخصية، وهي شعر وقصة ورواية ومسرحية.. بحيث لا يمكن للقارئ إلا أن يدهش ويتساءل: هل هذه الأعمال الشديدة التنوع هي نتاج شخص واحـد، وفي مدى لا يزيد عـن عقدين من الزمن؟

سأتوقف في هذه الدراسة السريعة عند جانب من أعمـال صدقـي إسماعيل وهو كتاباته حـول التراث العربـي، فالتراث أو الماضي، عنصر أساسـي في الفكر القومي، ومنـه فكر كاتبنـا. وهو الذي صـان الأمة وربط فيما بينهـا حتى اليوم. إنه يتمثل في جانبـين: الماضي القائم في ذاكـرة الشعب والذي يوجه سلوكه بصورة عفوية، والعناصر التي يصطفيها كل جيل من تجارب السابقين ليعلِّمهـا إلى الأجيـال الناشئـة بغية صنع المستقبل الذي يطمح إليه. وصدقي يستعيد من الماضـي ما يـرى فيه دروسـاً تساعد الأجيال الجديدة على صنع هذا المستقبل.

في كتابه «العـرب وتجربة المأساة» يوزع صدقي إسماعيل التاريخ العربي إلى مراحل ثلاث، هي:

أولاً: الجاهليـة، حيـث الإنسان خاضع للقـدر، ولكن من دون خـوف أو قلق. وهو يجابهه ويتحـداه بالبطولة والفعل الخارق، تحت راية القبيلة أو خارجها.

ثانيـاً: الإسـلام، حيـث تتبـدل الرؤية ويتسع الأفـق. فالقدر ما قدَّر الله، ومصير البشر الخلود في الحيـاة الآخرة، في الجنة أو في السعير بحسب ما اقترفت أيمانهم في الحياة الدنيـا. على أن العربي كان يتحرك في القـرون الإسلامية الأولى بِحُرِيَّة، تحمله الفتوحـات إلى أقاصـي الأرضـ، ويستقر حيثما يطيب له المقام.

ثالثـاً: الانحطـاط، فمنذ القرن الثالث للهجرة بدأت صيحات التذمر والشكوى، بل والإدانة الكاملة للوضع القائم، تتوالى.

علـى أن صدقي إسماعيـل اقتصر في اختياراته للشخصيـات والأحداث التراثية علـى المرحلتـين الأولى والثالثـة، ذلك أن معظم كتاباته «انطلقت من مفهوم الحرية أو التحرر، وأيضاً من مفهومين أساسيين آخرين هما: الحب والثورة، وهما الدافعان المباشر وغير المباشر لمأساوية الوجود الإنساني. لقد كان يشعر بشعور حار أن الحياة تلهو بالبشر



كما تتلاعب الطبيعة بالأشياء»[1] لذلك كان التحدي وكانت المخاطرة يعبران عن البطولة التي تجعل الإنسان جديراً بهذا الاسم.

كان العرب الجاهليون - في رأي صدقي - يفهمون الحرية فهماً بسيطاً مفاده أن يعيش الإنسان حسب طبيعته وفطرته. وحين كان المرء يتعرض لغزو أو اعتداء يسلبه ماله وكرامته، أو يقع تحت استبداد سلطان جائر يحول بينه وبين حريته، وحين تثقل عليه قيود البيئة أو التقاليد، كان هذا الشخص إما أن يتمرد ويبدع أعرافاً جديدة، كما فعل طرفة، وعنترة، وآخرون، وإما أن يستسلم. وهؤلاء يكونون إما جبناء أو أوغاداً غير قادرين على التخلي عن ملذاتهم أو منافعهم، والعرب الأباة لا يقبلون لأنفسهم هذا الموقف. فحين اتهم امرؤ القيس بالجبن والتردد عن الثأر حرصاً على ملذاته، ترك وراءه كل شيء وذهب بحثاً عن الدعم حتى مات على النحو المعروف. وحين هُدِّد طرفة بالموت وهو فتى أقدم عليه بنفسه من دون خوف أو تردد.

هذا الشعور بالقلق أو المأساة، يرى فيه الكثيرون حافزاً للعمل والفكر، وباعثاً على نشوء الحضارة. ففي كل يقظة حضارية نوع من الرفض يقف به الأفراد (أو الجماعات) أمام ما يفرضه الواقع من مظاهر عدم الارتياح التي تثير القلق على المصير الإنساني. إن وعي المأساة يطرح

مشكلة الحرية في أوسع معانيها -على حد قول صدقي إسماعيل- ذلك أن الإنسان يشهد خللاً أو حتى انهياراً في عالمه، ويجد نفسه مرغماً على اختيار السلوك العملي الذي يلبي حاجته؛ وفي هذا الاختيار تكمن الإرادة الحرة.

هذا التفسير يطبع النظرة المعاصرة على نحو يلفت النظر. ففي معظم المذاهب الاجتماعية تبدو الحضارة رداً على واقع ما، يقوم فيها الإنسان بدور الثائر المتمرد الذي يصمم على التدخل في صنع مصيره. ومن ثمَّ فإن «المأساة» و«الثورة» تقترنان أبداً في تجربة الإنسان المعاصر أيضاً.

في الجاهلية -كما نعرف- نماذج تمردت كلّياً على مجتمعها وعاشت خارجه، وهم الذين يلقبون بالصعاليك، ومنهم الشاعر الشنفرى الذي يقول:

أقيموا بني أُمّي صدورَ مَطِيِّكم

فإني إلى قومٍ سواكُمْ لأميلُ

ولكن صدقي لا يطرحهم نماذج تحتذى في التحرر، لأن مجرد ابتعادهم عن جماعتهم يفقدهم التأثير فيها. وبدلاً من ذلك يختار أشخاصاً مثل طرفة بن العبد، أو المرقّش الأكبر، أو البرّاق. فتجارب هؤلاء هزّت جماعتها في زمنها، وما زالت تهزنا في زمننا هذا بوصفها أمثلة للقيم العربية الأصيلة.

فطرفة الذي يقول:

ألا أيُهذا الزاجري أحضُرْ الوغى

وأن أشهدَ اللّذاتِ، هل أنتَ مُخلدي؟

فإن كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيَّتي

فذَرْني أُبادِرْها بما ملكَتْ يدي

كريمٌ يُروّي نفسَه في حياته

ستعلمُ إن متنَا غداً، أيُنا الصَّدي!

هذا الفتى الشاعر الذي عاش حياته وفق مبادئه، تحدَّى جبروت عمرو بن هند ملك الحيرة وهجاه لاستبداده وشراسته، فسلّمه عمرو بن هند رسالة إلى حاكم البحرين فيها أمر بقتله. وعندما نصحه خاله «المتلمِّس»، وهو يحمل مثله صحيفة موته، أن ينجو بالفرار، رفض لأنه لم يقبل الهرب خوفاً من الموت. وحين أخبره حاكم البحرين أن في الرسالة أمراً بقتله، قال طرفة في سخرية: افعل ما أُمِرتَ به. لقد أشفق الحاكم على مصير هذا الشاعر الشاب، ومَهَّدَ له سبيلَ الفرار، ولكن طرفة رفض ذلك ليُعلم ابن هند أن طرفة أقوى منه مهما أوتي من سلطان. ووضع طرفة في السجن، وغضب قومه، وحاولوا إنقاذه، ولكنه ردَّ كل محاولة، ذلك أن أمامه فرصة ثمينة لأن يموت بملء حريته، ويبقى أبداً

سيد مصيره[٢]. وأمـا المرقِّش الأكبر، عوف بـن سعد بن مالـك، فقد أحـب ابنة عمه أسمـاء حب المجنون لليلى. ويعيِّره عمه بأنه غير أهل لحمايتهـا، فيهجر الحيّ ليجازف بحياته في أقسى الحروب وأصعب الغزوات حتى يشتهر بالبطولة كمـا اشتهر بالشعر. وحين يعـود بعد سنوات مـن الكفاح، يجد أن مـا حَـلَّ بقبيلته بكر من بؤسـ، بعد أن هزمتها عدوتهـا التقليدية تَغْلِـب وأذلّتها، وكذلك غيابـه الطويل حتى ظنوا أنه مات، أجبر عمه على تزويج ابنته من أحد فرسان آل مراد القادرين على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بكر. وفي مسيرة عودته إلى أسماء تتوالى المصائـب والمصاعب على عوف: العواصف والأمطار، والظلمة وغيـاب معالم الطريق، وعجز رفاقه عن اللحاق به، ثم موت جواده، والبرق الذي يخطـف بصره ويجعله عاجزاً عن التمييز بين الليـل والنهار. وحين يلجأ إلى مغـارة لينام، إذا بأسـد يهشم أنفه وكلَّ وجهه. وفي الدقيقة الأخيرة تدركه الحبيبة وهو يلفظ أنفاسه فيراها بما يشبه المعجزة ويموت، وتعيش هي لتخلِّد ذكره[٣].

وهناك مثال آخر من الجاهلية يفرد له صدقي مقـالاً خاصاً هو البرّاق بن روحان، من قبيلة ربيعة اليمنية. وكان ارتباط الأفراد بقبيلتهم تعبيراً عـن شعورهم القومي، لأن القبيلة عندهم كانت صورة مصغرة للأمة.

نشـأ البرّاق شاعراً، وقضـى أيام فتوته راعيـاً متغنياً بمفاخر قومـه، متغزلاً بابنة عم له كان يحبهـا اسمها ليلى. وكان أبوها لكيز بـن أسد صديقاً حميمـاً لملك اليمن، الذي خطـب ليلى لابنـه، فأجابه لكيز إلى طلبه. آنئـذ يقرر البرّاق وعشيرته الانشقاق عن ربيعة والرحيل إلى البحرين حيث يعيش أخوالـه، مما أضعف القبيلـة، وأثار أطماع القبائـل الأخـرى فيها، وحربهـا ضدها. وهكذا اضطر لكيز لتأجيل زواج ابنته بسبب الحـروب التي تعانيها القبيلة، وذهب بعض رجال ربيعة إلى البحرين طالبين إلى البرّاق الرجوع إلى قومه ومساعدتهم، فيقول:

لعمري لستُ أتـركُ آل قومي
وأرحـلُ عن فِنـائي أو أسـيرُ
لهم ذُلِّي إذا ما كنتُ فيهم
على رغم العدى شرفٌ خطيرُ
أأنـزلُ بينهم إن كـان يُسرٌ
وأرحـلُ إنْ ألَمَّ بهم عَسيرُ؟
وأتـرُكُ معشري وهُـمُ أناسٌ
لهم طولى على الدنيا تدورُ

ويجهـز عشيرتـه منطلقاً بهـا لنجدة ربيعة.

في تلـك الأثنـاء يأتي رسـولٌ من ملك

الفرس إلى لكيز يطلب منه ليلى للزواج من أحد أبنائه على أن يجعلها ملكة في بلاد العجم. فيرفض لكيز ذلك ويقول للرسول إنها لاتتزوج إلا من شعبها. فيغضب كسرى ويرسل جماعة تخطف ليلى وتجعلها تعاني عذاباً أليماً. ذلك أنهم يحاولون إرغامها على الزواج من ابن كسرى فترفض بإباء وتُعنِّفهم. وترسل للبرّاق قصيدتها المشهورة:

ليتَ للبرّاق عيناً فترى
ما أقاسي من بلاءٍ وعنا
عُذِّبَتْ أختُكُمُ، يا ويلَكُمْ
بعذابِ النكرِ صبحاً ومسا
يكذِبُ الأعجمُ ما يقربني
ومعي بَعضُ حساسات الحيا
قَيِّدوني، غلِّلوني، وافعلوا
كلَّ ما شئتم جميعاً من بلا.. إلخ

وانتشرت هذه الصرخة عند العرب، فاجتمع عدد من القبائل حول ربيعة، ورأوا أن من العار أن تستصرخهم فتاة فلا ينقذونها. وتجمع للبرّاق جيش كبير، فاقتحم بقومه جيوش الفرس وشنّ حرباً طويلة، توحَّدت فيها كلمة قبائل اليمن، وأنزلت بجيوش الفرس هزائم منكرة.

وعاد البرّاق بليلى، فزوَّجه لكيز بها بعدما رآه منه. واشتهرت قصة أسرها وتمردها على العبودية، فردد ذكرها الشعراء، وضربت فيها الأمثال(٤).

رأينا أن النموذج الإنساني للجاهلية العربية يتمثل في الفارس الشاعر، المحارب الشديد المراس الذي يحسن الدفاع عن قبيلته والتغني بفضائلها وأمجادها، والمحبّ القادر على حماية حبيبته، والتضحية في سبيلها حتى آخر رمق من حياته.

وعندما بدأت الدعوة الإسلامية أصبح المؤمن المجاهد رمزاً للبطولة؛ وكان الرسول أنموذجاً للمثل الأعلى الذي يتوجه إليه المؤمنون. والمجاهد هو المحارب الجريء الذي يستهين بكل شيء لإعلاء شأن الإسلام، وهو يمثِّل، على قول صدقي إسماعيل، الإرادة التي خاض بها عقبة بن نافع مياه بحر الظلمات، وأنشئت بها أرض الوطن العربي خلال التاريخ.

غير أن الشروط الجديدة للحياة العربية بعد الإسلام وضعت العرب أمام مصير جديد هو بناء الدولة والمحافظة عليها. وأضيفت إلى صورة المثل الأعلى صفة جديدة هي القدرة على الحكم القوي. وتوجهت الأنظار إلى الخليفة العادل الذي يتصف بالقوة والإخلاص للعقيدة في آن واحد.

وحين تسلل الضعف والفساد والتمزق إلى السلطة، اتسعت الهوَّة بينها وبين الشعب،

وظهـرت صور جديدة للمثـل الأعلى تتفق والشروط الاجتماعيـة الجديدة. لقد ظهر نموذج الإنسان الحكيم الذي يحسن الابتعاد عـن مظاهـر الحيـاة، ويستسلـم للقدر.. كمـا ظهر نموذج المتصـوِّف الذي يقف من الحياة والواقع موقفـاً سلبياً. وعلى الرغم مـن أن التصوف تجربـة إنسانية غنية عبّر عنها الحلاج مثـلاً ومحي الدين بن العربي في كثـير من الإيمان والقوة، فإن تسربها إلى خيال الجماهير كصـورة للأسلوب البطولي في الحياة يُعدُّ بداية الانهيار والانهزام أمام الظروف(٥). وفي هذا الانهيار تلوح الدعائم القائمة التي يستند إليها القدر في اقتناص المصائـر: الحـظ، والخرافـة، والمعجزة، والغيب. وهي جميعاً مظاهر للتعبير الفاجع عن الفرار من المأساة.

فالحـظ مثلاً، هو صورة لعبث الصدفة ولا جدوى فيـه لأي موقف جدي يمكن أن يستنجد فيه الإنسان بالالتزام. بل إن العبث وحده هو السبيل الوحيد للرد عليه.

وفي الخرافة يتجلى موقف مماثل. إنها الوهم يلوذ به الإنسان وهو في أقسى حالات اليأس والانكسار أمام ضراوة الواقع. وذلك ما يميز بينها وبين الأسطورة. إن الأسطورة تحمـل طابع «الخارق» الجديـر بالإعجاب والخلود، كما يبدو في الأساطير التي نسجت حول بطولـة «ربيعة بن المكـدّم» أو «سيف بن ذي يـزن» أو كرم «حـاتم الطائي». أما الخرافة فهي التستر بالوهم والخيال لتبرير العجـز والجبن أمام ما يقتضيه الفاجع من تصميم. وهو المعنى الذي تنطوي عليه قصص «ألف ليلة وليلة» بمجموعها. فشهرزاد هي الرمـز الأبدي للفرار مـن كل فجوة حزينة يضعها الواقع أمام الإنسان.

والأمـر نفسـه يبدو جليـاً في المعجزة: إنهـا المستحيل الـذي يفاجـئ الناس بما لايستطيعون ولا يفهمون، ومن ثَمَّ فهو يعفيهم مـن كل التزام تجاه المصير. وليس غريباً أن نجد فيلسوفاً مثل ابـن رشد يرى الاعتقاد بالمعجزات من مقتضيـات الإيمان بالنسبة «للعوام» الذين هـم بطبيعتهم عاجزون عن وعي الحقيقة، وعن إدراك المسلمات الدينية بالمنطق السليم(٦).

يختار صدقي إسماعيل صوراً بليغة تعرض مأساة الانحطـاط في تلك الحقبة، نبدؤها بتجربـة ابن دريد الذي ولد في البصرة سنة ٢٢٣هـ وتوفي في بغداد سنة ٣٢١هـ.

هـذا الشاعر الأديـب اللغوي اشتهر في تاريخ الأدب العربـي بقصيدة طويلة وضع فيها خلاصـة تجربته في الحيـاة، وجماع ثقافتـه اللغوية، هـي المقصـورة المعروفة باسمه.

وفي دراسته المطولة عنها، يقول صدقي: حين ولد ابن دريد كان تاريخ العرب السياسي في بداية الانحدار. وكان الخليفة المعتصم آخر يد قوية تمسك بزمام الحكم العربي. فقد ولي الخلافة بعده، خلال حياة ابن دريد، عشرة خلفاء خُلعوا أو قُتلوا. وأصبحت الدولة لعبة خطرة بيد جيش دخيل يحكم عن طريق كبار الضباط الذين لا يحملون من قضية الدولة إلا السيطرة والدسيسة وتحقيق المطامح الشخصية. وكانت تلك صورة للاضطراب الذي تفيض به حياة الناس أيضاً. وابن دريد يعكسها في مقصورته بروح حزينة خائبة، يقول فيها:

كل شيء زائف ملوّث، والناس لم يعودوا قادرين على فعل شيء نبيل، فقد ماتت لديهم نزعة المجد، وانطوت إلى الأبد. إلا أنهم يعيشون ويمضون في هذا الركب المزدحم بالمفاسد لأنهم مرغمون على الاستمرار. فقد أصبح طلب الانتفاع المحور الأصيل في حياة الناس، وهذا ما جعل النفاق يسيطر عليهم، يقول في ذلك:

مَنْ ظَلَمَ الناسَ تحامَوْا ظلمَه
وعزَّ عنهم جانباه واحتمى
عبيدُ ذي المالِ وإنْ لم يطمعوا
من غمره في جرعة تشفي الصدا
وهُمْ لِمَنْ أمْلَقَ أعداءُ وإن
شاركَهُمْ فيما أفادَ وحَوى

ولكن هذا لا يمنع الأفراد المتميزين من العودة إلى نفوسهم، وعندئذ تبدو لهم هذه الهوة السحيقة بين «الإنسان الواقعي» وبين «الإنسان الحق» كصبوة إلى الحياة الجميلة، تختار مصيرها في حرية. هذه الصبوة تعيش في نفوس القلائل، أفراد يملكون القدرة على التمرد والانفصال عن القطيع. وقد لا يستطيع هؤلاء الأفراد شيئاً، ولكنهم يلبثون نماذج يحاول الآخرون أن يقتدوا بها.

وفيما يتعلق بنهاية الإنسان تقول المقصورة إن الزمن ينتهب الجسد أولاً؛ ونحن لا نستطيع شيئاً من دون فتوة الجسد. فمنذ أن يبدأ الجسد بالذبول تضمحل فينا القدرة على الاستمرار في الرغبات الحارة، وتخمد كل صبوة حقة، وتذوي مسرات الحياة. ونحن مع ذلك نحتمل الألم في صبر وعناد، لأننا لا نحب اليأس، فثمة في النفس بقية من عنفوان الماضي تعيد إلى حياتنا أملاً في العودة.

أمام هذا الأمل تقف الحقيقة الصعبة: إن عذاب الجسد إشارة إلى النهاية، فالموت هو المصير المرتقب، وهو بغيض إلينا. ولكنها حكمة الزمن، ففي طبيعته أنه يحمل الفساد والبلى، ولكنه في الوقت نفسه يحمل

إلينا الحياة، وهي حياتنا نستطيع أن نصنع منها ما نريد. نحن قادرون على أن نغنيها بالتجارب القوية والمسرات العميقة.

إننا نقهر الموت بمقدار ما نملأ حياتنا جيداً، وما نصنع من الذكريات الجميلة. وحين يحس المرء الحياة الحارة، لا يأسف أمامه على شيء، فإنها خاتمة المطاف:

فإن أمُتْ فقد تناهَتْ لذَّتي

وكلُّ شيءٍ بَلَغَ الحدَّ انتهى

إن قضية الإنسان في تجربة ابن دريد أن يقهر الزمن على نحو أو آخر. وهو يعدد تجارب الذين تمرَّدوا، وأرادوا اختيار مصيرهم بحرية فعاجلهم الموت: امرئ القيس، وأبي جبر الكِندي، وعبد الرحمن بن الأشعث، وجذيمة بن الأبرش، والزّباء، وسيف بن ذي يزن؛ مصائر كبيرة صنعها أفراد أقوياء اختارهم ابن دريد من الذين انفصلوا عن واقعهم ورفضوا حكمة الأيام. وقد امتدت إليهم جميعاً يدُ الموت لأنهم مدّوا يدهم أولاً، واستُنزِلوا من أوج العظمة. ومن الخير أن نتعزى بهم عن مأساة الحياة.

وفي تمرُّدنا، وبحثنا عن حرية الإرادة والقرار لدينا ينبوعان نستمد منهما القوة والقدوة، وهما يشكلان المقدسات التي تهيمن على نفوس الجميع بالطمأنينة واليقين. والأشياء المقدسة ليست من صنع الفرد، بل هي أمل يتوجه إليه الجميع كشاطئ راسخ لا تناله أمواج الزمن وعواصف الفناء.

هذان الينبوعان هما: المؤمنون، والأجداد.

والمؤمن الذي تصفه المقصورة ينطلق على «نياق صلبة في قلب الصحراء، سراع الخطى كأنهن أشباحُ القِسِيّ، غائرات العيون من الهزال، مقوسات الظهور... أخفافهن متشققة من الحفا والمشقة تخضب بالدم الحصى الأبيض.. يحملن كلّ شاحِبٍ تقوّس ظهره من طول السفر واحتمال التعب..» مؤمن خاشع ماضٍ إلى المكان المقدس:

فأوجَبَ الحجّ وثنّى عُمرةً

من بعدِ ما حجَّ ولبّى ودَعا

ثُمَّتَ طاف وانثنى مستلماً

ثُمَّتَ جاء المَرْوَتينِ فسَعى

ثُمَّتَ راح في المُلَبيّن إلى

حيث تَحَجّى المأزِمان ومِنى

أما الأجداد الأبطال، فهم أقدس ما يقسم به الإنسان. وهم الذين حملوا لواء المكارم، وإليهم ترجع المآثر. هم الذين أجروا ينابيع السخاء فعمروا العالم بالهبات. وهم الذين أذلّوا من تجبَّر وقوَّموا من سوَّلت له نفسه الغرور، وجرّعوا الذل من تحدّاهم وأراد لهم الهوان:

بَـلْ قسماً بالشُمِّ من يَعْربَ، هل
لـقـسـمٍ مـن بـعـد هـذا منتهى
هُـمُ الأُلى إن فاخروا قال العلى:
بفي امرئٍ فاخَرَكُمْ عَفْرُ البرى
هُمُ الأُلى أجرَوْا ينابيعَ النَّدى
هَامِيةً لمن عرا، أو اعتفى
هُمُ الذين دوّخوا من انْتَخى
وقوَّموا مِن صَعَرٍ ومن صغا
هُمُ الذين جرَّعوا مَنْ ما حَلوا
أفاوِقَ الضَّيمِ مُمَرَّاتِ الحُسا

الإيمان، الأصل، الجهد، تلك هي مقدسات الحياة الإنسانية في تجربة ابن دريد... إنها الشواطئ الرحيبة التي تفتح للإنسان آفاق الأمل حين تخطئه العزيمة الصادقة أمام المأساة(٧).

ومن أبرز الذين عانوا مأساة الانحطاط وتمرّدوا عليها المتنبي (٣٠٣هـ - ٣٥٤هـ). لقد كتب صدقي إسماعيل عنه أكثر من دراسة، وأتى على ذكره في أكثر من مناسبة. ومن هذه الكتابات مجتمعة يظهر لنا أن المتنبي عبَّر في شعره عن حياة نشطة من دون استقرار...

كان المتنبي مندفعاً في كل شيء.. حياته زمجرة عاتية لا يحسب فيها حساباً لأي خطر، ولا يطلب إلا القوة والعنفوان... عاش هذا العنفوان منذ نعومة أظفاره في عصر زائف دعائمه الكذب والحسد وحب النفع والتملق:

ومن عَرَفَ الأيام معرفتي بها
وبالناسِ روّى رمحَه غيرَ راحِمِ

ولم يكن يملك سلاح عصره، فأورثه ذلك - وهو فتى - شعوراً بالثورة وألماً عميقاً:

لحى اللهُ ذي الدنيا مُناخاً لراكبٍ
فكلُّ بعيدِ الهمِّ فيها مُعَذَّبُ

يُعاب عليه تكسُّبه بالشعر، ولكن الاكتساب بالشعر كان المصدر الوحيد للرزق لأمثاله من الشعراء في ذلك العصر. إلا أن المال لم يكن هدفاً وغاية بالنسبة إليه. كان يحلم بأن يؤدي دوراً خطيراً كالدور الذي يقوم به حاكم أو نبي.. وما المال إلا وسيلة لتحقيق ذلك الحلم:

يقولون لي ما أنتَ في كلّ بلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي جلَّ أن يُسمى

كان عدوه الطاغي الزمن، أو الأيام، أو الدهر، أو القدر.. مترادفات تعني كلها تلك القوة العاتية التي تجابه الفعل الإنساني، أو تحاول أن تشدّه إلى قيودها، ولكنه كان يرفض الرضوخ لها. وكان يشكو أحياناً من عدم قدرته على مقارعتها، أو عدم توافر الظروف لذلك:

يقول ليَ الطبيب أكلتَ شيئاً
وداؤك في شرابِكَ والطعامِ

ومـا في طُبِّه أني جوادٌ
أضرَّ بنفسه طول الجِمامِ
تعَوَّدَ أن يغبرَّ في السرايا
ويدخُلَ من قتامٍ في قتامِ

بهذه الروح العاتية تناول المتنبي جميع تجارب الحياة واستمد منها عناصر شعره. ففي تجارب الجسد تجاوز حدود المسرات العادية. كان يراها عابرة لا تميز إنساناً عن آخر، وحسبه أن يعرف هذه المتع ويحياها. أما أن يجعل منها قضية له ويُغَنِّيها في شعره فتلك خيانة في نظره. إن قضية الإنسان في مكان آخر، يقول:

وللخَوْدِ مني ساعةٌ ثم بيننا
فلاةٌ إلى غير اللقاءِ تُجابُ

ويقول:

ولا تحسبَنَّ المجدَ زِقّاً وقينةً
فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ

إن قضية الإنسان في نظر المتنبي أن يكون عظيماً.. وبمقدار ما يتحرر من شروط الحياة التي يخضع لها الآخرون يكون إنساناً حقاً.

لقد كان يؤمن في قرارة نفسه أنه استطاع أن يجسِّد ذلك الانطلاق الجامح في نفسه. فهو إنسان متفوق استطاع أن يتمرد على المألوف من أجل الأسمى والأقوى.

من أجل ذلك كان يرى عصره عصر انحطاط وفساد لأن أبناءه يكتفون بالسهل من الحاجات بدلاً من أن ينتزعوا الحياة انتزاعاً.. ولا ريب أن شعور المتنبي بانهيار عصره وفساد الناس فيه إنما يرجع إلى مقارنة هذا العصر بالعصور السابقة التي كان العربي فيها سيداً على مصيره، ممارساً لذلك العنفوان في أوج حرارته، وهو بذلك يستعيد صورة البطل الجاهلي، وكل ما يؤمن به هذا البطل من قيم وأعراف:

وإنما الناسُ بالملوك وما
تُفلحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهُم ولا حَسَبٌ
ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمُ
بكل أرضٍ وطِئتُها أممٌ
تُرعى بعبدٍ كأنها غَنَمُ

أضف إلى ذلك امتلاكه العبارة العربية. فقد كان اعتداده بشعره لا حَدّ له، وكان يعدُّ نفسه الشاعر الأوحد الذي روّض العبارة العربية وامتلك بها المستحيل:

ما نال أهل الجاهليةِ كلُّهُمْ
شِعري ولا سَمِعَتْ بسحري بابلُ

بهذا التصوّر الذي يجمع البيان العربي إلى العنفوان دان المتنبي مجتمعه وعصره. رأى الوطن العربي مجزءاً مفكك الأوصال

يسوسه الأعاجم وتعبث به رطانة الأغراب، وتتصرف بمقدراته شهوات المرتزقة وأنانية المستبدين(٨).

ولا يمكن تغيير هذا الزمن ما لم يتغير ناسه، ويحل محلهم نماذج تتحلى بالتمرد والبطولة والمكرمات التي عرفتها الأزمنة الماضية. وربما كان المطلوب إنساناً من طراز المتنبي نفسه:

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفوا بي
وبنفسي فخرتُ لا بجدودي
وبهمْ فخرُ كلِّ من نطق الضادَ
وعوذُ الجاني وغَوْثُ الطريدِ
إنْ أكن معجباً فعُجبُ عجيبٍ
لم يجد فوق نفسه من مزيدِ
أنا تِربُ الندى وربُّ القوافي
وسمامُ العِدى وغيظُ الحسودِ

هناك شخصيات عديدة ينوِّه بها صدقي إسماعيل للدلالة على ما في التراث من نماذج تمرَّدت على عصور الانحطاط أو ندَّدت بها. ولكننا سنختم هذه الدراسة بلمحة سريعة عن أبي العلاء المعري الذي عاش حوالي (٩٧٣-١٠٥٧م/٣٦٣-٤٤٩هـ). إنه إنسان فذ، كفَّ بصره وهو في الثالثة من عمره، ومع ذلك درس اللغة والنحو في حداثته على أبيه، ثم طالع سائر علوم اللغة وآدابها، وكان يقيم أناساً يقرأون له كتبها وأشعار العرب وأخبارهم. نظم الشعر قبل أن يتِمَّ الحادية عشرة، ورحل في طلب العلم فأتى طرابلس واللاذقية وسواهما من بلاد الشام، وأخذ فلسفة اليونان عن الرهبان؛ ثم رحل إلى بغداد وقابل علماءها وأطلع أثناء إقامته هناك على فلسفة الهنود و الفرس فضلاً عن سائر العلوم. حتى إذا نضج عقله وأمعن النظر في الوجود زهد في الدنيا واعتزم على الاعتزال ليتسنى له التأمل والتفكير. فغادر بغداد وأتى المعرة . مسقط رأسه . ولزم بيته، وسمى نفسه «رهين المحبسين»، وأخذ في التأليف والنظم والتدريس وتدوين أفكاره وآرائه ومحفوظه في الكتب.

قضى أبو العلاء في هذه العزلة بضعاً وأربعين سنة، أَكْلُهُ العدس وحلاوتهُ التين. وهو يؤلف وينظم، والناس يتوافدون عليه ليسمعوا أقواله وأخباره، أو يكاتبوه ويأخذوا عنه العلم مجاناً(٩).

ويرى صدقي إسماعيل أن المعري كان في تصوره للنموذج الإنساني أقرب إلى اليأس. ولعله كان أكثر اتصالاً بالواقع ممن سبقوه، وأكثر فهماً للمصير الحزين الذي قُدِّرَ على العرب في بداية الانحطاط. هذا النموذج يمثِّل في رأيه «الإنسان السلبي الذي يقف من الحياة موقف الشك والسخرية. فهو

يرفض الحياة لأنه لا يرى فيها إلا الشقاء، ويرفض المجتمع والدولة لأنهما في نظره صورة للفساد والتزييف. غير أنه يؤمن بالقيم الأخلاقية وإن كان يراها أفكاراً مجردة لا سبيل لها إلى حياة البشر. وهذا الإيمان هو الذي جعل المعري يلوّح في نموذجه بالثورة والتمرد. وإذا كان قد اختار هذا الموقف السلبي فلأنه يصر على الاحتفاظ بحريته وكرامته. وقد كان المعري نفسه بهذا التمرد بطلاً من أبطال الحرية الفكرية في التاريخ العربي»[١٠].

أمام هذه النماذج يرى صدقي إسماعيل أن المثل الأعلى للإنسان العربي المعاصر يجب أن يكون الإنسان الثائر المناضل الذي يؤمن بعدالة قضيته، ويكافح من أجل الحرية والكرامة الإنسانية. وأنا أوافقه على أن أي عربي مخلص يرفض الواقع الذي يعيشه وطنه، والذي يعيشه هو نفسه، في زحمة العولمة، وتهافت الدول القوية على تحقيق مصالحها بأي ثمن كان، ولا سيما على حساب الشعوب المستضعفة.

لقد ثار العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، ويثورون في القرن الحالي، ولكن الثورات أجهضت وتجهض، ولم تُفْضِ إلا إلى مزيد من التجزئة والتبعية والتخلف.

وما نحتاج إليه إضافة إلى ذلك هو الوعي، بنشر المعرفة على أوسع نطاق ممكن: معرفة الوضع العالمي في أدق تفاصيله للتمكن من شق طريق ضمنه، ومعرفة التراث لغة وأدباً وتاريخاً و قيماً بما يُحدِث ارتباطاً عميقاً به، وإخلاصاً له، وقدرة على إغنائه وتطويره جيلاً بعد جيل. فالانحطاط الذي امتد عبر أجيال يصعب التخلص منه في جيل واحد.

هذا ما فعله صدقي إسماعيل نفسه. فقد كرّس حياته لعرض التراث الأدبي العربي ضمن رؤية جديدة، ذلك أن التراث تعاد قراءته في كل عصر بحسب متغيراته وتطلعات أبنائه. كما عمل على الإحاطة بما هو جديد في الآداب الإنسانية، وقدّمها للقارئ العربي في دراسات وكتب. هذا إلى جانب إبداعاته الرائدة في مجال القصة والرواية والمسرح. وهكذا يكون أنموذجاً للمثقف العربي في هذا العصر.

الهوامش

١- صدقي إسماعيل، المؤلفات الكاملة، المجلد(٥) (١٩٨١م)، ص٥-١٦ (المقدمة).

٢- المرجع نفسه، المجلد(١) (١٩٧٧م)، ص٣٧٣-٣٧٩ (موت طرفة).

٣- المرجع نفسه، المجلد(٥) (١٩٨١م)، ص٣١٦-٣٦٨ (حب المرقش الأكبر).

٤- المرجع نفسه، المجلد(١) (١٩٧٧م)، ص٣٤٣-٣٤٨ (البرّاق).

٥- المرجع نفسه، المجلد(١) (١٩٧٧م)، ص٣٣٢-٣٣٧ (البطولة والحياة العربية).

٦- المرجع نفسه، المجلد(١) (١٩٧٧)، ص١٩١-٢٧٦ (كتاب: العرب وتجربة المأساة).

٧- المرجع نفسه، المجلد(١) (١٩٧٧م)، ص٣٤٩-٣٦٧ (المأساة في مقصورة ابن دريد).

٨- المرجع نفسه، المجلد(١) (١٩٧٧م)، ص٢٤١-٢٤٤ (كتاب: العرب وتجربة المأساة).

- المرجع نفسه، المجلد(١)، ص٢٧٧-٣١٧ (تجربة المتنبي).

- المرجع نفسه، المجلد(١)، ص٣٦٨-٣٧٢ (في حياة المتنبي).

٩- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٢، دار الهلال، القاهرة.

١٠- المرجع نفسه، المجلد(١)، ص٣٣٢-٣٣٧ (البطولة والحياة العربية).





لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين

أحمد عمران الزاوي ❁

قالوا: هذا حديث ينبغي إدراك مقاصده بالرمز.

فهو تحذيري أكثر منه تقديري لأن اقترانه بالإيمان أوشك أن يعتبر الغفلة كفراً.

فالحصيف حذرٌ وحريصٌ ألا يلدغ من جحرٍ واحد أكثر من مرة.

إذ عليه:

- إما أن يغلق الجُحر بغلقٍ لا ينفذ منه الصلّ.
- وإما أن يقيم في وجهه سدّاً لا يظهره ولا يستطيع له نقبا.

❁ محامٍ وأديب سوري.

نحن العرب الجسد اللديغ دوماً.

والجحر هو ذاته، ما زال ينفذ منه الصلّ منذ سبعة عقود.

اللدغ متكرر، والغفلة مستمرة.

في القرن التاسع عشر بذل: «نابليونان- الأول والثالث» جهوداً كبيرة.

لتحريض الصِّلّ الذي كان جاثماً في جحره منذ حوالي ثلاثين قرناً.

نشر كل منهما بياناً ناديا ودَعَوَا فيه يهود الأمم إلى فلسطين التي هي- كما زعم البيان- عطية الله لهم وأن الجيش الفرنسي الذي هو أقوى جيش في العالم سوف يحمي تطلعهم إلى حقهم الإلهي.

ولكن تلك الدعوى النارية- على جهارتها- ما لبثت غير قليل حتى بانت على حقيقتها إضافة إلى الموانع السياسية التي كانت تصد هذا التطلع .

فمحصلة النابليونين كانت دوافع التحريض.

لقد كان نابليون الأول عازماً في مطلع القرن التاسع عشر على إنشاء إمبراطورية في الشرق تتمدد تحت الغطاء الفرنسي وتمثل نفوذها في هذه المنطقة.

لذلك لم يكن استدعاء اليهود إلى فلسطين حباً باليهود بل كي يكونوا طابوراً خامساً يرصد أقوال السكان وأفعالهم ويرفعها إلى الفرنسيين.

بعد أن تكشفت النوايا أمام علم ذلك الزمان.

وأحجم اليهود عن السير على هذا الطريق. (خوفاً أو حذراً) طويت الصحف الفرنسية وأودعت في جيب المستقبل.

ولكن ما إن غَرُبت سبعينيات القرن التاسع عشر، حتى كثر التحديق في الشرق العربي منذ ثمانينيات القرن المذكور، عكفوا على دراسة تاريخه وجغرافيته كي يتفقوا على مخطط التعامل معه.

جغرافيته الواسعة تتوسط جغرافية الدُّنيا، وتقبض على نواصي بحار ثلاثة وفيها قناة السويس[١]

تاريخه حافل ومضيء:

- فمنه ظهرت الديانات التي عَمت الكون.

- ومنه ظهرت الحروف التي كانت أعظم الإنجازات الحضارية.

- ولا يزال منذ زمن سحيق يتكلم لغةً واحدة.

- وقد عاش وحدة قوية مسيطرة أكثر من ثمانية قرون.[٢]

هو الآن- كما قال مفكروا الغرب- على الرغم من أنه تشظَّى بعد سقوط معقله

الإسباني في سنة ١٤٩٢م- يدق أبواب الزمن ويتطلع بلهفة وطموح إلى أن يشترك في صناعة التاريخ الإنساني القادم، ثقافة وسياسة وإدارة.

مطامح، وتطلعات سببت قلقاً في الدول الأوروبية التي عكفت على امتصاص خيراته الاقتصادية واستخدام موقعه الإستراتيجي خاصة وقد بدأت قناة السويس تختصر الأبعاد بين القارات.

لقد عبر عن هذا القلق مؤتمر لندن الذي دعا إليه «كامبل بنرمان»[٣]

أما المخطط الذي وضعه ذلك المؤتمر فقد انصبت بنوده على أن يبقى الشرق العربي، مقسماً، تعشش فيه «الأفكار الطائفية» و«الإقليمية» و«الجهل» و«التخلف» و«الغيبيات».

كما أنه- أي المخطط- نفخ الروح في نداء النابليونيين إلى اليهود كي يأتوا إلى فلسطين مع فارق الغايات.

فنابليون الأول والثالث استدعيا اليهود ليكونوا طابوراً خامساً.

أما في لندن فقد كانت الغاية حماية الطريق البرية التي توصل الدول الأوروبية إلى شرقي آسيا (الهند- جاوة- سومطرة- إندونيسيا)[٤]

وهو لن يكون أبديَّ الأمان ما لم يقطع الاتصال بين جزئي الشرق العربي في آسيا وأفريقيا.

فكانت فلسطين هي من وقع عليها الاختيار لتكون المنطقة الفاصلة.

وكان اليهود هم الذين يجب أن يستوطنوها لأنهم يختلفون مع أبناء المنطقة في الدين والجنس واللون والتاريخ والثقافة.

بدافع المصلحة، دُعيَ اليهود من «كيبوتزاتهم» الأممية لكي يتراكموا في فلسطين مع تعهد دول أوروبة جميعاً بضمان أمنهم في السفر والاستقرار وتغطية حاجاتهم الاقتصادية ودعم تحركاتهم السياسية.

على أن ذلك السخاء، كان مشروطاً، بواجبات يلتزم بها اليهود وهي:

- إشعال الحرائق السياسية والطائفية والإثنية والحرص على بقائها مندلعة حتى لا يبقى لدى العربي من الوقت ما يسمح له بالتفكير في أي شيء غير إطفائها.

- حماية أمن قناة السويس والطريق البحرية التي توصل أوروبة إلى الشرق الأقصى.

أما اللغة العربية التي تبقى الجامع المشترك بين هذه الأشتات وهي التي يُخشى أن ترتفع منها راية العروبة فقد نبه النبي

على أن العربيــة لا تكتسب عن طريق الأب والأم فقط بل تكتسب باللغة «ليست العربية بــأبٍ وأمٍ العربية باللسان فمن تكلم العربية هو عربي».

(حديث شريف)

لذلك تركز عليها الهجوم، خاصة بعد أن نزل بها الوحــي وكتب بها القرآن وتكلم بها النبي منذ عقود عديدة تتلقَّى اللغة العربية أشدَّ التيارات صقيعاً.

– فثمة الذين قالوا بالانتقال إلى الحرف اللاتيني.

– وثمــة القائلــون بهجــران الفصحى إلى العاميــة في الخطابــة والكتابة والكلام الذي يمارسه «البقال» و«الخباز» و«النجار» و«الحمَّال» وأبناء الشارع كافة.

– ومنهــم من قال بإسقــاط القرآن عن عرشــه، لأنــه مجموعة مــن القواعد التي اقتنصها من التوراة.

ولأنه صناعة بشريــة لا يد فيها للسماء وليس لها علاقة بأي حرف منه.

ولأن القــرآن يتلــى بالفصحى في شرق الأرض وغربها فهو الخطر الوحيد الباقي.

وقــد قامــت مؤسسات ثقافيــة ورجال مثقفــون كرســوا مواهبهم لتقــزيم القرآن والتهجم عليه.

وهنا: سوف أختصر وأقتصر على الأديب المعاصر سعيد عقل الــذي نرجو له سلامة الجسد والضمير.

هــو من أشــد الدعاة في هــذا العصر، لسيادة العامية وتفرد الحرف اللاتيني

ولكنه:

– لم يدخل في علمنا أنه كتب أو خطب أو نظم باللغة العامية أو اللاتينية.

– ولــو كتب باللاتينية لما انتشرت كتابته إلا بين عددٍ قليل من شعبه.

– لمــاذا لم يقــترح إجراء هــذه العملية الجراحيــة على الحرف العبري المربَّع الذي يقارب عمره الثلاثين قرناً؟

والآن- بعد الاعتــذار من القارئ سوف أنتقل إلى اللدغ السياسي المعاصر.

لقــد تكاثرت الأدلــة علــى أن سياسة الولايات المتحــدة في هذا الشرق تنطلق من الرئة الإسرائيلية.

تساءل الكثــيرون بدهشــة: كيف تبقى الولايــات المتحدة الدولــة الأعظم في العالم فتغدو التابع لإسرائيل في الشرق الأوسط؟

تساءل الكثيرون: لماذا يملك الآيباك زمام الكونغرس؟ ولماذا يملــك اللوبي الصهيوني زمام الإعلام والصيرفة في الولايات المتحدة كافة؟

تســاءل الكثــيرون لمــاذا وقــف الفيتو الأميركــي خادمــاً عند البــاب الإسرائيلي

يحمـي اختراقاته المتكـررة للقانون الدولي ويسقط أي قرار يتخـذه مجلس الأمن ضد إسرائيل مهما كان الارتكاب؟

تساءل الكثيرون: لماذا- وأغلب الأمريكان مـن أتبـاع الإنجيل- يمارسـ في الولايات المتحدة أكـثر من مئة ألف مـن القساوسة خدماتهـم الدينيـة في التـوراة مـن دون الإنجيل؟

تسـاءل الكثيرون: لمـاذا يحظر على أية دولـة عربية أن تمتلك السلاح المتطور شراءً أو صناعة وأن تُدخِل الأساليب الحديثة على جيوشها؟

بينما تتغاضى العيـون وتخرس الألسنة عن الإشارة إلى مخازن الأسلحة الإسرائيلية مـن جميع الأنواع الحديثـة والمتطورة وإلى الصواريـخ العابـرة للقـارّات وإلى البوارج والغواصـات والطيارات والقنابـل الذرية والجرثومية المحَّرمة؟

وفي هذه الأيام، تتلوى الأحقاد الأميركية والأوروبية وتنتفـخ أوداجهم وتكتظُّ وسائل إعلامهم في الدفاع عن حقوق الإنسان التي يغتالها الجيش السوري والسجون السورية، على حدّ الأخبار الكاذبة من دون أدلة.

وتصمـت حتـى الصَّنمية عـن الآلاف الفلسطينيـة التي ركمت في سجون إسرائيل في ظـروف كافرة قـلَّ فيها المـاء والغذاء والهواء والضياء والدّواء؟

وهذا الجدار الأفعـوان الذي يتلوى في طرقـه ملتهماً ثلث السـؤدد الذي تبقى من فلسطـين للفلسطينيين؟ وتصدي الطيارات والدبابات والجيشـ الإسرائيلي لحفنة من الشباب الأعزل مـن أي سلاح وقتل الكثير منهم.

ليس ذلك كله خرقاً لحقوق الإنسان.

أما تصدي الدولة السورية لمن قتل ودمَّر وخرَّب وحرَّق وقطع الطرقات وزرع الألغام وأرهب الناسـ ومزق أمنهـم واستقرارهم بأسلحـة وأمـوال ومخططـات ومؤامرات خارجية تستهدف الكيان السوري.

هـذا التصدي هو خرق لحقوق الإنسان كما تحدث الرؤساء والمسؤولون في «الولايات المتحدة» و«انكلترا» و«فرنسا»

وهـو المـبرِّر الأخلاقـي والقانوني- في رأيهم- لتشديد الحصار على سورية دخولاً وخروجاً للأشخاص والبضائع والأموال بل أكثر من هذا هددوا بإصدار مذكرة توقيف بحق الرئيس الأسد.(٥)

وكم كانت خيبة الأمل شديدة حينما رفض السوريون أن يستجيبوا للدعوة إلى الإضراب في ٢٠١١/٥/١٨م وكانت وسائل الإعلام من جميع الجهات قد طبلت وزمرت كثيراً لهذا

الإضـراب المنتظر لذلـك كانت خيبة الأمل تعادل الضجيج السابق.(٦)

ولكن فلنبق في المربع السياسي.

إن جميـع مـا أوردته برؤوس الأقلام يعرفه الكثيرون بالتفصيل.

لقد اعتاد «اللديغ» على اللدغ.

لقد اعتاد على تلقيـه من دون مقاومة فقـد غرسوا فينـا قناعة بـأن ردود الفعل يجـب ألا تتعدى تعليق المآسي على مشاجب الآخرين.

أما ردود الفعل التـي يجب ألا تقِلَّ قوةً وحرارةً عن الفعل، فقد قنعنا منذ قرون أننا عنها عاجزون.

لقد أُصبنا بمرض عمى الألوان فلا نرى ما يوازي قوة العدو غير ضعفنا وتقدمه غير تخلفنا، واتحاده غير تفرقنا.

حتى القرارات الدولية النادرة التي كانت تصـدر لصالحنا لم نولها الاهتمام، ولم نبذل أية محاولة لدعمها.

على مرمى العين منَّا ثَمَّة قرارات تضمنت بعض بنودها بعض الدعم لحقوقنا.

ولكـن عمى الألوان حجـب البصر عن عيوننا وحجب الصواب عن بصيرتنا.

القراران هما:

- القـرار ٣٣٧٩- الذي دَمَـغَ إسرائيل بالعنصرية.

- قـرار لجنة غولد ستـون الذي اعتبر ما قامت بـه إسرائيل مـن تدمير وتخريب في غزة هـي سلسلة من الأعمال الإجرامية التي تقع تحت حكم القانون الدولي لحقوق الإنسان.

ومع أن القرار ٣٣٧٩- يسبق تقرير لجنة غولـد ستون بأكثر من ثلاثـين سنة فسوف أبتدئ مع تقرير غولدستون.

التقرير:

- هو الذي صدر عن اللجنة المشكلة من الأمم المتحدة للاستقصاء عما ارتكبه الجيش الإسرائيلي في غزة من القتل والتدمير.

فالأمم المتحدة: حددت أعضاء اللجنة وحددت مهماتها.

ومثلمـا لا يغني تنفيذ مهمة عن تنفيذ سواها لا يستطيع أحـد من أعضاء اللجنة حتى الرئيس أن يختصر سواه أو يستبعده أو يتحدث باسمه.

- إن ما جرى في قطاع غزة من المجازر والتدمير وتحطيم البنية التحتية هزَّ ضمير العالم فارتفعـت أصوات الاستنكار والشجب مـن جميع أرجـاء الدنيا ضـد الإرتكابات الإسرائيلية.

وقـد ظهـرت إسرائيل علـى الرصيف الثاني مـن المعادلة تدافع عما يجري وتصرُّ علـى أنها مجموعات مـن ردود الفعل التي

كان لابــد منها دفاعاً عــن الأمن والوجود الإسرائيليــين مــن دون أن تتجــاوز حدود الدفاع المشروع.

تجاه هذا التباين:

قررت الأمم المتحدة أن تستجلي حقائق الأمــور فشكلت لجنــة استقصــاء وسمَّتها باسم رئيسها القاضي اليهودي «غولدستون» وكلفتها بوصف وتعداد الارتكابات والأضرار الواقعة في الأفراد والممتلكات.

وحتى، لو كان الابتداء من غزة فالتحقيق يجــب أن يشمل أعمــال إسرائيل لذلك كان التكليــف بتحديــد الأعمال التــي قام بها الطرفــان والتحقيق الدقيق عمــا إذا كان رد الفعــل قد تجاوز حــدود الدفاع أم ظل ضمنها.

قبلــت اللجنــة ببنــود التكليــف كافة فحضرت إلى غزة برئاسة رئيسها.

وبعد أن شاهدت:

- مناظر الأبنية المهدمة، والأسر المشردة، والأشجــار المقتلعــة، والمدارســ والمشافي والمؤسسات المدمرة، والخيم التي نصبت في العراء لإيواء من تهدمت منازلهم.

- وخطوط الكهرباء المقطوعة، وأنابيب المياه المنزوعــة، وغياب الخبــز من مراكز البيع.

- واستمعــت إلى العديــد من الجرحى والمشوهين.

وشاهدت آلاف القبور الحديثة وأخبرت عن كثير من الرِّمم تحت الأنقاض.

وبعد أن قرأت اللجنة في تقرير الخبراء أن إسرائيل قذفــت المدنيين الأبرياء بقنابل الفوسفــور والقنابــل العنقوديــة والنابــالم والغازات السامة التــي لا يزال آثار بعضها في الأماكن المأهولة بالسكان المدنيين.

إضافة إلى ذلك:

وجدت اللجنة أن إسرائيل، بعد انسحاب جيشهــا، فرضت على غزة حصــاراً رهيباً شمــل القطاع مــن شمالــه إلى جنوبه ومن شرقــه إلى غربه مانعاً عنــه الغذاء والدواء ومــواد الترميم والبناء فتحــول القطاع إلى سجن جماعي بمدنه وقراه وبساتينه وطرقه وساحاته سجن لم يعرف التاريخ مثيلاً له في الضخامة والصرامة وغياب الرحمة. (٧)

لقــد وضعت اللجنة تقريرهــا متضمناً شرحاً مرفقاً بالصور عن الإفادات ومواطن التخريــب مؤكــدة علــى اخــتراق إسرائيل للقانــون الــدولي وحقوق الإنســان وشرعة الأمم المتحدة.

كما يلي:

١- علــى فرض أن غزة بــدأت بالتمرد على الاحتلال الإسرائيلي فإن رد الفعل من

إسرائيــل انطلق في العنف مــن دون مكابح فاخــترق المحرمــات الدوليــة «القانونية» و«الدينية» و«الإدارية» و«الأخلاقية»

٢- إن كان التمرد- على فرض حصوله- قــد حصــل فذلــك تمَّ مــن دون شك من الحكومة أو رجال الأمن.

فمــا هو المــبرر القانــوني أو الأخلاقي لتهــديم المستشفيات والمساجــد والكنائس والمدارســ ورياض الأطفــال وتشريد الأسر المدنية وتهديم منازلها؟

٣- ليســ في القانــون الدولي ولا في أي قانون نص يسمح بتحويل إقليم كامل «مدناً وقرى ومنشآت ومــزارع ومساحات وطرق» تحت الحصار الخانق المقصي عن العالم.

ومثلمــا يتداعى المذنــب حينما يقبض عليه متلبساً بارتكابه الذنب هكذا كان شأن إسرائيــل حيث أصيبت بالبهــت والصنمية عند تــلاوة التقرير وتوزيع نســخٍ منه على أعضاء المجلســ، واكتفى «نتنياهو» بكلمات قليلة جدّاً في التعليق عليه.

قال مبهوراً ومضطربــاً «التقرير مشوه ومنحاز».

ثم تــلا تلك الكلمــات الثلاثــة صمتٌ دبلوماسي عميق.

طبعــاً: لم يستطع نتنياهــو ولا سواه من مســؤولي إسرائيــل أن يبين وجــوه التشويه والانحياز.

هل في سرد حــال المشردين عن منازلهم المهدمــة والساكنــين في الخيــام تشــوه وانحياز؟

هل في تصوير مظاهر الهدم في المشافي والمساجد والكنائس والمنازل تشوه وانحياز؟

هل في ذكر البؤس الذي يعيش فيه أبناء الإقليــم كافة تحت الحصار الكافر تشوه أو انحياز؟

لم يتقدم نتنياهو ولا سواه بأي ردٍّ معاكس لمضامين التقرير.

بل استمر الصمت والامتناع عن الجهارة حتى أواخر الربــع الأول من سنة ٢٠١١م- أي أكثر من سنتين ونصف السنة.

خلال هذه المدة.

حــلَّ «غولدستون» ضيفــاً على إسرائيل وجاء تذكيره بأحكام التــوراة والتلمود التي أوجبت الكــذب إن كان فيه صالح اليهودي فكيف وصالح ومصالح جميع اليهود زلزلها التقرير.

وليســ إسرائيــل فقــط بــل الترغيب والترهيب اللذان مورسا على غولدستون من قِبَل الولايات المتحدة.

بعــد هذه الضغــوط، عــاد الوعي إلى رأســ «غولد ستــون» فصــرَّح أن جميع ما

فعلته إسرائيل في غزة الذي جاء في التقرير بالتفصيل كان دفاعاً عن الأمن الإسرائيلي، والوجود اليهودي ولو كان حين كتابة التقرير بالوعي الذي صار إليه لتغيرت المعايير والتعابير ولكان التقرير صيغ بأن جميع ما جرى في غزة على يد الجيش الإسرائيلي من تهديم وتخريب وتشريد وحصار هي ردود أفعال من جنس الأعمال، من دون تجاوز ومع أن تصريح «غولدستون» كان صحفياً ولم يكن تقريراً.

فقد كان كافياً لإسرائيل أن تهجر الصمت وتبرز من وراء الدبلوماسية الأميركية لتطلب من الأمم المتحدة أن تشطب التقرير من أرشيفها وتلقي به في مزبلة التاريخ فوق القرار /٣٣٧٩/ لأن الذي كتبه كان عند الكتابة مصاباً بعمى الألوان ومضغوطاً بعواطف التسرع.

ولكن العرب والعالم أجمع يعلمون:

– أن التقرير صدر عن اللجنة بإجماع آرائها وتواقيعها،لذلك لا يبطله تصريح صُحفي فردي من أحدهم ولو كان رئيس اللجنة.

فالصفة الرئاسية، هي إدارية، فلا تضع حكماً ولا ترفع حكماً اتفق عليه جميع الأعضاء.

– لقد صار تذييل التقرير بتوقيع الأمين العام وبأمره صار ضمه إلى الأرشيف وتوزيع نسخ منه على مندوبي الأمم بأمره.

– وهذا يعني أن التقرير حاز القبول من الجميع في مصداقيته وتقديراته فلا يستلُّه من الأرشيف نداءٌ من موتور.

– والتقرير لم يحظ بالتقدير الأممي إلا لأنه دعَّم الإفادات والمشاهدات بالصور المعاكسة بكل وضوح فلا يتم قلب هذه الموازين على أعقابها إلا بالأدلة الداحضة التي تحمل من الوضوح والجدية أكثر مما حملته الأولى.

حتى الآن: ونحن في عشرينيات الشهر الخامس من عام ٢٠١١م – لم يصدر عن الأمم بيان بهذا الشأن.

كما– وهذا هو الأهم– لم يصدر عن الجانب العربي رأي موحَّد يدعم تقرير اللجنة.

المراقبون العرب يخشون أن يلقى هذا التقرير المصير الذي صار إليه القرار /٣٣٧٩/ .

فما كان لذلك القرار أن يسقط من الأرشيف وذاكرة الأمم لو تتابع الاهتمام به وتدعيمه والإصرار عليه والدفاع عنه.

القرار:

أي القرار /٣٣٧٩/ الذي اتخذته الأمم في أعقاب حرب تشرين.

لقد دمــغ إسرائيــل «بالعنصرية» التي تتمثل في «احتقارها للآخر وخاصة العربي» و«في استباحة حقوقه» و«في الإحياء الديني اليهــودي في عــوالم السياســة، والعقائــد، والثقافــة، والاقتصــاد، والتشريع، والعمل» و«كل نشــاط في المجتمــع الإسرائيلــي من خطابة وكتابة وإدارة يتم تحت سقف التوراة والتلمود»

لم يكــن العالم قد استفــاق من مذهلات حــرب تشرين فمن خــلال تلك الحرب وما حملتــه من آثار استمع العــالم لأول مرة إلى الأنين العربي.

موقف جهير واحد وقفته إسرائيل حينما صدر القرار.

لقد مثل هذا الموقــف مندوبها (حاييم هيرتزوك) إذ مزق القرار علناً من فوق منبر الأمم وقــال: أمزقه لأنه الأكثر خزياً وجهلاً في التاريخ.

تــلا ذلك صمت عميق ترافق مع تحرك دبلوماســي أفعواني على جميــع المستويات السياسية في ا لعالم.

صمت ونشــاط امتدا عشر سنوات، كان القرار خلالها يتلقى اللّكم من الدبلوماسية الدولية بتحريضــ إسرائيلي حتى إذا كانت الضربة القاضية ظهــرت إسرائيل من وراء أميركا بوجهٍ وجيه واشتركت في تشييع جنازة القتيل.

أمــا موقفنــا نحن العرب تجــاه القرار منــذ ولادته حتى قتله، فقد اتَّسم بالمفاخرة والسطحية حتى حدود الغباء.

عبَّر منذ صــدوره عن انفتاح أممي كبير على قضيتنا مع إسرائيل.

وبدلاً من أن نستفيــد من هذا الظرف فنطلــب طرد هــذا العضــو العنصري من هيئــة الأمم أو على الأقل اتخاذ قرارٍ أممي بتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين سواء في العدد المسموح دخولهم في كل عام أو في تحديد المــدة الزمنية التي يغلق بعدها باب الدخول.

وبدلاً مــن اعتبار القرار حافــزاً لقيام حملــة إعلاميــة يقوم بهــا رجــال الفكر والإعــلام تحت حمايــة الأنظمة ومباركتها يتبين للعالم أجمع أساليب الكبت والتصرفات العنصرية واغتيال الحقوق العربية من فكر وثقافة وسياســة واقتصاد وقضاء ووظائف ومواطنة.

نقول: بدلاً من ذلك وكان ذلك مقبولاً في المجتمع الدولي.

اعتبرنا حرب تشرين نصراً يغرِّد به كبارنا وصغارنا فلم تخــل منه دائرة ولا ديوان ولا

دفــتر ولا كتاب، بل وحتى صــار اسماً بارزاً لمجلاتنا ومحلاّتنا وجرائدنا.

وصـــار فقـــرة الزهو في خطبنـــا وكتبنا نقترب بها إلى الجماهـــير فتقابلنا بالهتاف والتصفيق.

قـــال كتابنا(القـــرآن) «**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ..**» (الأنفال- ٨/٦٠)

حتـــى إذا فعـــل الإعداد فعلـــه فخاف العـــدو، وامتنع عن المهاجمة قال الكتاب في الآية التـــي تلت: «**وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا..**» الأنفال- ٨/٦١- [٨]

كثيرون منا لم يقرؤوا وكثيرون ممن قرؤوا قرؤوا من دون تدبُّر [٩]

بقينـــا نمضغ ذكرى تشرين صباح مساء، مثلما يفعل مدمن القات. [١٠]

حتـــى إذا اغتيل القـــرار اغتيلت ذكرى تشرين مـــن ذاكـــرة الناس وصـــار التشبث العربي بها مدعاة للسخرية منه.

أمـــا العنصرية التي نبذها القرار وعدد صورهـــا فلـــم تزل تمارســـ علـــى أشقائنا في فلسطـــين لأنهـــم في التقـــويم اليهودي، مواطنون من الدرجـــة الثالثة، لأن الدرجة الثانية محجوزة ليهود الفلاشا.

أما البقية المشـــردون وهم يزيدون على ستـــة ملايين فقد ابتعدوا عـــن العودة بعداً سحيقاً.

قالت الأرض للوتد: لماذا تشقُّني؟

قال: هذا مـــن الذي يدقُّنـــي نعم نحن الأرض وإسرائيل هي الوتد والذي يدقه هو الغرب.

قالوا لنا: العين لا تلاطم المخرز فقنعنا ولجأنا إلى جحور الاستخزاء والتسليم قروناً عديدة.

ولكننـــا بعـــد أن رأينا حـــذاء «الزيدي» يستهـــدف وجه بوشـــ، و«بوعزيزي» يحترق حتى التفحم.

وأميركا وإسرائيل تعجزان عن تحقيق أي كســـب من حرب لبنان ولا مـــن حرب غزة، عاد الصواب من غيابـــه الطويل فقنعنا أن في عين الحق من الصلابة ما يطوي المخارز ويردها مدحورة على أعقابها.

لم تقتصـــر صلابة المواقف على ما تقدم بل تدفقت إلى ساحات النضال سيلاً شعبياً يحاسب المقصرين والمضللين والعملاء الذين ساعدوا الأغيار علـــى تهميش الشعب وكتم أنفاسه وحيـــازة أمواله وحصره بين السبابة والإبهـــام يكتم عليه ويفـــرج عنه على ضوء الظروف والمصالح.

هـــذه الثورات: هـــذا الظهـــور الشعبي الملاييني حَاسَبَ وأقصى.

أقصى هرقل تونس وهو اليوم قيد المحاسبة على مرتكباته ومسروقاته.

أقصى فرعون مصر وهو اليوم مع العيال والأنجال قيد المحاسبة على الارتكابات والسرقات.

والشعب أدرك معناه إدراكاً كاملاً، أدرك أنه هو الذي أنجب الحكام والمحكومين.

وأنه مثلما استطاع ويستطيع أن يعاقب يستطيع أن يثيب.

ومثلما استطاع أن يقصي يستطيع أن يدني.

ففي سورية كان وجهه حنوناً بشوشاً على عكس ما كان عليه في سواها.

لقد أوشكت زحوفه يوم الرئيس أن تكون نصفه، إذ لم يبق منه في البيوت غير الأطفال والعجائز.

الأزمة الاقتصادية التي هزَّت أركان كثير من الدول أغلقت أبواب سورية في وجهها فما استطاعت الدخول، ظل العامل والموظف والمزارع والتاجر والمثقف في مواقعهم من دون زلزلة ولا تغيير ولا وَجَلٍ من المصير.

والاضطرابات الأمنية، التي تحكمت في البلدان المجاورة فشملت القعود والقيام والذهاب والإياب والتي أقضَّت المضاجع وأرهقت المهاجع وأحصت الأنفاس على الناس.

قام بينها وبين المجتمع السوري سدٌّ منيع لم تستطع أن تثقبه ولا أن تتجاوزه عليه.

ومع هذا.

ففي الشعب السوري مثلما في سواه مرتزقة، وعارِضو ضمائر بالمزاد.

اجتمع هؤلاء مع الأجنبي العدو فخطط لهم كيف يعيثون فساداً في الوطن، قتلاً، وحرقاً، وتدميراً، وبث ألغام، وقطع الطرقات على المسافرين، واغتيال حياة الاستقرار والأمن التي عاشها القطر منذ أكثر من خمسة عقود.

قالت إسرائيل بالفم الملآن:

إسقاط النظام في سورية هدف إستراتيجي كبير لنا.

والمصالحة الفلسطينية خطر عظيم علينا.

وقالت أمريكا بلسان إسرائيل: الدولة الفلسطينية التي تقوم يجب أن لا تكون دولة معسكرة أي أن يقتصر وجودها وصلاحياتها على كانتون جغرافي في مهمته أن يكمَّ الأفواه الفلسطينية وأن يمنع الشعب من أي مظهر من مظاهر العداء لليهود وبالجملة على الدولة المسموح بإنشائها أن تبقى مسخاً مهمَّته أن يحفظ الأمن الإسرائيلي ويوقف المظاهر الاحتجاج ضد الصهاينة.

أمَّا القدس، فلن يكون شبر منها موضوع

حوار، لأنها من أقصاها إلى أقصاها عاصمة إسرائيل اليهودية إلى الأبد.

كذلك قِصَّة العودة يجب أن تمّحيَ من الذاكرة، وعلى تلك الملايين اللاجئة أن تقتنع أن وطنها حيث هي منذ خمسينيات القرن الماضي.

ومع أن هذا الاتفاق شديد البنود.

فهو بطبيعته، رجراج لا يؤمن استمرار صموده.

ثمة هدف مديد شديد، يحفظ الأمن الإسرائيلي بسيادة بعيدة المدى هو الشرق الأوسط الكبير حيث يتحول جميع الشرق إلى دول من الخرز أكبر وأقوى ما فيه هو الدولة الإسرائيلية.

ولكن سورية رَقَمٌ صعب علاقاتها قوية مع إيران وحزب الله والمقاومة الفلسطينية وقد نجم عن هذا التحالف نصر عسكري في جنوب لبنان ونصر عسكري آخر في قطاع غزة وعلاقات دبلوماسية حميمة مع الصين والاتحاد السوفييتي، فكيف يكون إقصاء كلمتها ونفوذها عن طريق الشرق الأوسط الكبير.؟

لم يطل الوقت حتى حضر الجواب وبُدئ بتنفيذه.

وهو: نشر الفوضى وإشعال الحرائق والتدمير والتخريب في جميع أرجاء الوطن السوري حتى يتفجر شظايا سياسية لا يتجاوز اهتمامها حدود مربَّعها الصغير.

هذا ما رأيناه طيلة شهرين.

الأساليب نفسها، الشعارات ذاتها، توافُق بين جميع جهات الفوضى في نوعية السلاح، وصور التخريب، وتوقيت الانطلاق.

لقد تحولوا بالمساجد إلى غير مهمتها التي فوضت بها من الله.(١١)

ولكنهم:

- بعد أن كشفت مصادر السلاح والتمويل ومخطط التآمر.

- بعد أن حدَّد المخدوعون هويات الخادعين والمضللين..

- بعد أن فشلوا فقتل من قتل وأسر من أسر وهرب من هرب واستسلم من استسلم مع سلاحه.

- بعد أن عجزوا عن حشد تجمع تظاهري مقبول وثبت أن ما تبثه وسائل الإعلام المعادية من صور وأخبار هو مفبرك وموضوع.

بعد أن أسقط في أيديهم، لجأوا إلى التهديد بالكلام.

أوباما ووزيرة خارجيته ومندوبوهما عرفوا أن عقوباتهم الاقتصادية وأن اعتزال العالم عن سورية لم يحرك شعرة من قناعاتها القومية.

ومع ذلك يعلنون في جميع وسائل الإعلام أنهم يريدون رأس سورية.

فقد جمعوا جماعة التخريب حول شعار واحد هو «إسقاط النظام رئيساً ومسؤولين» لإحلال الديمقراطية محل الديكتاتورية.

أيها الأعداء.

عرفنا ديمقراطيتكم في أفغانستان والعراق والخليج.

عرفناها على حقيقتها، تزييفاً يتحكم به الآيباك اليهودي، والمال اليهودي، والصيرفة والإعلام اليهوديان تزييفاً قبض على رئة المسؤولين الأمريكيين، متحولاً بهم إلى خدم للمائدة اليهودية في الشرق.

أيها الأعداء

لن تتزحزح سورية عن ثوابتها ولو كان الجولان وفض العزلة ورفع الحصار هو ثمن قنواتكم وفنادقكم وخزائنكم تلبي رغبات المارقين والناكثين.

ضيفكم المقيم ذلك الذي تعهد أن يبني في المرجة مشهداً للهولوكوست يستقبل اليهود في كل عام و«أبو رغال» الثاني الذي تجاوز سلفه حينما طلب تدخل الجيش اليهودي والجيش التركي وجيوش الناتو إلى سورية لتقضي على الأنفاس العربية.(١٢)

الذي قال:

أحقد على القدر لأنه خلقني عربيّاً

وأحقد عليه أكثر إذ خلقني سوريّاً

وكان أحب إليَّ أن أكون من المكسيك أو بنغلادش أو أي مكان آخر

كم كان المثل العربي منصفاً عندما قال:

الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها.

الهوامش

١- «السويس» قناة تصل البحر الأحمر بالمتوسط بين «بور سعيد ومدينة السويس».

حفرها فردينان دي ليسبس بين ١٨٥٩م و١٨٦٩م أممتها مصر في سنة ١٩٥٦م طولها ١٦٨ كم وعرضها الأقصى ١٥٠م وعمقها ١٢ م.

٢- عاش التقدم والتفوق من منتصف القرن السابع حتى آخر القرن الخامس عشر.

٣- «كامبل بنرمان» ترأس الوزارة البريطانية سنة ١٩٠٤م واستقال سنة ١٩٠٨م وتوفي بعد استقالته بأقل من عشرين يوماً والمؤتمر عقده في لندن سنة ١٩٠٧م ودعا إليه الدول الأوروبية التي لها مصلحة في الشرق الأوسط.

٤- «جاوة» جزيرة بركانية تقع شرق المحيط الهادي تمتد شرقاً وغرباً بطول ألف كم مساحتها ١٣٢ ألف كم٢ وعدد سكانها مئة مليون نسمة.

«إندونيسيا» جمهورية تقع في جنوب شرقي آسيا عاصمتها جاكرتا مساحتها مليون وتسعمئة وعشرين ألف كم٢

وعــدد سكانها مئة وواحد وثمانين مليوناً وأربعمئــة ألف نسمة انضمت إليها غينيا الجديدة الغربية وهي ثلاثة آلاف جزيرة.«سومطرة»

٥- نحن اليوم في ٢٠١١/٥/١٩م والتهديد بالمذكرة أعلن عنه في ٢٠١١/٥/١١م.

٦- صــدرت خيبة الأمل عن لندن بعبارة حزينة في نشرة الساعــة الثانية من بعد ظهر ٢٠١١/٥/١٨م الموافق عندهم الساعة ١١ صباحاً.

٧- طبعــاً: السجَّان هو إسرائيل والحراســ هم أفراد من الجيش الإسرائيلي الذيــن أحاطوا بالقطاع مانعين الدخول إليه والخروج منه.

٨- جاءت كلمة السلم بالتأنيث «فاجنح لها» لأن السلم هنا يعني السلامة.

٩- **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**. (محمد- ٤٧- ٢٤)

١٠- القات، نبات مخدر يمضغ ويمص ولا يُبلع تكثر زراعته واستعماله في اليمن.

١١- «**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً**» (**الجن- ٧٢/ ١٨**) «**وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**» (التوبة ١٠٧/٩)

١٢- «أبــو رغــال» اسمه زيد بن مخلف هو أول خائنٍ في العرب لأنــه عمل دليلاً لجيش أبرهة في قدومه لهدم الكعبة، لعنه النبي، قبره بين مكة والطائف.

يرجمه الحجَّاج كل عام.





العلم والأخلاق

موسى ديب الخوري ❁

يطرح تطــور العلوم عموماً وتطــور البيولوجيا والفيزيــاء والرياضيات خصوصاً، تساؤلات أخلاقية جديدة. ومن هنا ظهور طروحات فكرية تتناول جدلية العلــم والأخلاق. ويصبح أمراً مشروعاً بالتالي طرح التساؤلات حول أسس الأحكام الأخلاقية المتوارثــة أو المفروضة في الاتجاهات المعاصرة، أو حــول قدرة هذه الأحــكام في البت بمسائل تطرحها الظــروف والتطورات العلمية والتكنولوجية المعاصرة ولم تكن موجودة عندما سنّت هذه الشرائع. بل

❁ باحث ونائب الجمعية الكونية السورية.

إن المفاهيم العلمية الجديدة التي أدت إلى نشوء فلسفات وتفسيرات جديدة لمعنى الحياة ولموضع الإنسان في الطبيعة أعادت طرح مسألة المعنى الأخلاقي على بساط البحث. وفي حين اختبأت التشريعات الأخلاقية خلف مقولة إن الأخلاق ذاتية وإن العلم الحديث لا يمكن أن يطال في بحثه الموضوع الأخلاقي، لكن العلم الموضوعي الذي أعاد النظر مرات كثيرة في مفهوم الموضوعية بات اليوم مؤهلاً أكثر من أي يوم مضى على سبر المفهوم الأخلاقي بل وعلى إعادة موضعة «الأخلاق» في تاريخ الإنسان.

ما هي الأخلاق؟ لقد مال الفلاسفة منذ كانط إلى فصل أصول الأخلاق عن قواعدها وشرائعها وأحكامها. مما أعطى لأصول الأخلاق مكانة مميزة. فقواعد الأخلاق تتعلق بالسلوك الفردي، وهي تجمع التعليمات والأوامر التي تنظم السلوك في فترة معينة من تاريخ مجتمع ما.

أما الأخلاق في أصولها فغايتها أعم، وموضوعها أعمق وأشمل. فهي تعتبر كمنهج موضوعه «وضع الأسس التي تبنى عليها قواعد السلوك»، أي «أن نقوم بشكل من الأشكال ببناء نظرية عقلية للخير والشر»[1]، لما هو في صالح الإنسان والطبيعة وما ليس في صالحهما.

إن المسائل المتعلقة بالأصول الأخلاقية تتعلق مباشرة بمجالات علمية كثيرة، مثل علم الأعصاب والطب وعلم النفس وغيرها من الحقول. فعندما نحاول سبر دماغ الإنسان نجد أن حدوداً تمنعنا من الكشف عن جوانبه وأبعاده كافة، وهي جوانب تجريبية لا تتعلق بفهم آليات عمل الدماغ فقط بل والتدخل فيها أيضاً.

إن العلم، بما هو منهج بحث معرفي، يتناول كل ما يمكننا تعريفه كظاهرة طبيعية، ويحاول تقديم تفسير لحدوث هذه الظاهرة. وضمن هذا الإطار لم يكن العلم مجبراً حتى فترة قريبة على الرد على صيغ الشرائع الأخلاقية طالما لم تكن تتعلق بتفسير الظاهرات. لكن البحث العلمي اقترب كثيراً من تناول جوهر الظاهرات التي يبدو أن تفسيراتها تختلف من حيث المبدأ عن التفسيرات التي كانت تعطى في إطار النظريات الأخلاقية حول معنى الخير والشر. وفي هذا المجال نذكر على سبيل المثال مسألة الإجهاض، التي أخذت حيزاً واسعاً في النقاشات السطحية والمعمقة على حد سواء، كما ونذكر مسألة الصدفة والشواش في تاريخ الحياة، وهي مسألة أكثر حساسية وبعداً عن التناول العام، لكنها تمس مباشرة الأسس الدينية التي بنيت عليها الكثير من النظريات والشرائع الأخلاقية.

وتطرح عبر مؤتمـرات كثيرة اليوم هذه المسائل من وجهة نظر العلم كما ومن وجهة نظر ممثلي السلطات الروحية وخاصة منها «الديانات السماوية». وتفضي توصيات هذه المؤتمرات والنقاشات في بعض الأحيان إلى نصوص قوانين وتشريعات تكون مقبولة عموماً على نطاقات واسعة. ولكن مع ذلك يظل هناك مناطق للقبول والرفض، وفق البلدان والديانات والمنظور الاجتماعي والنفسي للشعوب. ومن المسائل التي تلقى اليوم مزيداً من الاهتمام ولا تزال عصية على التعريف أو التحديد على المستوى التشريعي مسألة اعتبار الحوين المنوي الإنساني كائناً حيّاً أم لا، والموت الدماغي (بمعنى أن توقف الإشارات الكهربائية في القشرة الدماغية يشير إلى الموت أم لا)، والاعتبارات المرضية لأشخاص يبنون على أساسها حقهم في إنهاء الحياة، إلخ. هذا ناهيك عن المسائل المتعلقة بالمفاهيم الأخلاقية السائدة في التعامل مع حالات مرضية اعتبرت عبر التاريخ أو في المواريث والتقاليد الشعبية والدينية كحالات غير مرضية وفسِّرت وفق هذا الموروث أو ذاك، وأهمها حالات الفصام النفسي المختلفة التي لعب العامل الديني كما والموروث الاجتماعي دوراً كبيراً في النظرة إلى المرضى النفسيين كمرضى اجتماعيين فقط وليس كمرضى بيولوجيين. وهكذا ينشأ جدل جديد ونقاش معمق بين العلوم الإنسانية الحديثة والعلوم البيولوجية، نقاش لا يخلو من تدخلات رجال الدين أو المذاهب والسلطات الروحية.

تقودنا هذه المسائل كافة إلى التساؤل بشكل لا يمكن تحاشيه حول أسس التشريعات والأوامر التي تعد أخلاقية. أهي شكل من أشكال الإجماع والتوافق العقائدي المرتكز على بعض المفاهيم الغيبية المشتركة عموماً وإن كانت في صيغ وألفاظ مختلفة بين الديانات، أو نوع من أنواع «الميثاق» بين السلطات الدينية؟ أم هي على العكس تعبير عن الحس السليم الشعبي، وعن رغبة جمعية، رغبة تمثل الأكثرية على الأقل، خارج أي مرجعية واضحة للميتافيزياء؟

ومن جهة أخرى، هل يمكننا أن نتخيل بأن البحث عن الموضوعية الذي يترافق مع هذه الحوارات والنقاشات يمكن أن يُدخل الأخلاق إلى مجال العلم؟

لا يمكننا أن نتجاهل مثل هذا التساؤل كما لم يتجاهله كثيرون، مثل أندريه لووف André lwoff وجاك مونو Jacques

Monod وفرانسوا جاكوب(٢) François Jacob وجان بيير شانجو(٣) Jean-Pierre Changeux وغيرهم. وحتى إن كان هناك من يرفض الفكرة بأن الأخلاق ترتكز حصراً على المعرفة الموضوعية، لكن يبدو لي مع كثيرين عن فلاسفة العلم الحديث أنه لا غنى اليوم من العودة إلى هذه المعرفة من أجل بناء أصول أخلاقية، لن أسميها بالجديدة، بل بالمتجددة. ومع إعادة النظر التي يقوم بها العلم نفسه اليوم حول مفهوم الموضوعية المعرفية، فإن البحث عن معرفة منفصلة عن العارف، معرفة لا يؤثر الباحث في نتائجها (الموضوعية، حتى في إطار الميكانيك الكمومي) ولا تؤثر نتائجها فيه كذلك، مهما بدت غير موضوعية، لم يعد بحثاً قابلاً للاستمرار ولا لطرح تفسير للعالم متوافق مع الظاهرات المكتشفة من جهة، ومتجانس مع «أخلاقيات» البحث العلمي أي مع مفهوم الموضوعية في العلم الحديث، الذي لم يعد مفهوماً جامداً بل مفهوماً ديناميكياً متغيراً من جهة ثانية.

يجب بالتالي الانطلاق في كل تأمل من هذا القبيل من معطيات علم الإناسة وتاريخ الأديان وعلم القانون والحقوق، وعلم النفس الإدراكي وبالتالي العلوم العصبية، وغير ذلك من معطيات العلم الحديث وعلى رأسها الكونيات وتطور الحياة والبشريات، ناهيك عن العلوم الفيزيائية المعاصرة. ويصبح من المشروع على هذا النحو أن نتخذ المنهج العلمي ونبني في الوقت نفسه نماذج قابلة للإثبات وللمراجعة والتعديل واللجوء باستمرار إلى نتائج العلم المتطورة يوماً بعد يوم. إن أرضية الحوار هذه أكثر ثباتاً إذا جاز القول من أي طرح غيبي، أو من أي معتقد، وهو طرح غالباً ما يأتي في صف المعارضة ضد الحس العام والمشترك وضد معطيات أبسط المبادئ الفيزيائية والعلمية.

يقول جاك مونو «إن البحث الذي لايفتر عن الحقيقة، وهو المحرك الأول للعلم، يشكل في الواقع أخلاقاً». بل إن هذه الأخلاق الباحثة عن الحقيقة والمتقبّلة لها والمنفتحة على تجدّدها تتبدى أنها الأخلاق الأكثر احتراماً عبر التاريخ حتى وإن كان سلوك عدد من العلماء في الوقت الراهن يخرج عن إطار هذه الأخلاق البحثية الصرفة. غير أن فلاسفة كثيرين أشاروا إلى صعوبة هذه المهمة. إن هذا التفحص الحرّ يتطلب جهداً معمّقاً في البحث. أي أنه يحتاج إلى زهد أصيل وحالة من التجرّد. فهل لدينا الشجاعة والقوة الضروريين لذلك؟

إن الأوضاع التي نواجهها، على الصعد كافة، غالباً ما تكون متعارضة، وتدخل

عوامل ومحرضات كثيرة في تكوين الظروف: إنها مهمة ثقيلة جدّاً أن نبحث عن الأسس الموضوعية للقواعد الأخلاقية وأن نعمل على إعداد قواعد أخلاقية على أساس تأملي في معطيات العلم المعاصر، معطيات تنحو اليوم أكثر فأكثر لتصبح بعيدة جدّاً عن مفهوم الموضوعية التقليدي إن جاز التعبير. لهذا كان ولا يزال من الأسهل اللجوء إلى مسلمات وضعية مسبقة من العمل على معطيات العلم التي تكون هي نفسها في بعض الأحيان عابرة أو متغيرة أو حتى تحتاج إلى تعديل أو مفتوحة على تساؤلات أكبر وأعمق. إن العمل على وضع قواعد محددة ودقيقة في السلوك يقودنا إلى عالم من المعارف والتأملات يصبح من الأصعب ضبطه يوماً بعد يوم. إن أحد جوانب تطبيق الرياضيات المتمثل بالمعلوماتية - مع قواعدها العملاقة وذواكرها الهائلة - يمثل مرجعاً قد يساعدنا في هذه العملية. فهل علينا عاجلاً أو آجلاً الطلب من الحواسيب أن تقرر أحكاماً أخلاقية؟

تلكم أيضاً وأيضاً مسألة تهم عالم الرياضيات وتفتح مجالات للبحث جارية منذ الآن. وفي الحقيقة، فإن تطور المعلوماتية يفرض جانبين أساسيين من ارتباط التطور العلمي بالمفاهيم الأخلاقية في المستقبل القريب. فمن جهة، يشكل التطور المعلوماتي أحد الأسس التي يقوم عليها التطور التكنولوجي، بحيث يفتح إمكانيات لم يسبق للإنسان أن حلم بها في ميادين الطب والهندسة المورثية وغيرها. ومن جهة أخرى، فإن المعلوماتية تصبح أكثر فأكثر أحد المساهمين الأساسيين في بناء النماذج المعرفية والتفسيرية للظاهرات الطبيعية والكونية. وفي الحالتين، يفرض التطور المعلوماتي إعادة النظر في قضايا لا تقتصر على التدخل الإفرادي في حالات يمكن النظر إليها على أنها حالات أخلاقية، بل وفي قضايا الفهم المعرفي، الموضوعي في إطاره العلمي الجديد، والتفسير الجديد لمعنى الوجود الإنساني وللحياة نفسها.

أيّاً كان الأمر، فإن ما ينطبق على الرياضيات ينطبق على الأخلاق في كثير من جوانبها. فنحن كبشر ممثلون لأحد الأنواع البشرية التي تسمى الهومو سابيان سابيان، أي الإنسان العاقل العاقل. ذلك أننا نملك دماغاً يحدّد قبول أو رفض قواعد أخلاقية. لكن الدماغ مبني أيضاً في وسط اجتماعي محدد وخلال لحظة معينة من التاريخ الثقافي للبشرية عموماً وفي إطار جماعة ثقافية محددة. إن كل رجل علم يرفض الخضوع للشقاق العقلي الذي

يتعايش معه العقائديون، ويريد البقاء متناغماً مع ذاته وعقله، عليه أن يحاول في تأمله وفكره البحث عن أسس طبيعية للأخلاق. إنها استعادة بشكل ما للحركات التنويرية التي تواترت في العالم منذ القرن السابع عشر وللثورة الفرنسية بشكل خاص، إنما مع ميزة هامة جدّاً بالنسبة لنا اليوم حيث يمكن أن تفيدنا نتائج العلوم العصبية والعلوم الإدراكية والأنثروبولوجيا وغيرها في بلورة مفاهيم وتصورات جديدة للقواعد الأخلاقية.

كان غونثر ستنت Gunther Stent وهو مختص بالبيولوجية النووية قد بدأ منذ عام ١٩٧٨م بتنظيم محاضرات سميت بلقاءات دهلم[٤] Dahlem تحت عنوان «الأخلاق كظاهرة بيولوجية Morality as a biological phenomenon»، وكان الهدف منها دحض المسلمات والأفكار المسبقة العقائدية الطابع في علم الاجتماع الحيوي الذي كان يشقّ في بداياته طريقه بصعوبة بالغة إنما على أسس كان مشكوكاً فيها في الوقت نفسه، هذا على الرغم من أنه لم يتخلّ عن البحث عن أسس بيولوجية لقواعد الأخلاق. ويعود هذا الجدل كما هو الحال غالباً إلى العصور القديمة. ففي اليونان كان ثمة اتجاهان يتعارضان، وهما اتجاهان قريبان من الاتجاهات التي تبحث في أصول الرياضيات. الموقف المثالي الذي يمثله أفلاطون وهو موقف بسيط: فالسلوك يجب أن يكون متناغماً مع مبادئ تنتمي إلى عالم الأفكار. لكن هذا الموقف يشتمل كذلك على قوانين الرياضيات الكونية والمعرفة. وبالمقابل، كان هناك موقف ديمقريطس وأبيقور ثم لوقريطس الذين اهتموا بالإنسان كنوع حيواني: وبالنسبة لهم فإن الحكمة تشتمل على التخلص من كافة الأفكار المسبقة الغيبية المسؤولة عن شقاء البشر. نحن هنا أمام وجهتي نظر متعارضتين وليس من السهل أبداً الجمع بينهما.

وإن كنّا لا نسعى في هذا البحث إلى بناء منظومة متجانسة تجمع بين هذين التيارين أو غيرهما، لكننا نتساءل عما إذا كان العلم نفسه قابلاً لأن يجد حلاً يتجاوز التمسك بالمسلمات المسبقة لصالح صيرورة قابلة للتجدّد باستمرار، وللتعديل كما يقول ندره اليازجي[٥]، في بناء الشخصية المتوازنة للإنسان، ليس من خلال شرائع ثابتة، ولا من خلال حرية منفلتة، بل عبر الارتكاز على مبادئ الوعي، التي تشتمل بالنسبة

للعلم على الأقل علـى رؤية موضع الإنسان في الطبيعة والكون.(٦)

تظـل هناك نقاط عدة لابد من التوقف عندها في محاولتنا لاستشفاف إمكانية بناء منظور طبيعي للأخلاق. وتأتي في مقدمتها إمكانية وجود أو عـدم وجود أصول عالمية وكونيـة للقواعـد الأخلاقية. فـإذا أخذنا بوجهة النظر الأفلاطونية فلا بد من وجود عالمية أخلاقية، كما يوجد عالمية رياضياتية. فلابد أن نكون أفلاطونيي النزعة الأخلاقية كما نحن عالميون في نظرتنا الرياضية. لكن، هل الرياضيات عالمية حقاً؟

إن تنـوع الثقافات كبير جـدّاً كما يبين لنا علم الأنثروبولوجيـا. وهناك تنوع هائل في البنى الفكرية والعقائدية كما والسلوكية والاجتماعيـة. وكما هناك تنوع في التنظيم الاجتماعي ثمة تنوع في الأحكام الأخلاقية من ثقافـة إلى أخرى. فعلـى سبيل المثال، نلحـظ التناقض الكبير في نمـط الحياة السائد في الكثير من المجتمعات التي تعيش في شبه عزلة عن المجتمع المعاصر في بعض الجـزر أو الغابات حيـث لا يرتدي الرجال والنساء ما يستر عوراتهم سوى القليل جدّاً، في حين تفرض مجتمعات أخرى أنماط ثياب محددة لا يجـوز التهاون فيهـا. في الحالة الأولى تعيش هـذه المجتمعات في تناغم مع طبيعتها الحـارة أو الرطبة ولا يشكل البعد الجنسـي النفسي عائقاً أمام الظهور بشكل شبـه عار لأن العري أصبـح جزءاً لا يتجزأ مـن حياة هـذا الشعب، وأصبحـت صورة الجسـد مقدسة قداسـة الطبيعة، في حين تصبح أشكال الجسد مساوية لمعاني الشهوة الجنسية في مجتمعات أخرى، ويُفرض ارتداء أزياء معينة كوسيلة للَجـم الدافع الجنسي الذي يتحول بهذه الطريقة إلى شهوة.

لابد من الاعتراف بالتالي بوجود «غيرية ثقافية» لا تزال غير مفهومة أو يصعب جدّاً على الأقل فهمها من قبل الذي لا ينتمي لها. فمن يعيش في مجتمع أوروبي سيصعب عليه مثلاً فهم (وليس قبـول) الشكل الإسلامي للحجـاب، في حـين يصعـب بالتأكيد على المسلـم فهم الأسلوب في ارتـداء الثياب في الغـرب. ولا يخفى علينـا الارتباط الوثيق لهذا المثال بالخلفيات الأخلاقية التي تسود مجتمعـات الشرق والغرب. هناك الكثير من الصراعات القائمة في عالمنا المعاصر، أكانت مذهبية أو عقائدية تشهد على عدم قابلية فهم الآخر ثقافياً وهو عدم فهم متبادل بين الديانـات والعقائد بالدرجـة الأولى، الأمر الذي يجردها من الكثير من قيمتها وقيمها، طالمـا أنها أصبحت سببـاً للتفرقة بدلاً من أن تكـون باعثـاً للجمع والوصـل. (ونشير

هنـا إلى أن لفظـة religion اللاتينيـة تشـير إلى الوصـل والوحـدة والجمع). إن هذه النسبويـة الأخلاقية، أو بالأحرى هذه النسبويـة في القواعد الأخلاقيـة، تتوافق مع تنـوع اللغات أو التمثيـلات الثقافية أو المعتقدات أو القوانـين. ويبدو من الصعب مع تنوع واختلاف المعايير الأخلاقية تحديد معيار أكيـد يسمح ظاهره في تقدير التفوق الأخلاقي في هـذا المعتقد أو ذاك، في هذه الثقافة أو تلك، في هذه القوانين أو غيرها، بـل في هذا السلـوك أو ذاك. فـكل ثقافة تتشبـث وتدافع بكل مـا أوتيت من قوة عن أخلاقهـا التي تعدها الأكـثر ثباتاً وأصالة، إن لم تكـن مرجعيتها هـي الألوهة نفسها. فكل منا يعتقد ويؤمن أن أخلاقه هي الأكثر «طبيعيـة»، وبالتالي الأكـثر حقيقية وصلة مع أصل الوجـود، أي الإله بالنسبة للمؤمن المتديـن، على اختـلاف العقائد والمذاهب، أو الحقيقـة العلمية بالنسبة للعلمانيين غير المتدينـين. إن ذلك أشبه بحـوار الطرشان يقوم فيه كل طـرف بدحض الآخر معتقداً أنه يقـع في الطرف الصحيح في حين يقف الآخر في الطرف النقيض للصحة.

يعيش اليابانيون الذين أصبحوا المنافس الأكبر للغرب في العلم والصناعة والاقتصاد منـذ آلاف السنـين وفقاً لأخـلاق تختلف أسسهـا التاريخيـة اختلافـاً جذريـاً عن الأخلاقيات اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلامية السائـدة حاليّـاً في الغرب والعـالم العربي والإسلامـي. فهل يجـب أن ينظر الغربيون أو نحـن إلى الأخـلاق اليابانيـة على أنها أدنـى أو أقل صحة مـن الأخلاق اليهودية ـ المسيحيـة أو الإسلامية؟ يضع علم الإناسة الاجتماعيـة الباحث في الطبيعيـات أمام وضع فائـق التعقيد والصعوبـة، طالما أنه يبرز بوضـوح أكبر التنوع الأخلاقي بدلاً من عالميـة وشمول القواعد الأخلاقية. فإن كنا نجد التنوع الأخلاقـي في تشعبات العقيدة نفسهـا، فبالأحرى سنجـد فروقاً جوهرية في المنظور الأخلاقي لمجتمعات تختلف عنّا تاريخيّـاً في بنيانها الأخلاقـي مثل اليابان والصين والهنـد على سبيل المثـال. ولهذا يبدو من الصعـب جدّاً بعد تحليل القواعد التـي وجـدت أو توجـد اليـوم في مختلف المجتمعـات الثقافية استخلاصـ «شمولية أخلاقية» محددة. وبعبارة أخرى، إن كنّا لن نرجع إلى أي من العقائديين الذين يشد كل منهم إلى صوبـه الحقيقة المطلقة للأخلاق الخاصة بعقيدته، فإننا لن نستطيع بسهولة التوصـل إلى مساحة مشتركة بـين التعدد الثقافي والتنوع الأخلاقـي إن جاز التعبير، دون الخروج خارج إطار العقائدية أو تجاوز

إطـــار التاريخ العقائدي إلى رؤية موضوعية وعلمية معاصرة للمشترك الإنساني.

وفي هذا الإطار يـبرز العلم ليس كأحد الفرقـــاء في الجدل الأخلاقي التاريخي، بل كمحور جديد يخترق الحلقة المفرغة لحوار الطرشـــان باتجـــاه تطبيق منهجـــي للبحث العلمـــي في سبيـــل الوصـــول إلى رؤية أكثر إنسانية وشمولية لموضع الإنسان في الطبيعة كما كان يقول تلار ده شاردان.

الحيـاة الاجتماعيـة والفص الجبهي للدماغ

إن المبدأ «الشمـــولي» أو «العالمي» الذي ينبثق مع ذلك بشكل مؤكد هو وجود قواعد أخلاقيـــة أو عـــادات أخلاقيـــة وتأمـــلات وأفـــكار تختص بالأخلاق عـــبر تعدّد وتنوع الثقافات، الأمر الذي يشير إلى أصالة الفكر الأخلاقي، أو البحـــث الأخلاقي، في البنية البشريـــة. هذا ما يتحدث عنه كانط عندما يخبرنا عن عالمية الحاجة الأخلاقية نفسها. ويمكننا بالتـــالي أن نشمل في هذا المصطلح قواعـــد التفاعلات بين الأفـــراد الذين من المجموعـــة الاجتماعية نفسها. وهكذا ينشأ الدافع الأخلاقي مـــن الوجود نفسه للواقع الاجتماعـــي. إنها نقطـــة أساسيـــة يرتكز عليها الباحثون في محاولة لرأب الصدع في اختلافات المنظور الأخلاقي بين المجتمعات.

وهكذا يبدأ الباحث المرتكز على الطبيعيات بربط وجود القواعـــد الأخلاقية والأخلاق بالحيـــاة في المجتمـــع، حتـــى وإن كان هذا الأخير لم يكن مجتمعاً بشرياً.

وفي الواقع، فإن الرابط الاجتماعي أكثر متانة عنـــد بعض أنواع الحيوانات، وخاصة عند الحشـــرات على سبيل المثـــال، منه في المجتمع الإنساني. ونحن جميعنا نعرف مثلاً أن العاملات عند النحل المدجن تؤمن الغذاء للملكة الولودة في حين تكون هي نفسها غير منجبة. وتبنـــي بعض أنواع الزنابير منشآت جماعيـــة خاصة بها فائقـــة التعقيد وذلك بتعـــاون وفعالية أعلى بكثـــير مما نراه عند البشر. وتتراكـــم عند الثديّـــات والبشريات فوق السلوك الاجتماعـــي، حالات السلوك التـــي توصف بأنهـــا غـــير اجتماعية، مثل الواقع العائلي، والسلوك العدائي والدخول في منافسات مع مصالـــح أكبر من الفرد أو الجماعة والتي تتعلق في جوهرها باستمرار النـــوع. ومع ذلـــك، تمثل أنمـــاط الرابطة الاجتماعية عند الإنسان خصائص متفردة، لأنـــه الوحيد من بين الحيوانات الحية كافة الذي يملك إمكانيات إدراكية أكثر تطوراً من غيره. فعند الهومـــو سابيان ثمة اقتران بين الاجتماعي والعقلاني بل وبحث عن التوفيق بينهما. ومـــن هنا أهمية أن نلاحظ ضرورة

الانفتاح على الأفـكار التي تقول إن الواقع الاجتماعي يطـرح إشكاليات متزايدة على العقـل بحيث لا بد لهـذا الأخير من إيجاد حلـول لمسائل لم تعد القواعد المتوارثة كافية لاحتوائها أو قبولها أو التعامل معها.

وضمـن هـذه الظروف، فـإن الأخلاق تندمج مع عقلانية الالتزامات تجاه الآخر، هذه الالتزامات التي تفرض نفسها على كل فرد ضمن المجموعـة الاجتماعية. وتحدد هذه الظروف أو الشروط مبادئ عامة تنظم، وفقاً لمتطلبات المنطق، التوافق والتعاون بين أفراد المجتمع. ولهذا فهي تنطلق في البداية بتأثيرها على أنماط الاتصالات بين الأفراد في المجموعـة الاجتماعية وليس فقط على الاعـتراف بما يقوله المتحـدث أو المحاور، بل وأيضاً على الاعتراف بمقاصده ونواياه، وهـو نمط التواصـل المعـروف بالتداخلي لدى غرايـس Grice (١٩٧٥م)[٧] أو سبربر وويلسون (١٩٨٦م)[٨]. إن البحث، بين مختلف «البدائـل» لمختلـف القواعـد الأخلاقية، وفي أسسهـا العالميـة يقودنـا إلى اعتبـار بعضـ الخصائص الإدراكيـة المميزة للنوع الإنسـاني. وأولها تمثل الآخـر، مع حالاته الانفعاليـة والعاطفيـة، ومشاريعه القريبة والبعيدة المدى، وبشكل خاص تمثله بطريقة انعكاسية، كـذات أخرى وكعنصر من نوعنا الاجتماعي. إن هـذه الخصائص الإدراكية تتضمن القـدرة على إنشاء نظرية للحالات العقلية للآخر، بـل ونظرية للنظريات التي يجهزها للمستقبل. وهي تشتمل أيضاً على النظريات التـي نتمثل من خلالها المنظومة الاجتماعيـة ككل، وإمكانيـة أن نحيّن فيها أو نحـول فيهـا التاريخ المتراكـم «للحالات العقلية» للأفراد بحيث تصبح قابلة للتمثل آنياً في الحاضر.

إن هـذه الخصائـص تنشـأ من وجود «هندسات عصبيـة» تتضمن سويات تنظيم قريبة من تلك التي يحددها علماء الرياضيات كمستوى ثانٍ وثالث في ممارسة الرياضيات. ونحن نعرف في هذا المجال الدور الرئيسي للفصـ الجبهي في معظم هـذه الحالات. وتثبت الأبحاث السريرية حول الصلات التي للفص الجبهي وجود تخلخلات في السلوك الاجتماعـي، بل وفي «الحسـ الأخلاقي». كان هارلـو قـد أشار منذ عـام ١٨٦٩م في وصفـه لحالة أحد العمال الذين جرحوا في الفص الجبهي إلى أن «التوازن بين القدرات العقلية لديه وميوله الغريزية قد دمر تماماً، فأصبح عصبياً ولا يحـترم أحداً ويتصرف ويقول أشياء بذيئة وهو ما لم يكن من عادته قبل الحادث، حتـى يكاد لا يكون مهذباً إلا فيمـا ندر مـع أقرانه. وبشـكل خاص فهو

دائماً على تضاد مع الآخرين ولا يستمع إلى نصائحهم عندما يعارضون أفكاره...». وفي حالة أخرى يصف لوريا حالة مريض لديه كان ينظر إلى لوحة لكلودت Klodt عنوانها «الربيع الأخير» وتمثل فتاة تموت جالسة على كرسي، ففسر اللوحة أنها زواج الفتاة بسبب ثوبها الأبيض. فالمريض الذي أصيب فصه الجبهي لم يعد يدرك أو يفهم بشكل صحيح العناصر العاطفية للوحة، ولم يعد يضعها بشكل صحيح في إطارها الاجتماعي. ولهذا لم يكن من المصادفة أن لوريا وصف القشرة الجبهية بأنها «عضو الحضارة» في الإنسان.

يتميز الدور الذي يلعبه الفص الجبهي عن دور الأجزاء الأخرى من الدماغ مثل القشرة الصدغية. وقد وصف جشوايند[٩] Geschwind حالة غريبة من الصرع في الفص الصدغي وصفها أيضاً غزانيغا[١٠] Gazzaniga، وهي حالة تستجر تكثيفاً للقناعات الدينية (مع انتقالات وتحولات شديدة وغير متوقعة من منظومة معتقدات إلى أخرى)، مترافقة بالرغبة في الكتابة بغزارة كما وبتذوق للممارسات الجنسية الغريبة. بل إن مجموعة تراتبية ومتوازية من الأعصاب تساهم في الوظائف «الإدراكية» التي تستخدم في العملية الأخلاقية[١١]. إن مجمل هذه المشكلات العصبية المساهمة في البنية الأخلاقية هي مشكلات مشتركة لدى النوع الإنساني. وهي تشكل جزءاً من السمات التي تميز الإنسان عن الأنواع الحيوانية الأخرى. فهي بالتالي تخضع للتحديدية المورثية التي تشكل إطار «الطبيعة الإنسانية»[١٢]. وهذا ما يشكل أساساً لأخلاق عالمية، لا تصدر عن قناعات مسبقة، أو عن اعتقادنا بامتلاكنا لمصادر أخلاقية إلهية، بل عن تراث إنساني مشترك لمورثاتنا لا ينفصل عن تاريخ الحياة الطويل نفسه. علينا إذاً البحث عن أصول ما هو عالمي أو شمولي في الأخلاق والذي يمكن أن يقودنا إلى تعريف أو تحديد حقوق قوانين وواجبات النوع الإنساني في الموروث الوراثي المشترك للإنسانية الذي وصلنا عبر العصور وشكّل بنانا ليس فقط الجسمانية والشكلية بل والنفسية والعقلية والأخلاقية.

السلوك الاجتماعي للطفل والأثر الثقافي

إن هذه المحددات المورثية تظهر تدريجياً وبشكل متتابع خلال النمو الجنيني، عندما تبدأ الخطوط العامة للبنية الدماغية بالظهور، وبشكل خاص مع نمو وهيمنة الفص الجبهي. فمنذ الولادة يبدأ الطفل بالتفاعل مع «الآخر». وتنمو عنده أشكال

سلوك اجتماعية تؤمن تفاعله المتناغم مع الأشخاص الآخرين ومع بيئته[١٢]. ويبدأ الطفل منذ شهره الثالث بالتعرف على أبيه وأمه، والتفاعل معهما وتبادل الأشياء معهما. ومنذ بلوغه العام الأول يتعلم الطفل تقاسم الأشياء. وهو يبدأ بتقديم الأشياء للآخرين لكي يدخل في تواصل معهم. ويبدأ اهتمامه بالآخرين منذ بلوغه شهره الحادي عشر. ويبدأ الحوار والمناقشة في سنته الثالثة، وهو يظهر منذ فترة مبكرة أيضاً مشاعر الصداقة والتأثر مع علامات الابتسام والتقبيل وغيرها. ومع ذلك فهو يخاف أحياناً من الغريب. وأخيراً، عند بلوغه العام الثامن تظهر لديه الرغبة بأن يحل محل الآخر. إن قدرته على المشاركة في مشاعر الآخر تظهر بالتالي عنده منذ فترة مبكرة، وهي أساس تمثله للآخر كذات له، وهو ما ذكرناه سابقاً، للآخر ليس فقط كفرد بل وكفرد يحيا ويشعر.

إن التعاطف والود والإئتناس كسلوك هدفه المشاركة والمساهمة في تغيير الشعور بعدم الراحة عند الآخر يظهر لديه بين الشهر التاسع عشر والشهر السادس والثلاثين. ثم تظهر مفاهيم الطاعة والمسؤولية الواعية. وبين الشهرين التاسع والثاني عشر يتبع الطفل أوامر أمه، ويبدأ عند بلوغه الشهر السابع عشر بإعطاء الأوامر لنفسه. ويصبح الطفل قادراً تدريجياً على القيام بسلوك المساعدة والتعاون. فيشارك طفلاً آخر مثلاً في عمل مشترك، وبهدف مشترك. وبالتالي فإن المواقف الاجتماعية تشهد نمواً تدريجياً يفترض على الأرجح عدداً كبيراً من التصرفات الفطرية. وهذا يعني قبل كل شيء إن ما نسميه الفطرة هو سياق تطوري تجذر في الموروث البشري عبر عشرات آلاف السنين إن لم نقل مئات آلاف السنين. وهذا الأساس الطبيعي هو ما تبني عليه التربية، أكانت عقائدية أو غير عقائدية، في إنشاء الأسس الأخلاقية التالية للطفل.

مع ذلك، فإن جانباً آخر من بنية الطفل النفسية العصبية تترك مجالاً لنمو جانب آخر في شخصيته عند بلوغه. فمنذ ولادته يترك تفاعل الطفل مع بيئته الفيزيائية والاجتماعية آثاراً سوف يكون لها الأثر الأكبر في تحديد بنيته الشخصية، وربما كان ذلك أكثر من أي أثر مورثي مسبق. وقد بين كل من هبل وويسل من خلال التجربة أن تربية قطة أو قرد في بيئة مكونة من العوارض العمودية، بحيث تتناوب هذه القضبان بين الفاتح والداكن (أو كما في تجربة أخرى حيث كانت الرموش مغلقة في عين واحدة عند بلاكمور C. Blakemore)، يؤدي

إلى تغيير واضح وأكيد في النوعية الوظيفية لأعصاب القشرة البصرية. وهذه النتائج تنطبق أيضاً على مناطق أخرى من الدماغ، وخاصة على الفص الجبهي. فعند الجنين يمكن أن تلعب النشاطات العصبية الآنية دوراً كبيراً أثناء التشكل المتعاقب للمنظومة العصبية. وبالتالي من المرجح أن نمو الأداء الإدراكي والحالات العاطفية للفرد يخضع لتوالد أو لتشكل متعاقب بوساطة الاصطفاء. وهذا ما يثبته العلم اليوم على أكثر من صعيد، قد يدهشنا أن نعرف أنه يشكل أساس توالد الحياة نفسها. وهكذا فإن المعتقدات والقواعد الأخلاقية تتثبت على التوازي مع اكتساب اللغة الأم، وفق أنماط مشابهة على الأرجح. وهكذا ينطبع دماغ الطفل بقواعد أخلاقية، مثل اكتسابه للغة الخاصة بمحيطه العائلي والثقافي الذي ينشأ فيه. ويفرض عليه هذا المجتمع بالتالي وبشكل سلطوي مهيمن غالباً انتماء ثقافياً خاصاً سيصبح طابعاً ملتصقاً به ربما طيلة حياته. وإن أراد التحرر منه لاحقاً فسيكون ذلك أشبه بمخاض غاية في الصعوبة، قد لاينجح فعلياً فيه أبداً. ومما لا شك فيه أن الأسس العصبية الإدراكية لتثبيت العقائد تظل بالنسبة لمعظم الأفراد مجهولة. لكنها تشكل اليوم أحد مجالات البحث الأكثر تشويقاً على الإطلاق.

يتبدى لنا بالتالي أنه من الأساسي جداً تحديد الانتظامات العائدة إلى هذه الخصائص التي فُرضت بوساطة الموروث الجيني البشري والتي تشكل نوعاً من «القواعد المولدة للأخلاقيات» وتحدد بالتالي المراحل الأساسية للسلوك الاجتماعي للفرد. من المهم من ثم تمييزها عن القواعد الخاصة بثقافة محددة، والتي تساهم كما رأينا في مراحل لاحقة في تشكيل تفرد الكائن. لكن هذا التمييز يظل من الصعوبة بمكان بسبب التداخل العميق جداً لهذين الجانبين أثناء المراحل المتعاقبة للنمو. وأيّاً كان الأمر فإن هذا الحد من التنوع التشابكي الناشئ عن التفاعلات المستمرة بين المورثي والبيئي والذي يتحرر في لحظة معينة من أثر المورثات عبر أنماط النمو والاستقرار في تواصلات متشابكة يسمح لأخلاق خاصة بالنشوء في وسط اجتماعي محدد في لحظة معينة من تاريخه. ويصبح هذا النمط الأخلاقي بدوره سائداً ومتوارثاً عبر الآلية نفسها عبر دورات جديدة. ولهذا، نشهد ببساطة استمرار دين ما وفق أخلاقيات متوارثة إنما متكيفة مع أنماط بيئية جديدة. لكن في النهاية، يمثل هذا التفاعل اكتشافا ومواجهة لهذه القواعد

الأخلاقية التي لا بـد أن تتحرر في النهاية من أثرهـا الوراثـي لتشكل إطـار قواعد أخلاقية جديدة. فعلينا الاعتراف في نهاية المطـاف بـأن تشريعاتنا وأخلاقنـا، المبنية على المـوروث غالباً، تعيـد صياغة نفسها وفق التغيرات الزمانيـة والظرفية، لكن ما يترسـب من تاريخ المـوروث نفسه في بنيتنا النفسية والموروثية يعيد هذه التغيرات غالباً إلى إطـار متأصل في المعتقـد الذي يخسر هكذا شيئـاً فشيئاً من أصالتـه التي كانت متناغمة مع ظرف وزمن ما، لصالح أصولية تريـد التشبـث بالإطـار الأخلاقـي الذي أصبح فارغاً في ركـب الحداثة والمعاصرة. يتجلـى ذلك بشكل كامـل في الصراع الذي نعاينه اليوم بـين إرادة الخروج من الموروث الأخلاقي الجامد، وعدم القدرة على تعديل أو نبذ الإطار العقائدي الذي لا يزال يشكل المرجعية الأخلاقية في مجتمعاتنا.

تطور البشريات والتطور الأخلاقي

إن تطور البشريات يقدم لنا صورة دقيقة اليوم بفضل علوم الباليونتولوجيا والخرائط المورثيـة للشعوب عن تاريـخ الإنسان ليس كمخلوق جاء على صورة الإله، بل ككائن مرّ بمراحل عديدة قبـل أن يصل مجتازاً عالمه الحيـواني إلى وضعه الإنساني الحالي الذي يتساءل فيه عن قيمه الأخلاقية.

وإن كان تطـور الإنسـان لا ينفصل عن تطور الحياة، ولا عن تطور الكون ككل، فقد بدأ العلماء يطرحون منذ أمد ليس بالبعيد أفكاراً جديدة حول تجـذر مبدأ الحياة في الوجـود. إن الحياة لم تعد مجـرد توافقات لجزيئـات قادرة علـى البقـاء والاستمرار والتكاثـر والتطـور، بقدر ما باتـت تشكل أساساً لصيرورة الوجود كلها. وترتكز أسس الحيـاة الكونية على مفاهيـم تتناقض مع تصوراتنـا حـول ميكانيكية سببيـة لنشوء الحياة. فنحن ندرك اليوم أن نظرية الشواش تشـكل القاعـدة التـي يبنى عليهـا العلم الحديـث، لأنها ببساطـة منطلق ديناميكي لتشـكلات العالم. وهكذا، فـإن الصدفة في التفاعـلات العشوائية هي أساس تفاعلات التعقيـد منذ أبسط المستويـات الجسيمية وحتى أعقد التفاعلات العصبية الدماغية. وفي حين نعتقـد أن التطور الجنيني يرتكز على قوانين مسبقة تنفذ بدقة عبر ترميزات الحمض الريبي النـووي، فإننا نعلم اليوم أن كل تفاعلات خلايانا ونمو أجنتنا وبلوغنا

يرتكــز على تفاعــلات عشوائيــة تحكمها قوانين الفوضى التحديدية.

تنشأ مفاهيمنا المعرفية بالتالي وبالأحرى قيمنــا الأخلاقية على خلفيــة التفاعلات الكيميائيــة العصبية في مراكــز معينة في دماغنا. وتبين الأبحاث الحديثة أن السياق التطــوري ليس وحيد الاتجــاه، أي لا يأتي فقط عــبر تغــيرات في المورثــات، ثم عبر تأقلــم مع البيئة واصطفاء الأفضل، بل عبر تأقلم وقدرة على اكتساب خبرات تنتقل عبر الأجيال لتصبــح إمكانيات مورثية بدورها. ومن هنا، فإن التلاقح الاجتماعي، الفردي والجمعي، كمــا والتربية والتعليم والخبرات المكتسبــة تمثل عناصر لا يمكن حصرها في تطور منظورنا الأخلاقــي. وفي حين سعت المرجعيــات العقائديــة في تاريخنا القريب إلى حصر الجانــب الأخلاقي في منظورها الاستنباطــي للمعرفة، فقد عمــل التطور العلمي الحديث على رؤية الجانب التطوري في قلــب عشوائية التفاعــلات، البيولوجية المورثية مــن جهة، والعصبيــة الفردية من جهــة أخــرى. وإن كان ثمــة إمكانية لرؤية طبيعيــة لأصــول الأخلاق فــإن مرتكزها سيكون بالتأكيد العمــق الغني للاحتمالات اللانهائيــة لهــذا الشواش البدئــي القابل للإبــداع في كل ما نقوم بــه من استقراءات واستدلالات عقلية اليوم.

إن بناء المجتمع الــذي نعتبره اليوم أكثر تنظيمــاً مــن المجتمعــات القديمــة ينفتح بالدرجــة الأولى على مفاهيــم الديناميكية الحــرة من قيود الأحكام المفروضة. وكذلك تنحــو التربيــة إلى بنــاء عــوالم الطفل في ظل الحريــة الحيوية والعلاقــات المفتوحة المتناغمة علــى الأقل مع عــالم التفاعلات الحــرة القائم في كيانــه الدماغي والنفسي على السواء.

لقد ارتكــزت أخلاقنا في شكلها الديني حتى الآن على هــذه الفكرة الأساسية وهي ميكانيكيــة نشوء الحياة التي لم تتناقض مع مفهوم الخلق البدئي. وبالتالي كانت التربية تقوم علــى ميكانيكية صارمــة من العقائد والشرائــع التــي تلبي مفهــوم الخلق. لكن الصــورة التي يتمخض عنهــا تطور الفكر النفســي والروحي عــبر العلــم تقودنا إلى انفتاح علــى عوالم متجددة مــن صيرورات الحياة الديناميكيــة التي لا تحد إمكانيات تطورهــا، والتــي تفصــح في جوهرها عن وحدة أخلاقية قائمــة في قبول التنوع ذاته واحترام مبادئ التعدد والكثرة والتفاعل.

وظائف قواعد الأخلاق

إن العوامل التي تحدد ترسخ قواعد أخلاقية في مجموعة «حيوانية» أدت إلى نظريات متناقضة. فالفرضيات المتعارضة جدّاً لبعض علماء الاجتماع الحيوي، مثل ويلسون E. O. Wilson، ترتكز على أبحاث أنجزت على الحشرات أو أنواع من الدبابير أو النحل، التي تخضع تصرفاتها وسلوكها الاجتماعي إلى تحديدية مورثية فائقة التحديد. وقد بيّن عالم المورثات هاملتون Hamiltion في عام ١٩٦٤م، بشكل نظري، أن مورثة تحدد السلوك الانتحاري لأحد الأفراد يمكن أن تنتشر في المجموعة وتُدخل في هذه الجماعة من النوع سلوكاً «غيرياً»، إذا كان الانتحار ينقذ خمسة أخوة مثلاً من المجموعة أو أخوات أو عشر أبناء صغار. ومن هنا كانت فكرة أن وظيفة الأخلاق ليست فقط تأمين بقاء واستمرار النوع الاجتماعي، بل وأيضاً المساهمة في انتشار المورثات التي تحدد التصرفات الاجتماعية، وخاصة السلوك الاجتماعي الإيجابي prosocial للطفل. لكن التوسع النظري لهذه الأفكار يمر دونما تدرج من الحشرات إلى البشر. فنقرأ على سبيل المثال بقلم ويلسون أنه «لا يوجد أي سبب لوجود الدماغ سوى أن يؤمن بقاء وتكاثر المورثات التي تنظم تشكله» أو أن «قواعد التزاوج هي عبارة عن إستراتيجيات لنقل المورثات»[١٤]. وغالباً ما تُذكر بالاعتماد على هذه الطروحات كافة الممنوعات حول الزيجات بين المجموعات الدينية، أو أيضاً التبتل المفروض على الرهبان الكاثوليك، وذلك لصالح العقائد الأخلاقية التي بمعارضتها لموانع الحمل أو لإيقاف الحمل تسمح بالحصول على أطفال أكثر وبالتالي بنشر مورثات هؤلاء الذين يعتمدون هذه العقائد! ولا يستبعد أن آليات من هذا النوع يمكن أن تكون قد تدخلت خلال تطور الحشرات التي أصبح سلوكها محدداً بشكل دقيق وصارم. ولكن حتى في هذه الحالة ليس ثمة برهان على ذلك. وربما حصل الأمر نفسه خلال عملية الأنسنة. وتطرح الأنسنة في الواقع مشكلة مخيفة بالنسبة لعلماء وراثة الشعوب[١٥]. إن النمو الهائل للتعقيد الهائل، الذي نلاحظه منذ الأوسترالوبيثكوس وحتى الهومو سابيان سابيان، قد تحقق خلال بضعة ملايين من السنين فقط، بل وربما خلال أقل من ذلك، عبر آليات مورثية لا تزال مجهولة لنا إلى حد كبير.

لقد اعتمدت مع جان بيير شانجو موقفاً نقدياً متشككاً جدّاً تجاه الطروحات التي تقول بعلاقة بهذه البساطة بين المورثات

والسلوك الاجتماعي[١٦]، وتستلب إن صح التعبير الولادة غير المتشكلة مسبقاً، وبشكل خاص، التي تنسى أن إحدى السمات الكبرى للأخلاق عند الإنسان هي الموازنة بين السلوك الاجتماعي والمنطق، في حين أن ذلك ليس متطوراً وحاصلاً عند الحشرات! من جهة أخرى ثمة أمثلة على مكتسبات أخلاقية بمرور الزمن، على شعائر، تكون نتائجها معاكسة أو معارضة للآثار التي تحدثنا عنها أعلاه، أي الموازنة بين السلوك الاجتماعي والمنطق. وأحد الحالات الأكثر إدهاشاً ربما هي عملية أكل لحم البشر anthropophagique التي تنقل في نيوزيلندة الكورو، وهو مرض ناجم عن فيروس بطيء يؤدي إلى تحللات دماغية خطيرة جدّاً عند البالغين. وبشكل أعم، ثمة الكثير من الأمثلة على ثقافات حيث تعتبر القواعد الأخلاقية حيادية مورثياً. ويأتي ذلك من جهة أخرى موضحاً لكثرة المعتقدات والقواعد الأخلاقية. ولا يوجد في المجتمعات الحالية سوى علاقة أو صلة غير مباشرة، وشبه معدومة، بين القواعد الأخلاقية الخاصة بثقافة معينة والقابلية الداروينية في نقل المورثات التي تحدد هذه القواعد. فالوظيفة التي تعد الأكثر يقيناً للأخلاق هي نظرية ترتكز على التشكل أو التخلق المتعاقب.

وعلى الرغم من حياديتها على المستوى المورثي وعشوائياتها في تقادماتها ومكتسباتها، يمكن أن نعتقد بأن وظيفة الأخلاق على المستوى الاجتماعي تشتمل على تنظيم التفاعلات بين الأفراد وبالتالي على المشاركة في استمرار النوع. لكن هذا التنظيم ينطبق بداية على الجماعة الثقافية الأكثر محدودية التي ينتمي إليها الفرد. إن القواعد الأخلاقية في تطبيقها على الخصائص الأخلاقية الأكثر شمولية وعالمية تسهل الاتصال الاستدلالي بين أفراد مجموعة ثقافية. وهي تسمح بتوفير الوقت في تحيين المقاصد في السلوك. وبحذفها لسلسلة من السيرورات الانتقالية أو الوسطية للتفكير المنطقي، الذي يصبح عبارة عن منظومة للحقوق والواجبات، فإنها تقدم ما يمكن وصفه أو تسميته بـ «مكثفات العقلانية» التي تقلص من «أحمال الفكر»، وتقدم بالتالي إجابات مسبقة وجاهزة على سلوك يمكن أن يحصل لاحقاً.

من أجل أخلاق طبيعية وعقلانية وقابلة للمراجعة

ما أن نقرّ من جهة بفكرة وجود أسس عصبية -إدراكية للأخلاق ولعالميتها بالنسبة للنوع، ومن جهة أخرى بوجود لا

يمكن دحضه لنسبوية في القواعد الأخلاقية من ثقافة إلى أخرى، حتى تطرح علينا مسألة المبادئ التي ستستخدم في المجال العملي والتطبيقي في إعداد هذه القواعد الأخلاقية. فعلى أية أسس يمكن أن نميز بين الخير والشر؟ لقد جمع الفيلسوف الأمريكي ناجيل(١٧) مختلف النظريات الأخلاقية في مجموعتين منفصلتين: النظريات من النمط الاستنتاجي، أو أيضاً «الاستبدادي»(١٨)، المرتكزة على محاورة مسبقة، أو يقينية في ذاتها، للخير والشر، ونظريات من نمط استقرائي يكون لزاماً فيها رفض كل ما هو مسبق أكان غيبياً أو عقائدياً. ووفق ناجيل فإن نمط النظريات الاستنتاجية أو الاستنباطية هو نمط نظرية كانط، في تطبيقها على قواعد الفعل والعمل: «تصرف فقط وفقاً للنمط السائد أو لما هو سائر الأمر الذي يجعلك تريد في الوقت نفسه الذي يصبح فيه هذا النمط السائد قانوناً عالمياً.»

وهذا هو أيضاً حال الطروحات النفعية، مثل طرح بنثام Bentham، التي تعتمد «النفعية» كأساس لأخلاقها أي ما عرف بـ «مبدأ السعادة» التي تدعم فكرة أن الأفعال تكون جيدة وصالحة بقدر ما تزيد من السعادة (السعادة بمعنى اللذة وبما هي تنقص من الشعور بالألم)، وتكون سيئة بما هي تميل إلى إنتاج عكس ذلك. إن الأيديولوجيات النفعية (ومعظم العقائد هي نفعية بشكل أو بآخر) بما هي عالمية، حتى وإن كانت تبدو للوهلة الأولى مبررة، تكون غالباً في الممارسة والتطبيق متعارضة مع مبادئها. فالعالمية الأخلاقية هنا تصطدم بتنوع الثقافات، كما تصطدم النفعية بسعادة الفرد مقابل سعادة الجماعة. كذلك فإن النظريات الأخلاقية الاستنباطية تصبح نظريات متعصبة وعقائدية بشكل مطلق وسلطوية بلا حدود. وهي تقود الفرد إلى الاستسلام أمام مصادرات نظرية تزعم أنها تدافع عن «سعادة» الإنسانية.

بالنسبة لسبينوزا: «ليس هناك ما هو معروف بشكل مؤكد بالنسبة لنا كخير أو كشر إلا ما يقودنا إلى فهم حقيقي للأشياء، أو ما يمكن أن يبعدنا عن هذا الفهم» (سبينوزا، الأخلاق، ٢٧). وهكذا ينتقل الاهتمام ويتجه، على عكس النظريات الاستنباطية، نحو النظريات الاستقرائية. ووفق هذه النظريات، فإن المبادئ الأخلاقية تعتمَد وتُراجع على أساس معقوليتها، وقدرتها على تفسير أحكام أكثر خصوصية. فهي تأخذ بالتالي بعين الاعتبار التطور الثقافي للمجتمع، والمعرفة العلمية والتقنيات

والثقافات. وأنا أتفق هنا دون شك مع وجهة النظر الاستقرائية في بناء النماذج الأخلاقية، مع كثير من المفكرين الحديثين، مثل جان بيير شانجو وجاك مونو وغيرهم. ويبدو لي المنظور الاستقرائي هو الأكثر قبولاً لدى رجل العلم، على الأقل بسبب اعترافه بإمكانية مراجعة المعايير الأخلاقية، وذلك تبعاً لظهور مسائل واقعية وتطبيقية جديدة وفي الوقت نفسه تبعاً لتطور المعارف والعلوم. ويقترب هذا المنظور من منظور نظرية العدالة لرولز Rawls. فهو يدافع بشكل منهجي ومخطط جيداً عن المنهج المسمى «التوازن التأملي». فالأحكام تتطور وتخضع لاختبارات تجريبية واستدلالية، مع الاهتمام بالحفاظ على الحد الأعلى من التجانس الداخلي والموضوعية. فكل حكم يخلق ضغطاً من الانتقادات والتصويبات في سبيل القيام بتغييرات أساسية. فإذا كان النظام الاجتماعي قابلاً لإعادة توزيع الأحكام والمعايير، وكان يصحح ويقوّم العثرات الناجمة عن الجوازات أو الاحتمالات الاجتماعية أو الطبيعية، فإنه ينتج عن ذلك أخلاق مؤسسة على نقد المعايير الأخلاقية وعن مراجعتها الدائمة من أجل الوصول إلى أشكال سلوك جديدة. يقول شانجو، إن هذه الفلسفة ساحرة لأننا نستطيع أن نكتشف أسساً «عصبية» لها، ولأنها باقترابها من المسيرة العلمية فإنها تحمي نفسها من أشكال السلطوية التي تعد النتيجة الطبيعية والنهائية للنظرية الأخلاقية الاستنباطية. وفي الحقيقة، فإن هذا المنهج منهج لا قصد فيه أو غاية، بل هو «أخلاق تعتمد على الخطوات الصغيرة» التي تنتج عن المسائل كما تُطرح في سياقها الظرفي والاجتماعي، ولا ترتكز على مصادرات ومسلمات مسبقة وخاصة تلك غير القابلة للتطبيق.

ضمن هذه الشروط، لا يعود الأمر متعلقاً بإخضاع العلم لأحكام أو إلزامات العقائد، ولسلطوية المعتقدات بكل أشكالها أو لأية أيديولوجية، بل بتطوير نقد للعقائد وللمعايير الأخلاقية، وذلك تبعاً لتطور العلم نفسه، لكي نشتق قواعد جديدة للسلوك مبررة بشكل أكثر موضوعية وواقعية. ويرى جان بيير شانجو[١٩] أن النموذج الاستدلالي في التواصل والتعرف على المقاصد مع تقدير لتناغمها العقلاني، ولنمو وتطور التوازن التأملي في قلب المجتمع، يسمح بإنشاء أخلاق ديناميكية، «أخلاق منفتحة»، على أسس عصبية ـ إدراكية طبيعية، من دون أي رجوع إلى مصادرات ومسلمات غيبية.

«توسعة التعاطف» والوظيفة الجمالية

إن من أهداف العلم بالدرجة الأولى نقض وملاحقة الأفكار التي بنيت على أسس مغلوطة لكي يصل في النهاية إلى معرفة أقرب ما تكون إلى الموضوعية. ولهذا فالعلم ينشئ تمثيلات متوافقة مع الوقائع الرصدية أو المخبرية. وحتى إن كانت توجد حدود صارمة لهذا البحث عن الموضوعية، لكن هذه الحدود تترك أثراً أقل خطورة بكثير من الأفكار الخرافية التي تسود المعتقدات. وعلى الرغم من السمة التي لا يمكن التحقق منها في محتواها، وكذلك من لامعقوليتها من منظور فيزيائي أو تاريخي، لكن المعتقدات استمرت وبقيت حتى اليوم، بل إنها تزداد انتشاراً في عصر العلم والتكنولوجيا. ويزداد مع انتشارها طابعها الأصولي. إنه لتناقض كبير أن تستمر هذه الأفكار التي لا أساس لها في عصر لا تنفك تتقدم فيه وتتوسع المعرفة الموضوعية والتجريبية والرصدية. ويشير علم الإناسة الاجتماعي وتاريخ الأديان إلى بعدها التطوري، على الرغم من السمة العقائدية و«غير القابلة للمراجعة» للمنظومات العقائدية. وهكذا نجد تتالي الأديان والأيديولوجيات الذي يتم غالباً بطريقة فجة يتخللها الصراع. إن المسلمات الأخلاقية المسبقة والحقوق المرتكزة على هذه المنظومات العقائدية لها بلا شك نتائج خطيرة. فالمنظومات العقائدية تشكل الأسس الجوهرية للأحكام المسبقة العرقية[٢٠]. فهي تخلق خصومات وعداوات بين المجموعات العرقية أكثر شدة مما ينشأ عن الاختلافات اللونية أو غيرها (من منا يمكن أن يتجاهل مثلاً تأثير الجملة الشهيرة التي تقول إن اليهود هم شعب الله المختار؟). وهي غالباً ما تُستثمر لأهداف أيديولوجية من قبل السلطات السياسية. فلماذا تستمر مثل هذه العقائد وتنتشر إلى هذا الحد؟ نستطيع القول إن العقائد تشكل بين «التمثيلات الثقافية» الشعبية والعامة فئة خاصة من التمثيل العقلي: إنها حالة خاصة من نشاط الخلايا العصبية يستخدمها الفرد في التفاعلات التي يقيمها مع أقرانه. إنها عبارة عن «نموذج» يُبنى داخل الدماغ على أسس فيزيائية ومادية وبيولوجية. وهذه النماذج مختلفة عن النماذج العلمية. فهي لا تسعى إلى الوصول إلى برهان أو إلى التحقق من مسألة معينة، وهي عموماً تخالف الحس السليم في أبسط أشكاله. مع ذلك، فإن هذه النماذج قابلة للانتقال من دماغ إلى دماغ مشكلة ما يشبه الجائحة.

يشكل هــذا النموذج العقلــي شكلاً من أشــكال التلاحم البسيط بــين المجموعات البشريــة التي تجد عبره طريقــة للتعاضد ودعــم وجودهــا تجــاه مجموعــات بشرية أخرى. إن هذه السمة الانتشارية المجتاحة، وهذا الصراع للمعتقدات فيما بينها، يذكرنا بمفهــوم الصــراع من أجل البقــاء والحياة الدارويني، إنّما مع الاختلاف الجوهري بأن صراع العقائد ليس له الأثر التطوري المنعكس علــى الجينات. هــذا إضافــة إلى أنها تتم على مستوى مــن التنظيم والمسافة الزمنية بعيدين جدّاً عن تطور المتعضيات. إن شروط الانتقــاء أو الاصطفاء أو الاستقرار والبقاء بالنسبة لهــذه العقائد لا تزال غير معروفة جيداً قياســاً إلى معارفنا الحالية، ولهذا لا يمكننا صياغتها إلا على شكل فرضيات.

من بين هذه الفرضيات نشير إلى أن هذه المعتقدات لعبت دوراً بديلاً للعلم أو للتفسير العلمي في فترة من التاريخ لم تكن المعطيات الموضوعيــة أو الأدوات والمنهــج العلمــي قد ظهر أو اكتمــل خلالها بعد. لقد رفض الإنســان القديم حالة الجهــل التي رافقته لآلاف السنين، ولهذا تشهد أساطير التكوين في مختلف الحضارات القديمة على نوع من التفســير الذي وجده الإنســان ليردم بذلك فجوة التســاؤلات الكبرى التي بدأت تشغله علــى الأقل منــذ بداية اكتشــاف الزراعة والتدجين منذ نحو عشرة آلاف سنة. وكانت هــذه التفسيرات أو الحلــول البديلة كافية في وقت غابــت فيه المعلومــات والمعطيات الموضوعيــة. وكمــا منــذ آلاف السنــين، لاتزال هناك مجتمعات وبــؤر كثيرة تنقص فيهــا المعطيات وتبقى بمعــزل عن التطور العلمي والمعرفة العلمية الحديثة. وفي هذه المجتمعات تعمل التربية التقليدية والعقائدية خصوصــاً علــى تكريس قواعــد أخلاقية صارمة مبنيــة على موروث قديم يرجع إلى عصــور نقص المعلومات والمعرفة. إن إنشاء طفل على المحاكمــة العقلية ومساعدته في الحصــول على المعطيــات العلمية يشكلان ميزة انتقائية في هــذا الصراع بين العقائد نفسها وبين المعتقدات والعلم.

ممــا لا شــك فيــه أن نقــد المعتقدات والأيديولوجيــات الــذي يتم عــبر مراجعة المعايير الأخلاقية على أساس معطيات العلم لا يكفي بالتأكيد من أجل بناء أخلاق تتأسس علــى وقائع «العلــوم العصبيــة مع صرامة المنهــج العلمــي. كان آدم سميــث Adam Smith، وهو فيلسوف أسكتلندي من عصر الأنوار، وعــرف بشكل خاصــ بأعماله في مجال الاقتصاد، أحد أوائل الذين استلهموا مــن أبيقور من أجل إعطاء الأخلاق تفسيراً

طبيعياً بحثاً بهدف إخراجها من نطاقها الكنسي في وقته، أو الديني. ففي نظريته في المشاعر الأخلاقية عام ١٧٥٩م يعتبر سميث «أن أحد العناصر الرئيسة التي يجب تسليط الضوء عليها هو المشاركة الوجدانية، والتعاطف» الذي يجعلنا واعين لأثر عمل ما علينا، مما يخلق فينا الموافقة أو عدم الموافقة على المشاعر التي حرضت هذا الفعل»[٢١]. والأمر بالنسبة لسميث لايتعلق بخاصية أو ملكة كما سبق وذكرنا بل بنتاج للحياة الاجتماعية تطور ببطء في تاريخ الإنسانية. ويجدد شارلز داروين في بحثه حول «تحدّر الإنسان» هذه الفرضية ويعتبر أن المشاركة الوجدانية هي «جزء أساسي من الغريزة الاجتماعية»، منفصلة عن الحب الذي يتقاسمه الإنسان مع الأنواع الحيوانية الأخرى، وأنها فطرية نتجت عن الانتقاء الطبيعي. غير أن الإنسان «كائن أخلاقي قادر على المقارنة بين أفعاله أو دوافعه الماضية أو المستقبلية وعلى قبولها أو رفضها» ومع تقدم الإنسان حضارياً واجتماع العشائر في مجتمعات تعلم الفرد ضرورة أن يمد غرائزه «التجمعية» إلى دوافع تشاركية وتعاطفية ووجدانية مع الآخرين ليس في عشيرته فحسب بل في مجتمعه ثم في العالم كله مع الجنسيات والأعراق كافة..

وعلى الرغم من أن أفكار داروين استخدمت لاحقاً لأهداف عرقية، لكن لا بد من القول إن الاعتبار رد إليه مع أعمال كثيرة خاصة في بداية القرن العشرين، ونذكر منها العمل الممتاز لكروبوتكين Kropotkine في عام ١٩٠٦م بعنوان «التعاضد، عامل للتطور Entraide، un facteur de l'évolution» يستعيد ويطور فكرة داروين هذه ويغنيها بملاحظات عديدة مأخوذة من العالم الحيواني أو من المجتمعات البشرية «البدائية» ومن تاريخها. وبالنسبة له، «إن الدعم المتبادل بين الأفراد يلعب دوراً في تطور العالم المنظم أهم بكثير من صراعهم فيما بينهم»[٢٢]. «فكلما كان الأفراد متحدين كلما تعاضدوا بشكل إفرادي وكلما كانت حظوظ النوع في البقاء والنمو والتقدم الفكري أكبر». وهكذا يعتبر كروبوتكين أن التعاضد هو «غريزة «التكافل والاجتماع الإنساني» الذي ترتكز عليه «المشاعر الأخلاقية العليا» ممثلة بـ «العدالة والقانون الأخلاقي» والذي «يقود الفرد إلى أن يأخذ بعين الاعتبار حقوق الفرد الآخر على درجة المساواة».

أدى تطور العلوم الإدراكية إلى تطوير وإتمام طروحات داروين وكروبوتكين. وقد ذكرنا أن التعاطف والمشاركة الوجدانية

إضافة إلى سلوك المساعدة والتعاضد والتعاون تظهر في «السلوك الاجتماعي» للطفل في فترات محددة تماماً من نموه. وهكذا فإن منطقاً ينشأ لدى الطفل «للخير والشر» ويعتبر أن توسعة التعاطف وتسهيل التعاضد أمر صالح، وأن ما يحد من ذلك أمر غير صالح. فالأمر لا يتعلق بأن نسعى إلى مجرد تحقيق عالمية أخلاقية ما أو نفعية أو تبادلية على مستوى الإنسانية. ولكن مقابل الخيارات المحدودة والضيقة التي تقود إلى مراجعة دائمة للمعايير، كما كان ليقول رولز، يصبح من المشروع بالتالي أن نعتمد وننتخب بوساطة العقل «الحكم» الذي يشجع ويسهل، على الأقل محلياً ضمن البيئة القريبة، التعاضد بدلاً من الصراعات الفردية أو الجماعية، والذي يتيح التعبير عن البنية الطبيعية للمشاركة الوجدانية التي تشكل بذاتها عاملاً إيجابياً لتطور المجتمعات البشرية. لا شك أن هذا التعاطف الوجداني كان أحد العوامل الرئيسة في تشكّل أولى المجموعات البشرية الاجتماعية من الهومو سابيان، وساهمت مذاك عبر توسعها وممارستها في تأسيس «أخلاق النوع» الذي كسر لاحقاً الحواجز بين المجموعات الثقافية المختلفة. وبهذا يبدأ تحقق المصالحة التي نرغب فيها بين الاجتماعي والعقلي.

إن تحويل الأخلاق من بُعدها الديني بوساطة النظرية التطورية يبرز مساحة هامة كانت مغفلة تماماً هي «التنوع» الذي يخرج الأخلاق هكذا وفق سبنسر «من أصلها المقدس المزعوم» كما ومن السلطوية العقائدية والأيديولوجية. وإن كان شانجو يتحدث عن «مولّد للتنوع» على المستوى الثاني أو الثالث من تنظيم المادة الدماغية، أثناء خلق الأشياء أو المجردات الرياضية، فإننا نستطيع أن نضيف أن هذا المولّد قائم في قلب حياة الخلية، وإنه مبدأ أساسي في استمرار الحياة نفسها. ولا شك كما يقول شانجو أيضاً إن هذا المولد يمكن أن يتدخل على مستوى إنتاج التمثيلات العقلية للمسلمات الأخلاقية التي تهتم بسلوك المجتمعات أو الأفراد.

إن هذه التنويعات الداروينية للتمثيلات الاجتماعية ستكون قابلة فيما بعد للانتقال أو عدم الانتقال من دماغ إلى آخر، بحيث يتم انتخابها على مستوى الجماعات، ثم حفظها على سبيل المثال على أساس من توسعة للمشاركة الوجدانية أو التعاضد الإنساني. يتساءل هنري لوففر Henri Lefebvre إن كان يمكن اقتراح «الحق

بالاختــلاف». ويجيب شانجو إن ذلك مؤكد إنما يضيــف «الحق بالاختــلاف» إنّما مع قبول التنوع كمركب عشوائي. لأنه لا يمكن أن يكون ثمة تطور من دون هذا التنوع على مستويــات التنظيم كافــة، ليس فقط على المستوى المورثي ولا على مستوى الاتصالات العصبيــة خلال النمو. بل كما يقول شانجو إنــه لا يمكــن أن يكــون هناك «ثــورة» أو «تحــول» أفضــل دون تنوع سابــق الوجود، أكان هذا التنــوع يؤثر على شكل الجسد أو علــى إنتاجات الدماغ، بمــا في ذلك نماذج المجتمعــات البشريــة التي يتمثلهــا. ولهذا فإن لجم صيرورة التنــوع في المجتمع يؤدي إلى تجميد ولجم وظيفــة الحدس الخاصة بالدمــاغ البشري. وهذا يعنــي كبح قدرته على مكاملــة المعطيات في بيئتــه الثقافية لكي ينتج نمــاذج وأفكاراً جديدة تساهم في ديناميكيته التطوريــة. فمن المشروع القبول بالتنوع العشوائي في كل أخلاق طبيعية لابد أن تكون تطورية غــير استاتيكية؟ ألا يكون لدينا هنا كما يقــول شانجو أحد التعاريف الأكثر حيوية وديناميكية لمفهوم الحرية: حق التخيل؟

خاتمة، أو الأخلاق والكوزمولوجيا

لم نتحدث في هذه الدراسة حول مسائل كثيرة تنضوي تحت عنوان «العلم والأخلاق»، مثل دور الأخلاق الإنسانية في حماية البيئة في عصــر تتدهور فيه بيئــة كوكب الأرض بشكل خطير، ولا عن تطورات العلم التقنية التــي تطرح تساؤلات أخلاقيــة كبيرة، مثل استنســاخ البشر أو التلاعب بالجينات وغير ذلــك. بل حاولنــا البحث في عمــق الصلة التي تجمــع المنهج العلمي المعرفي بالأخلاق الإنسانية، لأن هذه الصلة التي باتت تتشكل اليوم وفق أسس جديدة تشكل بوصلة التوجه الحضاري للإنسانية في المستقبل القريب.

إن كانت الأخلاق في منظور العلم المعاصر لا تحدد بشكلانية وضعية وبأفكار مسبقة، فإن انفتاحها على التنوع اللانهائي للوجود لا يمكــن إلا أن يفردهــا في الوقــت نفسه كمنهج طبيعــي قابل للتشــكل في مسارات التطــور الكوني. لا تنفصل الأخلاق في هذا المنظور عن التطور الطبيعي بل تغتني كفكر وكممارســة علــى مستوى البشــر مع توسع التصورات الكونية. وفي إطار الكوزمولوجيا الحديثة، حيث تتشــارك نظريات عدة مثل الكوانتية والنسبية وغيرها طرح التصورات الكونية الفائقة، فإننا ندرك أن أخلاقنا اليوم تواجه تحدياً جديــداً كما هو الحال دائماً، التسامي إلى مستوى هذه الدهشة الجديدة، وتحويل المعارف المعاصــرة إلى منبع لتحول إنساني يدرك عظمته على مستوى كون فاق كل التصورات التي طرحها الإنسان يوماً.

الهوامش

1- B. Edelman & M. A. Hermitte, l'homme, la nature et le droit (C. Bourgois éd. 1988).

2- Shafrir, E (1996), »Jacques L. Monod, Francois J. Jacob and Andre M. Lwoff—introducers of new dimensions in cellular genetics and molecular biology.«, Isr. J. Med. Sci. 32 (2): 162.

3- Une même éthique pour tous, collectif sous la direction de Jean-Pierre Changeux, Odile Jacob, Paris, 1997 Fondements naturels de l'éthique, Odile Jacob, Paris, 1993.

4- Function and formation of neural systems : report of the Dahlem Workshop on Function and Formation of Neural Systems, Berlin 1977, March 711- / Gunther S. Stent, ed., rapporteurs, E. Frank ... [et al.]

٥- راجع كتابه دراسات في المثالية الإنسانية، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع.

٦- طـرح هـذا التصور بشكله الفلسفي العلمي تيـار ده شاردان في أكثر من دراسة وكتـاب، نذكر منها كتابه «موضع الإنسان في الطبيعة» و«ظاهرة الإنسان»، لكن هذا الطرح ظل طرحاً مثالياً بالدرجة الأولى، ونظر إلى الأخلاق كصيرورة تطورية صاعدة في الطبيعة والإنسان نحو هدف أسمى. ومع ارتكاز تيار ده شاردان على المنظور التطوري، فقد ظلت القيم الأخلاقية عنده ذات منشأ ميتافيزيائي أعلى.

7- H. P. Grice, Logical Conversation – William James Lectures (Harvard U.P. Cambridge Mass éd., 1986).

8- D. Sperber et D. Wilson, Relevance (Blackwell éd. Oxford, 1986).

9- N. Geschwind, Behavioral change in temporal epilepsy, (Archives of Neurology no 34, 453, 1977).

10- M. Gazzaniga, Le cerveau social (Laffont éd., Paris, 1985).

11- A. Damasio, D. Trave et H. Damasio 1990, Individuals with Sociopathic behavior caused by frontal damage fail to respond autonomically to social stimuli, Behav. Brain Res. 41, 8194-.

12- J. Mehler et E. Dupoux, Naitre humain, Odile Jacob, Paris, 1990.

13- H. L. Rheingold et D. F. Hay, Prosocial behavior of the very young, p. 105 – 124, in G. S. Stent, «Morality as a biological phenomenon», 1978.

14- E. O. Wilson, L'humaine nature, p. 29, 1978.

15- J. P. Changeux, L'Homme neuronal, Fayard, Paris, 1983.

16- J. P. Changeux et Alain Connes, Matière à pensée, Odile Jacob, Paris, 2000.

17- T. Nagel, Ethics as an autonomous theorical subject, p. 221 – 232, (in G. S. Stent, 1978)

18- P. Jacob, Qu'est-ce-que l'autoritarisme épistémologique? L'age de la science no 2, 25-58, Odile Jacob, Paris, 1989.

19- J. P. Changeux et Alain Connes, Matière à pensée, p. 253, Odile Jacob, Paris, 2000.

20- P. A. Taguieff, La force du préjugé, 1988.

21- P. Kropotkine; L'éthique, p. 239, Stock, Paris.

22- P. Kropotkine, L'entaide, un facteur de l'évolution, p.





الوعي الجمالي في شعر حافظ الشيرازي(١)

✽
عبد الفتاح قلعه جي

يقول حافظ:

كمنت خيول الحادثات في كل النواحي والأرجاء

من أجل ذلك جرى فارس العمر مقطوع العنان والرجاء

إني أعيش بغير عمر، فلا تعجب كثيراً لهذا الأمر

فمن ذا الذي يستطيع أن يحتسب أيام الفراق في عداد العمر

ويا حافظ، قل لنا حديثاً طيباً من أحاديثك

فسيبقى نقش قلمك على صحيفة العالم تذكاراً للعمر

✽ أديب وناقد ومسرحي سوري.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

بهذه الأبيات يلخص شاعر إيران الكبير حافظ الشيرازي العصر والإنسان والطريق: عصر دمويٌّ مضطرب، وإنسان يلاحقه الموت في كل مكان، فارس عمره مقطوع العنان والرجاء، أما الطريق فهو الذي خطه حافظ على صحيفة العالم.. إنه طريق الحب.

وبالحب وحده سال القلم المبدع نوراً وكلمات، واكتسب شعر حافظ الخلود، وظلت أحاديثه تتردد على كل لسان على مدى السنين، حتى إنك ما تَدخل بيتاً في إيران إلا وتجد فيه كتابين هما القرآن الكريم وديوان حافظ الشيرازي.

مناخات الوعي الجمالي ومصادره

القرن الثامن الهجري شهد أعنف الاضطرابات والأحداث في إيران، حيث تسيطر على الحكم سلالات مغولية من أحفاد جنكيز خان، عصر ابتدأ بحكم أبي سعيد آخر الملوك الأقوياء من المغول الإلخانيين، وانتهى بزحف تيمورلنك واكتساحه بلاد إيران والعراق واحتلاله الشام في مطلع القرن التاسع وانتصاره المذهل على سلطان العثمانيين بايزيد.

كان دخول تيمورلنك مدينة شيراز معشق الشاعر عام ٧٨٩ هـ حدثاً رئيسياً مؤلماً في حياة حافظ الذي كانت شمس عمره تؤذن بالغروب، سكت خلاله فلا نجد في غزلياته ما يشير إلى استقبال الشاعر لهذا الغازي الأجنبي، أما اللقاء الوحيد بينهما فكان لقاء لوم من تيمورلنك وحسن تخلص من الشاعر [٢]

الحياة والطبيعة في شيراز كانتا حافلتين بمصادر القبح والجمال: شيراز الجميلة بأهلها الطيبين، وطبيعتها الغنّاء، ونسيمها العليل، وأطيارها المغرِّدة، وحسانها الفاتنات، ونهر ركناباز الذي يقول فيه الشاعر:

لا تعب شيراز وركناباز وهذا النسيم العليل
ولا تقلل من شأنها، فهي الخال على خدِّ الأقاليم السبعة
ما أبعد الفارق بين ماء الخضر الذي مكانه في الظلمات
وبين نهرنا الذي منبعه الله أكبر

ولكن مصادر القبح السياسي والاجتماعي في شيراز حيث يحكم آل المظفَّر، أو في إيران كلها، كانت آنذاك كثيرة ومروعة، وكان محورها جميعاً الصراع على السلطة والثروة، الأب يقتل ولده أو يكيد له، والأبناء يسملون عيني أبيهم ويسجنونه حتى الموت، والأخ يحارب أخاه، والوزير الحاكم يظهر التقوى والورع ويخفي البطش والتنكيل، يقرأ القرآن في معتكفه ثم يخرج ليعدم بيديه عشرات المتهمين، ثم يغسل يديه من دم ضحاياه ويعود ليتابع قراءة القرآن[٣]، ومعارك لا تتوقف تترك خلفها جثث



القتلى ومشوَّهي الحرب، والجوع والمرض، وشيراز تحاصَر فلا يكفي النهار المحاربين فيستمرون في القتال على ضوء الشموع، وأمير يحصِّل أموال كرمان فلا يرسلها إلى بيت المال وإنَّما ينفقها عن آخرها في اللهو والشراب، وغِنى يزيد الأثرياء تجبُّراً، وجوع يحاصر الطبقات المحرومة، والنفاق والرياء وحبك المؤامرات هي الأخلاق السائدة في عصر تسوده القوة والاستبداد ولغة الدم. وبعد موت الشاه (شجاع) بلغ الصراع بين أبنائه أقصاه حتى تمنى حافظ لشيراز حاكماً قوياً عادلاً (كرستم) يبدل هذا العالم وينشئ خلقاً جديداً، ويصلح هذا الدهر الفاسد، حتى اعتقد أن قدوم تيمورلنك قد يزيل هذه الشرور: يقول

إن صدري يفيض بالآلام فهل من مرهمٍ مجرَّب؟

وإن قلبي يضيق بالوحدة، فهل من صديقٍ مقرَّب

إنها أيام هوجاء، وأمور سوداء، وعالم في اضطراب

فاحترقْت في صبري وأنا أتطلَّع إلى شمعة من تركستان

ولكن مليك الأتراك خالي الذهن عنا، فهل من رستم في إيران؟
فقم الآن حتى نتجه إلى تركي سمرقند الكبير
فعبير جيحون يهب نسيمه كشذا الورد النضير

وجاء تيمورلنك، ورأى الشاعر المجازر التي ارتكبها تركي سمرقند في خوارزم فارتاع وأدرك أنه كان مخطئاً حين أسلم قلبه لحسان الأفكار

حذار أن تسلّم قلبك إلى الحسان يا حافظ
وخذ موعظة من هذا الغدر الذي فعله أتراك سمرقند مع أهل خوارزم

ولكي نعرف منطلقات دعوة حافظ لابدّ أن نرسم حدود مضلَّع الخرابات في بلده إبان القرن الثامن الهجري.

١- في الضلع الأعلى سلطة حاكمة قسوتها على الشعب ليست بأقل قسوة في صراعاتها مع بعضها في سبيل التفرد بالحكم، والقيمة الجمالية المسيطرة هنا هي الذرائعية في أكثر وسائطها الدموية عنفاً.

٢- في الضلع الأسفل هناك عامة الناس وقد سُلبوا حرية الرأي، وسيطر عليهم الخوف من التنكيل فتعوَّدوا الخضوع وتشيؤوا فهم أدوات للحاكم المسيطر، والقيمة الجمالية هنا هي التملُّق والنفاق والمراءاة.

٣- في الجانب بؤس اقتصادي يصل إلى حدٍّ الفاقة والعوز، يقابله رفاه شديد وتمركز رأس المال في أيدي طبقة من التجار والهبّاشة العسكر والمقربين من السلطة.

٤- في جانب ثان تهالك شديد على المتع الحسية والجسدية، والقيمة الجمالية المسيطرة هنا هي اللذة في مفهومها الغريزي.

٥- في جانب ثالث تعصب ديني وتطرف لا يقوم على أساس إيماني بقدر ما يقوم على أساس المراءاة والنفاق، وكثيراً ما يشير حافظ في شعره إلى هذه الظاهرة.

لقد أقفلوا باب الحانة، فلا ترضَ بذلك يا إلهي
لأنهم يفتحون بذلك باب التزوير والرياء

٦- في جانب رابع مشاهد القتل والتدمير، وهي التي دفعت الشاعر إلى أن يتمنى الخلاص على يد تركي سمرقند.

❁ ❁ ❁

كيف يمكن لحافظ أن يواجه تلك الخرابات في النفس الإنسانية والحياة وهو الإنسان الفرد من غير أن يطاله أذى الطواغيت وهو القائل:

وصحبة الحكام هي ظلمة ليل الشتاء الطويل
فابحث عن نور الشمس فربما يطلع عليك بشعاعه الجميل
وعلى باب من لا مروءة له في هذه الدنيا
إلى متى تجلس وتقول: متى يقبل السيد إلى هذا الباب؟

أدرك حافظ أن المواجهة المباشرة انتحار لا جدوى منها، لأن مثل هذه المواجهة تحتاج إلى وعي شعبي تغييري، إذ لا بدَّ من جهد تكويني يعيد إلى النفس الإنسانية فطرة الحب الأولى بعد أن شوهتها عهود متتابعة من القهر والبؤس ورؤية المجازر الدموية، والشاعر يملك أهم أداة في هذا الخصوص وهي الشعر الكوني الذي يجتاز أبواب شيراز ليدقَّ أبواب المدن المقهورة في العالم.

ولكن ما هو هذا الجهد التكويني؟

إنه إيقاظ الوعي بجمالات الحب الأولى، وليس أكثر تهذيباً للنفس من العشق، وهو الذي عرف تجربة العشق حين أحب شاخ نبات، ثم سما به فكان إبداعه وعرفانه.

لن يموت من يحيا قلبه بالعشق، إنه مخلد دائم
ومن أجل ذلك فدوام ذكري خالد في صحف العالم (٤)

ومن يتابع شعر حافظ يجد أن هذا العشق يمتزج فيه الأرضي بالسماوي بحيث يضعنا الشاعر أمام جملة من الرموز الخمرية والعشقية تتجاوز جفراتها معانيها العامة، وهذا الأمر يضمن للشاعر السلامة الشخصية وإعادة بناء الإنسان الذي أفقده الزمن المرعب توازنه الداخلي، فهو منقطع عن الحياة أو منقطع إليها، مشتد في تعصبه لما يذهب إليه إلى أقصى الحدود، ولا سبيل إلى التغيير الداخلي إلا إيقاظ وعيه الجمالي، فهو وحده يعيد التوازن إلى النفس والجسد، فهل نعتبر سونيتات الشاعر الغزلية والخمرية والصوفية مساحات خضر ينشرها أمام الإنسان المثقل، ويستنبت فيها النفس الإنسانية من جديد نقية الجينات، وهل نعتبرها رموزاً وأنساقاً إشارية لمدلولات إنسانية نضالية؟

هذا هو السؤال الأكثر أهمية لمن يتصدى لدراسة شعر حافظ الشيرازي. يقول:

وشعري عزيز الوجود كالذهب الإبريز
ولكن قبول السعداء له هو الكيمياء التي أحالت قصديره ذهباً

هذه إشارة واضحة من الشاعر إلى ما يحمله شعره من جفرات لا تنفك رموزها إلا بتفاعل كيميائي بين الشعر وبين القادرين بوعيهم الثقافي على إدراك الأنساق الإشارية فيه، وهؤلاء هم الذين عناهم بقوله «السعداء» وما لم تتضح هذه الأنساق يبقى شعره مستغلقاً له، ولعلَّ هذا هو الذي عناه جيته بقوله:

«إن المشتغل بديوان حافظ لا يستطيع أن يفرغ منه

وإن القارئ لشعره لا يستطيع أن يتحوَّل عنه بعيداً».

إذن، علينا كي تتجلي مضمونات قصائده أن نراعي في ألفاظ وعبارات الشاعر أمرين:

المعنى العام + الجفرة الخاصة.

إن أسرار المعنى المجفور وجمالياته لاتلغي صور المعنى العام وجمالياته. وشعر حافظ إذاً هو مجال رحب للكشف كما أشار جيته، ولكنه لا يشكل إشكالية كما ظنَّ معاصروه، غير أنهم - أي القدماء- لم يفهموها أو يطرحوها بهذا الشكل المعاصر، وإنَّما فهمت وطرحت في إطار المفهوم الديني التقليدي، إيمان أو اتهام (زندقة). وتنازع فيه فريقان:

الفريق الأول رأى في الشاعر مؤمناً عارفاً يتحدث في الزهد والتقوى والعرفان بلغة الحب المرموزة والعادية، فلقبوه بـ(لسان الغيب) و (ترجمان الأسرار).

الفريق الثاني وجد قصائده عامرة بألفاظ الساقي والخمرة والحانة والحب وغيرها مما يعتبر دليلاً على إدانته في عقيدته. وقد فرغ الشاعر من هؤلاء حين خاطبهم بقوله:

حينما تستمع إلى حديث أهل القلوب فلا تقل: إنه خطأ

فأنت لست من الخبراء بالكلام يا روحي، وهنا يكمن الخطأ

وقد بلغت الخصومة أوجها إبان احتضار الشاعر وهو يعالج سكرات الموت، فقد رُوي أن الفريق الثاني دعا إلى الامتناع عن تشييع جنازته فجادلهم الفريق الأول، ثم احتكما إلى أشعاره بالقرعة فخرج هذا البيت:

لا تؤخر قدمك أو تتردد عن جنازة حافظ

فهو غريق في الإثم، لكنه ذاهب إلى الجنة.

❁ ❁ ❁

منطلقات الوعي الجمالي في شعره

١- **منطلق الإيمان**: الحاجة الجمالية هي حاجة إيمانية أساسية، عامة وشاملة، عميقة ونبيلة، مرتبطة بحياة المسلم الروحية والجمالية. وفي ظهورها الأدبي والفني، العملي والحياتي، فإن تأريخها ليس تأريخاً للذائقة وتحولاتها فحسب، وإنما هو تأريخ للوظيفة الأبدية السامية في صلتها بالحق والخير وحياة الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض كامتداد للجمال الأعلى فيها.

والحاجة الجمالية تستمد رحابتها وألقها وعمقها وشمولها من رحابة الإيمان

نفســه وألقه وعمقه وشموليتــه، وبقدر ما يقترب الإيمان مــن الكونية تصبح الحاجة الجمالية كونية، ولهذا فإن الإيمان المحاصر بالعصبية والتشدد والمواقف الدوغماتية هو كبــت للحاجة الجمالية الكلية، ولا يمكن أن يكــون مولِّداً إلا لحاجــات جمالية محدودة ضيقة، أو لجمالات سلبية وأفعال قبيحة.

ومســيرة حافظ تبتدئ من عتبة الإيمان الأولى في التوحيد والزهد والتقوى من غير تعصب إلى فئة أو مذهب، يقول:

فإن لم تتمكن من قطف وردة من أطراف الأغصان

فكن كالعشب النامي حول الدوحة

وكن رجل الله الزاهد، واطلب التقوى والصفاء

والبس من الثياب السود والبيض كما تشاء

وأنت يا حافظ، الزم طريق الخدمة لمليك الأكوان

تكن طريقك وما سلكت من رجال الملك الديّان

ثــم ترقى مسيرتــه لتصــل إلى الإيمان الكلــي البعيد عن أســرار الدمى الجميلة، في هــذه المرتبة يردد المــرء الأسرار العلوية كما تــردد الببغاء الكلمات التــي تلتقطها، والجمــال عند حافــظ مرتبــط بالإيمان وأسرار الجمال هي أســرار الإيمان، ومن لم يعاقــر الخمرة الروحيــة لا يمكن أن يدرك جفرات هذه الآلام. وهــو كشأن الصوفيين الآخريــن الذين تحترق الكلمات لديهم أمام تدفــق المعاني والأسرار، ينصــح ألا يبوحوا بالأســرار إلا لمــن شرب من هــذه الخمرة الروحية، لأن في ذلك خطر على حياتهم من علماء الرسوم وصور الجدران هؤلاء الدمى الذين يأخــذون بظاهر الــكلام فيحكمون عليهم بالكفــر ويفتون بقتلهــم، وإلى هذا المعنــى أشار السهــروردي في قصيدته « « بالســر إن باحوا تباح دماؤهــم» وبهذا قتل الحلّاج والسهروردي والنسيمي.

يقول حافظ والسهروردي:

أيتها الببغاء التي تذيع الأسرار

إني أدعو الله ألا يجعل منقارك خالياً من السكر

وليبق رأسك دائماً أخضر، وليبق قلبك دائماً في هناء

فإنك قد أبديت صورة جميلة من حبيبنا المختار

ولقد حكيت للرفاق كلاماً مغلقاً

فياربي.. ارفع عن الحديث المعمّى كل حجاب وستار

أيّة نغمة تلك التي ضربها المطرب في الحانة

فأخذ يرقص على نغماتها المفيق وصريع الخمار

تعال استمع إلى حال أهل الآلام

فألفاظهم قليلة ومعانيهم كثيرة

وعدوُّ الدين والقلب هو هذه الدمية الجميلة

فيارب..ارع قلبي، واحفظ ديني من أفعالها

ولا تحكِ أسرار الخمر والخمار لمن لا يتناولون العقار

ولا تحك أحاديث الروح والحبيب لصور الجدار

إن الجمال الكلي اللامحدود في الصورة الشعريــة، وفي القيــم الشعورية والتعبيرية، الباعثة باستمرار على التأمل والتفكر، عند

حافظ، إنَّما منطلقها ذلك الإيمان الكلي الشامل اللامحدود، والقائم على التأمل والتفكر والتقاط شوارد الأسرار العلوية عن قرب وحساسية العاشق المتأله.

٢- منطلق المعرفة والعرفان: اختلف المهتمون بشعر حافظ الشيرازي وسيرته في أمر تصوفه وذلك لاضطراب الإشارات التي تبثها قصائده، فتارة تلتقط الأذن دعوة صريحة إلى الخمرة والسكر، وأخرى تصبح هذه الخمرة إلهية معتقة، وتارة نسمع نغمات الغزل العِذاب في أوصاف محبوب إنساني، وأخرى تصبح هذه النغمات ملائكية سماوية في المحبوب الأكبر يد الكون، وكثيراً ما تختلط الإشارات في لحن كوني تنعدم فيه الحدود بين ما هو أرضي وما هو سماوي.

إن فصل تلك الإشارات يحتاج إلى حساسية فائقة في الالتقاط، وهذا لا يمكن توافره إلا لدى النخبة المختارة، خاصة وأن شعره يكاد يخلو من المصطلحات الصوفية، إنه أشبه بفراشة ربيعية ذات أجنحة شفافة ملوَّنة، تحملها الأنسام العلوية، فهو في طيران دائم. يقول الشاعر:

ليس يعرف شعر حافظ ومقدار أسره للقلوب

إلا من يمتاز بلطف الطبع، ويعرف البلاغة الدّريّة

وزاد العرفان عنده إسلامي، وهو التأمل والضراعة والخلوة في الليالي المظلمة، ودراسة القرآن.

ويا حافظ ما دامت أورادك في زاوية الفقر،

وفي خلوة الليالي القاتمة

هي الدعاء والضراعة ودراسة القرآن.. فلا تحزن

أما زاوية الفقر فهي الخرابات، فيها ينقطع الشاعر بقلبه المحطم الخرب ليعاقر الخمرة السماوية الحلال ووجه المحبوب المتعالي.

قل لهم: لا تحضروا الشمع في هذا الجمع هذا المساء

فقد تمَّ قمر الحبيب في مجلسنا، واكتمل البهاء

والخمر حلال في مذهبنا، ولكنها

محرَّمة بغير وجهك، يا شجرة السرْوِ الوردية الهندام

ومنذ استقرَّ كنزُ التلهف عليك في زوايا قلبي المحطم الخرب

اتخذتُ مقامي في محلَّة الخرابات

إن الأسْر في شعره لا يعود فحسب إلى ما فيه من قيم جمالية تعبيرية تصويرية وإنَّما إلى ما فيه من قيم شعورية وعرفانية أيضاً، إنه لحن النجوم، وأغنية للزهرة تدعو المسيح إلى الرقص في السماء.

فأيُّ عجب يكون في السماء إذا كانت أقوال حافظ

أغنية للزهرة تدعو المسيح إلى الرقص.

وإنه أنشودة لأهل القلوب والنفوس العارفة تمنحهم سعادة الصفاء والفناء، وتصف لهم الأحوال في كثير من الشفافية. وهو في إشاراته إلى أقوال بعض الصوفية

كالحلاج يتجنب إعادة العبارات التي توقع في الشبهة، لأنها إن حققت (أي تعابير الحلاج وغيره) غايتها الجمالية بالنسبة للمؤمنين بمفاهيمها فإنها تفقد جانباً من جمالياتها بالنسبة لأولئك المعارضين لمفاهيم الصوفية وأقوالهم. أما عبارات حافظ وبهذا البناء اللغوي والفني الذي صاغها فيه فإنها تكون قد حققت غايتها الجمالية بالنسبة للفريقين، والشيرازي يريد أن يقدم شعره جمالاً كلياً عاماً ومتعة مشتركة لا تقتصر على فئة أو مذهب.

كل نكتة قلتها في وصف تلك الشمائل

قال من سمعها: لله درُّ القائل

وهاكه الحلاج على المشنقة يتغنى بهذه المسألة في لحن عذب

فيقول: إن الشافعي لا يُسأل في هذه المسائل

ولقد قلت له: متى تعفو عن روحي العاجزة؟

فأجاب: حينما لا تكون الحياة بيننا هي الحائل

ولقد أسلمت قلبي إلى صاحبة فاتكة قاتلة محبوبة

مرضيّة السجايا، محمودة الخصال

تخطى حافظ ما وصل إليه الصوفيون من قيم شعورية وتعبيرية وتصويرية عالية إلى مرتبة أعلى من طرح خرقة الصوفي، وانفلت من أسر الكلمات المحترقة إلى عالم الغزل العلوي محلّقاً فيه بحرية كاملة، فشعره أكثر شفافية وبساطة وقرباً من جميع القلوب والعقول على اختلاف درجات انجذابها وفهمها والتقاطها. إنه شعر تخطى المقامات والأحوال الصوفية إلى عالم علوي رحب يعيش فيه الواصل حرية لا تعقلها حدود المكان والزمان تتمتع فيه العين بضياء وجه المحبوب القمري، وتتعطر المشام بأريج طرّته، وتشنف الأذن بأقوال الناي، ونغمات العود، وتغريد طائر الأسحار، وصوت مطرب العشق، ويسكر العقل والقلب بالخمرة والساقي.

لا فرق في العشق بين الخانقاه والخرابات

فضياء وجه الحبيب يبدو في كل مكان

لقد سار في طريق العشق آلاف الغرباء الأشقياء من مختلف الأجناس والديانات، جاؤوا إلى هذا العالم العلوي الرحب يسعون إلى رؤية وجه الحبيب.

لم ير أحد وجهك، ومع ذلك يرقبك آلاف الرقباء

ولا زلت برعمة لم تتفتح، وفي انتظارك مئات من العنادل في شقاء

وليس غريباً أنني أقبلت إلى محلّتك

وفي ديارك آلاف مثلي من الغرباء الأشقياء

يجمع حافظ العلم والمعرفة إلى العرفان، ابتدأ بحفظ القرآن فلما أتمّه لقب بالحافظ، ثم أصبح مدرِّساً في مدرسة بناها الشاه (شجاع خواجة قوام الدين محمد)، يكسب من التدريس لقمة عيش بسيطة،

وكان يدرس تلامذته كشّاف الزمخشري في التفسير، ومصباح الطرزي في النحو، وطوالع الأنوار في الحكمة والتوحيد، ومفتاح العلوم في الأدب. حتى إذا فرغ من دروسه أسمعهم شيئاً من شعره. يقول:

ورسوم الشرع وأحكامه وما بها من اختلافات كثيرة
لم تغب شاردة منها عن قلبك البصير العارف
وقلمك الذي يمضغ السكر هو الببغاء الفصيحة الحديث
التي يقطر ماء الحياة من منقارها البليغ

لكن معرفة حافظ ليست محدودة بالأطر الدينية، إذ تبرز في شعره رموز تاريخية وأسطورية وفلسفية، وإشارات لأحداث قريبة وبعيدة، وإحالات لبعض الحكايات الشعبية مثل: مرآة الإسكندر، ماء الخضر، كأس جمشيد، الملك بهرام واللغة الدرِّية، دهقان، فرهاد وشيرين، المجنون وليلى، صهيب الرومي، حكاية الصائغ وصانع الحصير، طير الهما، محمود وإياز، أهريمن، آصف بن برخيا..الخ.

أريد عقاراً تصدع الرأس مرة
متى ذقت منها جرعة غبت عن نفسي
لعلي بها أنسى ولو بعض ساعة
مصائب ذي الدنيا ومن لي بما ينسي
فيا قلب لا تطلب بدنياك راحة
ودع عنك هذا الحرص إن كنت ذا حس
نفضت فجاج البيد شرقاً ومغرباً
فلم أر بهراماً ولا دارس الرمس
فَألقِ إذن أشراك بهرام جانباً
وخذ جام جمشيد تنل رتبة القدس (٦)

هذه الإشارات غالباً ما تكتسب دلالات معرفية وعرفانية جديدة، فمرآة الإسكندر رمز المعرفة، وكأس جمشيد رمز للعقل البشري، وماء الخضر رمز للخلود بالمعرفة والعشق.

كلمات حافظ وأغانيه لا تعلم الإنسان أو تفتح أمامه نوافذ العرفان فحسب، وإنما تحمله على أجنحة البيان الساحر وبراق النفس الراضية المرضيّة، وتحلِّق به بعيداً نحو عالم حافل بالرؤى والصور والعواطف والأفكار، ثم تحط به في صمت أمام الفردوس تقرع أبوابه في همس وهدوء لتمنحه سعادة الحياة الأبدية. يقول جيته:

اعلموا أن كلمات حافظ وقوافيه
تحلق دائماً..دائماً، وهي دائماً في تحليق
قارعة أبواب الفردوس في همس وهدوء
ناشدة لنفسها حياة خالدة (٧)

٣- **منطلق الإنسان:** الإنسان عند حافظ هو الجمال، ومنطلق كل جمال، ولأنه تعرَّض للهدم بفعل القوى السياسية والاجتماعية والفكرية السائدة فهو المخصوص بيقظة الوعي الجمالي، والإنسان المسلّح بهذا

الوعي هو وحده الذي يستطيع أن يعيد إلى العالم المضطرب توازنه.

في حديثه عن الإنسان المحبوب، والإنسان العاشق، والإنسان المستضعف، والإنسان القوي بالحب، الناهض بوعيه إلى منازل الجمال والحرية دعوة إلى تمجيد الإنسان، وحين يتغزّل بالمحبوب، ويخلع عليه كامل الصفات، فإن تداخل الرموز العشقية بين الأرضي والسماوي إعلاء لشأن الإنسان. إن أغانيه لا تبعث السلوان فحسب في النفوس المقهورة، وإنما تحرضها على الفعل، وتوقظ الرعب في نفوس الأشقياء.

يقول جيته وقد جعل من حافظ دليلاً له يهديه سواء السبيل في قفار الشرق الموحشة:

أي حافظ، إن أغانيك لتبعث السلوى

إبان المسير في الشعاب الصاعدة

حين يغني حادي القوم ساحر الغناء

وهو على ظهر راحلته

فيوقظ بغنائه النجوم في أعالي السماء

ويوقع الرعب في نفوس الأشقياء (٨)

دافع حافظ عن الإنسان المستضعف في الأرض، وأحلَّه مكان الصدارة في المجلس، واعتبره باعث الجمال والخير والعافية، قارعاً على المنعمين باب النداء والتحذير، جاعلاً من الإنسان المستضعف مليك الحسان، معشوقاً، يقوم بخدمته الملوك الأقوياء

فيا أيها المنعم، لا تحقر أمر الضعفاء الهزيلين

فإن السائل المتخلف في الطريق له الصدارة في مجلس الشراب

واعتبر قدرتك غنماً كبيراً حينما تكون فوق سطح الأرض

فقد أودت الأيام بالكثيرين من العاجزين إلى جوف الثرى

وتعويذتك التي تدفع البلاء عن روحك وجسدك

هي الدعاء الذي يدعوه الفقير إذ يقول:

من ذا الذي يرى الخير في أكداس الحصاد

ويحس بالخجل من جامع السنابل والأعواد

فياريح الصبا تحدثي رمزاً عن عشقي لمليك الحسان

فإن أقلَّ خدامه مئات من أمثال جمشيد وكيخسرو

وهو في إعلائه شأن الإنسان كأعظم قيمة جمالية على الأرض يتحدث عن كل إنسان على ظهر البسيطة، من غير أن يحصره بقوم أو جنس أو دين أو مذهب، لقد خلع حافظ على المحبوب الإنسان كل الصفات التي تجعله المعشوق الكامل الأوصاف، تغنى بضياء وجهه، وعطر طرَّته، وسحر عينيه، ورقة خصره، ونداوة جبينه، وسنابل الطيب حول وجهه، والظل الممدود من طيات ذؤابته، ولطف خصاله، وحميد أخلاقه.

وغنائياته في الحبيب إرسال يبعث ثلاث إشـــارات: إشارة إلهيـــة، وإشـــارة إنسانية، وإشـــارة تحذير موجهـــة إلى طواغيت المال والسلطان كـــي لا يمتهنوا الإنسان المعشوق، خليفـــة اللّه في أرضه. هذه الإشارات ترسَل في لحن واحد هو الحـــب، وتقديس الحب، والدعوة إلى الحب، فمن لا حبيب له لا روح له، والحب وحده يهذِّب النفوس ويعيد إليها فطرة الجمال الأولى.

بغير الحبيب وبهائه لا تميل الروح إلى
العيش وصفائه
ولا روح لمن لا حبيب له يجعله معقداً
لأمله ورجائه.

وهـــو يخشى على الإنســـان من الإنسان الفاقد إنسانيته من الطواغيت وأهل الرياء الذيـــن يظهرون التقوى الخادعـــة وأيديهم ملطخة بشقاء الإنسان.

في هذه الأزمان، أرى من مصلحة الزمان
أن أحمل متاعي إلى الحانة فأقيم هناك في هناء وأمان
وأن أتناول كأس الصهباء، وأبتعد عن أهل الرياء
ثم أختار من أهل العالم طهارة القلب والصفاء
فلا يكون صاحب أو نديم غير الكتاب والإبريق
كي لا أرى إلا قليلاً من بهذا العالم من أهل النفاق والتلفيق.

الدعوة إلى تمجيد الإنسان واعتباره أعلى قيمـــة جمالية في الأرض ظهرت بشكل أكثر حدة عند عماد الدين النسيمي بما ينسجم ومذهبـــه الحروفي، لكنهـــا في النهاية أودت بحياته، أما حافظ فكان إنساناً أدرك جوهر الإنسان فدعا إلى اجتلاء هذا الجوهر بعد أن غيّرته الحادثات، وكانت دعوته مهموسة رقيقة تسير في موكب الجمال وجلوة الطبيعة وألحاناً لحب خالد.

يقول إبراهيم أمـــين الشواربي في كتابه عـــن حافظ وهو أفضل مـــن خص الشاعر في العربيـــة بالدراسة وترجمـــة أشعاره: «**لم يكـن حافـظ الشـيرازي شاكيـاً باكيـاً كعمر الخيام، ولا معلِّماً جافياً كسعدي الشيرازي، ولا صوفيـاً نائياً كجـلال الدين الرومي، بل كان إنسانـاً راضياً، يستقبـل الحياة بخيرها وشرها**»(٨)

٤- **منطلـق الجمال**: قـــال الشاه شجاع لحافظ يوماً: إن واحدة من غزلياتك لاتجري على نهج واحد من أولها إلى آخرها، بل إننا نجد في الغـــزل الواحد بعضـــ الأبيات في وصف الخمرة، والبعض الآخر في التصوف، والباقي في التغزل بالحبيب، وهذا التلون في أغراض الغزل لا يجيزه البلغاء والفصحاء»

أجـــاب حافـــظ: « إن مـــا قالـــه مولاي

عين الصدق والصواب ومع ذلك فأشعار حافظ يتردد ذكرها في سائر الآفاق، بينما لاتستطيع أن تتعدى أقوال غيره من الشعراء أبواب شيراز».

ونضيف إلى ذلك أن شعر حافظ لم يتعشقه الناس فحسب وإنما حتى الآن يتبرّكون بوجود ديوانه في بيوتهم.

كان شعر حافظ إذاً خروجاً على القصيدة السائدة والمدرسة الغزلية التقليدية، ونزعة تجديدية في الشعر، وهذا ما استنكره الشاه شجاع، والحقيقة أن ممارسة فعل الحرية في الإبداع هي جزء من إيمان حافظ بحرية الإنسان نفسه، والجمال في قصائده بالإضافة إلى وظائفه المعرفية والعرفانية والإنسانية فإنه مقصود لذاته. إن القصيدة لديه وشي منمنم من الصور الملونة الحسية والروحية، ونسيج من الكلمات والعبارات المتقدة الجديدة، ومجلى لعواطف الحب السامية، وموئل للأفكار الإنسانية النبيلة والجريئة، ومهرجان للأضواء الوامضة كالحباحب تنبض فيها الطبيعة بالحياة والحركة.

من مدرسة العشق الإسلامية الفارسية تخرج كبار الشعراء أمثال: نظامي وسعدي وحافظ والنسيمي والفردوسي وجلال الدين الرومي والخيام والجامي وغيرهم، وتفرَّد كل منهم بعوده الخاص الذي يعزف عليه ألحان العشق، لكن حافظاً كان المجلّي، لوحاته الشعرية تماثل في فنّها وجمالياتها تلك المنمنمات الفارسية البالغة الروعة. أرأيت إلى النقّاش ينمنم في اللوحة أبدع الصور الدقيقة من أطيار وأنهار وغصون دانية القطوف، ورياض تخضلُّ بالندى، ومجلس شرب وسمَر، وفتاة يخاصرها الجمال، وفتى دنف في العشق، أم رأيت النقّاش الأصفهاني في سوق النحاسين وهو يعاني فن الطرق على النحاس فيصوِّر في دائرة الصينية الصفراء أو الحمراء أبدع وأدقَّ صور الطبيعة والجمال، ومشاهد الصيد والشراب، وأساطير الأولين.. مثل هذا يفعل حافظ الشيرازي في منمنماته الشعرية، والفرادة فيها أنها تحتوي على ثلاثة عناصر:

١- منمنمات اللفظ والعبارة، وطريقته في عقد الكلمات ضفائر عبارات تفجِّر في اللفظة طاقات جديدة، وتولد في القصيدة ما هو رائع وممتع وجديد.

٢- منمنمات تصويرية ووصفية تجسد

مشهداً أو صــورة أو منظراً طبيعياً، وتحفل باللون والحركة والرائحة والنغم.

٣- منمنمات روحيــة ونفسية تنقل إلى دائــرة الإدراك حالات عرفانيــة (صوفية) عانتها روح الشاعر في انتقالها عبر المقامات والأحــوال، وتصــل إلينــا هــذه الإشارات الروحيــة في دفء وهــدوء ويسر بعيدة عن غوامضــ المصطلحات الصوفية، كما ترسم دقائق نفس العاشق واستجاباتها وتجولاتها تبعاً لمواقــف المحبوب وتحولاته في حضوره وغيابه، ووقوع بعض صفاته في دائرة إدراك العاشق وإعجابه.

في الحقيقــة مــن الصعــب فصل هذه الخيــوط الملونة المضيئة عــن بعضها، فهي مضفــورة متشابكة متناغمة، وبعضها من المتشابهــات، والأمر ليســ بالبساطة التي أوردهـــا الشاه شجــاع، وأنّى لــه أن يدرك الجمال أو تلتقــط أصابعه اللآلئ من محار المحيط وهي ما تــزال ملطخة بدماء عيني والده مبارز الدين.

كان الجمال غاية يسعى إليها، ومنطلقاً لمسيرته الفنية، ومركبــاً إلى عالمه الشعري. لقد أعاد حافظ إلى الجمال مكانته الأولى، وأيقــظ في الإنسان وعيــه الجمالي، ووعيه بجماله، ليعيد بنــاء الإنسان الذي أفسدت ذائقته الجماليــة مرارة الطغيــان، وليعلن سيادة الإنسان، ويرتفع به إلى عالم رحب من الحريــة والسعادة والجمال على أجنحة من بيانــه الشعري الخالد، تحمله أنسام العشق المخضلة بالإشارات والرموز.

لم يكــن حافظ الشــيرازي شاعراً فخماً فحسب، وإنمــا كان واحداً من شعراء العالم المعدودين الذين ابتنوا لأنفسهم عالماً شعرياً خاصــاً يحملون إليــه الإنســان ليطلّ من نوافذه على الكون، ومن شرفات شعره الموّار بالحركــة الدائريــة يرقب الإنســان جمال الحق والخلق. يقول جيته:

وأنت يا حافظ لا تؤذن بابتداء.. وهذه عظمتك

وعهد لك بانتهاء.. وهذه قسمتك

وشعرك كالفلك يدور على نفسه، بدايته

ونهايته سيان(٩)

كان حافظ إنساناً أيقظ في الإنسان لغة الإنســان، وعارفاً قاد مريديــه على طريق المعرفــة والعرفان، وعاشقــاً اختط للعشاق لغة جديدة في العشق.

من أجل هــذا كله كان حافظ الشيرازي شاعــراً كونياً خرج بشعره مــن شيراز يدق أبواب العالم، منشــداً أغاني الحياة والخلود على الرغم من أنه لم يغادر مدينته شيراز.

هوامش ومراجع

١- شمس الدين محمد بن بهاء الدين المعروف بـ(خواجة حافظ الشيرازي) والملقب بـ(لسان الغيب وترجمان الأسرار) شاعر شعراء إيران، طبقت شهرته الآفاق، عمل خبازاً، ثم مدرِّساً، واتصل بحكام شيراز، واختلف في صوفيته، ومنهم من يفسر غزلياته وخمرياته حسب معانيها الظاهرة، ومنهم من يرى فيها معاني صوفية: فالخمرة هي الخمرة الأزلية، والساقي هو المرشد الحقيقي إلى الله الذي يرشد السالك إلى طريق الهداية، ويملأ له الكأس من التعاليم التي تدفع عنه الضلالة، والمعشوق الجميل هو الله- الكنز الخفي، وشيخ المجوس هو شيخ الطريقة أو المرشد، والربيع هو ربيع الأبرار، والخميلة هي روضة الصلحاء والأخيار.

ولد حافظ سنة ٧٢٥هـ= ١٣٢٥م وتوفي سنة ٧٩٠هـ=١٣٨٩م

٢- استدعى تيمورلنك الشاعر حين دخل شيراز ولامه على قوله متغزِّلاً:

لو أن ذلك التركي الشيرازي يأخذ قلوبنا بإشارة من يده

فإنني من أجل خاله الأسود أهبه سمرقند وبخارى

قال تيمورلنك غاضباً: لقد فتحت ربع العالم بحد السيف وأنت تهب موطني سمرقند وبخارى لخال أسود على وجه تركي شيرازي؟

فأجاب حافظ معتذراً: إنه بسبب هباتي هذه الخاطئة تجدني يا مولاي أمضي حياتي في ما أنا عليه من فقر ومسكنة.

وقد أعجب تيمورلنك بحسن تخلِّص الشاعر، ورضي.

٣- إشارات لأحداث تاريخية وصراعات بين مبارز الدين محمد وأبنائه.

٤- يروى أن حافظاً كان يعشق فتاة تسمى «شاخ نبات» وكانت تعرض عنه، فدفعه ذلك، وإخفاقه في قرض الشعر، إلى الاعتزال والاعتكاف عند ضريح «بابا كوهي» حيث بقي أربعين يوماً يدعو الله ويبتهل، إلى أن زاره الإمام علي -رضي الله عنه- وأطعمه طعاماً سماوياً ولقَّنه غزله المعروف:

ليلة أمس في وقت السحر، أعطوني النجاة من الألم والويل

وناولوني ماء الحياة وسط هذه الظلمات من الليل

فأخرجوني عن نفسي بما انبعث من ضياء ذاته

وناولوني خمراً في جام يتجلى فيها بصفاته

فياله من سَحَرٍ مبارك، وبالنهار من ليلة سعيدة

ليلة القدر هذه التي منحوني فيها البراءة الجديدة

فدعني بعد اليوم أحوِّل وجهي إلى مرآة جماله

فقد خبروني أنني أستطيع أن أجتلي فيها بهاء خياله

وأي عجب إذا أصبحت هانئ القلب، نافذ الرغبات

وقد كنت جديراً بها، وقد أعطوها لي على سبيل الزكاة

وقد أنبأني هاتف الغيب بخير الآمال والبُشْريات

فخبرني أنهم، في مقابل الجور والجفاء، قد أعطوني الصبر والثبات

وهذا القَدْر من الشهد والسكّر، الذي ينهلُ من كلامي كالقطرات

هو أجر الصبر الذي وهبوني من أجله « شاخ نبات»

واقترنت همة حافظ بأنفاس القائمين بالأسحار

لأنهم قد خلَّصوني من قيود الأيام، وغصص الأقدار.

وقد أخبره الساقي المرشد بأنه سيكون شاعراً عظيماً مؤيَّداً بتأييدات عالم الغيب، وتروي القصة أن شاخ نبات معشوقته (ومعناها قصب السكر) مالت إليه وأحبته، لكنه أصبح مشغولاً عنها بحب الله

٥- يروى أن الملك بهرام كان جامعاً للآداب، فصيحاً باللغات، يتكلم يوم الحفل والاحتشاد بالعربية، ويوم العرض والإعطاء بالفارسية، وفي مجلس العامة بالدُّرِّية، وعند الضرب بالصوالجة بالفهلوية، وفي الحرب بالتركية، وفي الصيد بالزّابلية، وفي الفقه بالعبرية، وفي الطب بالهندية، وفي النجوم بالرومية، وفي السفينة بالنبطية، ومع النساء بالهروية!

٦- الفراتــي. روائع الشعر الفارسي. يقال إن الإسكندر كانت له مرآة فيها أحوال العالم، يستعملها في فتوحاته ليجمع المعلومات عن البلاد التي يغزوها، وأن جمشيد الملك كانت له كأس إذا ملئت خمراً ونظر فيها فإنه يرى ما يحدث في العالم.

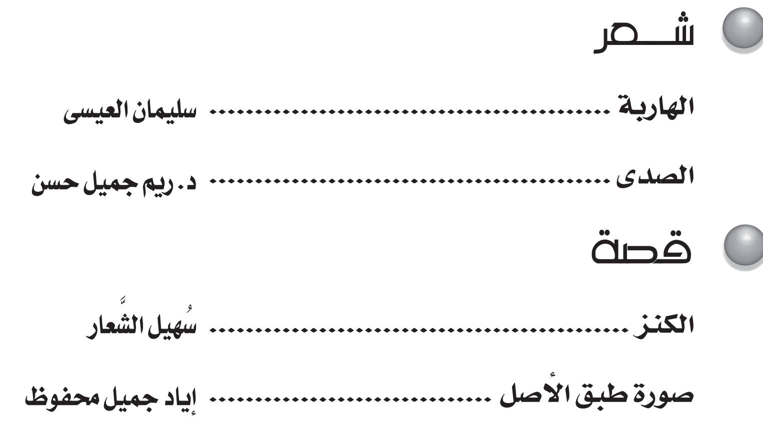
٧- جيته. الديوان الشرقي، ترجمة البدوي.

٨- الشواربي. كتاب حافظ الشيرازي.

٩- الشواربي. أغاني شيراز.



الإبداع



شعر

قصة

الهاربة

سليمان العيسى *

إلى الصبيّة التي قالت للشاعر:
إني هاربة من الحب والحزن..

مَرَّةً واحدةً نُعْطَى رُؤًانا
وصِبَانا..
مرةً واحدةً نَحْيا..
ومن حَقِّ الشفاهِ الظامئاتْ

* شاعر العروبة والطفولة الكبير.
العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

أَنْ تُرَوَّى
وحسابِ القَهْرِ.. إنّا وارِثُوْه

صانِعوهُ.. مُبْدِعُوهْ
أَنْ يُسَوَّى

❁ ❁ ❁

مرةً واحدةً نَأْتي كَصَحْوِ السُّنْبُلَةْ
في الحقولِ المُمْحِلَةْ.
لِمَ نَهْرُبْ
مِنْ رُؤّانا؟ من ينابيعِ الشباب العَطِرِ؟
لِمَ نَحْني رَأْسَنا؟
رُبّما تَحْلو المواعيدُ وتَعْذُبْ
رُبّما –والجُبْنُ موتٌ– يَحْتَفِي الحب بنا
عند شطِّ الخَطَرِ

❁ ❁ ❁

أَعْرِفُ: العالَمُ يغزوهُ الهَرَمْ
أَعْرِفُ: الأُفْقُ يَيَاسْ
كل شيءٍ حولنا يَحْتَرِقُ
أو يُهَدَّدْ
بانتزاع الأخضر الفَيْنانِ من عُمْرِ الشّجَرْ
أعرِفُ: اللّحظةُ صارَتْ لِلسّأَمْ
وَهْي في زَهْوِ الضحى تَأْتَلِقُ



للينابيعِ من الصخرِ انْبِجاسْ
هكذا يوماً تَرَدَّدْ
في كتابِ الشّفَقِ الحُلْوِ الذي
يُغْفِي وَيصْحُو
أبداً من حالِكاتِ العَتْمِ
يصحو
لِمَ نَهْرُبْ؟
ويَدُ الحُبِّ سخِيّةْ
من نِدَاءِ الشّفةِ الظّمأى، ومن
خَلْجةِ صَدْرٍ
في ربيعِ الشِّعْرِ.. إني للتحدِّي
كان شِعْري
أشْعِليها يا صَبِيَّةْ
هذهِ الصَّبوةُ في الأعماقِ
حَيْرى هارِبَةْ
قَتَل الناسَ حِسابُ العاقِبَةْ

❁ ❁ ❁

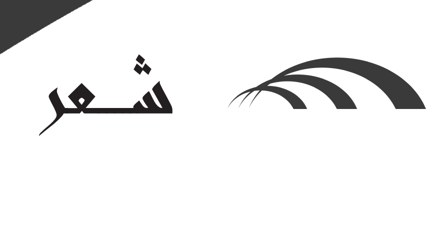
الْفَرُوسيّةُ.. لا تَنْتظِري حَتّى يجيءَ
الفارسُ الأَسمرُ.. والمُهْرُ العتيقُ
زَمَنُ الفُرسانِ هاجَرْ
في ضَبابِ الأَمْسِ والنِّسيانِ هاجَرْ
حَسْبُنا من هذهِ الدنيا رفيقُ

نَقْسِمُ البسمةَ فيما بَيْنَنا
نَسْرِقُ القُبْلَةَ فالدنيا لنا
ثم يمتَد بنا في الصخرِ والشوكِ الطريقُ

❁ ❁ ❁

سائليني.. حينَ في عُمْرِكِ أشْعلتُ القَمَرْ
وقصيداً أو حديثاً صُغْتُهُ
وإلى مَنْ كَفُّها كانت بِكَفّي قُلْتُهُ
لم يُكَبِّلْنا الحَذَرْ
وفَرَشْنا كُلَّ ما نملكُ من حُبٍّ وشِعْرٍ لِلقَدَرْ
ثُمَّ أشْعَلْنا طريقَ الليلِ، أشعَلْنا القَمَرْ
بالهنَيْهاتِ العِذَابْ
لم تَكُنْ شيئاً كبيراً باهراً..
أحْلَى ليالينا العِذَابْ
لم نَزَلْ طِفْلَيْنِ.. قُولي لِلوَتَرْ
أبداً نحنُ على أُهْبَةِ لحنٍ آخرِ الليلِ..
ومَوَّالٍ جديدٍ لِلسَّحَرْ





الصّدى

د. ريم جميل حسن ❁

أنا الصدى

أرقصُ على إيقاعي وأمضي

فتلاحقني خطواتي وتمضي..

لم يبقَ إلاّ أن أكونَ في زمنِ البدءِ..

شاعرة سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

فأراني طيفَ سنونو، أسابقُ السّربَ بظلي..

وأُدركُ أنّي

من الآتي أتيتُ

وللحاضرِ أمضي.

أعلو وأهبطُ في سرابِ الكونِ..

مصادفةً كنتُ وفي الحلمِ وحدي..

ما زلتُ أمشي وما زلتُ أمشي.

من أنا؟! وبي يبدأُ الطّريقُ وأمضي..

في فضاءِ الصّمتِ أستخلصُ العزمَ من صبرِ التحدّي..

أمشي مع غيمتي مسافرةً مع السّحابْ..

وأرى الضّباب ولا يراني

وكأنّني كنتُ هناكْ..

أكونُ ولا أكونُ

قصيدةً بيضاءَ أو بلونِ الماءِ قد تكونْ..

إنّها تجربتي..

إنّها قصّتي..

إنها رحلتي..

كيفَ تلاقينا؟

أجيبي يا لحظةَ المحالْ..



لا أريدُ أن يكونَ لي بلدٌ ولا خريطة..

ولا حدودٌ ولا جدرانٌ ولا حصونكمُ الوطيدة..

أريدُ أن أحيا بما أهوى..

كغزالةٍ شريدة..

أريدُ أن أطوفَ الكونَ حافيةً وآمنة من خوفِ الطّريدة.

بساطُ الأرضِ يجذبني..

وعريُ الليلِ يغريني..

ليَ أمسٌ، ليَ زمنٌ، لي قمرٌ يواسيني.

ولي دربٌ ترافقني وبالوحي تحاكيني..

بحارُ الأَرضِ أملُكها..

وفي الشّطِ أساطيلي..

أنّا النّغمُ الذي شردَ بإيقاعِ الأَساطيرِ..

أنا الآتي..

أنا الماضي..

أنا من خطّ إنجيلي..



قصة قصيرة



الكنز

سُهيل الشعَّار *

جميلٌ.. وساحرٌ..

كحُلم فتاة بفارس أحلامها..

وكنجمــة لا تمــلُّ البريق، وكشمــس صغيرة تدفّــئ الأجسام البــاردة دون أن تحرقها.

مــزروعٌ بالصّدف.. ومُطرّزٌ بحباتٍ ناعمــة، ملساء، من حصى بحيرة الهضبة، ويبدو كوجه طيّب لطيف ينظر إلينا بعُيونه الصّدفية، وينتظر.

* أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري

كانـــت أمي العجوز مُتعلّقةً به، كولدٍ من أولادها، تحتضنه في كل مساء، وتطمئنُّ بنظراتها الحزينة إلى ما بداخله من كنوز..

وفي غفلة عنّا، ربّما كانت تُضيف إليه أشياء وأشياء دونما أن نراها..

لم يحـــدث أبداً وأن نظرنا إلى داخله، كانت تُراودنا أحـــلامٌ وردية على شكل غيوم بيضاء، تحملنـــا بعيداً في السماء، وفوق الحقول والجبال، لكنّني مع أخي الصغير، كنتُ متأكّداً من أنه يُخبئ لنا ثروةً سوف تُعيننا إلى ولد الولد، ثروة لا تُقدّر بثمن، إذا عرفنا كيف نتصرّف بها.

هكذا كانت تُخبرنا العجوز في الأمسيات..

وكانـــت أحلامنا تكبر وتتّسع.. لتحوّل ما في ذاك الصندوق الخشبي العتيق إلى واقعٍ جميل يمشـــي ويتكلّم بذاك الكنز الذي تقول أمي عنه إنه سيرفعنا عالياً، وسيجعل من سمعتنا طيّبة مدى الحياة.

بذاك الكنز، لا شك أنني سوف أعوّض ما فاتني من مسرّات وأفراح...

أمّا أخي الصغير، فقد كانت أحلامه صغيرة كعُمره..

كان يخـــبرني سرّاً أنّه سيشـــتري درّاجة له، ودراجة لابن جيراننا مُهنَّد، وسوف يتسابقان في كل مساء..

أحلامٌ كثيرة كانت تُراودنا..

يُقابلهـــا تحفّظ أمي على الكنز، وعلى عدم التّصريح لنا بقيمته الحقيقية، لكنها، من جهة أخرى، ومن باب الاطمئنان كانت تقول لنا:

إنه يزداد قيمة مع الزمن ويكبر.

إذن، أمي لا تزال تجمع المال وتخزّنه خفيةً عنّا داخل الصندوق!

ولكن من أين لها ذلك؟!

أيعقلُ أن تجمع من فُتاتاتٍ قليلة تُزوّدنا بها الوكالة، ذاك الكنز الكبير؟!

ولِمَ لا؟! ألم تقل الحكمة القديمة:

نقطةٌ فوق نقطة يتكوّن غدير؟!

- ٢ -

إلى أن جاء ذاك اليوم.. اليوم الذي لابُدّ منه لكلّ واحدٍ منّا.

جمعتنا حولها، ضمّتني إليها مع أخي الصغير كعصفور يحتضن صغاره للمرّة الأخيرة..

كان الصندوق ينظر إلينا حزيناً على والدتي، ويستعدّ للانفجار في وجوهنا من دون صوت، فيحرِقُنا من دون أن يُحوّلنا إلى رماد.

همست والدتي مشيرةً بيدها إليه:

احتفظوا به يا أولاد من بعدي، هذا كل ما بقي لنا.

في نفسي امتعضتُ وتكدّرَتْ جوارحي، كيف يمكن لهذا الكنز الذي جمعته طوال حياتها أن نحفظه مرّة أخرى، ألا يكفي أنها حرمتنا منه عشرات السنين؟!

ثم إن الكنز وُجدَ ليُصرفَ منه، كما أن الغيوم تتجمّع لتُمطر، والنجوم لتلتمع، والشمس لتشرق، والماء ليُشرب.

تماسكتُ.. ثم هززت برأسي:

لا عليكِ.. المهم أن تتحسّني الآن يا أمي، وتنهضي بخير وسلامة، قاتل الله المال وساعته، صحّتك أهمّ.

ابتسمتْ.. أو كادتْ تبكي، منّا أو علينا، اختلطت في عيني ملامحها المتعبة، والبائسة، فاقتربتُ منها:

سوف أحضر لك الطبيب، يبدو أن حالتكِ ستسوء.

كأنّها كانت تنتظر منّي ذلك.. بدأتْ تسعل وتشهق مختنقةً بأنفاسها وبحسراتها المزمنة..

خرجتُ مُسرعاً.. لأعود مع الطبيب بعد قليل.

كان أخي يجلس إلى جانبها، وعيناه تصرخان من الفزع، ويرتجف جسده الطري كسمكة جفّ النهرُ من حولها.

كئيبةٌ كانت ليلتنا تلك، انطفأت فيها النجوم، وتلاشى القمر واختفى من السماء، كل ما حولنا بدا ميّتاً وهادئاً كجثّة أمي.

في اليوم التالي دفنّاها في المقبرة القريبة من مُخيّمنا، وظلّ أخي يبكي حولنا ويصرخ كفرخ بطّ صغير، طالباً الذهاب معها.. فكنتُ أُهدِئهُ بقولي:



لا تبكـــي، يجب أن تفرح لأن أُمّنا ذهبت إلى السماء، لا تبكـــي، البكاء حرام، وإذا سمِعتكَ سوف تزعل منك.

فيصمت قليلاً مُستغرباً كلامي وهدوئـــي، وتماسك أعصابي.. لكنــه.. وفجأةً، كصـــوت رعدٍ غـــير متوقّعٍ، يعود لينفجر بالبكاء..

في طريق عودتنا، أخبرته أنّــه صـــار بإمكانــه شراء الدراجة له ولابن جيراننا.. كما أنني سأشتري أنا أيضاً أشيـــاء كثيرة كنتُ قد حلمتُ بهـــا ودفنتهـــا في قلبي منذ وُلدت.

– ٣ –

إنه بانتظارنا..

أم تُرانا نحن الذين انتظرناه طويلاً؟!

أغلقنا الباب، وأنزلنا السّتارة الوحيدة، كأننا عروسان في ليلتهما الأولى، أو لِصّان سيقتسمان الغنيمة.

جلســ أخي بعيداً في الزاويـــة، بينما رحتُ أبحثُ تحت اللُحـــف والبطانيات والفُرش عن مفتاح الصندوق...

طال بحثي.. واكتأبتُ قليلاً..

قال أخي:

رُبّما أمي أخذت المفتاح معها، ألم تكن تُعلّقه في ثيابها دائماً؟!

غصصتُ حين تذكّرتُ ذلك، ولا أدري حينها إن كنتُ قد ابتلعتُ غصّتي، أم هي التي ابتلعتني؟!

وللحظة مرعبة راودني إحساسٌ قوي بالعودة إلى المقبرة.. شاورتُ أخي:

أتعود معي إلى المقبرة لنفتح القبر ونُحضِر المفتاح؟

ارتعب الصغير ولم يُجب، حدّق في وجهي غير مُصدّق أن من يحكي هذا الكلام هو أنا، امتلأت عيناه بدموعٍ مالحة كادتْ تنهمر لولا سؤالي الآخر:

حَسَناً.. ما رأيُكَ أن نخلعه؟

هزّ رأسه مُوافقاً..

بإزميل كبير حاولتُ فتحه..

كان مُحكم الإغلاق كتابوتٍ من حجر.

وبعد مُحاولاتٍ كثيرة انخلع القفل مُصدراً صوتاً لا يشبه في أنينه إلاّ وجع أمي المُزمن.

وبيد واثقةٍ مطمئنّة رفعتُ الغطاء.. رفعته حتى اتكأ ظهره على الحائط.

كانت غصّتي هذه المرة أعمق..

حرقت روحي قبل أي شيء آخر.

حاولتُ ابتلاعها فابتلعتني..

حاولتُ إطفاءها فازدادت اشتعالاً..

ولم أعد أفهم تماماً ما يحدث في داخلي..

قرفصتُ ورحتُ أبكي وأنتحب..

وسمعتُ من الزاوية نشيج أخي يعلو.. ويعلو..

كان هُنالك في زاوية من زوايا الصندوق العتيق، مفتاحٌ كبيرٌ صدِئٌ لبابٍ كُنّا قد هجرناه عنوةً منذ أكثر من أربعين عاماً، وإلى جانبه، وفوق خُرقة بالية، تكوّمت حفنة من تراب هضبتنا البعيدة.







صورة طبق الأصل

إياد جميل محفوظ*

أوشكت المرآة القديمة التي انحسر بريقها على نحو بائس أن تصيب آدم بنوع من الحيرة والحسرة.. فهو لم يعد قادراً على تمييز عواطفه تجاهها.. أمازال يحبها.. أم بات يكرهها.. فهي ما برحت تخاطبه بنبرة حانية حين يستقيم قبالتها.

«أنت مهما فعلت فلن تشبه إلا نفسك»

يبدو أنه لم يعد ثمة من يحبه على نحو صادق سوى والدته والأحذية التي تهرع إليه كلما أقعى خلف صندوق الأسرة.

قبل عدة أيام زاره هاتف في المنام.. يدعوه إلى المبادرة فورا.. وينبئه أن الحكاية ليست مجرد خرافة.. وأن البئر ليس لها إلا أن تكون مصدر إلهام سخي.

* أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

إن خوف أمه وخشيتها الدائمة من أن يتخذ تجار السوق من صبي آخر بديلا عنه لايبعث في نفسه الانزعاج والقلق فحسب.. بل إن عدم قناعتها بأفكاره هو ما كان يثير حقاً في صدره قدراً غير يسير من التوتر والنزق.

يبــدو أن الإشارات والدلائل كلها التي كانــت تحوم حوله جعلت ذهنه يؤمن بأن مساره قد تغــير إلى الوجهــة التي اتخذت منذ جاءه ذاك الهاتف طابعــاً قدرياً لا مفر منه.. على نحو لم يعد قلقه منصبا على كيفية حصوله على الكنز.. فقد غدت هذه الخطوة أمراً مقضيّاً.. إنَّما كانــت هواجسه منصرفة إلى البحث عــن المنحى الذي سيسلكه هذا الكنز ليجعل منه شخصاً جديداً.

لاريــب في أن ملامح الفتــى الذي بات ينتظره كل صباح في نهايــة الزقاق يشبهه إلى حد فاضح.. على أن ثمة شيئا عجز عقله عن تفسيره.. لم يسرّ ذاك الفتى بعيداً عنه بينما خطوات خياله تكاد تتطابق مع خطوات قدميه.

وممــا زاد الموقف غرابة أن هــذا الفتى يختفي بمجرد وصــول آدم إلى الساحة الداخلية للسوق.. في حين يقبع ظله في الركن القصي من الفناء كما لو أنه رقيب حارس.

في الآونــة الأخيرة لم تعــد الأحذية تبالي بتدني مهارته في مسحهــا وتلميعها.. فهي أصلاً تسعى إليه إكراماً لوالده الذي أورثه هذا الصندوق.

لما طبعت أشعة ذاك النهار الصيفي الحار على وجنتيه أثراً ذا لون فاقع.. تناهى إلى سمعه صــوت غائر يناديه.. وكأنه قادم من أعماق البئر الجاثمــة على بعد أمتار قليلة من صندوقه الحزين.. من دون أدنى وعي منه قفز صوبه.. حضنه.. لم يفوت الظل الحارس تلك الفرصة.. فقد انقضــ عليه بسرعة قصوى.. وبلمسة بسيطة تهاوى جسد آدم في غياهب الجب.. الذي استقبله بصدمة حائرة يائسة.

دهمــه فزع لاذع حين شعر أن جسمه ينزلق فوق سطــح هلامي لزج.. بينما كان الظل في الأعلى يصرخ مستغيثا.. إلا أن أحداً لم يعبأ بالصرخات.. ولا حتى بالحسرات.

لم يكن الصندوق راغباً على الإطلاق أن يمسي كتلة مستكينة لحال الهجران.. ولا أن يغدو مجرد مكب للذكريات والحسنات.

في الشــارع العريضــ خارج أسوار السوق القديم أحس آدم بشــيء من الراحة بعد ارتداد الظل إليه.. ها هو ذا تقوده ساقاه بمرح من دون أدنى شعور بالغربة من ظله الجديد.

عنـد أحد التقاطعات شاهد رجـالاً أشداء.. لاحظ أن أياديهـم الغليظة تحمل زجاجات مترعـة باللون القاني.. لم يكترث لهم لـولا أن التقطت عيناه فتىً مسجى فوق راحات ناعمة.. كانت النسوة يتبعن الرهط الأول بخطوات صامتة.

انتابته رعشة خفيفة فقد ظن أن ذاك الفتى قد عاد مجدّداً..حاول تبين ملامحه.. لم يفلح.. دنا منهم.. وإذ بهم يتبخرون بطرفة عين.

استـولى عليه شيء مـن الانقباض.. تبدد حين طبـع بصره صورة فتاة تلبسـ زيّاً أبيض خالصاً.. تمشي بخطا رشيقة وهي تسحب خلفها كلباً ضخماً ذا بشرة داكنة..لم يدرِ لمَ تعلّق بها فقد مرّت أمامه كالبشرى.

فجـأة حرن الكلـب.. جربت جذبه بلطف.. لم يذعن.. كـررت المحاولة بقليل من العنف.. أبـى واستكبر.. حررت معصمها من قيده وأخذت تهرول.. انطلق آدم وراءها والغبطة تلامس صدره.

خالجتـه مشاعر غامرة حين وجدها تنضم إلى جمع كبير من الفتيات والفتيان في الميدان الرئيس.. وتتوارى خلف ظلالهم.

بـدا المشهد أمامه متّشحاً كله باللون الناصع..لم يأبـهْ للدهش الذي اعتلى جبهته.. أحس بقوة خفية تدهمه.. فاندفع نحوهم وعلى شفتيه تتزاحم ضحكات جريئة خاطفة.

الفتيات والفتيـان كانوا يمرحون ويلعبون على نحو مثير..فطائفة منهم اتخذت من رقص الزار سبيلا.. وأخرى أوجع التصفيق بنانها.

تنحت علامات الدهش والرهبة.. فانسل بحماسة وسط الجموع وراح يصفق تارةً ويرقص الزار طوراً آخر.

علـى أنه عندمـا اقترب من قلب الميدان شد نظره بالون مهـول ذو غلاف شفاف.. وعلى الرغم من أنه مليء بمياه من عيار ثقيل.. بدا كما لو أنه يرفرف فوق السواعد كطائر الفينيق.. على نحو بدت فيه تلك الأذرع وكأنها تتوق إلى ملامسة سطحه المرن.

حـين بلغ رقص الزار أشـده والتصفيق أقصاه.. ارتج الميـدان والبالون في لحظة واحدة وانفجـرا معاً.. فانسكبت المياه متدفقة علـى الرؤوس كالسيل.. فانفرجت الجموع وتأرجحت الأجسـاد.. وكادت أن تفقـد بهجتها الطازجة حين راحت تتجـرف على نحو فظ ومباغت.. وظهر ضجيج من لون آخر أصم آذان الفراغ.



في نهاية «هذار» مفاجئ تهاوى جسد آدم في منحدر سحيق وأخذ يتدحرج.. شعر في هذه الأثناء بأنه أصبح أشبه بكرة ثلج.. راحت كرة الثلج تتدحرج وتتدحرج حتى بلغت المعاني أوجها.. فاستقرت فوق ذروة المنحدر.

لما استفاق آدم من غيبوبته وجد نفسه جالساً على مقعد وسط شارع راق..وبينما كانت الأبنية من حوله تهتز مثل حسناوات يتراقصن طرباً وكأنهن يحتفين بقدوم مولود جديد وقع بصره على أحد أغنياء السوق القديم وهو يهم بعبور واجهة محل فخم لمسح الأحذية وتلميعها.

استبد به الذهول حين رأى الفتى نفسه الذي دأب على متابعته في أزقة حيه القديم ينهض من وراء مكتبه الأنيق.. بدا له نظيفاً ومنتعشاً.. تقدم نحو أحد المقاعد.. أزاح أجيره جانباً.. وجلس مكانه.. مسحة من النشوة والسرور ارتسمت على وجهه عندما شرع بتلميع حذاء التاجر الغني.

لم يملك آدم في تلك اللحظات إلا أن يدين بأشد مشاعر الامتنان والعرفان لمرآته القديمة فقد أيقن على نحو تام أنها لم تخدعه يوما قط.




آفاق المعرفة



الأحـــلام
بين الآراء القديمة والحديثة

محمد نشمي كلش ❁

لاقت مادة الأحلام إقبالاً كبيراً لدى جمهور الناس قديماً وحديثاً وخصوصاً عند العلماء والفلاسفة فأصبح الكل يؤوّلها على حسب ما أوتي من العلم. فالأحلام في القديم أي في الحياة القديمة كانت على حسب تعبير البعض تنبؤاً عن الغيب. أمّا في الوقت الحاضر أي منذ نشوء نهضة في العلم وخاصة في علم الاجتماع أصبح للأحلام مدلولٌ يتمثل في سبر أغوار البشرية.

❁ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

- آراء القدماء في الأحلام:

أثار لغز الأحلام دهشة الإنسان البدائي فقد بات يسأل نفسه كيف أنه يرى في منامه أموراً ليست موجودة بالقرب منه وربما دفعه ذلك إلى الاعتقاد بأن الأحلام تنشأ عن تدخل الآلهة أو الشياطين لأنهما الوحيدان اللذان يستطيعان فعل ذلك [١].

وقد أصبح البدائيون يعتقدون بأن الأحلام لها وظيفة كبرى للإنسان إذ هي تكشف له عما تخفي عنه الأيام من مكنون الغيب. وهم لايفرقون بين الموت والنوم ففي كليهما تخرج الروح من بدن صاحبها ولكنها ترجع إليه بعد النوم بينما تتركه نهائياً بعد الموت [٢].

والإنسان البدائي لايجد فرقاً كبيراً بين أفعاله الواقعية التي يقوم بها أثناء اليقظة وأفعاله التي يحلم بها أثناء النوم. فإذا رأى في منامه شخصاً يهدده أو يعتدي عليه أيقن أن الشخص يفعلُ ذلك حقاً.

ويجيز العرف في بعض القبائل البدائية أن يتخذ الرجل إحدى الفتيات زوجة له إذا كان قد رآها في النوم وهي تحته فما دام قد اتصل بها في الحلم اتصالاً جنسياً جاز له بعدئذ أن يواصل ذلك الاتصال [٣].

وقد كان المصريون القدماء أوّل من اعتقد بأن الأحلام ايماء مقدس وكانوا يسمونها الرسل الغامضة إلى النائم، وقد وجدت بعض البرديات منها بردية (شستربيتي) نسبة إلى مكتشفها في عهد الأسرة الثانية عشرة قبل الميلاد وبها تفسيرات للأحلام ومعناها كأول محاولة من نوعها في التاريخ بل كان لهم إله خاص بالأحلام اسمه «بس» وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التي يضع المصريون رؤوسهم عليها عند النوم [٤].

أمّا عند الإغريق فالأحلام دائماً رسالة من الآلهة ترسل إلى النائم عن طريق حصن له بابان:

باب النفير: وتدخل منه الأحلام السعيدة والرؤى المبشرة بالخير والبركات.

وباب العاج: وتدخل منه الأحلام المرعبة والكوابيس التي تنذر بالسوء والدمار.

وقد وردت في القرآن الكريم بعض الآيات حول الأحلام وخصوصاً ما جرى للنبي إبراهيم عليه السلام حين رأى نفسه في المنام وهو يذبح ابنه فعزم على ذبحه حتى فداه الله بكبش من السماء.

وما جرى أيضاً للنبي يوسف وكيف استطاع أن يصل إلى مركز عال في الدولة بوساطة الحذق في تفسير الرؤيا، واتخذ بعض المفسرين هذه الآيات دليلاً قوياً على وظيفة الأحلام في التنبؤ

حتى انتشر بين المسلمين من جراء ذلك

مهنة خاصة في تفسير الرؤيا وقد منحت صاحبها مكانة اجتماعية مرموقة ومكسباً وخيراً، ولعل أشهرهم (ابن سيرين) الذي لُقِّب بـ (أرطميدس العرب) نسبة لـ(أرطميدس الإغريقي) أشهر المفسرين في عصره.



وهكذا مما تقدم نرى بأن الأحلام عند القدماء كانت لها مكانة أساسية وصيغة رائعة بقيت رائحتها منتشرة حتى وقتنا الحاضر.

- الأحلام في المنظور الإسلامي:

إن الأمة الإسلامية هي من أكثر الأمم القديمة اهتماماً بالأحلام وتقديساً لها فقد رُويت عن النبي محمد (ص) أحاديث عديدة في الأحلام وكلها تشير إلى أن الرؤيا الصادقة وحي من الله ولعلَّ حديث الرسول (ص) خير دليل عندما قال أحدهم: إن الصحابة شقَّ عليهم أن يبرهم النبي بانقطاع النبوة بعده، فطمأنهم النبي قائلاً: (بقيت من بعدي المبشرات) ولما سُئل النبي عن المبشرات هذه ماهي، قال: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أوتُرى له.

وقد ذكرتُ مقدماً ماجاء في القرآن بعض الآيات حول الأحلام خصوصاً ماجرى للنبي إبراهيم عندما عزم على ذبح ابنه وما جرى للنبي يوسف حين اشتهر في مصر بحذقه العجيب في تفسير الرؤيا.

وقد جاءت المعتزلة وشذّت عن المسلمين فكان رأيهم في الأحلام أنها أضغاث و أوهام ودليلهم في ذلك أن الإدراك الصحيح لايأتي الإنسان إلا في اليقظة وهم في زعمهم بأن الإدراك والنوم ضدان لايجتمعان.

وجاءت المتصوفة وعلى رأسهم الإمام

الغزالي لينكر على المعتزلة رأيهم فهم يعدون العقل منبع الأوهام والأباطيل وقد ذكر على لسان أحد الشيوخ وهــو يخاطب تلامذته: «أطفــئ سراج عقلــك واتبعنــي» وهم قد يفضلــون الجنون أحياناً على العقل ويعتقد الغزالي أن ما يبصره الإنسان أثناء نومه أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس(٥).

وقد شــاع بأنه قد ادّعــى أحد المشايخ والــذي يتظاهــر بالزهد والتصــوف وكان كســولاً لايعمل يقتات لمــا يتصدق به عامة الناس عليــه وتفتح ذهنه علــى حيلة يدرأ بها العوز عن نفسه وعن عائلته فأعلن ذات يوم بأن الخضر عليه السلام قد ظهر له في النوم وأخــبره بوجود قبر لبعض الأولياء في بيتــه، وشاع خبر الحلم بــين الناس وأصبح بيته مزاراً مقدســاً يحج إليه الناس من كل صــوب وأضحى هذا الشيــخ رجلاً محترماً تجبى إليه الأموال (٦).

وهنا يمكننا القول: ان الأوهام البدائية في الأحــلام تشبــه تلك التــي انتشرت بين المسلمين من ناحية وتختلف عنها من ناحية أخرى. فالبدائيون يصدقون بجميع الأحلام من غــير تفريق، بينمــا المسلمون يصدقون الأحلام التي يظهــر فيها الأنبياء أو الأئمة فقط...

- الأحلام في الآراء الحديثة:

رفض العلم الحديث التفاسير الجاهزة والمقولبة التي كانت تصلح لجميع القراء في العصر القديم ولا يعطــي لأي حلم تفسيراً محدداً بل يتعلق اختيار التفسير بالجو النفسي للحلم وبالتفاصيل وبالظروف الخاصة التي تحيط بالرمــز وبتداعيات الأفكار الصادرة عن الحلم وبشكل تلقائي...

وقد ظهــرت في الآونة الأخيرة نظريات عدة درســت الأحلام وماهيتهــا وقد أبرز الفيلسوف «سيغموند فرويد» عضلاته بذلك فقد استعرض الآراء التي قيلت في الأحلام وفنّدها جميعاً ويضيف أيضاً إنه بالرغم من آلاف السنين التي مرّت على الباحثين فإنهم لم يوفقوا توفيقاً كبــيراً في بحث الأحلام أو فهمها فهماً علميّاً، وقد جعل تحقيق الرغبة الأســاس الذي تقــوم عليهــا الأحلام وقد أضاف إلى ماتقدم أمرين:

١ - إن تحقيــق الرغبــة قد لايظهر في الحلم بشكل واضح إنما على شكل رموز.

٢ - الحلم لايحقق جميع الرغبات التي يشعــر بها الإنسان بل هــو يحقق تلك التي اكتسبهــا أثناء يقظته ولم يستطــع إشباعها لسبب من الأسباب.

وقد وجد فرويد أن نظريته هذه تساعده على فحص الأمراض النفسية التي يعانيها

بعض الناس ويضيف أيضاً بأن الأحلام هبة من الله فهي عملية تهريب للرغبات المحرمة وأن الإنسان يستطيع أن يشبع رغباته المكبوتة أثناء اليقظة أحياناً وذلك عن طريق ما يسمى بأحلام اليقظة فقد يشتد ضغط الرغبة على أحد الناس بحيث لايستطيع الصبر عليها، إنه يريد أن يشبعها حالاً ولعله لايحب أن ينتظر وقت النوم أو هو لايعتمد على أحلام النوم اعتماداً كبيراً، فيلجأ إلى أحلام اليقظة لينفس بها عن همومه الكامنة ونجده عند ذلك منطوياً على نفسه إذ هو يتخيل مايشتهي فيتكلم بصوت مسموع ويهدد ويعربد وكأنه يرى الأمور واضحة بين يديه....

وكان فرويد أوّل من اكتشف في الإنسان عقلاً ثانياً غير هذا العقل الواعي وقد اسماه بـ«العقل الباطن» أو اللاشعور وأضاف بأن للإنسان ثلاث ذوات هي:

الذات الحيوانية والذات البشرية والذات المثالية. وأنه يعيش دائماً في صراع نفسي بين هذه الذوات، فالذات الحيوانية لاشعورية يغلب عليها دافع اللذّة والألم وهي لاتعرف الحلال والحرام أمّا الذات البشرية فهي شعورية واعية ولكنّها ليست مثالية تشعر بقيود المجتمع وتحاول مراعاتها أمّا الذات المثالية فهي ما يطلق عليها اسم الضمير أو الوجدان وهي حسب وجهة نظر فرويد مبعث الرادع الباطني ويضيف أيضاً بأن إشباع الرغبات في الأحلام قد لايكون مباشراً وسبب ذلك بقاء جانب من الضمير يقظاً أثناء النوم وقد تلجأ الأحلام إلى الرموز لتخفي الأغراض التي يحظرها المجتمع(٧). وهو يرى أن معظمها ذات مغزى جنسي فكل الأشياء المستطيلة كالعصا وجذور الأشجار والسكاكين والحراب وأربطة العنق ترمز إلى عضو الذكورة، أمّا العلب الصغيرة والصناديق والمواقد والقبعات وغيرها فهي ترمز إلى عضو الأنوثة(٨).

وقد جاء « أدلر» بنظريته في الأحلام فقال: بأن الأحلام ليست سوى تحقيق لما كان الإنسان يشتهيه أثناء يقظته من التعالي والسيطرة فقد يحلم أحدنا كأنه طائر في الهواء فوق رؤوس الناس ومعنى هذا أنه يحب أن يكون ذا منزلة اجتماعية عالية، وقد أضاف أدلر بأن الطفل البشري لايعرف الشهوة الجنسية ولا يشعر بأي ميل إليها وإنما يشعر بشيء آخر عندما يجد نفسه صغيراً بين أناس كبار وهو الشعور «بالنقص» ويضيف أيضاً بأن الإنسان يرى في بعض الأحيان أحلاماً مخجلة كمثل مايرى أحلاماً مفزعة فقد يحلم كأنه يتغوط في الشارع أمام الرائح والغادي أو هو يجلس مكشوف

العورة أمام الناس ومن الممكن تفسير هذا النوع من الحلم بأن صاحبه كان قد أصيب في أيامه الماضية بفضيحة أخجلته فهو يتذكرها في يقظته مرة بعد مرة ويحاول أن ينساها وكلما حرص على نسيانها انبعثت فيه بدرجة أقوى....!!

إن البحث والممارسة التطبيقية للتحليل النفسي أوجد مناهج لتفسير الأحلام لكنهما لم يصنعا أية صيغة محددة، فالمعنى الفردي للرمز يجب أن يشكل تلقائياً من قبل الحالم وفقاً لرجوعاته الخاصة إذ تتفرق النفس البشرية في كل حلم وتتجزأ كي تعود بعدئذٍ في حالة اليقظة فعندئذ تتمثل أشكال عديدة أثناء حلمنا كأشخاص فاعلين وتتواجد «أنا الحالم» التي تكتفي بمراقبة اللعبة أو قد تشارك فيها أيضاً في الأحلام وتكتم أصوات و تتصارع وجوه مألوفة وأخرى غير مألوفة وجميع هذه العناصر هي نحن أنفسنا....!!

إنها قوانا النفسية المتجسدة ممثلة برغباتنا وأفكارنا متخفّية كالممثلين ومستعيرة أقنعة مألوفة

فالحلم إذاً هو مسرح نكون فيه نحن أنفسنا منصة التمثيل والممثلين والرواية والنقاد والجمهور..

- وهناك نوع من الأحلام يطلق عليه الأحلام «الدون كيشوتية»:

وهي نسبة إلى بطلها المشهور الدون كيشوت الذي كان يحلم أن يكون فارساً تتناقل الناس أخباره فكان دائماً على أهبة الاستعداد لمحاربة اللصوص والأعداء وقطاع الطرق حتى إنه عندما لم يجد من يبارزه لم يتردد في محاربة طواحين الهواء ظناً منه بأنها عمالقة تتحداه للمبارزة....!!

وهذه الأحلام تختلف عن أحلام اليقظة من حيث أنها تسيطر على حياة الإنسان كلها فتجعله يخلق لنفسه العالم الذي يشتهي أن يعيش فيه... وهذه الحالة تشتد لدى الشبان ولاسيما المراهقين فمعظم أحلامهم تدور حول الغرام والشهوة الجنسية. حيث يشتهون أن يأخذوا دور البطولة في أي مجال للفت انتباه الفتيات(٨). وهي بلا شك تضعف عند المتعلمين ليس حسب درجات الوعي فحسب وإنما حسب البيئة النفسية التابعة لهم أيضاً...

والسمة المميزة لهذه الأحلام هي دائماً الحاجة لخرق المألوف والعادات... وذلك وسيلة لإبراز الذات. وخاصة أحلام الفقراء الذين يجوعون إلى المرأة الجميلة والقصر الفخم والطعام اللذيذ(٩).

وما نشوء الأساطير إلا رغبة تحتاجها

الشعــوب المضطهــدة أو انعكاســ لواقعها المتمثــل بالأسطورة فالأساطير أشبه بأحلام الشعوب [١٠]...؟!!!

وقــد كان المتنبئــون بالأمســ يقولون: أخبرنا بأحلامك نخبرك بمستقبلك. واليوم يقول أطباء النفس أخبرنا بأحلامك نشخص مشكلاتــك [١١].. لقد كان الناس في الماضي يدرسون الأحلام لكي يعرفوا بها ما يضمره لهم الغيــب من منافع ومضــارّ... أمّا الآن فقد صاروا يدرســون الأحلام لكي يعرفوا العقــد والرغبات المكبوتــة التي تختفي في أعماق نفوسهم...

ومن هنا يجب أن نذكر أن النوم واليقظة وجهان لحقيقة واحدة هي الطبيعة البشرية والملاحظ أنه ليس هناك حدّ فاصل بين النوم واليقظة لدى الإنسان، فالإنسان لايخلو من نوم أثنــاء يقظته ولا يخلو مــن يقظة أثناء نومه... وما الأحلام التي يراها الإنسان في نومه إلا صورة مضخمة لما يجري في اليقظة من خواطر وأوهام عجيبة.....!!.

الهوامش

١- الأحلام بين العلم والعقيدة. للدكتور علي الوردي، ص٣١.
٢- المصدر السابق، ص٧٢.
٣- أبو مدين الشافعي، الوهم، ص٣٤.
٤- توفيق الطويل، الأحلام، ص ١١٢.
٥- الغزالي، كيمياء السعادة، ص ١٤.
٦- جعفر الخليلي، أولاد الخليلي، ص١١.
٧- محمد خليفة بركات، تحليل الشخصية، ص١٤١.
٨- سلامة موسى، عقلي وعقلك، ص٦٣.
٩- سلامة موسى، أسرار النفس، ص٤٤.
١٠- جوزيف كاسترو، الأحلام والجنس، ص١١٥.
١١- فرانك كابريو، تفسير السلوك، ص٢٧٩.





أدباء وكتاب عرب من أصـــول أرمنيـــة

د. نورا أريسيان ❋

عندما نتعمـــق في نشأة وتكوين العلاقات العربيـــة الأرمنية عبر القرون نجد بروز عدد من الشخصيات التي أسهمت في العلاقات المتبادلة في مجالي التاريخ والأدب على حدّ سواء.

فمن الشخصيات البارزة في التاريخ العربي من أصول أرمنية في القرنين الثاني والثالث عشر في مصـــر الشيخ عبد الله الأرمني وأبو صالح الأرمني، أما في الدولة الفاطمية فبرز الوزير بدر الدين الجمالي وغيره.

❋ أديبة وأستاذة جامعية (سورية).

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

أما في الحياة الثقافية فقد لعب عدد كبير من الأدباء الأرمن دوراً لا يمكن إغفاله في سورية ولبنان ومصر وفلسطين والعراق، إذ تركوا بصماتهم في أدب تلك الدول العربية وفي الثقافة العربية عموماً. فاشتهر منهم العديد من الأدباء والشعراء والباحثين في التاريخ.

أما فيما يخص الشخصيات الأدبية العربية من أصول أرمنية، للحقيقة أنه لمع العديد منهم في سماء حلب على وجه الخصوص، فمن تلك الأسماء على سبيل المثال: في القرن السابع عشر: شاهين كاندي، والشاعر واللغوي مكرديج الكسيح الأرمني. وفي القرن الثامن عشر المطران بولس آروتين، والمحرر والصحفي المعروف رزق الله حسون (صاحب جريدة «مرآة الأحوال» وقد كانت صحيفة سياسية أسبوعية تصدر في القسطنطينية عام ١٨٥٥). أما في القرن التاسع عشر فقد برز الأب أنطوان خانجي وله كتاب بالعربية حول تاريخ الأرمن، والأديب والمترجم جرجي بليط وغيرهم.

ويشهد الباحثون العرب على دور المثقفين الأرمن في الحياة الثقافية والأدبية في القرن التاسع عشر في البلاد العربية ولاسيما في الشام ومصر، حيث يقول الكاتب اللبناني الشهير يوسف يزبك «شاركت مجموعة من النبلاء الأرمن في إحياء الحركة الأدبية من جديد والتي كانت قد بدأت عندنا في القرن الماضي».

فخلال هذه الفترة برزت أسماء عديدة في مجال الأدب والشعر والتاريخ. ولكن سأكتفي هنا بأربع شخصيات فقط من مدن وبلاد عربية مختلفة.

سأحاول أولاً الإضاءة على شخصية تعتبر من أكثر المفكرين الأرمن المتأثرين بالثقافة العربية الكلاسيكية، وهو اسكندر بن يعقوب آغا أبكاريوس الأرمني ابن هاكوب أبكاريان. وهو كاتب لبناني من جذور أرمنية.

لقد ترك اسكندر بن يعقوب آغا أبكاريوس وشقيقه يوحنا أبكاريوس العديد من المؤلفات الهامة.

كان يوحنا أبكاريوس ترجماناً لقنصلية انكلترا في بيروت. ولد عام ١٨٢٦م في بيروت وتوفي فيها عام ١٨٨٥م. تلقى تعليمه في المدرسة الوطنية، ثم في الكلية الأمريكية في بيروت. وترك كتاباً قيماً في التاريخ بعنوان «قطف الزهور في تاريخ الدهور» طبع في بيروت عام ١٨٧٣م، وطبعة ثانية عام ١٨٨٥م. وأيضاً كتاب «نزهة الخواطر» جمع فيه بعض الأخبار ومقاطع أدبية. وكتاب «التحفة الأنيسة في النوادر النفيسة». من أشهر آثاره «قاموس إنكليزي-عربي» مطول ومختصر،

تمَّ تنقيحه وإعادة نشره لاحقاً.

أما اسكندر أبكاريوس ولد في بيروت، وبعد تحصيل العلم في أوروبة عاد إلى بيروت ثم تركها ليستقر في القاهرة عام ١٨٧٤ على خلفية صلة وعلاقة عائلة أبكاريوس بالعائلة الخديوية في مصر، حيث أسند الخديوي اسماعيل لاسكندر عدّة مناصب إدارية. ثم عاد إلى بيروت لأسباب استشفائية من مرضه الجلدي. تنقل في مدن عربية عديدة وتوفي عام ١٨٨٩م في بيروت.



وهو واحد من الشعراء العرب في القرن التاسع عشر، حيث ترك مؤلفات عديدة منها: كتاب «نهاية الأرب في أخبار العرب» طبع في مرسيليا عام ١٨٥٢م، ثم أعاد طباعته في بيروت عام ١٨٦٧م بعنوان «تزيين نهاية الأرب في أخبار العرب». وكتاب «روضة الأدب في طبقات شعراء العرب» و«مُنية النفوس في أشعار عنتر عبس» وكتاب الشعر «نزهة النفوس وزينة الطروس» وهو كتاب المدائح والمراثي والتهاني. وكتاب تاريخ بعنوان «ديوان الدواوين في أجواد المتقدمين والمتأخرين». وغيرها. وله كتاب ترجمة لمحمد علي باشا بعنوان «المناقب المصطفوية والمآثر المحمدية العلوية». ويعتبره البعض على أنه من أهم أعمال أبكاريوس التاريخية وتعود أهميته البالغة إلى ندرة المصادر الأدبية التي أرخت لعصري محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا. وتتجلى أهمية الكتاب في التركيز على فتوحات إبراهيم باشا في الشام والأناضول.

وكتب أيضاً ترجمة لتاريخ إبراهيم باشا بعنوان «المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية». وكذلك الملحمة الشعرية الطويلة بعنوان «ريحانة الأفكار في أخبار الأسد الكرار والبطل القهار الملك شهريار» عام ١٨٨٠م، وكتاب آخر في التوثيق التاريخي بعنوان «نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان» أو «في وقائع عربستان» كما في النسخة الخطية. وصدرت ترجمته إلى الأرمنية عام ١٩٣٣م في بيروت.

وقد لفت الأنظار ضمن أبحاث الدارسين في أرمينيا كما في معجم التراجم للباحث الأرميني كارنيك ستيبانيان. والجدير ذكره أن أبكاريوس كان واسع الاطلاع على الوثائق الرسمية التي تتعلق بالبلاغات الحربية ونشرات الجيش المصري ومراسلات محمد علي باشا مع أوروبة. فيتوضح أن أكاريوس قام بمزجٍ بين الروايات الشفهية التي دونها والمعلومات التي حصل عليها من الوثائق. لا بد أن نذكر أن أبكاريوس عمل في الصحافة أيضاً، وشارك في تحرير صحيفة «الجنان».

وأذكر من أبياته بعنوان: شَرّفت بيروت:

شـرَّفتَنا فتزيّنتْ أقطارُنا
وزهتْ معالـمُها وطاب الموردُ
وتَنورتْ بيروتُ حتى أصبحتْ
من نور مجدكَ كوكباً يتوقّد

فيمكن القول إن اسكندر أبكاريوس كان بحق من روَّاد النهضة الثقافية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في الحقيقة، أبدع العديد من الأدباء الأرمن باللغة العربية فحصلوا على مكانة خاصة في الأدب العربي وبرز منهم شخصيات دينية أيضاً اهتمت بالأدب وأبدعت.

وأتوقف هنا عند شخصية حلبية معروفة سعت إلى تدوين الموروث الشعبي الحلبي وهو يوسف قوشاقجي، من الأدباء الأرمن الحلبيين الذين أبدعوا باللغة العربية.

يوسف قوشاقجي من مواليد حلب ١٩١٤ وفي مراجع أخرى ١٩١٣. من طائفة الأرمن الكاثوليك. تلقّى تعليمه الابتدائي في حلب، درس في مدرسة مار غريغوريوس الصغرى ثم تابع دراسته في بيروت بمعهد الآباء اليسوعيين التابع لجامعة القديس يوسف. أتقن اللغات العربية والفرنسية واللاتينية. ودرس العلوم الفلسفية والكهنوتية، وتابع دراسته في روما. ألف وترجم أكثر من ٣٥ كتاباً منها دراسات في اللاهوت والكتاب المقدس وسير القديسين. ومنها ما اختص بالتراث الشعبي مثل الأمثال الشعبية الحلبية والأغاني الشعبية الحلبية.

وقـد عمـل مـع الأب صبحـي حموي الحلبي والأستاذ بطرس البستاني في إخراج ترجمة جديدة لأسفار العهد الجديد. سمي كاهناً عام ١٩٣٨م ودرس في عدّة مدارس ثم أصبح عام ١٩٤٣م مدير مدرسة القديس غريغوريوس.

اهتـم الأب العلامة يوسـف قوشاقجي بجمع ووضع كتب الـتراث الشعبي الحلبي، فصدر له كتاب «الأدب الشعبي الحلبي»، وله كتاب «الأمثـال الشعبية في حلب وماردين»، في مجلدين.

اعتبرتـه مدينة حلـب أحد المبدعين في مجـال الفكر والثقافة والمجتمع وكرمته عام ١٩٨٧م. تابع الأب يوسف قوشاقجي مشوار المعلـم نعوم بخاشـ، وهو واحـد من أهم مؤرخـي حلب في حياتها اليومية في مستهل القرن العشرين. فمـن أهم أعماله تحقيقه كتاب (يوميـات المعلم نعوم بخاش) بالكامل كما كتبهـا في دفاتر الجمعيـة وهو بأربعة أجـزاء. (صدر الجزء الرابـع والأخير بعد وفاته عام ١٩٩٥م).

هذا وقـد قام بجمع وتحقيـق وترتيب وتنظيـم أعمـال دفاتر الجمعيـة المعروفة (بأخبـار حلـب) للمعلم نعـوم بخاش التي كتبها اعتبارا من عام ١٨٤٢م وحتى بدايات القرن العشرين وهي مليئة بالأخبار المكانية والعالمية التي أرّخها المعلم البخاش. فيتكلم في هذه المجلدات عن أحوال الأحياء الحلبية وعن الطقوس في حلب وأهم الولائم ويعطي أسماء بعض الشخصيات ويتكلم عن أحوال الطقس والكـوارث الطبيعية وعن الأحوال السياسيـة اليوميـة والتاريخيـة والثقافية والدينيـة وبعض الويـلات والحروب التي جـرت في زمانه، فهـي خلاصـة التقاليد الشعبية في القرن التاسع عشر.

وفي مقالة له بعنـوان: «الأعياد وشؤون الدين في أمثال حلب» كتب قوشقجي يقول: «جمعـتُ نحو ستة آلاف مثـل شعبي جرى في الماضـي ولا يزال كثير منهـا جارياً على لسـان شعب حلب. وسقطـت أمثالٌ قديمة ولكـن تنشأ أمثالٌ جديدة كقولهم في الثرثار وغيره... والجديـر بالذكر أن هناك أمثالاً كثيرة على شـؤون الدين ورجالـه والعبادة والإيمـان بالله، لتأصل الشعـور الديني في أهل حلب مـن مسلمـين ومسيحيين. وقد رأيـتُ أن أبحث في هذا الموضوع لما فيه من فائدة تاريخية ودينية».

كما كتب قوشقجـي الأمثال في موضوع الأعياد وأسماء القديسين مثل ذكر اسم بعض القديسـين في هـذا المثـل أو ذاك. وأسهم الأب يوسـف قوشاقجـي بعـدد ضخم من المقالات المفيـدة في تاريخ الكنيسة الأرمنية

الكاثوليكيــة والكتــاب المقدســ. واختص، إضافــةً إلى ترجماته العديــدة من اللغات الأجنبية والأرمنية، بباب جعل عنوانه «قرأتُ وسمعتُ وقلتُ وكتبت» ذكر فيه اختباراته في حياته ومعاناته من مرضه.

لو ألقينا نظــرة على بيبلوغرافيا تشمل أعمــال ومؤلفــات وترجمــات الأب يوسف قوشاقجــي نجد من بين الكتب الأدبية التي ترجمهــا إضافة إلى كتاب (الأمثال الشعبية الحلبية)، كمــا نجد كتاب (تعريب الأناجيل وأعمال الرســل) في سلسلة بحوث ودروس، و(العهــد الجديــد) مترجم عــن اليونانية بالاشــتراك مــع الأب صبحــي الحمــوي اليسوعي والعلامــة بطرس البستاني. وعن الفرنسيــة قصة (مايريــك) لهانري فيرنو، والجسد المحطم بقلــم جان فانييه، وبولس ملســن: جان جوكان (مترجم عن الفرنسية) وتريزيو بوسكو: ســيرة دون بوسكو. وكتاب (العموديــون) و(المقدســات المسيحيــة في سورية). و(أنبياء العهــد القديم) و(رسالتا بطرســ)، و(خلاصة اللاهــوت المريمي)، و(قصة حياة تريز مارتان) للمطران غوشه، و(سيرة القديسة تريزيا الطفل يسوع).

أتوقف أيضــاً عند شخصيــات عربية من أصــول أرمنية من العــراق. لقد غبنت مجموعــات اجتماعيــة عراقيــة عديــدة ومنها الأرمن مــن قبل الدارسين والمؤرخين العراقيــين الذين كتبوا عن حيــاة المجتمع العراقــي، وأغفلوا تفاصيــل أولئك الناس الذين لهم تاريخ حافــل بالمنجزات وأسدوا من خلال عملهم خدمات كبيرة إلى المجتمع العراقي والعربي على امتداد تاريخ طويل..

فالأرمــن جزء حيوي في بنيــة المجتمع العراقي بــكل ألوانه وأطيافــه التي ينبغي دراستــه بمنتهى الموضوعيــة اعتماداً على مصادر موثوقة.

في الحقيقة، هنــاك شخصيات أرمنية مهمة جدّاً خدمت العراق تاريخاً وحاضراً.

وقــد ورد في تاريخ العــراق أسماء عدَّة ملــوك وحــكام حكموا العــراق، وكانوا من أصول أرمنية منذ القدم، وصولاً إلى العصور الوسطى، وخدم بعضهــم مع القادة العرب المسلمين، وكانوا مــن الأمراء الأرمن الذين عرفوا بمصداقيتهــم ونزاهتهم وكانت لهم صلاحياتهــم التفويضية في شــؤون العراق إبان العصــور العباسية، ويذكر أن السلطان بــدر الدين لؤلــؤ حاكم الموصــل في القرن الثالث عشــر الميلادي أنه أرمنــي الأصل. كمــا يعدّ يعقــوب أميرجان، وهــو بغدادي المولد، مــن الشخصيات الأرمنيــة البارزة وأســدى خدمات كبرى للعــراق عند قيادته

مجموعة من رجال البصرة للدفاع عن بغداد والمحافظة عليها عام ١٧٣٢م.

وترد أسماء شخصيـات أرمنية عراقية شغلت عـدّة مناصب ببغـداد إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومنهم: بيدروس كوركجي ويوسف كيفورك رئيس الصيارفة، وسـتراك بوغوصيـان المفتش العـام للبنك العثمـاني. والتاجر الأرمنـي المعروف نعوم سركيس وغيرهم.

ومن الشخصيات الأرمنية العامة أيضاً (أوسـكان أفندي) فوسكان مارديكيان الذي كان وزيراً للبريد والبرق في الدولة العثمانية، وبناء على دعوة وجهت له من قبل الحكومة العراقية في عشرينيات القرن الماضي، أصبح خبيراً مالياً في وزارة المالية العراقية، وطوّر النظام المالي في العراق وترجم عدّة نصوص قانونية من العثمانية إلى العربية.

وبرز أيضـاً، اسم سـيروب اسكندريان مديراً للإدارة النهرية في بغداد عام ١٩١٠م، وأيضاً هناك سرابيـون سيفيان الذي شغل المنصب نفسه قبل الحـرب العالمية الأولى، ثم شغل منصب سكرتـير وزير المالية عقب تأسيس النظام في المملكة العراقية.

أما في مجـال الكتابـة الصحافية فقد برز اسـم جيراير غاريبيان الذي ألف عدداً مـن الكتب المهمـة، وأجـرى العشرات من المقابلات مع الشخصيات الأرمنية المعروفة على الصعيديـن السياسي والأدبي. وهناك الكاتـب آرا خاجـادور وشكـري كرابيـت بيروسيان عضو نقابه الصحفيين وغيرهم.

فإلى جانب الشخصيات الأرمنية البارزة في مجال الفن والتصوير والمسرح والتشكيل نتنـاول هنـا مجـال الأدب والكتابة. ففي مجال الأدب برز في العراق الكاتب والباحث يعقوب سركيس والكاتب يوسف عبد المسيح ثروت، والكاتب ليفون كارمين، وعبد المسيح وزيـر الذي جاء إلى العراق مع الملك فيصل الأول وكان مـن رجال الفكر والمعرفة. عين مترجمـاً في وزارة الدفـاع العراقية ووضع القاموس العسكري ومؤلفات أخرى. وترجم عـدّة كتب عسكرية لوزارة الدفاع العراقية. ويعـود إليـه الفضـل إلى ترجمـة الرتب العسكريـة إلى العربية -لأول مرة في الوطن العربي- وكذلك ترجمة الصنوف والأسلحة التي كانت مسمياتها باللغة التركية.

ومن جهة أخرى، بـرز الكاتب والباحث الأرمنـي يعقوب سركيس في مجـال الأدب وكان ضليعا بتاريخ العراق الحديث.

يعقـوب سركيس هو كاتـب عراقي من فضلاء بغداد، وأعيـان أدبائها، ومؤرخيها وكتابهـا، له باع طويـل في التأليف والبحث

والتنقيب في مختلف الفنون الأدبية، وفي المجتمع العراقي وتأريخه.

اشتهر مجلس يعقوب سركيس بحضور العلماء والأدباء والمؤرخين، وكان يقيم مجلسه في منطقة المربعة على نهر دجلة، حيث يجد عنده الطالبون ضالتهم المنشودة في العلم والأدب والبحوث المختلفة، وكان له مكتبة حافلة بمراجع العلم والأدب وأمهات الكتب والمؤلفات في اللغة العربية وتوفي في منتصف القرن الماضي.

من مؤلفاته: كتاب المباحث العراقية، ويقع في مجلدين، ويعتبر من الأبحاث الهامة في الهوية العراقية والمجتمع العراقي وتاريخه. صدر في بغداد عام ١٩٤٨م، حتى يقال بأنه المؤلف الحقيقي لكتاب ستيفن هيمسلي لونكريك المشهور بكتاب «أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث». كتب ونشر عدداً من المقالات في الصحف والمجلات العراقية.

اشتهر يعقوب سركيس في البلدانيات وفي تحقيق بعض المخطوطات الأدبية العربية. وقد تمَّ جمع كتاباته في مجال المخطوطات في كتاب بعنوان (فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس) في جامعة الحكمة في بغداد الصادر عام ١٩٦٦م.

كما اهتم الكاتب الاجتماعي يعقوب سركيس برصد تسمية العشائر في العراق وتفاصيل عن حياتها الاجتماعية. وكتب أيضاً بحوثاً تتناول تاريخ أسرة السعدون وعشائر المنتفق.

وتصنف كتاباته من أهم المراجع حول تاريخ السعدون والمنتفق. على اعتبار أنه هو الكاتب المتصل اتصالاً وثيقاً بآل سعدون من واقع علاقات أبيه (ويدعى الخواجة نعوم) الذي كان أميناً لخزينة (ناصر باشا السعدون)، وعلاقاته هو شخصيّاً بكثير من وجهاء آل سعدون.

ومما يزيد من أهمية كتابات سركيس احتفاظه بكثير من الوثائق، والمخطوطات، والمذكرات الخاصة بالمَشيخة، واهتمامه بالروايات الشفهية التي كان يرجع إليها كثيراً في كتاباته، وقد ضمن أغلبها فيما بعد في أجزاء كتابه القيم «مباحث عراقية» كما أسلفنا حيث دون الكثير عن المدن العراقية وتفاصيل تخص تسمية تلك المدن وتفاصيل عن جغرافيتها وتاريخها..

يذكر أن يعقوب سركيس كتب العديد من المقالات ومنها مقاله (نظرة في كتاب النقود وعلم النميات)، صدرت في مجلة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥٠م.

كما يتوضح لنا، أن الأرمن في العراق أيضاً يشكلون نموذجاً آخر للعلاقات

الأرمنية العربية التي أثمرت في ميادين الأدب والكتابة، على يد تلك الشخصيات العربية من أصول أرمنية.

فالعديد من الشخصيات الأرمنية كان لها حضور ملفت في الساحة العراقية وقد قدّموا خدماتهم الثقافية في الحياة العراقية إبان القرن العشرين في مجال الاقتصاد والسياسة والطب والتجارة والصيرفة.

وأستكمل هذا البحث بشخصية عربية من أصول أرمنية من دمشق. اعتبر اللحظة الفارقة في الفكر التنويري العربي في القرن التاسع عشر. وهو الأديب والصحفي البارز أديب إسحق أحد روّاد النهضة القومية.

توفي أديب إسحق عام ١٨٨٥م وفي مصادر أخرى عام ١٨٨٤م قبل أن يكمل التاسعة والعشرين من عمره، رغم ذلك تميزت إسهاماته في النهضة العربية الحديثة، بالأصالة والجدية والجرأة في الدفاع عن قضايا العرب. فقد أفلح في تناول عددٍ من الموضوعات المحورية في الحياة الاجتماعية والسياسية بروحٍ تأملية نقدية ثورية، لا تزال تحظى باهتمامٍ واسعٍ في الفكر العربي المعاصر حتى يومنا هذا، فمن أبرز الموضوعات التي تناولها: الوطن والمواطنة والحرية، والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة وسيادة القانون، والدعوة للحداثة والنهوض والمقاومة، لذلك سمي بالمفكر النهضوي المحترف.

وبرأي الباحث زهير توفيق فإن أديب إسحق هو مثقف نهضوي مختلف، حيث يقول عنه: «عبّر إسحق في كتاباته عن الواقع الذي يعيشه المشرق العربي، مستخدماً مفاهيم عصر التنوير والثورة الفرنسية في مقولاته كالحرية والمساواة والوطن والأمة، ونادى بالإصلاح الشامل ناقداً الاستبداد واعتبره آفة الشرق الأساسية. وأكد على ضرورة الحرية مستلهماً الحرية الليبرالية في القرن الثامن عشر».

تناول الباحث زهير توفيق الإشكالية الفكرية التي حركت إسحق وغيره، والتي شكلت الإطار التكويني للفكر العربي الحديث والمعاصر وهي إشكالية النهضة والإصلاح. ويرى توفيق أن أفضل مقاربة لفكر إسحق هي التي تعتمد المنهج التكاملي الذي يوظف عدة منهجيات للوصول إلى النص... لقد ركز إسحق على الإصلاح الشامل وكان للشيخ جمال الدين الأفغاني تأثيراً واضحاً عليه اجتماعيّاً وفكريّاً وسياسيّاً، إلى جانب التأثيرات الأخرى.

عاش إسحق عصراً اتسم بالتحولات السياسية والاجتماعية العميقة فرصد تلك التحولات بالتقدم والنهضة. وتأثرت

حياة إسحق السياسية والفكرية بالأحداث السياسية والاجتماعية في الدولة العثمانية ومحاولات الإصلاح فيها وانعكاساتها على البلاد العربية.

ومن المصادر العربية التي نهل منها إسحاق: ابن خلدون وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني.

ويعدُ أديب إسحق نفسه شرقيّاً إلى جانب كونه مصريّاً وسوريّاً، ويهتم بالشرق ويحثه على النهوض. وقد ثمّن الباحثون العرب في الفكر العربي الحديث دعوة إسحاق إلى تحرير المرأة، واعتبروه في طليعة أنصار المرأة الذين نادوا بمساواتها مع الرجل. وسمي هذا الكاتب الأرمني الأصل، عربي اللسان باعث النهضة القومية.

أما عن نشأته، فقد ولد أديب إسحق عام ١٨٥٦م في دمشق من أسرة أرمنية. وتوفي في قرية الحدث قرب بيروت. تعلم في مدرسة الآباء اللعازاريين حيث درس اللغتين العربية والفرنسية، ودرس لاحقاً اللغة التركية. بدأ نظم الشعر في الثانية عشرة من عمره. اشتغل بالصحافة منذ مطلع شبابه. غادر إلى بيروت وتولى تحرير جريدة «ثمرات الفنون» ثم جريدة «التقدم» ودخل جمعية «زهرة الآداب» التي كان يرأسها سليمان البستاني.

ثم انتقل إلى الإسكندرية حيث اشتغل في الترجمة والتأليف للمسرح مع سليم النقاش ومثّل بعض المسرحيات معه، ثم قصد القاهرة وهناك تعرف إلى جمال الدين الأفغاني، فانضم إلى حلقاته، وأصدر جريدة «مصر» عام ١٨٧٧م في مدينة القاهرة أولاً ثم في الإسكندرية، وبعدها أصدر جريدة «التجارة».

وعندما هاجر إلى باريس عام ١٨٨٠م أنشأ فيها جريدة «مصر القاهرة». وهناك وسع ثقافته الغربية. وعمل في الصحافة الفرنسية وترجم الروايات والمسرحيات عن اللغة الفرنسية إلى العربية. وقد عبّر الأديب الفرنسي الكبير فيكتور هيغو عن إعجابه به بقوله: «هذا نابغة الشرق». لاحقاً عيّن أديب في مصر ناظراً لقلم «الإنشاء والترجمة بديوان المعارف». لكنه اضطر إلى العودة إلى بيروت فأقام في بيروت متولياً تحرير جريدة «التقدم» للمرة الثالثة.

كان أديب إسحاق يؤمن بحرية الفكر وسيادة العقل، وكان يدعو إلى الحياة الدستورية ويطالب بالحريات الديمقراطية القائمة على الشورى، ويدعو إلى التقدم والإصلاح بعيداً عن العنف وقد تأثر في ذلك كله بجمال الدين الأفغاني والثقافة الفرنسية.

وأما الصحافة العربية فقد كان له تأثير في تطويرها ودفعها إلى الأمام. ويقوم منهجه الصحفي على حسن الاختيار وتهذيب العبارة. أما مقالاته فأكثرها افتتاحيات مهمة أو مقالات مترجمة كان يتناول فيها الموضوعات العلمية أو الاجتماعية أو السياسية.

وكان أسلوبه أدبياً بليغاً يشبه نثر القرن الرابع الهجري في تفصيل الفقرات، والأخذ بالسجع، واستعمال المحسنات البديعية والصور البيانية.

وعلى الرغم من حذقه اللغتين العربية والفرنسية يقال أنه في ترجماته كان يعنى بنقل المعنى المجمل بالصيغة البليغة التي يتحرى فيها تناغم الفقرات، وموسيقى السجع، شأنه في ذلك شأن مترجمي عصره.

ترك أديب إسحاق مجموعة من الآثار، بعضها مطبوع وبعضها مخطوط، وقد جمعت آثاره مع ترجمة لحياته، وأقوال الصحف فيه في كتاب سمي «الدرر». ومن آثاره: «نزهة الأحداق في مصارع العشاق» وكتاب «آثار الأزهار» وقد شارك سليم الخوري في تحريره.. و«تراجم مصر في هذا العصر»، وله كتاب بعنوان «الأعمال السياسية والاجتماعية».

ترجم ثلاث مسرحيات عن الفرنسية: (أندروماك)، و(شارلمان)، و(غرائب الاتفاق) (مفقودة). ويذكر أنه ترجم مسرحية (أندروماك) للشاعر الفرنسي راسين بطلب من قنصل فرنسا في بيروت عام ١٨٧٥م وأضاف إليها شعراً نظمه وجعله ألحاناً، لتمثل على المسارح في بيروت. وبذلك يكون أديب إسحق قد شارك في الحركة المسرحية وساهم في التأليف والترجمة والتمثيل.

كما وله مقالات وخطب ورسائل، تضمنها كتاب (الدرر)، ولايزال قدر منها لم يجمع إلى الآن، وهي أعماله المبكرة، كذلك ترجم بعض الكتب المعجمية والأخلاقية.

وتجدر الإشارة إلى الجانب الصحفي لأديب، فمعظم مقالاته كانت تبحث في الحقوق والواجبات وتلازمهما، وفي الواجب والحق وفي الحقوق والواجبات الطبيعية والذاتية والنوعية وفي القضاء والاجراء وغيرها. ومواضيع في الزواج وتربية الصغار. ولعلّ من أهم الأبحاث التي كتبها في التقدم ما تحدث عن الصحافة والصحف وأهميتها.

وأما عن إنتاجه الشعري، فقد تجمع لديه قدر كبير من المقطوعات والقصائد، لكنها لم تنل عنايته ففقد الكثير منها، وقد ذكر أخوه عوني إسحاق، الذي جمع آثاره

النثرية والشعرية في كتـاب بعنوان (الدرر) أن لأديب عدة قصائد ومقطوعات في ديوان صديقه يوسف الشلفون (أنيس الجليس).

حسب عدد من الدارسين، لايرقى شعر أديب إسحـاق إلى مستوى نثره، فقد تجلت بلاغة شعـره في صنعته البلاغيـة، وتكلفّه البديعـي في الجناس والطبـاق والمقابلة والتورية. وقد أحسن اختيار الألفاظ الرنانة التـي يطرب لهـا السمـع، ويتقبلها الذوق السليـم، ولـه قصائد رائعـة جرت مجرى الأمثال، وسارت بين العامة كقوله في المرأة:

حسب المرأة قوم آفة
من يدانيها من الناس هلك
وراها غيرهم أمنية
ملك النعمة فيها من ملك
إنما المرأة مرآة بها
كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها
وإذا أصلحتها فهي ملك

أما أسلوبـه، فيمكننا القـول إنه حذق العربيـة والفرنسيـة وتعمـق في دراستهما علـى مستـوى واحد. فكان يسلـك المسلك الخطابـي الحماسـي في كتاباتـه. فـكان السجـع قوام فن أديـب إسحق فقد اعتمد علـى تنميق التعبـير وكان يراعي الموسيقى في نـثره أكثر من شعـره. فهو بحق من روَّاد النهضـة الحديثة في النـثر والترسل، فقد جمـع في كتابته بين جزالـة الترسل القديم وأناقته وعذوبـة الإنشاء الحديث وسهولته، كمـا أنه جعل مـن الخطابة فنـاً أميل إلى القديم بإيقاع قوافيـه، وإلى الجديد بتنوع مواضيعـه. كقوله: «وتململـت الأرضُ من أعمـالِ الإنسان، فزلزلـت زلزالَها، وكادت تُخرج أثقالَها، فارتعد الرعديد...».

لقد قـال إسحق الشعـر في العديد من المواضيع مثل الغزل والمدح والرثاء والوصف والعتاب وغيرها.

كتـب أيضاً مـا كان يسمـى في القرن التاسـع عشر بالتأريـخ الشعري. فلم يترك لوناً مـن ألوان العروضـ أو باباً من أبواب النظـم إلا ولجه. فقد نظـم في المعارضات والتشطـير والتوشيـح ولـه بمعظم ضروب البديـع اللفظي من جناس وطباق وتورية وتضمين. ولـه إلى جانب البهلوانيات بعض المنظومـات في الألغاز والأحاجي. ويستعمل

في شعره بعض التعابير التي كانت مظهراً من مظاهر الحذق والبراعة في أيامه.

سمي بأديب الشرق الأدنى. حيث كان في طليعة خطباء عصره بلا منازع. فكانت الخطابة من أبرز الفنون التي اهتم بها أديب إسحق وأولاها عنايته بعد الصحافة. فتأتي الخطبة مشحونة بالثورة، أضف إلى ذلك اللسان الفصيح وتصريف الألفاظ وتكييف العبارات حتى كادت مقالاته كلها تغدو خطباً. لذلك وضعه البعض في طليعة رجال الصحافة والبعض الآخر في طليعة رجال الخطابة. وله قول مشهور:

قتل امرئٍ في غابة
جريمة لا تغتفر
وقتل شعبٍ آمن
مسألة فيها نظر

وفي النهاية تأتي كل تلك الإبداعات لتكون لبنة هامة في تشكيل وبناء العلاقات العربية الأرمنية في مجال الأدب والترجمة.





طرفة وشللي وأوجه التشابه بينهما

إبراهيم محمود الصغير ❁

طرفة بن العبد وبيرسي بسيش شللي شاعران يتشابهان في أمور كثيرة بينهما، مع أنهما يختلفان عن بعضهما بالهوية والموطن والزمان. فهوية الأول عربية بينما هوية الثاني إنكليزية. وموطن الأول البحرين في الجزيرة العربية، وأما الثاني فموطنه مقاطعة (سوسكس) في انكلترا، في الجزيرة البريطانية المتاخمة لأوروبة.

أما الزمان فهناك مسافة كبيرة بينهما، حيث أن زمان الشاعر الأول العصر

❁ ناقد وكاتب سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

الجاهلي حوالي (٥٤٠-٥٦٥) ميلادية، بينما زمـان الشاعر الثاني هو القرن التاسع عشر (١٧٩٢-١٨٢٢م).

أمـا أوجـه التشابه بينهمـا فكثيرة، في الصفـات الأخلاقيـة والنفسيـة والفكرية والعاطفيـة حتى في الصفات الجسمية وفي المظهر كانا يتشابهان، فكلاهما كانا يموجان بالفتوة والقوة والنشاط وبالجمال والجاذبية، وكلاهما عاشا حيـاة مغامرة وتمرد وتشرد وقد عرفا صنوف الحـب واللهو والسعادة، كما عرفا صنوف العـذاب والمشقة والغربة وكلاهما غابا عن سماء الحياة بعد أن أشرقا قليلاً ثم انطفأا كشهابين سريعين في دهاليز الظلام. وكلاهما كانا شاعرين مشهورين في زمنيهما وبين قوميهما. فطرفة كان شاعراً فحلاً مـن أعـلام الشعر الجاهلـي، ومن أصحاب المعلّقات، وذا شخصية واضحة في شعـره، وصاحب مذهب واضـح في حياته، ومن دعاة اللهو واللذة والعبث، ورغم طيشه واستهتـاره بقيم المجتمع، فقـد كانت لديه حكمـة الشيـوخ وتفكيرهم. وشعـره صورة واضحة لحياته كل الوضوح،بما كان فيها من مطامح وآلام وأحـداث. وكذلك شللي، كان شاعراً مشهوراً، وذا أسلوب فريد، وعبقرية فذة، وكان واحداً من قـادة الرومانسية في انكلترا إلى جانـب (وردز وورث، وكوليردج، وبايرون، وكيتـس). وكان واحداً من أعظم شعراء انكلترا الغنائيين. كان يؤمن بالحرية ويؤمـن بالحب، ويمجـد الإنسانية، ويسعى لنشـر أفكاره وآرائه الخاصـة، ورغم فتوته وشبابـه وجماله فقد كانت لديه أيضاً، مثل طرفة، حكمة الشيوخ، ورصانة الكبار. وكان شعـره تعبيراً عـن آرائه لديـه أيضاً، مثل طرفة، حكمة الشيوخ، ورصانة الكبار. وكان شعره تعبيراً عن آرائه وأفكاره ومثله، وصورة صادقـة لشخصيتـه. وكان صاحب مذهب خاصـ في حياتـه، وشعره تمجيـد للحب والحيـاة والأمل، ومـرآة لأحزانـه وآلامه، وصدى لطموحه وتوثبه واندفاعه.

والشاعران، أيضاً، من أصل نبيل، ونسب رفيـع. فطرفة هو ابن سفيـان بن سعد بن مالـك بن ضبيعة، ينتهـي نسبه إلى بكر بن وائل، وهو مـن أشرافهم. كان قومه في عزة ومنعـة بعددهم وحسبهم وشرفهم ومكانتهم بين العـرب. وكان جده موصوفـاً بالشرف والرئاسـة، وخالـه هو (المتلمس) الشاعر المشهور. كمـا كان الشاعران المرقش الأكبر والمرقش الأصغر من أقاربه. وفي ذلك يقول طرفة:

وإن يلتـق الحـي الجميـع تلاقنـي
إلى ذروة البيـت الشريـف المصمَّد

أما شللـــي فكان نجل أحد كبار الأغنياء والمــلاك في مقاطعة (سوسكس) في انكلترا، وكان حفيداً للبـــارون السير (بسيش شللي) وكان والده، أيضاً عضواً في البرلمان، فشللي إذن، من الأرستقراطيين النبلاء، ولكنه كان يكره الافتخار بأصله.

وكلا الشاعرين، طرفة وشللي، يتصفان بتوقـــد الذهن، واضطـــراب الشعور، وحدة العاطفة، وسرعة التأثـــر والغضب، وصدق النظـــر، والانجـــذاب للطبيعـــة، والانبهار بالجمـــال، واستقـــلال الشخصيـــة، وثقـــة بالنفس زائـــدة، وحب جارف للحرية. وهذا ما جعلهما يصطدمـــان بالحواجز والقيود والأعـــراف التـــي فرضها الأهـــل عليهما، فثارا علـــى الأهل وتحديـــا كل ما يقف في طريقيهمـــا، فطرفة مات أبـــوه وهو صغير السن فكفلـــه أعمامه،ولكنـــه وجد أعمامه يظلمونه، ويغتصبون حقه وحق أمه (وردة)، وقد أبوا أن يقسموا مال أبيه، فغضب منهم، وصار يقول الشعر فيهم، ومنها قوله:

أدّوا الحـقـوق تـفـر لـكـم أعـراضـكـم

إن الـكــريم إذا يــجــرب يـغـضـب

وتحت وقع لسانه الحاد، وشعره القاطع، ومطالبته الدائمـــة بحقه وحق أمه، اضطر أعمامه إلى إعطائه حقـــه. فأخذ يميل إلى اللهو ويسرف فيـــه، ويعتنق البطالة والدعة والعبث ويسير وفق رغبات نفسه ونوازعها، ويشـــرب الخمر ويسرف فيهـــا. فأخذ أهله يلومونه وينصحونـــه ويعاتبونه، حتى ضاق بعتابهـــم، فاقتاد راحلتـــه، يسير متنقلاً بين القبائل والأحياء.

أما شللي فـــإن والده أجـــبره ليتعلم في جامعة (أوكسفـــورد)، وكان قد أنهى تعليمه في (إيتون) على مضض وكره. وفي الجامعة حاول أن ينشر أفكاره وآراءه في كتيب بعنوان (أهمية الإلحـــاد)، وعندما اطلعت الجامعة علـــى الكتيب طردته فوراً منها بسبب ذلك. ودبـــت القطيعة بينه وبين والـــده إثر ذلك، وكان دائـــم الخلاف مـــع والـــده قبل هذه الحادثة، وتخلى عنـــه والده، وقطع عنه كل المساعدات المالية، فعاشـــ شللي وحيداً في لندن ومن دون مال يعينه على الحياة، وغدا في حالـــة يائســـة ومؤلمة ومزريـــة وقد كتب يصف حاله قائلاً:

ولكن اليأس نفسه قد غدا الآن رقيقاً

في رقـة الرياح والمياه

وإني لقادر أن أرقد كطفل متعب،

وأذرف مع دموعي حياة الهموم

التي حملتها ومازال عليَّ أن أحملها

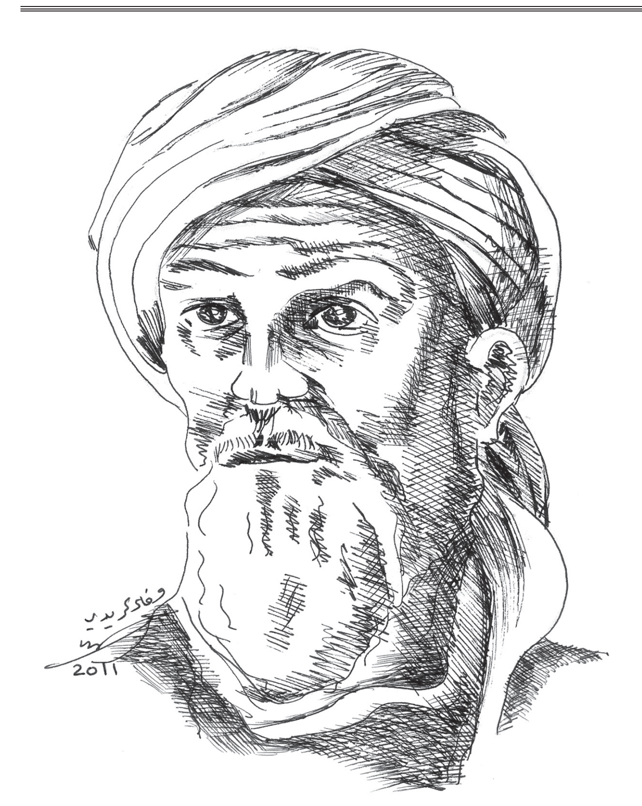
حتى يتسلل إليَّ الموت كالنوم.

ولم يكتـــف الشاعـــران بالثـــورة والتمرد على الأهل فقط، بل امتدت ثورتهما لتشمل

المجتمع كلـه، فنـار الحقد والغضب التي مـلأت قلبيهما كانت كافيـة لتحرق العالم كله. فهذا طرفة يهاجـم أقاربه ثم قبيلته كلهـا، لأنهم قصروا في حـق رعايته كونه يتيم، واليتيم يعامـل كما يعامـل العبيد في القبيلـة، ولأنهـم، أيضـاً، لا يناصـرون الضعيـف والفقير، ويتدخلـون في أمـور الأفراد، ويحدون من حريتهم، وعندما لجـأ إلى الخمر واللهـو هرباً منهم، أخـذوا في لومه وعتابه وزجـره، فثـار عليهـم وعلى أعراف وتقاليد القبلية الظالمة، وانتقل من بينهم ليعيش بعيداً عنهم وفي ذلك يقول:

ومـازال تـشـرابـي الخـمـور ولـذتـي
وبـيـعـي وإنـفـاقـي طـريـفـي ومـتـلـدي
حـتـى تـحـامـتـنـي الـعـشـيـرة كـلـهـا
وأفـــردت إفــراد الـبـعـيـر المـبـعَّـد
وظـلـم ذوي الـقـربـى أشـد مـضـاضـة
عـلـى المـرء مـن وقـع الحـسـام المهـنـد

أمـا شللي فقد عـرف أنـه لا أمل في التفاهـم مع أهلـه، بسبب أفـكاره وآرائه، فتركهم واتجـه نحو المجتمـع، يحاول نشر



مبادئـه ومثله وأفكاره بينهم، إلا أن المجتمع رفضـه ورفـض كل مـا يصدر عنـه، بل واتهمه بالإلحاد والمروق عن قوانين المجتمع والكنيسة، مما جعلـه يصاب باليأس منهم، ومن ثم غادر بلده، معلناً عداءه له، وغضبه عليـه، وفي ذلك يقول معلنـاً سخطه ويأسه وحزنه وعلى لسان الطبيعة الساخطة مثله:

إن العاصفة الحزينة، التي تسفح الدمع عبثاً،
والغابات العارية التي تلوثت أغصانها
والكهوف العميقة، والبحر الموحش
تنوح على ظلم العالم.

والغريب أن كلا الشاعرين، عندما غادرا موطنيهما، لم يستوطنا بلداً معيناً لفترة طويلة، وإنما جابا بلاداً ومناطق كثيرة، وأصبحا كالرحالة المغامرين. فهذا طرفة، يغادر البحرين، وكان اسم البحرين يطلق على المنطقة الممتدة من عمان حتى العراق، ويتجه إلى اليمن وإلى الحبشة وإلى اليمامة وإلى الحيرة وإلى مناطق كثيرة في الجزيرة العربية. وكذلك شللي غادر انكلترا واتجه إلى إيرلندا وإلى سويسرا وإلى فرنسا وإلى إيطاليا وتجول في كثير من المناطق في هذه البلدان التي زارها، وكما تنقل الشاعران في البلدان الكثيرة، وتعرفا على معالمها وآثارها ومدنها وكل ما يتعلق بها، كذلك أخذا يتنقلان في عالم الحب والغرام، من حبيبة إلى أخرى، وينهلان من رحيق الحب ما طاب لهما، وكلما سنحت لهما فرصة، على الرغم من المتاعب والآلام ووحشة الغربة التي كانا يرزحان تحتها. فهذا طرفة يتنقل ما بين خولة، وهر، وليلى، وهند، وسلمى، والرباب، وهن اللواتي جاء ذكرهن في شعره، وربما كانت هناك كثيرات غيرهن لم يذكرهن في شعره، بالإضافة إلى القيان والمغنيات في الحانات التي كان يرتادها. ويبدو أن خولة كانت أحبهن إليه، إذ ذكرها وذكر أوصافها في بداية معلقته الشهيرة والتي يقول فيها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
خذول تراعي ربرباً بخميلة
تناول أطراف البرير وترتدي
وتبسم عن ألمى كأن منوراً
تخلل حر الرمل دعص له ند

وشللي لا يقل عن طرفة في تنقله بين الحبيبات، فقد كانت ابنة عمه (هارييت) حبه الأول في صباه، ثم أحب بعدها (هارييت وستبروك) وتزوجها، وعندما ماتت تزوج (ماري جودوين)، ثم أحب (جين وليامز) حباً روحياً خالصاً ملك عليه شغاف قلبه، وقد خصها بالكثير من الشعر، وأحب أخريات وخاصة في إيطاليا، إلا أن حبه لهن دائماً يكون خاطفاً وملتهباً ثم ينطفئ سريعاً. وكان شللي كما قلنا سابقاً، يؤمن بالحب الحر، الخالي من القيود ومن الروابط والتبعات، وهو ماجر عليه الويلات من الجميع. وظل طوال حياته يقدس الحب ويتغنى به، وفي إحدى قصائده يقول:

إني أحب الحب، مع أنه مجنح
وقد يطير كالضياء،
ولكني أحبك أنت، أيتها الروح
فوق كل ما عداك،
أنت الحب والحياة، تعالي!
اتخذي من قلبي مسكنك مرة أخرى!

ومــن المؤسف حقــاً، أن الشاعرين ماتا وهما في ريعان الشباب والفتوة. فطرفة مات مقتــولاً، في السادســة والعشرين من عمره، على أرجح الروايات، بينما مات شللي غريقاً في الثلاثين من عمره. وكان يمكن أن يقدما الكثــير والكثير مــن الإبــداع الشعري لهذا العالم، لو بقيا على قيد الحياة. ولكن العناد والتحــدي كانا السبب في موتهما. فكلاهما كان عنيداً لا يتراجع عن قرار اتخذه ولو أدى إلى موته وهذا مــا حصل، ولعلَّ السبب هو فورة الشباب والحياة، والثقة الزائدة بالنفس وروح التحــدي والمواجهــة وحــب الظهور أمام المجتمع. فهــذا طرفة لم يعجبه طغيان واستبداد عمرو بن هند ملك الحيرة، وأخوه قابوس، فهجاهمــا. فغضب عليه عمرو بن هنــد، وأضمر له الشر، ولكنــه أخفى ذلك وتظاهر بالرضا عنه. وكان الشاعر المتلمس، خال طرفة، قــد هجا عمرو بن هند أيضاً، فدعاهما الملك إليــه وأكرمهما، وكتب لهما كتاباً إلى عامله بالبحرين، وأوهمهما أنه أمر لهما بعطاء كبير. وفي الطريق شك المتلمس بأمر الكتاب، ففتحه وجعــل أحدهم يقرأه له، ففهم منه أن الملك يأمر عامله بالبحرين بقتله. فأخبر طرفة بالأمر، وطلب منه تمزيق الكتــاب، وعدم الذهاب إلى البحرين. ولكن طرفة رفضــ وأصر على الذهاب قائلاً: أن الملك لا يجرؤ علــى الأمر بقتله. وألح عليه المتلمس كثيراً، ولكن طرفة عاند وكابر وأبى أن يتراجــع عن قــراره. ومضى في طريقه، فــكان كمن «سعى إلى حتفــه بظلفه» حيث كان الموت بانتظــاره. وقتله عامل البحرين. وهكذا كان عناد طرفه سبب موته!

أما شللي، فقد اختار الإبحار مع صديقه (وليامز) بمركبهمــا الخاص، ومعهما بحار شاب. وكان إبحارهم في مساء يوم عاصف، ورغم نصائــح صديقه (تريلاوني) والكابتن (روبرتســ) بعــدم الإبحار في ذلــك المساء العاصف، إلا أنه وصديقــه (وليامز) أصرا علــى الإبحار قائلين: «سنصــل إلى وجهتنا قبل اشتداد العاصفة، ولكن القدر كان لهما بالمرصاد. وغرق المركب بمن فيه، ولم يصلا إلى وجهتهما أبداً».

وهكــذا كان العنــاد سبب مــوت شللي وصاحبيه.

ويبدو أن الشاعريــن كانا يشعران بدنو الأجــل، إذ أخذا يكثران مــن ذكر الموت في شعرهمــا، ذكر الواثق مــن النهاية القريبة والمحتومــة، مع أنهما كانــا في ريعان الفتوة والشبــاب، والمفروض بمــن كان في مقتبل العمر وزهرة الشبــاب أن لا يفكر في الموت أبداً، خاصة وأنهما بصحة جيدة ولا يشكوان من مرض أو عاهــة جسمية، وكانا يتمتعان

بالجمـــال والجاذبية وقوة الشخصية! أليس من الغريــب أن نجد طرفة يقول في معلقته ذاكراً الموت في عدة أبيات؟:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي
عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشددِ
أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر يَنفدِ
لَعمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى
لك الطِّوَل المرخَى وثِنياهُ باليَدِ

بل ويطلب من ابنة أخيه معبد، أن تبكيه وترثيه بشدة، وكأنه يرى موته بأم عينيه:

فإنْ مِتُّ فانعيني بما أنا أهلهُ
وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ
ولا تَجعليني كامرئ ليس همُّهُ
كهمي ولا يغني غنائي ومشهدِي

وشللي، هو الآخر مثل طرفة، دائم الذكر للمــوت، ليــس في قصائد الرثــاء والحزن واليأس والغربة فقط، بل وفي قصائد الحب والغناء والطبيعة. ففي قصيدة بعنوان «إلى قبرة» يقول فيها:

يقظان كنت أم نائماً،
لا بد أنك ترى في الموت
أشياء أصدق وأعمق
مما نحلم به، نحن بني الموت،
وإلا فكيف يمكن لأنغامك أن تفيض في مثل
هذا الجدول البللوري؟

ويقول عن أولئك الذين ربما يتذكرونه، وربما بعضهم يحزن ويبكي عليه، مع أن من يحبونه قليلون جدّاً:

قد يتناوحون - لأني رجل
لا يحبه الرجال، ومع ذلك يأسفون عليه،
ولست كهذا اليوم الذي تنقضي متعته،
ولكن تبقى بهجة ذكراه،
عندما تغرب الشمس في مجدها الناصع.

والشاعــران، كلاهما يظهــران الإبداع والتفــنن في الشعر بشكل يــدل على تمكن ودرايــة وخبرة بعــالم الشعــر، ومعرفة تامة بــكل أغراض الشعر، وخاصــة في الوصف حيث يظهــران براعة منقطعــة النظير في هــذا المجال. فهذا طرفــة يصف قافلة من الإبل وهــي تحمل الهوادج علــى ظهورها، وتسير ســيراً بطيئاً متقطعاً وكأنها من بعيد سفن تتمايــل ذات اليمــين وذات الشمال، والربان يقودها بمهارة وبراعة، وكأن صفحة الصحراء قد أصبحــت، عند طرفة، بحراً واسعــاً تتســاب السفن عليــه. ورغم قصر الأبيــات وإيجازها إلا أنهــا استطاعت أن تنقل الصورة التــي أراد أن يظهرها طرفة وكأنها لوحة مرسومة بكل التفاصيل للمشهد المقصود وبوساطة كلمات قليلة بعث الحياة فيهــا وجعلها تنبضــ بالحركــة والإشراق والحياة والأبيات المقصودة هي:

كـــأن حــــدوج المـالـكـيـة غــدوة

خـلايـا سـفـين بـالـنـواصـف مـن دد

عـدولـيـة أو مـن سـفـين ابــن يـامـن

يـجـور بـهـا المــلاح طــوراً ويـهـتـدي

يـشـق حـبـاب المـاء حـيـزومـهـا بـهـا

كـمـا قـسـم الـترب المـفـايـل بـالـيـد

أمـــا شللي، البارع بالوصـــف أيضاً، فهو لايقـــل براعة عـــن طرفة، فها هـــو يصف منظراً طبيعياً في فصل الشتاء، حيث البرد قارصـــ جدّاً، وحيـــث تتوضع في وسط هذا المنظـــر أنثى الطـــير الحزينـــة والمفجوعة لفقدان وليفها، إنها تقف على الغصن، وليس حولهـــا إلا الصمت والريح والزمهرير وكآبة باردة من كل الجهـــات، وها هو شللي يقدم لنا هذا المشهد قائلاً:

جلست أنثى الطير تبكي وليفها

فوق غصن عار، في فصل الشتاء،

زحفت فوقها الرياح المتجمدة،

وزحف تحتها الجدول المتجمد.

ولم تكن هناك ورقة في الغابة الجرداء.

ولا زهرة فوق الأرض

والجو يكاد يكون تام السكون

إلا من صوت الطاحونة.

أليس هذا ما يسمونه الرسم بالكلمات؟ ألم ينقل شللي إلينا لوحة كاملة بكل تفاصيلها لوحة تموج بالحياة والحيوية، وبكلمات قليلة وبسيطة؟

ورغم قلة خبرة الشاعرين بالحياة، نظراً لصغر سنيهما وبالنسبة لمن أعمارهم كبيرة، فقد أظهرا مـــن الوعي والحكمة والنضوج، في شعرهما، ما يعجز عنه كبار السن، حتى غدا الكثير من شعرهما حكماً وأمثالاً تجري على كل شفة ولسان، ومن منا لم يسمع بهذه الأبيات لطرفة وهي نماذج نذكرها كشواهد فقط ومن قصائد متفرقة:

لعـمـرك مـا تـدري الـطـوارق بـالحـيـا

ولا زاجـــرات الـطـير مـا الله فـاعـل

كـــلـــهـــم أروغ مــــن ثــعــلــب

مــا أشـبــه الـلـيـلـة بـالـبـارحـة

لـلـفـتـى عـقــل يـعـيـش بـه

حـيـث تــهـدي سـاقــه قـدمـه

ستبـدي لـك الأيـام مـا كنـت جـاهـلاً

ويـأتـيـك بـالأخـبـار مـن لم تـزود

وظـلـم ذوي الـقـربـى أشـد مضاضـة

علـى المـرء مـن وقـع الحـسـام المهنّد

أمـــا شللي فمعظم شعـــره رصين وجاد، ويحوي من الحكمة والأمثال الشيء الكثير، وخاصـــة في مسرحياته وقصائـــده الطويلة والإنسانية كقوله في قصيدة (إلى قبّرة):

نحن ننظر فيما مضى وما هو آت،

ويسقمنا الحنين إلى ما لا يوجد،

أصدق ضحكاتنا تشوبها لمسة من ألم

وأعذب أغنياتنا هي تلك التي تحكي أكثر الأفكار حزناً.

ويقــول أيضـــاً ﴿ قصيــدة بعنــوان (التقلب):

الزهرة التي تبتسم اليوم تموت غداً.

كل ما نود دوامه يغرينا ثم يطير.

ما بهجة هذا العالم؟

البريق الذي يهزأ بالليل قصير كما هو لامع.

الفضيلة ما أضعفها! والصداقة ما أندرها!

والحب كم يبيع الهناء التافه بكبرياء القنوط!

وأغراضــ الشعــر، عنــد الشاعريــن، كثيرة ومتنوعــة، ولا نستطيع أن نأتي عليها جميعهــا، ونذكر أوجه التشابه فيما بينهما، وإنمــا نكتفي بما ذكرنــاه، ونرجو أن نكون قــد وفقنا ﴿ إعطاء الموضــوع حقه وذكرنا بعضــ أوجه التشابه بين الشاعرين من دون الابتعاد عن الحقيقة والمنطق.

المراجع

آ- المراجع عن الشاعر طرفة بن العبد:

١- الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد - علي الجندي - دار الفكر العربي - القاهرة -١٩٩٠م.

٢- ديوان طرفة بن العبد - طرفة بن العبد - تحقيق درويش الجويدي - المكتبة العصرية - بيروت٢٠٠٨م.

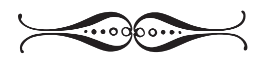
٣- شرح المعلقات السبع - الزوزني - دار القاموس الحديث - بيروت - بلا تاريخ.

ب- المراجع عن الشاعر شللي:

١- شللي أو قبور ﴿ جنة الحب - أندريه موروا - ترجمة أحمد الصاوي محمد- مطبعـة المعــارف القاهــرة - بلا تاريخ.

٢- الرومانتكيــة ﴿ الأدب الإنكليــزي ترجمة عبد الوهاب محمد المسيري ومحمــد علي زيد - مؤسسة سجل العرب - القاهرة - ١٩٦٤م.

٣- الأدب الإنكليزي - جون بيرغس ويلسون - لونغمان - لندن ١٩٧٠م.





الشاعر فوزي الرفاعي
«شفافية في الروح»

محمود محمد أسد ✻

الكتابــة عملٌ شاق، لا يحتملــه إلاّ ذوو الإرادة والعزيمة. وهي إبحارٌ في شتَّــى الجهات للوصولِ إلى مرافئ الإبداع البكر واللافت، وأنَّى لك أن تصل إلى هــذه المرافئ دون القدرة على مواجهة الأنــواء والعواصف التي يحملها العمل الإبداعي، ودون القدرة على التجديف والغوص العميق.؟!

أمّــا الشاعر فهو ذاك المحيط الواسِعُ والعميق والذي يشدُّك إلى مملكته وعالمــه الغني بالــدُّرر واللآلئ. ومــن ذا يقدر على هذا النــوعِ من الإبحار

✻ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

سـوى المتمكِّنِ العـارفِ أسـرارَه، والماسكِ مفاتيحَـهُ. هـذا هو عـالَمُ الشعـر الحافل بالغرائبيَّـة والعجائبيَّة. يبعـث فينا الأملَ حيناً. ويعيدُنا إلى معترك الحياةِ بعد مواسمِ القحـط والنضـوب. يأخذنا حيـث يشاءُ القلب، ويحملنا علـى أجنحةِ الخيال بعيداً عن الواقـع الملموس. يبني لنا ممالك عشقٍ خاصـة، ويقيم مـآتم لأحزاننا. هـذا شأن الشعـر الذي يثير فينا الكثـيرَ من المشاعر الخامدة، ويوقظ ما تجمَّـدَ من أحاسيس. تراهُ روضةً فواحةً وامـرأةً ملهمةً وصحراء ممتـدَّةَ الأطراف وميـدان فروسية ولوحةً مـن الفسيفسـاء فيها من التوافـق الكثير ومن التنافـر أكثر. يأتيك غاضبـاً مقرِّعاً. وطوراً يلامسك بلطف، ويأخذك إلى مملكة الأحلام النديَّـة بالحبِّ والعذوبةِ والصفاء. فكيف يكون حالُ الشاعرِ إذا أردْنا الاقترابَ منـه؟ هل الاقـترابُ من عالمه رحلـةٌ سهلة المنالِ والتفسير؟ هـل تستطيع القصيدة أن تقـول كلَّ شيءٍ عن الشاعر وعوالمه النفسية الخاصة؟ وهل بإمكان النقد القدرة على سبرِ أغوار القصيدة والنفسِ الإنسانية الطافحة بالشعور والأحاسيس؟

هـذه الأسئلة وغيرهـا تستوقفني، وتلحُّ عليَّ وأنا أحاول الاقـترابَ من عالم الشاعر المرحوم فـوزي الرفاعي. ولن تكون الإجابة عصيَّة المنـال. ولن أكون ذاك البَّحار البارعَ الذي يحسِنُ الغوص، ويعرف أسرار وأعماق البحـار، لأنَّ شاعرنـا مـن النـوعِ السهلِ البسيطِ. لسْتُ أمام شاعرٍ تستهويهِ التعمية والغموض، أو تفتك بأعصابهِ وأوداجه وشعْره الحـالات المستعصية من الشعر. فلا يجري وراء المبتـذل أو الوافـدِ الجديد ولا يسعى إلى تبنـيِّ المذاهب والنظريـات. ولم تشغلْهُ القضايا النقدية التي واكبها وعاصرها. إذا علمنا أنَّهُ ولد في حلـب عام ألف وتسعمئة وثمانيـة وتوفي في الخامس من كانون الأول عـام ثمانية وتسعين وتسعمئـة وألف. وقد بـدأ النشر مبكراً عام ألـف وتسعمئة وستّةٍ وعشرين. بين هذه السنوات جرتْ متغيرّات، واستجـدّت مستجدّات، وطرحـت قضايا أدبيـة ونقديـة كثيرة، وغرق العـالم العربي والعـالم أجمعه بالحـروب والمنافسات ومع ذلك نرى شعره لا يتوقّف عند هذه القضايا إلاّ قليلاً.

أقول هذا معتمداًعلـى مجموعاته التي جمعهـا ((ذكريـات)) وقد نشرهـا متأخراً عام ألـف وتسعمئة وستة وسبعين. وفي عام ألـف وتسعمئة وثمانين قـدّم الجزء الثاني بعنوان ((بقايا ذكريـات)) وهناك مجموعة ثالثة بعنوان ((خلجـات قلب)) وهي أعدَّتْ كاملـة ولكنـه لم ينشرْهـا. ولـدى الشاعر



قصيدة مطوَّلة أصدرها في كتيِّـب صغير بعنوان ((الجــرح الكبير)) وهي رثـاء للرئيسـ الراحل جمـال عبـد الناصر. هــذه المجموعات كافية للتعريـف والولـوج إلى مناخاتـه الشعريـة والشاعـر شـارك في الكثـير مــن الأمسيات والمهرجانـات. وقـدّمَ قصائـده ومحاضراتـه على المنابر في المؤتمرات في المغـرب والجزائـر وسورية.

التكوين:

نشـأ الشاعر فوزي الرفاعـي في أسـرةٍ عريقةٍ متجذِّرة بالأرض والقيـم الرفيعة. فوالـده كان قاضياً، تنقَّلَ رئيساً للمحاكم في الموصل والقدس ونابلس وحماة واللاذقيـة. والشاعر تنقّل مع والده وفتـح عينيه على الحيـاة الأولى في مدينة اللاذقية. درسـ فيها المرحلـة الابتدائية. وأتمَّ المرحلـة الثانوية في مدينة حلب. ونال إجـازة الحقوق في دمشق. وعملَ مثلَ والده في القضاء متنقِّلاً ومترقِّياً في مناصبه حتى صارَ نائباً عاماً ثم عمل محافظاً لمدينة دير الــزور وعمل محامياً بعد تقاعده وغير ذلك من مواقع العمل.

كتب الشعـرَ ونظمَهُ على استحياء. نشر أشعارَهُ بأسماء مستعارة منها ((العندليب)) ((بلبل)) ((قيس)) أقدم على ذلك خوفاً من ألسنة الناسِ واحتراماً لمكانة القضاء وربّما

تحسُّباً من مواقف العائلة وقد تأخَّرَ بإصدار دواوينه لهذه الأسبابِ وغيرها.

تتجلى سمات الكلاسيكية في بعض قصائده وتحديداً قصائد المناسبات العامة. اللافت أن الشاعر واكب الكثيرَ من القضايا المصيرية الكبرى والتي ما زالت ساخنة ولكنها لم تشغله مبكراً وهو في عنفوان الشباب والنشرِ بل عبَّرَ عنها متأخِّراً في بعض القصائد التي تناولت التنديد بزيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى إسرائيل وتوقيعه اتفاقية كامب ديفيد. ولم أعثر على قصائد في مواجهة الاستعمار والتحريض على الثورات والتنديد بالجرائم الصهيونية وغيرَ ذلك من قضايا كانت تعجُّ بها الساحة العربية.

للشاعر رؤية في الشعر يطرحها بوضوحٍ ويلامسها بقوةٍ تقدِّم لنا موقفه من الشعرِ الحديث والقصيدة بعنوان ((الشعر الحديث)) يعبِّرُ فيها عن رأيه بالشعر ومهاجمته للشعر الحديث ولكنَّها وقعت في شَرَكِ السقوط الفنّي فكانَتْ بياناً منظوماً شعراً، ولم يميز الشاعر بين قصيدة التفعيلة وما يسمى قصيدة النثر واعتبرهما نوعاً واحداً:

تكرهُ الأذْنُ ضجَّةَ الأدبِ الحرِّ
وشعراً مُهَلْهَلاً ثرثارا
إنَّ للوزنِ في المسامعِ موسيقا
تهزُّ القلوبَ والأفكارا
كلُّ غِرٍّ عَصَتْ عليه القوافي
أعملَ الهدم في القريضِ وجارا
ونظيمُ الشعرِ صيَّره نثراً
وصار الشويعرُ المِهذارا
أين هذا ممَّا يلوكُ به البعـ
ض وهل يُشْبه النحاسُ النضارا؟
سمِّه النثر، سمِّه الأدب الحرّ
وقل ما تشا، وزدْه اشتهارا
إنّما لا تقل هو الشعر، حاشا
ليس شعراً هذا، وُقيت العثارا

لدى الشاعر رؤية في الشعر وهي مجال جدلٍ واختلاف. ولكنَ التخيّل موجودٌ لديه ولا تخلو منه بعض القصائد. فهو يقدر على تأليف الحدث والحالة لينسج منها قصيدة أو قصّة شعرية يغنيها الحوارُ، وتشدُّ وثاقها الأحداث. فالشاعر قادر على تطويع الشعر واختلاق الموضوع، ولكنه يقع في منزلقات الفنِّ. فتبدو بعض المطبَّات الإبداعية الحادة. فيقدِّم لنا قصائد عادية وخاصة تلك التي تقال في المناسبات والمهرجانات إنَّه يخصُّ المدينة التي تحتفي به بقصيدة ويخصُّ الفتاة التي يلتقي بها مصادفة بقصيدة. ربّما تأتيك مكسَّرة الأضلاعِ، مفكّكة الأواصرِ، منسوجةً دون طراوة. وهذا

يدلُّ على أنَّهُ يستغلُّ المناسبة ولو كانت على حساب الفنّ، فيضعف لديه وهج الإبداع والشاعرية في مثل هذه القصائد. ولا يتضايق الشاعر من تكرار الحالة والموضوع في مثل هذه الحالات. ولكنه في القصائد الوجدانية يتجاوز ذاته ويمتطي صهوة الإبداع الجيد.

تدفعنا هذه الأحكام للقول: إن شعره اعترافٌ ذاتيٌ صريحٌ لمسار حياته وعلاقاته الإنسانية عامة والأنثوية خاصة. لا يُخبّئ أمراً اعترضه ولا امرأةً حادثته. في نفسه قُطْبٌ إيجابيٌ من شحنة كهربائية تنتظر أيَّ قطبٍ سالب ليشعل فتيل الشعرِ لديه. يعبِّرُ عما يختلج في نفسه من نزعات.. وقد قدَّم الشاعر نفسه في مجموعة ((ذكريات))

يا قارئي العزيز!

ما أنا بنظّام، ولا أنا بشاعر ولا كاتب، ولكني أغمس قلمي في مدادِ عواطفي، وأدوِّنها على القرطاس في حينها، فأنْتَ إذ تقرأها تقرأ خلجات قلبي دون تزييف ولا تزويق، فلقد كنت أنظم لنفسي لا للناسِ، وأصوِّر إحساسي ومشاعري على الورق للذكرى لا للنشر. فهي تاريخ لقلبي، ومرآة صادقة لما ساورني، وعواطف شتّى في ظروف وأزمنة مختلفة. . هذا التقديم مفتاحٌ يؤدي بنا إلى تكوين الشاعر وشخصيته وإلى تفهِّمِ الشاعر للشعرِ ووظيفته. فهو من نسيج الآخرين ومن بعض عوالمهم، ولكنه يمتلك اللغة العذبة المفعمة بالرقّة. وهي لغة بوح ونجوى. فيها رقَّةٌ تحصِّنها عفَّةٌ كامنةٌ في أعماق الشاعر. تعكس تربيته، فيتجنَّبُ الفحش والإثارة. فهناك حواجز ضابطة للإيقاع والمعنى. فالإيقاع عربيٌّ سهلٌ، بحوره الشعرية مطروحة ومألوفة.

أغراضه الشعرية:

القصائد التي اختارها لمجموعاته تحدِّد أغراضه. فالشاعر لم يكثر من الأغراض وهذا شأنه، وهذا ما عبَّرَ عنه في مقدمة ديوان ((ذكريات)) فغياب بعضِ الأغراضِ لا يعني تجاهلها مطلقاً قد يكون له رأيٌ يخصُّه أو قد تكون حالةً خاصة به فليس من الضروري أن ينظم الشاعر في كلِّ الأغراض.

الجانب القومي:

الارتباط بالقضايا القومية أمرٌ مصيريٌّ وغرضٌ جوهريٌّ في الشعر العربي عامةً والحديث المعاصر خاصةً: وشاعرنا عبّرَ عن بعض الهموم القومية من خلال أحداث بعينها وليسَ من باب التنظير والانتماء السياسي والحزبي رغم معايشته للواقع العربي المثقل بالتبعات والأحداث. ما قاله قصائد محدودة وفي مناسبات قالها. في حرب تشرين شدا وافتخر:

تشرينُ شبَّتْ به النيرانُ فاتّقدا
والسيف في غمده قد ضاق فانجردا
ظنَّ العداةُ بأن العربَ قد وهموا
وأنّنا قد رضينا الذلَّ والكمدا
لَمَّا قطعْنا مسيل النفط أفزعهم
أنَّا سلكنا سبيل الحقِّ والرشدا
لو أنَّ إخوتنا ما شذَّ سادتهم
عنَّا لكان العدوُّ انهارَ، ما صمدا

وهناك قصائد قدّمها إهداءً إلى الدول العربيــة التي زارها وشــارك في منتدياتها الثقافية. فقد حيَّا الجزائر زائراً:

هو موئلٌ للعربِ، إنْ حاقَتْ بهم
نُــوَبٌ نــراهُ يـهـبُّ بـالإمـدادِ
شعبٌ هو الشَّمَمُ المجسَّدُ والإبا
فيه شجاعة طارقٍ بن زياد
إنَّا لتربطنا وشائجُ من دمٍ
والدينُ والفصحى وطولُ جهادِ
قد ألَّفَ الإسلامُ فيما بيننا
وأخـوَّةُ الإسلامِ خيرُ عمادِ

وهذا الموقف يتكرّر في قصيدته ((تحية المغرب)) التي ألقاها في النادي الملكي في مدينة تطوان

أنا في المشرقِ أم في المغرب؟
لست أدري، غيرَ أنّي عربي
أنا إن (تطوان) كانت موطني
أو أكنْ جئتكمُ من حلب
فكلانا أمَّةٌ واحدةٌ
وأبونا كلّنا من يعربي
جمعَ الإسلامُ فيما بيننا
وهدانا الله في خير نبي
فتوحّدْنا قلوباً وهوى
ليستِ الوحدةُ ضمنَ الكتبِ
إنَّما الوحدة، أنَّا كلَّنا
نلتقي ضدَّ العدوِّ الأجنبي
فمتى نجمعُ أيدينا على
صادق الحبِّ لنيل الأرب

شاعرنا لا يكتم مشاعره بل يسكب ما يحبّه ويتمناه لأمته عذباً دون مواربة وتضليل وهي رؤية عاطفية مسوَّرة بالحلم والعقل حيث يربط بين العروبة والإسلام دون فاصل بينهما. فالشاعر جذبته الفكرة النبيلة وقد أخذَتْ به إلى عالمٍ نقيٍّ أثَّرَ على الجانب الفنّي في أكثر الأحيان. ومثل هذه القصائد التي تقال بالمناسبات وتثيرها المواقفُ يُغْفَرُ لها إن وقعَتْ في المباشرة أو العاديّة في مجموعته ((بقايا ذكريات)) عدَّة قصائد تدين ما أقدم عليه الرئيس المصري أنور السادات من اتفاقيات ومعاهدات مع إسرائيل بعد حرب تشرين الأول /٦/ت١/ ألف وتسعمئة وثلاثة وسبعين فعندما هبط بطائرته في مطار ((بن غوريون)) في اللدّ

في فلسطين وصافح زعماء إسرائيل قال الشاعر في ((رحلة العار)):

قُمْ (يا جمالُ) وشاهدْ أمَّةَ العربِ
كيفَ استحالتْ إلى بحرٍ من الغضبِ
قد راعَها أنَّ من أوليْتَهُ ثقةً
خان الأمانة واستخذى، ولم يتبِ
(ساداتُ) يا بئس ما أُعْطيْتَ من لقبٍ
ما للعبيدِ وما للسادةِ النُجُبِ

علينا أن نتصوَّر غضب الجماهير العربية حينها وهي التي تشبّعت بالهمِّ القومي الذي كان يغذِّي الشارع العربي فيتابع الشاعر:

والعربُ كلُّهمو ثاروا ولعنتُهمْ
تنصبُّ فوقك مثلَ الزيتِ في اللّهبِ
دمُ الضحايا وأرواحُ الذين قضَوا
من أجلِ حقٍّ سليبٍ شأن كلّ أبي

ولمَّا وقع السادات الاتفاقية في ١٩٧٩/٩/١٧م في أمريكا.

نشر الشاعر قصيدته ((اتفاقية العار)) في صحيفة الجماهير الحلبية وألقاها على منبر دار الكتب الوطنية في حلب:

(ساداتُ) يُمناك ما اهتزَّتْ ولا خجلتْ
من أنْ تخطَّ سطورَ العارِ في سينا
ونال منك الذي ما كان يأمله
وأنتَ بالعار قد جلَّلْتَ ماضينا

هذه القصائد صيحة غضب، وعصارةُ ألم وخيبة. وهي الناطقة باسم الوجدان العربي العام. تتكلَّمُ بلغتهم وأحاسيسهم، ولكنْ لم تستطع أن تحلِّق بالفنِّ وبذلك يكتمل الفنُّ والإبداعُ شكلاً ومضموناً.

مرَّ الشاعر بمواقف وحالات شبيهة بالمواقف التي مرَّ بها الشاعران نزار قباني وعمر أبو ريشة وغيرهما. وذلك أثناء زيارته للأندلس فقد التقى في قرطبة بحسناء أندلسية ((ريجينا)) وكانت دليله السياحي في قرطبة. فكتب لها وكتبت له:

سألْتُكِ، فابتسَمْتِ إلى سؤالي
ولم أقدرْ على إيضاحِ حالي
لساني ما استطاعَ بيانَ قصدي
ولم تُغْنِ الإشارةُ، يا خيالي

إلى أن يقول:

ومن عينيك شعَّ بريقُ عطفٍ
أضاء سماء (قرطبة) حيالي
فزالَتْ وحشتي، وحسبْتُ أنّي
عرفتكِ قبلَ أيَّامِ خوالِ

وللشاعر ذكريات جميلة وموحية أثناء تجوّله في إشبيليا وقرطبة وغرناطة وفي قصر الحمراء العظيم بغرناطة. وقد نظم قصيدته في ساحة الأسودِ ساكباً عبراته وحسراته على ماضٍ أفل. وقد ألقاها مع محاضرة مطوّلة عن الأندلس:

ما لعيني تفيضُ بالعبراتِ
وفؤادي يئنُّ بالحسراتِ؟

زرْتُ غرناطةً وفردوسَنا المفـ
قودَ، أبكي مُصعِّداً زفراتي
صُوَرُ المجدِ ماثلاتٌ أمامي
في جمالِ النقوشِ والزخرفات

ثم يتساءَل عن عزِّ ماضيها متألماً:

أين صوتُ الخليفة الآمرِ النا
هي مطاعٍ في سائر الجنباتِ
اتخذوا من شعار (لا غالب إلاّ الـ
لّه حرزاً يقي من العثرات
نقروا في الجدارِ (عزٌ لمولانا)
متى العزُّ دامَ بالكلماتِ

ويضع يده على الأسباب المؤدية إلى الانهيار:

أبْطَرَتْهمْ نُعْمى الحياةِ، فتاهوا
في خضمّ اللّذّاتِ والشهواتِ
واستعانوا بالكيدِ فالابن خصمٌ
لأبيهِ، والكلُّ في الموبقات
طلبوا نصرةَ العدوِّ ليحميهم
متى الخصمُ كان طوقَ نجاةٍ؟
إيهِ (حمراءُ) حينَ فارقْتُكِ اليو
مَ كأنّي فارقْتُ فيك حياتي
أنتِ للعربِ رمزُ مجدٍ أثيلٍ
أنْتِ ذكرى من أقدسِ الذكريات

هذه بعض المحطات القومية التي توقَّف عندها الشاعر بصدقٍ وعفوية مبتعداً عن التنظير الأيديولوجي. فالشاعر تتدفق مشاعره ولا يستطيع مصادرتها أو إيقافها ولذلك تأتي جمله منسابة بسيطة وهناك قصيدة مطوَّله يرثي بها الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر. ويذكر جمال عبد الناصر في عدَّة قصائد:

ذاكرة المكان:

للمكان المحيط بالشاعر دور فاعل وعلى الأغلب يكون محرِّضاً للشعر فقريحته سريعة التجاوب مع ذاكرته ومشاهداته. فالمكان ملازم له في سفره أو زيارته أو ركوبه أو انتظاره. ولمدينة اللاذقية التي حضنته طفلاً وعادَ إليها موظّفاً وزارها غير مرّةٍ أكبرُ الأثر فلها خصوصية في شعره ونثره يخصُّها بالتحية. ولها أكثر من قصيدة منها:

سلامٌ ربوع النهى والأدب
ودارَ الأفاضل أهل الحسبْ
سلامُ محبٍّ مشوقٍ نأى
طويلاً عن الحبِّ ثم اقتربْ

ثم يخاطب أماكن ذكرياته ويستدعيها من سفر ذاكرته:

أيا ربعَ أُنسي ودارَ الصبا
ومهدَ الطفولةِ أنتِ الطلب
ذكرتُ زمانَ صفاءٍ مضى
عليَّ، وعهد هناءٍ ذهبْ
وصحباً كراماً لقد فرَّقتنا
عوادي الزمان، وصرفُ النُّوَب

هذه القصيدة وأمثالها جداول رقراقة صافية. وفي قصيدة ثانية ((حنين إلى الماضي)) يذكر اللاذقية ويعارض ابن زيدون:

يا دار ما للأسى مُذ باتَ يطوينا
وما لذكراكِ تسبينا وتشجينا
وما لقلبي إذا ألقاكِ يخفق من
هوىً كأنّي على حبّيْك مرهونا
هنا على البحرِ، فوق الرمل، كم عَبَثَتْ
يداي، ألهو وأجري فوقه حينا
عهدُ الطفولةِ لا تُنْسى مباهجُهُ
هذي مسارِحُهُ، هذي مغانينا
دخَلْتُ بالأمسِ داراً كنْتُ أسكنها
وكان أهلي بها يوماً مقيمينا
دخَلْتُ لا كنزيلٍ جاءَ منزلَهُ
بل مثلما الضيف يأتي زائراً حينا

أترك القارئ ليستشفَّ هذه الروحَ النديّة التي ترفُّ للماضي في ديوان ذكريات أكثر من قصيدة عن اللاذقية (ذكر وحنين) (إلى حسناء اللاذقية) (شاطئ الأحلام اللاذقية) وحبُّ اللاذقية مرتبط بشريط الماضي وعبق الطفولة. وهو شريط دافق بالحبِّ. وعلاقة الشاعر بالأمكنة تتجاوز اللاذقية إلى مدن أخرى خصَّها بالتحية والسلام (تحيتي إلى مدينة حماه) (تحية إلى مدينة الرقة) (تحية إلى مدينة بانياس) (إلى الدير..) وهي قصائد قيلت بمناسبة زيارة الشاعر وإلقاء المحاضرات فيها. وقد ذكر ذلك في ديوان ((بقايا ذكريات)) يقول في مدينة الرقة:

يا مصيف الرشيد جئْتُ أحيِّي
فيك رمز الفخارِ والأمجادِ
في بطون التاريخ دوّى اسمك العالي
فقد كنتِ كعبةَ القصّادِ
والرشيدُ العظيم يخطر في سا
حك بين الحشودِ والأجنادِ
و مشى ظافراً إلى الشرق والغر
بِ ودانتْ له جميع البلاد
يا مصيف الرشيد أين صهيل الخيل
أين القنا وخفقُ الزنادِ؟
يا مصيف الرشيد توجعني الذكرى
فقدْ ضاع طارفي وتلادي

هذه القصائد محطّات تاريخية رومانسية لمدن لها خصوصيتها وتاريخها فتبعث ملكة الإبداع للبوحِ. والمكان مولدٌ للتداعيات والذكريات، وأحياناً يثير الألم والأسى ولكنه لا يحتمل أكثر من ذلك من رؤى فلسفية وفكرية.

عالم المرأة في شعره:

للمرأة نصيبٌ وافرٌ وحصّةٌ كبيرةٌ في قصائده. ترافقه في شعره وفي سفره وحلّه، وتعترض سبيله سائلة ومحاورة وتهزُّ مخيلته ومشاعره ببعض مواقفها المثيرة. فهو لا

يتوانى عن ذكر أيِّ حدث أو موقف يعترضه. فيخصُّ النســاء بعناوين قصائده دون حرج من ذلك رغم عفّة شعره وإحاطتِهِ بالحشمة إلى حدٍّ كبيرٍ أمام بقيَّة الشعراء الذين نحتوا المرأة جسداً، وفصَّلــوا معالم جسدها رسماً وبوحاً. وغاصوا في أعماقها إبحاراً وغريزةً. فالشاعــر لديــه موانــع تتحكــم بمساره، وتحصنه من الانزلاقات. فالمرأة لديه كائنٌ ساحِــرٌ، له قدسيَتهُ وحرمتُهُ، يصون جمالها ويقدِّسُــه كإبداعٍ من صنــع الخالق. فيعشق الجمال ويربطه بحسنِ خلق الخالق. وسوف أقتصر في هذا المجال على ديوان ((خلجات قلب)) الــذي أعدَّه ولم يصــدرْه. وهو معدٌّ للنشر ويحتاج لمن يأخذ به إلى المطبعة وكتب مقدمته الأستاذ محمود فاخوري.

في الديــوان إهداء طريــف، يخصُّ به القارئات فحسب. جاء فيه: ((والآن يسعدني أن أقدِّمَ كتابي الرابع هذا إليكنَّ، وهو ديوان شعر بعنــوان (خلجات قلــب) كلّه من شعر الغزل. وإذا أنــا خَصَصْتكنَّ بإهدائه إليكنَّ فلأن قصائدي فيه كلّها من وحي المرأة، وقد استلهمْتُ شعري من جمال منحه الله إيَّاها، فكانت خلجات قلبي فيه تعبيراً عمَّا أحدثَتْهُ بعضُ اللّواتي عرفتُهنَّ، وعن وحدة المشاعر بيني وبينهنَّ. فسجَّلْتُ تلك المشاعر في شعر عبَّرْتُ فيه بدقّةِ عن كلِّ أحاسيسي تجاه من سعدْتُ بلقائهــنَّ في ظروف وأوقات مختلفة متعدِّدة. فجاء ديواني هذا مرآة صادقة تعكس بدقةٍ مشاعري تجاه من كان لهنَّ كلَّ الفضل فيمــا نظمت، وكتبتُ. فالشعــر شعور ذاتي هنَّ كــنَّ فيه مصدر الإلهــام فإليهنَّ واجب شكري على الدوام)).

هذا الإهداء يوحي بالكثير من الجوانب النفسية للشاعر فيه اعترافٌ وإقرارٌ وجرأة ووضــوحٌ يشفُّ عن نفســ الشاعر الصافية التائقة إلى الجمال الصافي.. يقدِّم الشاعِرُ المرأة عــبر قصصٍ وحوارات ولقاءات وهذا ما يذكّرنــا بالشاعر عمر بن أبي ربيعه فلا تعنيــه امرأة محــدَّدة، ولم يلتزم بالعلاقة مع امــرأة دون غيرها ولذلك يكــثر من أسماء النســاء اللواتي تعرَّف عليهــنَّ والتقى بهنَّ. فيقــول في طبيبــة القلــب الحسنــاء التي قصدها للعلاج:

وقــصــــدْتُــهــا وأنـــــا أظــــنُّ
شــفــاء قــلــبــي في يــديــهــا
فــهــي الــطــبــيــبــةكــلُّ مــا
في الــقــلــب لا يــخــفــى عــلــيــهــا
شــقــراءُ ربــي قــد صــبــاهــا
الحـســن والــوجــهَ الــبــهــيَّــا
قــلــبــي الــضــعــيــف لــدى رؤا
هـــا بـــات خــفَّــاقــاً غــويّــا

ثم يقول لها:

فجمالك الفتّانُ يشـ
غلُ بالهوى قلباً خليّا
حسناء مثلُك ليس يشـ
في القلبَ بل يشويه شيّا

في خطابه للمرأة يميلُ إلى العذوبة في الألفاظ والرقّةِ في المعاني والدماثةِ في الخُلُق والدعابة وتدفق المشاعر لتشكل قصيدتُه مع هذه العناصرِ دفقةَ وجدانية حارة ورقيقة في قصيدة انتظار يقول:

يا منى النفسِ كنْتُ آمل أنّي
سوف ألقى لديكِ بعض الحنانِ
وأناجيكِ بالرقيق من الشعـ
ـرِ وعيناكِ توحيان بياني
فإذا ما ابتسمتِ أنعَشْتِ قلبي
ثمَّ ألهمتني بدمع المعاني
خاب ظنّي، وما سُعِدْتُ بلقيا
كِ وضاعَتْ كلُّ المنى والأماني

وشاعرنا يكثر من أسماءِ من تغزَّل بهنَّ (إلى فيروز) (إلى هدى إلى ضياء- إلى شادية- إلى حسناء الرباط- إلى مذيعة حسناء- إلى ياسمين- إلى وفاء-) وغيرهنَّ الكثير. وهذا يستدعي القولَ: إنّهُ محبٌّ ومولَعٌ بعالم النساء حديثهنَّ ولقائِهنَّ وأخبارهنَّ بعيداً عن البحث والتقصّي للملذّات. ورغم غزلِهِ تسمو روحه أمام المواقف النبيلة ففي قصيدته (إلى زوجة عابثة) تعفُّ نفسه وتأبى خيانة امرأة متزوجة فيقول لها في آخر قصيدته الدّرامية:

وأنا ما خنتُ ولستُ أخو
نُ وزوجك أولى بهواكِ
فدعيني. كوني لي عوناً
كيما أسلوكِ وأنساكِ
وَ لْنبقَ بطهرِ صداقتنا
نسمو في الدنيا كملاكِ
يا سيِّدتي يرعاك اللـ
ـهُ وصوني طهركِ لفتاكِ

وللشاعر قصص متعدِّدة مع المرأة، يرويها بشكل صريح وبسيط ليشكِّلَ لنا حالة إنسانية عامة فقصيدة (امرأة لعوب). قصة فيها الحوار وتتنامى بها الأحداث وهي قصيدةٌ مطوَّلةٌ كان الشاعر موفّقاً برويِّ النون الساكن، وفيها يؤكد حُسْن خُلُقه ووفائه:

أيا من حملْتُ لها في الفؤادِ
هوىً كلَّهُ الطُّهْرُ لو تعلمين
هوايَ هو النُّبْلُ صافي الإخاءِ
هو العطْفُ يأسو همومَ الحزين
فكيف جَحَدْتِ وأنكرْتِني
وإنّي أخو النبلِ لو تفهمين
توسَّمْتُ فيك رقيق شعورٍ
ومرهفَ حسٍّ وفيضَ حنين

ثم يقول لها:

حـسـبْـتُـكِ نـــوراً يـضـيء الحـيـاة
عـلــيَّ وإذْ أنـــتِ لي تمـكـريـن

وقصائده في المرأة تحتاج لوقفة تحليلية متأنيــة، لأنَّها تشكِّلُ عالمُــه الشعري ورؤيته للحياة. في طيِّ هذه القصائد نقرأ الكثيرَ من طبعِهِ وتكوينه، ونكشِفُ خبايا نفسِه، ومكنون أخلاقه، ونبلَ تكوينه. ومن القصائد الجميلة التــي قدّمها للمــرأة ((كرسي الاعتراف)) وهي اعتراف لزوجته ومهداة إليها:

ألـقـيْـتُ بـين يـديـكِ كـلَّ سهامي
وإلى هــواكِ قـدِ انـتـهَـتْ أحـلامـي
الآن مـــرَّ بـــيَ المـطـــافُ، وطـالمـا
خـلـفَ الحـسـانِ تـصَـرَّمَـتْ أيَّـامـي
عـمـري ويـا لهـفي عـليـه أضَـعْـتُـهُ
بــين الــهــوى، والـلـهـوِ والأوهـــامِ
مـا رفَّ طـرفي لـلحـسـانِ ولا هـفـا
قـلـبـي لـعـذبِ لمـىً ولَـــدْنِ قـــوامِ
أنـا سوف أجعـل من رضـاكِ رغبتي
وسـنـاكِ نـبراسـي ونـــورُ ظـلامـي
وسموُّ فكركِ في الشدائدِ مرشدي
وصـــوابُ رأيـــكِ مصـدر الإلـهـامِ
هــذا فـــؤادي آبَ بـعـد تـشـرُّدٍ
أسـلَـمْـتُـهُ لـكِ، فـامسكي بـزمـامي
ودعـي فـــؤادَكِ مُـطْـمَـئِـنـاً هـانـئـاً
وعـلـى مـتـينٍ مـن وثـوقـكِ نـامـي

فضّلْــتُ التجوّل عبرَ محطّات سريعة من أغراض شعــره، وربّما لا تفيها حقَّها، ولكن تبقى إشارات هامة.

شهادات في أدبه:

لم أعـــثُرْ على دراسات وافيـــة عن أدبه. وتعـــثَّرَت محاولاتي وأنـــا أتابع من له علاقة قربى وثيقة بـــه أو صداقة وحسبي في ذلك بعضِ المقدِّمـــات والشهادات التـــي حوتْها دواوينـــه وهي غير كافية وقـــد تكون قريبة من المجاملة وبعضها موضوعي. في مقدِّمة ديــوان ((ذكريات)) مقدِّمة نقديّة انطباعية للدكتور الأديب ممدوح حقّي منها:

((ومن أبـــرز صفات شاعرنا هذا الوفاء النادر الذي لا يقـــف عند حدود. لا يكتفي بالوفاء للأصدقاء والأهل والأحباب، بل قد يتجاوز العلاقات الاجتماعية الإنسانية إلى النبات والجماد. ترك اللاذقية طفلاً، وعادَ إليها كهلاً، فاصطحـــب زوجته وأولاده إلى البيت الذي نشأ فيه وطاف بهم كلَّ ركنٍ من أركانه باحثاً معهم عن طفولته وقال:

ودَدْتُ لـو أنَّـنـي قـبَّـلْـتُ تـربـتـهـا
فـبـين جـدرانـهـا طـابـت ليـالـيـنـا
قـد طفْتُ أرجاءَها والـدمع يغلبني
والـدمـع يـفـصح عـن حـالِ المحـبّـيـنـا
أمشي بـأبهائها مشيَ الكئيب ومِنْ
حـولي طيـوفٌ من الـذكـرى تناجينا

فهذه اللحظة تكشف رقته ونعومته، وتربط بين رقة أحاسيسه وشفافية سلوكه وطبعه:

وفي المقدّمة يتابع الناقد ((حقي)) نظرة الشاعر للجمال فيقول:

((الديوان صورة عن الشاعر وحياته، وناحية واحدة من نواحيه سجّل فيها أحداث الشباب والحبّ وفوزي شاعر فيّاض الحيوية زخّار العاطفة..))

وأرى أن للشاعر نظرةً خاصةً للجمال يراه مقدّساً فيحبُّ ويعشق ويبوحُ دون تجاوز حدود القيم الجمالية والأخلاقية فيذكر الجمالَ مقروناً بحسن خلق الخالق وإبداعه.

وفي تقديم آخر للديوان ((ذكريات)) تقول الشاعرة المصرية ((شريفة فتحي)) ((وقد لمست في طيّاته ظلال خيال محلّق، وإن كان مرتكزاً على أرض واضحة من الواقع)) وفي مكان آخر تقول: ((وكم هزَّتني دعاباته الحلوة وخفَّة روحه التي تتبختر فوق سطوره في ثوب محبوك من الأصالة الفنيّة التي تدلُّ على فطرة شاعرية مطبوعة ذات أبعاد..))

وقدَّم الأديب محمود فاخوري ديوان ((خلجات قلب)) وعبَّرَ في هذه المقدِّمة عن رؤية نقدية مكثّفة، ولكنها تدلُّنا على الكثير من سمات شعره يقول فيها:

((وقارئ هذه القصائد الغزلية الرقيقة يجدها نجويات هامسة حيناً وقصصاً وجدانية حيناً آخر. ممزوجة بلوحات تصويرية دقيقة في جزئيَّاتها. ومتنوعة في ألوانها. لا أثر فيها لفجور مستهجن في الألفاظ ولا لمجون مستقبح في التراكيب، وهو لا يجري منها على نفسٍ واحدٍ، ولا على موضوع راتب. بل نشعر أنَّ وراء كلِّ قصيدة قصة)) ثم يقول فهو إذاً موكّلٌ بالجمالِ يتبعه أينما كان، وفي كلِّ ميدان على القرب والبعد حتى وصل به الأمر إلى شاشة التلفاز..

هذه التجارب المنوَّعة بما فيها لم تفتِكْ به ولم تُنْسِهِ أسرته وزوجته ولذلك يعود إلى زوجته وأسرته:

أنا مهما جَمحْتُ، لا بدَّ أني
عائدٌ للَّتي تشدُّ جِماحي
ليسَ كالزوجةِ الحنونِ ملاذٌ
فإليها آوي بكلِّ ارتياح
فاللّواتي استلهمتُ منهنَّ شعري
كنَّ نوراً يضيء في مصباحي
كلُّ من قد عرفْتُ كنَّ نجوماً
وهْي كانتْ بدري وشمسَ صباحي

هذا ما تسعفني به مساحة المادة المقرّرة لشاعرٍ غاب وترك أثراً فقد حاز على جائزة

الوردة الذهبية من السفارة الإسبانية وأقامت له مديرية الثقافة حفل إحياء لذكراه في دار الكتب الوطنية مساء ١٩٩٩/٢/٤م شارك فيها الدكتور عبد الهادي نصري مدير الثقافة والدكتور يسخابير سبيرا مدير المركز الثقافي الإسباني (دمشق) والأستاذ محمود فاخوري والقاضي المتقاعد لطفي النائب ونجله المهندس محمد خير الدين الرفاعي

وأترك للقارئ التأمل في هذه القصيدة ((إلى فاتنة))

بالله قولي، أين حور الجنانِ لقد
هربْتِ؟ أم أنتِ بدرٌ لاحَ في الأفق
إنّي رأيتُ الحسانَ الفاتناتِ فما
رأيتُ مثلك في حسنٍ وفي خُلُقِ
سحرٌ بعينيك، صان الله فتْنتها
وبسمةٌ منكِ مثل النجم مؤتلقِ
ما كان في طاقتي إلاّ الخضوع له
لكنّني في الهوى أعتزُ في خلقي
هواكِ بحرٌ، وقلبي لا أمانَ له
ففي بحارِ الهوى أخشى من الغرق
بي عفّةٌ في غرام العيدِ أحفظها
ولستُ أدفعها في أيّ منزلق
قدسيَّةَ الطهرِ عندي ذمَّةٌ وأنا
أرى صيانتها فرضاً على عنقي
هوايَ فوق الدنايا، كلُّ فاتنةٍ
أحبَبْتُها، صنْتُها في القلب والحدقِ



منير الشعراني والتجديد الإبداعي في الخط العربي

معصوم محمد خلف ❋

يعتبر الفن الإسلامي، الفن الوحيد الذي اتخذ من الخط العربي عنصراً زخرفياً مهماً، ولعلَّ مرجع ذلك ما أصدره خلفاء الدولة الأمويّة من أوامر صارمة، جعلت الكتابة على الطراز (أي النسيج والورق) أمراً ضرورياً، ولذلك تطور الخط العربي بسرعة فائقة، واتخذ له أشكالاً زخرفية، وأسماءً فنية، متنوعة.

كما تميز الخط العربي بجانبه الفني التشكيلي الذي استقطب كبار الفنانين في العالم، مما حدا بالدول الأوروبية أن تتسابق لاقتناء هذا التميز

❋ خطاط وفنان سوري.

في هـذه الأعمـال الفنية التـي تنقل الأثر العربي والإسلامي في إيقاع جمالي أخّاذ.

فبالاطلاع على الفن الإسلامي الحديث نجـد أنه زاخـر بآيات الإعجـاز التعبيري الجمّة، حيث أنه المتنفس الروحي للإيقاعات الخطية والتشكيليـة المتناسقة في مضمون القيم الجماليّة الفنية، ومن هذه الجماليات نأخـذ مدخلنا لعالم الإيقـاع الخطي، لتبرز العلاقة الوطيدة بين الخط العربي والذائقة الجمالية.

حتى صـار الخط العربـي هو الرافد الحقيقي لتوزيـع المسارب الفنيـة والمآرب التشكيلية، وهناك عدد كبير من الخطاطين في العالم العربـي والإسلامي، بعضهم كانت لديهم البصمة الخاصـة في لوحاتهم، ومن هؤلاء.. أحد روَّاد التجديد في سورية الذي حاول ولا يزال يبذل كل ما في وسعه لإعطاء اللوحة الخطية بعداً فلسفياً من خلال الكم الهائـل للحالات الإبداعية التي يستخلصها من ذلك النسيج العربي المرهف.

إنه الخطـاط والفنان منـير الشعراني الذي تبنـى مدرسة التجديـد والإبداع في الخـط العربي من خـلال اللون والعلاقات الجمالية في اللوحة الفنية المتكاملة.

كما ويُعتبَر الخطاط الوحيد على الساحة السورية والعربية الذي طرح أشكالاً جديدة وأنواع خطٍّ غير مسبوقة...؟؟

وإن المتابـع لأعمالـه المتميـزة يكتشف للوهلة الأولى أن ثمـة علاقة عميقة ليست شديـدة الصراحة، ولكنهـا علاقة يستطيع المتلقـي أن يتلمسها في كل عمل من أعماله، والفضـل يعود إلى الطاقة التعبيرية الكامنة في التنوع الكبير والغنى الذي أدركه في أنواع الخط العربي وأن قراءة محتوى أعماله ربما كان أيسـر من معظم اللوحـات التي اعتاد النـاس على رؤيتها مكـررة لأنهم حفظوها مسبقاً، عندما يذهـب أحد الأشخاص إلى المسجد يجد عبارات شديدة التراكم، ولكنه عندمـا يلتقط كلمة واحدة من الآية يحفظ الباقي ويستطيع أن يكونها في رأسه، فهو لا يتتبع الحرف، هو يتتبع ما في رأسه وللأسف تعودنا أن نتلقى كل شيء بسرعة، يعني ربما كانـت وظيفة الأذن عندنـا مستخدمة أكثر من وظيفة الرؤيا،

كما ويعتقـد أن المتلقـي يتوقف قليلاً، ليكتشـف محتوى العبارة، لأنه عندما يسعى لاكتشـاف المحتوى ويصل إلى العبارة، يكون قـد استغرق قليلا من الوقـت، الأمر الذي

يدفعــه إلى التفكير في معناها أيضاً ويدفعه إلى تلقي الرسالة التي سعى إلى إيصالها له أيضاً من خلال العبارة.

كمــا يعتقــد الفنان منــير الشعراني أن الخط واحد من أرقى الفنــون التجريدية، وهو فن مجرد، لكنه يسعى من خلال العبارة أن يجعله التجريد الدّال والموصل للرسالة.

فهو تجريد من الصورة، والخط العربي هو تجريد التجريد، إذ بدأت الكتابة بالصورة ثــم الرمز ثم الحرف «التجريد»، يعمل على ذلــك بمنطق معاصر، ينبغي وجود ربط بين التكوين والعبارة واللون بحيث تؤدي اللوحة دورها في الوصول إلى قلب المتلقي وعقله.

ويضيف الفنان الشعراني قائلاً: في أوروبة يُعتــبَر الخط العربــي، بالإضافة إلى الخط الصينــي، الخطين الوحيدين من بين جميع أنــواع الخطوط في العالم اللذين يُعتبَران من الفنون الجميلة؛ أي يُستبعَد الخط اللاتيني والسلافــي والهندي. والخط العربي يشمل كلَّ الخطوط التي تُكتَــب بالحرف العربي، كالتركي القــديم والفارسي. وأوروبة ليست معنيــة بتكريس هذا النوع مــن الفنون، إلا أنهم يعقدون باستمــرار، في أماكن مختلفة، دوراتٍ تدريبيةً لتعليم الخط العربي. ولدينا، منذ تأسست كلية الفنون الجميلة بأقسامها الأربعة، اعتمادٌ للمناهج التعليمية المترجمة لكلِّيــات الفنــون الجميلــة الأوروبية، فيما ننســى خصوصية فن الخــط العربي الذي تعود بداياته إلى مئات السنين.

وفي الصين واليابــان، يُدرَّس الخط في جميع المراحــل التعليمية، يُهتَم به، وتقام له طقوسٌ واحتفالاتٌ ومهرجانات. وفي إيران، يوجد اهتمــام كبير بتعليم الخط. أما لدينا -للأســف!- فتُدرَّس المــادة في كلية الفنون تدريسًا جانبيًّــا ونظريًّا، ولا يتطلب النجاح فيهــا ذلك المجهــود الكبير! حتــى الطالب يتعلم بشكل أساسي تاريــخ الفن الأوروبي، ويُغفَل تاريخُ الفــن العربي والإسلامي. فلو أننــا وضعنا منــذ البداية تعلــم هذه المواد الأساسية بعين الاعتبار، لكنا قطعنا أشواطًا في موضوع فن الخط تسبق بكثير ما وصلنا إليه اليوم.

ولقــد ازدهر فن الخــط العربي بشكل ملحــوظ في الآونة الأخيرة، وتحفز الفنانون لتكثيــف نتاجاتهــم وإبداعاتهم من لوحات الخط، وابتــكار أشكال جديدة منه، في ظلّ وعي المتلقي لأهمية هــذا النوع من الفنون التشكيلية التي ارتبطت بالشخصية العربية

والإسلاميــة ارتباطــاً وثيقــاً، مــن خلال محاكاتهــا للغة اليومية التي ينطق بها لسان العــرب، إضافــةً إلى ارتفــاع الوعي الفني وقدرة الجمهور على تذوق جماليات الخط العربي والاطلاع على آلية إنتاجه وأساليب العمل به.

ولأنه فن تصميم الكتابة في اللغات التي تستعمل الحرف العربي، نجد أن هناك الكثير من الفنانين المشهورين في فن الخط العربي من جنسيات مختلفة، لاسيما الأتراك الذين أسســوا في هذا الفــن الإسلامي مدرستهم التركية الخاصة والمشهورة، وأيضاً الإيرانيين والصينيــين، كمــا اشتهرت كل مــن سورية ومصر والعراق بهذا الفن عربياً والاهتمام به منــذ منتصف القرن الماضي، فلمعت أسماء عدة وكثر العاملون في هذا المجال، وإن ظل عددهم قليلاً مقارنة بالفنون الأخرى، فقد يستغرب مــن يعلم أن الخطاطين المحترفين والذين حققــوا شهرة كبــيرة في مجالهم لا يتجاوز عددهم بضع عشرات، في حين يبلغ عدد مــن لمعوا بفن الخط مــا يقارب ١٠٠ فنان على صعيد العالم، يلحق بهم ما يقارب ٥٠ من الخطاطــين الذين مازالوا في بداية الطريق، ومعظمهم يعمــل على التشكيلات الحروفية الجديدة لأنها أسهل وأسرع وأكثر إبهاراً للوهلة الأولى لكنها تفتقر إلى البحث والتطويــر الخطي الذي مــن المفروض أنه قوامهــا الأساســي، وقلّة منهــم تعمل على الخطــوط العربية الكلاسيكيــة التي لم تعد مطلوبة في الأسواق.

كما وتنطوي تجربة الفنان منير الشعراني في الخــط العربــي على مغامــرة حقيقية بتفرده المميز في طريقة عرضه، حيث يسعى بلا هــوادة إلى تأصيل لوحــة خطية عربية تعيد الاعتبار إلى الخط بوصفه فناً عريقاً.

ويعتمد تجربته الفنان منير الشعراني في استخــدام الخط العربــي لصنع لوحة على قناعــة راسخة لديه بــأن الخط العربي هو تجريــد شعري يقوم على موضوعات فكرية فلسفية وذهنيــة تنطلق من الجوهر والمبدأ الكلــي الخفي الــذي تســري قوانينه على الوجــود بكلياته وجزئياتــه، ويتعامل بشكل موضوعي مــع الجلي والمستتر الذي ينعكس على علاقة المحتوى بالمضمون.

وتكمن أهمية تجربــة الفنان الشعراني في قناعته باستمرار هذا النهج مع الحرص الشديــد علــى تطويــره وإعــادة اختراعه

باستمرار، وفك أسره من القوالب التي جمد فيها منذ العهد العثماني.

كذلك فهـو يركز في مجمل تجربته على أمرين:

الأول يتمثل في الخط الصافي عبر إتقان لبنتـه التشكيليـة وما يتمتع بـه من مرونة وطواعية وقابلية للمدِّ والتراجع والاستدارة والتزويق والتشابك والتداخل والتركيب.

أما **الثـاني** فهو المعنـى، حيث تمثل كل لوحة من لوحاته تركيزاً على موضوع فكري أو فلسفي أو أدبي.

ولعلَّ أهمية تجربة هذا الخطاط اللافت تكمن في الـدور الذي لعبه في تطوير آليات الخط العربي، من وجهة نظر حداثية، ومن دون قطيعـة معلنة مع المنجز القديم، هكذا تأتـي تجاربه التقنية تتويجاً لدراسة معمّقة لإمكانات الحرف العربي وأسراره في التوريق والتشجير، وفهم التجريد الهندسي الدقيق لكل حرف على حدة، فالقرآن الكريم مكوّن لثقافتنا، ومن أول اللوحات التي اشتغل بها كانت (مالكم كيف تحكمون) كما اشتغل على عبارات من الحديث النبوي الذي نستند إليه في الكثـير من أمور حياتنا، كما اشتغل على عبارات من الإنجيل، وصاغ اثني عشر شكلاً جديداً للبسملة ليثبت أن الخط لم يصل إلى الـذروة بعد أن قيل إنهـا لا يمكن أن تظهر بشكل جديد،

فها هو يعمل على إخراج الخط العربي من قفص القدسية الذهبي الذي وضعه فيه العثمانيـون، حيث استخـدم الخط العربي لأغراض كثيرة، لكن العثمانيين حاولوا قصر دوره على الاستخدامـات الدينية فقط، إذ كان الخـط في تطور دائم حتى فترة وصول العثمانيـين إلى السلطـة في المنطقة، وقد ابتكـروا خطين هما الرقعـة والديواني من خليط خطـوط أخرى وحددوا استخدامات لـكل نوع من الأنواع التي اعتمدوها، وقتلوا عائلة الخطوط الكوفية لتعصبهم كونه خط من إنتاج عربي خالص، وكان الخط العربي قبلهم عُرضـةً للتطوير نـراه على الخزف بطريقة وعلى الخشب بطريقة أخرى وعلى المعادن بطريقة أخرى أيضاً، وله أشكال في المغرب وأشكال في المشـرق... لذلك قامت تجربتـه على إحياء خطـوط قديمة تحمل قيماً جماليـة كبيرة كانـت مهملة كالكوفي القيرواني والكوفي المشرقي والكوفي المربع... مع التجريد.

حيث يعمل في مجال كان التجديد متوقفاً

فيه منذ وقت كبير، ولاكتمال أي تجربة من معاصرينا، يوجد بعض الخطاطين اشتغلوا علـى أشيـاء جديدة، لكن لم يكـن التجديد هاجسهـم، كمـا يحاول العمل علـى تأريخ للخط العربـي وأنه ليس مقدساً بحد ذاته، بـل هو فن قابـل للتطوير بشـدّة، وها هي إبداعاته تسمح لـه بالخروج إلى الكثير من الآفـاق الجديدة، وأنه فـن وليس حرفة أو أي شيء مقدس، وللرد على خمسمئة عام مـن التهميش والتراجـع في الخط العربي لا تكفـي ١٠٠ أو ٢٠٠ لوحـة بشكل ممنهج غـير قائم على المزاجيـة، وتعميم ذلك عبر المعارض المختلفـة، إذ أقمت إلى الآن قرابة أربعين معرضاً في بلدان مختلفة، وأعتقد أن تجربتي بـدأت أصداؤها تصل إلى الأجيال الشابـة من الخطاطين، ممـا قد يسمح لي بالانتقـال إلى الخطوة الثانيـة التي تتعلق باستخـدام جماليته بكل التفاصيل على كل العناصر.

هذه نقطـة مهمـة جـدّاً، الإمكانيات موجـودة، لكن للأسـف لم تعـد المؤسسات الصحفية ودور النشر تسعى لابتكار حروف خاصـة بها عكس مـا كان في السابق، مما أدى لظهـور الحروف الهزيلة التي نراها في الصحف، كما يوجد خطأ أساسي ومنهجي وهو محـاكاة الكتابـة المخطوطة والاعتماد علـى تجلياتها وليس هيكلهـا الذي يمكننا من خلاله بناء أشكال مختلفة، وعدم مراعاة الخامة التي يتم الطباعة عليها.

الشعراني في سطور:

- مـن مواليد السلميـة ١٩٥٢م، خريج كلية الفنون الجميلة ــــ جامعة دمشق.
- تلميـذ كبير خطاطـي الشام، الراحل بدوي الديراني.
- صمَّم خطوطاً جديدة، وله كتابات في النقد الفني والفـن العربي الإسلامي، كما له كراسات لتعليـم خطوط الرقعة، النسخ، التعليق، الديواني، الثلث، الكوفي.

شارك كمستشار فني في أعمال الموسوعة العربية العالمية، وكتب مداخل الخط العربي وأعلامه فيها، وصدر كتاب مصور لأعماله مع دراسة تحليلية للفنان يوسف عبد الكريم باللغتين العربية والفرنسية، وتوجد مقتنيات مـن أعمالـه في سوريـة، الأردن، لبنـان، مصر، تونس، الجزائـر، المغرب، البحرين، الإمارات العربية المتحدة، سويسرا، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، إيطاليا، يوغسلافيا، الهند، وأمريكا.

المراجع

١- الخطاط منير الشعراني. حاوره: غازي أنعيم، مجلة عمان العدد ١٥٥ المملكة الأردنية الهاشمية.
٢- أبواب (ملحق تشرين الثقافي) العدد ١٣، السنة الأولى خليل صويلح، آذار ٢٠١٠م.
٣- جريدة الجزيرة (السعودية) العدد ١٧/١٣٢٧٦ صفر ١٤٣٠هـ حاوره: عامر مطر.
٤- عصام درويش. شرفات الشام العدد ٥٥ (فنان من سورية) حزيران ٢٠٠٩م وزارة الثقافة، دمشق.







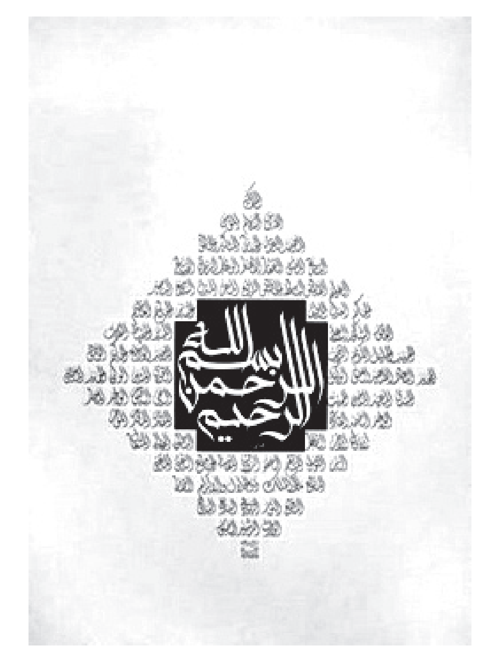






﴿وإذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وأَمْناً﴾
سورة البقرة - الآية ١٢٥
هدية مجلة العربي يناير ١٩٩٩م











الشائعات..
مفهومها وطرق انتشارها ومقاومتها

د. أحمد غنام ❀

الأخبار غير الصادقة تثير الشكوك في النفس البشرية، وتفقد الثقة، وتنشر الفتن والفزع والرعب بين طبقات المجتمع، مما يؤثر على وحدة البلاد والعباد، وسلامة أراضيها وهيبتها ومركزها المالي والسياسي والاجتماعي. وتنتشر الشائعات بتوافر الظروف المناسبة لانتشارها، ومن أبرزها: غياب الحقيقة، ودرجة الأهمية، وغموض الموضوع، والوقت المناسب والملائم، والخصائص السيكولوجية للناس، والمناخ العام في ظل تطور الاتصالات

❀ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

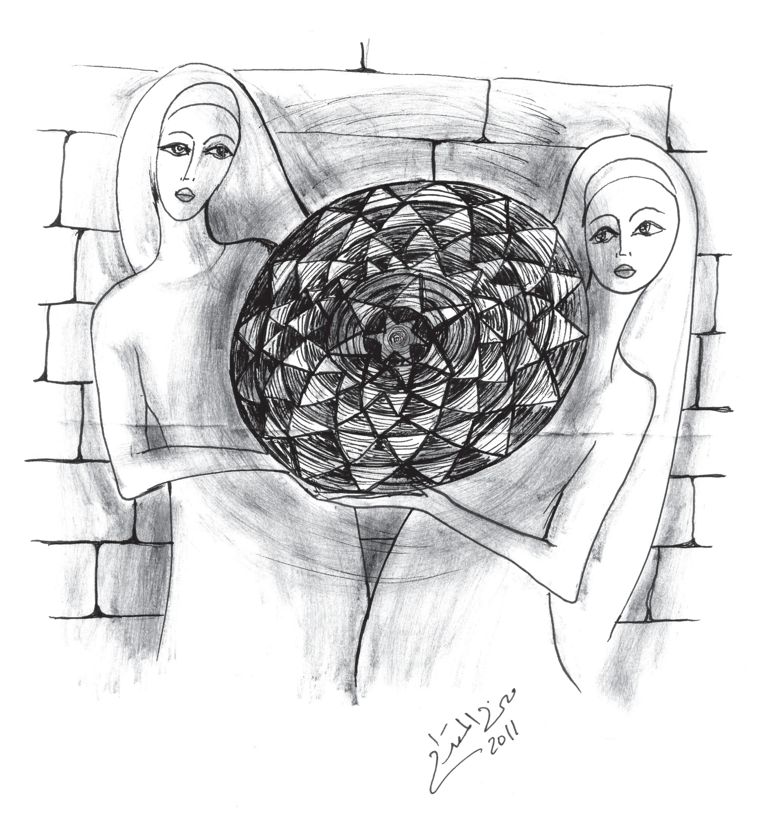
ومتغيراتها السريعة. وتسبق الإشاعة الشائعة مـن حيث الزمن، إذ يبدأ من له مصلحة في إشاعة موضـوع كاذب، فيشيعه حتى يشيع الموضـوع أو المعلومـة الكاذبة بـين الناس، فتصبح بعـد ذلك شائعة، ومـن هنا تكون الشائعة من ناحية مساحة الانتشار

أوسـع من الإشاعة، أي إن الشائعة تأتي تالية على الإشاعة.

مفهوم الشائعة

يعرف عالما النفس «إلبورت» و«بوستمان» الشائعة بأنها: تأكيد عام يتم تقديمه بوصفه حقيقـة من دون توافـر معطيات مشخصة تتيح التثبت من صحتـه. بينما يعرفها عالم النفس «كنساب» بأنها: «تصريح تمَّ إعداده لكي يصـدق، له علاقة بالحوادث الجارية، وينتشـر دون أن يتم التحقـق منه رسميا». ويعرفهـا «بيترسون» بأنهـا: «تقرير أو شرح غير محقق ينتقل مـن شخص لآخر ويتعلق بموضوع أو حـدث أو مسألة تلقى اهتماما عاما». وموضـوع الشائعة يكـون عادة إما حدثا أو شخصا، فمن الأحداث التي تتناولها الشائعة مثلا الفيضانات والكوارث وارتفاع الأسعار والقضايـا الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعيـة، ومن الأشخاص مثلا النخـب القيادية والإعلامية والفنية.. إلخ، وتظهـر الشائعة على شـكل ثرثرة أو طرفة، تنبؤ بأحداث مقبلة وليست الشائعة كاذبة دائمـا، وتذاع الشائعـة على الأغلب وتنتشـر في أوقـات الأزمـات حيـث تكون الأوضاع الاجتماعية قلقة، أو أثناء الحروب أو المشكلات المعقدة التي يمكن أن تواجهها الجماعـة، وعندمـا تقل المعلومـات حول حدث ما فإن فرصـة رواج الشائعة لدرجة أنه يمكن القول أن احتمال ظهور شائعة هو دالـة عكسية لكمية الإعـلام الذي تصدره وسائل الإعلام الرسميـة والعكس صحيح، وتنتقـل الشائعة عادة مـن شخص إلى آخر وتتطلب قربا طبيعيـا بين المروج والمتلقي، ولكي تنتشـر الشائعة في أية بيئة اجتماعية ينبغي أن يجمع متلقي الشائعة قاسم مشترك واحد يتأطـر بأهداف مشتركة، الأمر الذي يسهل تداول وانتشار الشائعة.

ومعروف أن كل رسالة إعلامية تتعرض للتحريف عندما تنتقل من مصدر إلى آخر، وليس هذا شرطا ينطبق على الشائعة فقط بل يمكن، بسبب خطأ الإدراك الذي يتعرض لـه الإنسان أن يجري تحريـف في الرسالة الإعلامية وهي مختلفـة من شخص لآخر، كما أن الشائعة تحتوي على الدوافع النفسية التي تحركها وتوجهها وتعمل على انتشارها. فالشائعة تعكس رغبات دفينة عند الإنسان، وإن معظم الشائعات ترتبط، بشكل أو بآخر،



بالأحداث المعاشة، وكلما ابتعد الخبر أو الحدث زمنيا، قل احتمال ظهور الشائعات عن ذلك الحدث.

تصنيف الشائعة

اختلف الباحثون حول الارتكازات التي ينبغي أن يقوم عليها تصنيف الشائعات، فمنهم من يعتمد الموضوع الذي تعالجه (قصة الشائعة) مرتكزا محوريا للتصنيف، ومنهم من يعتمد الدافع النفسي المتراكم لإنجاز هدف بعينه أساساً للتصنيف، مع الأخذ بالاعتبار معيار الزمن كعنصر فاعل في فهم مفردات ومضامين وانعكاسات الشائعة، ولعلَّ عالم النفس «كنساب» هو أبرز من صنف الشائعات وفق الدوافع النفسية، حيث وضعها في ستة محاور:

• **شائعة الرغبة أو الشائعة الحالمة:** وتكون غالبا في الإعلان عن حوادث سارة، ويعدّ هذا النوع من الشائعات تعبيراً عن أماني وتطلعات المجتمعات الإنسانية.

• **شائعة الخوف والقلق:** ويأخذ هذا النوع من الشائعات أشكالا تنطوي على الحالة النفسية التي يكون عليها مروجوها من خوف وقلق، ويمكن أن تتراوح بين القلق المحدود والذعر الشامل طبقا لموضوع الشائعة نفسها.

• **شائعة العدوان:** تهدف إلى خلخلة التلاحم الاجتماعي وخلق جماعات

متخاصمة وهي موجهة ضد قسم من السكان في مجتمع واحد. وقد حاول عالم النفس بيساو أن يستخدم معيار الوقت في تصنيفه للشائعات حيث خرج بثلاثة أنواع.

• **الشائعة الزاحفة**: وهي التي تروج ببطء ويتناقلها الناس همساً وبطريقة سرية وتنتهي في آخر الأمر إلى أن يعرفها الجميع، ويتضمن هذا النوع من الشائعات بعض القصص العدائية التي توجه ضد شخص ما مثلا وينشر مروجو هذه الشائعات تنبؤات بوقوع أحداث سيئة.

• **شائعات العنف**: تنتشر هذه الشائعات بسرعة بالغة حيث تخترق أوساط المجتمع في وقت قصير جداً وتتصف بالعنف والقوة كشائعات الحوادث والكوارث وبسبب ما تحمل هذه الشائعات من شحنات مستندة إلى العواطف الجياشة كالذعر والغضب والسرور فإنها تستدعي عملاً فوريا.

• **الشائعة الغائصة**: وهي التي تروج بفترة زمنية معينة ثم تختفي وتعود للظهور مرة ثانية عندما تجد الظروف الملائمة.

طرق انتشار الشائعة

تأخذ الإشاعات والشائعات في انتشارها عدة طرق، مما يسهل تداولها وترويجها وانتشارها بين الناس، ويتم اختيار الطريقة غالبا طبقا للمناخ السائد في المجتمع الذي تستهدفه الشائعة، وخاصة مدى الثقافة العامة، والوسيلة التي يمكن استخدامها في نشر الشائعة، ومن أبرز هذه الطرق ما يلي:

١- **كلام الناس وأحاديثهم**: يأتي ذلك في عبارات قصيرة مفهومة بالكلمات لنشرها واستيعابها بسهولة وسرعة، وتكون في أماكن كثيرة، مثل: المجالس والمقاهي والنوادي. ويؤكد البعض الشائعات بقوله إن هذا الكلام أكيد مئة في المئة، بل البعض تجاوز ذلك بقوله مليون في المئة.

٢- **وسائل الإعلام وأخبارها**: يشمل هذا النوع كل من الخبر الإذاعي والتلفزيوني والصحفي، ويستخدم الخبر الإعلامي في الكثير من الحالات ومنها: الحروب أو التهديد بها، أو عند وجود المشاكل السياسية، وذلك بنشر الشائعات عن قوة تلك الدولة وأسلحتها المتطورة وتأثيرها الكبير، وربما تعيد بعض الوسائل الإعلامية المحايدة أو الصديقة نشر هذه الشائعات على أنها أخبار صحيحة مستقاة من وكالات الأنباء التي أرسلتها، وكذلك تجد الشائعات طريقها عندما يكون مصدر الخبر غير محدد، مثل مصدر مسؤول أو مصدر في الحكومة فضل عدم ذكر اسمه، وعلى الرغم من أن احتفاظ الصحفي بسرية مصادره أمر مقبول إعلاميا، إلا أن هذا الأمر قد استغل بشكل

سيِّئ لنشر الشائعات، إضافة إلى أن بعض الصحفيين يسعون بكامل جهودهم للسبق الإعلامي بغض النظر عن مصداقية الخبر أو أنه ناقص أو ما هي الظروف المحيطة فيصبح لدى الناس اليقين بأنه الحقيقة كاملة.

٣- **المقالات الصحفية**: المقالة الصحفية عبارة عن موضوع يتناوله الكاتب من رؤيته للأحداث الجارية في المجتمع ويعرضها بلغة واضحة للقراء وبأسلوبه الشخصي في الصحيفة، وتكمن خطورة هذا النوع لأهمية الكاتب ومتابعة القراء له، فكل ما يكتبه يظن القراء أنه صحيح لاعتقادهم أنه مطلع على خفايا الأمور، ويعتقد القراء أن هذا الكلام لو كان غير صحيح لما نشرت الصحيفة هذه المقالة.

٤- **كتب السير الذاتية**: وهي الكتب التي تتناول قصة حياة شخص بعينه وتتناول أحداث حياته، سواء أكانت بقلمه أو بقلم غيره. وهذا النوع كثيراً ما يتضمن شائعات لعدم اطلاع الكثير على بعض القضايا التي اطلع عليها، أو لوجوده بمكان يسمح له بمعرفة الكثير من الأمور، وقد يستغل الكاتب هذه المعرفة أو المكان الذي كان يعمل به أسوأ استغلال لتحريف وتزوير بعض الحقائق التاريخية، وهذا ما نلاحظه لدى بعض الكتّاب الذين عاصروا بعض الثورات والحروب واختلاقهم الكثير من الشائعات وبثها في كتبهم.

٥- **الرسم الكاريكاتيري**: ويقصد به الرسم الذي يحاكي بسخرية مبالغ بها أحيانا بعض الأحداث أو الشخصيات وغيرها ليضحك منها المتلقي، ويتميز الكاريكاتير بقدرته على جذب الناس وسهولة فهم معناه حتى وإن كان مكتوبا بغير لغتهم، لأنه يرسخ لدى كل من يشاهده، ويأخذ الكاريكاتير مسار الشائعة عندما يكون موضوع الشائعة ملامسا لرغبات الناس أو آلامهم فيتخيلون أو يخمنون تصور معين لما سبق.

٦- **المنشورات**: وهي عبارة عن أداة مكتوبة للاتصال بالجماهير، لها طبيعة خاصة، وتستخدم لتحقيق أهداف معينة للتأثير على الرأي العام، وربما يشتمل المنشور على شائعة أو أكثر ويوزع على الناس في تجمعاتهم، مثل: المساجد، والجامعات، والمدارس، والأسواق، وقد يوزع على السيارات أو يرمى على الأرصفة والشوارع، أو تحت أبواب المنازل.

٧- **الأمثال الشعبية**: المثل هو كلمة أو أكثر تكون متناسقة في البناء وناتجة عن معارف وتجارب الناس، ويتناقلها الناس من جيل إلى جيل آخر ومن السهولة حفظ المثل

لما به مـــن سجع ولكلماتـــه المختصرة، وقد يستخـــدم المثل لتأكيد الشائعة وتتردد بعض الأمثال، مثــل: «حاميها حراميها»، و«ما في دخان بلا نار».

٨- **النكات:** لا يخلــو مجتمــع مــن المجتمعــات غالبا مـــن روح الفكاهة، والتي تعبر عن تصوراته الاجتماعية وتبين أخلاقه وعاداته وسلوكياتـــه للتنفيس عن أعضائه، وتنتشر الشائعـــات عن طريق إصدار النكت لسهولة نشرهـــا بين الناســ، وخاصة ذوي الثقافـــة البسيطـــة والمتوسطـــة الذين هم بالطبع الأغلب في المجتمع، وعلى الرغم من أن الشائعة موضـــوع قابل للتصديق ليتقبله الناس، إلا أن النكت تنتشر من وحي الخيال بناء على الظروف السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، لأبناء المجتمع ليضحكوا منها إلا أنها تجـــد طريقاً لتلامســ طموحاتهم وآمالهم وآلامهم فتسلك مسلك الشائعة.

٩-**رسائل الهاتف المحمول:** تأخذ الشائعة انتشارهـــا عـــبر رسائل الهاتـــف المحمول، والتـــي لها الأثر الكبير لسرعة انتشارها بين الناس بفضـــل زيادة أعداد مستخدمي هذه التقنية، وتأتي في الغالـــب الشائعة أولا من جوال مجهول بعنوان في بعض الأحيان مثلا ب» فاعـــل خير»، وبعد ذلك يقـــوم المستقبل بإرسالهـــا لأقاربه وأصدقائه من دون التأكد من الخبر، أما بالنسبـــة لأصدقائه وأقاربه الذيـــن أرســـل إليهم الرسالـــة فيظنون من المرســـل سلفا أنـــه لم يرسلهـــا إلا وهو على يقين من صحتها، فيرسلونها بعد ذلك لأنهم يعرفون مصدر الرسالة بخلاف الذي تأتيه الرسالة من شخص لا يعرفه.

١٠- **البريـد الإلكـتروني:** تنتقل الشائعة عـــن طريق البريـــد الإلكتروني عـــبر إرسال رسالة بالبريد الإلكتروني، وتكمن أهمية هذا النـــوع في أنه يخاطب الطبقـــات المتوسطة وأكثر لتمتعهم بقدر من الثقافة، ومن أمثلة هذا النـــوع: شائعة عبارة عن رسالة بالبريد الإلكتروني تحذر من وجود فيروس، وتحدد لهم اسمه، وترغـــب إلى المستخدمين حذفه فورا ومضمـــون الرسالة هـــو أحد البرامج الفرعية الموجودة ضمن ملفات نظام تشغيل الكمبيوتر ومن الخطأ إلغاؤه.

١١- **منتديـات ومواقـع الإنترنـت:** هي مواقع إلكترونية يمكن لروّادها طرح آرائهم ومواقفهـــم تجاه قضية معينـــة ومناقشتها، وربمـــا تشمـــل موضوعـــاً واحـــداً أو عدة مواضيع، وتنتشر الشائعات عبر المنتديات، حيث تختلف ثقافات الأفراد وتختلف طرق تعبيرهم.

١٢- **الأخطـاء الفنيـة:** ينتج عن بعض الأخطـــاء الفنيـــة شائعات تؤثـــر في الناس

وتلحق الضرر بالمصالح العامة والخاصة، ومن هذه الشائعات برنامج تسجيلي في إحدى القنوات الفضائية عن الإرهاب والذي آثار موجة من الشائعات، بأن ما يظهر في البرنامج من هجمات إرهابية هي فعلا تغطية حية لهجمات إرهابية جديدة، وذلك بسبب كلمة (مباشر) في أعلى البرنامج وتسبب ذلك في عزل رئيسه، وذلك بسبب سوء فهم الرأي العام نتيجة الخطأ الفني والذي بسببه انتشرت شائعات ليس لها أساس من الصحة، ومنها مكالمة هاتفية تلقاها مكتب وكالة أنباء حول وقوع هجوم على حافلة بها سياح أجانب، وعندما زار مراسلو هذه الوكالة المنطقة لتغطية الحدث، ذكر مسؤولو الأمن أنها شائعات نتيجة للبرنامج التسجيلي.

قانون الشائعة

يرجع بعض الباحثين أسباب انتشار الشائعات إلى انعدام المعلومات وقلة الأخبار بالنسبة للجمهور المتلقي، وهذا ما يدفعهم لأن ينادوا بضرورة بث أخبار تفصيلية ودقيقة وتزويد الشعب بها حتى يكون على بينة بما يدور حوله من أحداث وأعمال تؤثر على حياته ومستقبله، وحقيقة الأمر أنه لا يستطيع أحد أن يحكم حكماً قاطعاً على صحة هذا القول أو بطلانه بأننا نلحظ انتشار شائعات كثيرة في الوقت الذي تكثر فيه الأخبار عن طريق وسائل الإعلام في كثير من المجتمعات، فانعدام الأخبار أو قلتها ليسا سبباً كافياً لترويج الشائعة، وإنما لابد من وجود عوامل أخرى لخلق الشائعة وترويجها وهذا ما يدفعنا إلى تأكيد شرطين أساسيين يتصلان بإذاعة الشائعة وإرسالها وهما: الأهمية والغموض، أي أهمية الموضوع بالنسبة لأفراد المجتمع، وغموض الأدلة الخاصة به. وقد حاول كل من ألبورت وبوستمان إيجاد قانون أساسي للشائعات على شكل معادلة جبرية، وتوصلا إلى أنه من الممكن وضع معادلة جبرية عن شدة سريان الشائعة على الشكل التالي:

شدة سريان الشائعة = الأهمية × الغموض

وقد يسأل عن معنى علامة الضرب هنا فهل يمكن استبدالها بعلامة الجمع والإجابة هي: أن علامة الضرب شيء أساسي في هذه المعادلة ولا يمكن استبدالها بالجمع وذلك لأنه إذا لم يكن للموضوع أهمية بالنسبة للمجتمع الذي تروج فيه الشائعة فإن الأهمية تساوي الصفر وتصبح المعادلة: **شدة سريان الشائعة = ٠ × الغموض** = ٠، أما لو كانت العلامة علامة جمع فإن شدة سريان الشائعة تصبح الغموض أي:

شدة سريان الشائعة = ٠ + **الغموض** = **الغموض**، وهذا غير صحيح لأن الحدث الغامض في أية بقعة من بقاع الأرض لا يعني شيئا لشدة الشائعة في بقعة ثانية لأن موضوع الشائعة لا يهمهم أساساً، فلا يحتمل أن يروج فرد آسيوي شائعة خاصة عن ارتفاع سلعة معينة في أوروبة، لأن الموضوع لا يهمه على الرغم من توافر الغموض فيه.

مقاومة الشائعة والسيطرة عليها

الشائعة كما مرَّ معنا وباء اجتماعي يهدد المجتمع باستمرار، إنها كالسم الذي يسري في جسد الإنسان ببطء حتى يشل حركته، والشائعة شأنها في ذلك شأن السم فهي تبث سمومها في المجتمع تدريجيا حتى تسيطر على عقول الجماهير وتشل تفكيرهم بحيث يصبح من الصعب عليهم تمييز الصحيح عن الكاذب وهي بذلك لا تخدم سوى أعداء الجماهير وعلى ذلك فالتخلص من الشائعات وتوعية الشعب بأخطارها أمر بات ضرورياً لكل المجتمعات وشرطاً أساسياً من شروط تقدمها، فالخطر الذي تولده الشائعة لا يستهان به وتأثيرها على الروح المعنوية تدفع بالشعب إلى تفاؤل مفرط أو تشاؤم واسع، والتفاؤل المفرط لا يقل خطورة عن التشاؤم، أليس بزيادة التفاؤل فوق الحدود الطبيعية تقاعس؟ ألا يدفع التفاؤل المفرط في أمر ما إلى الإحباط عندما لا يتحقق ذلك الأمر؟ هذا التفاؤل وذاك التشاؤم، هذا الخطر وتلك النكبات التي قد تصيب المجتمع، كل تلك الأمور كانت دافعا وراء مقاومة الشائعات والتصدي لها. ولمكافحة الشائعات ثلاث طرق يمكن إيجازها بالتالي:

١- **طريقة تكذيب الشائعة**: قوام هذه الطريقة تكذيب الشائعة، وسلبيات التكذيب أنه ينشر الشائعة ذاتها أحيانا، إذ إن تكذيبها هو بمنزلة تكرار لها وتعد هذه الطريقة أكثر الطرق شيوعا وأقلها فاعلية.

٢- **طريقة التكذيبات الخاصة**: لتفادي السلبيات المذكورة في الطريقة السابقة ولإقناع الناس على نحو أفضل يلجأ عادة إلى مجابهة الشائعة بتكذيبات خاصة من قبل أفراد معينين ذوي مكانة ممتازة ومقام رفيع بين الناس.

٣ - **الطريقة الإكلينيكية**: قوامها تحليل الشائعة لمعرفة مضمونها ودوافعها واتجاه الناس حيالها بأقصى ما يمكن من الدقة ويساعد ذلك على التأثير فيها تأثيراً فعالا.

وفي جميع الطرق المذكورة ينصح بعدم استخدام المذياع للتكذيب ذلك أن الناس عرضة لأن يسمعوا الشائعة ذاتها ويديروا المفتاح قبل سماع تفنيدها. وبشكل عام توجد

بعض القواعد العامة التي تقدم ملاحظات دقيقة يمكن الاستفادة منها والاسترشاد بها في السيطرة على الشائعات وأهمها:

- الإيمـان والثقة بالبلاغـات الرسمية ووسائل الإعلام التي تمنح الجماهير الثقة.

- عرض الحقائـق علـى أوسع مدى وسبيـل ذلك استخدام الصحـف والإذاعة والتلفـاز أفضل استخدام في تقديم أكثر ما يمكن من الأنباء.

- الثقة بالزعماء والقادة وبالشخصيات المميزة.

- إن الملل والخمول ميدان خصب لخلق الشائعات وترويجها فالعقول الفارغة يمكن أن تمتلئ بالأكاذيـب والبطالة تخلق ألسنة لاذعـة، لذلك فـإن شغل الناس بما يعود عليهم بالنفع يساعد إلى حد كبير في مقاومة الشائعات.

- غالبـا ما تكون الشائعـات الهجومية المسموعـة نتيجة دعاية العدو، أما من يقوم بترويجهـا فهم أولئك الذيـن يعدون أعداء الوطـن، ولذا فإن النجـاح في كشف دعاية العدو بطريقـة واضحـة ومحاربة مروجي الشائعات بكل وسيلة.

وأخـيراً.. لابد أن نتذكـر بعض الأمور فالشائعة كما عرفنا مرض عضال ولاسيما عندمـا تسيطر علـى الأخبـار الصحيحة بحيـث يصعب الفصل بـين النبأ الحقيقي والشائعـة الملفقـة، فيحـار الناس فيما يسمعون وتختلط عليهـم الأمور، وهنا يبرز الدور الذي يجـب أن تلعبه وسائل الإعلام في التوعيـة التـي تمنع أعـداء المجتمع أن يخلقوا الشائعات ويروجوها على أهوائهم. ولكـن قـد يتسـاءل بعضهم عمـا إذا كنا نستطيع درء خطـر الشائعة قبل ترويجها؟ وسوف تكـون إجابـة أغلـب الباحثين في هذا المجال بـأن ذلك مرهون بإلقاء الضوء علـى الأحداث من خـلال وسائل الإعلام، ولكن الحقيقة أن الجـواب السابق ناقص، فوسائـل الإعـلام وحدها لا تكفـي لإنارة العقول وهي تؤدي دورهـا الإيجابي إذا ما تضافرت مـع مناهج الدراسة بحيث تدخل دراسـة الشائعات ضمن برامـج الدراسات الاجتماعيـة في المدارس والجامعـات، فالشبان الذين يعرفـون الشائعات يكونون أقدر على تحصين أنفسهم في مواقف كثيرة يكون فيها الدليـل غير مضمون، وذلك من خلال خلق الوعي اللازم لدى الشبان وغرس روح المناقشة لديهـم، وتعويدهم عدم تقبل الحلول الجاهزة والتنبـؤات التي لا تستند على الحقائق.

المراجع

١ – عالم الإشاعة والدعاية، د.مالك سليمان مخول، الدار العلمية للنشر، دمشق ١٩٩٣م.

٢ – الشائعات، ميشيل لويس روكيت، ترجمة: د.هشام دياب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٩م.

٣ – الشائعات وطرق انتشارها، متعب بن محمد الهماش، مجلة كلية الملك خالد، عدد كانون الأول – ٢٠٠٩م، السعودية.

٤ – علم النفس الاجتماعي، د.حامد عبد السلام، دار الفكر للنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م.





المعرفة والتقانة
جناحا القوة في عالم اليوم

د. قحطان السيوفي ❁

لطالما استخدمت المعرفة قديماً في تحويل الموارد المتاحة إلى خدمات وسلع وبشكل محدود. أمَّا اليوم وفي ظل ما سمي باقتصاد المعرفة لم يعد هناك حدود لدور المعرفة في تحويل الموارد.. لأن المعرفة أصبحت تخلق مواردَ جديدة، بل وتشكل المعرفة، بدورها الفاعل الحديث، أحد أهم عناصر العملية الإنتاجية مقارنة بالمدخلات المادية الأخرى وقد ساعد في ذلك التطور الكبير في العلوم والتقنية عملياً في تحقيق التراكم الرأسمالي ثم التراكم المعرفي

❁ وزير المالية الأسبق في سورية.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

خاصة في الدول الصناعية المتقدمة والذي تجسد في تقانة الاتصال وثورة المعلومات ونحن كعرب بحاجة لاقتصاد المعرفة لنأخذ مكاننا الصحيح في هذا العالم.

نجم عن ذلك مفهوم جديد للمعلومات والمعرفة في اقتصاد جديد سمي باقتصاد المعرفة المتسم بثقافة التقانة الرقمية والذي تأسس على رأس المال البشري والثقافة المعلوماتية.. حيث تشكل (المعرفة) المكون الأعظم من القيمة المضافة وإن إضافة المعرفة إلى الاقتصاد تعطي مكوناً أساسياً في العملية الإنتاجية على أساس تقانة المعلومات والاتصالات.

جناحا القوة في العالم

إن جناحي القوة في هذا العالم اليوم يتمثلان في التقانة والمعرفة. وثمَّة نوع من التناسب الطردي بين المعرفة وامتلاك القوة بمعنى آخر يرى بعض الباحثين أن مصدر القوة. الآن أصبح يكمن في المعرفة ولابدَّ لأي شخص في هذا العالم أن يلم بقدر مناسب من المهارات؛ حتى يستطيع التفاعل مع البيئات التي يعيش فيها.

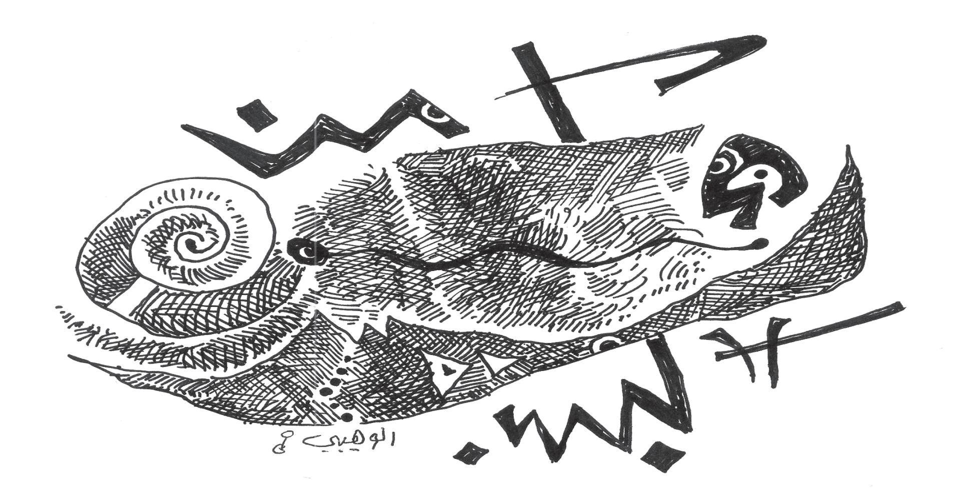
يمكن التمييز بين نوعين من الاقتصاد: اقتصاد المعرفة المبني على المعلومات بالكامل كون المعلومات عنصراً رئيسياً في العملية الإنتاجية وتشكل أساليب الإنتاج وفرص تسويقه مجالات المعلومات وتقنياتها. وربما المقصود بالمعلومات هنا الأفكار والبيانات DATA والبحوث العلمية والمهارات... وهذا الشكل من الاقتصاد يسمى اقتصاد المعلومات أو الاقتصاد الرمزي (أو اقتصاد مابعد الصناعي).

النوع الثاني: **هو الاقتصاد القائم على المعرفة والمعلومات والمختلط بتقنيات الاقتصاد التقليدي**. وهذا النوع من الاقتصاد تلعب المعرفة دوراً هاماً في خلق الثروة، ويتسع حجم ومساحة المعرفة لتصبح أكثر عمقاً وفاعلية مما كان معروفاً سابقاً.

يوجد فارق كبير بين هذين النوعين من الاقتصاد ولكنهما يشتركان في ضرورة توافر رأس المال البشري (أي خبرات ومهارات الموارد البشرية) وأيضاً توافر ثقافة المعلومات بمعنى آخر توافر وتطبيق التقانة الفائقة أو البحث والتطوير والعقول البشرية الذكية.

التحرر من إشكالية الندرة

في اقتصاد المعرفة هناك تحرر من إشكالية الندرة (تلك المشكلة التي عاش لها وبها عالم الاقتصاد) إذ لا يتوافر في المعلومات ولا في المعرفة عموماً عنصر الندرة. بل إنهما عملياً يزدادان بشكل طردي مع الاستخدام... فاستخدام المعلومات يولد المعلومات، واستخدام المعرفة يولد



المعرفة ويستطيع المكون المعرفي الإفلات من القيود الاقتصادية العامة.. وابتكار أنماط جديدة من الطلب عليه. وبالتالي فإن ثمة فوارق موضوعية بين هذين النوعين من الاقتصاد:

- اقتصاد المعلومات يشكل اقتصاداً مستقلاً بشكل كامل عن الاقتصاد التقليدي ويظل حكراً على الدول المتقدمة.

- الاقتصاد النمطي القائم على المعرفة بعد التطوير، يؤدي إلى تطوير المجتمع ولا يمكن لدولة معينة أن تحتكره.

المعرفة قوة

يبدو أن **حروب المستقبل ستكون حروب المعرفة والعلوم**، لأنها حروب السيطرة والقوة والسيادة. لذلك بدأت الدول تحدث مراكز تجسس ذات طابع أمني علمي لضبط التطورات العلمية العالمية كباب من أبواب القوة والحضور العالمي.. فالحجم لم يعد هو الأساس: هناك شركات صغيرة ولكن مدخلاتها من العلوم والمعرفة والتقنية تقدر بالمليارات.

الحرب بين الصين وشركة (غوغل) أنموذج لذلك حيث تبين أن الشبكة العنكبوتية فرضت نفسها كأداة معلوماتية هامة جدّاً أسست لنوع من الصدام بين القوى العالمية وتحول هذا الصدام أو الصراع التكنولوجي إلى نوع من الصدام الحضاري ذي البعد الاقتصادي وحتى السياسي. لأن عنوان الصراع السياسي هذا محاولة إيقاف الهيمنة الأمريكية على الشبكة المعلوماتية... وإذا سلمنا أن المعرفة قوة فإن من يتحكم في تدفق المعرفة عبر النسيج العالمي سيكون

المنتصر وصاحب القرار في أية مواجهة رقمية مستقبلية.

لمحة تاريخية:

في ثمانينيات القرن الماضي أصبح الحاسوب من ضرورات الحياة العملية وأحدث ذلك في نهاية القرن الماضي تغييراً في أساليب إجراء العمليات التجارية والمعاملات اليومية وجاء العقد الأول من القرن الواحد والعشرين متميزاً بظاهرة الإنترنت التي تطورت بسرعة لتصبح إحدى القوى المؤثرة في تغيير العالم من حولنا ولعلَّ أهم ما أحدثته تقنيات الإنترنت من تغيير هو تحويل الاقتصاد التقليدي إلى اقتصاد حديث يطلق عليه اليوم (الاقتصاد الرقمي) والاقتصاد الجديد ليس مجرد تجميع لمجموع الشركات بوساطة الكلمة المعروفة (dot com) وإنَّما هو بمثابة العمود الفقري للنظام الاقتصادي الشامل والكامل الذي يؤثر على كل مناحي الحياة.. وبفضل التقنيات والمعرفة تمَّ إيجاد الأسواق العالمية وتشجيع الاستثمار وازداد الإنتاج والتوزيع بكفاءة عالية... ولابد لأي شركة مهما كان نوع وحجم نشاطها أن يستوعب العاملون فيها قواعد النظام الجديد لتبقى وتحافظ على دور إيجابي في هذا العالم الذي يعتمد نظاماً اقتصادياً جديداً لعالم جديد يسمى بالعالم الرقمي أو عالم الأعمال الإلكترونية.

الهيمنة الأمريكية على الشبكة العنكبوتية

بعد سقوط الاتحاد السوفييتي سيطرت الولايات المتحدة سياسياً ولأول مرة في تاريخ البشرية على الكرة الأرضية لتصبح أمريكا الحكم والفاعل السياسي الكبير باعتبارها القوة العسكرية الأكبر وأيضاً القوة النووية الأولى في العالم. يقول (راموني) مدير جريدة (لوموند دبلوماتيك) (نظام الإنترنت نظام أمريكي يفرض على العالم ولا تقبل أمريكا نظام آخر لا تراقبه مهما كان متطوراً). والعديد من الدول أظهرت رغبة في إخضاع شبكة الإنترنت لاتفاقية دولية متعددة الأطراف على غرار شبكة الهواتف الدولية لكن الولايات المتحدة ترفض تقاسم السلطة أو التراخي حيال السيطرة الأمريكية على الشبكة العنكبوتية لأن وزارة التجارة الأمريكية تزعم أنها تخشى من احتمال صعود أو سيطرة قوى الديكتاتوريات لما يسمى كبح الحريات في دولهم كما تزعم أنها تخشى سيطرة البيروقراطيين الدوليين على شبكة الإنترنت من المعلوم أن (أيكان Ican) تعتبر أكبر محول لشبكة الإنترنت العالمية تخضع لسيطرة وزارة التجارة الأمريكية

كمـــا أن الإنترنـــت اختراع أمريكـــي في أيام الحرب الباردة وجـد لتسهيل الاتصال بين المسؤولين السياسيـــين والعسكريين لتجنب أخطـــار الهجمـــات النووية وقـــد مول من قبـل الخزينة الأمريكيـــة العامة في البداية ثـــم من القطـــاع الخاصـــ لتبقـــى الشبكة تحت رقابة أمريـــكا مباشرة لأن ثّمة خلفية أمنيـــة للإنترنت بالنسبـــة للولايات المتحدة الأمريكيـــة جعلـــت من الشبكـــة العنكبوتية أداة للهيمنة على الحلفاء والأعداء وهذا ما يثير معارضة الدول الأخرى وخاصة الدول الناشئة والنامية. من ناحية أخرى يرى بعض الباحثـــين أن الفجـــوة الرقميـــة بين القوى المهيمنة علـــى المعرفة والعـــالم الثالث تتجه للاتســـاع وهو ما ينذر بأشـــكال جديدة من الهيمنة.

حرب عربية إسرائيلية

المعلوماتيـــة لا تعتبر فقـــط أداة هيمنة وحرب بيد القوى الكبرى وبالتحديد الولايات المتحدة بل يرى المعنيون أن المعلوماتية بحدٍّ ذاتهـــا تعتبر ساحة للحـــروب والهيمنة ففي عـــام ٢٠٠٠م- ٢٠٠١م شهدنـــا نوعـــاً مـــن الحرب العربيـــة الإسرائيلية علـــى الشبكة العربيـــة العنكبوتية حيـــث عطل وخرب كل طـــرف ما استطاع من مواقع الطرف الآخر وقـــدر الباحثـــون عدد المواقـــع الإسرائيلية المخربة بأربعين موقعـــاً مقابل خمسة عشر موقعاً عربياً، أيضاً هناك الحرب المعلوماتية الدفاعية تشمـــل جميع الوسائـــل الوقائية للحد من عمليات التخريب ونظم المعلومات وكلمـــة الحد هنا لا تعنـــي المنع بشكل كامل ضـــد جميع الأخطـــار ويلاحـــظ أن تكلفة وسائـــل الوقاية أقل من حجم الخسارة التي تقـــوم تلك الوسيلة بالحمايـــة منها بالمقابل فإن تقـــدم وازدهار صناعة تقنية المعلومات مؤخراً أدى إلى تقدم صناعة أدوات التخريب المعلوماتية.

مـن يتحكـم في المعلومـة يتحكـم في العالم..

يرى الخبراء أن مـــن يتحكم في المعلومة يتحكـــم في العـــالم. توجد هنـــاك تخمة في المعلومات المفيـــدة وأيضاً المعلومات عديمة الجـــدوى، هنـــاك مـــا يسمـــى (الإغـــراق المعلوماتـــي) الذي ربمـــا لا يسمـــح أحياناً بالتمييـــز بالمقابـــل يقـــال إن آلـــة إنتـــاج المعلومات تفوق بكثـــير إمكانية القدرة على هضمهـــا فسيـــل المعلومـــات يتدفق ويجب التمعن والتدقيق والتحليل فالمعلومة ليست بالضرورة رديفـــاً للعلم والمعرفة، ولاشك أن التباين غير المتكافئ للمعلومات بين الشمال والجنوب من شأنه تعميق الفجوة والتبعية.

اقتصاد المعرفة يتطلب من العرب تشجيع البحث العلمي

نحن كعرب نعيش في عصر يتزايد فيه اعتماد الاقتصاد على المعرفة كما تتزايد وبالتوازي المعارف بسرعة ضوئية مذهلة لكن العرب وحتى تاريخه لم يتمكنوا -مع الأسف- من بناء قدرة ذاتية في مجال العلوم والتكنولوجيا يرافق ذلك عدم وصول المعارف والابتكارات إلى محتاجيها لعدم القدرة الذاتية للمحتاجين معرفياً من ناحية وقصورهم عن امتلاك وسائل تحصيل المعرفة والتقنية من ناحية أخرى، في حين تسيطر الدول الصناعية على البحوث والتكنولوجيا ولعلَّ من أهم مؤشرات تدني البحث العلمي في الدول العربية ما يلي:

- ضآلة الموازنات المخصصة للبحث العلمي في الوطن العربي بشكل عام أقل من ٢٪ من الناتج المحلي الإجمالي.
- ندرة البحوث في المجالات العلمية.
- تدني عدد براءات الاختراع المسجلة بأسماء باحثين عرب بالمقارنة مع دول أخرى.

وفي هذا المجال نقترح:

- أن تضع كل دولة عربية استراتيجية وطنية لأولويات البحث والتطوير عن طريق العلم والتكنولوجيا وربطهما بالحاجات العملية للوطن كالزراعة، التنمية الصناعية، البيئة، إلخ..
- التمويل الوطني عن طريق الموازنة العامة كتخصيص نسبة من ضرائب الشركات لتمويل صندوق خاص بالبحوث العلمية ذات الصلة بعملية التنمية. بالإضافة إلى المساهمة المباشرة لشركات القطاع الخاص.
- إعادة تقويم مؤسسات العلم والتكنولوجيا العربية بما فيها مراكز البحوث، الجامعات المتخصصة في العلوم والتكنولوجيا وذلك بوساطة خبراء وطنيين أو أجانب.
- مشاركة المجتمع العالمي من خلال برامج دورية للتعاون بين أكاديميات العلوم والتكنولوجيا العربية ومنها الأجنبية.

بمعنى آخر لابد من إيجاد شراكة فعلية بين الجهود الحكومية والجامعات والقطاع الخاص ومراكز البحث العربية بأنواعها لينخرط الجميع في عمل عربي مشترك هدفه تعميق البحوث العلمية والتقنية بما يخدم عملية التنمية القطرية والقومية.

إصلاح ودعم مراكز البحث العربية

بالمقابل وفي إطار دعم القدرات الذاتية في مجال العلوم للدول العربية لابدَّ من إصلاح ودعم مراكز البحث ليُصار إلى استخدام الموارد الوطنية والعربية بالشكل

الأمثــل وتطويــر الوسائل اللازمــة لتقييم الفوائد والمخاطر المرتبطة بإنتاج التكنولوجيا الجديــدة واستخداماتهــا لصالح الجمهور وبما يخــدم الحاجات المحليــة وخاصة في مجال تقــديم الخدمــات والاستشارات في مجــالات الزراعــة وإدارة الميــاه، الإسكان، والصحة، إلخ...

أيضاً يتوجــب على الدول العربية وضع سياســات تعليمية تراعي التطور العالمي في مجال التقنية والمعرفة وذلك على مستويات التعليم الأساسي والثانــوي والتعليم العالي لتحســين الأداء العلمــي والمعرفــة لمواجهة تحديات العصر بحيث يكون التقدم العلمي متناغماً مع متطلبات التنمية.

ثمــة سؤال هام كيــف تبنى العلاقة بين الحكومــات وقطــاع الأعمــال في التمويل والاستثمار والدخول في التعليم الخاص تحت مظلة واحــدة مع القطاع الحكومي لتحقيق توجهات الدولة واستراتيجيتها لتخدم الثورة العلمية الهادفة لتنمية الاقتصاد المبني على المعرفة ورفع المستوى الثقافي لأفراد المجتمع في الــدول العربية بشكل عــام وفي سورية بشكل خاص؟؟

التعليـم العـالي في خدمـة اقتصـاد المعرفة

كيــف يمكــن للمتطلبــات الاقتصادية الإقليمية أن تقوم بقيادة اقتصاديات المعرفة المحليــة ليكون التعليم العالي العربي المحفز الرئيسي لهذه العلمية.

في المشهــد العالمي للتعليــم العالي فإن المستقطبــين المهيمنين والمزوديــن للبرامج الإلكترونيــة العابــرة للحــدود والبحــث والتكنولوجيــا ونقلها هــم الولايات المتحدة وبريطانيا واستراليا ويمثــل هؤلاء الهيمنة الكونيــة مــن خــلال المؤسســات متعددة الجنسيات لقطاعات السوق العالمية (البنوك والتكنولوجيــا، العناية الطبيــة، السياحة، إلخ..) ماذا يعنــي ذلك؟ هذا يعني أن اللغة الإنكليزية هي المهيمنة وتقوم بترويج الأفكار الغربية الممارسات والمعايــير الثقافية لهذه الأسواق الرئيسية بالمقابل هناك دول أخرى الصين والهند وألمانيا وفرنسا. إلخ.. تتطور وتتحــرك إلى أعلــى في الترتيــب التعليمي والاقتصادي والعالمي.

ونــرى أن أولويات الجامعــات العربية يجب أن تتركز في:

- تطويــر أهداف اقتصاديــة وسياسية للتعليــم العالي على مستــوى الإقليم والبلد وفي كل جامعة.
- تعريف الدولية أو التدويل في كل قطاع سياسي وتعليمي عالي وتحديد استراتيجية لقطاع التعليم العالي.

- تحديد ما يمكن أن يجلبه المزودون الأجانب للدولة والذي يمكن أن يساهم في التنمية الاقتصادية وخلق نظام تعليمي عالٍ مستدام.

- تحديد الشروط للمزودين الأجانب لكي يعملوا في الدولة مع الإشارة إلى أن هناك حاجة للإنفاق على إعادة الاستثمار من الأرباح التي تجنيها البرامج.

لقد تمَّ **افتتاح العديد من الجامعات الخاصة والعامة في الدول العربية وفي سورية بشكل خاص ونحن نرى أن التعليم مكونٌ أساسيّ في بناء الأمة وأساسيات التنمية الاقتصادية والتغيير الاجتماعي** ولا بد من الحد أيضاً من انحسار الثقافة التقليدية، نحن أيضاً بحاجة لتحضير المواطنين لإدارة الأعمال في الوطن **والحد ما أمكن من الاعتماد على المهنيين والخبراء الأجانب** وبالتالي يجب العمل على تشجيع الاستثمار لتوفير أفضل فرص التعليم القادر على الاستجابة للاحتياجات المتغيرة والمتطورة للمجتمع **من دون أن ننسى القيم والثقافة الوطنية والقومية.**

أخيراً إن اقتصاد المعلومات أصبح بمثابة نوع من الاقتصاد الاحتكاري يتركز معظمه في الدول الصناعية الكبرى وقد بلغ حجم صناعة المعلومات أكثر من (٣) تريليون دولار اي ما يعادل (٦٠٪) من الناتج الإجمالي للدول الصناعية.. وهذا مؤشر على اتساع الفجوة بين الدول المتقدمة وبين الدول النامية والفقيرة في امتلاك المعارف ومعدلات استهلاك التقانة الرقمية.. لذلك لابد للدول العربية أن تبادر للاعتماد على الاقتصاد المبني على المعرفة؛ وهذا يحتاج للمزيد من الوقت للدراسة والبحث.





الروائي الإنكليزي غراهام غرين...
أكثر أدباء الغرب مناهضة للسياسة الأمريكية

ترجمة: رافع شاهين*

عاشـر حياته حرّاً طليقاً يتخطى الحواجز الإقليمية ويتسامى عن النظم الاجتماعيـة ويتخلـى عن المذاهـب العقائدية، من أجـل أن يصل إلى قلب الحقيقـة، فهو يبحث عن المتاعب ليعايشها ويناقشها، وعن الفشل ليقتحمه ويفنـده، وعـن الخطيئة ليحللهـا ويعريها بعيـداً عن المؤثـرات الإقليمية والاجتماعية والدينية، ولهذا فهو لا يدين بالولاء لوطن أو إقليم، ولا يتمسك بفكـرة سياسية أو اجتماعيـة، ولا يرتبط بمذهب دينـي أو عقيدة روحية

* ناقد ومترجم سوري.

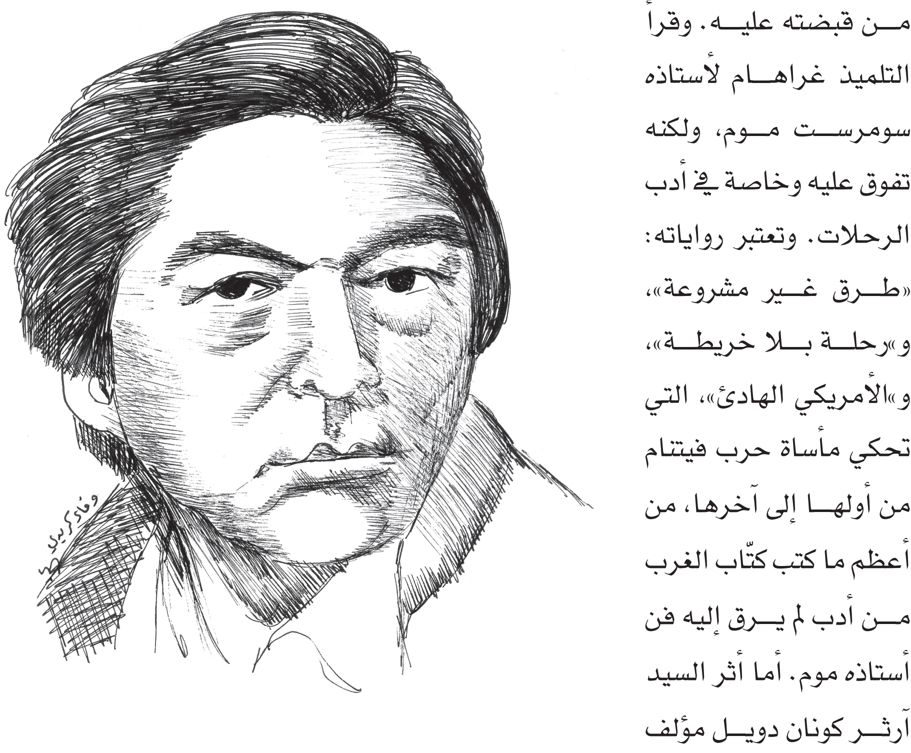
العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

بعينها رغم تعاطفه مع الكاثوليكية المسيحية وكذلك مع الشيوعية في بعض مبادئها.

برز غرين في الكتابة الأدبية والسياسية والصحفية. فقد كتب ما يزيد عن ٦٠ كتاباً، شملت كتابات غرين القصص، والقصص القصيرة وكتابات عن السفر، مسرحيات، ومقالات، وكتب سيرة ذاتية وقصص أطفال وقد تحولت معظم كتاباته إلى أعمال سينمائية ناجحة. وقد استوحى غرين قصصه من رحلاته الكثيرة، ويعتبر غرين آخر العمالقة وقد علمنا كيف نفهم أولئك الذين هم أقل حظاً اقتصادياً واجتماعياً كما علمنا كيف ننظر إلى بعضنا البعض بعيون جديدة، وسيظل غرين نموذجاً للأدب الكامل وسيبقى شاهداً بليغاً على إنسان القرن العشرين بوعيه وقلقه، وعلى الرغم من أن غرين حاول أن يحتفظ بحريته فلقد ظل قلقاً إزاء عدد من القضايا ويعكس انتقاله من البروتستانتية إلى الكاثوليكية ومن الشيوعية -حيث كان عضواً في الحزب الشيوعي لفترة قصيرة في مطلع شبابه- إلى العمل مع المخابرات البريطانية والغربية ثم مساهمته مع اليسار في نضاله ضد السياسة الأمريكية... كل هذا يعكس قلقه الفكري.

ولد غراهام غرين في اليوم الثاني من شهر تشرين الأول عام ١٩٠٤م في قرية بالقرب من لندن، وكان والده روبرت ستيفنسون أحد أعلام أدب المغامرة مديراً لمدرسة، فترك القرية خلوة البيت وسكن بداخلية الطلاب الذين أذاقوه المر.. وكان بالنسبة لهم -رغم أنفه- عميلاً مزدوجاً. وكان مخرجه الوحيد إلحاق الأذى بالنفس عبر محاولات انتحار عديدة تفاوتت بين ابتلاع كميات كبيرة من حبوب الأسبرين وبين لعب الروليت الروسية. وقد لعبت الطبيعة الوراثية والتطبيع التأثيري دوراً حيويّاً في تشكيل حياته منذ الطفولة، ورث عن أبيه حب الكتابة والتأمل، وتعلم من قراءاته ومعاملاته الشك والمغامرة والتحدي وجمع المتناقضات. فحبه للحياة علمه المغامرة، وسلوكه الحميد عوده على التشكك، ودعابته المعهودة دفعته إلى البحث عن المتاعب.

تعلم الصبي كثيراً من قراءاته في روايات: سجين زندا، وكنوز الملك سليمان، وتأثر كذلك بروايات الكاتب البولندي الأصل جوزيف كونراد وخاصة: قلب الظلام التي تدور أحداثها في قلب القارة الأفريقية السوداء، فاستوحى منها القدرية واستمد منها حب السفر إلى أفريقيا، واقتبس منها عنوان روايته: قلب القضية (١٩٤٨م)، ونظراً لتأثره الشديد بأدب كونراد فقد ظل قرابة ثلاثين عاماً بعد ذلك لا يقرأ له حتى يفلت



مــن قبضته عليــه. وقرأ التلميذ غراهــام لأستاذه سومرســت مــوم، ولكنه تفوق عليه وخاصة في أدب الرحلات. وتعتبر رواياته: «طــرق غــير مشروعة»، و«رحلــة بــلا خريطــة»، و«الأمريكي الهادئ»، التي تحكي مأساة حرب فيتنام من أولهــا إلى آخرها، من أعظم ما كتب كتّاب الغرب مــن أدب لم يــرق إليه فن أستاذه موم. أما أثر السيد آرثــر كونان دويــل مؤلف سلسلة روايــات شيرلوك هولمز في حياة غراهام فهو ليس بمستغرب، إذ يتضح من كتابته عن المغامرات.

إن فهم مواقفه هذه يتيح لنا فهم أعماله الأدبيــة الكثــيرة. هذه الأعمــال التي تبين كيف يظل غرين يبحث عن اليقين العقائدي مفضلاً حيوية الشك. وقبل سنوات قال: إن كل ما كتبه يمكن الرمــز إليه ببعض أبيات من شعر «براوننغ» تقول:

اهتمامنا ينصب على الطرف الحاد للأشياء

اللص الأمين القاتل الذي يذوب رقة

الملحد الذي يؤمن بالخرافة

فنحن نتفرج بينما هم يترنحون حفظاً للتوازن.

أنتجت لــه المطابع ما يربو على عشرين مليون نسخة من كتبه المتنوعة التي غزا بها العقول وشكل بها الأفكار لملايين القراء أكثر من أي كاتب معاصر آخر في القرن العشرين المنصرم، ومنذ أن اعتنق المذهب الكاثوليكي لم يستخــف بالقيم الدينية، بــل صبغ بلونه واتخذ منه مقياساً يقيس به سلوك الساقطين من البشر، كما اتخذ منه مصدراً قوياً لطلب الرحمــة الإلهية، ومن العجيــب أن رواياته المسرحة وأعماله المسرحية الأخرى لم تبرز

فيها موهبة مسرحية متأصلة، ورغم هذا فقد رشحه الكثيرون لنيل جائزة نوبل التي يستحقها في تقديرهم. وبينما حصل كل من بورخيس وبيكيت على هذه الجائزة العالمية لم يحصل عليها غراهام رغم ما قدمه للأدب العالمي من روايات ومسرحيات، ولكن يبدو أنه استبعد نظراً لعدم جديته وعدم ارتقائه إلى مستوى الجائزة، ذلك لأنه كان يجمع بين المتناقضات المعنوية غير المقبولة: المذهب الكاثوليكي والفكر اليساري المتطرف.

لكن غراهام يزعم أن اجتماع هذين العنصرين في أعماله يماثل الجمع بين وجهي العملة الروحية، فهو يعشق في الديانة المسيحية إحساسها بالسقوط الروحي وتحذيرها منه، ويخول الشيوعية الحق في أنه يكون لها وجه إنساني. وربما كانت ميوله الكاثوليكية هي التي حالت دون نيله الجائزة، فلا تمنح الأكاديمية السويدية جائزة نوبل لكاتب تنقسم أعماله إلى قسمين: قسم جاد والآخر كوميدي يحث على الجريمة ويحض على الفساد، وقد سئل غراهام قبل وفاته بعدة سنوات: لماذا لم تحصل على جائزة نوبل؟، فأجاب قائلاً: «إنني أنتظر جائزة أرقى منها، ألا وهي الموت»!

وتتسلط على كثير من أعمال غرين فكرة الجحيم، وهذه الفكرة نابعة من واقع الحياة العصرية في القرن العشرين التي يعيشها من خلال رحلاته أثناء الحروب والثورات والكوارث في كثير من بلدان العالم التي جابها. ويقول غرين عن رحلاته: «إنني أسافر إلى مسارح الأحداث لأرى بعيني رأسي المسرح والحدث لأصفهما، فلا يمكنني أن أبدعهما من وحي خيالي». والحقيقة أن غراهام غرين بارع في السرد الروائي، متميز في أسلوب الكتابة السينمائية، فصوره البلاغية تمتاز بدقة الإحساس ورقة التعبير، وحركة شخوصه تتواءم مع قوة المشهد. ولقد أنشأ لنفسه عالماً أسماه «الجنة الخضراء»، وهي ملاذ من الحياة في القرن العشرين التي تتميز بالاكتئاب النفسي والإباحية الجنسية والخيالية المفرطة. ومثل هذه الرؤية يعكسها في روايته «صخرة برايتون» فعصابة المراهقين الشيطانية تحركها دوافع الشر للقتل أكثر مما تحركها غرائز الاتصال الجنسي. وشخوص غراهام كما تقول مجلة (نيوزويك) في عدد ١٥ نيسان ١٩٩١م، تعيش في عذاب نفسي مستمر وتحيا في جحيم دائم، ذلك لأن مبدعها ومحركها متأثر بطفولته وشبابه، فقد دخل وهو في سن السادسة عشرة المصحة النفسية للعلاج، فوجد فيها «جنته المنشودة» التي تحقق فيها أحلامه. وهذه الجنة المنشودة تلقي ظلالها

على «جنته الخضراء» التي تزخر بها أعماله الأدبية.

ومن المتناقضات في عقيدة غرين كما يقول نقاده: أنه ربح كثيراً من التصاقه بالكنيسة، وربح كثيراً أيضاً بابتعاده عنها. استمد شهرته من محاولته الصادقة نقل صورة المجتمع البريطاني الفكرية إلى رواياته المسرحية التي علم من خلالها جيلاً من القراء البريطانيين حب النظر إلى المثالب والخطايا بعد الاستسلام للخوف والفشل، والدراسة المتشككة لما تحت السطح من أمور الحياة اعتقاداً منهم بأنها من عناصر العقيدة الدينية. ويتمشى في نظره مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في روما. والغريب في كتابات غراهام أنها تحافظ على ما اكتسبه في طفولته من كراهية للأقوياء وتعاطف مع الضعفاء. يظهر هذا في قول بول غراي في مجلة Time International، ١٥k April، ١٩٩١: «من أكثر ما نجح فيه غرين عالمياً هو احتفاظه بطابع أملته عليه ظروف طفولته: بغضه للأقوياء -وهو ما يظهر في معارضته المتزايدة لقوة الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية- وتعاطفه مع الضعفاء، ومنهم فيدل كاسترو وكيم فيلبي رجل المخابرات البريطاني الذي اشتهر بتجسسه على الاتحاد السوفييتي ثم بتحوله للتجسس لصالحه».

وعلى أي حال تخرج غرين في جامعة أكسفورد في عام ١٩٢٦م والتحق بجريدة تايمز في لندن. وبعد عام واحد التقى بفتاة كاثوليكية المذهب تدعى فيفيان ففتن بها وتحول من مذهبه الإنجيلي المسيحي إلى مذهبها الكاثوليكي. تقول فيفيان التي تصغره بعام واحد في صحيفة صنداي تلغراف، عدد نيسان ١٩٩١م: «لم أتزوج روائياً غنياً أو مشهوراً أو ناجحاً في ذلك الوقت، ولكنني تزوجت صحافياً صغيراً يشق طريقه بصعوبة. كنَّا فقراء، فلم تكن تتضح أمام زوجي معالم الطريق بعد. أما الآن فثروته التي تركها من الأدب بعد وفاته تزيد عن عشرة ملايين من الجنيهات الإسترلينية.. وعندما تزوجنا كان يزمع كتابة روايتين في وقت واحد عن قصة زواجنا. وصدرت باكورة إنتاجه الأدبي، رواية الإنسان الذي بداخله (١٩٢٩م)، التي لقيت نجاحاً ملحوظاً، تحولت بعده إلى فيلم سينمائي. وكان عليه أن يكرر التجربة خاصة وإن السينما بدأت تواكب ميلاد غرين الأدبي. فتعلم من تجربته في الحقل السينمائي الاقتصار في السرد واللقطات السريعة والمشاهد المنفصلة والحوار المتداخل. وتطبع في إنتاجه الأدبي بهذا الطابع السينمائي. وقبل أن يترك

جريدة التايمز صدر لــه كتاب آخر بعنوان «معنى العمل» (١٩٣٠م). ثم انتقل إلى مجلة Spectacular وعمل بها حتى عام ١٩٣٩. وفي هذه الفــترة صدرت له مــن الروايات والكتــب: قطار استنبول (١٩٣٢م)، وصخرة بريتون (١٩٣٨م)، والعميل السري (١٩٣٩م). وقد أهلته روايته الأخيرة لأن يعمل في وزارة الخارجية البريطانيــة منذ اندلعت الحرب العالميــة الثانية في عــام ١٩٣٩م حتى عام ١٩٤٤م. وشهدت هذه الفــترة رواجاً هائلاً لرواياته: السلطة والمجــد (١٩٤٠م)، وزارة الخوف (١٩٤٣م).

وعندما اعتــزل الخدمة آثر الحرية في الكتابة علــى التقيد بالروتين وانطلق هارباً من الملل والعمــل في الدوائر الحكومية إلى عالم الخطيئة والوحشيــة والبوهيمية، وهو العالم الــذي طالما اشتاقت روحــه للوصول إليه. ترك وطنــه بريطانيا ليواجه المخاطر والأمراض أينما كانت وفي أي وقت أتيحت له الفرصة لمواجهتها: في أفريقيا وفي المكسيك وفي الهنــد الصينية (جنوب شرق آسيا) وفي كوبــا وهايتي وأمريــكا الوسطى، وكلها من دول العالم الثالــث. وفي هذا العالم الوحشي الفقير لم يواجــه الموت بل على العكس وجد فيه الحياة، الحياة الأدبية: يتخذ من أرضها وجمهورها خلفيــة لرواياته أو كتاباته، ومن شخصياتها أبطــالاً لرواياته، ومن ظروفها منابر للدفــاع عنها ضد قوى البطش، حتى بلغت حصيلته ما يزيــد على خمسين كتاباً ما بــين روايــة ومجموعة قصصــ قصيرة ومسرحيــة وأدب الرحلات ومقالة وترجمة ذاتيــة وترجمة وسيرة للأبطــال ومجموعة قصصية للأطفال.

وفي نهاية دراستــه التاريخ في أكسفورد (١٩٢٥م) نشــر مجموعــة شعريــة بعنوان «نيسان ذو الخرير» تحدث فيها عن «الوحش ذي الحدبتــين الذي يــدب في رأسي»، وفي قصيدة بعنوان «المقامرة» التي سيحولها إلى قصة بعنوان «المسدس في الخزانة» يقول:

أضع المسدس في رأسي
وأجذب الزناد
هل سيأتي الضباب والموت
في انحناءة هذا الدرب ذي الشمس الغاربة؟
أو هل ستقوى الحياة باقتراب الموت؟
كلاهما ربح
إنها لمقامرة لا أستطيع أن أخسرها.

واستمر القلق يــلازم كل أعماله الأدبية بعد ذلك.

أمــا علاقتــه بالشيوعيــة لا تخلو من التناقضــ. وصفها بيير غرين ويرسثرون في جريــدة صنداي تلغراف في عددها الصادر ٧ نيســان ١٩٩١م، فقال: حــاول أن يدافع

غراهام عن الشيوعية ويغسل خطاياها مستغلاً السهولة التي ينخدع الناس في فهمها، ولكن حين اضطر إلى التعرض للدمار الذي أحدثته في أوروبة الشرقية، لقد كان الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه من الشيوعيين بما فيهم من خطايا أملاً يسعى لزيارته ولو لفترة وجيزة.. إجازة قصيرة يقضيها في جحيمهم. شاهد تجربة المكسيك في التطبيق الاشتراكي الشمولي ولكنه اكتشف خواءها الروحي كما ظهر ذلك في روايته «السلطة والمجد» وحمل على الاتحاد السوفييتي لسوء معاملته للمنشقين والمخالفين في الرأي، وكانت النتيجة أن منع السوفييت دخول كتبه إلى بلادهم. وكشف في روايته «الأمريكي الهادئ، الهزليون The Comedians» أساليب الكذب والخداع التي دستها الشيوعية في العالم الحديث. ورغم هذا كان لا يتورع عن الدفاع عنها عندما احتدمت نار الحرب الباردة بينها وبين الرأسمالية.

وكثيراً ما دافع عن فيدل كاسترو باعتباره أحد المخلصين من الشيوعيين. وفي أواخر أيامه أطلق لقلمه العنان في التعبير عن مبدئه المعادي لأمريكا، هو السبب الذي أدى إلى إفساد الكثير من العقول المبدعة كما يقول ويرسثرون في المجلة نفسها.

عرف غراهام كثيراً من جرائم الشيوعية، ولكنه تصدى للدفاع عنها باعتبارها جرائم ذات أهداف نبيلة. يقول الدكتور مارغوت أحد شخوص روايته «الهزليون»: «ارتكب الشيوعيون جرائم عديدة، لكنهم على أقل تقدير لم يقفوا مكتوفي الأيدي كما تفعل بعض المجتمعات الأخرى». والحقيقة –والحديث مازال لويرسثرون– أن الشيوعيين أصبحوا أعظم مجتمع تتفشى فيه جرائم التآمر. ولكن غرين كان من الحنكة بحيث لا يفسد رواياته فيسخرها للدعاية للشيوعية.

ومن المتناقضات في حياته الاجتماعية أنه مات في شقته المتواضعة ذات الغرفتين في جنيف بسويسرا بعيداً عن ابنته، وكان قد انفصل منذ زمن بعيد عن زوجته من دون طلاق. تقول فيفيان التي تدير متحفاً للمقتنيات القديمة أسسه لها غراهام منذ عام ١٩٤٤م: «كان غراهام كريماً للغاية، عرف عنه حبه المفرط لمساعدة الكتّاب الناشئين، بالرأي والمشورة والمال إذا لزم الأمر، كما حدث مع الروائية موريل سبارك. وكان يهوى اقتحام المخاطر ويحب المغامرة ويعشق الترحال والسفر ويركن إلى مخالطة النساء، وكان يسعى بطبيعة الحال إلى الحصول على المال بطريقة عزيزة على نفسه ولم يعرف عنه أنه كان جشعاً قط».

قال عنه السير وليام غولدنغ الحائز على جائزة نوبل: «كان غراهام غرين نسيج وحده، وستبقى رواياته أنموذجاً للأدب الكامل، فهو شاهد بليغ معبر عن إنسان القرن العشرين بوعيه وقلقه». وقال عنه أوبرون واف رئيس تحرير مجلة Literart Review: «إنه آخر العمالقة.. لقد علمنا كيف نفهم أولئك الذين هم أقل منّا حظاً اقتصاديّاً واجتماعيّاً، كما علمنا كيف ننظر إلى بعضنا البعض بفكر متجدد.. وسيظل تأثيره خالداً خلود الدهر».

بعد مجموعة من رواياته المختلفة الأهمية نشر غرين روايته التي حققت له الشهرة العالمية «القوة والمجد» (١٩٤٠م) ونال جائزة «هوتورندن» واعتبرت بإجماع النقاد عمله الروائي الأهم. كان محور الرواية العلاقة التي كانت تقلقه بين السلطة والدين. واختار المكسيك مسرحاً لأحداث الرواية حيث الهوة واسعة في العلاقة بين السلطة والدين، وبطلاها ضابط وكاهن، اختارهما لأنموذجين عامين لفكرتين متصارعتين على الرغم من تحديد شخصية كل منهما، فالضابط هنا ليس أي ضابط، والكاهن ليس أي كاهن، إلا أن أيّاً منهما لا يتجاوز إطار موقعه إلا من حيث التفاصيل الشخصية.

أما لماذا اختار تلك البقعة من المكسيك، فلأن تلك المنطقة، بعيدة عن العمران وخطوط المواصلات، صارت مثالية لهذه المواجهة بين العالم المتمدن والعالم البدائي، كما وصف غرين تلك المواجهة في ليبيريا. إلا أن المتدين في «القوة والمجد» هو البدائي هنا، وليس الوثني كما في ليبيريا. اتضح له بعد ذلك أن العلاقات الإنسانية الحقيقية في أساسها لا تختلف كثيراً بين مكان متقدم وآخر متخلف، إلا في الشكل.

استعمل الكاتب القصة البوليسية ليمنح هذا الصراع العقائدي التوتر الدرامي اللائق به لذلك كان الحدث مطاردة طويلة الأمد تتوسطها ثلاثة لقاءات أساسية مرتبة بصورة ما بين البطلين، مرة في قرية التجأ إليها الكاهن، وأقام قداساً، ومرة في السجن حيث يكون الكاهن معتقلاً بتهمة السكر، وثالثة يوم تنفيذ عقوبة الإعدام بالكاهن وغرين لم يجعل الكاهن قديساً بالمعنى الشائع، بل هو قديس من نمط خاص لا يتورع عن الإثم. وفي مقدمة لإحدى الطبعات المتأخرة لهذه الرواية يقول غرين إن قراءاته في التاريخ الديني علمته أن الإنسان يجب أن يتميز بمسعاه، وكاهنه لم يفشل في كبح شهواته كلها ما دام ضميره لا يقف على الحياد.

أخذ النقاد على غرين ضعف الحوار أحياناً، لكن بناء بعض رواياته تميز بقدرة

فنية جديدة في ربط أجزائها المتقابلة وكذلك بناء الشخصيات التي يشرح بعضها الآخر. أما الأحداث فهي مثيرة.. حيث الوصف الذي يقترب من التحقيق الصحفي، وشخصياته على الأرجح نماذج حية أعيدت صياغتها بحسب موقعها في السياق السردي، وهو يأخذ على (مارسيل بروست) استخدامه ضمير المتكلم حين لا يكون شاهداً على الأحداث التي يسوقها، ولهذا نادراً ما يستخدم ضمير المتكلم، وأسلوبه بسيط.

عشق غرين أمريكا اللاتينية وجعلها مسرحاً لروايته: «القنصل الفخري» ١٩٧٣م.

غرين كان صديقاً لـ«كيم فيلبي»، وقد قدم لسيرته الذاتية «حربي الصامتة» على الرغم من أن «فيلبي» خائن في نظر البريطانيين. كما كان صديقاً شخصياً لفيدل كاسترو ولأورتيغا وتوريغوس حاكم باناما الذي كتب عنه «التعرف إلى الجنرال». وقد أدان الغزو الأمريكي لباناما قائلاً: «إن ما أتى به نورييغا من أفعال في باناما ليس أقل بشاعة مما فعلته واشنطن في أمريكا اللاتينية».

روايات غراهام غرين:

- الرجل من الداخل، (١٩٢٩م).
- معنى العمل، (١٩٣٠م).
- الشائعة عند هبوط الليل، (١٩٣١م).
- قطار استانبول، (١٩٣٢م).
- هذا ميدان المعركة، (١٩٣٤م).
- انكلترا صنعتني، (١٩٣٥م).
- مسدس للبيع، (١٩٣٦م).
- صخرة برايتون، (١٩٣٨م).
- العميل السري، (١٩٣٩م).
- السلطة والمجد، (١٩٤٠م).
- وزارة الخوف، (١٩٤٣م).
- جوهر الأمر، (١٩٤٨م).
- الرجل الثالث، (١٩٥٠م).
- الصنم الذي هوى، (١٩٥٠م).
- نهاية علاقة، (١٩٥١م).
- الأسر يكسب كل شيء، (١٩٥٥م).
- الأمريكي الهادئ، (١٩٥٥م).
- رجلنا في هافانا، (١٩٥٨م).
- النهاية، (١٩٦١م).
- الهزليون، (١٩٦٦م).
- رحلات بصحبة عمتي، (١٩٦٩م).
- القنصل الفخري، (١٩٧٣م).
- العنصر البشري، (١٩٧٨م).
- دكتور فيشر، (١٩٨٠م).
- دون كيشوت، (١٩٨٢م).
- الرجل العاشر، (١٩٨٥م).



أبو الطيب المتنبي وفيكتور هيغو:
أفضل أشعارهما في الحكمة وفلسفة الحياة

❁
إبراهيم سلوم

إن كان أبو الطيب المتنبي مفخرة العرب فإن فيكتور هيغو هو مفخرة الفرنسيين. فكلاهما نبغ شعرياً بشكلٍ لم يسبق له مثيل في التاريخ. وكلاهما استنفد الإمكانيات البلاغية للغة حتى آخر ذرة وحتى آخر قطرة. فالصوت الضخم الذي يمثله أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي لا يقابله إلا صوت الشاعر الفرنسي فيكتور هيغو في اللغة والتاريخ والشعر.

❁ مترجم وباحث سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

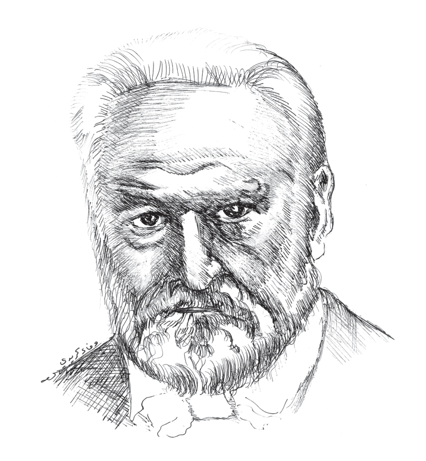
كان المتنبي من كبار شعراء العرب في القرن العاشر للميلاد (٩١٥-٩٦٩م)، شجاعاً، طموحاً، محباً للمغامرات، وكان أفضل شعره في الحكمة وفلسفة الحياة والفروسية ووصف المعارك وبصياغة قوية محكمة كما فعل من بعده الشاعر الفرنسي فيكتور هيغو الذي عاش في أوائل القرن التاسع عشر، والذي امتازت مؤلفاته أيضاً بقوة المخيلة وتنوّع الألفاظ وغنى الوصف ووصف المعارك الحربية كتلك المعركة العسكرية الخاسرة التي خاضها نابليون بونابرت على روسيا، فكان خير خلف لخير سلف. وهذه المؤلفات كانت متعددة الأشكال، منها ما هو شعري مثل: الشرقيات (١٨٢٩م)، أوراق الخريف (١٨٣١م)، أغاني الأصيل (١٨٣٥م)، الأصوات الداخلية (١٨٣٧م)، الأضواء والظلال (١٨٤٠م)، العقاب (١٨٥٣م)، التأملات (١٨٥٦م)، وأسطورة القرون (١٨٨٥م).

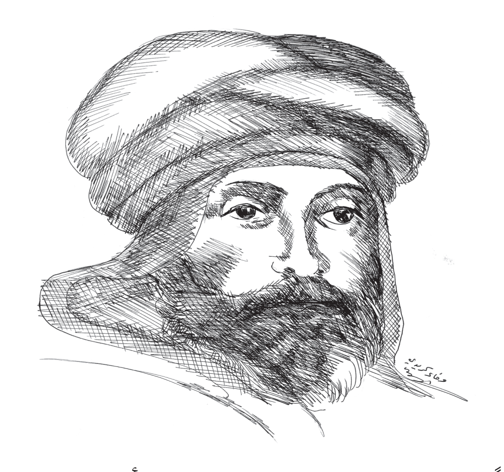
ومنها ما هو روائي مثل: سيدة باريس (١٨٣١م)، البؤساء (١٨٦٢م)، هيرناني (١٨٢٩م). وأخيراً ما هو مسرحي مثل: مقدمة كرومويل (١٨٢٧م)، ماريون دولورم (١٨٣١م)، الملك يتلهى (١٨٣٢م)، ماري تيودور (١٨٣٣م)، روي بلاس (١٨٣٨م).

واللافت للانتباه هو أن صورة فيكتور هيغو أخذت منذ بضع سنوات تظهر فجأةً على صفحات المجلات والجرائد الكبرى في فرنسا. وكانت البداية في العام ٢٠٠٢م مع حلول الذكرى المئوية الثانية لولادته حين شرعت فرنسا بإعداد برنامج تكريمي خاص بشاعرها الفذّ وكاتبها العملاق الذي وُلد في العام ١٨٠٢م بمدينة بيزانسون الفرنسية الواقعة على مقربة من الحدود السويسرية. وقد حمل هذا البرنامج التكريمي شعاراً أطلق عليه هذه التسمية: «كان هذا القرن في سنته الثانية»، في إشارةٍ إلى الكلمات الشعرية التي سبق أن استخدمها الشاعر في إحدى قصائده، وذلك بعد أن تجلى نبوغه، فلمع كاتباً وشاعراً ورساماً وسياسيّاً ذا رؤية أدبية.

كما تضمن البرنامج نشاطات أدبية متنوعة في مدينة باريس حيث أقيمت معارض لمجمل كتبه ورسائله. كما وُضعت صورة عملاقة له على واجهة مجلس الشيوخ حيث كان في أحد الأيام عضواً بارزاً فيه.

وفي مجال آخر كرّست مجلة «التاريخ» (هيستوريا) الشهرية الفرنسية عددها الصادر في تشرين الثاني من العام ٢٠٠٧م، بأكمله للشاعر فيكتور هيغو، و في أحد المقالات كتبت تقول: إن أشعاره محفورة في ذاكرتنا، وشخصياته الروائية أصبحت أشهر





مــن الشخصيات الحقيقية. لقــد كان أمةً وحده. فكل المعارك الأدبية والسياسية للقرن التاسع عشر الذي اخترقه من أوله إلى آخره تقريباً مرّت مــن خلاله أو تمحورت حوله. لم يكن شاعراً فقــط، وإنّما كان كاتباً روائيّاً ومسرحيّاً من الطراز الأوَّل، وهذا شيء نادر في عالم الأدب. وحسبنا أن نفكر ولو للحظة بروايتــه «البؤساء» التي تُرجمت إلى مختلف لغــات العــالم، وتحوّلت إلى فيلــم سينمائي أكــثر من مرة ولا تــزال. فضلاً عن أنه كان أيضاً مناضلاً سياسيّاً عنيداً ومؤمناً بسيادة الشعب وفكرة التقــدم. وقد دفع ثمن ذلك غالياً جدّاً عندما نفــاه الإمبراطور نابليون الثالث لسنوات عديدة إلى جزيرة «جيرسي» البريطانية الواقعة على مقربة من الشواطئ الفرنسية في بحر المانشــ قبل أن يعود إلى باريس ويُستقبل استقبال الأبطال الفاتحين.

ففيكتــور هيغو كان يعــرف أن للحرية ثمناً وأنهــا لا تُعطى لأحد مجاناً. وقد ناضل من أجل قضية الحرية لــه ولشعبه وللإنسانية بشكل عام، وضــرب على ذلك مثلاً يُحتذى به. يقول عنه البروفوسور «جيرار جنجمبو» الأستــاذ في جامعــة «كان» بفرنســا: «كان فيكتور هيغو يريــد أن يصبح قائد البشرية السائرة نحو التقــدم والنور والحرية. وقد كتــب مــا لا يقــل عــن ١٢٠٠٠ صفحة في مختلــف المجــالات الشعريــة، والمسرحيــة والروائيــة والسياسية، وكان في بداية حياته الأدبية يقول: إما أن أكون شاتوبريان العصر أو لا شــيء على الإطــلاق! وهذا دليل على مدى طموحه واعتــزازه بنفسه. وقد أصبح شاتوبريان وأكثر، هذا الأخير الذي كان يُعدّ بــدءاً من أواخر القــرن الثامن عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر أكبر كاتب فرنسي

في عصر هيغو الشاب. ثم جاء هيغو لكي يحل محله أو لكي يخلفه على عرش الأدب الفرنسي. في الواقع، إن من يتتبع سيرة حياة هيغو كشاعر وناقد وروائي ومؤرخ يستطيع أن يدرك بأنه ليس مجرد شخص بل إنه عدة أشخاص في كائن واحد. وهو الذي قالت فيه الكاتبة الأمريكية «آن أوبرسفيلد» في كتابها: «كلام عن هيغو»: قال هيغو كل ما عليه أن يقوله مرةً واحدة، ما يخصّه وما يخصّ الشعب، فحرّك ينابيع لغته جميعها.

في حديثه عن نفسه كان الشعب يتكلم.. إنه الشخص الذي يبقى، في نظر الفرنسيين أجمعين، الجسد والروح للوجدان القومي الفرنسي. لقد اختلفت الآراء حوله، فمنهم من وصفه بالولد المسرف أو بجوبيتر الهادر فوق صخرة حطمتها العواصف، أو بالنبي موسى الذي عارض يوماً ألواح الوصايا العشر، أو بالزوج الخائن الذي لا يشبع من مطاردة النساء.. فمن أين إذاً يجب أن نمسك به؟ إن الحديث عن هيغو يبقى أبداً بين السطور وفي مداد القلم، وهذا يعني – فيما يعنيه – أن شعره هو السحر الحلال، وإن في البيان لسحرا».

في مؤلفاته تناول المجتمع الفرنسي بكل شرائحه بدءاً من القاعدة وحتى القيادة مطالباً بحريته وكرامته فأصبح من أشهر الشخصيات الأدبية والسياسية في عصره. وقد أظهر حباً خاصاً للأطفال وكتب فيهم عدة قصائد داعياً إلى الاهتمام بالطفل ورعايته إلى أن يشتد عوده ويمسك زمام مصيره بنفسه، ومن أهمها قصيدة: «حين يظهر الطفل» التي تتطابق إلى حد كبير مع مضمون القصيدة التي كتبها من بعده الشاعر حافظ إبراهيم حين قال:

أنقذوا الطفل إن في شقوة الطفـ
ـلِ شقاءً لنا على كل حالِ
أنقذوه فربّما كان فيه
مصلحٌ أو مغامرٌ لا يبالي

ونظراً للشهرة الواسعة التي بدأ يحظى بها الشاعر هيغو كان من الطبيعي أن تظهر عدّة كتب تروي سيرة حياته، ومعاركه الفكرية والسياسية، فتعددت المؤلفات والدراسات والأبحاث التي تناولت أدبه وأفكاره، ومن أهمها الكتاب الضخم بعنوان: «فيكتور هيغو» الذي أصدره الكاتب الفرنسي المعاصر «ماكس غابو» الوزير السابق وصاحب الكتب المعروفة عن نابليون وديغول. إنها الشهرة نفسها التي جعلت بعض أهل الأدب في زمن أبي الطيب المتنبي وبعده يقومون بشرح دواوينه مثل صديقه عثمان بن جني (٩٤٢– ١٠٠٢م)، وهو نحوي من أهل البصرة، ويُعد من أحذق أهل الأدب

وأعلمهم بالنحو والصرف. أو مثل أبي البقاء العكبري (١١٤٣ -١٢٢٩م)، وهو لغوي من أهل بغداد وكان أعمى، قام بشرح ديوان المتنبي. وأخيراً جاء إبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦م) اللبناني الذي يعتبر من أئمة النهضة الأدبية واللغوية، والذي صنع بيده أمهات الأحرف العربية للمطابع، ونقّح نصوص العهد القديم التي ترجمها الآباء اليسوعيون من العبرية إلى العربية، ليؤلف وهو في مصر أهم كتاب عن المتنبي بعنوان: «العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب». باختصار نقول إنه حتى يومنا هذا لا يزال هذان العملاقان في الأدب العالمي ينالان قسطاً كبيراً من اهتمام الباحثين، ومقدّمي إطروحات الدكتوراه حول أفكارهما النيّرة التي كانت وما زالت منارةً تهتدي بنورها الأجيال على مرّ العصور.

وفي كتابه عن هيغو يتحدث ماكس غابو عن سيرة حياة الشاعر بدءاً من طفولته ١٨٠٢م وانتهاءً بوفاته في العام ١٨٨٥م عندما جرت له جنازة ضمن موكب رسمي وشعبي مهيب لا يحظى به إلا الرؤساء والملوك، موكبٌ امتد من قوس النصر وحتى قصر البانتيون في الحي اللاتيني بباريس، وقد اتخذ طابع العظمة التي تذكر بتأليه الأباطرة الرومان بعد وفاتهم، مشيراً إلى «أن والد فيكتور هيغو كان جنرالاً في جيش نابليون بونابرت. وبناءً على ذلك فقد قضى الشاعر طفولته متنقلاً في سلسلة من القواعد العسكرية في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا أيضاً.

في إسبانيا درس هيغو في مدرسة داخلية، لكن عندما عاد إلى فرنسا وجد أبويه على أبواب الطلاق، وهذا ما جعله يقضي معظم شبابه في ألم عظيم لانفصام العلاقة بين والديه. ولقد قرر على أثر ذلك، أن يستقل بنفسه عن الأسرة، فجاء إلى باريس، وسكن في حي «سان جرمان» الملاصق للحي اللاتيني حيث عاش حياةً لا تخلو من شيء من القسوة. فقد كان يكنس غرفته ودرجه بيده، ولا يذوق اللحم إلا مرة أو مرتين في الأسبوع. لكنه جاد في طموحه، لا يفارق إبطه الكتاب لأنه عازم على أن يكون شيئاً ما في عالم الأدب ودنيا الشعر. لقد عُرف عنه بأنه بدأ محاولاته الشعرية وهو في سن الثالثة عشرة من عمره. وكانت هذه المحاولات ذات مردود إيجابي بالنسبة له وذلك عندما منحته الأكاديمية الفرنسية جائزة في الشعر من دون أن تعرف سنه، وساعدته على نشر مجموعته الشعرية الأولى في سنة ١٨٢٢م. فكانت بداية شهرته، ونال عليها منحة سخية من الملك لويس الثامن

عشر مكّنته من الزواج من رفيقة صباه وحبيبته «أديل فوشيه». إذاً يمكننا القول: إن هذه المرحلة هي المرحلة التي نشأ فيها الشاعر ودخل معترك الحياة من بابها الأوسع».

هذا وتحكي سيرة حياته بأنه بدأ منذ ذلك الحين يحسّ بالتفوق وبالتعالي على الآخرين ويسعى إلى الشهرة معتقداً بأنه المثل الذي يجب أن يضيء الطريق للآخرين وكأنه بالمتنبي حين قال:

وإني لمن قوم كأن نفوسهم

بها أَنَفٌ أن تسكن اللحم والعَظْمَ

ثم يتطرق الكاتب غابو إلى مرحلة أساسية في حياة هيغو وهي المرحلة الممتدة بين أعوام (١٨٢٧ و١٨٣٠م) التي شهدت بروز الحركة الرومانسية في الأدب التي قادها الكاتب الشهير شاتوبريان. ففي سنة ١٨٢٧م نشر هيغو مسرحية «مقدمة كرومويل» التي أذنت بظهور الحركة الرومانسية، والتي تدل على أن هيغو تأثر تأثراً عميقاً بالأدب الإنكليزي. ولهذا السبب تبنى الثائر كرومويل بطلاً لمسرحيته هذه، وذلك تيمناً بهذا القائد الإنكليزي الثوري الذي ثار في منتصف القرن السابع عشر وبالتحديد في عام ١٦٥٣م ضد الملك شارل الأول، وأعلن قيام أوَّل جمهورية في انكلترا لم تعمّرّ سوى زمن قصير. لقد جاءت «مقدمة كرومويل» بمثابة البيان الهام والرسمي للمسرح الرومانسي. كما أن إعجاب هيغو بمسرح وليام شكسبير كان عظيماً. وقد سبق للشاعر أن ذكره مرات عديدة في دفاعه عن المسرح الرومانسي وهجومه على المسرح الكلاسيكي، واتخذه مثلاً واضحاً على المسرح الجديد الذي لم يتقيد بالوحدات الثلاث التي يعتمدها المسرح الكلاسيكي والمتمثلة بالمكان والزمان والعقدة. حتى إن النقاد يعتبرون «مقدمة كرومويل» مسرحية كتبت بحسب النهج الشكسبيري، ذلك أن هيغو لا ينكر ذلك عندما يكثر من الاستشهاد بمسرحيتي «عطيل» و«ماكبث» متخذاً منهما الدليل على ثورته ضد وحدة الزمان بشكل خاص. ثم عرضت مسرحية «هيرناني» بعد ذلك بعامين وعلى الرغم مما قوبلت به من استنكار وثورة من جانب الحضور المتعصب للمذهب الكلاسيكي في المسرح، فإن عرضها استمر لمدة طويلة. وعلى هذا النحو تأكد انتصار المذهب الرومانسي على المذهب الكلاسيكي، ومن ثم تعززت مكانة هيغو الأدبية.

في سنة ١٨٢٨م وهو في السادسة والعشرين من عمره تأكد اتجاهه الأدبي المتحرر. ولقد تلازمت هذه المرحلة مع

صدور ديوانه «الشرقيات» حيث أثبت براعة لا متناهية في مزاوجة الإيقاعات والنبرات، فجاءت قصائده مكتوبة بالإحساس الشرقي من حيث الصور والصياغات والحسّ الذي يؤطر الوقائع والأحداث.

يقول في قصيدة «حوار البحر والإنسان»: إن جزيرة مالطة تتمتع بليالٍ عذبة ورطبة في أيام الصيف الحارة. وأن نساء «قبرص» جميلات. كما أن تطوان المغربية عاصمة الضوء والغبار، وأثينا مدينة الحكمة وجبل طارق صخرة الحرية. وفي قوله: «إن السنونو رحلت والعشب يرتجف من البرد على السطح»، نجد النسيج الشعري مشرقي الهوية. وهذه كلها صور بلاغية طالعناها في الشعر العربي».

صحيحٌ أنه لم يرَ الشرق في حياته لكنه كان يقرأ عنه الكثير في كتب الرحالة الفرنسيين الذين وفدوا إلى الشرق المليء بالسحر والجمال وتحدثوا عنه في مؤلفاتهم وكتبهم وخاصة الرحالة الشهير جان فولني ففي ديوانه «الشرقيات» تحدث هيغو عن غروب الشمس وانعكاساتها على أخاديد الأرض، وعن الذكريات التي حملها معه من إسبانيا التي تأثرت كثيراً بالحضارة العربية. ولربّما اطلع الشاعر هناك على مؤلفات أبي الطيب المتنبي وتأثر بشعره مثلما فعل من قبله الشاعر الإيطالي دانتي حين كتب «الكوميديا الإلهية» مقتبساً فكرتها من كتاب «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري.

لقد صوّر في إحدى قصائده انجذاب الشرق نحو الغرب تمثله فتاة شرقية تنظر إلى الإنسان الغربي وكأنه مسند لها حيث يقول على لسانها: «أيها الشاب الأبيض الوسيم، يا عصفور السفر. تذكّرْ فتيات الصحراء اللواتي يرقصن حافيات على كثبان الرمال. لعلّ ذكراك تسكن في أكثر من واحدة فينا». وبهذه الطريقة في قرض الشعر يقدم لنا برهاناً على نسيج أشعاره التي تطورت انطلاقاً من نواة التضاد الصوري والبلاغي والجمالي.

ثم جاءت مسرحية «روي بلاس» في العام ١٨٣٨م تأسيساً وترسيخاً لفن مسرحي جديد ألا وهو الدراما الرومانسية. وهنا تبين أنه ليس من الضروري أن يكون بطل المأساة أرستقراطياً بل من الممكن أن يكون من أواسط القوم.

وليس شرطاً أن تكون المأساة خالصة الحزن لا تتخللها مشاهد مضحكة بل من الممكن أن يتعاقب فيها الضحك والبكاء، وأن يتناغم ما هو أسمى مع ما هو أدنى. وقد ساهم ذلك كله في أن يرتقي هيغو إلى مستوى رائد المذهب الرومانسي ويكون

معبود الجيل الصاعد من أدباء فرنسا أمثال: الفريد دوفينيه، وألكسنـدر دوماس، وآلان مريميــه، وسانت بوف، وجــيرار دونرفال، وتيوفيل غوتييه.

إن مثل هــذه العلامات البارزة للمذهب الرومانسي الجديد الــذي كان هيغو رائده أفضــت إلى بــروز مرحلة أخــرى في حياة هيغــو، ألا وهي مرحلة المجــد الأدبي التي تزامنت مع الأعوام ١٨٣٠ - ١٨٤٣م، والتي جعلت مؤلفات الشاعر في متناول الجمهور الفرنسي الذي هــام بها. من هنا لا بدّ من الإشارة إلى ديوانه الشعري «أوراق الخريف» الذي صدر في العــام ١٨٣١م والذي ساهم في ترسيــخ مكانة هيغــو كشاعر كبير يتمتع بمكانــة مرموقة وشهرة واسعــة في أوساط الجماهير، وكأنه يقول مع المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

مما جعله يثمــل بفضل هذه الإنجازات الأدبيــة التي جلبت له هذه الشهرة الواسعة ويضرب عرض الحائط التقشف في التعبير عن العشق والجسد والنزوات الحسية. وإذا وصفه بعضهــم بالعقل الشعري نتيجة لهذا النتاج الغنــي الكثيف والمتنــوع، فقد أجاز بعضهــم الآخر وصفه بغــول النساء أيضاً. وها هــو في سنة ١٨٣٤م يصرح بأن من حق كل إنســان أن يحب، بل لم يتورع الشاعر من أن تكون له عشيقة بشكل علني، الأمر الذي أثــار عليه نقمــة معاصريه أمثــال: ألفريد دوفينيــه، وسانــت بوف، لكنــه ظل مكملاً الشــوط الذي اختاره بنفســه حتى النهاية، متقلبــاً على أكثر من وســادة من دون أدنى شعــور بالحرج، لقد تزوج مــن أديل فوشيه ورزق منهــا أربعــة أولاد، لكــن عينه ظلت مركزة علــى الخارج، وإذا بعشيقته جولييت درويه تمثل السطور الأولى في ديوانه «أغاني الأصيل». لكن الزوجــة الشرعية لم تستسلم لهذا المصاب، فإذا بها تعيش المغامرة الحارة مع صديقــه الكاتب والناقد المشهور «سانت بوف».

لقد كانــت العواصــف الحياتية المؤشر للعواصــف الإبداعية لديه، فخاض الشاعر الرهانــات السياسية ضــد نابليون الثالث، وضد حزب «الكومونه» في باريس. وفي هذه الأثناء كان قد نشر ديوان «أغاني الأصيل» في العام ١٨٣٥م، وديوان «الأصوات الداخلية» في العام ١٨٣٧م و«الأضواء والظلال» في العام ١٨٤٠م. وعاجلــه موت ابنتــه «ليوبولدين» التــي كانت تتنــزه في زورق على نهر السين برفقة زوجها شارل فاكوري في العام ١٨٤٣م حيث قضت غرقاً ولم يستطع أحد إنقاذها. وهنا طفــح الإناء بالألم، فلجأ من جديد إلى

الكتابة التي هي ذاكرة الألم وذاكرة الجراح، وطفق يرثيها في معظم قصائده الوجدانية. ثم أعقب ذلك موت ثلاثة أولاد له آخرين. وكانت أوديل آخر من بقي له في ذريته. وبعد علاقة حب صاخبة مع النحات رودان أصيبت بالجنون وأنهت حياتها في مصحة عقلية. تأثر الشاعر كثيراً بما أصاب ذريته من آلام ومصائب مفجعة متلاحقة، مما أدمى قلبه كثيراً فجلس يندب حظه في بعض قصائده وكأنه يترجم ما قاله أبو الطيب المتنبي في هذين البيتين من الشعر:

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

في العام ١٨٤٥م حاول أن يعتزل الشعر الغنائي المسرحي، وأصبح هدفه تحقيق مكانة سياسية عن طريق الموالاة، فأصبح عضواً في «الجمعية الوطنية»، وحقق بذلك بعض الاستقرار العائلي والشعور المتعالي بالذات. لكن سرعان ما فوجئ في العام ١٨٤٨م بحل الجمعية الوطنية، ثم وجد نفسه في العام ١٨٥٢م بأمر صادر عن نابليون الثالث يقضي بنفيه بجزيرة جيرسي حيث بقي حتى العام ١٨٧٠م. لقد كان لنابليون حجة قوية في نفيه، حيث يُروى أنه بينما كان بسمارك بطل الوحدة الألمانية يحاول توحيد الدويلات الألمانية ظهرت نوايا نابليون الثالث في غزو ألمانيا، فبعث بسمارك برسالة إلى فيكتور هيغو بدأها قائلاً: «من عظيم ألمانيا إلى عظيم فرنسا». ثم رجا فيها الشاعر الكبير أن يوجه الشعب الفرنسي ضد نابليون الثالث وضد فكرة الحرب التي كان من المعروف أن هيغو من أشهر معارضيها. ولما بلغ ذلك مسامع نابليون الثالث اعتقل فيكتور هيغو وقام بنفيه بعيداً عن فرنسا. فهاج الشعب الفرنسي هياجاً شديداً، مما اضطر نابليون إلى أن يرسل رسالة بخطه جاء فيها: أنه عفا عنه. أليست تلك الظروف نفسها التي كان قد عاشها المتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني مع ما طرأ عليها من تقلبات حادة على سير حياته.

وخلال وجوده في المنفى كانت معظم كتابات الشاعر خلال فترة نفيه فلسفية وتاريخية ومن بينها «أسطورة القرون» التي نشر القسم الأول منها بعد عودته من المنفى في سنة ١٨٧٧م والقسم الأخير في العام ١٨٨٥م. وقبلها جاءت أعظم رواياته وهي «البؤساء» التي صدرت في العام ١٨٦٢م لتتحدث عن قصة مجرم يدعى جان فالجان يتجاوز فيها الحيز الروائي الخاص

إلى المساحة الإنسانية، فهي تجسيد حيّ للواقع والخيال والفانتازيا، في كثافة اللقطة الروائية الخارقة. لذلك جاءت هذه الرواية من أهم أعماله الخالدة حيث تصور حجم البؤس والفقر اللذين كانا يكتسحان شرائح واسعة من سكان باريس في ذلك الزمان، أي في مجتمع كان لا يزال ريفيّاً أو زراعيّاً في معظمه، ولكنها تصور أيضاً بدايات ظهور الطبقة العاملة في المصانع والمناجم وحجم الاستغلال الذي كانت تتعرض له هذه الطبقة. كما تصور لنا الرواية أوساطاً أخرى في باريس كالأديرة والصالونات الأرستقراطية والطلاب والشعب، أي إنها بحق مرآة للمجتمع الفرنسي في تلك الفترة نظراً لشدة غناها وخصوبتها.

وفي ديوان «العقاب» المؤلف من ٦٠٠٠ بيت شعر، وبالتحديد في قصيدته بعنوان «التكفير عن الذنب» يذكرنا بحملة نابليون بونابرت الخاسرة على موسكو في العام ١٨١٢م بسبب موجة الصقيع التي جمدت الكثير من قواته وأخرجتها من المعركة بقوله: كان الثلج يتساقط حين مُني جيشه بالهزيمة في حملة على موسكو. لقد تلاشى كل شيء لدرجة أن الجنود لم يعودوا يعرفون قادتهم ولا راياتهم. بالأمس كان هذا الجيش يسمى بالجيش العظيم أما اليوم فهو عبارة عن قطيع شارد.

وهنا يريد الشاعر أن ينقل إلينا هذه الحكمة ومفادها أن الأشخاص مهما عَظُم شأنهم وإن كانوا مثل قيصر أو نابليون أو أباطرة فإنهم ليسوا سوى ظلال تمر مرور السحاب، وأن الحرب التي طوتها ليست سوى ظل لهم تذهب بذهابهم، في حين أن الله، والطبيعة التي تصدر عن الله، والسلام الذي يصدر عن الطبيعة هي كلها قيم باقية. وبنظره أن الشاعر معني بكل ما في الكون وكل ما يجري فيه مستشهداً بنقطة الماء التي تسقط من ينبوعها الصخري ثم تثقب الجبل، فلِمَ لا تكون نقطة من الذهن قادرة على النفاذ إلى المشاعر الإنسانية من أجل تهذيبها وصقلها لصالح البشر أجمعين؟ أوليست تلك هي المهمة التي قد نادى بها سلفه أبو الطيب المتنبي حين قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعتْ كلماتي من به صممُ

لقد حدد للأدب مهمته الكبرى بصفته وسيلة لتحقيق التقدم البشري، وأداةً من أدوات المعرفة. كما أنه جعل من الفنان رائد الأزمنة الحديثة. فبفضله انتصرت المدرسة الرومانسية على المدرسة الكلاسيكية في العام ١٨٣٠م وكان عمره ٢٨ عاماً فقط.

لم يكــن شاعراً ملعوناً أو منبوذاً على طريقة بودلير أو رامبو، وإنمـــا كان شاعراً معروفاً تتردد أشعاره على كل شفة ولسان.

ففي كتابه «أسطورة القرن» يحدد هيغو الشاعــر بقوله: «إنه العالم كلـــه ملخّصاً في شخصــ»، مثلما وهو الوصــف نفسه الذي أطلقه المتنبي على نفسه حين قال:

ومـا الـدهـر إلا مـن رواة قـصـائـدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

هكــذا نجد أن الشاعــر لم يكن بالنسبة له مجرد مطرب أو ناظــم، وإنما كان منارة للبشرية على درب التقدم والرقي الحضاري. فالشاعــر له مهمة في الحيــاة تتجاوز نشر المجموعــات والدواوين وراء بعضها البعض ونيل بعضــ الشهرة في الأوســاط الأدبية. الشاعــر بالنسبة لفيكتــور هيغو لم يكن يقل أهمية عن العــالم أو الفيلسوف القادر على أن ينفــذ بفكره إلى أعمــاق النفس البشرية والحكيــم الذي يعالــج الأمور بــكل دراية والعاقل الذي يجب عليـــه الاستعانة بعقول الآخريــن وليســ بعضلاتهم ليشــكل رأياً سديداً عملاً بقول المتنبي:

الــرأي قـبـل شـجـاعـة الشـجـعـان

هــو أول وهـــي المــحــل الـثــاني

وبالنسبـــة لهيغو أنه لمــن عيوب المرء أن يكون لديه أحكام جاهزة قبل أن يسمع ويعي ويفكر، عليه أولاً أن يتأمل ثم يصدر الحكم أو الرأي الصائب.

والواقـــع أنه سبـــق الشاعـــر رامبو إلى القـــول بأن الشاعـــر راءٍ يستشرف المستقبل قبل الآخريـــن ويشق لهم الطريق. فالشاعر يكتشف أعماق الإنسان والكون ويقدّم للعصر فكـــره الجديد، إنـــه يقوم بـــدور حضاري: بمعنـــى أنه يساعـــد الشعب علـــى الدخول في الحضــــارة، وعلى الارتقـــاء إلى مستوى الحضـــارة والتخلص مـــن الجهل والتخلف والهمجية والرجعية. إن الشاعر يكتب باسم الشعب ومن أجــل الشعب، أدباً ديمقراطياً، إنه الناطــق الرسمي باســم الشعب.. فهو يجدد العالم ويغيّر الأشياء.

ألم يردّ أبو العلاء المعري عندما سُئل عن رأيـــه في كل من المتنبي وأبي تمام والبحتري قائـــلاً: «إن البحتري شاعر، أمـــا أبو تمام والمتنبـــي فهما حكيمـــان يتمتعـــان بسداد الرأي، ممـــا يدل على أن المتنبـــي بلغ شأناً كبيراً في ميدان الحكمة والموعظة الحسنة لم يبلغـــه لاحقاً سوى الشاعر الفرنسي فيكتور هيغو.

في العـــام ١٨٧٠م عـــاد إلى باريســ من منفاه بعد سقوط نابليـــون الثالث وانتصار الجمهورية، فشهد حصـــار باريس، وأصبح عضـــواً في إطـــار الجمعيـــة الوطنيـــة من

جديـد، لكنه فوجئ بأن الأثرياء قد تسلموا مقاليد السلطة، وهو لا يستطيع إلا أن يكون في صف الضعفاء، وإلى جانبهم. لذلك لم يستطع التكيف مع الوضع الجديد، فذهب إلى سويسرا في العام ١٨٧٣م حيث التقى بالفيلسوف الفرنسي رومان رولان على ضفة بحيرة «ليمان» المشهور، والذي كان قد بلغ من العمر عتياً. ثم ما لبث أن قفل عائداً إلى فرنسا في العام ١٨٧٤م ليصبح عضواً في مجلس الشيوخ، وكان في ذلك الوقت يعد بإنشاء مؤسسة فرنسية قائمة بذاتها لخدمة الفكر والثقافة الفرنسيين.

كذلك عرفنا هيغو أيضاً رساماً وفناناً يتقن استخدام الورق المقوى في التفصيل بصورة مدهشة، وقد صنع لأولاده وأحفاده مختلف أنواع الألعاب بالورق المقوى وخيوط القنب، وكان نحاتاً يتقن فن النقش، وقد صنع بيده زخارف منزله في مدينة بيزانسون، ومن بينها تمثال خشبي للسيدة العذراء ما زال باقياً حتى الآن تخليداً لاسمه. كما جاءت دفاتره الشخصية مليئة بالرسوم الأثرية والطبيعية المرسومة بحبر السيبدج الصيني والتي تدل على أنه كالصوفي صاحب رؤى وأحلام طوباوية. وعندما بلغ الثمانين من العمر هتف له الشعب الباريسي ابتهاجاً بهذه المناسبة متمنياً له طول العمر وهو يطل عليه من نافذة منزله.

لقد استحق هيغو هذا التكريم. حتى إن شاعر فرنسا المشهور «أراغون» كتب كتاباً بعنوان «هل قرأت فيكتور هيغو؟» ليلقي الضوء على حياة هذا الشاعر وإسهامه السياسي ومكانته الأدبية في تاريخ الأدب الفرنسي والآداب الإنسانية الأخرى مشيراً إلى أن الشعر كان في نظر هيغو من أسمى أنواع الأدب لأنه محاكاة الحياة لفظياً، ولا يقدر على ذلك إلا المبدعون.

وعندما أطلق عليه الفرنسيون لقب «أمير الشعراء، وشاعر فرنسا العظيم» كان يساوره شعور بأن هذا اللقب يجب أن يذهب إلى زميله «لامارتين» الذي امتاز هو أيضاً بغزارة الإنتاج الشعري، وهو الشعور نفسه الذي كان ينتاب الشاعر لامارتين الذي كان ينظر إلى هيغو نظرة تقدير وإعجاب، ويضعه في أعلى المراتب. وقد تجسد هذا الشعور من خلال هذه الواقعة التي اطلع عليها مجمل الفرنسيين، وعرفوا تفاصيلها بكل إعجاب، ومفادها: أنه وصلت يوماً رسالة من ألمانيا إلى فرنسا تحمل الخاتم الرسمي الألماني ومدون على الغلاف الذي يحتويها العبارة التالية: «إلى شاعر فرنسا العظيم» ولكن من دون الإشارة إلى اسم

الشاعر بالتفصيل ومكان سكنه، بمعنى أن الرسالة لا تحمل اسماً صريحاً للجهة المرسلة إليها. وعلى الفور، تشكلت لجنة من موظفي البريد في باريس، وقررت إرسالها إلى لامارتين، لكن ما إن وقعت في يد لامارتين حتى كتب عليها «إلى فيكتور هيغو». وصلت الرسالة إلى هيغو، فبعث بها من جديد إلى لامارتين. ظلت الرسالة تروح وتغدو بين الشاعرين إلى أن تشكلت لجنة أخرى تضم مدير البريد والكتّاب: بلزاك وألكسندر دوماس ولامارتين وهيغو للبت نهائياً بشأنها، فقرروا فتحها، وعندما فتحوا الرسالة وجدوا فيها ما يلي: «إلى السيد لامارتين، صاحب خمارة السين وساقي العشاق من خمرة الآلهة، سألهج بذكرك إلى الأبد، فأنت لست شاعر فرنسا الأكبر بل شاعر العالم». وهكذا هدأت العاصفة وتقبل الجميع بكل رحابة صدر وعلى رأسهم هيغو مضمونها، ومع ذلك بقيت أنظار الفرنسيين مشدودة باتجاه هيغو بصفته أكبر شاعر في فرنسا. ومن المعلوم أن هذه الرسالة ما تزال محفوظة حتى الآن في متحف (كارنافاليت) بباريس.

هكذا يبقى هيغو ماثلاً في ذاكرة الفرنسيين وكان الشاعر العظيم الذي لا يضاهيه أحد والذي تخلد اسمه من خلال التزامه بقضايا مجتمعه وعصره. فجاءت نظرته السياسية تمهيداً للوحة الأوروبية، من خلال دعوته لإقامة علاقات متينة بين كل من فرنسا وألمانيا أولاً. إنه يستحق هذا اللقب إن قلنا عنه بأنه أول أوروبي كان قد مهّد لنشوء ما يسمى اليوم «بالاتحاد الأوروبي». لقد كان شاهداً أميناً على أحداث عصره يختلط بالجماهير ويتفهم هموم الفقراء، فهو يريد استيعاب كل ما يدور حوله مستخدماً في ذلك أحاسيسه وقلبه. لقد كانت مأساة البشر هي الدافع الذي كان يدفعه لأن يبقى ثابتاً في توجيه مسار الأحداث بغضّ النظر عن حسابات الربح والخسارة، ولولاه لبقيت أحداث كثيرة من دون معنى. هذه الصفات جعلت منه كاتباً موضوعياً يحاول جاهداً إخفاء نفسه وراء سير الأحداث عند نقلها، لكي تأتي صادقة ومعبرة عن الواقع. وأبرز ما يعلنه هيغو في هذا الميدان الذي يختصر الحياة هو أن الشاعر معني بكل ما في الكون وجميع ما يجري فيه بقوله: «وحسب الشاعر أن يحيا في أحد العصور المصيرية من الحضارة كي تعنى نفسه بالضرورة بكل شيء، بالمذهب الطبيعي والتاريخ والفلسفة، وبالناس والأحداث، وليكون دوماً في حالة تأهب لمباشرة المسائل العملية مثل سواها.

يجب أن يعرف عند الحاجة كيف يؤدي خدمة مباشرة ويسهم في حركة الواقع. ثمة أيام ينبغي خلالها أن يصبح كل امرئ مجنداً، وكل مسافر بحاراً، وهذا ما يحتم عدم التراجع، وفرض شريعة على النفس بالثبات دائماً».

إذا ما سألنا ما هو مبدأ تكوين هيغو؟ يكون الجواب: مبدأ الثبات. لقد كان الشاعر دوماً ثابت العزيمة. ففي ٤ تشرين الأول من العام ١٨٢٢م كتب إلى خطيبته يقول: «من أراد أن يكون حازماً وقادراً على تحمل الصعاب بصفتها محك الرجال الأشداء فإنه وصل إلى مبتغاه المنشود» إنه يريد أن يقول لها ما أكد عليه يوماً المتنبي بقوله:

تريدين لقيان المعالي رخيصةً

ولا بدّ دون الشهْد من إبر النحل

كما كتب في آذار من العام ١٨٥٢ إلى ابنه فرانسوا يقول: «امضِ ونقّبْ، فأنت تعرف معنى شعري، ألا وهو الثبات، لأن الثبات هو سرّ جميع الانتصارات». ولعلَّ هذه النصيحة تذكرنا بما نصح به أبو الطيب أقرانه في إحدى قصائده:

إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

كما أوصى ابنه بأن يكون جريئاً وذا عزيمة وبألّا يتردد في تنفيذ القرار الذي تمَّ اتخاذه من قبله لأن الفكرة التي تجيء في وقتها هي أعظم شيء، وكأنه أبو الطيب المتنبي يقول:

إن كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة

فإن فساد الرأي أن تترددا

والآن نطرح هذا السؤال: هل كان فيكتور هيغو أكبر كاتب فرنسي في القرن التاسع عشر وهل كان أكبر شاعر فرنسي في كل العصور؟ عن هذا السؤال يجيب الكاتب الشهير «أندريه جيد» قائلاً: «نعم، للأسف الشديد!». وأما إميل زولا فقد عبّر عن ضيقه من شعبية فيكتور هيغو قائلاً: «لقد كُرّس كأكبر مسرحي وأكبر شاعر وأكبر روائي وأكبر ناقد وأكبر فيلسوف وأكبر مؤرخ وأكبر سياسي! فماذا تبقى إذاً للآخرين؟».

في الواقع إن بعضهم يتهمه بالبخل الشديد على الرغم من غناه وثروته الطائلة. ينبغي العلم أنه أحد الكتاب القلائل الذين كانوا يعيشون من كتاباتهم بشكل ميسور جدّاً. وفي ذلك العصر ما كان الكاتب يعيش من قلمه إلا نادراً.

في عام ١٨٤٨م وبعد أن مارس الكتابة ستة وعشرين عاماً كانت ثروته المجتمعة تُقدر بأكثر من ثمانية ملايين فرنك فرنسي أي أكثر من مليون دولار بالسعر الحالي. وهذا مبلغ ضخم لم يربحه أي كاتب في

عصره مهمــا علا شأنه. نقول ذلك وخاصة أنــه كان كاتباً ثورياً متمرداً، لا كاتباً مدجناً مقربــاً مــن السلطات! وقد ربــح في رواية «البؤســاء» وحدها ما يعــادل المليون فرنك فرنســي بالسعر الحالي، وهذا رقم قياسي. وعندما كان يتضــور بودلير جوعاً ولا يجد ناشراً لمؤلفاته وإذا ما وجده فلا يستطيع أن يبيع منها أكثر من بضعة عشرات من النسخ، كان فيكتور هيغو يبيع من كتبه مئات الآلاف وفي زمــن قياسي.. «فالبؤســاء» نفدت من السوق خلال بضعة أيام فقط. وعندما مات قُدّرت ثروتــه فوصلت إلى ما يعادل الواحد والعشرين مليون يورو، أي ما يعادل الثلاثين مليون دولار تقريباً.. فمن يصدق ذلك؟

ولو عاش في القرن العشرين لربما بلغت ثروته المليــار فرنك أو يزيد.. نعم كان غنياً فيكتــور هيغو، ومن قلمــه فقط. وقد جمع المجد من جميع أطرافه، كنائب في البرلمان، وكعضــو في الأكاديمية الفرنسيــة، وأشهر شخصيــة في فرنسا في السنــوات الأخيرة في حياتــه، وحتى رئيس الجمهورية، ما كان يعادله من حيث الأهمية.

والجديــر بالذكــر أنه عندمــا احتفلت فرنســا بمرور مئة عام علــى وفاة شاعرها العظيــم، وكان ذلك في العــام ١٩٠٢، طرح مصرف باريس الوطنــي ورقة نقدية بمبلغ ٥٠٠ فرنك فرنسي تحمل على أحد وجهيها صــورة لفيكتــور هيغو وذلك تقديــراً لهذا الشاعــر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس على غرار الشاعر أبي الطيب المتنبي.

المراجع

١- موسوعة «لاروس» الكبرى الفرنسية.
٢- كتاب «الوجيز في الأدب الفرنسي» للكاتب بيير كاستيكس.
٣- مجلة «جيش الشعب» العدد /١٩١٢/، آب ٢٠٠٢م.
٤- مجلة «هيستوريا» الشهرية الفرنسية، تاريخ تشرين الثاني ٢٠٠٧م.
٥- كتاب «كلام عن هيغو»، للكاتبة آن أوبرسفيلد.





حلب في المرحلة الكلاسيكية الهلّنستية- الرومانية- البيزنطية

د. محمود حريتاني*

لا بد، قبل البدء بدراسة هذه المرحلة من تعريف كلمة: العصر الكلاسيكي؛ ونقصد به عهدي اليونان والرومان وامتدادهما منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وهو قمة ازدهار اليونان، حتى القرن السابع الميلادي، أي فترة اثنى عشر قرناً؛ وأثره في الشرق في سورية ومصر، عندما قام الإسكندر الكبير المكدوني بمشروعه الجبار الذي توخى منه توحيد العالمين الشرقي والإغريقي، أحدث تبدلات مهمة جدّاً في كل نواحي الحياة الإغريقية، ونقل

* آثاري وأستاذ في جامعة حلب.

مراكزها من اليونان إلى أجزاء العالم الشرقي المتحضر التي غدت بؤر إشعاع للحضارة العالميــة المعروفة آنذاك، وأهم مراكزها انطاكية بجوار حلب والإسكندرية وسلوقية وأفاميــة وغيرها... وهكذا نشــأ ما عرف بـ(الحضارة الهلّنستية).

١- الفــترة الهلّنستيــة تاريخيّــاً: انتهــى حكم الفرس الأخمينيين على يد الإسكندر، والواقع الذي كشفتــه الدراسات التاريخية الحديثــة؛ إن الإسكندر حليــف حكام آسية الصغرى الفرســ، حــارب معارضيهم من الفرســ أيضاً في معركــة (إيسوس) -حيث بنيت مدينة الإسكندرونة فيما بعد- في عام ٣٣٣ق.م، ولم يقاومــه سوى صور وغزة حيث لقي مقاومة ضارية من بطولات أهلها. خلفه بعــد موته سنــة ٣٢٣ق.م في آسية، سلوقس نيكاتور، وأصبحت أنطاكية عاصمته.

تعرضــ حكــم السلوقيــين إلى ضغوط فارسية فرثية، وظهــرت دويلات عربية في الرها قرب حلب وتدمــر، وحدث أن هرب أنطيوخوســ التاســع ١١٢- ٩٦ق.م مــن أنطاكيــة إلى دمشق، كمــا استطاع تيغران ملك أرمينية مهاجمــة سورية، وفي ٦٤ق.م انتهى حكم السلوقيين على يد الرومان.

الفترة الهلّنستية حضاريــاً: كتب المؤرخ اليوناني بلوتا رك، الذي أرخ لحياة الإسكندر: (غنم الخيالة اليونــان غنائم ثمينة، وذاقوا لأوّل مــرّة طعــم الذهب والفضــة والغنى والنســاء، وأصبحوا كالــكلاب التي تنتظر حصتهــا من الصيد، وذهبــوا في كل طريق يكتشفــون ثــروات الفرس) هــذه الثروات العلمية أيضاً تحدث عنها الشاعر الفرنسي فولتــير فقــال: (إذا أردتم تعلم فلسفة هذا العالم، يجــب أن توجهوا أنظاركــم أولاً إلى الشــرق، مهــد كل الفنون، والــذي أعطى كلَّ شــيءٍ للغرب) وحين جــاء العالم الأثريُّ الفرنســي أندريه بارو بعــده بقرنين ينقّب عن حضــارات الشرق القديم قــال: (أؤكد ما قاله فولتــير- وإن الشرق قد حمل النور إلى الغرب) وهكذا نستطيع اليوم فهم تعبير الحضــارة الهلّنستية ومعناه مزيج الحضارة الهلينية (الإغريقية- اليونانية) مع الحضارة السورية.

الفــترة الهلّنستيــة بحلــب وجوارهــا: يصعب على المنقــب الأثري في مدينة حلب العمــل، لوجود حلب الحديثــة فوق المدينة القديمة ورغم ذلــك فلدينا معطيات كثيرة عن هذه الفترة:

أولاً: لقــد سكنت جاليــة يونانية مدينة حلب وأعطتها اســم بلدتهم هناك (بيرويا) وكأنمــا نقلوا مدينتهم إلى حلب، كما انتقلوا هم.

ثانياً: كعــادة اليونانيين، فقد جعلوا من القسم الطبيعي لتل قلعة حلب؛ أكروبولاً – كعادتهم في مدنهم اليونانية. يضمُّ مدينة تعود للقرن الأول دعاها الجغرافي اليوناني الشهير (سترابــون) باســم POLYKHNION ونحــن نعلم أن الاكتشافات الأخيرة في قلعة حلب للأنصــاب المتعددة التي لم تؤرخ تماماً بعد، تعود إلى فترة القرن الأول قبل الميلاد؛ كمــا نعلم أن بــين الأنصاب هــذه والقاعة البيزنطية جدار لا تعرف هويته بعد.

ثالثــاً: امتزجت ديانات حلب وآلهتها مع الديانــة اليونانية، وظهرت أسمــاءٌ يونانية جديــدة للآلهة وتماثيل تضمها قاعة الفترة الكلاسيكية في متحف حلب ومتحف أنطاكية المجاورة.

رابعــاً: امتزجت اللغة اليونانية مع اللغة الآراميــة، وقد تركت هــذه الساحة للأولى فانتشرت.

خامساً: لعبت حلب، بحكم موقعها، دوراً عالمياً، فقد فتحت أمامها الهند، عن طريق الفرات، وآسيــة الصغرى وإلى مضيق جبل طارق. وكما قال لويس برنارد (إن الإسكندر استطاع لفترة خلق إمبراطورية عالمية ترضي وتفرح تاجر الوساطة، والتاجر المسافر).

سادساً: تخطيط مركز حلب القديم –ما يعرف بالمدينــة أو الأسواق القديمة– يُعزى إلى الفــترة السلوقية الذي طبعته الحضارة الهلّنستية بطابعها:

١- الشارع الرئيسي باتجاه شرق- غرب (ديكومانوس مكسيموس) ويرتبط بمجموعة من الشوارع التي تتعامد معه.

٢- تخطيط الجهة الشرقية لسور مدينة حلــب ويقارن عــادة مع منشــآت عسكرية سلوقية كما في اللاذقية والرستن.

٣- شبكــة قناة حيلان لتغذيــة المدينة بمياه الشــرب تعود إلى تأسيــس المدينة في العصر السلوقي وإن كلمة قسطل ترجع إلى كلمة CASTALIE أحــد المنشآت المائية في أنطاكية عاصمة الدولة السلوقية.

٤- إن موقــع الساحــة العامة وارتباطه بموقــع النشــاط الاقتصــادي والحكومي وصفات التجمع السكاني.

٥- (لم يكتشــف مركزها بعد وقد يكون بالقرب من الجامــع الأموي الكبير). إن ما بقي من آثار هــذا التخطيط الهلّنستي هو حي الجلــوم والأسواق القديمــة والمدرسة الحلوية والقلعة التي كان فيها قصر الحاكم. وبعــد ألا يحــق لنــا أن نؤكد مــع الشاعر الفرنســي لامارتين ونــردد أن: (حلب هي أثينا اليونانية) مع بعض التحفظ...

٢- الفــترة الرومانيــة تاريخيّــاً: بعــد ضعــف السلالة السلوقيــة الحاكمة دخلت

الجيوش الرومانية سورية عام ٦٩- ٦٨ق.م بقيادة لوكولوس LUCULUS- المعروف بالذوّاقة GOURMENT - ثم جاء بعده بومبيي عام ٦٦ - ٦٣ق.م وبعدهما كراسوس وكايوس عام ٥٤ - ٥٢ق.م. كتب المؤرخ اليوناني بلوتارك: (ساركراسوس) كتاجر وليس كقائد جيش، مما استوجب معه توبيخ العالم؛ فعوضاً عن استعراض جيشه وإراحته بالقيام بالتمرينات والألعاب العسكرية، كان يتسلّى، خلال فترة، بإحصاء ما كسبه من المدن خلال سيرته، وأن يزن بنفسه الكنوز التي كانت في مدينة (هيرابوليس- منبج الحالية) وخلص المؤرخ إلى القول (قَلّت أهمية حلب إلى نهاية مخيفة) ومنذ حكم نيرون ولوجود الفرقة الرومانية الثلاثية، دُعيت البلاد باسم سورية الفلافية.

الفترة الرومانية حضاريّاً: شملت الإمبراطورية الرومانية ما خلفه اليونانيون، وحوض البحر المتوسط حتى حدود فارس والصحراء العربية الكبرى، وما فتحته في أوروبة. إنّما لم تستطع روما أن تحدث في الوسط الثقافي السوري أيَّ تغيير، إذ إنها وجدت نفسها إزاء بلاد متحضرة على درجة عالية من المدنيَّة؛ فتركت لها أنظمتها الإدارية، ومؤسساتها الخاصة، وأبقت على مدنها واستقالالاتها المحلية، ولم يهاجر الرومان كما فعلوا في بقية الولايات، فاستفادت المدنية السورية- الهلّنستية الآرية من هذا الوضع ونعمت بالسلم العالمي؛ خاصة؛ فتح الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية واستقرارها، وكان هذا هام جدّاً لتأمين الدفاع عن روما، ولتأمين التجارة وخاصة طريقيّ الحرير والتوابل، ومن المعروف أن حلب تقع على هذين الطريقين.

في فترة انتشار المسيحية، ولما كانت حلب على مقربة من أطاكية، حيث نشط الحواريون الرسل وخاصة بولس الرسول، اعتُمد أسقف حلب EUSTATHE - أسقفاً لأنطاكية في عام ٣٢٥ م. كما ظهر في حلب عدد من رجال الدين المسيحيين حدثنا عنهم تيودور أسقف مدينة سيرهوس (النبي هوري حاليّاً) والذي كان نفسه يزور حلب ويتكلم فيها. وقد كتب المؤرخ ميشيل السوري. أن آقاق مطران حلب في عام ٣٧٨ م بنى كنيسة ضخمة وعقد مجمعاً دينياً لم تصلنا مقرراته.

وبالمناسبة لا بد أن نذكر بداية أهمية القديس سمعان العمودي في منطقة حلب وشهرته الدولية. إن الحديث عن الصراع بين المسيحية والوثنية طويل وبين المذاهب الدينية نفسها أطول...

الفـترة الرومانية بحلـب وجوارها: اهتمَّ الرومان بمظاهر القوة وتقديس الإنجازات الماديــة لذلــك كانــت الأعمــال الهندسية ذات طابــع عملــي في تأمــين الخدمــات للإمبراطوريــة، وكان مــن نتاجهــا الطرق والجسور والأقنية والمسارح وما شابه ذلك.

كان مــن أهــم إنجازاتهــم الهندسيــة في حلب ومنطقتها:

أولاً: توحيد الأحياء التي أنشئت في حلب إبان الفترة الهلّنستيــة مع الأحياء الجديدة مثــل بحسيتا (هدم مؤخــراً لصالح مشروع باب الفرج) والفرافرة.

ثانياً: تجديد ما هدم من أسوار حلب من باب الجنان إلى باب النصر.

ثالثاً: المسرح في سيرهوس (النبي هوري)، ويستحق دراسة خاصة.

رابعــاً: الجسور والطــرق، وتألفت منها شبكة واسعة: جسرا النبي هوري، والحفاظ عليهمــا ضروري جــدّاً، وكذلك بقية طريق رائعــة، يكاد المواطنون محوهــا من الوجود بأساليب عدة.

خامساً: تابوت جنائزي في متحف قلعة حلب.

سادساً: ظهور مئــات القرى حول حلب نعمــت بالسلم الرومــاني، وازدهرت تجارة نبيذها وزيوتها مع روما، وهناك نص كتابي يبرز كيــف أن شمس الشــرق أنتجت خمور البارة المطلوبة في روما.

سابعاً: مئات تيجان الأعمدة والنصوص المبعــثرة في شــرق حلــب، تكشــف عنهــا الحفريات مؤخراً.

٣- الفــترة البيزنطيــة تاريخيّــاً: في عام ٣٩٢م أعلن الإمبراطــور تيودوسيوس؛ المسيحيــة ديانــة رسمية. وفي عــام ٣٩٥م مات تيودوسيوس بعد أن قسم الإمبراطورية الرومانيــة إلى قسمــين؛ فأصبحــت هناك إمبراطوريــة غربية يحكمها ابنه هونويوس، وإمبراطوريــة شرقية يحكمهــا ابنه الثاني أركاديوس؛ والأخيرة عاصمتها القسطنطينية واسمهــا القديم (بيزانتيــوم) ومن هنا جاء اسم الإمبراطورية البيزنطية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

كما يحب المؤرخون تسميتها لأنها بحسب رأيهم بقيت شرقية وإن كانت لها صلة بروما الغربية. وهكــذا نستطيــع أن نعتبر الفترة البيزنطية امتداداً للحضــارة الهلّنستية في فترة حكم روما.

ومــن الناحية الحضاريــة: تميزت هذه الفترة بانتشــار الديانة المسيحية والرهبنة، وظهــور المذاهب وصراعهــا، وفي المنطقة، برز مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، والــذي عــرف بمذهــب اليعاقبــة (باسم

الراهب يعقوب البرادعي) وأصبح المذهب المفضل في عهد الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ – ٥٦٥م بتأثير زوجته السورية تيودورا المولودة في منبج، ولدى العرب الغساسنة في عاصمتهم الرصافة قرب حلب، بينما تبنت الدولة المذهب الذي قال به الراهب نسطور –بطريرك القسطنطينية وهو يقوم على الاعتقاد بطبيعتين للسيد المسيح إلهية وبشرية (الأرثوذكس). كما تميزت بالصراع البيزنطي ودخول الفرس المدائن السورية ومنها حلب، ونهب الصليب المقدس إلى أن تصدى لهم الإمبراطور هرقل ٦٢٢م، فأعاد الفرس خشب الصليب المقدس في حلب بالذات.

الفترة البيزنطية بحلب وجوارها: كانت حلب مركز أسقفية وقد تأثرت كنائسها بطراز البناء الهلّنستي والبيزنطي إلا أن المعماريين في حلب، أدخلوا تعديلات على الزخارف والفتحات وأشكال الأسقف والأعمدة وتيجانها، وللأسف لم يبق إلا القليل النادر وهذا ينبئ عن أعمال كثيرة:

أولاً: أرضية كنيسته من الفسيفساء، كانت تقوم في موقع كنيسة مار ميخائيل للروم الكاثوليك في حي العزيزية.

ثانياً: كاتدرائية حلب، وبقاياها واضحة في المدرسة الحلوية، غربي الجامع الكبير.

ثالثاً: القاعة البيزنطية في قاعة حلب.

رابعاً: الكنيس في محلة البندرة.

خامساً: ناووس حجري في مدخل بئر الساتورة في قلعة حلب.

سادساً: آلاف الأمتار المربعة من الفسيفساء وأجمل مثال لها فسيفساء صرين في متحف حلب الوطني.

سابعاً: مئات القرى الأثرية ومبانيها الرائعة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين مما جعل الكثيرين يدعونها خطأً بالمدن الميتة.

ثامناً: عاد البيزنطيون لاحتلال شمالي سورية في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي وقاموا بتحصينات كثيرة في حلب والمنطقة.

لا بد من كلمة في الختام نوضح فيها أثر الفترة الكلاسيكية:

كان أثر الثقافة اليونانية واضحاً في المنطقة وفي سورية عامة ولكن تلك الثقافة أخذت أشكالاً متأثرة بالثقافة المحلية العريقة، ونتج عن ذلك شكل مستشرق من أشكال الحضارة يعرف بالهلّنستية والتي استمرت حتى بدايات الإسلام:

أولاً: انتشرت اللغة اليونانية لدى الطبقات العليا وبقيت الآرامية السامية لدى طبقات الشعب.

ثانيـــاً: تشابهــت المعبــودات اليونانيـــة والسورية.

ثالثاً: تأسيس المدن.

رابعاً: وصل السوريــون إلى عرش روما ونقلوا معهم عاداتهم وتقاليدهم.

خامســـاً: عرفت سورية فترة سلم طويلة –رغم الحروب قصيرة الأمد– فبنيت كنائس وأديرة ومنازل في غاية الجمال والزخرفة– خاصـــة في القرى الأثرية فيما يعرف علمياً بـ(الكتلــة الكلسيـــة) وفي الرصافة وبصرى وغيرها...

سادساً: مــع الفكر المسيحي نشأ الوعي القوي والشعور الوطنـــي الاستقلالي ودليل ذلــك انتشار اللغـــة السريانية المحلية محل اللغـــة اليونانيـــة، ثمَّ فيما بعــد في حروب التحرير.

سابعاً: تجــارة السلــع، تنظمها نقابات مختلفة تتناسب ونوع البضاعة المبيعة وكانت تشرف عليهـــا السلطات الحكومية وتراقبها بــكل دقة، ولهذا فإن توزيع حوانيت أعضاء النقابـــات إلى أســـواق ذات تخصص لم يكن أبداً مجـــرد مصادفة. ومن المعروف أن هذا التخصص ما زال سارّياً إلى اليوم في أسواق حلب القديمة والأسواق المشابهة في الشرق.

مصادر البحث

- الفترة الكلاسيكية في تاريخ سورية، الدكتور عدنان البني.
- حلب قديماً وحديثاً (بالفرنسية)، بول بوران.
- حلب بين التاريخ والهندسة، الأستاذ الدكتور محمود فيصل الرفاعي.
- أسواق حلب القديمة، الدكتور محمود حريتاني.
- أوراق المؤتمر الكلاسيكي بدمشق ١٩٦٩م.





إدارة المعرفة.. المفهوم والقواعد

حسان القيسي ❀

تعتبر المعرفــة من الحقول الجديدة القديمة التي تمتد إلى آلاف السنين عــبر التاريخ، وقد حظيــت باهتمام كبير من فلاسفة الشــرق والغرب. وقد حظيــت المعرفة بالكثير من الاهتمام حيــث إن الاختلاف في تحديد مفهوم المعرفــة قد شجع العلمــاء والباحثين في المجالات المختلفــة من علم النفس الإداري وعلــم الاجتماع والسلوك التنظيمي وعلم الإدارة إلى زيادة الاهتمام بالدراســات المعرفية ضمن التوجهات الإداريــة، لأن مصطلح المعرفة يشير

❀ ناقد سوري.

إلى أنه مزيج من الخبرة والإدراك والمهارة والقيم والمعلومات فضلا عن قدرات الحدس والتخيل والتذكر والتفكير لدى الفرد. وعلى مستوى المنظمات الإدارية تعد المعرفة من أهم الموارد لأي منظمة أعمال (مؤسسة أو شركة أو منشأة) تسعى للاستمرار والنجاح. ويعتبر تدفق المعرفة العامل الأبرز لهذا الاستمرار والنجاح، فهناك المعرفة التي تصاحب جميع مراحل الأعمال، والمعرفة النتي تدعم وتساعد في إنجاز هذه المراحل من الأعمال في أي منظمة.

ولعلاقة المعرفة بالبيانات والمعلومات فإنه من المناسب تعريف البيانات على أنها مجموعة من الحقائق المجردة عن موضوع محدد، وهي المادة الأولية التي تستخلص منها المعلومات، كما أن المعلومات هي في حقيقة الأمر عبارة عن بيانات تمنح صفة المصداقية، ويتم تقديمها لغرض محدد، لذلك فالمعلومات هي ناتج معالجة البيانات، تحليلاً وتركيباً، لاستخلاص ما تتضمنه هذه البيانات، أو تشير إليه، فالمعلومات يتم تطويرها وترقى لمكانة المعرفة عندما تستخدم لغرض المقارنة، وتقييم نتائج مسبقة ومحددة، أو لغرض الاتصال، أو المشاركة في حوار أو نقاش. والمعرفة هي كل شيء يحيط بالفرد من بيانات، معلومات، ذكاء، قدرات، اتجاهات، مهارات، قيم، وحكمة سواء كانت في الماضي أو الحاضر، يستحضره الفرد ويستخدمه لأداء عمله بإتقان لحل المشكلات، واتخاذ قرارات ناجحة، بهدف رفع الإنتاجية، وتقديم الخدمات بشكل أفضل، ويمكن التعبير عن ذلك بالفرد المتميز في عمله. ويمكن توضيح العلاقة بين البيانات والمعلومات والمعرفة بشكل معادلات تكتب:

المعلومات= البيانات+ المعنى.

المعرفة= المعلومات المختزنة+ القدرة على استعمال تلك المعلومات.

أنواع المعرفة

وتنقسم المعرفة إلى نوعين هما المعرفة الضمنية والمعرفة الظاهرة، فالمعرفة الضمنية هي تلك التي نعرف عنها أكثر مما يمكن أن نقول عنها، فهي مرتبطة بالأحاسيس والخبرات الكامنة في أذهان الأشخاص المميزين، وهي خبرات نوعية تكاد تكون مقتصرة على هؤلاء الأشخاص، وهي التي تتعلق بما يكمن في نفس الفرد من معرفة فنية ومعرفة إدراكية ومعرفة سلوكية، وهي المهارة، الخبرة، الحكمة، البصيرة الموجودة لدى الفرد في موقف محدد، فنحن نعلم أكثر مما نقول، والمعرفة

ليس مــن السهل تقاسمها مــع الآخرين أو نقلها إليهم بسهولــة، وهي ذلك النمط من المعرفة التي يمكــن الحصول عليها بصورة غــير مباشرة من خــلال أساليــب التفاعل المباشــر مثل العصف الذهنــي. أما المعرفة الظاهرة فهي المعرفــة التي يمكن تقاسمها مــع الآخرين، وتتعلق هذه المعرفة بالبيانات والمعلومــات الظاهرة التــي يمكن الحصول عليها وتخزينها في ملفات وسجلات المنظمة، والتي تتعلق بأنظمة ولوائح وأهداف ومهام وخطــط المنظمــة وسياساتهــا وإجراءاتها وبرامجهــا وموازناتهــا ومستنداتهــا، وهي المعرفــة الرسمية النظامية المعبر عنها كمياً والقابلــة للنقل والاستيعــاب والتعلم، وهي المعرفــة المصنفــة المنقولة بطــرق رسمية ونظامية كالإجراءات، القواعد، التعليمات، وفي الغالــب يمكن للأفــراد داخل المنظمة الوصــول إليها وتدوينها ونقلهــا وتخزينها واسترجاعها تقنيا ومن ثم استخدامها.

تعريف إدارة المعرفة ومداخلها

أما إدارة المعرفــة فيمكن تعريفها على أنها الحصول علــى المعرفة وخزنها وإعادة استعمالهــا وهي العمليــة المنهجية لتوجيه ورصد المعرفة وتحقيق الاحتفاظ والاهتمام بها في المنظمــة، كما أنها الجهــد الإداري المنظــم الموجــه من قبــل قيــادة المنظمة مــن أجل الحصــول على المعرفــة والجمع والتصنيف والتنظيم والتخزين لكل أنواعها، الظاهرة والضمنيــة، ذات العلاقة بنشاط تلك المنظمة من داخــل المنظمة وخارجها، وجعلهــا جاهزة للنشر والتــداول والمشاركة بين أفراد ووحدات المنظمة بما يرفع مستوى كفاءة التخطيط واتخاذ القــرارات والأداء التنظيمــي وتقديم الخدمات. وتعتمد إدارة المعرفة علــى مدخلين همــا المدخل المبني على الأفــراد والمدخل المبنــي على التقنية (التوثيــق)، فالمدخــل المبني علــى الأفراد يقــوم على كيفيــة إدارة المعرفــة الضمنية والاحتفاظ بها وتحويلها إلى معرفة ظاهرة، مــن خلال التفاعل المباشــر بين الأفراد في المنظمة لنقل وتبــادل المعرفة باتباع وسائل متعددة منها (العصف الذهني، فرق العمل، الاجتماعــات، ورش العمل، ملازمة الموظف الجديد مع الموظف ذي الخبرة، والمجموعة الممارسة).

أما المدخل المبني على التقنية (التوثيق)، فهو يقوم على كيفية إدارة المعرفة، الضمنية والظاهرة، من خلال وسائل التوثيق التقنية والأرشيفية، ومن وسائل نقل وتبادل المعرفة بناء على هذا المدخل (السجلات والتعليمات والأنظمة واللوائح، الأدلة بمختلف أنواعها، الوثائق والكتب، التقارير والنشرات، المواقع

على شبكة الإنترنت، والبريد الإلكتروني)، وبناء على هذا المدخل فإن التقنية هي عبارة عن وسيلة لنقل المعرفة وليست المعرفة في حد ذاتها.

القواعد الأساسية لإدارة المعرفة

يمكن تلخيص القواعد الرئيسية لإدارة المعرفة في النقاط التالية:

- **إستراتيجية قائمة على المعرفة**: إذ إن التطورات التي تحتم السعي نحو استحداث منتجات جديدة وفتح أسواق جديدة وتطوير أساليب جديدة لأداء الأعمال تستلزم توافر المعلومات والمعرفة.

- **ثقافة المشاركة في المعرفة**: من أجل ضمان تعظيم الاستفادة من المعلومات التي تمَّ الحصول عليها والمعارف التي تمَّ تحصيلها، يتعين تشجيع القائمين على ذلك الأمر على مشاركة أفضل الممارسات، والتقنيات الحديثة والدروس المستفادة مع زملائهم داخل المنظمة وفي شتى أنحاء العالم.

- **بنية أساسية للدعم الفني**: يتم ضخ استثمارات هائلة في متطلبات الحاسب الآلي، من مكونات مادية وبرامج وتطبيقات، لازمة من أجل تخزين وتداول ونقل المعرفة والمعلومات المتاحة لدى أي منظمة، بما يضمن توافر هذه المعارف والمعلومات لأولئك الذين يحتاجون إليها، وبالصيغة التي تسهل من استخدامها والاستفادة منها. ومع ضخامة الاستثمارات يكون من الأهمية بمكان التوصل إلى صيغة مقبولة وأسس متعارف عليها لإدارة هذه المعارف.

- **بحوث وتحليل الأعمال**: هناك مخاوف متزايدة لدى الكثيرين من أنه على الرغم من التدفق السريع للمعلومات المتاحة، إلا أن هذه المعلومات معروضة بصيغة غير ذات فائدة بالنسبة لهم، أو لا تصلح للاستخدام، وبالتالي برز اتجاه لدى شتى المنظمات للجوء إلى الخبراء الذين لديهم القدرة على تفسير هذه المعلومات وإثراء قيمتها.

خيار إستراتيجي

ما زالت قضية إدارة المعرفة قضية غامضة بالنسبة للكثيرين، وهو الأمر الذي يمكن إرجاعه في جانب كبير منه إلى تركيز أدبيات إدارة المعرفة على أمر من اثنين، أولهما التفصيلات الخاصة بتطبيقات إدارة المعرفة، وثانيهما النظريات المجردة مثل قيمة الثقة في ثقافة مشاركة المعرفة. وتبدو كلمة إدارة المعرفة كلمة ذات وقع ثقيل على أسماع مديري الشركات في الفترة الأخيرة، شأنها في ذلك شأن كلمات أخرى مثل دوائر الجودة وإعادة هيكلة عمليات الأعمال، وثقل وقع هذه الكلمة يرجع إلى اعتبارها

إحـدى المبـادرات المطروحـة بكثرة خلال السنوات الأخيرة، والتي تتسم بارتفاع تكلفة القيام بها، وعلى الرغم من ذلك تجد نفسك مضطـراً للقيام بها ما دام الآخرون يفعلون الشـيء نفسه. وشأنها شـأن عمليات دوائر الجودة وإعـادة هيكلة عمليـات الأعمال، تنطـوي عمليـة إدارة المعرفـة على الكثير من الفوائـد بالنسبة للمنظمات (المؤسسات والشركات) التي تخطـط للقيام بها. ولكن المشكلـة الحقيقية تكمـن في عدم الإدراك الكافي مـن قبل القيادات العليا في كثير من منظمات الأعمال لماهية عملية إدارة المعرفة وما تنطوي عليه من فوائد.

ردود الأفعال

إنه مـن الأهميـة بمـكان في كثير من الأحيـان أن نضـع الأفـكار الجديـدة في سياقهـا الطبيعـي لكي نتمكن مـن الإلمام بالظروف التي أحاطت بتطور هذه الأفكار. وبالنسبة لمصطلح إدارة المعرفة يمكن القول بـأن التغـيرات التي حدثـت في الاقتصاد العالمـي قد جعلت من عمليـة إدارة المعرفة ضـرورة لازمـة للأعمال، وبصفـة خاصة للشركات عبر القومية التي تمارس أنشطتها على نطاق عالمـي، أو على الأقل تطمح إلى ذلـك، وما حدث في الاقتصاد العالمي يمكن تسميته سلسلـة ردود الأفعال القائمة على المعرفـة، والتـي يمكـن إيجازهـا في عدة مكونات رئيسية:

- **التواصـل عـبر الحاسـب الآلي**: أتاحت التطـورات في تقنيات الحاسـب الآلي التي تمت خـلال السنـوات الماضيـة للشركات القـدرة على جمـع وتوزيـع المعلومات بين مكاتبها ومورديها في شتى أنحاء العالم بشكل أسرع من ذي قبل.

- **إعـادة هيكلـة عمليات الأعمـال**: أدت التطـورات في مجال تكنولوجيـا المعلومات والتي جعلت المعلومـات متاحة بصورة أكثر سهولة مـن ذي قبل، أدت هـذه التطورات إلى المطالبـة بإعادة هيكلة المنظمات وإزالة الحواجز التـي كانت موجودة بين الوظائف المختلفة، ونشـأت مصطلحات جديدة مثل تصغير حجم المنظمات بتسريح أعداد كبيرة من العاملين بها، وهو الأمر الذي ما زال يلقى انتقادات عديدة، ولكـن الاستثمارات التي ضختها الشـركات في تكنولوجيا المعلومات لم تذهـب هباء، حيـث أن المعرفة والمهارات التي أصبح يتمتع بها المديرون من الدرجات الوسطـى في منظمات الأعمال أصبح ينظر إليها باعتبارهـا مكونا هاما للغاية بالنسبة لأي منظمة.

- **سـوق العمـل الإلكـتروني**: يومـاً بعد يوم تتزايد آثار الإنترنـت والشبكة الدولية

للمعلومات على مناخ الأعمال، بما تتيحه من أشكال جديدة من المنتجات والخدمات والتبادلات التي تتمحور حول هذه التقنية الجديدة. وتشمل العناصر الرئيسية لبيئة العمل الجديدة الحاسبات، الاتصالات ومزودي المحتوى، إلا أن الأثر الرئيسي لهذه التقنيات الجديدة بالنسبة للأعمال القائمة يكمن في انعكاسات هذه التقنيات على الطريقة التقليدية التي عادة ما تدار بها هذه الأعمال، وفي الوقت الحالي تبدو هذه الآثار بشكل واضح في قطاع البنوك.

- **رفع المهارات:** من بين الآثار الرئيسية المترتبة على التوسع في إدخال تقنيات الحاسب الآلي في شتى دوائر الأعمال، انعكاس ذلك الأمر على المتطلبات الرئيسية التي سيتعين توافرها في المتقدمين للعمل، على الأقل في الاقتصادات المتقدمة.

- **سرعة التغير:** بات من الواضح في شتى المجالات أن السرعة أصبحت أمراً حتميا، وأصبح عنصر الوقت أحد المتغيرات الرئيسية في السعي من أجل التغلب على المنافسين في السوق. وفي سوق مثل سوق الحاسبات الآلية نجد أن نسبة ٧٠ ٪ من الإيرادات تأتي من منتجات لم يتجاوز عمرها خمس سنوات على الأكثر، وبوجه عام نجد أن ضغوط عنصر الوقت تؤدي إلى خفض أسعار المنتجات الجديدة، كما تؤدى في الوقت ذاته أيضاً إلى رفع المعايير التقنية لهذه المنتجات، كما تنعكس سرعة التغير أيضا على العاملين الذين يتعين عليهم أيضا أن يتفق نمو مهاراتهم مع هذا التغير السريع.

- **الاتصالات الكونية:** انعكست الثورة التي شهدها مجال الاتصالات على الطريقة التي تدير بها الشركات أعمالها، حيث أصبح في الإمكان بفضل هذه الثورة أن يتم توزيع حقول الإنتاج والمكاتب والعمالة على أي مكان على ظهر كوكب الأرض الذي أصبح قرية صغيرة بفضل ثورة الاتصالات والمعلومات، مع القدرة في الوقت ذاته أيضاً على التواصل بكل يسر وسهولة وسرعة بين هذه الفروع التي تنتشر عبر مساحات واسعة على ظهر الأرض، وأصبح من السهل تبادل البضائع والمعلومات عبر شتى أنحاء المعمورة بصورة أيسر من ذي قبل.

- **نمو رأس المال العالمي:** كان من بين العوامل الرئيسية التي ساعدت على نمو الاقتصاد العالمي القدرة على تحويل رؤوس الأموال بطريقة إلكترونية بين شتى أنحاء العالم، وهو الأمر الذي ولد تدفقات هائلة من رؤوس الأموال إلى أسواق الدول النامية على وجه الخصوص، وبالسهولة نفسها

يمكن لهذه التدفقات إلى الداخل أن تتحول إلى سحوبات نحو الخارج، كما حدث في الأزمة الاقتصادية الآسيوية عامي ١٩٩٧ – ١٩٩٨م.

إن الشكوك التي تحيط بعملية إدارة المعرفة تجعلها تبدو كما لو كانت مجرد بدعة سيكون من المكلف للغاية المضي قدما في تنفيذها، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة للمنظمات (مؤسسات أو شركات) التي تريد أن تطور من أعمالها نحو الانطلاق إلى آفاق عالمية، حيث تجعل اعتبارات السرعة والمسافة من الحاجة إلى الحصول على المعلومات في أسرع وقت ممكن أحد الضرورات الأساسية التي لا سبيل للاستغناء عنها، وتصبح إدارة المعرفة أحد المهام الرئيسية التي يتعين القيام بها في أسرع وقت ممكن، أما بالنسبة للمؤسسات أو الشركات التي مازالت تركز أعمالها على الأنشطة الصناعية التقليدية، والتي ما زال السوق المحلي هو السوق الرئيسي لتصريف منتجاتها، فإن الحاجة إلى إدارة المعرفة تعد أقل إلحاحا.

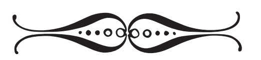
جدلية إدارة المعلومات

«إدارة المعلومات» مصطلح شائع في البيئة المعلوماتية، غير أن مفهوم «إدارة المعرفة» غريب إلى حد بعيد عنها، ورغم تزايد الاهتمام به خلال السنوات الماضية، فلا يزال الجدل محتدما حول المفهوم الحقيقي له، فالبعض يتصور أن إدارة المعرفة ما هي إلا تعبير مرادف لمصطلح «إدارة المعلومات». في حين يرى آخرون أنها مفهوم يتركز على الجهود الخاصة بتنظيم المداخل إلى مصادر المعلومات المتاحة عبر الشبكات، وهذا ما يجعلها محور اهتمام المعلوماتيين في وقتنا الحاضر، ويرى فريق ثالث أن «إدارة المعرفة» ما هي إلا آخر صرعات منتجي تقنية المعلومات والاستشاريين بهدف بيع حلولهم المبتكرة إلى رجال الأعمال المتلهفين لأية أداة يمكن أن تساعدهم في تحقيق التقدم التنافسي الذي هم أحوج ما يكونون إليه في ظل تقنيات العصر.

ومن المؤكد أن تقنية المعلومات تلعب دوراً محورياً في برامج إدارة المعرفة من خلال قدرتها على تسريع عملية إنتاج ونقل المعرفة، وتساعد أدوات إدارة المعرفة في جمع وتنظيم معرفة الجماعات من جعل هذه المعرفة متوفرة على أساس المشاركة، وبسبب ضخامة مفهوم المعرفة وتشعبه، فقد أصبح سوق برمجيات إدارة المعرفة مربكا وغير واضح المعالم ومحيراً إلى حد بعيد، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو هل هناك علاقة بين إدارة المعلومات وإدارة

المعرفة؟.. بالنسبة لغير المعلوماتيين لا يبدو هناك أي اختلاف بين «إدارة المعرفة» و«إدارة المعلومات»، فمثلا مسوقو تكنولوجيا المعلومات يعتبرون الماسحة الضوئية (السكنر) تكنولوجيا رئيسية لإدارة المعرفة لتصورهم بأنها ضرورية لتقاسم المعرفة، بينما هي في الحقيقة أداة لإدارة المعلومات، ولذلك فإن التعامل مع الأشياء (البيانات أو المعلومات) من اختصاص إدارة المعلومات.

والعمل مع البشر هو إدارة معرفة، وللتوضيح بصورة أكبر، فإن إدارة المعلومات تتعلق بالوثائق ورسومات التصميم المسند بالحاسوب، والجداول الإلكترونية، ورموز البرامج، وهي تعني ضمان توفير المداخل، والأمنية، والانتقال، والتخزين، وهي تتعامل حصريّاً مع التمثيل الواضح والجلي، في حين أن إدارة المعرفة، من الناحية الأخرى، تميز القيمة في الأصالة، والابتكار، وسرعة الخاطر، والقدرة على التكيف، والذكاء، والتعلم، وهي تسعى إلى تفعيل إمكانيات المنظمة في هذه الجوانب، وتهتم إدارة المعرفة بالتفكير النقدي، والابتكار، والعلاقات، والأنماط، والمهارات، والتعاون والمشاركة، وهي تدعم وتسند التعلم الفردي وتعلم المجموعات، وتقوي التعاضد بين أفراد المجموعات وتشجع مشاركتهم في الخبرات والنجاحات وحتى الفشل، وقد تستخدم إدارة المعرفة التكنولوجيا لزيادة الاتصال، وتشجيع المحادثة، والمشاركة في المحتوى، والتفاوض حول المعاني. ولكي نتفهم واقع إدارة المعرفة، علينا أن ننظر بشكل أكثر واقعية إلى الماضي والحاضر، في الماضي كانت هناك الكثير من المجتمعات التي تمارس إدارة المعرفة بصورة أو بأخرى من دون أن تطلق على ممارساتها هذه التسمية، أما اليوم فالعديد من المجتمعات اتخذت خطوات رسمية في هذا الجانب واستحدثت برامج إدارة المعرفة، ولكن مازالت بعض من هذه المجتمعات قاصرة عن إدماج «إدارة المعرفة» بشكل كامل في فعالياتها وقراراتها المجتمعية.



ميخائيل نعيمة
صرخات موزونة ومؤثرة في همس الجفون

د. إسماعيل مروة*

منذ أيام، أسابيع كنت أتحدث إلى صديقة هي في مكان رفيع مبنىً ومعنى لدي، أحدثها وأنا أعلم ما فيها من وجع عاصف في هذه الآونة، وكانت مفاجأتي عندما حدثتني هذه الصديقة الغالية عن ألم ممض تحياه في روحها، انفلت الألم من عقاله ليدخل الجسد ويسبب آلاماً شديدة استمرت وقتاً حتى طمأنتني... وأنا في مثل هذه الأزمات التي لا تعنيني وحدي أكون واضحاً جداً، ولكنني في الوقت ذاته أهرع إلى أصدقائي لأقاسمهم رؤاهم

* أديب وباحث وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وأفكارهم... فكان ميخائيل نعيمة الصديق الورقي الذي هرعت إلى فلسفته وفكره في (همس الجفون).

وللجفون همسها

منذ أمد عدت إلى جبران الرائع، وقرأته لمرة لا أعرف رقمها وخرجت من هذه القراءة بما يشبهني، واليوم أجدني أعود إلى ميخائيل نعيمة المهجري الأكثر عمقاً وعذوبة، الفكر الثرّ، والشعر الجميل، والرسم الذاتي والأيقوني المميز... أعود إليه في أرقّ أعماله (همس الجفون) فلا أقترب من غرباله، ولا أمتثل قوله (من غربل الناس نخلوه) فالوقت لا يحتمل الغربلة، وما نحن فيه من أزمة لم يُبق أحداً فوق الغربال، ومن أسف فإن الجميع ومن كل الأطياف لم تساعده أنانيته ورؤاه الضيقة من البقاء فوق الغربال فانهال بسرعة إلى ما تحت الغربال واختلط بكل ما نزل بعد أن كان يمثل الاستعصاء وصعوبة النزول من الغربال... وأمام الغربلة التي لم تسمح لأحد أن يبقى، والتي كشفت هشاشة الذرات المتورمة كان لابد من الابتعاد عن الغربال والغربلة للدخول في مناطق يصعب أن تطبق على مرض، إنها الجفون التي تطبق على عين وهمس... ويزيد من الاطمئنان غرابة ما يريده ميخائيل نعيمة ففي أغمض جفونك تبصر دعوة لا تشبه سواها:

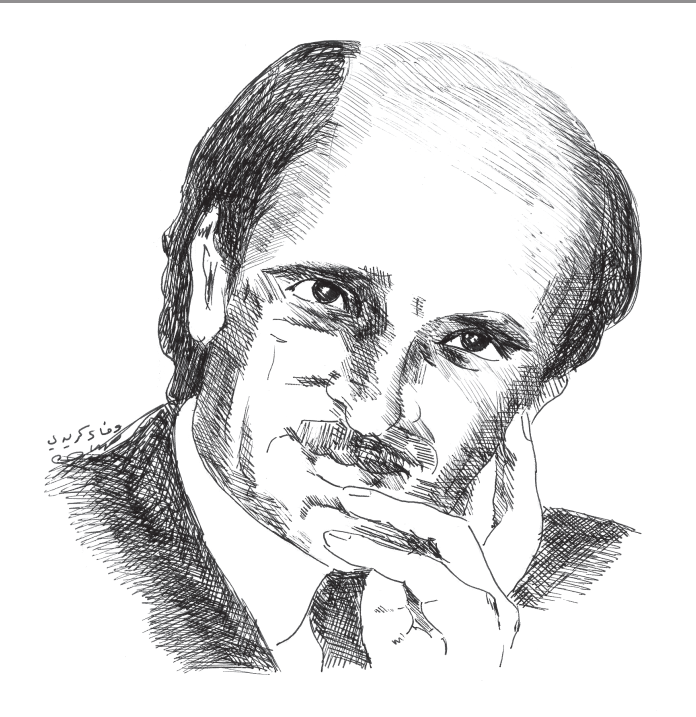
إذا سماؤك يوماً تحجّبت بالغيوم
أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوم
وإن بليت بداء وقيل داء عياء
أغمض جفونك تبصر في الداء كل الدواء
وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه
أغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياة

في الإغماض يكمن الإبصار عند ميخائيل نعيمة، ويمكن أن نفهم دعوى الإغماض حين نتعمق في قراءة نعيمة وفلسفته في الشعر والحياة، وهو الباحث دائماً عن جديد يضيفه إلى روحه وفكره من الشرق والغرب... وعندما يفتح نعيمة عينيه ويغمضهما فإنه يصل إلى العمق في أوائل القرن العشرين بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى... ولكن هل كان نعيمة يقدّر بأن ما عانى منه سيبقى علامة للغيوم والبحث عن النجوم الدواء واللحود والموت والحياة بعد قرن كامل من الزمن الذي يفصل بين قصيدته وبيننا؟!

الأخوّة... الآخر والأنا

بين الموت والحياة خيط رفيع من الزمن، وإحساس بعيد الغور لا يلتفت إليه إلا القلة من الذين ملكوا البصيرة النافذة والعميقة إحساساً ومسؤولية... وفلسفة الموت وعلته يدور في فلكه أحدنا ولا يدري الغاية... يغتالنا الموت وننسب الاغتيال إلى الخالق!

بيده ملكوت كل شـــيء ولكن هل بيدهالاغتيال؟... بحث نعيمة وهو بعيـد الغور في رؤيتــه إلى هذه اللحظة فدارت رؤاه بـين مواراة الموتى ومــواراة الأحيـاء ليقدم رؤيـة متكاملـة لـدوران الحياة مخاطباً الأخ في الإنسانيــة، ومن ثم يخاطب الأخ العربي والمشرقي:



أخي، إن ضجّ بعد الحرب غربي بأعماله

وقدّس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله

فلا تهزج لمن سادوا، ولا تشمت بمن دانا

بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دامٍ

لنبكي حظ موتانا

وبفهـم عميق ينتقـل في أعمـاق الأنا ليصــور ما يعتلـج من الداخـل، ومن هذه الأعماق يخرج نعيمة لتبدو المفارقة القاسية من حظ الموتى إلى أشباح الموتى، إلى أجياف الموتــى، إلى مواراة الموتى... وتكون الخاتمة القاسية بمواراة الأحياء.

أخي، من نحن؟ لا وطن ولا أهل ولا جار

إذا نمنا، إذا قمنا، ردانا الخزي والعار

لقد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتانا

فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر

نواري فيه أحيانا..

الأحياء نبحث عن مكان لمواراتهم:

والأخطر أن يكون هؤلاء الأحياء بحاجة إلى من يحفر خندقاً لمواراتهم.

كيف لا يكون ذلــك ونعيمة يتحدث عن

ضياع الأرض والوطن والجار، وعن الخزي والعـار الذي يحيـط بنا ويلبسنـا ونلبسه، وعن تساوي الحال بين الموتى والأحياء على السواء؟

كان ذلك في نهاية الحرب الأولى ١٩١٧م كمـا هو مؤرخ فهل اختلـف الأمر بعد قرن من الزمن؟

كم أتمنى أن يقرأ القـارئ العربي هذه القصيدة التي تدخل في عمق الذات والوجع، فنحن لا نريد، ونحـن لا نبغي الخروج من واقع مترد، وفي الوقـت ذاته الآخر لا يريد لنا الخروج أو النجاة مما نحن فيه وما بين إرادة الآخر، وكسـل الأنا يحيا أحدنا تعساً ميتـاً، بل نحيا نحن كما لو كنا خارج الحياة التـي يجب أن نحياها. وقـد كان ميخائيل نعيمة دقيقاً، فلم ينسب إرادة الحياة الجيدة للـذات، بل بقي بـين إرادة الغـرب وكسل الشرق، وهل أعمق من تعبير المشيئة؟

أخي، قد تم ما لو لم نشأه نحن ما تما
وقد عم البلاء، ولو أردنا نحن ما عما
فلا تندب، فأذن الغير لا تصغي لشكوانا
بل اتبعني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول
نواري فيه موتانا

حضور في الأنا لقد احتضن أدباء المهجر دون سواهم في الحديث للذات وعنها وللإخوة وعنها، أبو ماضي سأل أسئلته الكثيرة، وكان جهل الحقيقة مصـيره، وكذلك فعل جبران والقـروي وغيرهما، وربما تكاثرت القضايا الإنسانية والذاتية في المهجر الشمالي بسبب الابتعاد الجزئي أو الكلي عن الموطن الأصلي وهمومـه، فالوطن وإن كان حاضراً إلا أنه لم يكن مؤثراً بالقدر الكافي إلا عند أبي ماضي ولكـن العمق الفلسفي والبعد الإنساني عند ميخائيل نعيمة غير المنحـى وأعطانا رؤية بعيـدة الغور في خطـاب نفسه، وهو هنا لا يحقرها ويعيدها إلى أصلها الطيني، ولم يعير النفس بمنطلقها ومآلها، بل عمد إلى إضفاء صفات مـن العشق والقداسة والألوهة على نفس الإنسان، وعلى نفسه:

إن سمعت البلبل الصداح بين الياسمين
يسكب الألحان ناراً في قلوب العاشقين
تلتظي حزناً وشوقاً، والهوى عنك بعيد
فأخبريني، هل غنا البلبل في الليل بعيد
ذكر ماضيك إليك؟
هل من الألحان أنت؟
إنه نفسي أنت
أنت لحن فيّ قد رنّ صداه
وقّعتك يد فنان خفي لا أراه
أنت ريح ونسيم أنت موج أنت بحر
أنت برق أنت رعد، أنت ليل، أنت فجر
أنت فيض من إله

وبحثاً عن الأنا وأمانيها وأحلامها يكثر الشعــراء من الحديث عن التمني، الواقع لا يشبههــم أبداً، لذلك يسعون إلى تشكيل عالم من الأمنيات، عوالم مختلفة لا يرونها، وعوالم أخرى صعبة التحقيق.

«هــو المغربل كما دعــا نفسه، يهمه قبل كل شــيء أن ينقي مــا يغربله من الأحساك والزوائــد، وأن يظهر ما فيه من جمال وقوة وغيرهمــا من الصفات التي تؤهله لأن يقرأ ويدعى أثراً أدبياً..».

هكذا تحــدث ميخائيل نعيمة عن نفسه لأستاذنا الراحل الدكتور عبد الكريم الأشتر، وتابع في الحديث عن شعره ومنهجه الشعري والروحي فيقول:

«وإذا نظم الشعر جعل للقصيدة وحدة، ونفر من الغــزل المألوف والرثــاء والهجاء والموضوعات الشعرية المعروفة عند العرب، ولم يبال بالقافية الواحدة فإذا قال في أوراق الخريف مثــلاً، جعــل الأوراق تتناثر أمام عينيك، جعلك تسمــع حفيفها وهي تتناثر، وترى رقصتها وهي تسير مع الريح أو تكرج علــى الأرض وخلق في نفســك جواً يماشي تلــك الصورة بكل معانيها، ثم استخرج لك، من هذه كلها أفــكاراً تستوقفك وتستغويك، كــي لا يكــون ما عرضــه عليــك تسلية لا أكثر...» أوراق مهجرية ص٧١.

وفي شعر نعيمة كلــه يصدق نقده الذي وضعه لنفسه على نفســه، وعندما يتحدث عن الأمنيات، يصف التمني بالمربوط بحبل، ولا يحدد أمنياته لأنه يدرك صعوبة تحديد الأمنيات.

نتمنى، وفي التمني شقاء
وننادي يا ليت كانوا وكنا
ونصلي في سرنا للأماني
والأماني في الجهر يضحكن منا
غير أني، وإن كرهت التمني
أتمنى لو كنت لا أتمنى

ويتابع فلسفة الأمنيات:

أتمنى ما زلت أجهل نفسي
وأنادي يا ليتني ولو أني
وأصلي في داخلي للأماني
والأماني من الجهر يضحكن مني
غير أني لا بد أبلغ يوماً
فيه أمسي حراً عديم التمني

مــا بــين التمنــي الجمعــي في المطلع والتمنــي الفردي في الخاتمــة، قد يتحول الفرد إلى جماعــة وقد يكون الفرد جماعة أو ناطقاً عنهــا، لكن الرحلة ما بين البداية والنهايــة تهفــو عنــد نعيمــة إلى الحرية، والحرية فقط، ومن هنا كانت مسوغاً لتلك المناقشــة الفلسفية العميقــة في الأمنيات، فالقصيدة قامت على محاكمات ومماحكات

وصــور ليست حالمة بقدر ما هي من أعماق التكوين الفكري الجمعي والذاتي عند نعيمة ومجتمعه.

محاكاة الكون

قلّما نعثر على شعر أو نثر لميخائيل نعيمة لا يقوم على حوار عميق لمفردات الكون، فهو متأمــل دوماً، تائق إلى المثــال من كل شيء، ناظر إلى كل شخص دون أن يغضّ من قيمة أحــد من الناســ أو الفعاليات، وسبب ذلك رؤيته الإنسانية بعيدة الغور، والتي قرأناها ذات يــوم في قصته (أبو بطة) وهو ما يعزز رؤيتــه الإنسانية، وإحساســه بالآخر، وقد يكــون الوحيد بين أدباء العربية الذي انتقل مــن الاتحاد السوفييتــي إلى أميركا، فعاش الثورة البلشفية في أوجها وذروتها الفكرية، ويعيش فيما بعد النقيض الأميركي ويستمر في العيشــ.. وهذا الأمر يبعــد الاستغراب عن فكرنا حيال نعيمة وأحاسيسه العالية.. وهو في (لو تدرك الأشواك) يحاكي مفردات عديــدة: ساقي الجلاســ، مرسل الألحان، ساكن القصــر، الجالس بين اللحود، حاشد الأموال، حامل الإنجيل، الزهرة.. والجامع الوحيد بين هذه المفردات هو الفكر، فنعيمة قد لا يكون الشاعــر المتفوق فنياً، وهو هنا ليســ كذلك، لكنه صاحب رؤية وفكر لم يشأ أن يترجم فكــره ورؤيته في حديث تنظيري، واختار لذلك الشعر..

يا ساقي الجلاّس بالله لا
تحفل بكاسي بين هذي الكؤوس
أترع لغيري الكاس أما أنا
فاحسب كأني لست بين الجلوس
لا. لست بالولهان يا صاحبي
فالقلب مني جامد كالجليد
لكنني مصغ لنفسي ففي
نفسي أوتار وفيها نشيد
يا ساكن القصر الجميل اغتبط
يا صاحبي واهنأ بقصر جميل
لا. لا تقل ما راقني قصرك العالي
أو أني لم يطب لي هواه
يا جالساً بين اللحود التي
سكانها أضحوا تراباً ودود
إي، إن من تبكيه يا صاحبي
لا شك خدن أو صديق ودود
يا حاشد الأموال فلساً إلى
فلس يكدّ الليل قبل النهار
لا والذي الأقدار خدامه
ما في قلبي غصة من غناك
يا حامل الإنجيل يدعو إلى
نبذ المعاصي منذراً بالعقاب
إما صممت الأذن عنك فلا
تغضب ودعني في ضلالي أهيم

يا زهرة ما بين شوك نمت

لولا شذاها ضلّ عنها البصر

هل تدرك الأشواك يا زهرتي

أن الشذا هذا شذاك انتشر

القصيدة كلها محـــاكاة عقلية بين سادر في حياته يفعل ما يحـــب ويشاء، ومجموعة مـــن المكونات التي تحمل غايـــة نبيلة، وهو يـــدرك هذه الغايـــة لكنه لا يريـــد أن يغير مجرى حياتـــه وفكره.. وبإمعـــان النظر في هـــذه القصيـــدة، وهي لا تشـــذ عن مجمل شعـــر نعيمة – نجده باحثاً أكثر منه شاعراً، ومتعمقـــاً في الفلسفة أكثر منـــه غائصاً في ماء بحور الشعـــر الندي.. وهنا تبرز قضية اللغة الشعرية عنده، فنعيمة في ديوانه ليس شعرياً في لغته، ولا ينتقي الألفاظ والمفردات الشعريـــة، بقدر ما يبحث عن الكلمة المعبرة والمناسبة لشعـــره وموضوعه.. وهو في هذا يشترك مع المفكرين أو العلماء الذين اختاروا الشعر وسيلة للتعبير، ولكنه كان بعيداً منهم على الرغم من أنه حمل آراءهم وقدمها للناس كالعقاد والمازني وعمر فروخ وغيرهم.

صدى الإيمان

هل كان نعيمة مؤمناً؟ وما معايير الإيمان؟ وهل من حق المرء أن يحكم على غير ما يقرأ للأديب الذي بين يديـــه؟ إن الاختيار دليل، وهذا ما قدّمه نعيمة في ابتهالاته.

كحّل اللهم عيني

بشعاع من ضياك

كي تراك

وافتح اللهم أذني

كي تعي دوماً نداك

من علاك

وإذا ما أملي يوماً مشى

تائهاً في مهمة العيش السحيق

عاد لمّا كاد يقضي عطشا

يحتسي الإيمان من قلبي الرقيق

وإذا الإيمان ولّى والرجا أضحى ضرير

فلينم قلبي إلى أن ينفخ البوق الأخير

وما بين الابتهـــال والرجاء الأخير يقف نعيمة محاولاً تقديم رؤاه الإيمانية التي وإن ظهرت مبتورة بين كلمة وأخرى وبيت وآخر إلا أنها تظهر إيماناً عميقاً، وإن كان مختلفاً في كثير من جوانبه العقلانية التي لا يقترب منهـــا الإيمـــان الفطري عـــادة، وخاصة إن وضعنا في حسباننا أن الإيمان شعور فطري عميق مجهول المصدر، ومن العسير أن نقوم بتفسيره أو تأويله.. وفي حال حاولنا سنصل إلى عمق قد لا تدركه ذواتنا.

المحاكمة العقلية والشعر

يؤخذ علـــى كثير من الشعـــراء تضمين الشعـــر بآراء أو أفـــكار فلسفية أو علمية أو غـــير شعريـــة، فمصطفى صـــادق الرافعي

استخدم ألفــاظ الكهربة والسيال، وتحدث عــن القبر والجيفــة فلم يستســغ ذلك منه وكثير من شعر المعري ابتعد عن الناس بعمق فلسفته وتحليلاته، ابتعد كثيرون عن ساحة الشعر، ولم يتم تصنيفهم بين الشعراء بتأثير ثقافتهم وعقلانيتهــم وربما فقه بعضهم أو الــروح التعليمية.. وميخائيــل نعيمة بفكره ونقده وثقافتــه التشريحية نجح في الغربال والنقــد، وأبدع في رواية قصة جبران، وقدم نثراً ناقداً وساخراً قصة وحبكة.. ولكن هل استطاع في شعــره أن يداني المكانة الفكرية والنقديــة؟ إن شعــر نعيمة متعــة حقيقية للقــراءة والتمعن والاعتبــار، ولكن لو عدنا إلى عناويــن قصائده، بعض العناوين، فإننا سنجد البعــد الفكري الذي قد يقف حائلاً أمام الصورة الغنائية (مــن أنت يا نفسي- تخدير أفكار- الخير والشــر- قبور تدور- بين الجماجم- عهد قاطع... الجوع).

العناويــن توحــي بما وراءهــا، ولكن لا تظهر الأشيــاء إلا عند الدخــول في صلب النصــ الشعري، وها هــو في تخدير أفكار يعالج الشعر منطقياً وفلسفياً:

بربِّك، لا، لا تسرقي دمعة الباكي
ولا تخنقي، لا تخنقي أنّة الشاكي...
بربِّك، أفكاري، وعيني سابحاً
ببحر وجودي- دودة بين أسماك
ضريراً، أصمّاً، أبكماً، متجلبباً
بجهلي وضعفي، دون علم وإدراك
فنصحك تمويه، وصدقك حبة
من القمح في أكداس تبنٍ وأحساك

حكمة، فلسفة، فكــر... هذا ما يقدمه نعيمــة، والمعالجة العقليــة والفكرية تغطي على الشعــر وموهبته وجماليتــه وغنائيته كما تعودنــا أن نرى في الشعــر وهذا بحد ذاته أبعــد نعيمة عن مصاف الشعراء... إذ لا يكفي أن يقــوم أديب كبير بصياغة آرائه وفلسفته بقالب شعــري قوي السبك ليكون شاعراً، فالفلسفة كانــت أبعد غوراً وأعمق عنــد نعيمة من قصائــد صاغها خالية من الغناء والشعر، غنية بالفكر والفلسفة.

وإن أردنــا فلنقــف عند حــوار الخير والشر:

سمعت في حلمي ويا للعجب!
سمعت شيطاناً يناجي ملاك
يقول: إي بل ألف إي يا أخي
لولا حجمي أين كانت سماك؟
أليس أنّا توءمان استوى
سرّ البقا فينا وسر الهلاك؟

ويستمــر الحديــث كأي مناظرة قدمها إخــوان الصفا أو الجاحظ أو التوحيدي في رحلة البحث عن حقيقــة الإيمان واليقين، كما يسعى نعيمــة في مواطن أخرى لمحاكاة

الحكمة عند الفقهاء أو المتصوفة أو التائبين، وقد يتهيأ للقارئ أو السامع أنه أمام أبي العتاهية أو أبي نواس في أخرياته:

ذمّك الأيام لا ينفعك

فهي لا أذن لها تسمعك

لا ولا عين ترى عقرباً

في دياجير الأسى تلسعك

فهي منك الظل يا صاحبي

عجباً ظلك كم يخدعك!

يختتم ميخائيل نعيمة همس جفونه بلوحة مؤرخة بـ١٩٣٠م تحمل عنوان الجوع لا تختلف في شيء عن سائر الديوان بشعره ونثره وهمساته ليشكل بهذه المجموعة المتميزة عالماً من الفكر والعقل والمعالجة الفلسفية النادرة للوحات أخذت سمت الشعر، لكنها بقيت أبداً في طبقات عليا من الفكر وعالمه الذي تميز به نعيمة عن سائر الأدباء، وقد مزج فيه بين الرؤى الشرقية السوفييتية والشرقية بالأصول والفلسفات، والغربية الأميركية، والقائمة على غربة الروح والجسد لطائر عرف أن ما يرجوه من الكون والحياة لا يتعدى القليل من الحاجات، وأن ما يمكن أن يتركه كثير.

ما أحوجنا اليوم وسائر الأيام لميخائيل نعيمة وإنسانيته المبهرة، وإحساسه العالي بالآخر حتى وإن كان جماداً... معادلات مهمة في ميزان الإنسانية صاغها نعيمة شعراً، فكانت صرخات موزونة ومؤثرة لو صادفت من يقرأ ويعي ما يدور حوله في عوالم الأدب والإنسان.





القصة القصيرة جدّاً

عبد اللطيف الأرناؤوط ❁

شاع مصطلح القصة القصيرة جدّاً في الدراسات النقدية منذ السبعينيات من جملة مصطلحات أطلقت على لون من الأدب له طابع القصة إذ إنه يتناول جانباً أو موقفاً محدداً من الحياة الإنسانية، بصورة مكثفة، على أن هذا المصطلح أوجد إشكالات عديدة سواء تسميته أم تعريفه، فمن هذه المصطلحات على سبيل المثال لا الحصر: القصة اللقطة أو القصة المكثفة أو القصة البرقية، أو الخبر القصصي أو الخاطرة القصصية والقصة الومضة.. ومثلما اختلف النقاد في التسمية اختلفوا أيضاً في تعريف القصة

❁ أديب وناقد سوري.

القصيرة جــدّاً وتحديد مفهومها، ويبدو أن الاختــلاف في التسمية ينبــع من اختلاف مفهومهــا، فبعضهم يستنــد إلى خصيصة واحدة من خصائصها كالتكثيف من دون أن يلتفــت إلى الخصائص الفنية الأخرى التي يمكــن أن تؤهلها لتكــون قصة، وقد ينطلق البعض من دافع التفرد في التماس مصطلح جديد لهــذا الكائن الملغــز، أو يعتمد على الترجمــة، ويُستفاد من مصطلــح (القصة القصيرة جدّاً) أنها تقوم على خاصتين:

الأولى: إنها قصة تنطبق عليها الشروط الأساسيــة للقصة بمفهومهــا الفني، وإنها قصيرة جــدّاً لا يتجاوز نصّهــا السطور أو الصفحة والصفحتين، والذين أطلقوا عليها اســم القصة اللقطــة أو الومضة لابدّ أنهم التفتوا إلى عنصر القصر والسرعة مستفيدة من عالم السينما والتصوير الفوتوغرافي.

والثانية: الخبر القصصي– وقد يتضمن عناصر من رواية الخبر، ورواية الأخبار باب قــديم في الأدب العربــي.. تحفــل به كتب التراث الجامعة كالأغاني للأصفهاني وبعض كتب الجاحظ.

وتقترب القصة القصيرة جدّاً من الخبر لأنهــا لا تستفيض بالتحليــل وإنما تهدف كما يهدف الخبر في كتب التراث إلى ترسيخ فكري أو تأملي أو اجتماعي. على أن دارسي القصة القصــيرة يعدونها جنساً أدبياً يثبت وجــوده. ويبدي مرونة تسمح للكاتب بحرية الحركــة والإبداع والتحليــل والتأويل. فهي تختلــف عن الخــبر لأنه إبلاغ عــن واقعة حقيقيــة تحتمل الصــدق أو الكــذب. أما القصــة القصيرة جدّاً فتقــوم في جوهرها على عنصر التخييل والتماهي. وهي تضيف إلى الواقع جديداً يتجاوز روايته أو تصوره.

ويرى الباحث «أحمد جاسم الحسين» إلى أن القصــة القصيرة لا تتجاوز ثلاثين كلمة، وقد تمتد إلى حجم صفحة واحدة أو أربع أو خمس صفحات، وإن كان هذا الحجم الطويل أخــذ ينحسر اليوم لــدى الكتّاب، فإن طول القصة وقصرهــا ليس دليلاً على نجاحها، فقد يكون الإيجاز مخلاً مثل الإطناب، وقد يشــوّه القصر خصائصهــا الفنية كالطول. وثمة طريقة يراها الباحث «أحمد الحسين» يمكن من خلالها أن تعرف القصة القصيرة جدّاً وهو المقارنــة. فثمة قصص تكتب في صفحة واحــدة لكنها تعدّ قصصاً قصيرة.. وهنــاك قصصــ أخرى تكتــب في صفحة واحدة، لكنها لاتعد قصصــاً قصيرة جدّاً، المهم هو البنية، وطريقة استعمال التقنيات وأركان القصة الأساسية، وطريقة التوظيف التي لها أثر في السياق القصصي.

ولا شــك أن ما يقع فيه الناقد من خلط

بين القصة القصيرة.. والقصيرة جدّاً مردّه إلى اعتماد مبدأ الطــول والقصر في حجم القصة. إضافة إلى رأي بعض الأدباء الذين قــد ينعتون بعضــ القصص أنهــا قصيرة جدّاً بينما هي تخرج فنياً من نطاق القصة القصيرة جــدّاً. فهي أقــرب إلى الخواطر التي تُصاغ بأسلــوب شاعري مع أن القصة القصيرة ليست خاطــرة أو شعراً أو مقالة. إنهــا تقوم على أربعــة أركان رئيسة في رأي بعضــ النقاد، وهـــي: القصصية، الجراءة، وحدة الفكر والموضوع، التكثيف.

أمــا القصصيــة فيتضمــن النصــ القصصي بعضــ السمــات الفنية للقصة كوجــود الشخصيــات والحــوار والمضمون والصراع مع التخلص من الاستطالات والميل إلى التكثيــف، وأبرز ما يميزهــا أنها تركز على الحدث وتسلط الضوء عليه في لحظة التبدل أو التغيير، وتجسد المضمون بلون من التكثيف الموحــي، والتوهّج والشاعرية. فإن القصة القصيرة جدّاً ليست معنية بالتحليل بل همهــا إبراز لحظة مصيريــة في الرؤية أو الفكــر أو السلوك. بحكم إيجازها، وهي تختار مــن الصراع ذروتــه، وتهتم بدرامية الموقف وصوغه لغويّاً وفق أسس أسلوبية مع إسقاط كثير من سمــات الشخصيات، وهو أمر يحتــاج إلى كاتب متمرس يختار التعبير الموجز المناسب.

أمــا عن الجراءة فالقصة القصيرة على إيجازها تقول أشيــاء لا يستطيع أن يقولها سواهــا، لأنها تضــرب في العمــق، وتنقد، وتخرج عن المألــوف في الحياة، وتدعو إلى إعادة النظر في السلوك والمواقف، ولها تأثير كبــير في النفســ إذا كان الكاتب ناجحاً في اختيار الإطــار القصصي لتقديم فكرته أو شعوره.

ووحدة الفكــر أو الموضــوع في القصة القصــيرة جــدّاً تعني التركيــز على جوهر القصة وغرضها بــلا إفاضة، والغرض هو الذي يمنحها وحدتهــا الفكرية وتماسكها. إذ تتواشـــج الأفكار فيها لتتسرب إلى أعماق الروح فيكــون لهــا دور تحريضـــي مؤثر، ويتوقــف ذلك علـــى حسن اختيــار الكاتب مادتهــا وأدواتها الفنيــة، وحذف ما لا يراه ملائماً.

والسمة الرابعــة هي التكثيف، فالقصة القصيرة جدّاً نص لغوي مختار وموجز، على أن الإيجاز لا يعنـــي الاختصار فحسب، بل يتجه إلى الصوغ اللغوي لأنه الوسيلة الأولى للتأثير، إذ يرتــدي الفكر أجنحة من الشعر والبيان المبتكر بلا إفراط، إذ يلامس الكاتب الهدف لكــن لا يفصح عنه بل يترك للقارئ

فرصــة المشاركــة في اكتشافــه.. فالقصة القصيرة جدّاً لا تميــل إلى الشرح والتعليل والتفصيل في رسم البيئة الزمانية والمكانية، لأن ذلك يفقدها توهجها، كذلك الاختصار مــن الروابط بين الجمل، واستطالة الجملة أو الإكثار من الضمائر والوصف المفصل.

وقــد يعمــد الكاتب إلى عــالم الحيوان، فالقصة القصيرة جدّاً، ليست جديدة كلياً، إنها قريبــة في التراث العالمــي من الأمثال السائــرة، من حيــث التركيز علــى المغزى، فجذورها ضاربة في القدم منذ عهد إيسوب اليوناني مروراً بلافونتين الفرنسي، وحكايات الأمثــال تقترب كثيراً مــن القصة القصيرة جدّاً لإيجازها، واعتماد بعضها على الخيال الشعبي، واستغلالها عالم الحيوان.

ونجــد في تراثنــا العربــي نمــاذج من الحكايات التــي أصبحت أمثالاً سائرة. كما نجد الكثير منها في مجمع الأمثال للميداني، وبعضها مستمد من عــالم الحيوان. غير أن قصص الأمثال تفتقر إلى التوهج الشاعري والفــن الأسلوبي الــذي يضيفه المبدع على القصة القصيرة جدّاً.

ولا ننســى أن للقصــة القصيرة تقنيات منها خصوصية اللغة والاقتصار في التعبير، ومنها الانزياح، وهي سمة لخصوصية اللغة، والانزيــاح اللغوي محاولــة تحميل مفردات اللغــة دلالات أوسع مــن دلالاتها المعجمية، وهو سمة يرى فيه الأدباء المحدثون تجديداً لحيــاة اللغة التي أبلاهــا جمود صيغها في حدود الاستعمال المصطلح عليه..

ومــن سماتها المفارقة التي يتوصل إليها الكاتــب بالمقابلات بين الأضــداد اللغوية، أو الموازنة بين حالتــين متناقضتين وهو ما يعرف بالتضاد المعنوي، وهو يسهم في إبراز الجانب المطلوب لأنه كما قيل: الضد يظهر حسنه الضــد، وبالمفارقة يمكن الكاتب (أن يقول شيئاً من دون أن يصرح به فعلاً).

ومن سماتها أيضاً التناص، وهو أحد أهم تقنياتها، فكثيراً من القصص القصيرة جدّاً تستند إلى التناص، وتجعله حاملاً للدلالات التــي به تنفتح على خارج النص وتحيل إلى نصوصــ أخرى تبعث أثرها مجدداً في نفس من قرأها سابقــاً، وهو تقنية ثقافية تقيس وعي الكاتــب وإلمامه وذكاءه وحسن توظيف قراءاته، مثلما يساعــد التناص على اللمح والإشارة لا التحديــد، لكن يمكن أن يسيء للقصة إذا جاء مسطحاً أو متداولاً.

ومــن سماتهــا أيضــاً: الترميــز، وهو استعمال اللغة بأسلوب رمزي، ومن المناسب في هــذا المجال الابتــكار في الرموز وحسن استغلالها، والتمهل في اختيارها، ومساعدة

القارئ على فك الرمــوز بالإيحاء بمفاتيح تسمح بحلها.

ومن أشكال الترميز: الأنسنة أو التشخيص (جعل الحيــوان أو الجماد يفكــر ويتكلم)، والتجسيم هو عكس التشخيص (مسخ الحي إلى جامــد أو كائن غير إنســاني) ويشترط في الأنسنــة ألاّ تكون تعليميــة وألا تقع في عيــب المباشرة، فهــي ليســت مشجباً يعلق عليه الكاتب ما يريد، وقد أكثرت القصص القصيرة جــدّاً من استغلال عــالم الحيوان للتعبير عن عالم الإنســان، وفي ذلك محاولة للتهرب مــن خطر الفكرة ونتائجها، والقمع الذي تتعرض له الأفــكار منذ القدم. ولعلّ قصص كليلة ودمنة مثل واضح لذلك. وقد أحســن الكاتب «زكريا تامــر» استغلال عالم الحيــوان للتعبير عن أفكار إنسانية بطريقة مبتكــرة، دون اعتماد السمات الخاصة لكل حيوان، وهو أسلوب استُهلك لكثرة التداول.

ويضيف الكاتــب الباحث «أحمد جاسم الحسين» في دراسته عــن القصة القصيرة جدّاً سمة السخرية الناجمة عن المفارقة أو المبالغة في التصويــر، والسخرية كانت منذ القــدم سلاحاً فعالاً لنقــد العيوب البشرية والاجتماعيــة، وقد تبطــن السخرية بقول الكاتــب شيئاً وهو يريد ضــده، وخاصة إذا اقترنت بالجــرأة، فــإن السخرية تكون من نوع الضحك الذي يعطي المرارة التي يحسّ بهــا الكاتب. وتخلّف القصــة القصيرة بعد قراءتهــا أثراً في النفس يدفــع بالقارئ إلى التأمل والتحليل والمشاركة.

ومن أبرز خصائصــ القصة القصيرة: الطرافــة. طرافــة الموضــوع أو غرابتــه، والمغزى المتميز الذي يفاجئ القارئ ويجذبه ويدهشه كما يدهشــه صورها وانزياحاتها، حتى طــاب لبعضهم بتشبيههــا بالجراحة المجهرية لدقتها ومــا تتطلبه من تركيز في البنيــة، ودراميــة في العرض. وقــد يؤخذ على بعض الكتاب لهذا اللون من القصص الإفراط في الإيهام والغموض.

إن هــذه الآراء النظرية لا تسمح لنا أن نميّــز بين القصــة القصيرة جــدّاً وسواها مــن القصصــ بسبب تلاقــي الخصائص واختــلاف وجهــات النظــر. ونلاحظ أن بعض الكتّــاب للقصة القصيرة جدّاً تناولوا هموم الفقــراء وما يتعرضــون له من قمع واستغــلال، أمثال الكاتب: «مروان المصري» في مجموعتــه (أحلام عامــل المطبعة) فهو يــدرك عالمه القصصي وتقنياته، ويدعو في معالجة المشكلة، فيعمد إلى التكثيف، ويختار المواقف الطريفة. كما يراعي أركان القصة القصيرة، ويمتاز الأديــب «مروان المصري» برؤية عميقة وتحليلات سليمة، فقد فضح

في قصصه عملاء المستغلين، بعضهم مختص بالحرب والأمن، وبعضهم تزيا بزي السلطة وصار يهاجم البسطاء، وبعضهم صار داعية وحكواتيــاً لمصالح أسياده، وبعضهم اختص بكتابــة التاريخ يزوّره كما يشاء، وبعضهم لا هدف لــه إلا المنصب، كما دعا الفقراء إلى المقاومة.

ففــي قصة (الفيل والنملة) يقول بلسان النملة مخاطبة الفيل:

(-أنــا لا أخشاك لأنك ضخم الجثة، بل لأنك تستطيع سحقي بقدمك-)

ويمكن أن نمثل لفنيــة القصة القصيرة جدّاً لديه بالنص التالي:

(فتح باب القفص، فارتعش العصفور، وخرج للتحــري، بعد بضع جــولات جاع.. فبحث عن قفصه..)

ويحرصــ الكاتب «مــروان» على تنامي العناصر والأحداث، ويراعي وحدة الموضوع، ويستخدم كثيراً «التناص»، فيستعير الأمثال الشعبيــة والحكايات التاريخيــة القديمة، فيقيم تعارضاً بين ما يرمي إليه، وما تنطق به شخصيات قصصه ويستغله لتأييد وجهة نظره، كما فعل في المثــل (عصفور في اليد خير من عشــرة على الشجرة) وهو يكثر من الاستعانة بعــالم الحيوان للترميــز والتعبير المنافح عن أفكاره، ويعمــد إلى الحوار كما في قصة (التنورة) التالية:

(-سألها السمّان مازحــاً: من صنع لكِ هذه التنورة العجيبة يا ابنتي؟ ردّت الصبية الصغيرة قائلة: الريح وأبواي

- ماذا..؟

- نعــم.. أسقطت الريــح العاتية الكثير من اللافتات، كما تعلم، فأحضر أبي واحدة، خاطتها أمي تنورة لي.

- ألم يكــن في وسعها جعل الشعارات إلى الداخل..

- أنــت محق، لكنك تعلــم أنني الوحيدة التي تقرأ في الأسرة)

ويمكــن أن نمثل للقصــة القصيرة جدّاً بما كتبته «غادة السمان» في كتابها «الأبدية لحظة حــب» بعنــوان «بطاقة مــن بحيرة كونستانســ جــاء فيها: (شاهــدت السيدة المسنّة تدخل الفندق النائي ليلاً في أحضان «الغابة السوداء» برفقة الشاب الصغير..

عند الفجر غادرا الفندق..

كانت السيدة متوهجة بالصبا..

أما الشاب فقد أضحى مسناً)

نحن أمام قصة قصيرة جدّاً لكنها بعيدة التأثير في مغزاها، تختــزل موضوعاً يمكن أن يكتب فيه صفحات.. لقد جاءت القصة

القصيرة وليدة أحوال ثقافية وتقنية، فإن الرقابة على الفكر دفع بكاتب القصة إلى اتخاذ هذا المنحى التعليمي الذي يُذكر بالأمثال، وقد تكون القصة القصيرة جدّاً امتداداً لهذا اللون من الأدب العالمي الشائع على مستوى شعبي والذي يختصر حكمة الأجيال بالجملة العابرة، ويرى بعضهم أن النكسات التي مرّت بها الأمة دفعت الكتّاب إلى التعبير عن نفوسهم المجرّحة وعجزهم عن التوجيه الصريح ومواجهة القوى العالمية التي تتحكم بمصائر الشعوب إضافة إلى ذلك أن عصرنا عصر السرعة فهو يميل إلى الإيصال السريع من خلال تقنيات عصرية تأثر بها الأدب.

ولاشك أن هناك عالمياً كتابات رائدة في القصة القصيرة جدّاً تواكب زمنياً أو تسبق القصة العربية القصيرة مثل كتابات: كافكا وفرجينيا وولف، وناتالي ساروت.. وأما ريادتها على صعيد الوطن العربي فيمكن أن نعد فترة السبعينيات من القرن الماضي مرحلة اكتمال نضجها. على يد بعض الكتّاب العرب..

لقد مرّت القصة القصيرة جدّاً بفترة تجريبية، وتعدّ قصص الكاتب وليد إخلاصي في مجموعته (الدهشة في العيون) بداية ناضجة، ونسوق منها المثال الآتي:

(عندما أصبح صغيري في السادسة من العمر، دسّ أنفه في وجهي، وتساءل قائلاً: بابا من هي ماما؟

- أمك وزوجتي..

وبعد تفكير.. قال: هل أنت متزوج من ماما؟

- نعم.. يا حبيبي

وابتسم من تحت جلد وجهي.. وصاح:

- وأنا من أتزوج؟

قلت بعد تفكير: أنت صغير

صاح من جديد، وكأنه استجمع تفكير كل أيامه:

سأتزوج أنا ماما..!

فصحت بلا تفكير، وكأن زوجتي تُسحب مني قهراً

- أنا.. سأتزوج ماما..

وأحسست آنذاك إحساس سجين حكم عليه بالعزلة، فهرعت احتضن زوجتي التي لم تكن من الحكاية شيئاً.)

وفي مجموعة الكاتب «نبيل جديد» (الرقص فوق الأسطحة) مثلاً للمضمون الناجح الذي يخلق شكله، وهي من القصص الرائدة، ومن الأدب الذي يستشرف المستقبل من أمثلة.. ففي قصة (امتحان) يقول:

(سؤال: من الذي بنى الأهرامات؟

الجواب: ملايين العمال والفلاحين الذين سخروا لهذا العمل-

العلامة: صفر..)

ويمكن أن يضاف إلى هاتين المجموعتين..

مجموعة الكاتب: «طلعت سقيرق» عنوانها (الخيمة) ومجموعة (السكين) وهما تتناولان الهم الفلسطيني، ولقصصه القصيرة نكهة متميزة وطريفة.. ومنها:

(اصطف الطلاب.. دخلوا بنظام، جلسوا على مقاعدهم بهدوء، قال المعلم: درسنا اليوم عن الفاعل.. مَنْ منكم يعرف الفاعل؟ رفع أحد الطلاب إصبعه، وقف وتثاءب، قال:

- الفاعل هو ذلك الذي لم يعد موجوداً بيننا.

ضحك الطلاب، وبكى المعلم..).

ولا يخفى أن هذه القصص ليست إلا خواطر لها إطار قصصي متخيل أو حقيقي..

ومن اللواتي كتبن القصة القصيرة جدّاً الكاتبة «ضياء قصبجي» وهي تمارس تأليف القصة منذ ربع قرن، وفي مجموعتها (إيحاءات) نجد نماذج للقصة القصيرة، وإن كان بعضها أقرب إلى الخاطرة والمثل، ومن نماذجها قصة «بحث»:

(انسلّت قطرة ما عن صديقاتها قائلة:

- لقد تعبت من المشي الطويل.

دفنت رأسها في التراب، «نامت» استيقظت، بحثت عن نفسها فلم تجدها.)

وأخيراً.. فإن القصة القصيرة جدّاً نافذة مفتوحة على الفنون الأدبية الأخرى، ومنها الخاطرة والمثل والحكمة والخبر، إلا أن تقنيات السرد القصصي الحديث قد طوّرت هذه الفنون المعروفة قديماً، ومنحتها طابعاً جديداً فاتسع أفقها باتساع الثقافة وتطوّر الهموم الإنسانية، فكانت خبراً معبراً عن مشكلات العصر والقلق الإنساني مع مراعاة إعطائها ألقاً جديداً وومضة ترد لها تأثيرها..





الجمالي.. الجسدي في الخطاب العرفاني بوصفه فيضاً قيمياً

منير الحافظ ❁

في البدء كان السؤال، قبل أن يكون البدء كلمة، والشيء الذي يَحسنُ بنا معرفته، ما معنى الوجود، في حال عدم وجود الإنسان فيه؟ ولكن، عندما تقرّى الإنسان الغاية من خلق الإله للوجود، تبين له، أنها تعريف بماهية جماله الربوبي، يقول بهذا الشأن، المفكر العرفاني «محي الدين بن عربي»(١١٦٥-١٢٤٠م) في مؤلفه «الفتوحات المكيّة»: «سبحان من خلق الأشياء وهو عينُها» ويردف في مكان آخر: «أخرج اللّهُ العالم على صورته ليكونَ مرآة يرى نفسه فيها، لذلك أحبَ اللّه نفسَه، فحب العالمَ من خلاله»(١) وروى البخاري في

❁ أديب وباحث من سورية.

كتاب «الاستئذان» عن رسول الله (ص): «إن الله خلق آدم على صورته».

وكما يرى «ابن عربي» في كتابه «فصوصُ الحكم» أن العالم قد استفاض عن روح الله ليبين جماله الألوهي، قوله:

يا خالقَ الأشياءَ في نفسه

أنتَ لما تخلقُه جامع

إن حب الله، حالة بحث يقيني عن الاندماج أو الاندغام بماهيته الربوبية، كونه قيمة بذاته، ملموسة، بيد أنها غير محسوسة، وهي مؤلفة من جملة القيم الجمالية التي خلقها على صورته، وأن وحدة الوجود، تأتي من وحدة الخالق، وهذا ما يؤكد قولنا، أن الله قيمة جمالية عليا، متماهية في خصائص الأشياء التي أبدعها، وتجسد وعياً معيارياً في كينونتها الأزلية، وقوله عن الرؤية الإلهية في الخلق الكوني: «أحببتُ أن أعرف، فخلقتُ الخلقَ، فبه عرفوني»، ويتقارب «ابن عربي» من قول «علي بن أبي طالب» (رض) وهو يخاطب الإنسان:

وتحسبُ أنكَ جرمٌ صغير

وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

لم ينف «ابن عربي» ما للجسد من ملكة جمالية تعكس الصورة الجمالية للخلق الرباني الذي هو موضوع عشق ووجد، وأن حبَ الله ينطوي تحت حب الإنسان للوجود القيمي الذي يعكس صورة الله الجلالية، إلا أنه يربأ بنبالة للارتقاء نحو الخالق عن طريق التأمل الصوفي «الإشراق»، يقول الشاعر «محمد إقبال»: «إن الحب العرفاني ينبثق من طاقة العشق ولذة التحليق» ولعلَّ معظم أفكار «ابن عربي» تتفق مع فلسفات ومعتقدات عديدة، منها فلسفة «الفيدا» الهندية التي ترى: «أن المعرفة الحقيقية تأتي عن طريق «الإشراق»، وأن الهدف من الحياة هو التوّحد (unification) بـ «براهما» كما هو الشأن عند «التاويين» الصينيين الذين يعتقدون بـ «أن الله يتجلى في العالم المُجسّم»، يقول ابن عربي: «إن الحق يتجلى في جوهر الأشياء»، وقد تأثر بالفلسفة الأفلاطونية التي طرحت فكرة «الفيضية» القائلة: «أن العالم قد فاض عن الإله خالق الكونية» ونراه يتطابق مع مفكري الغرب «الأوروبي» أمثال «سبينوزا» في «وحدة الوجود» ومع هيجل في «الديالكتيكية» الجدلية.

وحدة الوجود من وحدة الخالق

سنتوقف عند هذا الجانب مطولاً، وسنأخذ مساحة نتأمل ما فيه من معانٍ، ونحلل بصورة خاصة رؤية قمينة في البحث والتمعُّن، كان قد طرحها «ابن عربي» قوله: «أول ما خلق الله العقل، وهو أول الأجناس،

وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني، فكمُلت الدائرة»[٢].

وقال أيضاً بهذا الشأن: «الإنسان الأول بالمرتبة، والآخر بالوجود، فالإنسان من حيث رتبته أقدم» منه «من حيث جسميته»[٣].

يبين في مقولتيه الآنفتين، موضوع الإنسان في كينونة الوجود، ويبدو جليّاً، أن العقل «القلم» كما نعته، هو من الفيض العقلاني الإلهي الذي خصّ به الإنسان وحده، وبناءً على هذه الهبة الإلهية، تبوأ الإنسان مكانة خلافة الله على الأرض، والمفيد في هذا الشأن، أنه ينبغي الإشارة إلى أن العقل، ليس محمولاً على الجسد كما يدّعون، أو منفصلاً عن تركيبته، وإلا في هذه الحالة، يُمسي الجسد بلا عقل، ويغدو حاله أشبه بالبهيمة، ومن هذا المنظور شبّه «ابن عربي» الكون بحلقة مغلقة، بدأت بالإنسان «عقلاً» وانتهت بالإنسان «جسداً»، وإذا ما تناولنا فلسفته في موضوع التكوين الوجودي، ستطالعنا جملة أنساق فكرية، تُشكل شبكة معرفية هامة في تكوين العقل الإسلامي إزاء فلسفة الوجود المادي، وأن ما يتعلق بالثنائية التي تميّزَ بها الإنسان، عقلاً وجسداً.

ويطرح «ابن عربي» في هذا الشأن، الوجه الأول من الثنائية «الظاهر» الممثل بـ«الجسد» كونه مُجسّم دوني آيل إلى موات، والوجه الثاني «الباطن» الممثل بـ«العقل» كونه روح متعالية ترجع عائديتها إلى بارئها في الأعالي، وهنا ينبغي عدم التفكير، في أن الإله، كان قد كفَّ يده عن صورة الجسد المرتبط بإثمية لذائذية دونية في الأرض، لكونه كيان زائل، لا يحظى ببقاء خالقه البتة، ووحدها الروح «العقل» التي تحظى ببقاء ربها، ووحدها التي تخضع للمساءلة الربانية عن أفعالها في حضرة الإله مباشرة.

لم يصل ابن عربي بين تلك القوتين المتجسدتين في كينونة (entite) الذات الآدمية، وقد اعتبر، أنه اجتمعت فيه كلّ حقائق الأسماء الإلهية، قوله: «هو الآخر من حيث الصورة الكونية -ويعني هنا الجسد الدنيوي المحسوس- والظاهر بالصورتين، والباطن عن الصورة الكونية بما عنده من الصورة الإلهية»[٤].

فعندما يذكر أن الإنسان مساوٍ للعالم ومساوٍ لله، لا يعني التماثل (similarite) أو التطابق من ناحية الكينونة المجسّمة، بيد أن تغايراً بين ماهية (essence) المكوّن البشري والمكوّن الإلهي.

ولا أتفق مع «ابن عربي» في قوله: «إن الإنسان هو روح العالم أو الوجود» هذا

شطــط مبالغ به، فالــروح أو العقل الآدمي يتأمــل روح الله «العقــل الإلهــي» المتجلي (وهو بالطبع، العقل المتماهي في خصائص الأشياء المجسّمة التــي تُمثِّلُ الروحَ المحركة للقوى الكونية، كما أوضحت سالفاً)، واعتبرَ أن «القطب» الممثل بالإنسان، بوصفه مجلىً إلهيــاً، هو مركز مدار الوجود، ومدار الأمر الإلهي، هــذه رؤية فيها ثمة خلط والتباس، لــذا، ينبغــي علينا تصويب حقيقــة ما إذا كان الإنســان مركز دائرة، أم نقطة انطلاق لتمامية الدائرة، أم مدار الأمر الإلهي، ونرى أنــه من غير الجائز، الإقــرار في، أن العقل الآدمي يمثل العقل الإلهــي، وعدم اعتباره مركز مدار العالم، وصحيحه، أنه مركز الأمر الإلهي، مــن حيث هو عقــل تأملي، يبحث عن القيمــة الجمالية بوصفها مادة معرفية متجليــة، تكشف عن ماهيــة العقل الإلهي المتجلــي في الخصائص الكونيــة، وما دام العقل الآدمي بحث عــن المعرفة من خلال تأملاته وأبحاثه وتجاربه للكشف عن القيمة الكلانية، فهو إذاً، عقل غير كامل، وهو بعد في طور التجلــي الأفهومي للعالم، ولم تكتمل الحلقة المعرفية بين الــذات كجسد وعقل، وبين الذات وعالمهــا المُجسّد، وبين الكونية وخالقها غير المُتجسّد، وأن ما يطرحه حول العقــل المتجلي للمرء المتأمل للجمال الإلهي وجلاله الفائق للكونيــة، فقد اعتبره بقوله «إن الروح الإنساني هو خليفة الله في أرض البدن»[٥].

يتبادر إلى الذهــن، أن «ابن عربي» رفع من سمو وقدسية الروح الآدمية، لأنها إحدى تجليــات العقل الإلهي، وأهمل دوره البدني، إذ اعتبره أشبه بوعاء أو حاضن أو كينونة أو حامل لسرّ الروح، قوله: «لا فائدة من حيث هو مكان لهذا السّر المطلوب»[٦].

ونشاهــده لا يخرج عن ارتهانات المحرّم «التابــو» (tabou) فيما يخصــ الجسد، وأبقاه كينونة ســوءٍ قابلة لارتكاب الإثم أو الخطيئة (sin)، كما هــو الشأن في النفس المستفيضــة عن الروح، مــع الإشارة إلى أن الروح، هي مجلى إلهيّ خاضع لأمره، فيذكرُ «أن النفســ إذا مالــت إلى جانب الظاهر، وأطاعت الهوى والشهوة، كان التغيير، وحصل لها اسم الأمَّــارة بالسوء، وإن أجابت العقل كان التطهير، وصح لها اسم المطمئنة»[٧].

إن كل مُجســد فيض إلهي، وأن حقيقته المتكثرة، هي واحدية في بنيتها، لأنها منحدرة من أصل خالق واحد لكونية واحدة، وإن تخلى الخالق عن حقيقة حركة الكونية، من حيث هو الروح المتماهيــة (identificaition)

في خصائصهـــا، يعنـــي نهاية العـــالم، إذن، الجسد الحـــي والمكوّنات الماديـــة المتعالقة في منظومـــة كونيـــة مقوننة، هـــو تجسيد حقيقي لروح الله في الوجود، ومن ذا، ننفذ إلى مستنبـــط سبق أن عرضنـــا له بعجالة، يخص استشهـــاد شخصيات متفوقة ذهبت قرباناً جمالياً ومعرفياً وروحياً إزاء تحقيق مبادئها ورؤاهـــا ورسالاتها، سواء كانت من أنبيـــاء أم رسل أم قـــادة عسكريين أم علماء أم مفكريـــن أم فلاسفة، والقول في أن موت الجسد لهذه الشخصيـــات، هو فناء فردي للذات الواحدية، ليس بصحيح، وإنما هو في حقيقة أمره، حياة باقية للذوات المتكثرة من الأجيال المتعاقبة التـــي تتبنى وتُجسّد هذه الدعـــوات الانتقالية للوعـــي الخلاق، ومن هذا المفهوم، تتجلـــى نزعة الخلودية للذات الآدمية، والشأن نفســـه، ينطبق على عموم أجساد الذات البشرية.

هنالك لبس في التحليل المنطقي لخلافة الإنســـان لله على الأرضـــ، أو ظل الله، من حيـــث أنه «أبدع على صورة الخالق، فمنحه الكمال ليكون بدلاً من الحق، وما ظهر عنه من أمثاله في عالم الأجسام»[8].

قال تعالى: «**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**»[9].

وقال الرسول (صـــ) في حديث شريف: «**إن الله خلقَ آدمَ على صورته**».

وتبـــدو الخلافـــة ليست علـــى الصورة الظاهريـــة للمجسّم الجسدي، بقدر ما هي على العقل الباطنـــي، وليست التوازنية، أن يكـــون وزن الذاتيـــة البشرية بـــوزن الذاتية الإلهيـــة، وإنما الوزن، يخص العقل البشري الذي يمثل ظل الله في الحياة الدنيا، وليس هنالك من حدود بينهمـــا من حيث الكم أو الكيف، وصورته تأخذ معنى مجازياً للرؤية. إن العقـــل الآدمـــي المتميـــز علـــى الأرض، وحـــدهُ الذي يتولى الكشف عـــن سُتر القيم الجمالية للمثال الرفيـــع الذي أبدعه الله، وبدوره يعكس صورة المثال الإلهي في الباطن البشري، بحيث يكونَ موازناً ومساوياً للعقل الإلهـــي في التفكُر والتدبُّر والسلوك القويم، والجسد الآدمي الذي يتصف بقيمة جمالية من حيث هـــو وعيٌ فوقيٌ متعـــال، وحمالُ عقـــل متأمـــل في الخلق الإلهـــي ومتجلياته الكونية، فهو ظل الله، أي الصورة المتخايلة للإرهاب الإلهي المنعكسة على مرآة الوجود، بوصفه مُجسّمـــاً مُتكثرَ الخواص والماهيات، ومن ضمنها الجسد الآدمي.

الجسد بين الصورة والعقل

وحـــده الإنسان الـــذي يتصف بقيمتين عن باقي الكائنات، فهو قيمة صورة لجسد،

وقيمـة جوهر لعقل محمـول على الصورة، يقـول «أرسطـو» (٣٨٤-٣٢٢) ق.م: «إن الصورة تسوّغ وجـود الكائن، وجوهر كعقل يعـبر عن الفكر الكمالي قيمـة روحية، وأن القيمة متجسـدة في الواقع تجسّد الصورة في الهيولى».

يشير «ابن عربي» أن التماثل بين الإنسان والله ليس تماثلاً ذاتياً، وإنما تماثلاً مع صورة العقل المتجلـي في العلم الإلهي، وكل معقـول مُجسم للوجود، هـو معقولية الحق «الجمـال الإلهي» في مخلوقاتـه، أي تماثل معرفي وليس جسمي، وهـذا المعادل، قائم على مبدأ الوجود المُجسّم العياني، والتصوّر الذهنـي للقيمة الجماليـة الناظمة كوعي إلهي متمـاهٍ في خصائصـ الأشياء، والإله في نظـر «ابـن عربي»هو ظاهـر وباطن، فظاهر في أعيان صـور الموجودات وأهمها الإنسان، وباطن في تماهيه في بطون ذاته في حُجب الأكوان، يقول: «لولا سريان الحق في الموجودات بالصورة، ما كان للعالم وجود»(١٠). وأرى أن المحجوبيـة، أي كعلـم أو قيمة أو عقل أو إدراك، غير ملموسة في المُجسّمات، ولكنها محسوسة في نظام حركة المُجسّمات، ومن ضمنها الجسد الآدمـي، أي أن العقل البشـري يُظهر صورة الحقائـق الإلهية من طوايا المُجسّمات.

إن الخيـال يخلع علـى القيمة اللائذة خلـف الصورة حكماً قدسيـاً، والقيمة هي ماهية إلهية ما فوق المحسوس، وليست هي الله بطبيعة الحال، بيـد أنها روح عقلانية متماهية في المتجسّد، وعلى وجه الخصوص الإنسان، والقيمة هي تصعيد الخيال للنفاذ إلى ما وراء الحسي عن طريق التأويل، وهذه من صفـات التجلي العرفاني عند الصوفي، ورغم أن الخيال، خلع على الوجود موجودية الإلـه في تعالقاته مـع الكونية، فإن المعرفة المتراكمـة، مستمدة مـن المقونـن القيمي للمتجسدات الكونيـة في أبعادها الجمالية والمعرفيـة والقيمية والعلمية والروحية غير الملموسة، بل هي حيثيات تثبت صحة التخيّل والتأمـل والتأويل في أن الإله، ليس حضوراً خياليـاً في الوجـود، بقـدر ما هـو وجود قيمي ووعي خـلاق، والوجود مجلىً معرفي «غونوصـي» (gnostigues)، يتعالـق مع الحضور المتماهي للقيمة الإلهية في الشيء المُجسّم بذاته، ولهذا لا يخفق الخيال مهما ساح وانفلت خـارج المـدار الجسماني، بل سيظل المُنتج لمخازين المستبطن الجسماني، أعني الإنسان بذاته، ويتجلى المستبطن عند الصـوفي، في أن المعرفة، سرحان خيالي في أجواف الذات، وهنا تكمن فلسفة الخلاص من الجسدية والإبحار في الخيال، وعلى حد

قول «ابن عربي»: «أما الإسراءات الروحانية للأوليــاء، هي مشاهدة معــانٍ متجسدة في صــور محسوسة للخيال، يعطــون العلم بما تتضمنه الصور من المعاني»[11].

ركــز «ابن عربي» علــى أن المعرفة، هي تحقيــق إرادة اللّه مــن التجلــي الوجودي للظهور في أعيان الصور الممكنات، والتجلي الإلهــي المعرفي في قلوب العبــاد، فالظاهر «العيــاني» للممكــن المحسوســ أو المُعاش، هو صورة «الظاهــر». ويمثله الجسد الذي يتعالــق مــع حقائق الوجــود، والباطن هي جملة الحقائــق القيمية التي يتأملها القلب -الباطن- الذي تمثله الحقيقة الإلهية.

حصــرَ الفكــرُ الإسلامــي الجمال في الصورة المجردة وليس في الصورة المُجسّدة، وأهمل جمالية وكمالية الجسد، ولم يلج عالمه التركيبي «العضوي» فالصورة عنده روحانية لا تشوبهــا الكثافــة الماديــة «الجسمانية»، ونتساءل، إذا كان اللّه صورة جمالية وكمالية مجردة في النظر الديني، وواحدي في جوهره الإلهي، هل يحق لنا تشبيهه بالتصوّر المجرد؟ الفكــر الإسلامي، يجيــب: لا، ويرى أنه ما عــدا اللّه الذي ليس هو صــورة أو مادة، لا يتحيّــز ولا يتكيّف، إذاً، لماذا نصوّر أشياء لا وجود لها في حياتنا السماوية والأرضية التي خلقها اللّه بذاته، كي نتفكر في سنته الكونية غــير القابلة للتحويــل أو التبديــل؟ وكيف يتسنى للعقل اليقيني أن يتصوّر هيولات أو مجسّمات أو رؤى من الأخيلة لصور جمالية مجــردة في اللازمان، وفي هــذه العملية، لا وجود للّه، ولا علاقة له في هذه الرؤى؟ أليس هــذا الخلط في ضروب الــكلام، ما يجافي الحقائق، ويشوش العقل الآدمي؟!.

قد يــرى الفكر «الصــوفي» أن الصورة هــي «العقل» في كماله وجماله، أو الروح في تعاليها، أو الأخــلاق في تعاملاتها، رغم أن الصورة اللامحسوسة تُمثل القيمة، إلا أنها، المحور الناظم للقيمة المادية، وأن الخلاص هــو صــورة الفعــل أو الحــدث أو الواقعة الفاضلة.

إن الصورة في الفعــل الفضيل المُجسّد، هي المجال الذي يجسده الكمال في جواهر الأشيــاء، والقبح، هو صــورة الفاسد الذي يُجسّــد الناقص في جواهر الأشياء، وصفوة الــكلام، نحن نزعم بأن الصــورة الجميلة، هي انعكاس عن تمامية أو كمالية الجوهر، وليســت هنالك مــن صــورة إلا في الزمان المُجسّد، المنعكس عن الخصائص التكوينية للشيء، وإن اللازمان، هو عالم ما فوق الأشياء، ومنها الجسد الذي يخصُــ جلالَ الخالق، وهو بعيد عن الصــورة والتصوّر والمجسّم، وليس من شأن العقــل البشري، البحث عن

خصائص التكوين الإلهي، بقدر ما ينحصر شأنه في البحث عن الأثر الجلالي المتماهي في الخصائص القيمية للوجود التي أبدعها الخالق بإرادته العليا.

إن الجمال منقوص في ثقافتنا الروحية، لأننا نستبعد «اللذة» المادية ومنها العضوية بذريعة أنها قبح، فنربأ من تعاطيها، يقول «ابن عربي»: «أن المجاهدة، هي حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى»[١٢].

المجاهدة، هي ترويض الجسد وحجبه عن ملذاته الحسية، والشهوات تفقد الكمال، وتفسد الذوقية الجمالية، وتُعد الكائن كتلة شهوية قبيحة، وتتطلب المجاهدة قدرات روحية عالية، لا تتوافر لدى كل الناس، فهل نعتبر العموم البشري كوائن مرذولة وناقصة، ولا يتمتعون بشيء من الكمال؟ وهم أناس يغلب عليهم الشعور بالألم والبؤس، ويُعدَونَ من الكائنات المُعذبة في الحياة الدنيا، ولا يحظون إلا بالجحيم، يقول «ابن سينا»: «ويغفله عن الشوق الذي يخصُّه، وعن طلب الكمال الذي له، وعن الشعور بلذة الكمال، إن حصل له، والشعور بألم الكمال إن قصّر عنه»[١٣] يرى المتصوفة، أن السعادة، هي الدخول في عالم لذة الجمال الروحي الكلي، الذي يُمكنه من الخروج من العذابات والآلام النفسية والروحية التي يرتهن لها في لذة الجمال الجسدي الناقص، ويُصنِّفُ هؤلاء البشر إلى أردياء وفضلاء، ويبدو أن الأردياء يخالفون المشيئة الإلهية في الخلق الإنساني، وقال تعالى في قويم خلقه للإنسان: «**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**»؟! والأنكى من هذا، أن هؤلاء القبحاء، مردهم إلى عذابات الجحيم، ولكن الكثير من الناس، يتبعون طقوسهم الروحية والدينية، ولا يحرمون أجسادهم من الغذاء والغرائز والحاجات الضرورية التي يتطلبها الجسد، من حيث هي، دوافع غرزها اللّه في الأبدان الحيّة، ويوفقون بين التفكير في جمال اللّه وكماله، وجمال الإنسان وكماله، وتدبير ضرورات وحدة العلاقة بين هذه القوى المتحركة بأمر اللّه دونما أي حجب وإذلال «وإن لبدنك عليك حق» باتت اللذة الحسية الشغل الشاغل للفكر وللمنظومات الأخلاقية والعُرفية والقانونية والدينية منذ بدء «الخطيئة الكبرى» «تفاحة الشهوة» وتوجيه النفس «العقل» إلى ممارسة اللذة الروحية، فأين اللذة ما دامت الصورة للأشياء لا ترتقي إلى الشرف والكبرياء، وأن اللّه ليس كمثله شيء؟.

لقد عطّل «الأنا القيومي» للفكر الذكوري وظائف وآليات الجسد، وأعلن طلاق المادة الدنيوية، وأنهى حياة الشراكة في الموجودية،

إذن، مــا هو الجمالي للوصــول إلى الكمالي في عــالم المحسوس أو عــالم التخييل؟! ومن هم أولئك السعداء الذين يتحدون في الذات الإلهية ويحظون بجنان الخُلد؟!، ومن هؤلاء المعذبــون الذين لا يملكون مــن القوى التي تدمجهم بالله، فيحظون بجحيم الأبدية؟!.

لا غرو، من المتوجب اتباع طريقة الحفر الفكري، بحثــاً عن المعماريــات المطموسة في قارة الجسد المهجــورة، والاشتغال على مبــدأ الحفر «الأركيولوجــي» لبيان جواهر المتناسقات الهندسية للتعبير عن الأفهومات الجسدية، وما يتمتع به الجسد من تشكيلات رمزيــة دالة، وهذه من مهمــات النقد التي تقرّاهــا العقل البحثــي التخصصي، الذي يتولى بدوره تقشير اللحاء القيمي الأسطوري المكتســي به الجسد اللائذ بحياء، والمتواري خلــف غلالة الــدلالات الشفافــة لعبقرية هذا المتجسّــد المتأمل بقداسة متجلية لبنية الوجود، لا قراءة «دوغمائية» تغريبية يتبعها المؤدلج اللاهوتي –والأفلاطوني الذي ينشد مدائناً فاضلة، غير أنه أسدل ستر الاحتشام التي حجبــت الشفافيــة الجمالية لهندسة الجسد، وكتبت المعقلــن التجسيدي الكامن في مظانات الأداء الخــلاّق الذي تتجلى به التجربة الصوفية المعرفية.

إن الإفصــاح عن المسكــوت أو المحذور من الكلام، حاجــة يفرضها الوعي القيمي لبناء مدائن فاضلة تُعاش، وأنها ترى الوجود من منظور جسدي جمــالي، كما يُنظر إليه من وجهة عقلانيــة تتملى الملكات المتعددة، يقــول «رولان بــارت»: «تصبــح القراءة في الخطاب العرفاني رغبــة في الآخر وعشقاً للجسد»(١٤).

إن الانطواء نحو الداخل، وكبت المنطوق الجسدي، وتعطيل آلية الأداء (perform)، حــال دون تشظــي التخييــل التجسيــدي للمتشكلات الهندسية في رواسم المعماريات المعرفيــة والفنية والروحية، بذا، يجب عدم السكوت علــى مكبوتية المنطــوق الحاضن للخواص الجمالية، وفتــح الدُرَف مشرعنة أمام تدفق الانسيال الجسدي الذي مأسس (axiomes) مــن قبــل، تاريــخ الأساطير والديانــات الشامــل لطقوسهــا وشعائرها وفنونها وأناشيدها الخالدة.

اللغة الإشارية

ولابد هنا من إيــلاء الفلسفة العرفانية المتصوفة أهمية، فيما يخص «طقوس الجسد (bodyritual)» في الخطــاب العرفــاني، وأرى في رؤيــة «ابن عربــي» أنموذجاً يُتبع، مــن خلال دراسته المعمّقــة في كتابه «اللغة الإشارية».

صُنف الجسد في نظر المشتغلين على فلسفة الجسد (الجسد الإشاري) (الجسد العباري) (الجسد الإيروسي) (الجسد الرغائبي) (الجسد الوجدي) (الجسد العرفاني) (الجسد الأقيانوسي).. وبيّن «دوسارتو»: «أن الخطاب العرفاني مستغرق في معجمه الجسدي، وأن وظيفة العرفان، تجسيد (somatise) كل ما يقع تحت رؤيته، فهو يترجم إيقاع المعنى بفهرس جسدي»(١٥).

ويمكنني أن أجملَ التقاليد «البوذية» مع الخطابات الصوفية العرفانية التي ترى أن الزهد في قهر الجسد، يمنح الناسك كشفاً روحانياً عن الحقيقة المتجلية التي تضمن الخلاص الجسدي، والذي يرتقي به بوساطة التأمل الدخول في «النيرفانا» الأبدية، والخلاص يرتبط بصورة لازبة بعذاب الجسد، وهو مبدأ يقيني، وفي هذه الحالة، يجب على الناسك اتباع طرائق التعذيب للخلاص من الألم الدنيوي، والولوج في عالم سعادة الكشف عن الحكمة الضائعة، ويبدو أن هذا الاعتقاد في إهمال أو تعذيب الجسد، ينطلق من قناعة مفادها، أن الجسد كيان ظاهري سطحي فقير، لا يمتلك القدرة على كشف الحقيقة، وأما الانكفاء على الباطن الجسدي كجوهر (substantial)، هو انفتاح الرؤية، كي يستنير العقل بالحكمة النبيلة، ولعلَّ الشقاء أو الألم، هو البلسم الذي يُبرء النفس أو الذات الناسكة من مرض الرغبة، فتتصعّد نحو تحقيق الرؤية أو الحكمة، فتمنحها السلوك القويم أو المثال الرفيع، وأجد في هذا التقليد الروحي عزوفاً صريحاً عن الجسد، بوصفه كينونة خارجية مضطربة وتائهة، لا تمتلك مقومات المعرفة الحقة، لذا حدث الانكفاء نحو الأجواف المستبطنةِ لأنساق المعرفة، وإلى حيث ترقد الحكمة ساكنة في قيعانها، وكأن البوذية، لاتبحث عن الألوهة في سطوح الأجساد غير المستوية، وإنَّما في بواطنها المنبسطة على طولها، والحاوية الأسرار الكونية كافة، وإن جاز لي التشبيه، كأنها الصندوق الأسود، الذي يحتوي على الأسرار الفنية للطائرة.

وأخلص في القول، إن الزهد الذي يفجر طاقة الجسد، وحده العامل على دفع الروح لأن تتعشق الجلال الإلهي بوصفه القيمة الجمالية المتماهية في خصائص البناء الكوني.

إن الجسد الإشاري التصوفي، هو صراخ منبعث من قيعان البواطن الولهة، ومن طيات مويجات الهيجان، ومن عماءات التشهي الذي يؤجج أوار العشق، واللغة التي تعبر عن «المنولوج» الباطني، وكل ما ينزع

إليــه الجسد. يقول «دوسارتــو»: «ما تقرؤه القــراءة، هو انشطــارات الجسد عندما لا يصبح «هو» ولا يرضى بهذا ولا يبقى هنا.. إن ننصــت إلى الصوت المتقطع انطلاقاً من جســد الحب الضائع، والــذي يعيد إبداعه من جديد»[١٦].

الحب والماهية الربانية

مــن المجدي في اعتقادنــا، التسليم بأن الصوفية العرفانية، هي خطاب جمالي قبل أن تكــون خطاباً يركــن ليقينيات يخاطبها الخوف والشك والجهالة، وهو خطاب روحي تصعيــدي، يدعو في مظانه إلى عدم الجزع من خالق الكونية، والدوخان في الأوهام، إن الله يتصــف بمشيئة إرهابيــة -حاشاه جلَّ وعلا- تستوحش من هول قسوتها، بل تربية التأمل المتجلي في البحث الدؤوب عن هيولة الألوهية المنسربة في خصائص الأشياء قيماً جماليــة جذابة، ترتقــي إلى نواصي الحب والوجد، للتماهي في جلال الجمال الإلهي، والاندغام فيه، فإذا كان الإله ماهية مكوّنة من هيولة خوف ورهبة وقبح، فلا يَعُد خليقاً بالعبــادة، وإذا كانت ماهيته المتعالية مكوّنة مــن هيولة الأنس والرحمة والجمال -وهي كذلــك- فإنها خليقة بالعبــادة، والخطاب الصوفي العرفــاني، هو أقــرب فكر تلمّس طريقَ الاندغام بالجمال الكلاني الإطلاقي للماهيــة الإلهية حباً، وليســ خوفاً، تقول الشاعرة العرفانية المتصوفة، شهيدة العشق الإلهي «رابعة العدويــة» (٩٥-١٨٠هـ) التي وصفها بعض نقاد الغرب بـ«القديسة»، تلكم المرأة التــي هامت بالــذات الإلهية عشقاً، وتطلعت نحــو الاندماج في الماهية الربانية، وخاطبــت «الله»جلّ جلالــه، أن ما تهيم به النفس الوثابة نحوك، ليس خوفاً من نارك، ولا طمعــاً في جنتــك، وهــذا يكشــف عن حالة تجاوز المحسوســ لكينونة الجسد إلى اللامحسوس، أي ما فوق الجسد قولها:

أحــبــكَ حــبــين، حــبُ الــهــوى
وحُــبــاً لأنــــكَ أهـــــلٌ لـــذاك
فــأمـــا الـــذي هـــو حـــبُ الـهــوى
فشغلي بـذكـركَ عـمّـن سـواك
وأمــــا الــــذي أنــــت أهـــــلٌ لـه
فكشفكَ لي الحُجبَ حتى أراك

ولا بأســ من الإشــارة إلى مسألة يجدر طرحهــا في هــذا السياق، تُــرى، هل الله بحاجــة إلى محبتنا له؟، أم أن به نقص حب كي يأنس بحبنا؟ -حاشاه جلَّ وعلا- أم نحن بحاجة إلى حبه لنقصــ في ذواتنا المذعورة مــن غضبه ولعنته وعقابه؟، وهل دعوة الله لنــا إلى محبته إشــارة إلى فضله العظيم في خلقنا؟، ولكن، أليس هو من غرز في أنفسنا

الحب والرحمة والشفقة؟، أوليس هو رب الحب والجمال؟، أم أن ما يغضبه، هو انتقام مما لا يحبه؟ لا أعتقد بذا ولا ذاك، فالحب رمز يشير إلى تأمل العقل البشري في القيم الجمالية المتعالقة بين الإنسان وخالقه، وأن تلمُّس هذه القيم، يُولّد الجلال في الأنفس، وأن جلال الجمال، هو تعبير عن الإيمانية بالألوهية، والتقوى، هي ممارسة القيم الفاضلة في الفعل البشري، ويتبين أن الحب زهد، يعبر عن فلسفة الاندغام بالذات الإلهية، والحب وحده الذي يُحقق فعل التوّحد، وذلك عبر ترويض الجسد، ولذا، اتبع بعض الزُهّاد ممارسة أساليب قاسية على الجسد، والعيش في خشونة وضنك وتقشف وتعفف، وإهمال لذائذ الدنيا، وهجر الجسد، والتوجه إلى نسكهم ومحياهم المتواصل مع الذات الإلهية، واعتبروا الجسد كهفاً مظلماً، ورأوا، أن التوّحد عشقاً برب البرية، هو إضاءة لبصيرتهم الداخلية، والسمو بأرواحهم إلى علام الغيوب، يرى أصحاب هذا الاتجاه اليقيني في الزهد، أنه جهاد ضد النفس الأمارة بالسوء، والتي تهفو نحو ملذات الدنيا الفانية، وأن الحقيقة تتماهى خلف الرغائب الجسدية، وغاية البحث عن الحقائق، هي تقويم الأنفس القلقة، والقناعة بما يسد الرمق ويستر الجسد، وتطلع إلى الفيض الروحاني الإلهي بدل الفيض اللذائذي الجسداني، فالدنيا مرتع باطل، ويجب الالتفات صوب الخالق، والزهد وحده الذي يسمو بالروح، ويحررها من غريزة الجسد، وبه برء من الشهوة، وخلاص من الخطايا، ويمهد للدخول في مدارات القداسة، ولنا في التاريخ شخصيات اتبعت طريقة الزهد والتصوّف، أمثال (أفلاطون، رابعة العدوية، حيّونة، كونفشيوس، بوذا، رباح بن عمرو القيسي، الشاعر أبو العتاهية، أبو الحسن البصري، المهاتما غاندي..إلخ).

الجسد وسلطة العرفان

اهتم الخطاب الصوفي بجغرافية وتأريخ وبيولوجيا الجسد، وأكثر من حفر في مطموراتها، فلسفة «عرفان السلطة» عند «ميشال فوكو» (١٩٦٢-١٩٨٤م) و«سلطة العرفان» عند «ميشال دوسارتو» (١٩٢٥-١٩٨٦م) ومابينهما من الإشارات الجمالية في ثقافة الجسد، ويثني «فرويد» على أنواع الخطاب بتصنيفه، أن الخطاب الصوفي هو جسد وثيق الاتصال بالتحليل النفسي، وأرجع المتفكرون في خلق البشر، أن الإنسان نفس أو روح أو عقل، ولم يذكروا أن الإنسان جسد قبل أي شيء، واشتغلوا في طقوسهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وآدابهم وفنونهم وشعائرهم، على أن الإنسان كائن جسدي

في مأكلــه ومشربه وسلوكــه وجنسه وإيمانه وخطاياه ورغائبه ومشاعره وموته..إلخ.

رأى «دوسارتــو» أن المتصــوف يجد مع الجســد لغته الاجتماعية قبل أن يجدها في النزوع الروحي في العصر الوسيط.. وقال: «كنا ندمر الجسد لحســاب المعنى، ونعطي الأولويــة للدلالــة الروحيــة علــى حساب الظواهر الجسمية» ويقول أيضاً: «المتصوف يُجسد (somatise) فهو يترجم إيقاع المعنى بفهرســ جسدي، إنه لا يلعب فقط بجسده، إنه لعبة بين يدي جسده».(١٧)

يقول «هنري كوربان» في مؤلفه «الخيال الخلاق في تصوّف ابن عربي»: «إن المتصوف يعبر عن تجربــة في فضــاء يُروحن ما هو جسدي، ويجسد ما هو روحاني».(١٨)

مــن الضــروري التركيز علــى الإنسان بوصفه قيمة معرفية تستشرق المجلى الإلهي الذي استفاضــ الوجود عن روحه الربانية، نظــراً لتفرد الإنسان بملكــة العقل، ولذلك يجب تنــاول حقيقة وجــوده لمعرفة حقيقة وجود الإله خالق الكونية، ومن الطبيعي، لو لم يُخلق الإنسان، أو لو لم يمتلك عقلاً، فمثله كالبهائــم الشاردة، إذن، مــا المعنى القيمي للوجود؟

لقــد وضــع الله ســرّه الربــاني في من استخلفــه علــى الأرض، ألا وهــو الإنسان العاقــل، ولمــا لم يــدرك هــذا المُستخلــفُ الحقائــق القيمية الفائضة عن الروح العليا المتماهية في خصائص الأشياء، واتباع هواه ورغباته وملذاته البهيميــة التي أوقعته في إثم «الخطيئة الكبرى» أي -جهله بالقيمي- وعــدم استثماره الروح الإلهيــة التي -كما اسلفنا- تمثل القيمة الجمالية «الخيرة» في بناء عالم أناسي متناغــم مع منظومة القيم الكونيــة، وانحصر الغفران، ليس ندماً على ما أخطــأ في التقدير القيمي، وإنَّما البحث عن الجوهر القيمي.

الهوامش

١- ابن عربي -الفتوحات المكيّة- ص١٢٥.
٢- المصدر السابق نفسه - ص٣٤٣.
٣- المصدر السابق نفسه- ص٤١٨.
٤- ابن عربي -التدابير الإلهية- ص١٢٠.
٥- المصدر السابق نفسه - ص١٢٠.
٦- المصدر السابق نفسه - ص١٣٢.

٧- المصدر السابق نفسه - ص١٣٥.
٨- ابن عربي -الفتوحات المكيّة- ص٢٧٩.
٩- قرآن كريم -سورة الذاريات -آية/٢٠-٢١/.
١٠- ابن عربي -فصوص الحكم- ص٩٦.
١١- ابن عربي -الفتوحات المكيّة- ص٢٧٤.
١٢- ورد في مقال «التصوف العرفاني» الزين، محمد شوقي -كتابات معاصرة- ص٨- عدد /٣٥/. بيروت.
١٣- المصدر السابق نفسه- ص١٢.
١٤- المصدر السابق نفسه- ص١٠.
١٥- ميشال دوسارتو -مقال «الخطاب الصوفي، نص حركة الجسد» كتابات معاصرة- ص٥٠/٨٥.عدد/٤٤/.
تر.الزين، محمد شوقي -بيّروت.
١٦- الزين، محمد شوقي -مقال- «التصوف العرفاني» كتابات معاصرة ص١٠- عدد/٣٥/.
١٧- المصدر السابق نفسه- ص٨.
١٨- المصدر السابق نفسه- ص١٢.





مفهوم الدين والإنسان في فلسفة المعري

جمال أبو جهجاه ❁

قلما يصل الدارس أو الباحث في فلسفة أبي العلاء المعري الدينية والإنسانية؛ إلى ما يرضي آراء وخواطر، وأفكار النقاد أو القرّاء،أو الذين كوّنوا فكرة أو استنتاجا، أو موقفا مغايرا لهذه الدراسة التي أنا بصددها الآن. فليس من السهل على الدارس أو الباحث أن يغوص في فلسفة أبي العلاء المعري، ويتعمّق في عقله النقدي وفكره التأملي ومفهومه الديني والإنساني فلسفة وعلماً وأدباً وإيماناً.

❁ ناقد سوري.

لقد حاول العديد من الدارسين والباحثين القيام بمثل هذا العمل الشاق، وأنا أعتقد، أنّ معظم تلك الدراسات؛ لم تصل في سبرها إلى غوره الفكري الثر، أو إلى بُعده الفلسفي الواسع، ولا إلى دقة عقله النقدي الأدبي وفكره الفلسفي التأملي العميق، لأنّ أبا العلاء؛ كان عميقا فيما يفكر فيه، وجاداً عمّا يبحث عنه، فبقي؛ إشكاليا لدى العديد ممن درسه، وحتى ممن عاصره. فكانت آراؤهم وأفكارهم متناقضة فيما بينهم كباحثين ودارسين لفكر وفلسفة المعري. وكذلك لم ترتق معظم تلك الأبحاث في صعودها وتصل قمة العَلَم التي كان أبو العلاء المعري الفيلسوف يتربع فوق ذروتها في اللغة الأدبية، وفي الفلسفة العقلية النقدية، وفي التفكير التأملي العلمي المنطقي، أو البحث في العلوم الدينية الإلهية، والفلسفية الإنسانية التي وصلها أبو العلاء المعري. من ذلك العقل النقدي الفلسفي العميق، ومن علومه الدينية الإلهية، ومن تأملاته الإنسانية؛ أريد أن أبحث في هذه الدراسة معتمداً على ما أورده شعراً فلسفياً، وآراءً نقدية في لزومياته، وسلوكاً يومياً زاهداً قائما في حياته، ومنهجاً واضحاً بيّنا بعد مماته للكثيرين ممن تأثروا به، فهو المدرسة الفلسفية التي بقيت أبوابها مفتوحة للذين رأوا فيه؛ فكراً نيّراً وديناً صحيحاً، وبصيرة إنسانية عميقة وعلوماً دينية دقيقة؛ وصل بها ليكون منارة فلسفية تصل بالإنسان إلى الحقيقة، ومواعظ إنسانية ونصائح دينية أخلاقية، ووصايا إلهية، وتسبيحات بحمد الخالق، بالخضوع لأمره والعمل على نهيه. وسأورد في هذه الدراسة ما يؤكد ذلك من أمثلة وحقائق تثبت هذا، وتبين لنا أنّ أبا العلاء من المؤمنين الأتقياء، والرجال الأوفياء لدين الله، فهو من عقلاء الفلاسفة، بل من فلاسفة العقل، البعيدين بفكرهم عن التعصب والمنفتحين على إنسانية الإنسان بتقاربه من أخيه الإنسان بالمحبة والعطاء والتعاون والتآلف الأخوي بين الناس، من خلال البصيرة القائمة في الروح الإنسانية وهذا أعلى درجات الإيمان والتقوى، كما قال:

إنْ كانت الأحبارُ تعظمُ سبتها
فأخو البصيرة كلّ يوم مسبت

وهذا ينطبق على كل الأديان لجميع الأيام والأوقات والأزمان، فليس الإنسان بإنسانيته ليوم الجمعة أو ليوم الأحد أو ليوم السبت أو في وقت العبادة في الجامع فقط، أو في الكنيسة لوقت معين فحسب، فالإنسان ببصيرته يدرك مدى إخلاصه ومحبته وإيمانه بمشاعره الإنسانية في كل

زمـان وفي كل مـكان. فالدارس الحُر، غير المملوك إلا لله وحده، أو الباحث النزيه البعيد بفكره عن التعصب؛ إذا تصفّح أدب المعري، وفلسفته العقلية لحياة الإنسان، ونقده العقلي المنطقي للعقيدة الدينية؛ يرى ويلمس، أنّ أبا العلاء متصل مع الله بفكره الثاقب، الخاضع له وحده بعقله المنفتح، المؤمن به في قلبه الصافي النقي، الصادق له في إيمانه العميق بالله وحده، ببصيرته البعيدة المدى في هذا الوجود الكوني، والوجود الإنساني.

مفهوم الدين عند أبي العلاء المعري:

إذا كان المرء مرتبطا بالخالق العظيم، ارتباطا وثيقا يسبح بحمده، يطلب رضاه ويسعى في الوصول إلى صفاء النفس المشرقة بالإيمان كي تظلّ في خشوع دائم إلى الخالق العظيم، تقوم على عبادته لا يشغلها عن الله شاغل؛ فكيف لنا أن نُطلق عليه أحكاما تكفيرية؟؛ وهل دخلنا إلى قلبه كي نعلم ونحكم عليه؟. وكلنا يعلم أنّ مكمن الدين في الإنسان قلبه وسريرته التي لا يعلم ما فيهما إلا الله وحده. فأبو العلاء، مشغول بفكره، وقائم بعقله على ما هو موجود لأجله كإنسان من أسرار هذه الحياة الدنيا، ومن دين يربطه مع الله بالفطرة عن طريق البصيرة القائمة في الروح القادمة من الحضرة الإلهية لتدخل هذا الجسد،بالإلهام العقلي فيرى نفسه أسيرا بين يدي الله لا أسير دنياه فيقول:

غبرتُ أسيرا في يديه، ومن يكن
له كرمٌ تُكْرم بساحته الأسرى

إذن، هو أسير دين الله كما جاء في القرآن الكريم في سورة الإنسان/٢٨/ (**نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ**)، وليس أسير دين الناس الدنيوي الذي ورثوه وراثة، أو اجتهدوا فيه اجتهادا كما قال أبو العلاء:

أرائيك فليغفر لي الله زلتي
بذاك ودين العالمين رياء
إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده
بنصح؛ فإنّي منهم لبراء

لقد ألزم المعري نفسه، وحكم على نفسه بما يرضي الله، وليس بما يرضي الناس، فهو لم يعبد إلا الله ولم ينحن إلا له ولم يخف على نفسه إلا منه ولم يلتجئ إلا إليه فيقول:

وعبدتُ ربي ما استطعت
ومن بريته بريت

من هنا نستطيع القول: إن أبا العلاء حكم على نفسه بما قضى ربنا علينا نحن البشر في قوله سبحانه في سورة الإسراء/٢٣/ (**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**) وهذا ما أكده المعري في قوله:

اركــع لـربـك في نـهـارك واسـجـد

ومـتـى أطـقـت تـهـجّـدا فـتـهـجّـد

لقد كان المعري يعتمـد في عبادته على العقـل، وليس علـى الشريعة التـي كان له فيها رأي يخالف عقلـه. فهو خاضع بعقله أو معارفه للعلوم الإلهية الموجودة في كل نفس عن طريق الإلهام العقلي، فيراها نورا لفكره وسبيلا لعقله وإدراكه فيقول:

عـلـيـك الـعـقـل وافـعـل مـا رآه

جـمـيـلا فـهـو مـشـتـار الـشـوار

ولا تـقـبـل مـن الـتـوراة حـكـما

فـإنّ الحـق عـنـهـا في تـوار

فالعقـل في فلسفتـه؛ هو الـذي يقود الإنسان إلى ديـن الله، ويرى أنّ الدين قائم وموجود في عقل البشر وليس في غيره، فما علينا نحن البشر إلا أن نشاور عقولنا ونعمل بها لنصل إلى الصـواب فيما أمرنا به الله تعالى وما نهانا عنه، فيقول:

فشاور العقل واتـرك غـيره هـدرا

فالعقل خير مشير ضمّـه النـادي

فالدين في فهم المعـري وفلسفته؛ ليس تعصّبا لفئة على فئة، ولا انغلاقا فكريا على شريعـة دون أخرى أو ما تفكـر به وتؤيده، إنمـا الدين في فلسفـة المعـري؛ أن تفكر بقلب متبصر متعلق بـالله العظيم ومتصل به خاشع له، لا للشروع التي ورثتها واجتهد فيهـا البشر، فيقول منتقدا متعجبا من تلك الشروع البعيدة عن الإيمان:

والعقل يعجب للشروع: تمجّسٍ

وتحـنّـف وتـهـوّد وتـنـصّر

فـاحـذر ولا تـدع الأمـور مضاعة

وانـظـر بـقـلـب مـفـكـر متبصر

فـيرى في تطبيق الشريعـة تناقض لأنّ من يطبقهـا بين البشر؛ هـم البشر، لذلك يراها بعيدة في تطبيقها عن الإيمان والعدل والإحسان، فيقول:

تـنـاقـض مـا لـنـا إلا الـسـكـوت لـه

وأنْ نـعـوذ بـمـولانـا مـن الـنـار

يـدٌ بـخـمـس مـئـين عـجـسـد فـديـت

مـا بـالـهـا قـطـعـت في ربـع ديـنـار؟

فالمعـري كغيره مـن الفلاسفـة الذين يقـدرون العقل في الإنسان، ويرى فيه النور الإلهي الذي أضاء به الأرض، وهو الحقيقة التي تخضع للحق في كل إنسان إنْ هو عمل بهذا العقـل القائم بالفطرة أو المبرمج على الحق والعدل والإحسان، فيقول:

كـذب الـظـن لا إمـام سـوى العقـ

ـل مـشـيـرا في صـبـحـه والمـسـاء

فالعاقـل في نظر المعـري وفلسفته؛ هو مـن يأخذ عقله نبيا لدينه ومعتقده وسلوكه وإيمانه. فكلّ سلـوك نابع من العقل وعائد

إليــه وخاضــع لتحليلاتــه؛ لا يشوبه خطأ ولاتعصب أو جهل، فيقول لبني البشر:

أيــهـا الـغـرّ إنْ خـصـصـت بـعـقـل
فـاسـأَلـنـه فـكـل عـقـل نـبـيّ

لقد عدّ أبو العلاء المعري، العقل في كل إنســان؛ مصدر اليقــين الديني الذي يبعث في النفســ الاطمئنــان، وفي القلب الصفاء والنقــاء، وفي العلوم الإنسانية تبعث المعرفة التي تحصل في الذهن وفي الشعور؛ البرهان الذي يصل بالإنســان إلى الحقيقة، وجميع الفلاسفــة يــرون تلــك الرؤيــة في العقل. والفيلسوف ابن طفيــل الأندلسي رأى ذلك في قصــة حي ابن يقظان، وعــدّ العقل في كل إنســان قائم على علــوم اللّه التي تصل بنا إلى الحقيقة؛ إذا عمل الإنسان بعقله في كل زمان ومكان، لأنّ الفطرة فيه قائمة على علوم اللّه، فــلا تحصل إلا بالحدس والظن اللذين رآهما أبــو العلاء اليقين الذي يقود كل إنسان إلى الصواب كما قال المعري:

أمّــا الـيـقـين فـلا يـقـين وإنـمـا
أقصى اجتهادي أن أظنّ وأحدسا

لقــد أدرك أبــو العــلاء بعلمــه وأدبه وفلسفته، كغيره مــن الفلاسفة الذين آمنوا بالعقل، وأيقنوا أنه يبعث الإنسان إلى الخير علــى الــدوام، في حــين أنّ النفس تحرك المشاعــر إلى الطمــع والجشــع. فلو كانت عقولنــا نحن البشر متيقظة دائما تسعى في عمل الخــير فإنها تبتعــد بالإنسان عن كل ماهو سيِّئ، فيقول في ذلك أبو العلاء:

وإنــك إنْ تـسـتـعـمـل الـعـقـل لا يـزل
مـبـيـتـك في لـيـل بـعـقـلـك مشمس

فــيرى المعري أنّ العقل في كل إنسان هو طاقة النفســ وقوتها وقدرتها على السلوك الصحيح، أو هو القــادر على قيادة النفس وإخضاعهــا له تعمــل بعلــوم اللّه القائمة بالإلهــام، فيقول عن قــدرة العقل في قيادة النفس:

والمـرء يعييه قـود النفس مصبحة
لـلـخـير، وهـو يـقـود الـعـسـكـر اللجبا

فالعقل الصحيــح في فلسفة المعري هو الذي يعطي النفس قدرتها وقوتها وسلوكها في عمل الخير فيقول في هذا:

فاللبّ إنْ صحّ أعطى النفس فترتها
حـتـى تـمـوت وسـمـى جـدّهـا لـعـبـا

لذلك يرى أنّ الغريزة في الإنسان تحتاج إلى عقــل متحرر من التعصــب البعيد عن سيطرة الطبع وهوى النفس اللذين يحجبان عن العقل مفاهيم الإدراك لمن حوله فينبهنا قائلا:

نـهـانـي عـقـلـي عـن أمــور كـثـيرة،
وطـبـعـي إلـيـهـا بـالـغـريـزة جـاذبـي

وكذلك الفيلســوف الإمام الغزالي الذي

ولـد في العقـد الذي فارق فيـه أبو العلاء الحياة رأى العقل في كتابه إحياء علوم الدين؛ ما رآه المعـري في فلسفته وفي لزومياته، ولم تقتصر هذه الرؤية العقلية الفلسفية عليهما فحسـب بل كانـت عند معظـم الفلاسفة وأخص منهم الفيلسوف ابن طفيل الأندلسي الـذي وظف ذلك في كتابه «حي بن يقظان» حيث وصل الإنسـان البعيد عن البشر؛ إلى الحقيقـة بوساطة التأمـل العقلي في آيات الكـون الصامتة التـي ترجمها له عقله من دون الرجوع إلى أحد.

فأبو العـلاء المعري قد وصف العقل في الإنسان بأنه النبـي الذي يرافق المرء طيلة حياتـه، وينبّهه ويقوده إلى جادة الصواب أو هو الإمام الذي يهدي العامة من الناس إلى الخـير أو إلى الحقيقة؛ إنْ هو فكر بعقله لا بعواطفه، أو غرائز نفسه، فيقول:

يـرتجـي الـنـاس أنْ يـقـوم إمـامٌ
نـاطـق في الـكـتـيـبـة الخـرسـاء
كـذب الـظـنّ لا إمـام سـوى العقـ
ـل مـشـيرا في صـبحـه والمسـاء
فـإذا مـا أطـعـتـه جـلـب الـرحـ
ـمـة عـنـد المسـير والإرسـاء

وقد رأى أبو العلاء؛ أنّ العقل في الإنسان هو المخـزون الحقيقي لعلـوم الله القائمة في هـذا الكنز الذي هـو العقل. والعقل في البشر هو الـذي يحرك المـادة التي يصنع منها حاجياته على حسـب ما يحتاجه. أي على مبدأ الحاجة أم الاختراع، لذلك وصفه بالبحر الذي لا تنضب علومه على مدى هذه الدنيا التي يعيش فيها الإنسان، فيقول:

والعقل كالبحر ما غيضت غواربه
شيـئـا ومـنـه بـنـو الأيـام تـغـترف

وكذلـك وصفه بالحبـل الذي لا ينقطع أو المستمـر بعطائه وعمله والتفكير به، فهو في نظره أو فلسفتـه؛ عهد الإنسان مع الله والذمـة مع الله أو الأمـان الذي يمسك به فيحسّ به الإنسان أماناً مع الخالق لكل فرد منّـا مدى الحياة. فهو الرابط الذي يربطنا بعلـوم الله كما قـال سبحانـه في سورة آل عمران/١٠٣/ (**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ**) فأبو العلاء يرى العقـل في الإنسان مفسراً الآية الكريمة في قوله:

الفكرُ حبلٌ، متى يمسك على طرفٍ
مـنـه، يُـنـط بـالـثريـا ذلـك الـطـرف

لقد أيقن أبو العلاء أنّ العقل في كل منّا نحن البشر، إذا عملنا بـه وبالإلهام العقلي الذي يقوم فينا ويهدينا إلى الخير؛ فقد نصل إلى مرتبة الملائكة المعصومين، فيقول:

ومـن يُـطـهّـر بـخـوف الله مهجتـه
فـذاك إنـسـان قـوم يُـشـبـه الملكا

لقـد كان يرى الديـن، أو ينظر إليه في

الإنسان من خلال عقل ذلك الإنسان لا من خلال ما ورثه من أبويه. فالدين في فلسفته ليس مالا، نرثه، إنّما عقل نفكر به وقلب نقي غارق في تقوى الله، متبصر بعلومه القائمة في كل نفس بشرية، فيقول:

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا

وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي

فالمعري لم ير الدين على أنه مجموعة قوانين تشريعية يعمل على تطبيقها، فيرى نفسه مؤمنا؛ إنَّما الدين في رأيه، هو ارتباط الإنسان وصلته مع الله والانقياد أو الخضوع له، كأنه يراه في كل خطوة يقوم فيها سلوكا آنياً مع أخيه الإنسان، وليس فيما ينفذه من طقوس دينية، كمن يقوم بأداء فريضة الحج، وفي الوقت عينه يشكوه جار أو صديق بممارساته الخاطئة نحوهما فذلك ليس دينا صحيحا، فيقول:

توهمت يا مغرور أنك ديّنٌ

عليّ يمين الله ما لك دين

تسير إلى البيت الحرام تنسكا

ويشكوك جار بائس وخدين

فالذي يقرأ شعر المعري وكلامه من الباحثين لفكره وفلسفته ولم يتعمق في المعنى الدقيق للدلالة اللفظية لشعره في اللزوميات، أو من يبقى في قراءته لشعر المعري في الشكل اللفظي للكلمة ولم يدخل في السيمياء؛ فإنه يتوهم لأول وهلة أنّ أبا العلاء يهاجم الدين، لكنه في الحقيقة ينتقد من يأخذ الدين غطاء له أو شكلا له ولا يزال في قلبه غلّ وحقد وكره لأخيه في الإنسانية. إنّ فلسفة المعري الدينية ونقده العقلي للمتدين الذي يأخذ الدين شكلا ولما يدخل الإيمان قلبه؛ هو ليس بالمتدين حتى لو طاف في مكة حول المسجد الحرام، أو في كنيسة القيامة في القدس سبعين مرة لا سبع مرات؛ فذاك ليس بالمتدين في فلسفة المعري فيقول عن هؤلاء:

سبحْ وصلّ وطفْ بمكة زائرا

سبعين لا سبعا فلست بناسك

جهل الديانة منْ إذا عرضت له

أطماعه ،لم يلف بالمتماسك

إنّ ذلك الكلام مرتبط بكلام القرآن الكريم في قوله سبحانه في سورة التوبة/ ١١١/ (**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**) فهل هؤلاء الذين يُعززون دينهم في اللاذقية كما قال الله تعالى في هذه الآية؟ وهل هم على عهدهم الذي عاهدوا الله عليه في إيمانهم وتقواهم؟، وهل هم

على ميثاقهم الذي كتبوه على أنفسهم أمام اللّه؟، فأبــو العلاء يسأل شعره ذلك وهو في اللاذقية، هل هم هكذا؟ قائلا:

في الـــلاذقـــيـــة ضــجــة
مـــا بـــين أحـــمـــد والمـســيـح
هــــذا بـــنـــاقـــوس يـــدق
وذاك بمـــئـــذنـــة يــصــيـح
كـــــلٌ يــــعـــــزز ديـــنـــه
يــالـيـت شــعـري مــا الـصـحـيـح

فعندما قرأ بعض النقاد هذا الشعر لأبي العلاء؛ قد كفّروه أو كأنهم فهموا من كلامه هذا، كأنــه يسأل سؤال الجاهــل للأديان. فهــو في الحقيقــة يسأل عــن الإيمان عند هــؤلاء هل هم على عهدهم أمام اللّه؟ وهل يعملون بما جاء في الآيــة الكريمة السابقة في الإيمــان المطلق للنفس التي عاهدوا اللّه فيهــا أن يكونــوا مؤمنــين؟ لأنّ اللّه اشترى منهــم أنفسهم. وهل الدين عندهم كما يراه أبو العلاء إيمانا قاطعا للنفس في كل إنسان؟ أنْ يهجر جميع اللــذات الدنيوية ويعمل في التقوى المطلقــة للّه سبحانه. فأبو العلاء لم يكن في فلسفته الدينيــة والإنسانية للحياة والمــوت في الدنيا؛ ضد أحــد الأديان التي بعثها اللّه تعالى للبشريــة؛ إنَّما وقف ناقداً الممارسات البشرية لها في أنّ كثيراً من الناس قد غيّروا أهداف الديــن وأحكامه، فمنهم من جعــل منه أحلافــا، ومنهم مــن جعله خاضعا لتحقيق رغباتــه تحت اسم الدين. فالمعــري كان ينظــر إلى الإنسان من خلال سلوكه وتفكــيره العقلي وليس فيما يعتقده، وفي رأيه لابــدّ للمرء أن يعبــد اللّه وحده. فالديــن في رأيه هو القضــاء على شهوات النفس ورغباتها الدنيوية، فيقول:

الديـن هجر الفتى اللـذات عن يسر
في صحـة واقــتــدار مـنـه مـا عـمـرا

الدنيــا لا تفيــد المرء فيمــا يدّخره من مغرياتهــا المادية لآخرته؛ إنمــا الذي ينفع الإنسان مــا ادّخره من إيمــان ومن تقوى، فيقول:

ومَــنْ يــدْخــر لـطـول الـعـيـش مـالا
فـــإنّ تُــقــاي عــنــد الله ذُخـــري

نعــم إنّ المعري في زهــده للحياة الدنيا وإيمانه بالعقل الذي يصل بالإنسان إلى علم التوحيــد؛ هو أحد الحكمــاء الذين صفت نفوسهم بالتقوى، ونورت عقولهم علوم اللّه، فأصبح واحــداً من عمال اللّه على الأرض، فتفوّقوا على معلمي الشريعة كما قال السيد المسيح، وانتصروا على أنفسهم بعقولهم كما قال الرسول محمد (صــ). لقد كان المعري ينظــر إلى الإنسان الذي يخالف تعاليم اللّه تعالى الدينية على أنه مريض العقل والدين

معا، حين يسخّر الديــن لأطماعه ورغباته في قوله:

غدوت مريض العقل والدين فالقني

لتعلم أنباء الأمور الصحائح

فالإنسان الخاضع لرغبـات نفسه؛ هو مريض بعقله، والذي أخذ من الدين ما يبرر أطماعه وشهواته وغرائــز نفسه؛كذلك هو مريض في دينه، أو في تفسيره للدين. لنأخذ المثال التالي كيف أنّ الإنسان قد غدا مريض العقــل والدين في فلسفـــة المعري وذلك في هــذا النقد العقلي والمنطقي العلمي، وكيف أعطى الإنسان لنفسه تبريرا ليشبع غرائزه على حسب فلسفة المعري لمثل هؤلاء، الذين جعلوا مــن الدين مــا يرضــي أنفسهم في دنياهم على حســاب آخرتهم، لنأخذ المثال من القرآن الكريم: لقد جاء في محكم تنزيله في سورة النساء/٣/ (**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً**) لقد أخذ الإنسان من الآية مــا يرضي نفسه تلبيـــة لرغباتها، ولم يأخذ من الآية الكريمة ما يخاف على نفسه دينياً إنمــا؛ طغيان شهوات النفســ أضعف عقله وتفكــيره ولم يقف بعقلــه في استئناف (**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ**) وهل سأل الإنسان نفسه كيــف يكون عادلاً؟ وهل يمكــن له أنْ يعدل حتى لو حرص؟ وهل خــاف على نفسه ألا يعــدل؟ وهل فكر بعقله في دلالة العبارة (**إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ**) إنّ هذه الآية الكريمة عند الإنسان الصحيح العقــل والدين والتفكير؛ لابــدّ أن يخاف على آخرتــه من حكم هذه الآيــة ويبتعد عن الزواج إلا بواحدة توحيداً للخالق وفهماً عقلياً للدين الصحيح البعيد عــن شهــوات النفس. لقد عــدّ المعري مَنْ يتزوج تطبيقا للجزء الأول من الآية الكريمة بأكثر من واحدة؛ مخالفة عقلية لفهم الدين بل عاب عليهم ذلك وعدّهم مخالفين لأحكام الشريعة فقال:

وخالفوا الشرع، لما جاءهم بتقىً

واستحسنوا، من قبيح الفعل ما شرعوا

فالخالــق العظيم هو الواحــد والأحد الذي يعلــم ما صنع،وما خلق، وما أبدع وما ســوّى ويعلم أنّ الإنســان لا يمكن أن يكون عادلا أمام شهــوات نفسه. لقد وضعه أمام الحلال الذي حذّره القيــام به في قوله من الآية/١٢٩/ (**وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ**)، لقد وصف أبو العلاء هــؤلاء الذين طبقوا الــزواج بمثنى وثلاث ورباع؛ مرضى في عقولهم وفي ديانتهم لأنهم في فعلهم لم يتوخّوا سبيل الحق فيقول:

ومن جمع اثنتين ،فما توخّى
سبيل الحق في خمس وربع

وقد رآهم أبو العلاء مرضى في إيمانهم، وليسوا مرضى في شهواتهم ورغباتهم الدنيوية واللذّة الآنية فحسب، فحمّلوا أنفسهم ما لا تستطيع حمله وأغفلت ملذاتهم وشهواتهم عن عقولهم عاقبة هذا الفعل، فيقول فيهم أبو العلاء:

تزوّج بعد واحدة ثلاثاً
وقال لعرسه يكفيك ربعي
فيرضيها إذا قنعت بقوت
ويرجمها إذا مالت لتبع

إنّ الفلسفة الدينية التي أرادها أبو العلاء من الإنسان؛ أن يدرك بعقله الفهم الحقيقي للدين كي يقوده إلى علم التوحيد ،فهو لم يهاجم الدين بل سلّط الضوء المنطقي العقلي على المفاهيم الدينية بعقله النقدي؛ فعدّ هؤلاء الناس الذين اختبؤوا خلف الدين ولبّوا رغباتهم باسم الدين، وحققوا شهواتهم باسم الإيمان هم؛ مختلسون فيقول أبو العلاء:

وجدتُ غنائم الإسلام نهبا
لأصحاب المعازف والملاهي
وكيف يصحّ إجماع البرايا
وهم لا يجمعون على الإله؟

تنازعني إلى الشهوات نفسي
فلا أنا منجحٌ أبدا ولا هي

ويقول عن الذين جمعوا الضرّات في تعدد الزوجات؛ إنّ هؤلاء لم يجمعوهنّ إيمانا بالله وعبادة له ولم يقوموا بهذا العمل تطبيقا لأحكام الشريعة؛ إنما تلبية لشهوة نفسية وتحقيقا لرغبة دنيوية، فلو أدرك الإنسان تحذير الخالق العظيم لنا نحن البشر بأننا لا نستطيع أن نعدل ولو حرصنا؛ لما قام بهذا العمل، فيقول المعري:

ومن جمع الضرّات يطلب لذة
فقد بات في الإضرار غير سديد

في نظر المعري وفلسفته أنّ الإنسان في هذا العمل؛ قد أصبح مريضا في دينه بعدم فهمه لهذا الدين، ومريضاً في الإلهام العقلي أمام زينة الحياة الدنيا وما تحثه شهواته على الرغم من أنه يدرك بأن الدنيا لا تفيده في شيء أمام الآخرة التي تنتظره،وأنّ الآخرة خير له وأبقى، لذلك يرى المعري هؤلاء الناس مصابون بمرض في عقولهم لأنهم فضّلوا الدنيا بزينتها ورغبات أنفسهم الآنية فيها على الآخرة بنعيمها الدائم، فيقول عنهم أمام دنياهم:

إذا كنت قد أُوتيت لبا وحكمة
فشمّر عن الدنيا فأنت منافيها

وكـونـنْ لـهـا في كـلّ أمـر مخالـفـا
فـمـا لـك خـير في بـنـيـها ولا فيـها

لقد نظر المعري إلى الدين بالعقل الإنساني المدرك لعلم توحيد الخالق، ومن ارتباط النفس بهذا الدين عن طريق العقل. فبهذا الفهم لا يرى الصائم متدينا،ولا الصلاة إيماناً وعبادة، ولا الحج سبيلا إلى الله؛ إذا بقيت نفس الإنسان، أو قلبه في كيد وغلّ وحقد وكره وحسد على أخيه الإنسان، فيقول في أركان الدين أمام طمع الإنسان وجشعه بحق أخيه الإنسان، وتحقيق رغبات نفسه أمام تحذير الخالق العظيم لنا نحن البشر بأننا لم نطبق أركان الإيمان بما يتطلبه الدين، فيقول في الصوم:

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنّما هو ترك الشرّ مُطّرَحا
ونفضك الصدر من غلّ ومن حسد

فلا قيمة إيمانية ولا تقوى نفسية؛ إذا صمت عن الطعام، ولا تزال الأحقاد على أخيك الإنسان قائمة في نفسك. وكذلك قال عن الطهارة فينا نحن البشر لا تكون إلا في قلوبنا وصدق إيماننا وصفاء نفوسنا فيقول:

أطـهّـر جسـمـي شـاتـيـا ومقـيّـظا
وقلبي أولى بالطهارة من جسمي

فلسفة المعري الدنيوية:

لقد رأى أبو العلاء أنّ الدنيا مطيّةً للآخرة وأيقن أنّ حياة الإنسان لا تنتهي بموته أو بفراق الحياة الدنيا؛ إنما يرى أن حياة الإنسان تبدأ بعد الموت وأن الدنيا؛ هي دار امتحان تكون نتائجها في الآخرة، لذلك اعتمد في حياته الدنيوية على الزهد الذي كان يساعده على أن يبقى في شوق إلى الآخرة. وكان يرى الدنيا سجنا يريد أن يفرّ منه إلى الآخرة التي هي خير وأبقى، فيقول:

ومن لي أنْ أفرّ على طمرٍ
من الدنيا الخبيثة، أو دلز

فأبو العلاء يريد أن يهرب من هذه الدنيا التي وصفها بالخبث على ظهر حصان، فالزهد الذي كان عنده ليس ترك الدنيا فحسب؛ إنما هو منهج حياتي دائم قائم على شوق شديد داخل النفس إلى مفارقة اللذة والشهوة والمتاع الدنيوي ليصل بنفسه إلى الراحة التامة والاطمئنان الكامل لروحه الطاهرة بعقله الذي يجعلها ناسكة زاهدة، فيقول:

العقل يوضح، للنسك، منهجا، فاحذُ حذوه
وليس يُظلم قلبٌ فيه للب جذوة

فأبو العلاء المعري أحد الحكماء والفلاسفة الذين أيقنوا وعرفوا حقيقة الآخرة وعلم أنّها يوم حساب، فأخذ يعمل من أجلها بعقله، وأبعد نفسه عن ملذات الدنيا وألزمها على الدوام؛ التقرب إلى اللّه، وأخضعها إليه بل جعلها خاشعة له تعمل فيما أمرنا به وتبتعد عما نهانا عنه وتجدّ وتجتهد بكل إيمان وتقوى، فيقول:

اذكر إلهك إنْ هببت من الكرى
وإذا هممت لهجعة ورقاد
احذر مجيئك في الحساب بزائف
فاللّه ربّك أنقد النقاد

فالحكمة التي استخلصها المعري من فلسفته للحياة الدنيا؛ هي أنها متعة وغرور آنية لا تدوم ولا تفيد النفس البشرية في شيء يوم الحساب، وأيقن أنّ الإلهام قائم وموجود في كل نفس بشرية عن طريق العقل، فمن استغل ذلك الإلهام الرباني وتلك الإشارات الإلهية الإيمانية في النفس واستمد منها التقوى بعقله فإنه ينال المنازل العالية ويصل بنفسه إلى مرتبة الملائكة، فيقول في ذلك:

لا تطيعي هواك، أيتها النفـ
ـس فنعمى المليك فينا ربيبة
فالزمي النسك إنْ علقت، وفري
من ذوي الجهل كي تعدّي لبيبة

لقد تمكن أبو العلاء من معرفة النفس وفهم أنها شرف وجوهر أخذ يغذيها بعلوم اللّه وأهمل الجسد كإهماله للدنيا، الفانية الزائلة المؤقتة، بينما رأى في الروح القادمة إلى الجسد من الحضرة الإلهية تعمل بالإلهام العقلي، فهي خالدة تنفصل عن الجسد الفاني، لذا لابدّ أن تتغذى دائما بعلوم اللّه القائمة فينا وبالتقوى الموجود في كل نفس بالإلهام العقلي. وقد وصف الإنسان الذي يعمل على تلبية رغبات الجسد ويحقق له ملذاته ورغباته؛ هو في غفلة عن الآخرة، بل هو كالبهائم لا تفكر إلا بما يفيد الجسد المادي، ولا تعلم أنّ الآخرة تنتظرها، فيقول:

اعمل لأخراك شروى من يموت غدا
واداب لدنياك فعل الغابر الباقي
إنّ البهائم مثل الأنس غافلة
وإنما نحن بُهْمٌ ذات إرباق

لقد أدرك أبو العلاء أنّ رغبات النفس وغرائزها وشهواتها دنيوية آنية زائلة، لو سعى المرء في تلبيتها؛ لمنعته هذه النفس من الوصول إلى الحقيقة والعبادة الصحيحة أو السلوك القويم، وأنّ كل ما في هذه الدنيا في

فلسفة المعري، لــه جانبان أو هو قائم على جانبين: الأول، جانب مادي يبقى في الدنيا ليس له قيمة،خاضع للرغبة الجسدية ومتعة الجسد المادي الفاني المرتبط بالدنيا، البعيد عن الجوهر الروحي المرتبط بالآخرة القائم على توحيد الخالق.

الجانب الثاني: هو روحاني معنوي خيري يعمل بــه المرء من أجل آخرته ويترك كل ما هو دنيوي مادي في سبيل الوصول إلى المعنى الحقيقي من وجودنا في هذه الدنيا .لقد كان المعــري ينظر إلى الزهد وقهر النفس، ومنع الجسد مــن ملذاته؛ بأن ذلــك هو الإيمان الصحيــح، بل هو الدين الذي يبني الإنسان علــى المحبــة والإيمان. فيقول عــن هؤلاء الذين باعوا الآخرة بمتعة الدنيا:

خسر الـذي بـاع الخلـود، وعيشه،
بـنـعـيـم أيــــام ،تــعــدّ، قـلائـل

فالدين في فلسفة المعــري ليس انتسابا ولا انتماء، ولا هو طقوس جسدية؛ إنّما هو تسليــم حقيقي نابع من العقل النير المرتبط بعلوم اللّه، الكامن في القلب الصافي الخالي من الغل والحقد والكــره، الخاضع بالنفس المقرة بالربوبية المنقادة بالإلهام العقلي إلى مــا أمرنا به اللّه وما نهانــا عنه بكل رضى ومحبة، فيقول أبو العلاء:

والمــرء مـثـل الـنــار شـبّـت وانـتـهـت
فـخـبـتْ، وأفـلـح في الحـيـاة المخبت

والمخبــت من الناس هــم أنقياء القلوب الصافية الخاشعة للّه المتواضعة التي تعمل لآخرتهــا كما جاء في قوله سبحانه في سورة الحــج، (**وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**). لقــد صنّف أبو العلاء مخلوقات اللّه تعالى إلى ثلاث مراتب: المرتبــة الأولى هي مرتبــة الملائكة القائمة علــى أمر اللّه تعــالى ونهيه، فهــي من نور صــاف، أو هي مــن عقل نيّر بــلا شهوة أو رغبة دنيوية،والمرتبــة الثانية وهي الإنسان القائم على الامتحان في هذه الدنيا من أجل الآخرة، وهو من نور أو عقل مع رغبة دنيوية وشهوة جسدية، وقد يصل إلى مرتبة الملائكة إنْ هو قام على الإلهــام العقلي وابتعد عن رغبات الجسد، أما المرتبة الثالثة وهي غير الأنســ أو الحيوانات الذيــن جعلهم الباري تعالى بلا عقل لكــن برغبة وشهوة موسمية منظمة مقيّدة، فيقول المعري:

ثــلاث مــراتــب: مــلــك رفـيـع
وإنـســـــانٌ، وجـيــل غــيـر إنـس

فـــإن فـعـل الـفـتـى خــيـرا تـعـالى
إلى قـنـس المـلائـك خـير قـنـس

وإنْ خـفـضـتـه هـمـتـه تـهـاوى
إلى جـنـس الـبـهـائـم شــرّ جـنـس

وعلى الإنسان في فلسفة أبي العلاء؛ أن

يزهد في الدنيا ويقهر النفس ويكبح جماحها عن الملذات ويمنعها من تحقيق الرغبات قبل أن تصبح عاجزة. أي إنّ التنسك بعد سن الأربعين لا ينفع النفس البشرية في شيء، فالإنسان في هذه السن قد وصل إلى مرحلة الإشباع أو العجز الجسدي، فزهد الإنسان في هذه الحالة، لدى فلسفة أبي العلاء قد أتت بسبب العجز وليس من باب الإيمان والتقوى، فيقول أبو العلاء:

تنسّكت بعد الأربعين ضرورة
ولم يبق إلا أن تقوم الصوارخ
فكيف تُرجى أنْ تُثاب وإنّما
يرى الناس فضل النسك والمرء شامخ

هذا غيض من فيض مما تحدث به أبو العلاء المعري من فلسفة حياتية للإنسان وللدين الذي يراه سلوكاً صحيحاً في الحياة الدنيا من أجل الآخرة. فلو تحولنا في بحثنا هذا؛ إلى ما يراه أبو العلاء في امتناعه عن إيذاء الحيوان أو أكل لحم الحيوان؛ نراه قد أثّر في العديد من الناس، عندما فرضوا على أنفسهم هذا السلوك أو النهج الغذائي النباتي. فإنّ فلسفة أبي العلاء القائمة على امتناع أكل الحيوان هي من باب فهم ومعرفة حقيقية لوجود الإنسان وبقائه مع نفسه بعيداً عمّا يلحق الأذى والضرر والألم بالآخرين، والحيوان جزء من هؤلاء الآخرين. وإنّ من يؤذي الحيوان من البشر في رأيه وفلسفته؛ يكون قد ابتعد عن إنسانيته العاقلة المدركة ودخل في غرائزه وشهواته ورغباته النفسية التي تدخله في متاع الدنيا وغرورها. لقد عاش المعري في بعده الإنساني وما زال يعيش في فكر الكثيرين ممن تأثروا بفلسفته التي بقيت في عمقها العقلي تعمل فيما نهانا عنه خالقنا العظيم وتدرك معنى متاع الدنيا الفاني؛ أمام ما ينتظرنا من الآخرة الدائم. وذلك يعني أنّ من يحمل عقلا نيّرا في رأي أبي العلاء لا يُقدم على ذبح أو قتل أو سفك من يسبّح لله في هذا الكون كما جاء في محكم تنزيله في سورة الإسراء/٤٤/ (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**). لنرى ماذا قال شاعرنا وفيلسوفنا لنفسه وللآخرين، أمام هذا المعنى العميق للآية الكريمة:

كلٌّ يُسبّح، فافهم التقديس في
صوت الغراب، وفي صياح الجدجد

ثم ربط إنسانية الإنسان بعلاقة قائمة مع الحيوان الذي اطمأن إليه بمصاحبته وهو يسري في الليالي إلى عمله وسفره فيفيض عليه من مشاعر المصاحبة والمشاركة

الحياتية؛ فيستغـــرب المعري بعد هذا كيف يغدر الإنســـان برفيق سفره ومسراه ويرميه بسهامه، فيرى ذلك خيانة فيقول:

رميتَ ظباء القفر، كيما تصيدها
ومن صاد عفو الله أرمى وأصيد
أجدك هل نسيت صحبك في السُّرى
وكلهم من نعسة الفجر أغْيدُ

بهذا المعنى؛ أدرك أبـــو العلاء بفلسفته الإنسانية، وفهمه العميق للقرآن الكريم؛ أنّ مخلوقات الأرض وجـــدت لتعيش أمما كما الإنسان كما جاء في سورة الأنعام/٣٨/ (**وَمَا من دَآبَّة في الأَرْضِ وَلاَ طَائر يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**). فـــإنّ هذه الحيوانات في فلسفة المعري هي جماعات وأمم مثل البشر وهم نظراؤنـــا في ارتباطهـــم ببعضهم وفي صلتهم مع خالقهم في التسبيح له لذا؛ لابد أن نبعث الاطمئنان لهذا الحيوان فيقول أبو العلاء:

أرى حيوان الأرض يرهب حتفه
ويفزعه رعـــدٌ، ويطمعه برق
فيا طائر ائتمني ويا ظبي لاتخف
شذاي فما بيني وبينكما فرق

رحـــم الله أبا العلاء المعري ورضي عنه، ذلك الرجل الفيلســـوف الذي شاغل الفكر وعاش يعمـــل فيما يرضي الله تعالى؛ طمعا في الآخرة التـــي تنتظر كل منا نحن البشر. ذلك الرجل الذي بقـــي إشكاليا، حتى على معاصريـــه، لكنـــه في رأيي، ليســـ فيه من الإشـــكال، بقدر ما نحن فيـــه من التعصب عليه أو له، أو مـــا نحن فيه من عدم الفهم لما يعنيه أبو العلاء فيما كتب، ورأى، وأيقن، وفلسف. مع احترامي وتقديري لجميع الآراء التي قيلت بأبي العلاء، ولأصحابها.



نظرة قياسية المدى في أعماق الكــون

تأليف: رودجر فاس

ترجمة د.حسين إبراهيم ❀

لقــد اكتشف علمــاء الفلك مؤخراً مجرات (جلاكســين) حيث كانت قد تشكلت ولم يمض بعد على تشكل الكون إلا بضع مئات من ملايين السنين.

يستمر علماء الباليو نتولوجيا (علم المستحاثات) في البحث عن أقدم آثار المتحجرات والمستحاثات.. من العصور القديمة.. وكذلك علماء الفلك فإنهم يتابعون التحديــق في أعماق الكون السحيقة كي يكتشفــوا أقدم الأجرام.. ذلك لأن النظر في هذه الأبعاد اللامتناهية وبسبب نهائية سرعة الضوء هي

❀ باحث ومترجم سوري.

النظر في أعماق الماضي البعيدة.. والمقراب (التيليسكوب) هو في الوقت نفسه جهاز لاستقصاء الزمن يغور في أعماق العصور التي مرّت على وجود الكون بهدف التعرف على النجوم والمجرات الأولى.. وقد حقق علماء الفلك في الأسابيع والأشهر الأخيرة اقتراباً مهماً من هذا الهدف:

إذ نجحوا في التقاط وعرض أعمق صورة للكون في بداياته الأولى واقتنصوا الضوء القادم من أبعد المجرات كما لم يحدث حتى الآن في تاريخ البشرية.

وبهذه المناسبة يقول مدير برنامج (مقراب هابل لاستكشاف الفضاء الكوني في أقصى أعماقه) :Hudf السيد ماسيمو ستيافيلي (من معهد علوم المقراب الفضائي): STSCL في مدينة بالتيمور – ميريلاند.. يقول السيد ستيافيلي إن مقراب هابل قد تجاوز حتى إمكانياته الفنية بالتقاطه لهذه الصورة لأعماق الكون..

لقد استطاع مقراب هابل عام خمسة وتسعين وثمانية وتسعين من القرن الماضي عن طريق التقاط صورته بفترة إضاءة طويلة.. لأعماق الفضاء في سياق برنامج استكشاف أقصى أعماق الفضاء.. استطاع هذا المقراب أن يسجل تاريخاً جديداً لعلم الفلك..

وهكذا يمكن القول بإن (مقراب هابل) بنشره لهذا الصورة ذات الأبعاد المتجاوزة للحدود في آذار عام ٢٠٠٤م قد بلغ تقريباً الحدود الفاصلة بين العصر المظلم وعصر نهوض علوم الفضاء الكوني. وبهذه المصطلحات والمفاهيم التي تستند إلى بعض عصور التاريخ الأوروبي – يحاول علماء الفلك أن يصفوا المرحلة الانتقالية من الظلام المطلق إلى النور كقوة الثقالة التي شكلت النجوم الأولى والمجرات من تكثيفات الغاز البدائي الأول..

إن هذا الحيز أو المجال لايزال بالنسبة إلى العلماء حيزاً فلكيا مجهولا تقريباً.

(حدّق) (هابل) لمدة مليون ثانية بشكل مركز على بؤرة صغيرة في السماء في موقع (فورناكس Fornax) جنوب النجم (الصياد) الشهير (أوريون ORrion) وكانت هذه المرة الأولى التي يخصص بها مقراب هابل بمثل هذه المدة الطويلة لمراقبة نقطة واحدة معينة في الفضاء . ولكن هذا لم يتم دفعة واحدة بل على مدى دورة حول الأرض فيما بين الرابع والعشرين من أيلول ٢٠٠٣م والسادس عشر من كانون الثاني.. ٢٠٠٤م ويقول (ستيفن بيكويز) مدير معهد علوم المقراب الفضائي بأن النتيجة الرائعة التي حصل عليها هابل في هذه العملية.. جعلته

لايندم على تخليه عن الوقت المخصص له في استخدام المقراب.. لصالح العملية المذكورة.. لأن النوعية الجيدة للمعطيات التي تمَّ الحصول عليها -كما يقول- هي الأفضل بين جميع النتائج التي حققها هذا المقراب خلال فترة عمله.

إن النتيجة التي حصلنا عليها من أعماق الفضاء جديرة بالتقدير والإعجاب:

إذ على مساحة تعادل واحد من سبعة وستين من مساحة القمر والتي تظهر خالية إذا توجه عليها مقراب عادي فإن (هابل) استطاع أن يكتشف عشرة آلاف هدف. ظهر بعدئذٍ أن معظم هذه الأهداف هي عبارة عن مجرات قديمة.

وهذه المجرات بعيدة إلى درجة أن (هابل) لم يستطع أن يلتقط من صورها أكثر من (فوتون) واحد خلال الدقيقة.. هذا بالمقارنة إلى أنه أمكن التقاط ملايين الفوتونات في دقيقة من مجرات أخرى قريبة.. أما بعد هذه المجرات منا فلا يمكن إلا تقديره بشكل تقريبي يصل إلى١٢ أو١٣ مليار سنة ضوئية.

ويعلق (ستيافيلي) على ذلك بقوله: ((بينما تبين صور (هابل) العادية هذه المجرات وهي فتية فإنّ صور (هابل) ذات الدقة القصوى تكشف عن هذه المجرات.. عندما كانت لاتزال تحبو ولكن تحقق قفزات نمو سريعة)).

إن هذه المعطيات تتفق مع طيوف ضوئية لم ينتشر عنها شيء حتى الآن تغطي مجال الضوء تحت الأحمر حصل عليها المقراب الأرضي الجنوبي -جيميني-الموجود في منطقة (كيروباستون) - في وسط تشيلي.. هذا على حد قول (كارل جلاتسيجرول) من جامعة جون هو بيكنز في بالتيمور /الولايات المتحدة. إن هذه معطيات تشير أيضاً إلى أن عمر أكثر المجرات بعداً لايتجاوز ثمانمئة مليون إلى المليار سنة ضوئية.

إن النوعية الجيدة لصور (هابل) ذات الدقة القصوى.. يعود الفضل فيها إلى آخر مهمات (هابل) في بداية عام٢٠٠٣م حيث ركب روّاد الفضاء كاميرات وأجهزة تسجيل جديدة خاصةً ككاميرا المسح الجديدة.. (ACS) هذه الكاميرا تملك ضعف زاوية الرؤية التي كانت تتمتع بها الكاميرات المستخدمة عام١٩٩٣م. والكاميرا الجديدة تتمتع بحساسية مضاعفة لا بل وبأربعة أضعاف وهي تملك أيضاً حساسية لمجال الضوء تحت الأحمر القريب.. ولهذا تستطيع أن تعثر على أجرام بدأت تشع أو تبرق قبل ثمانمئة مليون سنة بعد الانفجار الأول الكبير.

ولكن صور هابل ذات الدقة القصوى (Hudf) نفسها لا تعني نهاية التوغل في المجهول الفضائي الرهيب ..بل إن بعض علماء الفلك استطاعوا مؤخراً استئناف التوغل باتجاه العصور الغابرة المظلمة .لكن تكنولوجيا المقراب فائقة التقدم استطاعت أن تحقق جزءاً بسيطاً فقط من هذا التقدم.. أما الجانب الآخر من النجاح فإن الفضل فيه يعود.. -كما يقول الباحثون- إلى الطبيعة نفسها.

لأن قوانين النظرية النسبية -وتحت شروط خاصة- يمكن أن تشبع ظمأ الباحثين في أمور الفضاء إلى الضوء وفعاليته.

إذ إن سرّ النجاح يكمن في (أثر العدسة الثقلية /الجاذبية) الذي أنجز حساباته في وقته آينشتاين نفسه. يحدث في هذا السراب الكوني أن إحدى المجرات الثقلية المتقدمة أو كون هذه المجرات تحرف ضوءاً قادماً من جرم بعيد جدّاً وراءها - وتجزّئه بشكل متساوٍ إلى صور كالأخيلة أو أنها توزعه وتشكله كحلقة.. وكان علماء الفلك قد اكتشفوا منذ ١٩٧٩م العديد من ظواهر (العدسة الثقلية/ الجاذبية) ولا يقتصر الأمر هنا على عملية حرف مسار الضوء بل إنها تحقق تقوية هذا الضوء أيضاً أو إظهاره مكبراً.. الجرم أو الهدف الموجود في خلفية المشهد وذلك بنسبة معامل تتراوح مابين٢٠ و١٠٠ ٪.

إذن، فإن أثر (العدسة الثقلية/ الجاذبية) يمكن أن يظهر المجرات القديمة التي لا تستطيع حتى أكثر المقاريب حساسية إظهارها .

وهكذا استطاع قبل أشهر قليلة بعض علماء الفلك حول الفلكي (جان بول كنايب) من المرصد الفلكي في جبال البيرينيه / /osservatoire Midi-pyrenees بالتعاون مع علماء المعهد التقني في كاليفورنيا ..استطاعوا أن يرصدوا ويحللوا بروقاً ضوئية خافتة صادرة عن مجرات قديمة في منزلة. (Abell-٢٢١٨) وكان مقراب هالي قد استطاع منذ ١٩٩٥م أن يصور مئة وعشرين قوساً ضوئياً تستدير حول كومة المجرات في منزلة الغول (الدراخي) التي تبعد عنّا ملياري سنة ضوئية إنها الصور المعجة لتلك المجرات القابعة في الوراء السحيق والتي استطاعت (آثار العدسة الثقلية/ الجاذبية) في منزلة (Abell-٢٢١٨). أن تجبرها على الانحراف والسير في مسارات غير مستقيمة.

لقد أظهرت التحاليل الطفيفة التي أجرتها مجموعة (kneib) لبعض هذه الأقواس الضوئية في المرصد الفلكي على

جبل (Maunakea) في الهاواي أن إحدى تلك المجرات تبتعد عن الأرض حوالي ثلاثة عشر مليار سنة ضوئية.

وعندما بـدأ الضوء الصـادر عن هذه المجرات الانتشار.. لم يكن حجم كوننا القابل للرصـد ليتجـاوز عشرين بالمئـة من عمره الحالي و١/٧ من حجمه الحالي.

ويقـول العـالم كنايـب /Kneib إنـه لـولا التكبير بنسبـة ٢٥ ضعفاً الذي يسرته (٢٢١٨-Abell) في مقدمة المشهد لم نستطع أن نتميـز تلك الأجـرام البعيدة الحديثة.. وعلى الأقل بوساطة التقنيـة التيليسكوبية المتوافـرة . ويضيـف العـالم (Kneib) إن الصورة الضوئيـة المهزوزة التي تصلنا تدل على أن هذه المجرة لا يتجاوز حجمها الألفي سنة ضوئية.. لكنه يصير إلى أن العديد من النجـوم تتشكل ضمن هـذه المجرة.. ثلاثة نجوم كل عام تقريباً . وهذا ما يمكن النظر إليه كمهد لولادة النجوم في حجر المجرة.

أما علماء الفلك السويسريون والفرنسيون العاملون في المرصد الأوروبي الجنوبي القائم في (تشيلـي) فقد استطاعـوا أن يتجاوزوا حامل رقم البعد القياسي الفضائي السابق وذلك بوساطة مـا يسمى مطياف (isaac) المركب على المقراب الضخم (VLT) العامل في المرصد المذكور.. وحققوا قياس الطيف الضوئـي لإحـدى المجـرات القديمة ذات الرمـز(١٩١٦-IR- ١٨٣٥-Abell) وتقع هذه المجرة في منزلة برج العذراء إلى جانب كومة المجـرات ذات الرمز(١٨٣٥-Abell) وتبعـد عنا مايقارب الثلاثـة مليارات سنة ضوئية.

أما لمعان هذه المجرة على حدود إمكانية التعـرف عليها فقـد جربـت تصويره مع سـت مجرات أخرى في زمـن سابق من قبل (تليسكوبـات) أخرى.. لكنه لم يكن بالإمكان ملاحظتها إلا في مجال الضوء تحت الأحمر القريب لا في مجال الضوء المرئي. وقد لعب هنا أيضاً (تأثير العدسة الثقلية/ الجاذبية) دوراً في تقويـة الضوء بنسبـة ٢٥ ضعفاً لا بل إلى مئة ضعف.. ولولا وجود هذا التأثير للعدسـة الثقلية/الجاذبيـة لاحتـاج رصد المجرات القديمة لمقراب ذي مرآة قطرها ٤٠ بل وثمانون متراً بـدلا من قياسها بالمقراب الكبـير نسبياً وذي المـرآة ذات القطر ٨,٢ متراً.

وبعـد عـدة أشهـر استغرقهـا تحليل المعطيـات كانت المفاجئة الكبـيرة: إذ وجد العلمـاء أن المجـرة (١٨٣٥-Abell IR-١٩١٦) تبعد عنا ١٣,٢ مليار سنة ضوئية.. هذا يعني بالنسبة إلى الخبراء إن هذه المجرة بقيمـة زمنية في حدود (العشـرة) هي أول

جرم فضائي معروف يحقق انزياحاً أحمراً يتجاوز رقم ((١٠ بينما كانت الأجرام الأخرى حتى الآن.. تتحرك في القيمة الزمنية مابين٦و٧)).

إن انبعاث الضوء من هذه المجرة كان قد بدأ قبل(٤٦٠) مليون سنة بعد حدوث الانفجار الكبير.. آنذاك عندما كان عمر الكون لا يتعدى٣٪ عما هو عليه الآن. وإذا ما قدرنا اليوم عمر الكون بعمر إنسان بلغ الثمانين فإنه بعمر أقدم المجرات يكون في حدود أربع سنوات بينما لا يتجاوز عمر المجرات المكتشفة حديثاً السنتين.

ورغم ضعف الضوء الواصل من المجرات فإن علماء الفلك وجدوا أن قطر المجرة القديمة أقل بقليل من ثلاثة آلاف سنة ضوئية.. وهذا يعادل بالمقارنة في الحد الأقصى جزءاً من عشرة آلاف من كتلة مجرتنا والتي شهدت عصراً نشيطاً في ((إنتاج)) النجوم.. وهذا يشير من دون شك إلى أن ذلك أسّس قديما لتشكل المجرات . ويقول في هذا الصدد العالم السويسري ((دانييل شيرر)) العامل في مرصد جنيف والذي كان قد أجرى عمليات رصد فلكية مع العالم (روسر بيلو) من مرصد (ميدي -بيريينيه).. يقول العالم شيرر إن هذا الاكتشاف يفتح الطريق أمام بحوث لاحقة للتحقق من ولادة النجوم والمجرات من رحم الكون القديم.

ويضيف على ذلك: (إن رصد ومراقبة المجرات البعيدة الواقعة على حدود العصر المظلم أصبح اليوم ممكناً بوساطة المراصد الأرضية المجهزة بالمقاريب التيليسكوبات الكبيرة والحديثة)..

إن المجرات المغرقة في القدم التي تمَّ اكتشافها مؤخراً في الفضاء السحيق تلقي الضوء على تطورات البنيات الفضائية- الكونية . في البداية كانت تلك المجرات أبعد ما تكون من التطور لتصبح في مجموعة الأشكال والظواهر الكونية الحلزونية والإهليليجية الرائعة التي تهيمن على الفضاء الكوني اليوم. بل كانت بدلاً من ذلك عبارة عن تجمعات صغيرة غير منتظمة من النجوم التي تلاصقت مع بعضها البعض لا بل وصارت عبر مليارات السنين تتبادل التأثير أو حتى تنصهر في بعضها البعض.

ويقول ((ريتشارد إيليس)) من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا/ الذي يعتمد تقنية مقراب هابل لاكتشاف أعماق الكون: ((إن

أعمال الرصد الفلكيـــة عززت التصور بأن هذه المجــرات قد نشأت صغـيرة وتطورت لتصبح مجرات كبيرة))..

ويقــول مديــر علــوم الرصــد الفلكي الفضائــي في (بالتيمور)/ الولايات المتحدة الأمريكية (ستيفن بيكويز): (نحن نتطلع إلى الــوراء في الزمن حيــث كان الكون لا يزال يتخبــط في فوضى عارمــة.. وكانت معظم الأشــكال الظاهرة في الصــورة الفلكية إما مجرات أو أجرام تطورت إلى مجرات.. لكننا نــرى إلى جانب ذلك أشــكالا غير عادية لم نستطع تحديدها حتى الآن)..

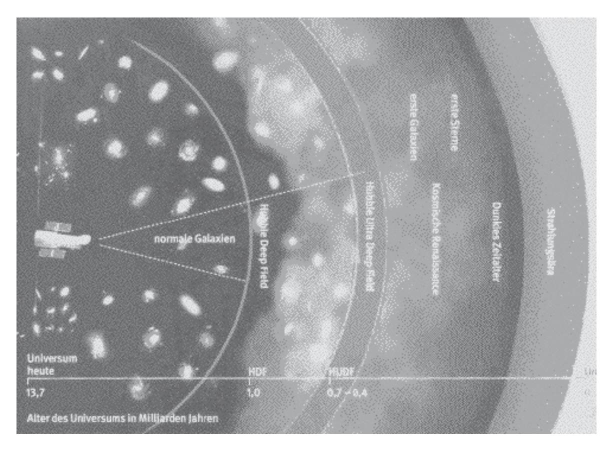
فهناك بــين هــذه المجرات مــا يظهر (كعويــد) لتنظيــف الأسنــان أو كعقد من اللؤلؤ.. وتبدو هــذه المجرات كأنها تؤثر في بعضها البعض تجاذبــاً ثقلياً أو حتى تبدو كأنها تتصــادم.. وهذا ما يتوافق مع موديل تطــور المجرات المتعــارف عليــه كموديل: (القاعدة إلى فــوق(Bottom- up) طبقاً لذلــك تتكون الأجــرام الصغــيرة كالنجوم أولاً.. أمــا المجرات وتجمعاتهــا الضخمة فهي تظهر بعد ذلــك.. وقد حققت أعمال الرصــد الفلكي في عمق الكون التي قام بها معهد.. (Hudf) نظــرة في المرحلة الأولى لتشكل الكون ذلك عندما بدأت مادة الكون تتكون.. أو تتشكل.

ويقــول العــالم (رودجرطومسون) رئيس مجموعــة (Nicmos) في جامعــة أريزونا الأميركيــة: ((إن الصور التــي التقطت من قبل مقراب (هابل) تساعدنا لاتخاذ الخطوة التاليــة لاعتمــاد مقــراب)) جيمس ديب :((jwst)) - ((كوريــث المقــراب (هابل). والــذي كان من المنتظر إطلاقه إلى الفضاء الخارجــي خلال عــام٢٠١٠م.. وينتظر أن يكون باستطاعة المقراب الجديد أن يحدّق)) في تلــك العصــور السحيقــة ويستكشفها بحساسيــة ودقة كبيرة تتجــاوز مايستطيع (هابل). إلاّ أن الصورة التي يوفرها (هابل) لهذه المجالات ستبقى هي المعتمدة إلى حين.. خاصــة أن الحكومة الأمريكية لا تلحظ في خططهــا لبحوث الفضاء والفلك تفعيلاً بل تخفيضاً حتى إنه ليس من الملحوظ إطلاق مهمــات جديدة لمشــروع (هابــل) تقتضي تزويده بأجهزة أكثر حداثــة وفعالية. وهنا يعلق مدير المشروع(massimo stiavelli) بقوله: إن مثل هــذا التطور سيكون خسارة كبيرة.. وبذلك ستبقى صورة (هابل) ميراثاً رائعاً وفريداً من نوعه ولمدة طويلة.

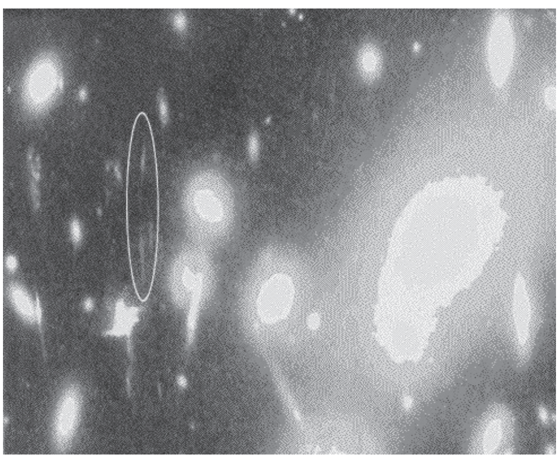
المراجع

١- مجلة (Bild der wissen schaft) مجلة ألمانية.
وعدة بحوث، منها: ١- حقل عمل مقراب (هابل) العميق.
٢- المجرة القديمة في موقع (Abell-٢٢١٨).
٣-البعد الأقصى المسجل في

(Abell-1835-IR-1916)

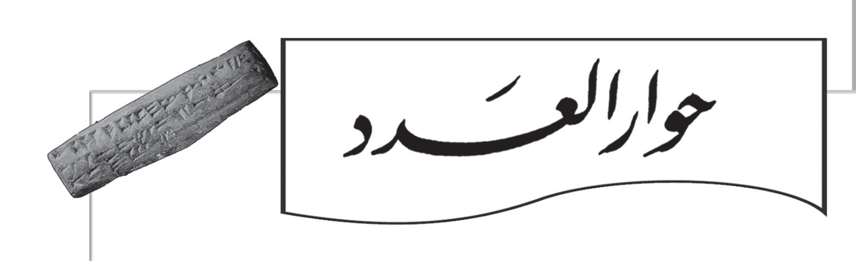


١- كلما رمى الفلكيون بنظرهم في فضاء الكون كلما وجدوا الكون جديداً - وقد تمكنوا مؤخراً من تلقي ضوء مجرات تبعد مليان سنة (١٣) عنا.



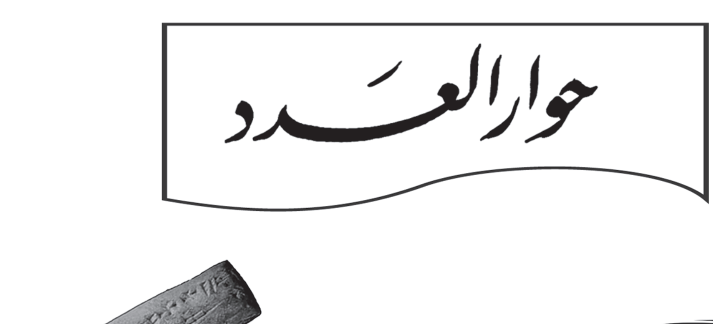
٢- بواسطة العدسة / الثقيلة/ الجاذبية: تقوم (بعوج) ضوء (Abell -٢٢١٨) إن كومة المجرات: المجرة - كما يظهر في خلقية الصورة - وتقويه.
وهكذا استطاع العلماء أن يتقرّوا وجود مجرات قديمة تبعد عنا حوالي (١٣) مليار سنة ضوئية وهي التي تظهر في عدّة مواقع من الصورة كبقع بيضاء.

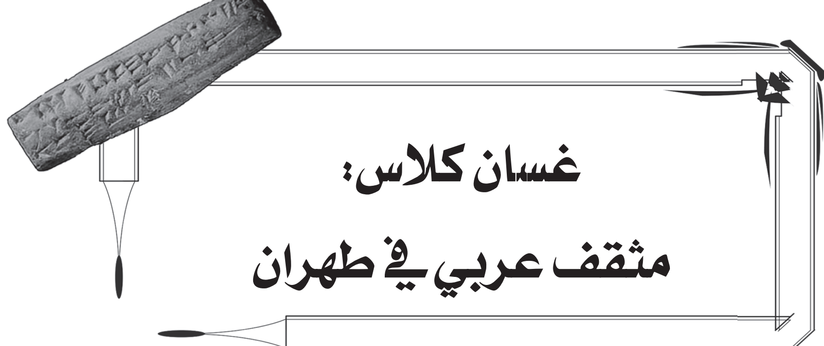




غسان كلاس: مثقف عربي في طهران

إعـــداد : عادل أبو شنب





غسان كلاس: مثقف عربي في طهران

إعداد: عادل أبو شنب

له صولات وجولات في ميادين الثقافة والأدب والوطنية، إنه غسان كلاس، ابن حي المدارس في الصالحية بدمشق، على سفوح جبل قاسيون، حيث مقام أهل الكهف، الذي أمضى طفولته وفتوته فيه، وهو واحد فيه ٣٦٠ معلماً في تلك المنطقة الدمشقية المميزة.

لقد كتب عدداً من الكتب، أهمها عن الشهيد يوسف العظمة. حتى

❁❁ أديب وقاص سوري

صار كتابه عنه مرجعاً للباحثين، وله كتاب عن نزار قباني الذي يحبه الإيرانيون. كما يقول. وهو المقيم عندهم، يدير المركز الثقافي السوري في طهران، وينظم دورات فيه، لتعليم اللغة العربية.

في إجازته التي أمضاها في دمشق بعيداً عن طهران، التقيت به فكان هذا الحوار الهام.

❁ ❁ ❁

شهادات في الأدب والإدارة

سألته كالعادة عن المولد والنشأة والدراسة، فأجاب:

• ولدت عام ١٩٥١م، أي أنني أبلغ اليوم ٦٢ سنة، والدي اسمه قاسم الكلاس.

درست في مدارس دمشق وجامعاتها.

أحرزت إجازة في اللغة العربية وآدابها- جامعة دمشق- ١٩٧٨م.

دبلوم في العلوم الإدارية- جامعة دمشق- ١٩٩٤م.

شهادة في الإدارة والعلاقات العامة- مركز تطوير الإدارة والإنتاجية- ١٩٩٦م.

شهادة الحكومة الإلكترونية في الإدارات المحلية- المنظمة العربية للتنمية الإدارية- ٢٠٠٨م.

خبرات وظيفية

وقال:

• بدأت موظفاً في شركة الكهرباء، ثم صرت رئيساً لتحرير مجلة «فنون» التي كانت تصدر عن الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون ثم مدير الثقافة في وزارة الثقافة، ثم مديراً للمركز الثقافي العربي في «أبو رمانة»، ثم حللت مديراً للمركز الثقافي السوري في طهران في الجمهورية الإسلامية الإيرانية بعد أن كنت مرشداً ثقافياً فيه.

نشاطات كتابية..

وقبل أن أدخل في مؤلفاته التي كان لي شرف الاطلاع على بعضها وقراءة بعضها الآخر، سألته عن نشاطاته خارج وظيفته ومؤلفاته.

أجاب:

• مئات المقالات والدراسات التراثية والنقدية والتراجم والمقابلات والتحقيقات الصحفية في الصحافة السورية والعربية والأجنبية منذ ١٩٧٥م.

عشرات الندوات والمحاضرات في المراكز الثقافية السورية والعربية والأجنبية.

مؤلفاته المنجزة

لم يعتمد غسان كلاس على مقالاته وأبحاثه فقط، بل أصدر عدداً من المؤلفات الأدبية والوطنية. ولما سألته عن مؤلفاته، على الرغم من أنني أعرف معظمها وقد أهداها إليَّ أجاب:

- كتاب (دوما عروس الغوطة الشرقية) ١٩٩٤م بالمشاركة.
- كتاب (وزارة الإنشاء والتعمير والشركات التابعة لها) ١٩٩٥م- ٢٠٠١م.
- مجموعة شعرية (وميض الذكريات) ١٩٧٨م.
- كتاب (شفيق جبري رجل الصناعتين)، بالمشاركة.
- كتاب (يوسف العظمة.. صفحات من أدب ميسلون) طبعة أولى ٢٠٠١م، طبعة ثانية ٢٠٠٧م.
- كتاب (دمشق.. قراءات وإضاءات) ٢٠٠٨م.
- كتاب (أعلام كتبوا الإعلام) + هوامش على مفكرة عاشق دمشقي.

وذكر أنه ضمني إلى هذا الكتاب، باعتباري كتبت كتاباً عن علم مسرحي كبير، يعتبر علماً في عالم المسرح، هو أحمد أبو خليل القباني، الذي أسس المسرح في دمشق، أي في بلاد الشام، وحمله إليَّ، فشكرته، لكنني لم أر الكتاب بعد.

مؤلفات قيد الإنجاز

- كتاب (صدى ميسلون في النثر العربي).
- كتاب (عبد الغني العطري.. أديباً وصحفياً).
- كتاب (مبدعون عرفتهم).
- كتاب (قراءة في إصدارات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية) ٢٠٠٦م.
- كتاب (معالم وأعلام في شعر نزار قباني).

كتاب عن نزار القباني

بعد استعراضه لكتبه المنجزة والتي هي قيد الإنجاز، وكدت أن أتطرق إلى سؤال آخر، فتح حقيبته، وأخرج كتاباً جديداً له، يبدو أنه يعتز به جيداً.

عنوان الكتاب (هوامش في مفكرة عاشق دمشق) وعندما قدمه لي وجدت على غلافه صورة الشاعر الكبير المرحوم نزار قباني الذي قال غسان عنه:

• هل تعلم بأن الإيرانيين يحبون شعر نزار قباني؟

قلت:

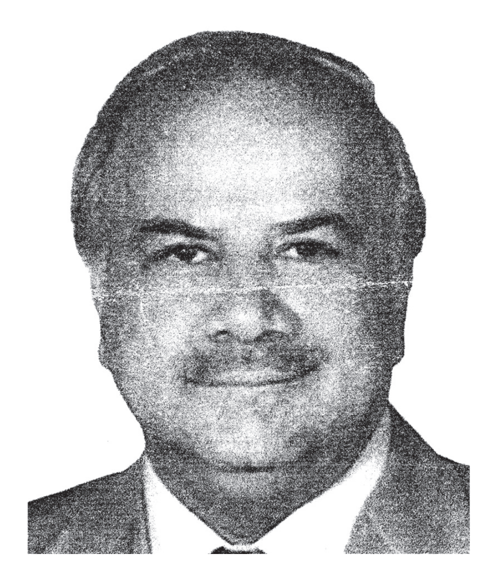
- أحقاً تقول؟

قال:

• كل الحق.. إن الناس هناك يترنمون بشعره.

اهتمام بالوطنيين والعشاق

استعرضت الكتاب المؤلف من ٢٨٤ صفحة، فوجدته، بنظرة سريعة، يعنى بالشاعر المرحوم نزار من ناحية كونه دمشقياً، متعلقاً ببيته في مئذنة الشحم وأبيه وأمه وبالورد الجوري والطبيعة الغناء في دمشق، فالكتاب تعبير عن حب الشاعر للمكان، وعلى اهتمامه بالأعلام الدمشقيين، لا العشاق وحدهم، بل الوطنيين كيوسف العظمة وزير الدفاع في الحكومة السورية الذي ذهب يقاتل الغزاة الفرنسيين، وهو



يعرف أنه لا تكافؤ في تلك المعركة التي جرت في ميسلون، واستشهد فيها العظمة بشرف وعظمة.

تعليق الصادق النيهوم

وقد كتب الصادق النيهوم كلمة على غلاف الكتاب الخاص بنزار قباني وعشقه للمكان، أي لدمشق الكلمة التالية:

«نحن لا نستطيع أن نلغي نزار قباني من تراث العالم، إنه لم يعد يخصنا وحدنا. ولم يعد من المجدي أن نتفرج على صغار النقاد وهم يشتمونه، على عادة العجائز المضحكة، في حارات الشرق، كلما كتب شيئاً لا تستطيع ثقافتنا البدائية أن تهضمه».

دوري في طهران

وسألته:

- حدثني عن دورك في طهران التي تعمل فيها مديراً للمركز الثقافي السوري؟

قال:

• حالياً أشغل وظيفة مدير المركز الثقافي العربي السوري في طهران. كما قلت، وقد عملت على توطيد أواصر العلاقات الثقافية بين البلدين بوسائل مختلفة من أبرزها: المعارض والندوات والمحاضرات والمؤتمرات إضافة للمشاركة في الفعاليات العربية، والإيرانية التي تقام هناك..

عملت على تشجيع ترجمة الإبداعات العربية، وخاصة السورية، إلى اللغة الفارسية، وإقامة الندوات والملتقيات بشأنها.. وتابعت ووسعت نطاق دورات تعليم اللغة العربية التي يقيمها المركز ووسعت عدد المنتسبين إليها بالتكريم.

كان هذا الحوار في مقهى «الروضة» بدمشق الذي سألت الأستاذ غسان كلاس أن يأتيني، لأجري معه هذا الحوار، وقد جاء ومعه أوراق كثيرة، كل ورقة فيها تشير إلى عمل من أعماله أو إلى كتبه و نشاطاته، و كل صغيرة أو كبيرة تخصه.

من هذه الأوراق، على سبيل المثال عضويته في لجنة من لجان «جمعية أصدقاء دمشق»، وفي ورقة أخرى. مثال عن برنامج له إذاعي، وورقة عن آخر له تلفزيوني، وورقة ثالثة عن اهتماماته بدمشق. عشقه الدائم كما يقول:

وقد أجلت بقية الحوار إلى يوم آخر، وفي الموعد الجديد جاءني إلى بيتي، وقدَّم لي حلوى إيرانية، سماها، وقد نسيت اسمها.

وهنا رحت أكمل الحديث:

أعلام كتبوا الأعلام

- سألت عن كتابه «أعلام كتبوا الأعلام» من هم الذين كتبوا، ومن الذين كتبوا عنهم؟

أجاب:

• هؤلاء كتبوا عن أولئك:

١- سلمى الحفار الكزبري - لطفي الحفار.

٢- نجاة قصاب حسن صانعو الجلاء.

٣- الزركلي - الأعلام.

٤- عبد الغني العطري - العبقريات.

٥- محمود أرناؤوط - شاكر الفحام.

٦- خليل مردم بك - الشعراء الشاميون.

٧- عادل أبو شنب - أبو خليل القباني.

٨- عبد الله الخاني - شكري القوتلي.

٩- شريف الصواف - الأسر الدمشقية.

١٠- كوليت الخوري - فارس الخوري.

سأشتري الكتاب..

وقال:

• هذا الكتاب صدر، كما قلت، لكن يؤسفني أنني لم أحمل لك نسخة، فقلت:

- أنا معني بقراءة كل ما تكتبه، وسأذهب وأشتريه.

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من الحوار، حدثني عن البرامج الإذاعية والتلفزيونية التي ساهم في إعدادها، وأحياناً تقديمها.

قلت له:

- إنك غارق في النشاطات الثقافية والأدبية، فكأنني أرى فيك نفسي في شبابي، فقال يمتدحني، فرجوته ألا يكمل، وكان هذا مسك الختام في حواري مع هذا المثقف، الذي انتقل من موظف في شركة الكهرباء، خطوة خطوة، ليصبح مسؤولاً عن المركز الثقافي السوري في طهران. متسلحاً بإجازة في الأدب العربي.

❁ ❁ ❁

لقطات من حياة

الأستاذ غسان كلاس

• يتقن اللغة الإنكليزية بشكل جيد، واللغة الفارسية بشكل متوسط، واللغة العربية الأم.

• أعدّ وقدّم برنامجاً إذاعيّاً سماه «رحلة في مكتبة».

• وأعدّ وقدَّم برنامجاً إذاعيّاً سماه «ميسلون في ذاكرة الوطن».

• وأعدّ وقدَّم برنامجاً إذاعيّاً ثالثاً هو: «صفحات من تاريخ البطولة».

• وأعدَّ برنامجاً تلفزيونيّاً أسبوعيّاً سماه «مرايا المجتمع».

• وهو عضو في اتحاد الصحفيين واتحاد الكتاب العرب.

• وعضــو في الجمعيــة الجغرافيــة وجمعيات أخرى.

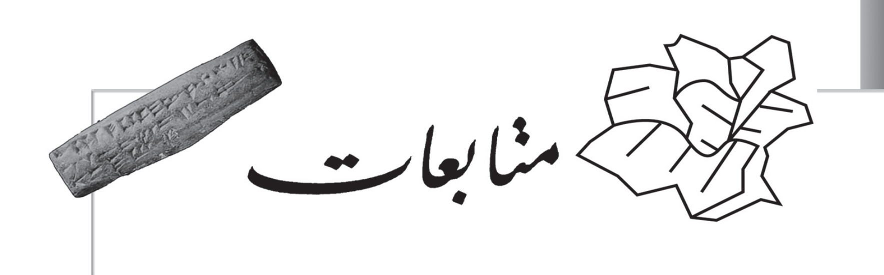
• يحمــل دروعاً تكريميــة من جمعيات ومراكز كثيرة.

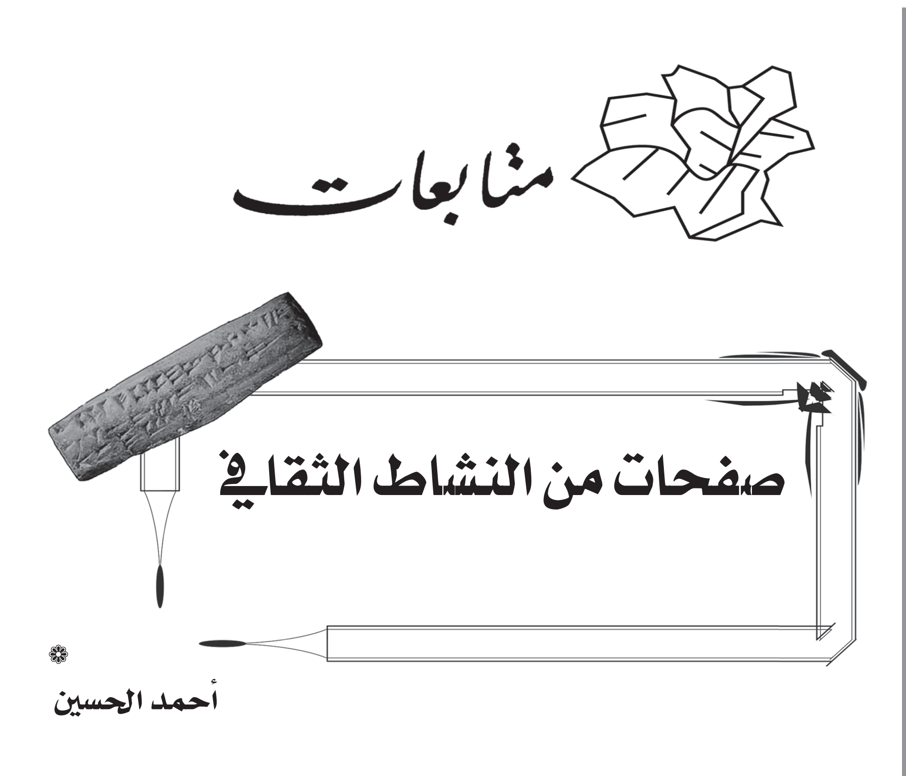
• مــن برامجــه برنامــج «قــراءات دمشقية».

• خص غسان كلاس الشاعر خليل مردم بك، والشاعر شفيق جبري بمقالين نشرهما في جريدة «الوفــاق» التي تصدر في طهران بالعربية.

• أشادت غــادة الجابي الوزيرة السابقة بكتــاب رسمي بمؤلفه الهــام «صفحات من أدب ميسلــون». وكتب عنــه الأستاذ جمال عبود كلمة بعنوان: «خمسون حلقة»، وكذلك كتب إحسان الهنــدي، والمرحوم عبد الغني العطري.




متابعات



أحمد الحسين ❁

توماس ترانسترومر يفوز بجائزة نوبل:

حصل الشاعر السويدي توماس ترانسترومر على جائزة نوبل للآداب ٢٠١١م، كما أعلنت الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم، وهي المرة الأولى التي يحصل فيها على الجائزة مؤلف من السويد منذ أربعين عاما.

منح توماس ترانسترومر الجائزة الأرقى في عالم الأدب مكافأة على بساطة أسلوبه الذي يفتح الأبواب على الواقع ويرتقي بالإنسان كما أوضحت

❁ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

الأكاديمية السويدية في وصفها لأعمال هذا الشاعر.

توماس ترانسترومر الذي تربى في كنف والدته بدأ الكتابة في الثالثة عشرة من عمره ونشر أول دواوينه في عام ١٩٥٤م وظهرت ترجمة إنكليزية لأعماله الكاملة ونشرت بالمملكة المتحدة عام ١٩٨٧، وقد انطلق في بداياته بقصائد تقليدية تمحورت حول الطبيعة إلا أن أعماله اتخذت رويداً رويداً طابعاً أكثر حميمية وحرية بحثاً عن الارتقاء بالذات وفهم المجهول.

اتهمه بعض الشعراء في فترة السبعينيات بأنه ابتعد عن التقاليد واستبعد القضايا السياسية من شعره ورواياته، ولكن من ناحية أخرى أثنى عليه آخرون لتطويره نوعاً من اللغة الحداثية والتعبيرية الجديدة في شعره.

في عام ١٩٩٠م أصيب توماس ترانسترومر بجلطة دماغية أثرت على قدرته على الكلام ولكنه استمر في الكتابة، وقد كان اسمه مدرجاً على قائمة المرشحين لنوبل من نحو عشرين عاماً إلَّا أنه لم يحصل عليها سوى هذا العام ومن ضمن الجوائز الأخرى التي حصل عليها قبل فوزه بنوبل جائزة «بونير للشعر» و«بيترارکا- بريس» من ألمانيا.[1]

خافيير مورو يفوز بجائزة بلانتيا الأدبية:

حاز الكاتب الإسباني خافيير مورو في برشلونة على جائزة بلانتيا الأدبية الإسبانية عن روايته «ايل ايمبوريو ايريس تو» (الإمبراطورية هي أنت). وتتناول الرواية حياة إمبراطور البرازيل بيار الأول (١٧٩٨-١٨٣٤) نجل ملك البرتغال جواو السادس. الذي لجأ إلى البرازيل خلال الاجتياح الفرنسي في ١٨٠٧م وأصبح ملكا عليها العام ١٨٢١م.

ولد مورو في مدريد من أم فرنسية وتابع دروساً في التاريخ والأنثربولوجيا وعمل صحافياً مستقلاً لحساب عدة صحف تصدر بالإسبانية ومحطات تلفزيونية، وشكلت رحلاته الكثيرة ولاسيما في أميركا اللاتينية وآسيا مصدر إلهام لرواياته السابقة مثل «دروب الحرية» و«قدم جايبور» و«الشغف الهندي» و«الساري الأحمر».

وتنافست ٤٨٤ رواية من بينها حوالي مئة من أميركا اللاتينية في الدورة الستين

لجائزة بلانتيا البالغة قيمة مكافأتها المالية ٦٠٠ ألف يورو والتي وزعت خلال عشاء رسمي ترأسه وليّ عهد إسبانيا الأمير فيليبي وزوجته ليتيثيا.[٢]

جوليان بارنز يفوز بجائزة الـ مان بوكر:

فاز الروائي البريطاني جوليان بارنز بجائزة الـ «مان بوكر» لهذا العام عن روايته «الإحساس بالنهاية» (THE SENSE OF AN ENDING) وتمثل الجائزة واحدة من الجوائز المرموقة التي تمنح للأدب المكتوب باللغة الإنجليزية.

وكان بارنز البالغ من العمر ٦٥ عاماً رشح ضمن القائمة القصيرة لنيل الجائزة في ثلاث مرات سابقة من دون أن يفوز فيها، ووصفت لجنة التحكيم الرواية التي تتحدث عن رجل يحاول التصالح مع ماضيه عند إحساسه باقتراب النهاية منه بأنها «كتاب يتحدث عن الجنس البشري في القرن الواحد والعشرين».

وكانت روايته «الإحساس بالنهاية» هي الأقصر بين الروايات الست المرشحة في القائمة الأخيرة لنيل الجائزة، وتدور عن صداقة في الطفولة ومراوغة الذاكرة وعيوبها.

وقالت رئيس لجنة التحكيم الكاتبة والمدير السابق لجهاز MI٥ السيدة ستيلا ريمنغتون: إن الرواية تحمل «سمات الأدب الإنجليزي الكلاسيكي» الرواية «مكتوبة بشكل رائع، ورسمت حبكتها بمهارة وتكشف عن أعماق جديدة في كل قراءة لها»».

وفي خطاب تسلم الجائزة قال بارنز «أود أن أشكر المحكمين-الذين أتمنى سماع كلمة ضدهم- لحكمتهم، ورعاة هذه الجائزة على صكهم» في إشارة إلى صك مبلغ الجائزة المقدم إليه، وأضاف إذا أراد الكتاب (الورقي) مواجهة تحدي الكتاب الإلكتروني، فإن عليه أن يبدو كشيء يستحق الشراء والاحتفاظ به.

وقالت السيدة ريمنغتون عن الرواية بأنها «مكتوبة بشكل رائع، ورسمت حبكتها بمهارة وتكشف عن أعماق جديدة في كل قراءة لها»، ووصفت الرواية بقولها «نحن نعتقد أنه كان من الكتب التي تحدثت عن الجنس البشري في القرن الواحد والعشرين».

كما قالت: على الرغم من أن الشخصية

الرئيسيــة تبدو في البدايــة «مملة» إلا أنها تكشف تدريجيــاً عن تحولهــا إلى شخص مختلف تماما.

وأكملت «إن إحدى الأشياء التي يقدمها الكتاب هي حديثه عن الجنس البشري: ولا أحــد منّا يعلم فعليا مــن نحن- نحن نقدم أنفسنا بشتى أنواع الطرق».

سبــق أن رشــح بارنــز ثــلاث مــرات لنيــل الجائزة من دون أن يفــوز فيها وكان المرشحون الآخــرون للجائزة هذا العام كل مــن كارول بريتش والروائي الكندي باتريك ديويت وايسي ادوغيان وستيفن كيلمان واي دي ميللر.

وسبق أن رشح بارنز المقيم في العاصمة البريطانية للجائزة للمرة الأولى عام ١٩٨٤م عن روايتــه «ببغاء فلوبــير» ورشح في المرة الثانية عــام ١٩٩٨م عن روايتــه «إنجلترا، إنجلــترا» ثم رشح للمــرة الثالثة عام ٢٠٠٥ عن روايته «آرثر وجورج».

وتألفت لجنة التحكيم إلى جانب السيدة ريمنغتون مــن كل من الكاتــب والصحافي ماثيو دو انكونا والمؤلفة سوزان هيل والكاتب والسياسي كريســ مولين والصحافية غابي وود من صحيفة الديلي تلغراف.

وقد اتهم البعضــ في الأوساط الأدبية الجائزة بأنها أصبحت تميل للروايات الأكثر شعبية، بعد أن كانــت الروايات المختارة في القائمــة القصيرة (النهائيــة) للجائزة هذا العام مــن الأعمال الأكثر مبيعــاً في تاريخ جائزة البوكر.

وعلى الرغم من قصر رواية بارنز الواقعة في ١٥٠ صفحــة إلا أنها لم تكن أقصر رواية تفــوز بجائزة بوكر بل سبقتها رواية بينلوبي فيتزجيرالد «في الخــارج» الواقعة في ١٣٢ صفحة التي فازت بالجائزة عام ١٩٧٩م.[٣]

رحيل الأديب مدحت عكاش:

نعــى اتحــاد الكتــاب العــرب الأديب والكاتب الكبير مدحــت عكاش الذي وافته المنية عن عمر ناهز الثمانية والثمانين عاما بعد صراع طويل مع المرض.

والأديب الراحل من مواليد عام ١٩٢٣م تلقــى تعليمه في مدينة حمــاة قبل أن يتابع دراسته الجامعية في مدينة دمشق حيث نال إجازة في الحقوق، وقد درّس الراحل الأدب العربــي في الثانويات العامــة وأصدر مجلة الثقافة الشهرية عام ١٩٥٨ أدت دوراً مهماً في الحياة الثقافية في سورية والوطن العربي

هـــي وأختها جريدة الثقافة الأسبوعية التي أصدرهـــا مرافقة لها ورافــق ذلك إصدار ملاحق ثقافية حول أبـــرز التجارب الأدبية السوريـــة، وقد ظــل الأديب الراحــل وفيّاً لمبادئه في خدمة الشعــر والصحافة واللغة العربية حتـــى آخر لحظات عمــره وبقيت مجلــة الثقافة وكذلك الجريدة مواظبة على الصـــدور على الرغم مـــن أن المرض أنهك جسده.

قرض عكاش الشعــر وكتب الدراسات الأدبيـــة والمقالات الافتتاحية، وترجم بعض التجارب الشعرية العالمية، وهو أحد أعضاء اتحاد الكتاب العرب، ومن أهم مؤلفاته:

١- ابن الرومي- دراسة- دمشق ١٩٤٨ (ط٢: ١٩٧٨م).

٢- من روائع الأدب الأندلسي- دراسة ومختارات- دمشق.

٣- بــدوي الجبل- دراســة ومختارات- دمشق.

٤- رسائل الجاحظ- تحقيق- دمشق.

٥- ياليل- شعر- دمشق ١٩٨٠م.

٦- مختارات أدبية- دمشق.

٧- القصائــد الأولى- بيـــتر تومبست- ترجمة- دمشق.

وحـــول مســـيرة مدحة عكاشـــ وحياته الحافلة بضروب العطاء والإبداع ذكر الدكتور علـــي القيم معاون وزير الثقافة: إن معرفته بالأديب والشاعر والإعلامي والأستاذ مدحة عكاش تعـــود إلى أواخـــر سبعينيات القرن الماضي حيث تعرف إليه في دارته في «زقاق الصخر» التي كانـــت مقراً لمجلته «الثقافة» وملتقى عشرات الكتاب والباحثين والشعراء والمفكريـــن يتناقشـــون ويتحـــاورون ويلقون أشعارهـــم ويقيمون أمسيات في فسحة هذه الدار التي كان لها فضل على كثير من الأدباء والشعراء.الذيـــن تتلمذوا على يده، موضحاً أن عطـــاء عكاش سوف يبقـــى شاهداً على مســـيرة عطرة وحافلـــة بالإبداعات وسوف تبقى مجلـــة الثقافة الشهريـــة والأسبوعية شاهـــدة على رحلة عطاء استمرت لأكثر من ستين عاماً.

وقـــال د.حسن حميـــد: أشعـــر برحيل الأديب الكبير مدحة عكاش أن ارتجافاً كبيراً لف المشهد الثقافي عامة، قضايا، وأعلاماً، واتجاهـــات أدبية، ذلـــك لأن الراحل رعى أجيـــالاً أدبية كثيرة في سورية، من الممكن أن يـــؤرخ لها منذ بداية حقبة الستينيات وحتى

ساعة رحيله، مضيفاً أن مدحة عكاش. ليس شيخ الصحفيين في سورية وحسب، وإنما هو شاعر كبير لم يعط وقته وموهبته لكتابة شعره وإنما من أجل رعاية شعر الآخرين، فما كتبه الراحل من شعر يوزع في دواوين الآخرين، أما محبته فهي في كل صدر من صدور الأدباء وأهل الثقافة والتعبير والفن، وهو لغوي بارز وحارس من الحراس الأمينين على اللغة العربية، وصاحب أخلاق اجتماعية عالية جدّاً، يقدّر الكبير والصغير، ويحتضن كل من يصرّح بأنه يهوى الأدب أو يعشق الكتابة الأدبية، فما عرفت في حياتي أديباً أخلص للأدب واللغة والفن وأهل التعبير مثل إخلاص مدحة عكاش.(٤)

وفاة الدكتور عبد الكريم الأشتر:

رحل الباحث الأكاديمي الدكتور عبد الكريم الأشتر عن عمر ناهز الثانية والثمانين عاماً قضاها في خدمة الأدب والثقافة وفي مد الأساتذة والمختصين بالمراجع العلمية والأكاديمية.

ويعتبر الأشتر علماً من أعلام النقد والبحث في مجال الأدب العربي في سورية والوطن العربي حيث تنطلق أهميته من الدور الأكاديمي والبحثي الذي لعبه في مجال الدراسات الأدبية والفكرية التي قدمها وخاصة أنه مثل جامعة دمشق في كبرى المؤتمرات العلمية الدولية خارج سورية وبرز كاسم مهم في مجال النقد الأدبي والدراسات اللغوية حيث سمي عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بدمشق وعضو جمعية النقد الأدبي وعضواً في اتحاد الكتاب العرب.

ولد الراحل في حلب سنة ١٩٢٩م وتعلم في مدارسها، ثم سافر إلى القاهرة فنال شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث سنة ١٩٦٠م من معهد الدراسات العربية العليا وشهادة الدكتوراه في الأدب العباسي من جامعة عين شمس سنة ١٩٦٢م.

عين مدرساً في جامعة دمشق سنة ١٩٦٣م وارتقى فيها إلى درجة الأستاذية سنة ١٩٧٩م فعمل في جامعة بدولة الإمارات العربية المتحدة لمدة سنتين عاد بعدها عام ١٩٨١م إلى جامعة دمشق فظل فيها إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٩٨م.

قدَّم الراحل الكثير من المؤلفات التي تعتبر مراجع بحثية في مجال الأدب العربي مثل:

١- «التسهيل في دراسة الأدب الحديث» بالاشتراك مع عاصم بيطار.

٢- «النثر المهجري وفنونـه» (جزءان)، القاهرة،١٩٦١م.

٣- «دعبل بن علـي الخزاعي شاعر آل البيت»، دمشق، ١٩٦٤م.

٤- «نصوص مختارة من الأدب العباسي»، دمشق، ١٩٦٥م.

٥- «غـروب الأندلـس وشجـرة الدر»، دمشق، ١٩٦٥م.

٦- «نصوص مختـارة من الأدب العربي الحديث»، دمشق، ١٩٦٦م.

٧- «معـالم في النقـد العربي الحديث»، بيروت، ١٩٧٤م.

٨- «دراسـات في أدب النكبة»، دمشق، ١٩٧٤م.

٩- «التعريف بالنثر العربي».

١٠- «نافذة مفتوحة.. مفردات من أدب المقالة والخاطرة والحديث».

١١- «العربيـة في مواجهـة المخاطر».

وغيرها من المؤلفات.

وحصل الأديب الأشـتر على جائزة ابن بطوطـة للمخطوطات في عـام ٢٠٠٧م من المركز العربي للأدب الجغرافي في «أبو ظبي» عن مخطـوط لكتاب «الاعتبار» لـ أسامة بن منقذ حيث استحق الجائزة لكونه استند في دراستـه عن هذا المخطـوط إلى المخطوط اليتيـم للكتاب وإلى أخباره في المدن العربية المختلفة موضحـاً حقائق المرحلة التاريخية العاصفـة التـي عرضهـا المخطـوط عبر السـيرة الذاتية التي أملاها مؤلفه في أيامه الأخيرة.(٥)

مصر تودع أنيس منصور:

ودعت مصـر ومثقفوها الكاتب المصري أنيس منصور عن عمر يناهز ٨٧ عاماً، بعد صراع لم يدم طويلاً مع المرض.

حصل منصـور خلال حياتـه الزاخرة بالبحـث والإبداع على العديد من الجوائز، تمثلـت في الدكتوراه الفخريـة من جامعة المنصـورة، وجائـزة الفارسـ الذهبي من التليفزيـون المصري أربع سنـوات متتالية، وجائـزة كاتـب الأدب العلمـي الأول مـن أكاديميـة البحـث العلمـي، وفـاز بلقـب الشخصيـة الفكريـة العربيـة الأولى مـن مؤسسة السوق العربية في لندن، وحصل على لقـب كاتب المقال اليومـي الأول في أربعين

عاما ماضية، وجائزة الدولة التشجيعية في الآداب من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، عام ١٩٦٣م، جائزة الدولة التقديرية في الآداب من المجلس الأعلى للثقافة، عام ١٩٨١م، جائزة الإبداع الفكري لدول العالم الثالث، عام ١٩٨١م، وجائزة مبارك في الآداب من المجلس الأعلى للثقافة، عام ٢٠٠١م، وله الآن تمثال في مدينة المنصورة.

كان الراحل أنيس منصور يجيد عدة لغات منها العربية والإنجليزية والألمانية والإيطالية، واطلع على كتب عديدة في هذه اللغات وترجم بعضاً من الكتب والمسرحيات وألف كتبا عديدة نذكر منها حول العالم في ٢٠٠ يوم، وبلاد الله لخلق الله – غريب في بلاد غريبة واليمن ذلك المجهول، وأنت في اليابان وبلاد أخرى.

وفي وفاة الرجل الذي لطالما تباينت الآراء والمواقف حول أدبه ومواقفه الفكرية والسياسية، قال وزير الثقافة الأسبق فاروق حسني أن أنيس منصور ذو باع طويل في الثقافة، ليس لأنه كاتب وفيلسوف فحسب، بل لإضافته الكثير للثقافة من خلال حواراته الثرية مع كبار الأدباء والمثقفين، ولذلك فإن مصر فقدت برحيله «آخر العمالقة».

واعتبر الكاتب الكبير إبراهيم عبد المجيد أن أنيس منصور موسوعة أدبية وفكرية، واتصل بقامات كبيرة خارج الوطن العربي، قائلاً: إنه قد قرأ له منذ صغره، وعرف من خلاله الأدب الألماني بشكل خاص بطريقة مبسطة غير معقدة.

أما صديقه الكاتب عزت السعدني فقد وصفه بأنه شخصية ساحرة، جمع بين الصحافة والأدب والفلسفة في كيان واحد، ولذلك فمن الصعب تكراره، وقد أثرى المكتبة العربية بمؤلفات عديدة، تميزت بالبساطة فقال: إن أنيس منصور هو الذي يستطيع الكتابة عن أعقد الموضوعات بجمل بسيطة وجذابة تناسب القارئ العادي، وأشار إلى أن كتاباته تناولت الفلاسفة والفنانين والصعاليك، واستطاع بأسلوبه الرشيق أن يجذب القارئ له منذ الصفحة الأولى، وامتدح السعدني رحلات منصور حول العالم، والكتابة عنها وكأنه يصحب القارئ معه، وأشار إلى علاقة منصور بالمرأة وكيف أنه لم يكن عدواً لها كما تصور كتاباته، لكنه

هاجمها من منطلق حبه لها، وأكبر دليل على ذلــك كما قال السعدني هو اعتزازه بزوجته وكتاباته عن مرضها حين صاحبها في رحلة علاجها بفرنسا.(٦)

الألكسو توثق التراث العربي:

أعلنت الباحثة الدكتــورة حياة قطاط، ممثلــة المنظمــة العربية للتربيــة والثقافة والعلوم الألسكو، خلال الدورة الرابعة عشرة من مؤتمر اتحاد الأثريين العرب، عن سعي المنظمــة لإطلاق قاعدة بيانــات رقمية يتم من خلالها توثيق الــتراث العربي بمختلف أشكالــه وأنواعــه وذلك حفاظــا عليه من الاندثار.

وقالت قطاط: إنــه في ظل سعي البلاد الغربية لمحو الهوية العربية وآثارها لابد من تكاتف جميع المنظمــات المعنية بهذا الأمر للحفــاظ على تراث الأمــة وهذا ما تحاول منظمــة الألسكو فعله معتمدة في ذلك على التقنيات التكنولوجية الحديثة، حيث ستقوم المنظمــة بإنجــاز شبكات وقواعــد بيانات تضــم كل الحرف والصناعــات التي تتعلق بالــتراث وتصنفها وتحفظهــا بشكل رقمي وهذا سيتم من خلال مجموعة من الأساتذة المتخصصين في هذا المجال حتى يتم إنشاء ما يسمى بالمكنز العربي المتعلق بالتراث.

وأكــدت قطــاط أن المنظمــة بتكثــف جهودها للتقليل من عمليات المتاجرة بالآثار وتزويرهــا كل مــا يتعلق بالــتراث الثقافي للدول العربية، كمــا ستقوم المنظمة تكثيف عمليات تدريــب العاملين في هــذا المجال لتطوير أدائهم في العمليات الخاصة بالجرد والتوثيق والترميم، إضافة إلى محاولة كسب هــؤلاء العامــين مهارة العرضــ المتحفي، مضيفة أنه ينبغي علينا أن نأخذ تراث هذه الأمة على عاتقنا مناشدة المنظمات العربية والإسلامية المعنيــة بهذا المجال بأن تحاول الحفاظ على هذا التراث وحمايته من دون الاستعانة بمنظمــات خارجية مثل منظمة الأمم المتحــدة للتربيــة والثقافــة والعلوم «اليونيسكو».(٧)

مصر تحصر أراضيها الأثرية:

أعلن المجلس الأعلى للآثار بمصر البدء في إجراءات الحصر الشامل لجميع الأراضي والمواقع الأثرية تمهيــداً للقيام بمسح أثري لها لمعرفة مــا إذا كانت تضم عناصر أثرية من عدمه.

وقال الأمين العام للمجلس مصطفى أمين أن آخر حصر للأراضي التي تخضع لقانون حماية الآثار المصرية يرجع إلى فترة الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) وأن الحصر الجديد سيفيد في عملية الاستثمار حيث سيتم تحديد الأراضي التي لا توجد بها آثار منقولة أو ثابتة.

يشار إلى أن كثيراً من المواقع الأثرية والأراضي التي يحتمل وجود آثار فيها تعرضت خلال الفترات الماضية لتعديات وتجاوزات جراء السرقة أو التنقيب غير النظامي، عدا التعديات الناتجة عن أعمال البناء والمخالفات السكنية والعمرانية.[٨]

الإمارات تحصد كأس العالم للتصوير الفوتوغرافي:

أعلن الاتحاد الدولي لفن التصوير الفوتوغرافي (الفياب) عن أسماء الدول والصور الفائزة في مسابقة بينالي الفياب الثالث والثلاثين الدولي للتصوير الرقمي للشباب (أبوظبي ٢٠١١م) الذي نظمه الاتحاد الدولي في مدينة «أبوظبي» برعاية هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، وشارك في البينالي ٢٨٨ مصوراً يمثلون ١٩ دولة بمجموع أعمال بلغت ٥٧١ صورة.

وحصلت دولة الإمارات العربية المتحدة على كأس العالم للتصوير ضمن فئة (المصورين الذين تقل أعمارهم عن ٢١ سنة)، وبهذه المناسبة تقدّم عبدالله العامري مدير إدارة الفنون في هيئة «أبوظبي» للثقافة والتراث بخالص التهنئة للمصورين الفوتوغرافيين والفنانين الإماراتيين كافة بمناسبة حصول دولة الإمارات على لقب كأس العالم للتصوير، وبارك للمصورين المشاركين في البينالي تحقيق هذا الإنجاز الدولي والأول من نوعه في مجالات الفنون البصرية، وأشاد بوصول أعمالهم إلى أعلى المراتب والدرجات في المنافسات الدولية، متمنيا العمل على تحقيق الإنجازات بما يخدم أهداف وإستراتيجية هيئة «أبوظبي» للثقافة والتراث في تقديم الصورة الأجمل لوطننا وتعزيز البيئة الملائمة لخدمة المواطن في مجالات الفنون والثقافة والتراث.

وكانت لجنة التحكيم المرشحة من قبل الاتحاد الدولي قد عقدت اجتماعاتها في المرسم الحر التابع للهيئة برئاسة كرت

بتشانسكي مدير بيناليات الشباب وعضو مجلس الإدارة العليا في الفياب، وضمت اللجنة أيضاً في عضويتها كل من ناصر حاجي عضو الفياب، وبدر النعماني ممثل الفياب في الإمارات، والفنانة شيخة الطنيجي مقررة اللجنة.

يذكر أن مسابقات بيناليات الاتحاد الدولي لفن التصوير الفوتوغرافي للشباب والتي تقام كل سنتين وتقبل المشاركة فيها باسم الدول الأعضاء للمصورين الشباب في فئتين عمريتين مختلفتين، الأولى (لمن تقل أعمارهم عن ١٦ سنة) والثانية (لمن تقل أعمارهم عن ٢١ سنة) وتتم عملية التحكيم بوساطة النقاط لكل عمل، وتمنح الجوائز للدول عن مجموع النقاط لعدد المصورين المشتركين في كل دولة، وأيضاً للصور الفردية الحاصلة على أكبر مجموع من الدرجات لكل فئة عمرية، وذلك حسب لوائح وقوانين الاتحاد الدولي لفن التصوير الفوتوغرافي.

- وجاءت النتائج للدول في المجموعة الأولى (لمن تقل أعمارهم عن ١٦ سنة) كالتالي:

• المركز الأول (كأس العالم للتصوير) وحصلت عليه سريلانكا بمجموع ١٨٠ نقطة.

• المركز الثاني (ميدالية الفياب الذهبية) وحصلت عليه سلوفاكيا بمجموع ١٦١ نقطة.

• المركز الثالث (ميدالية الفياب الفضية) وحصلت عليه النمسا بمجموع ١٤٩ نقطة.

• المركز الرابع (ميدالية الفياب البرونزية) وحصلت عليه هنجاريا بمجموع ١٣٤ نقطة.

• وجاءت كل من قبرص في المركز الخامس وألمانيا في المركز السادس وسلوفينيا في المركز السابع.

وفي الجوائز الفردية:

- ميدالية الفياب الذهبية حصل عليها كفينديا تشاروني من سريلانكا.

- ميدالية الفياب الفضية حصل عليها تيبور كونا من سلوفاكيا.

- ميدالية الفياب البرونزية حصل عليها مولير تانجا من النمسا.

- وجاءت النتائج للدول في المجموعة الثانية (لمن تقل أعمارهم عن ٢١ سنة) كالتالي:

• المركـز الأول (كأس العـالم للتصوير) وحصلـت عليـه الإمارات بمجمـوع ١٦٤ نقطة.

• المركز الثاني (ميدالية الفياب الذهبية) وحصلت عليه النرويج بمجموع ١٥٧ نقطة.

• المركز الثالث (ميدالية الفياب الفضية) وحصلت عليه إيطاليا بمجموع ١٥٥ نقطة.

• المركـز الرابـع (ميداليـة الفيـاب البرونزيـة) وحصلت عليه أوكرانيا بمجموع ١٥١ نقطة.

• وجاءت كل من النمسا في المركز الخامس وسلطنـة عمان وفنلنـدا بالترتيب نفسه في المركز السادس.

أما المصورون الإماراتيون الذين حصلوا على لقـب كأس العـالم للشبـاب للتصوير الفوتوغرافي فهم: ١- خالـد راشد الزمر، ٢- ميثاء محمد مسلـم سعيد، ٣-رؤى علي غانم العميري،٤-سلمى سعيد عبيد النيادي، ٥-إيمان محمد علي راشد، ٦-حميد محمد علـي، ٧-خلفان سالم المنصـوري، ٨-عتيق سعيد الهاملـي، ٩-ميعاد بدر موسى، ١٠- عيد ساري المزروعي.[٩]

كتاب جديد لكاسترو:

جـرى في وزارة الخارجيـة الروسية في موسكو الاحتفال بصدور كتاب جديد لزعيم الثورة الكوبية فيديل كاسترو. ويحكي الكتاب ذكريات زعيم الثـورة الكوبية حول أحداث عامِ ١٩٥٨ حـين تمكنت قواتـه وتعدادها ٣٠٠ مقاتل من الإطاحـة بباتيستا ونظامه الديكتاتوري.

صدر الكتاب عن دار العلاقات الدولية للنشر بالتعاون مع الوكالة الفيدرالية للنشر والاتصـالات. ويتكون مـن جزأين: الجزء الأول بعنوان «إستراتيجية الهجوم المعاكس» والجزء الثاني بعنوان «النصر الإستراتيجي». كما يؤرخ العمل لمرحلة نضال الشعب الكوبي في سبيل الحرية.

وقد تزامن صدور الكتاب الجديد للرئيس الكوبي مع احتفـال كاسترو بعيد ميلاده الـ ٨٥. وقد حضر هذا الحدث وزير الخارجية الروسي سيرغي لافـروف والسفير الكوبي لدى روسيـا خوان فالديس فيغيروا وسفراء عدد مـن دول أمريـكا اللاتينية إلى جانب ممثلـين عن البرلمان وآخريـن من الأوساط العلمية الروسية.

وقــال السفير الكوبي: هذا الكتاب يمثل مــادة تاريخية قيمة، لأنــه يضم الكثير من الصــور والوثائق والخرائط التي تسجل لنا واقــع الأحــداث خلال كفــاح الكوبيين من أجل نيــل الاستقلال. وصاحب هذا الكتاب لم يكــن فقط شاهد عيان على الثورة بل هو من ألفها وبنى كوبا الجديدة. وإصدار هذا العمل في روسيا يعتبر خطوة هامة من أجل تعزيز التواصل بين موسكو وهافانا.

يقول كاسترو في كتابــه إنه بعد اندحار جيش باتيستا في معركة لاس مرسيدس التي دارت رحاهــا في الأسبــوع الأول مــن شهر أغسطس/آب ١٩٥٨م حسم مصير الطغيان، إذ أصبــح انهيــاره العسكــري الكامل قاب قوسين أو أدنى.

ويقول الرئيس الكوبي السابق إن جيش الثوار تكبد ٣١ قتيلاً في تلك المعركة، بينما قتل من جيش باتيستا ٣٠٠ جندي إضافة إلى مئــات الأسرى، كما غنم الثوار كميات كبيرة مــن الأسلحة والمعــدات، ويضيف بأن هذا الانتصار مكن جيش الثوار من شن هجومه النهائــي الحاســم. وفعلا عمــت المعارك أرجاء البلاد كافة، وتمكن جيش كاسترو من الاستيلاء على العاصمة هافانا في الأول من يناير/كانون الثاني ١٩٥٩م.[١٠]

فان غوخ قتل برصاصة طائشة:

قال مؤلفــا كتاب فان غوغ- سيرة حياة: إن التشكيلي الهولنــدي فنسنت فان غوخ لم ينتحر، كمــا ورد في مختلــف روايات سيرة حياته القصيرة المعذبة، وإنما قُتل عن طريق الخطأ برصاصة طائشة.

وذكــر المؤلفان، ستيفن نيفيه وغريغوري وايــت سميث، في كتابهمــا الجديد هذا إن السبــب الأرجــح لوفاة الفنــان الانطباعي الأشهــر هو رصاصة طائشــة، انطلقت عن طريق الخطأ، من مسدس كان يحمله مراهق في حقــل مطل على بلدة أوفــير الفرنسية، وبذلك يناقضــ هذا الرأي الرواية السائدة التي تقــول إن فان غوخ، في خضم عذاباته النفسيــة أطلــق النار على صــدره في أحد الحقول، ثم عاد مترنحًــا لأكثر من كيلومتر إلى نــزل ريفــي كان يقيم فيــه، وهنا لفظ أنفاسه الأخيرة بعد يومين متأثرًا بجروحه. وتبعًــا لهذه الرواية نفسها، فقد سئل الفنان عمّا إن كان قد تعمّــد إصابة نفسه بغرض الانتحار فقال: «نعم، أعتقد ذلك».

لكــن مؤلفي الكتــاب يقــولان إن هذه الرواية لا تفسّر السبب في أن مسند اللوحات ومختلف أدوات التلوين التي حملها فان غوخ معه (إضافة إلى مسدس وخطاب يشرح فيه سبب انتحاره وفقــا للرواية نفسها) اختفت في ذلــك اليوم، ولم يعثر علــى أي منها حتى الآن.

ويتســاءل الكتاب عــن صدقية الرواية، التي تقــول إن فان غوخ كان يملك مسدسًا، علــى الرغم ممّا عــرف عنه مــن قضائه وقتًا طويــلاً في المصح العقلي، وبالتالي فلا سبيل لــترك مسدس في يديــه. وبينما يقر المؤلفــان بأن «لا أحــد يدري ما حدث لفان غوخ بالضبــط في ذلك اليوم»، فقد قالا إن السيناريو الذي أوردته الرواية الأكثر شيوعًا وقبولاً «ليس هو ما حدث بالضرورة».

لهــذا فهما يقدمان سيناريو بديلاً يقول إن الفنان قُتل فعلا برصاصة. لكنها لم تطلق بيده، وإنما بيــد مراهق في السادسة عشرة من عمره، اسمــه رينيه سيكريتان. ويقولان إن هذا الصبي كان يمضي عطلة الصيف في قرية قريبة، وإن رابطًا من صداقة «معقّدة» نشأ بينه وبين فان غوخ، فكان الأول يشتري للأخير الجعة والنبيذ.

ويضيف الكاتبان أن المراهق أطلق النار على فان غوخ بطريق الخطأ التام. لكن هذا الأخــير كان في حالة ذهنية «ترحّب بالموت» من جهــة، ولم يرد لأي نوع مــن العقاب أن يلحق بصديقه اليافع من جهة أخرى. ولهذا السبــب فقــد أشاع بنفسه أنــه كان يقصد الانتحار. يذكر أن الواقعة الحاسمة حدثت في العــام ١٨٩٠م، وكان الفنــان في السابعة والثلاثين من عمره.(١١)

دوراس تدخل مكتبة لابليياد:

دخلت الكاتبة الفرنسية الكبيرة مارغريت دوراس، مكتبة «لابلييــاد» العريقة غاليمار لتنضــم، بعد ١٥ سنة علــى وفاتها إلى أكبر الكتّاب باعتبارهــا ابتدعت لغة خاصة بها، حيــث أضيفت إلى المجلديــن الأول والثاني للأعمال الكاملة نصوص ووثائق نادرة. ومن خلال أحــداث أو شخصيات تتكرر، وتحول بعضهــا إلى أساطير أدبية، تــبرز المواضيع الأساسيــة التي ألهمت أعمــال دوراس في طفولتها.

ولدت الكاتبة، واسمها الأصلي مارغريت

دوناديو، عام ١٩١٤م قرب سايغون، وانتقلت عام ١٩٣٢م للعيش في فرنسا حيث تزوجت روبير انتيلم، وأصدرت روايتها الأولى «المتهورون» تحت اسم مستعار هو مارغريت دوراس، وانضمت إلى صفوف المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، وظلت شيوعية حتى خمسينيات القرن العشرين، كما شاركت بقوة في حركة ١٩٦٨م، وتوفيت عام ١٩٩٦م في باريس. ومن أشهر كتبها: «العشيق» (١٩٨٤م) و«سدّ على المحيط الأطلسي» (١٩٥٠م).

ويسمح في «لابلياد» بالاطلاع على كل أعمال دوراس من روايات وقصص قصيرة ومسرح وسيناريو أفلام.(١٢)

مشاهير الرسامين في معرض:

أقام متحف كونستاوس في زيوريخ، وهو من أهم المتاحف في سويسرا، معرضاً لتحف من المجموعة الخاصة لتجار التحف الفنية من آل نهماد.

واحتوى المتحف ١٠٩ لوحات قيّمة تمثل الحقبة الممتدة من ١٨٧٠ إلى ١٩٧٠م وتحمل تواقيع بيكاسو وميرو ومونيه وماتيس وموديلياني، علماً أن هذه الأعمال تجتمع في مكان واحد للمرة الأولى.

ووفق مدير المتحف كريستوف بيكر، عرض تجار التحف الفنية من آل نهماد مجموعتهم للمرة الأولى، وهم عائلة من أصل سوري تتحدر من مدينة حلب التي عاش فيها المصري هلال نهماد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم لجأ إلى بيروت عام ١٩٤٧م، ليستقر في ميلانو في ستينيات القرن العشرين. وتقدّر ثروه عائلة نهماد بالبلايين، وهي تملك صالتين للعرض في لندن ونيويورك.

وبما أن التحف تعود إلى عائلة تجار، فقد أثار معرض زيوريخ انتقادات كثيرة وزعم البعض أن آل نهماد يسعون لرفع الأسعار عبر عرض تحف نادرة. غير أن هيلي نهماد، المسؤول عن صالة العرض في لندن والمشرف على المعرض، قال إن المجموعة المعروضة تضم ثلاثة آلاف لوحة، «من بينها ٢٠٠ أو ٣٠٠ لوحة يمكن اعتبارها تحفاً فنية تليق بمتحف.

وتملك العائلة حوالى ٢٠٠ لوحة زيتية لبيكاسو «هي أهم مجموعة لبيكاسو في

العالم، باستثناء تلك التي تملكها عائلة الرسام»، وفق هيلي نهماد. ويضم المعرض أيضاً سبع لوحات لموديلياني.(١٣)

ماتيس في معرض:

قدم متحف هنري ماتيس في كاتو-كامبريسيس (في شمال فرنسا) الرسوم التي أنجزها ماتيس فنان المذهب التوحشي بالريشة، والتي تُجمع للمرة الأولى، كاشفة جانباً غير معروف من فنّه كرّس له سنواته الأخيرة، حيث تضمن المعرض المقام ٢٠٠ عمل، من العام ١٩٠٠م ورسوم الفنان الأولى وصولاً إلى مطلع خمسينيات القرن الماضي حين بلغ ماتيس قمّة تمرسّه التقني.

وقالت دومينيك سيموزياك مفوضة المعرض وأمينة متحف ماتيس: «حتى في تلك الفترة يمكن اعتبار كل رسم عملاً فنياً كاملاً». ففي العام ١٩٤٦م، وفي سن السابعة والستين، قرر ماتيس أن يجعل الرسم طريقة تعبيره الفنية الوحيدة، فانطلق في مجموعة من بورتريهات النساء والمناظر الطبيعية أو المشاهد الداخلية التي شكلت مواضيعه المفضلة. وتوضح سيموزياك: «كان لدى ماتيس في تلك الفترة اهتمام محدد برسم الخطوط مع التركيز على تفاصيل الوجه لإبراز نطاق ما، واستبدال لعبة الظلال والتباين». واستوحى ماتيس أيضاً من الخط الصيني، وجرّب الرسوم المرافقة للكتب مثل «جاز» للناقد الفني والناشر تيرياد.

ويستعيد المعرض مجموعة رسوم كبيرة الحجم مثل «شكل نسائي وفاكهة» و«بهلوان». وقالت مفوضة المعرض: «أُنجزت هذه الرسوم بالأبيض والأسود وركزت على مواضيع عزيزة على قلب ماتيس، مثل العري والزهور، مع تركيز أقل على عامل الإغواء مقارنة بأعماله التي استخدم فيها الألوان الزاهية... كان الأسود عنده في تلك المرحلة لوناً منيراً والخطوط البارزة بأهمية الفراغ.(١٤)

إحالات

١- وكالة رويترز

WWW.REUTERS.COM.

٢- موقع نسيج

WWW.NASEEJ.COM.

٣- موقع بي بي سي
WWW.BBC.CO.UK/ARABIC.

٤- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»
WWW.SANA.ORG.

٥- موقع ميدل ايست أن لاين
WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.

٦- وكالة أنباء الشرق الأوسط
WWW.MENA.ORG.EG.

٧- شبكة المعلومات العربية المحيط
WWW.MOHEET.COM.

٨- موقع القناة
WWW.ALQANAT.COM.

٩- وكالة أنباء الإمارات
WWW.WAM.ORG.AE

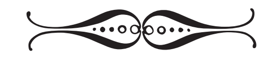
١٠- أنباء موسكو/ نوفوش
AR.RIAN.RU

١١- موقع إيلاف
WWW.ELAPH.COM

١٢- موقع البوابة
WWW.ALBAWABA.COM.

١٣- موقع العرب أونلاين
WWW.ARABONLINE.CO.

١٤- موقع المغترب
WWW.ALMUGHTARIB.COM.





الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس الهجري

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ❀

القصـــة هي الفن الأقرب إلى الحياة، فليس عجباً أن يهتم الإنسان بهذا الفن، فقد تركوا لنا تراثاً ضخماً. وهو على الرغم من أهميته وفرادته لم ينل الاهتمـــام المناسب، وهو ما يدعو إلى الاستغراب الشديد، فهل يعقل ألا تهتم أمة «ألف ليلة وليلـــة» و«كليلة ودمنة» و«رسالة الغفران» و«المقامات» و«سيرة عنـــترة» و«سيـــف بن ذي يزن»، بهذا الفن الذي وجـــد سبيله إلى آداب الأمم كلها.

❀ باحث سوري.

وكانت الأندلس هي النافذة التي هبت منها رياح الفن القصصي على أوروبة. فنقرأ في كتاب «تاريخ إسبانيا الإسلامية» «لمونتغمري واط» إشارة واضحة إلى أثر القصص العربي في نشوء الرواية الإسبانية.

وقد برزت نظرتان إلى الأعمال السردية العربية، نظرة إيجابية إلى الأعمال الرسمية الراقية، ونظرة سلبية إلى الأعمال الشعبية، وفي كلتا النظرتين كانت الأسباب أدبية ونقدية ودينية وحضارية وتاريخية واجتماعية.

أما في العصر الحديث فقد كان أوَّل من أشار إلى الفن القصصي فيما نعلم «جرجي زيدان». وقد شهد العقدان الأخيران من القرن الماضي انطلاقة جديدة للدراسات العربية في السرديات العربية، فكانت الجهود الكبيرة والمهمة لكل من: عبد الفتاح كيلطو وسعيد الغانمي وسعيد القطين وعبد الله إبراهيم وفاروق خورشيد ومحمد رجب النجار وعبد الملك مرتاض ومحمد القاضي وغيرهم.

ومع ذلك، فما زال الفن القصصي العربي القديم بحاجة إلى دراسات أكثر تضيء عتمة طالت كثيراً، وتبرز مكامن الجمال فيه وتستنبط منه القواعد والأصول.

ركز البحث على القرنين الثالث والرابع ومطلع القرن الخامس للهجرة، لأن هذه المرحلة حلقة مهمة من حلقات النثر العربي العباسي الأندلسي، فضجت فيها الأشكال القصصية وتخلقت فيها أشكال جديدة، فكان لابد من إضافة إنجازات المعري وابن شهيد الأندلسي إلى هذه المرحلة لأنهما عاشا في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس.

❁ ❁ ❁

١- الفن القصصي العربي من الشفوية إلى الكتابية

• **القصة الشفوية من الجاهلية حتى عصر التدوين:** تمر الأمم بطورين من الثقافة، الشفوية والكتابية. ولعلَّ العرب كانوا أكثر الأمم اهتماماً لفعاليات الثقافة الشفوية. والطريف أن العرب ظلوا متمسكين بالشفوية حتى في العلوم. ويعود ذلك إلى أن الثقافة الشفوية عند الشعوب تعلي من شأن الخطابة والكلمة المنطوقة.

أولاً: القصة في العصر الجاهلي: القصة تعني الخبر الذي يتألف من أحداث يتتبعها القاص بالألفاظ والمعاني، ويوردها على مسامع الناس فيحفظونها، وقد تكتب أيضاً.

كان العصر الجاهلي حافلاً بالأحداث

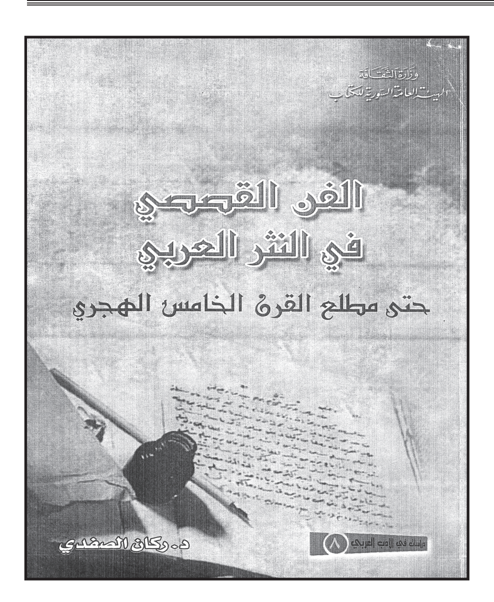
الخارجية والداخلية، وكل ذلك يخلف وراءه أخباراً وقصصاً عن البطولات والفرسان والمؤامرات يتناقلها الركبان ويتسامر بها الناس في مجالسهم، لتصبح مع الزمن قصصاً شعبياً فيه تاريخ القوم بتنوعاته. وبالتالي، لا ننكر وجود نصوص مكتوبة قبل عصر التدوين، ونذكر على سبيل المثال: كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبيد بن شرية الجرهمي وسواهم. فقد أوردت كتب المؤرخين مدونات بالعربية والسريانية.

يتصدر الشعر في الثقافة الشفوية، لأنه الفن الأقرب إلى الغناء والطقوس الدينية، وهو ذاكرة الناس تسجل تاريخهم، إلى الحد الذي نقول فيه إن القصيدة الجاهلية هي قصة شعرية على العموم. أما القصص النثري فهو أكثر تعرضاً للتغيير لصعوبة نقله حرفياً، ولكنه أثرى وأغنى وأقوى تعبيراً عن روح الجماعة. وقد تنوع القصص النثري الجاهلي إلى:

- **قصص الملوك:** ملوك كندة –الحيرة– الغساسنة.

- **قصص الأسفار والرحلات والحروب:** قصة الأعشى– قصة يوم بطن عاقل.

- **قصص الأساطير:** طسم وجد يس– ثمود والناقة– إساف ونائلة.



- **قصص المجون والخلاعة:** قصة المنخل والمتجردة –دارة جلجل.

- **قصص النوادر:** قصص نعيمان.

- **القصص على أسئلة الحيوان (الخرافة):** بين الضب والضفدع –النعامة تطلب قرنين.

ثانياً: القصة في العصر الإسلامي: ظل القصص فناً شعبياً محبباً. وكان القصص القرآني أحسن القصص. وكان الصحابة يتسامرون بقصص الملوك والأبطال وسادات القوم والأيام. وحين قامت الدعوة الإسلامية كان القص أخطر سلاح أشهر في وجهها إبان ظهورها في مكة. وقد بدأ القص الإسلامي في زمن النبوة، وتطور في زمن الخلفاء الراشدين، وكان أصحابه يثيرون

فيه الحماسة الدينية كالشعراء. وأول قاص سمي في الإسلام كان (تميم الداري) في عهد عمر(رض) وكان يقص في مسجد الرسول. وبدا القص سياسياً في زمن الفتنة بين علي ومعاوية.

وكان للخوارج قصّاص كثيرون منهم: الصالح بن مسرّح وكان يدعو بقصصه إلى الجهاد. وكان للمسجد الدور الأكبر في القص باعتباره الوعاء الحامل للقاص والمقصوص له. وأنشأ معاوية ما سميّ القص للعامة والقص للخاصة. ويختصر (محسن يوسف) أنواع القص في العصر الإسلامي (الأموي) إلى ثلاثة أنواع هي: القصة الدينية الموضوعة من أجل المقاتلين. والقصة الموضوعة لغاية سياسية. وقصص الحب.

• **القصة الكتابية حتى القرن الثالث الهجري:** بدأ التدوين مع القرآن في زمن الرسول، وبعد ذلك عاد التدوين للظهور مع تطور الدولة الإسلامية وضرورة الدواوين.

أولاً: الرواة والإخباريون والقصاص واستمرار الشفوية: من العوامل التي أسهمت في استمرار الثقافة الشفوية انتشار ظاهرة السمر انتشاراً ساعدت عليه الحياة الجديدة بما حفظت من نوادر وأسواق ومجالس وحلقات في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء. وخاصة في العهد العباسي زمن هارون الرشيد. وظهر مؤرخون كحمزة الأصفهاني والأصمعي وأبو عبيدة معمر بن المثنى وابن الكلبي والكسائي وغيرهم.

وغدا الاستماع إلى القصص نشاطاً شعبياً. وقد أفرد الجاحظ فصلاً في كتابه (البيان والتبيين) وذكر أخبار الرواة وصفاتهم وسماتهم. وكان على القاص أن يتخذ هيئة مناسبة تحدث التأثير النفسي المطلوب. والذي نلاحظه هنا أن القص ارتبط في المقام الأول بالموضوعية الدينية فكان قصصاً وعظيّاً.

ثانياً: تدوين السيرة النبوية: تعد السيرة النبوية شكلاً سرديّاً عربيّاً. المحاولات الأولى كانت تلك الرسائل التي أرسلها عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان عن بعض سيرة الرسول. بدأ بجهود متفرقة وجزئية قام بها المحدثون والإخباريون من أمثال: وهب بن منبه وشرحبيل بن سعد وموسى بن عقبة ومعمر بن راشد. وظلت السيرة النبوية موزعة حتى جاء ابن إسحق وجمع مادته من جميع من سبقه في سيرة ضمنها مرويات شفوية وهي صورة أكثر شفوية إلى أن جاء ابن هشام فهذب سيرة ابن إسحق ولخصها. وبغض النظر عن صحة المرويات في السيرة فقد أطلقت القصص الديني إلى أبعد مدى وأفسحت المجال أمام كتب

التراجم ومعجمات الأعلام والبلدان والسير التاريخية والذاتية.

ثالثاً: تدوين القصة التاريخية والأسطورية والواقعية: بدأ هذا النوع من التدوين على عهد معاوية وقد ذكر ابن النديم في الفهرست عشرات الكتب في المغازي والأخبار. ومنهم: أبو مخنف ونصر بن مزاحم وهشام بن محمد الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وغيرهم. وفي العصر العباسي الأول انطلق التأليف التاريخي بلا حدود كما رأينا من كتب تؤرخ للدعوة الإسلامية والمغازي والفتوح والقبائل والملوك إلى كتب تؤرخ للدول.

رابعاً: تدوين الأمثال: الأمثال كانت قصصاً مضمرة في الجاهلية، ثم انبرى علماء للتأليف في قصص الأمثال. وكان من أشهر من كتب في ذلك: يوسف بن حبيب ومؤرخ الدوسي والعسكري والثعالبي والميداني وغيرهم.

خامساً: القصص المترجمة: بدأت الترجمة منذ زمن الأمويين. فقد ترجمت ليزيد بن معاوية كتب في الصنعة والطب والنجوم وترجم كتاب للساسانيين في زمن هشام بن عبد الملك.

وفي العصر العباسي الأول أنشأ الرشيد دار الحكمة قام عليها يوحنا بن ماسويه. وفي كثير مما ترجم طرف قصصي جلي، حتى جاء ابن المقفع بترجمته عن الفارسية، عدداً من الكتب الفلسفية والقصصية. وفتحت كتب الترجمة أعين الكتاب العرب على فنون وأساليب تعبيرية جديدة.

٢-الفن القصصي في القرنين الثالث والرابع للهجرة..

• المؤثرات الخارجية في القصة العباسية:

أولا: المؤثرات السياسية والاجتماعية والفكرية: كان الوضع السياسي في القرنين الثالث والرابع قد شهد أحداثاً أثرت في بنية المجتمع المسلم. وقاد الدولة العباسية في بداياتها شخصيات قوية مثل المأمون والمعتصم والواثق. وقد ساد في هذه المرحلة الازدهار الاقتصادي، وهو ما دفع بالعلم والتأليف قدماً، ونهضت الحركة الثقافية، فظهرت التيارات الفكرية والدينية، وعمّ الجدل العقلي. وقد ألقت هذه المرحلة الساطعة في تاريخ الدولة العباسية ظلالها على الخيال القصصي الشعبي والرسمي. وما حدث من أحداث فيما بعد وخاصة ثورة الزنج والقرامطة والخوارج فقد ذكرتها كتب الأخبار كالمسعودي والطبري والتنوخي. أما اقتصادياً واجتماعياً، فقد كان للترف في المرحلة الثانية من العصر العباسي والتفاوت

الاجتماعي وتفاوت المداخيل المادية دوره في بروز حركة اجتماعية ونشوء قصص وأخبار عن الترف لدى الطبقة الحاكمة والعوز والفقر لدى طبقات المجتمع. ولم يقف هذا التعبير عند حدود الحدث فقط، بل تجاوزه إلى اللغة والبنية الفنية للقصة، واصطبغت بالروح الشعبية، وسادت السخرية الهدامة في الأعمال القصصية.

ثانياً: ظاهرة السمر: ربما كان السمر أساس الفن القصصي الأول لدى الشعوب قاطبة، بل كان مادتها وأساسها، وبرز عدد من المسامرين والندماء والمضحكين في هذا العصر، منهم: أدهم المضحك، عبد الله بن الجصاص، وسيبويه المصري، وأبو العيناء، وهاني الموسوس وغيرهم. وانبرى بعض الكتاب إلى جمع هذه الأسماء في كتب كما أورد ابن مسكويه في كتابه (أنس الفريد)

ثالثاً: المجالس والمناظرات: الاختلاف بين السمر والمجالس كون الثانية رسمية، وأكثر اتزاناً .فهي مجالس تعقد لعلم من العلوم، يتولى فيها الحديث عالم من العلماء، وتكون في مكان محترم. ومن أهمها : مجالس ثعلب وأحاديث ابن دريد، وأحاديث ابن فارس. وكانت المجالس تاريخياً هي الممهد لنشوء فن المقامة. أما المناظرات فهي مجالس متخصصة بالجدل، بين فريقين متنافسين. وهي مناظرات لغوية أو أدبية أو فلسفية أو دينية. ومن أشهر المناظرات ما نشأ بين أصحاب مالك وأصحاب أبي حنيفة. كما بين سيبويه والكسائي، وبين المعتزلة وخصومهم.

رابعاً: اللهو والجواري: كان للمرأة الجارية في العصر العباسي حضورها الأساسي، وخاصة أن الكثير منهم كان ذا حظوة وعلم وثقافة. وبالغ الناس في اقتناء الجواري والعبيد، المحملين بعاداتهم وثقافاتهم وعقائدهم ونمط معيشتهم، والذي صبوه في المجتمع المسلم. امتهنت الجواري مهنة الغناء، وظهر ذلك في الموسيقا والغناء، واشتهرت الكوفة بذلك. وظهر من بين الجواري الأديبات والمغنيات، ودخلن في النسيج القصصي في هذا العصر، ولعلَّ أشهرهن (الجارية تودّد) في (ألف ليلة وليلة).

خامساً: ظاهرة الزهد: في ظل وضع طبقي حاد ظهر التصوف، الذي مثل نوعاً من المعارضة السلبية للواقع. فظهرت رابعة العدوية والحارث بن أسد المحاسبي صاحب كتاب (الرعاية لحقوق الله) وتلميذه الجنيد إلى الحلاج والنفري والسهروردي وغيرهم. وانتشر الزهاد في الأمصار الإسلامية، وتناقل الناس أخبارهم. وأضافت حركة

الزهد والتصوف مادة غنية مشحونة بالخيال الشعبي الجامح. وظهرت كتب كثيرة تناولت حياة هـؤلاء الزهاد مثـل: مؤلفات السراج والكلابـاذي وأبـي طالب المكـي والرسالة القشيرية وغيرها الكثير.

سادساً: ظاهرة القصاص: استمرت ظاهرة القصاص وازدادت انتشـاراً في الأوساط الشعبيـة، وابتعـدت عن الرقابـة الدينية، إلى نشاط شعبي يستحـث المخيلة. وأصبح القصاص أنفسهم مادة قصصية. وظلّ القص نشاطاً شفوياً موازياً للقص الكتابي.

سابعـاً: ظاهـرة الكدية والتطفيـل: بدأت ظاهرة الكدية في العصـر العباسي، بسبب الاضطرابـات الاجتماعيـة، والهجـرة إلى المـدن. وينتمـي إلى الكديـين طائفـة من المهمشـين اجتماعياً. وقـد يختلط المكدي بالعيـار، والفـارق بينهمـا أن الأول عمله فردي بينما يعمل الآخر في إطار الجماعة. حـلّ المكـدي محـل الأعرابـي في المخيلة المدنية، وانتزع منه النادرة أو الطرفة. ومثل الكديـة كان التطفيل، وبـدأت منذ العصر الأمـوي، بشخصيـة قوية مثـل (أشعب). وقال الأصمعـي: الطفيلي هو الداخل على القوم من غير أن يدعى. والفرق بين المكدي والطفيلي أن الأول يستخدم مهاراته اللغوية والثقافية، أما الثـاني فهو شخص ساذج لا يحمل هماً يتجاوز معدته.

ثامنـاً: ظاهـرة اللصوص والعياريـن والشطـار والأحـداث: ظهرت هـذه الشرائح الاجتماعيـة كانعكاسـ لظاهـرة التفاوت الطبقـي في المجتمـع العباسـي. واتخذت شكل الظاهرة الاجتماعيـة، فوضعت كتب كثيرة في اللصوصيـة وأخبارها، مثل: كتاب الحراب واللصوص للقيط المحاربي، وكتاب لصوص العرب لأبـي عبيدة، وكتاب الحيل للمدائني. وغير ذلك. وشاركت هذه الحركة في الأحـداث السياسيـة الكبرى مثل حرب الأمين والمأمـون. استهدفت حركة العيارين والشطار السلطة الحاكمة والموظفين الكبار والتجار والأثريـاء. وفي الشام كانت (حركة الأحـداث) تمارس العمل نفسه، وسميت في مصر (الحرافيش). وقد عبرّ الفن القصصي العباسي عن هذه الظاهرة تعبيراً دقيقاً.

الأنـواع القصصيـة في القرنـين الثالـث والرابـع للهجرة: تشير الدراسات النقدية إلى تنوع فن القصـ في القرنين الثالث والرابع للهجري وفق التالي:

أولاً: القصـة الدينيـة والتاريخيـة: ومن أهم روّادها: الطبري في تاريخ الرسل والملوك. والسيرة النبوية لابـن هشام، والجاحظ في البيان والتبين، وابن قتيبة في عيون الأخبار،

وطبقات الصوفية لابن السلمي. وفي القصص التاريخي نجد الأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ اليعقوبي.

ثانياً: القصة الواقعية: ومن أهم روّادها: الجاحظ، وابن الداية في كتاب المكافأة. والأصفهاني في الأغاني، والقاضي التنوخي في الفَرج بعد الشدة ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. وأبو المطهر الأزدي وحكاية أبي القاسم البغدادي.

ثالثاً: المقامة: ومن أهم روّادها: بديع الزمان الهمذاني في مقاماته.

رابعاً: القصة الرمزية: ومن أهم روادها: ابن المقفع في كليلة ودمنة إخوان الصفا في الرسالة الثانية والعشرين. والمعري في خطب الخيل وسجع الحمام وأدب العصفورين ورسالة الصاهل والشاحج.

خامساً: القصة الفلسفية والنقدية: ومن روّادها: ابن طفيل في حي بن يقظان. وابن سينا في سلامان وأبسال. والمعري في التوابع والزوابع ورسالة الغفران.

سادساً: القصة الشعبية: ومن الرائدات: ألف ليلة وليلة ومئة ليلة وليلة.





قطوفٌ تُراثيَّة

رئيس التحرير

تذكر كتب التراث العربي، أن الشاعر الحُطيئة قال يستعطف الخليفة الراشديَّ عمر بن الخطاب (رض) عندما سجنه في هجاء الزبرقان بن بدر:

ماذا تقول لأفـراخ بذي مـرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمـر

ويروي صاحب كتاب «الأغاني» أن عمر بن الخطاب (رض) لما أطلق

الحُطيئة قال له: إياك وهجاء الناس، فقال الحُطيئة: إذن يموت عيالي جوعاً! هذا مكسبي ومنه معاشي، قال: فإياك والمقذع منه، و«اشترى» منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

❁ ❁ ❁

كتب التراث العربيّ، وصفت الزيارة بأنها تغرس المحبة: قال بشار بن برد:

قد زُرتِنا مرّةً في الدهر واحدة ثَنّي ولا تجعليها بيضة الديك

وفي كتب الهند قالوا: ثلاثة تزيد في الأنس: الزيارة، والمؤاكلة، والمحادثة.

❁ ❁ ❁

سُرق لرجلٍ درهم، فقيل له: إنه في ميزانك، فقال: قد سرق مع الميزان..

وسُرق لآخر خرج، فقيل له: لو قرأت عليه آية الكرسي لم يسرق، فقال: إنه كان فيه مصحف تام.

وسُرق لبعضهم بغل، فقال أحد أصحابه: الذنب لك في إهماله، وقال بعضهم: الذنب للسائس، فقال هو: يا قوم، واللص ماله ذنب؟

❁ ❁ ❁

نظر حمصي إلى منارة، فقال لصاحبه: ما أطول قامة من بنوا هذه، فقال: يا أحمق إنّما بنوها على الأرض ثم أقاموها.

...نظر رجل أحمق في جبٍ فرأى شخصه، فدعا أمَّه وقال: إن في البئر لصاً فنظرت فرأت شخصها فقالت: ومعه زميلته.

❁ ❁ ❁

قيل للحمار: لمَ لا تجترّ؟ فقال: أكره مضغ الباطل... وهذا كمثل الإعرابيّ لما رمي إليه علك، فقال: تعب الحنجرة، وخيبة المعدة.

❁ ❁ ❁

عُرضَت جاريةٌ على الخليفة العباسي المهدي، فقال للشاعر بشَّار بن برد: امتحنها، فقال: الحمد لله كثيراً.

فقالت: حين صُيِّرت ضريراً.

فقال: اشترِ الملعونة فإنها حاذقة.

❁ ❁ ❁

قصد أعرابيٌّ الخليفة العباسي المأمون، فقال: قد قلت شعراً، فقال: أنشده، فأنشد:

حيّاك رب النــاس حــيّاك	إذ بجمال الوجه ردّاكا
بغداد من نورك قد أشرقت	وأورق العــود بجدواكا

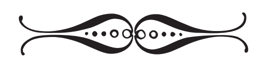
فأطرق المأمون ساعة ثم أنشد:

حــيّاك رب الناس حــيّاك	إن الذي أمَّلـت أخطاك
أتيت شخصاً كيسه قد خلا	ولو حوى شيئاً لأعطاك

فقال: يا أمـير المؤمنين إن بيع الشعر بالشعر ربا، فاجعل بينهما محلّلاً، فضحك، وأمر له بمال.

❁ ❁ ❁

قيل للحسن بن سهل: ما بال كلام الأوائل حجّة؟ فقال: لأنه مرّ على الأسماع قبلنا، فلو كان ذيلاً، لما تأدّى إلينا مستحسناً.



من إصدارات وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



مــن كــــروم الجمــال

المنحوتة: بدويات - للفنان: أحمد الأحمد (البادية - ١٩٤٦م)

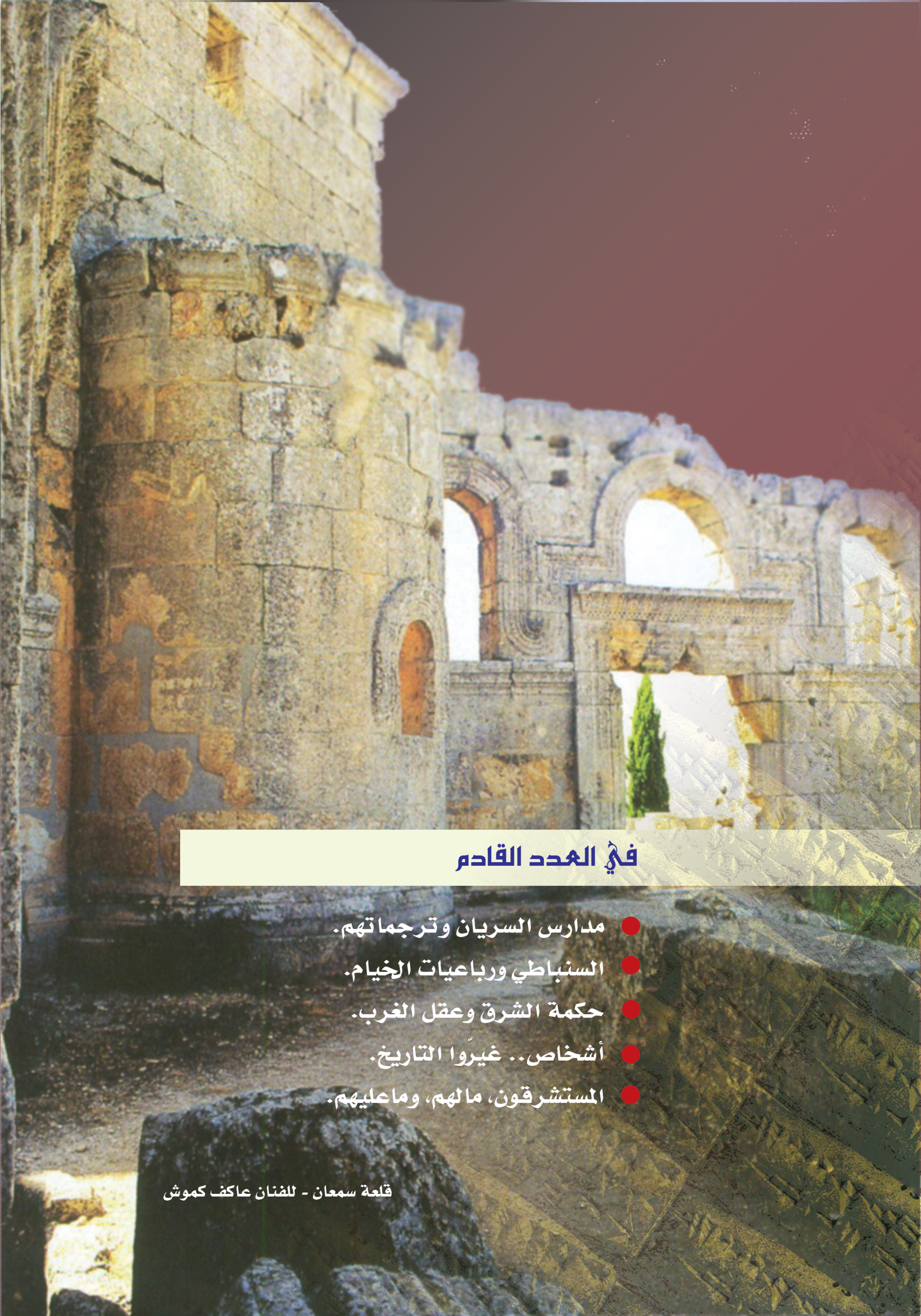


يمثل هذا العمل النحتي المنفذ من الطين المشوي، الصيغة التي انتهت إليها تجربة النحات أحمد الأحمد الدَّارس لفن النحت في كليّة الفنون الجميلة بجامعة دمشق وأكاديميّة (وارسو) في بولونيا، والمتنزهة بين التجريد والتشخيص. فأعماله عموماً، تلامس الواقع ملامسة خفيفة تارة، وتتكثف الإشارات والرموز فيها، لتبتعد قليلاً في الغموض تارةً أخرى ، لكنها مع ذلك، تُرسل للمتلقي، إيحاءات خاصة تثير بصره، وتهدهد خياله، دافعة إياه، للبحث عن معانٍ ودلالات، يعرفها ولا يعرفها، ذلك لأنها تسكن ذاكرته، ويحفظها قلبه.

فالنحات الأحمد كما يقول، يريد الإحساس بالشكل، وليس تقييده بوحدة مفردة. من أجل هذا، يلجأ إلى ربط وتجميع أشكال متعددة، بمختلف الأحجام والاتجاهات، في كل عضوي واحد، لدفع المتلقي للاقتراب من الصفة الروحيّة، وهذه خصيصة يحرص على أن توجدً في أعماله النصبيّة الكبيرة والحُجريّة الصغيرة، وأن يضمنها التأثير نفسه.

النحات الأحمد يعشق الصخور، ولا سيما تلك الصخور الحرَّة في الفراغ، بما تحمل من إيقاعات وتجاويف تأثرت بعوامل الطبيعة المختلفة. وهو شخصيّاً، يتأثر خياله بمشاهداته لهذه الصخور التي تُشكّل نقاط استلهام له، ونوعاً من الاستيعاب الغريزي العفوي، الأمر الذي يتطلب المساواة المطلقة، بين الفوضى اللاشعوريّة والنظم. في منحوتته المنشورة أعلاه، تتحقق، إلى حد بعيد، هذه الرؤية ، إذ تتعانق فيها، العفويّة البنائيّة والتنظيم. والإحساس والعقل. العمارة والنحت. الواقع والتجريد. فرغم الصيغة المختزلة التي عالج بها كتله النحتيّة الأربع، الراسخة والمستقرة، تذهب بالمتلقي مباشرة إلى موضوعها (بدويات).

د. محمود شاهين



قلعة سمعان - للفنان عاكف كموش